زهر الآداب

وثمر الألباب

لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني

عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه
وشرحه ووضع فهارسه
علي محمد البجاوي

الجزء الثاني

الطبعة الثانية
[فيها زيادة شرح وتعليق]

عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذ من ألفاظ بلغاء أهل العصر

تجرى فى المدح مجرى الأمثال لحسن استعاراتها ، وبراعة تشبيهاتها

فلان مسترضَع ثَدْىَ المجد ، مُفْتَرِشٌ حِجْرَ الفضل . له صَدْرٌ تَضيق به الدَّهْنَاء ، وتَفْزَع إليه الدَّهْمَاء[(1)] . له فى كل مكرمة غُرَّة الإصباح[(2)] ، وفى كل فضيلة قادِمَةُ الجَنَاح . له صورة تستنطق الأفْوَاهَ بالتسبيح ، ويتَرَقْرَقُ فيها ماء الكرم ، وتقرأ فيها صحيفةَ حُسْنِ البِشْر . تحيا القلوب بلقائه ، قبل أن يُميتَ الفقر بعطائه . له خُلُقٌ لو مُزِجَ به البحرُ لنفى مُلُوحَتَه ، وكفى كدورته . هو غذاء الحياة ، ونسيم العشق ، ومادَّة الفَضْل . آراؤه سكاكين فى مفاصل الخُطوب . له هِمَّةٌ تمزل السماكَ الأَعْزَل ، وتجرُّ ذَيْلَها على المجرة . هو راجحٌ فى موازين العَقْل ، سابقٌ فى ميادين الفَضْل ، يَفْتَرِع أبكارَ المكارم ، ويَرْفَع مَنارَ المحاسن . ينابيع الجود تتفجَّر من أنامله ، وربيعُ السماء[(3)] يَضْحَك من فَوَاضِله . هو بيتُ القصيدة ، وأول الجَرِيدة[(4)] ، وعَيْن الكَتِيبة ، وواسطة القِلَادة ، وإنسانُ الحدَقة ، ودُرَّة التاج ، ونقش الفصّ . وهو ملح الأرض ، ودِرْع المِلَّة ، ولسانُ الشريعة ، وحِصْنُ الأمة . هو غُرَّة الدهر والزمان ، وناظر الإيمان . له أخلاقٌ خُلِقْنَ من الفَضْل ، وشِيَمٌ تُشَام منها بَوَارِقُ المَجْد . أَرِجَ[(5)] الزمانُ بفَضْله ، وعَقِمَ النساء عن الإتيان[(6)] بمثله . الجميلُ لديه مُعْتَاد ، والفَضْلُ منه مبدوء ومُعَاد ، مالُهُ للعُفَاة[(7)] مُبَاح ، وفعالُه فى ظلمة الدهر مِصْبَاح ، كأن قلبَه عَيْن ، وكأنَّ جسمه سَمْع ، يرى بأوّل رأيه آخرَ الأمر . جوهرٌ من جواهر

(1) الدهناء : الفلاة . والدهماء : جماعة الناس . (2) فى ا : الأوضاح .

(3) فى ا : السماك . (4) الجريدة : المراد الصحيفة ، أو هى الخيل لا رجالة فيها .

(5) الأرج – محركة ، والأريج : توهج ريح الطيب . (6) فى ا : عن مثله .

(7) العفاة : جمع عاف ، وهو طالب الفضل أو الرزق .

الشرف لا من جواهر الصَّدَف ، وياقوتة من يَوَاقيت الأحرار لا يواقيت الأحجار . طلعتُه للبشاشة[1] عليها ديباجة خُسْرُوَانيَّة[2] ، وفيها للطلاقة روضة ربيعية . وَجْهٌ كأن بشرته نَشْرٌ[3] البِشْر ، ومواجهته أمانٌ من الدَّهر . يصل ببشره قبـــل أنْ يَصِلَ ببرِّه . قد لحظت من وجهه الأنوار ، ومن بَنانه النَّوار . أنا من كرم عشرته ، وطلاقة أسِرَّته ، في روضةٍ وغَدِيرٍ ، وجنَّةٍ وحرير ، وهو بَحْرٌ من العلم ممدود بسبعة أبحر ، ويومهُ من يوم الأدب كعمر سبعة أنسر . العلم حَشْوُ ثيابه ، والأدب مِلْءُ إهَابِه[4] . هو شَخْصُ الأدب ماثلا ، ولسانُ العلم قائلا ، شَجَرة فَضْلٍ عودُها أدب ، وأغصانها عِلْم ، وثمرتها عَقْل ، وعروقها شَرَف ، تسقيها سماء الحرِّيَّة ، وتغذِّيها أرضُ المروءة . هم ملح الأرض إذا فسدت ، وعمارةُ الأرض إذا خَرِبت ، ومعرض الأيام إذا احتشدَتْ ؛ وهم جمالُ الأيام ، وخواصُّ الأنام ، وفرسان الكلام ، وفلاسفة الإسلام . فلان غُصْنٌ طَبْعُه نَضير ، ليس له في مَجْدِه نظير ، قد جمع الحِفْظَ الغزير ، والفَهْمَ الصحيح ، والأدبَ القويَّ القويم ، وما يُؤْنِسُه من الوَحْشَةِ إلا الدفاتر ، ولا يَصْحَبه في الوَحْدَةِ إلّا المحابر . فلان يحلُّ دقائقَ الأشكال ، ويُزِيل معترضَ الإشكال ، له خُلُق كنسيم الأسْحَار ، على صفحات الأنوار ، كالماء صَفَاء ، والمسك ذكاء . أخلاق قد جمعت المروءةُ أطرافَها ، وحرست الحريةُ أكنافَها . أخلاق تجمع الأهواءَ المتفرِّقة على محبته ، وتؤلِّف الآراء المتشتِّتة على مودَّته . أخلاق أعذبُ من ماء الغَمام ، وأحلى من رِيق النَّحل ، وأطيب من زَمَان الوَرْد . أخلاق أحسن من الدرِّ والعِقْيان ، في نحور الحِسَان ، وأذكى من حركات الروح والرَّيحان . فلان يستحطُّ القمر[5] بظَرْفه ، ويستنزل النَّجم بلُطْفه[6] . هو حُلْوُ المَذَاق ، سهل المساغ ، أجل الناس في جِدّ ، وأحلاهم في هَزْل ، يتصرَّفُ مع القلوب ، كتصرُّفِ السحاب مع الجنوب ، ذو جِدٍّ كَعُلُوِّ الجَدّ ، وهَزْل كحديقة الوَرْدِ ، له عِشْرَة ماؤها يقطر ، وسَحْوُها من

---

(١) في ا : طلعة البشاشة عليها . (٢) الخسرواني : نوع من الثياب . (٣) في ا : بشر
(٤) الإهاب : الجلد . (٥) في ا : النجم . (٦) في ا : بلفظه .

النَّضَارة[١] يعطر . هو رَيْحانَة على القدَح ، وذريعة إلى الفرَح . عشرته ألطَفُ من نسيم الشمال ، على أديم الزّلال ، وألصَقُ بالقلب ، من علائق الحب . إذا أردت فهو سُبْحَة ناسك ، أو أحببت فهو تُفّاحة فاتك ، أو اقترحتَ[٢] فهو مدرعة[٣] راهب ، أو آثرت فهو نخبة[٤] شارب . أخباره زكيّة ، وآثاره ذَكيّة . أخباره تأتينا كما وَشَى بالمسك ريّاه ، ونمّ على الصباح مُحَيّاه ، قد انتشر من طيب أخباره ما زاده على المسك الفَتِيق[٥] ، وأوْفَى على الزّهْر الأنيق . مناقب تَشْدَخ[٦] في جبينها غُرّة الصباح ، وتتهادى أنباءها وفودُ الرياح . فلان أخبارُه آثاره ، وعيبه قراره ، قد حصل له من حَميد الذكر ، وجميل البِشْر ، ما لا تزال الرواةُ تدرسه ، والتواريخ تحرسه . سألت عن أخباره فكأنى حرّكت المسك فتيقا ، أو صبّحت الروض أنيقا . أخباره متضوّعة كتضوّع المِسْك الأذفر[٧] ، ومُشْرِقة إشراقَ الفجر الأنور . أحبَبْتُه[٨] بالخبر قبل الأثر ، وبالوصف قبل الكَشْف . هو ممن يثقل ميزانُ ودّه ، ويُحْصِف ميثاق عَهْده . هو كريم العهد ، صحيح العَقد ، سليم الصَّدْر في الودّ ، حميد الورد فيه والصدَر . هو لإخوانه عُدّة تشدّهم وتقوّيهم ، ونورٌ يسعى بين أيديهم . هو ثابتُ ركن الإخاء ، صافى مَشْرَب الوَفاء ، حافظٌ على الغيب ما يحفظه على اللقاء . هو ممن لا تدومُ المُداهنة فى عَرَصاتِ قلبه ، ولا تحوم المُوَاربة على جنات صدره . هو يَسْرى إلى كرم العهد ، فى ضياء من الرّشد . عهده نَقْش فى صَخْر ، ووده نَسَبٌ ملآن من نخر . يَقْبَلُ من إخوانه العَفْوَ ، كما يوليهم من إحسانه الصَّفْو . فى وُدّه غِنى للطالب ، وكفاية للرّاغب ، ومَرَاد للصَّحْب ، وَزَاد للركب ، هو فى حَبْل الوفاء حاطِب ، وعلى فرض الإخاء مواظب ، النُّجْح معقودٌ فى نواصى آرائه ، واليُمْنُ معتاد فى مذاهب أنحائه . له الرّأيُ الثاقب الذى تَخفَى مَكايده ، وتَظْهر عوائده ، والتدبيرُ النافذ الذى

---

(١) النضارة : النعمة . (٢) ق : اقترحت . (٣) و ط : مدركة

(٤) ق ط : نجيه . (٥) الفتيق . الفتيق . (٦) الشدخ : السالسر .

(٧) مسك أذفر ، وذفر : جيد القابة . (٨) ق ا : أحببتها .

تَنْجَحُ مَبَادِيه ، وتبهج تَوَاليه . رَأْيٌ كالسَّهم أصاب غِرَّةَ الهَدَفِ ، ودهاء كالبحر فى بُعْد الغَوْر ، وقُرْب المغترف ، لا يضعُ رَأْيه إلا مواضع الأصالة ، ولا يصرف تدبيره إلّا على مواقع السداد والإصابة ، يعرفُ من مبادئ الأقوالِ خواتِمَ الأفعال ، ومن صدور الأمور أعجاز ما فى الصدور ، رُؤْيته رَأْى صَلِيب[1] ، وبديهته قدر مصيب ، يسافرُ رَأْيه وهو دَانٍ لم يبرح ، ويسير تدبيره ، وهو ثاوٍ لم ينزح . له رأىٌ لا يخطىء شاكِلَةَ الصَّوَابِ ، [ولا يخشى بادرة العِثار . فلان يختمر الرأىَ ويُجيله ، ويجيد الفكر ويجيله ، حتى يحصل على لب الصواب][2] ، ومحض الرأى . إذا أذكى سراج الفكر أضاء ظلامَ الأمر . هو قطب صَوابٍ تَدُورُ به الأمور ، ومستنبط صلاح يردُّ الخَطْبَ مُسَلَّما ، والرمح مقلما ، [آراؤه سكاكين فى مفاصل الخطوب][2] ، كأنه ينظرُ إلى الغيب من وراء سِتْرٍ رقيق ، ويطالعه بِعَيْنِ السَّداد والتوفيق . يستنبطُ حقائقَ القلوب ؛ ويستخرج ودائع الغيوب ، قد سرينا من مشورته فى ضياء ساطع ، ومن رأيه الصائب فى حُكْم قاطع .

نبذ من مفردات الأبيات فى فرائد المدح

أبو نواس :

وكَلْتَ بالدهر عيناً غَيْرَ نائمةٍ   من جُودِ كفيك[3] تأسو كلما جَرَحا

الطائى :

فلو صوَّرتَ نفسَكَ لم تَزِدْها   على ما فيك من كَرَمِ الطباعِ

البحترى :

ولو لم يكن فى كفِّه غيرُ نفسهِ   لجاد بها ، فلْيتّقِ اللهَ سائلُه

وله :

ولم أرَ أمثالَ الرجالِ تفاوتوا   لدى المجد[4] حتى عُدَّ ألفٌ بواحدِ

---

(١) الصايب : الشديد . (٢) من ا . (٣) فى ا : كفك . (٤) فى ا : إلى المجد .

كشاجم :

عرف الفاضلون فضلك بالعلـ ... ـم وقال الجُهّال بالتقليدِ

المتنبي :

شخص الأنام إلى كمالك فاستعِذْ ... من شرِّ أعينهم بعَيْب واحدِ

وله[1] :

ولمّا رأيت الناسَ دون محلّهِ ... تيقّنت أنّ الدهرَ للناسِ ناقد

وله أيضاً[2] :

إن خوطبوا أو لُقُوا أو كوتِبوا وُجِدوا ... فى اللفظ والخطِّ والهيجاء فُرسانا

وله أيضاً[3] :

ذُكِرَ الأنامُ لنا فكان قصيدةً ... كنتَ البديعَ الفرْدَ فى أبياتِها

أبو العباس الناشى :

خلِقْت كما أرادَتْك المعالى ... فأنْتَ لِمَنْ رجاك كما يُريد

المأمونى :

وخلائق كالخمر دُونَ فعاله ... حَبَبٌ لهن وما لهنّ خُمارُ[4]

[مع بعض الخلفاء والملوك والحكماء والأمراء]

الموصلى والهادى — وقال إبراهيم الموصلى لموسَى الهادى، وهو نديمُه وقد غنّاه صوتا فأعجبه: إنَّ مَنْ كان محلُّه من أمير المؤمنين محَلّى فى الانبساط وتَقَدُّم النُّدام[5] جرّأه البَسْطُ على الطلب، وبعثته المنادمةُ على الرجاء، وقد نصَب لى أميرُ المؤمنين بقُربى منه مَشَارِعَ الرغبة إليه، وحثّنى محلّى عنده على الكَرُوع فى المَنْهَل بين يديه. فقال: سَلْ

(١) ديوانه : ١ — ٢٧٢ . (٢) ديوانه ٤ — ٢٢٧ وروايته :
إن كوتبوا أو لقوا أو حوربوا . . . (٣) ديوانه : ١ — ٢٣٥ .
(٤) الخمار بالضم : ألم الخمر، وصداعها وأذاها .
(٥) فى ط : المنادمة، والندام : الندماء .

شِفَاهاً ، فإنى جاعلٌ رِفْدِى عن إجابتك إليه حاضراً . فسأله ما قيمته خمسون ألف درهم؟ فأمر له بمائة ألف درهم .

الإسكندر ودارا

ولما ظَفِر الإسكندرُ بدارا بن دارا قال له: بِمَ اجترأ عليك[1] صاحبُ شُرطتك؟ قال : بتَرْكِى ترهيبه وَقْتَ إساءته وتفريطه ، وإعطائه[2] وَقْتَ الإحسانِ اليسيرِ من فعله نهايةَ رغبته . فقـــال الإسكندر : نِعْمَ العونُ على استصلاح القلوب الوغِرَةِ الترغيبُ بالأموال ، وأصلح منه عاجلا الترهيبُ وقت الحاجة إليه .

بعض ملوك الفرس مع حكيم

وقال الحسنُ بن سهل : خرج بعضُ ملوكِ الفرس متنزِّهاً ، فلقى بعضَ الحــكماء ، فسأله عن أحزم الملوك ، فقال: من ملك جِدُّه هَزْلَه ، وقهر لبُّه هَوَاه، وأعرب لسانُه عن ضميره ، ولم يَخْدَعْه رِضاه عن سخطه ، ولا غضبُه عن صدقه . فقال الملك : لا ، بل أحزمُ الملوكِ من إذا جاع أكل ، وإذا عطش شرب ، وإذا تعب استراح . فقال: الحــكيم : أيها الملك ، قد أجَدْتَ الفِطْنَةَ . هذا العلم مستفاد أم غريزى؟ قال : كان[3] عندنا معلِّم من حكماء الهند ، وكان هذا نقشَ خاتمه . قال : فهل علَّمك غير هذا؟ قال: ومِنْ أين يوجَدُ مثل هذا عند رجل واحدٍ ؟ ثم قال له الملكُ : علِّمنى من حكمتك أيُّها الحــكيم . قال : نعم ، احفَظْ عنى ثلاثَ كلمات . قال : ما هنَّ ؟ قال : صَقْلُكَ السيفَ ليس له جوهرٌ من سِنْخِه خَطَأٌ[4] ، وسيُّك[5] الحَبَّ فى الأرضِ السَّبِخَةِ تَرجُو نباته جَهْلٌ ، وحَمْلك المسنَّ على الرياضة عناء . قال أبو تمّام الطائى[6] :

والسيفُ ما لم يلفَ فيهِ صقيلٌ   مِنْ سِنْخه لم ينتفِعْ بصِقالِ

بعض الحكماء

وقيل لبعض الحــكماء : ما الدليل الناصح ؟ قال : غريزة الطبع . قيل : ما القائدُ الشفِيق ؟ قال : حسن المنطق . قيل : فما العناء المُعَنِّى؟ قال : تطبيعك ما لا طبعَ له .

أنو شروان

وكان أنو شروان يقول : النـــاس ثلاث طبقات ، تسوسهم ثلاث سياسات :

---

(١) ف ١ : على . (٢) ف ١ : وإعطائى . (٣) ف ١ : كان لى .
(٤) النسخ : الأصل . (٥) ف ١ : وبثك . (٦) ديوانه : ٢٦٥ .

[طبقة من خاصة الأحرار تسوسُهم بالعطف واللين والإحسان ، و][1] طبقة من خاصة الأشرار تسوسُهم بالغِلْظة والعُنف والشدّة ، وطبقة من العامة تسوسهم باللين والشدة ، لئلا تُحْرِجهم الشدّة ، ولا يُبْطِرَهم اللين . وقال واصل بن عطاء : ألا قاتلَ الله هذه السفلة توادُّ مَنْ حادَّ الله ونبيّه ، وتحادُّ من وادَّ الله ونبيَّه ، وتذمّ مَن مدحه الله ، وتمدح من ذمّه الله ؛ على أنه بهم علم الفضل لأهل الطبقة العالية ، وبهم أُعطيت الأوساط حظًّا من النُّبل . وقيل لبعض الملوك ، [وقد بلغ في القَدْر ما لم يبلغه أحد من ملوك زمانه][1] : ما الذي بلغ بكَ هذه المنزلة ؟ قال : عفوي عند قدرتي ، ولِيني عند شِدّتي ، وبَذْلي الإنصاف ولو من نفسي ، وإبقائي في الحب والبغض مكاناً لموضع الاستبدال .

الإسكندر وأحد الحكماء

وقال الإسكندر لأحد الحكماء ، وأراد سفراً : أرْشِدْني لأحزم أمري . قال : لا تملأنّ قلبك من محبّةِ الشيء ، ولا يستولينّ عليك بغضه ، واجعلهما قَصْداً ؛ فإنّ القلبَ كاسْمِه ينزع[2] ويرجع ، واجعل وزيرَك التثبت ، وسَمِيرَك التيقّظ ، ولا تُقْدِم إلّا بعد المشورة ؛ فإنها نِعْمَ الدليل ، فإذا فعلتَ ذلك ملكت قلوب رعيّتك.

وقيل لبعض الحكماء : ما الحزم ؟ قال : سوء الظن . قيل : فما الصواب ؟ قال : المشورة . قيل : فما الرأيُ الذي يجمعُ القلوب على المودّة[3] ؟ قال : كفٌّ بذول ، وبشر جميل . قيل : فما الاحتياط ؟ قال : الاقتصاد في الحبّ والبغض .

بزرجمهر

وسُئل بزرجَمِهْر : ما المروءةُ ؟ قال : تَرْكُ ما لا يعني . قيل : فما الحَزْم ؟ قال : انتهازُ الفُرْصَة . قيل : فما الحِلمُ ؟ قال : العفوُ عند المقدرة . قيل : فما الشدة ؟ قال : ملك الغضب . قيل : فما الخُرق ؟ حبٌّ مُغْرِق ، وبغض مُفْرِط .

معاوية وزياد

قال معاوية رضي الله عنه لزياد حين وَلّاه العراق : يازياد ؛ ليكن حبُّك وبغضك

---

(١) من ا . (٢) فا : ينزع ، وينزع : يكف .

(٣) فط : فما الرأي الذي يجمع القلوب ؟ قال : المودة . قيل : فما المودة ؟

قصداً ؛ فإن العَثْرة فيهما كامنة ، واجعل للنزوع والرجوع بقيّةً من قلبك ، واحذَرْ صَوْلَةَ الانهماك، فإنها تؤدى إلى الهلاك .

ومن كلام بلغاء أهل العصر فى ذكر السلطان

للصاحب أبو القاسم الصاحب : مَرْضاة السلطان لا تنال بشىء من الأثمان ، ولا بِبَذْلِ الروح والجَنَان. تهيُّب السلطان فرضٌ وَكِيد، وحَتْمٌ على مَنْ أَلْقَى السمعَ وهو شهيد.

للصابى أبو إسحاق الصابى : الملكُ أحقُّ باصطفاء رجاله منه باصطفاء أمواله ؛ لأنه مع اتساع الأمر وجَلالَةِ القَدْرِ لا يكتفِى بالوحدة ، ولا يستغنى عن الكَثْرَة ؛ ومثلُه فى ذلك مثلُ المسافرِ فى الطريق البعيد الذى يجب أن تكونَ عنايتُه بفرسِه الَجنُوبِ كعنايته بفرسِه المركوب .

فصل للصابى : الملك بمن غلط من أتباعِه فاتّعظ أشدّ انتفاعا منـــه بمن لم يغلط ولم يتعظ ؛ فالأول كالقارح[1] الذى أدّبَتْه الغِرّة[2] ، وأصلحَتْه الندَامَة[3] ، والثانى كالجذع المُتَهَوِّك[4] الذى هو راكب للغِرّة ، وراكن إلى السلامة .

وقيل : إن العظم إذا جبر من كَسْره عاد صاحبُه أشدّ بطشاً وأقوى أيداً .

للخوارزمى أبو بكر الخوارزمى : لا صغيرَ مع الولاية والعِمالة، كما لا كبيرَ مع العُطلة والبَطالة؛ وإنما الولايةُ أنثى تصغر وتكبر بواليها ، ومطيّة تحسن وتقبح بمُمتَطيها، والصَّدْر لمن يليه ؛ والدَّست لمن جلس فيه ، والأعمال بالعمّال ، كما أنّ النساء بالرجال .

فصل له : إنّ ولايةَ المرء ثوبُه ؛ فإن قصُر عرِى منه ، وإنْ طَالَ عثَرَ فيه . قليلُ السلطان كثير ، ومُدَارَاتُه حَزْمٌ وتدبير ، ومكاشفته غُرور وتَغْرير .

للبستى أبو الفتح البستى ـ أجهلُ النـــاسِ مَنْ كان على السلطان مُدِلّا ، وللإخوان مُذِلّا .

---

(١) القارح: الذى بلغ تمام القوة . والجذع : الشاب المحدث . وفى ا : لأن القارح .

(٢) فى ا : العِرة . (٣) فى ط : الندامة . (٤) فى ط : المتهزم .

أبو الفضل ابن العميد ـ الإبقاء على حشم السلطان وعماله عدلُ الإبقاء على ماله؛ لابن العميد والإشفاقُ [على حاشيته وحشمه مثلُ الإشفاق][1] على ديناره ودرهمه .

وله من رسالة طويلة ـ جواب لأبي شجاع عضد الدولة عن كتاب اقتضاه فيه صَدْرَ كتاب ألفه فيه أبو الحسن الصوفي في نوع من علوم الهيئة : أنا أقدم الإجابة بحمد الله تعالى جدُّه ، على ما وهب لنا معاشرَ عبيدِه وخدمه خاصة ، بل لرعاياه عامّة ، بل لأهل الأرض كافة ، من عظيم النعمة بمكانه ، وجسيم الموهبة بإنفاق أعمارنا في زمانه ، حتى شاركناه في أسباب السعادة التي لم تزلْ مذخورة عليه ، حتى صارت إليه ، وساهمناه في موادّ الفضيلة التي لم تزلْ محفوظة له ، حتى اتّصلت به ؛ فإنّ المرء أشبه شيء بزمانه ، وصفات كل زمانٍ منتسخة من سجايا سُلطانه ؛ فإن فَضَلَ شاعَ الفضلُ في الزمان وأهله ، وتحلَّى الدّهرُ بأفضل حِليته ، وتجلّى للعيونِ والقلوبِ بأحسن زينته ، وكسا بنيه والناشئين فيه بشرفِ جَوْهَرِه ، وأورثهم نَيْلَ فضله ، وعزَّ العلم وأهله ، وعرف لمقتبسه قَدْرَه ، وتوجّهت الأذهانُ نحوه ، وتعلّقت الخواطرُ به ، وصرفت الفِكر فيه ، ونشدت ضَوَالّه ، ونظم أشتاتَه ، وجمعت أفرَاده ، ورَقّت نفوسُ الساعين في استفادته بحُسْنِ عائدته ، ففرصت عليـــه ، وصرفَتْ نظرَها إليه ، وأيقنت في بضاعتها بالنَّفاق ، وفي تجارتها بالإرفاق[2] ؛ فصار ذلك إلى نماء العلوم وزيادتها داعية ، ولتكثير قليلها وإيضاح مجهولها سببا وعلّة ، وإلى انخراط جواهرها المتفرقة في سلوك التصنيف سبيلا ، وإلى تقييد شواردِها بعُقُل التأليف طريقا . وإن رَذُلَ السلطان اتّبعت الرذيلةُ اتباعاً ، وذهبتِ الفضائلُ ضياعاً ، وبطلت الأقدارُ والقيم ، وسلبت الأخطارُ والهمم ، وزال العلم والتعلم ، ودَرَس الفَهْمُ والتفهّم ، وضربَ الجهلُ بجرانِه ، ووطيء بمنسمه ، واستعلَى الخمولُ على النباهة ، واستولى الباطلُ على الحقّ ، وصار الأدبُ وبالاً على صاحبه ، والعلمُ نَكَالاً على حامله . وبحسب عظيم المحنة بمن هذه صِفَتُه ، والبلوى مَعَ مَنْ هـــذه صورتُه ، تَعْظُمُ النعمةُ بمُلْكِ سلطانٍ عالم ، كالأمير

---

(١) من ا .   (٢) بالنفع .

الجليل عضد الدولة ، أطال الله تعالى بقاءه ، وأدام قدرته ، الذى أحله اللهُ عزّ وجل من الفضائل بملتقى طرفها ومجتمع فرقها ، فهى نوادّ ممن لاقت حتى تصيرَ إليه ، وشواردُ نوازعُ حيث حلّت حتى تقعَ عليه ، تتلفت تلفّتَ الوامِق ، وتتشوّفُ إليه تشوفَ الصبّ العاشقِ ، قد ملكها أنّى توجهت وحشة المضاع وخيرة[1] المرتاع .

فإن تَمْشِ قوماً غيره أو تَزُرْهُم ... فكالوحش يدنيها من الآنس المَحْلُ

حتى إذا قابلته أسرعت إليـــه إسراعَ السيل ينصبُّ فى الحدور ، والطير ينقضّ إلى الوكور .

المتنبى

وقال أبو الطيب المتنبى[2] :

أحَقُّ عافٍ بدَمْعِك الهِمَمُ ... أحدَثُ شىء عهدًا بهـا القِدَمُ

وإنما الناسُ بالملوكِ وما ... تُفلِح عُرْبٌ مُلوكُها عَجَمُ

لا أدبٌ عندهُمُ ولا حَسَبٌ ... ولا عُهُودٌ لهم ولا ذِمَمُ

بكلّ أرضٍ وطِئتَها أُمَمٌ ... تُرْعَى بعَبْدٍ كأنّها غَنَمُ

يستَخْشِنُ الخزَّ حين يلمسه[3] ... وكان يُبْرَى بظُفْرِه القلمُ

الزبير بن بكار

وقال الزبير بن بكار : قدِم ابنُ ميّادة ، واسمه الرماح بن أبرد[4] ، زائرًا لعبد الواحد ابن سليمان ، وهو أميرُ المدينة ، فكان عنده ليلةً فى سُمّاره ؛ فقال عبدُ الواحد لأصحابه : إنى لأهم أن أتزوج فابغونى أيّمًا . قال ابن ميادة : أنا — أصلحك الله — أدلّك ، قال : على من يا أبا بشر[5] تميل ؟ قال : قدمتُ عليك أيها الأمير ، فلما قدمت ألفيتُ المسجد وإذا أشبه شىء به وبمن فيه الجنة ومَنْ فيها ، فبينا أنا أمشى إذ قادتنى رائحةُ رجلٍ عِطر حتى وقفت عليه ، فلمـا وقع بصرى عليه استَلْهَى[6] حُسْنُه ناظرى ، فما

---

(١) فى ط : وحشية المضاع وجيرة . (٢) ديوانه : ٤ — ٥٨ .

(٣) فى الديوان : يلبسه . (٤) الأغانى : ٢ — ٣٢٦ ، وارجع لك لنسبه وترجمه فى الأغانى ٢ — ١٦٢ . (٥) فى الأغانى : على من يا أبا الشرحبيل ؟

(٦) فى الأغانى : استلهانى حسنه .

أقلتْ ناظري حتى تكلّم ، فما زال يتكلّم كأنما يَنثُر دُرًّا ، ويتلو زَبوراً ، ويدرس إنجيلا ، ويقرأ فُرْقانًا حتى سكت ، فلولا معرفتي بالأمير ما شككت أنه هو ، ثم خرج من مصلّاه إلى داره ، فسألت عنه فأُخبِرْتُ أنه من الحسن بمكانه ، وأنه للخليفتين[1] ، وأنه قد نالَتْه ولادَةٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ساطعٌ من غُرَّتِه ؛ فإن اجتمعتَ أنتَ وهو على ولدٍ ساد العبادَ ، وجابَ ذِكْرُه البلاد .

فلما قضى ابنُ ميَّادة كلامه قال عبد الواحد ومَنْ حضر : ذلك محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان رضي الله تعالى عنه لفاطمة بنتِ الحسين بن على رضي الله عنهم .

وقال ابن ميادة :

لهم سيرةٌ[2] لم يُعْطِها اللهُ غيرَهم وكلُّ قضاء اللهِ فهو مُقَسَّمُ[3]

هـذا في تقابل نسبه ، وكمال منصبه ، كقول عُوَيف القوافي في طلحة بن عبد الله الزهري :

يُعَمُّ رِجالٌ حين يُدْعَوْن للندى ويُدْعَى ابنُ عوف[4] للندى فيجيب
وذاك امرؤ من أيِّ عِطْفَيه يلتفت إلى المجد يَحْوِي المجدَ وهو قريب

وعبد الواحد بن سليمان هذا هو الذي يقول فيه القطامى :

أقولُ للحَرْفِ لما أنْ شَكَتْ أصلا طولَ السِّفار وأفْنَى نيَّها الرَّحل
إن تَرجِعى من أبي عثمان منجِحَةً فقد يَهُونُ على المستنجح العمل
أهل المدينة لايحزنك شأنهمُ إذا تَخطأ عبد الواحد الأجَلُ

ومن قول القطامى : « إن ترجعى من أبي عثمان منجحة » أخذ الآخر قوله :

إذا ما تمنّى[5] المرء في إثر حاجةٍ فأنجح لم يثقل عليـه عناؤهُ

(١) في ا : أنه من الحيين للخليفتين . (٢) في الأغاني : لهم نبوة .

(٣) في ط : فضل فيهم ، وفي ا : وكل قضاء الله فضل مقسم .

(٤) في ط : ابن عون . (٥) في ا : تقى .

عبد الواحد ابن سليمان

وهو عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك بن مروان . قال الكلبي : هو عبد الواحد ابن الحرث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، والأول قول ابن السكيت .

من شعر القطامي

والقصيدة التي منها هذه الأبيات من أجْوَدِ قوله ، وفيها يقول مما يتمثل به[1] :

والعيشُ لا عَيْشَ إلا ما تقرُّ بهِ   عينٌ ولا حالَ إلا سوف يَنْتَقِلُ
والناسُ من يَلْقَ خيراً قائلون لهُ   ما يَشْتَهِي ولأُمِّ المخطىء الهَبَلُ[2]
قد يُدْرِكُ المتأنِّي بعضَ حاجتهِ   وقد يكونُ مع المستعجِل الزَّلَلُ

قوله : « والناس مَنْ يَلْقَ خيراً قائلون له » مأخوذٌ من قول المرقش :

ومن يَلْقَ خيراً يحمد الناسُ أمرَهُ   ومن يغو لايعدَمْ على الغيِّ لائما

وقال عمرو بن سعيد للأخطل : أيسرك أنَّ لك بشعرك شعراً ؟ قال : لا ، مايسرُّني أن لي بقولي مقولاً من مَقَاوِيل العرب ، غير أنَّ رجلا من قومي قال أبياتاً حسَدْتُه عليها ، وايم اللهِ ، إنه لمُغْدِف القناع ، ضيِّق الذراع ، قليل السماع ؛ قال: ومَنْ هو؟ قال : القُطامي . قال : وماهذه الأبيات ؟ فأنشد له يَصِفُ إبلا من هذه القصيدة :

يمشين رَهْوًا فلا الأعجازُ خاذلة   ولا الصدورُ على الأعجاز تتَّكِلُ
فهن معترِضات والحَصا رمِضٌ   والرِّيحُ ساكنةٌ والظلُّ معتدلُ
يتبعن سامِيةَ العَيْنَيْنِ تحسبها   مجنونةً أو تَرَى مالا تَرَى الإبلُ

[نغم الألفاظ ونغم الألحان]

قال أبو العتاهية لمخارق : أنت بنغم ألفاظك دون نَغَم ألحانك ، تُطْرِبُ إذا تكلَّمت ، فكيف إذا ترنَّمت ! وقال له يوماً : يا حكيم هذه الأقاليم ؛ اصببْ في هذه الآذان من جيِّدِ تلك الألحان ، فأُقْسِمُ لو كانَ الكلامُ طعاما، لكان غناؤك له إداما.

قال إسحاقُ بن إبراهيم الموصلي : دخلتُ على المعتصم يوماً وقد خلَا ، وعنده

(١) الشعراء : ٢٠٧ .   (٢) الهبل : الثكل .

جاريةٌ تُغنّيه ، وكان معجَباً بها ، فلما جلست قال لى : يا أبا إسحاق ، كيف تَرَاها ؟ فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، أراها تقهره بحِذْق ، وتختله برفق ، ولا تخرج من حسَن إلّا إلى أحسن منه ، وفى حلقها شذورٌ نَغَم أحسنُ من دوام النعم . قال : يا إسحاق ؛ هن غاياتُ الأمل ، ومُنْسِيات الأجل ، والسقم الداخل ، والشغْل الشاغل ، وإن صِفَتَك هذه لو سمعها مَنْ لم يَرَها لفقد لُبَّه ، وقَضَى نَحْبَه .

وسُئِل إسحاق عن المُجِيد من المغنين ، فقال : مَنْ لَطُفَ فى اختلاسه ، وتمكّن من أنفاسِه ، وتفرّع[1] فى أجناسه ، يكادُ يعرِفُ ضمائرَ مُجالِسيهِ ، وشهواتِ مُعَاشِريه ، يَقْرَعُ مسمع كلٍّ واحد منهم بالنحو الذى يُوَافِقُ هواه ، ويُطَابِق معناه .

إسحاق الموصلى

وكان إسحاقُ بن إبراهيم قد جمع إلى حِذْقهِ بصَناعَتِه حُسْنَ التصرف فى العلوم ، وجودةَ الصنعة للشعر . وحدَّث عن نفسه فقال : كنت أيام الرشيد أبكّر إلى هشيم ووكيع فأسمعُ منهما ، ثم أنصرف إلى عاتكة بنت شُهَيد[2] فتُطارِحُنى صوتين ، ثم أسير إلى زلزل الضارب فآخذُ منه طريقين ، ثم أسير إلى منزلى فأبعث إلى أبى عبيدة والأصمعى فلا يزالانِ عندى إلى الظهر ، ثم أذهبُ إلى الخليفة . ونزل أبوه بالموصل وليس من أهلها فنُسِب إليها . وهو مولى خزيمة بن خازم[3] التميمى . وفى ذلك يقول إسحاق[4] :

إذا مضرُ الحمراء كانت أرومتى[5] ... وقام بنَصْرِى خَازِمٌ وابنُ[6] خازمِ
عطَسْتُ بأنفى شامخاً وتناوَلَتْ ... بنَانِى الثريّا قاعداً غيرَ قائم

وفيه يقول محمد بن عامر الجرجانى يرثيه :

على الجدَثِ الشرقىِّ عُوجاً فسلّما ... ببغدادَ لما صدّ عنه عوائده

(١) فى ا : وتفرغ . (٢) هكذا فى ا ، وفى ط : بنت شهدة .
(٣) فى ط : خزيمة بن أبى حازم . (٤) ذيل اللآلى ٣٤ ، والأمالى — ذيل : ٧٠ .
(٥) فى الأمالى رواية صدر البيت : إذا كانت الأحرار أصلى ومنصبى .
(٦) فى ط : حازم .

أإسحاق لا تبعد وإن كان قد رَمَى … بكَ الموتُ مرمًى ليس يصدر وارِدُه
متى تأتهِ يوماً تحاولُ مُنفِساً … من الدين والدنيا فإنك وَاجِدُه
إذا هزل اخضرَّتْ فروعُ حديثهِ … ورقّت حواشِيه وطابَتْ مشاهِدُه
وإنْ جَدَّ كان القولُ جدًّا وأقسمت … مخارجه ألَّا تلينَ شدائِدُه

ومن جَيِّد شعر إسحاق قصيدته فى إسحاق بن إبراهيم المُصعَبِى بعد إيقاعه بالخرَّمية(١) :

تَقَضَّتْ لباناتٌ وجَدَّ رَحيلُ … ولم يُشْفَ مِنْ أهْلِ الصفاء غليلُ
ومُدَّت أكُفٌّ للوداع فصافحَتْ … وفاضت عيونٌ للفراقِ تَسِيلُ
ولابدَّ للألَّاف من فَيْضِ عَبْرَةٍ … إذا ما خليلٌ بَانَ عنه خليلُ
فكم من دمٍ قد طُلَّ يوم تحمّلت … أوانِسُ لا يُودَى لهن قَتِيلُ
غداة جملتُ الصبرَ شيئاً نسيتهُ … وأعولتُ لو أجْدَى علىَّ عَوِيلُ
ولم أنسَ منها نظرةً هاجَ لى بهـا … هوًى منه بادٍ ظاهرٌ ودَخِيلُ
كما نظرَتْ حوراه فى ظلِّ سدرةٍ … دعاها إلى ظلِّ الكِناس مَقِيلُ
فلا وَصْلَ إلّا أن تلافاه أيْنُقٌ … عِتاق نَمَاها شَدْقَمٌ وجَدِيلُ(٢)
إذا قلبت أجفانَها بتنوفةٍ … طوى البعدَ منها هزةٌ وذَمِيلُ
تفرَّد إسحاقٌ بنصح أميرِهِ … فليس له عند الإمامِ عَدِيلُ
يفرج عنه الشكَّ صِدْقُ عزيمةٍ … وَلُبٌّ به يَعْلُو الرجالَ أصِيلُ
أغرّ نجيبُ الوالدين كأنّهُ … حسامٌ جلَتْ عنه العيون صقيلُ
بنى مصعب للمَجْدِ فيكم إذا بدتْ … وجوهكمُ للناظرين دَلِيلُ
كرُمتم فما فيكم جَبَانٌ لدَى الوغى … ولا منكمُ عنـد العطاء بَخِيلُ
غَلبتم على حُسْنِ الثناء فراقكم … ثناء بأفواهِ الرجالِ جَمِيلُ

---

(١) المختار من شعر بشار ـ ٢٤٩ .
(٢) الشدقم : فحل النعمان بن المنذر ، والجديل : فحل له أيضا .

إذا استكثر الأعداء ماقلتُ فيكمُ ... فإنّ الذى يستكثرون قليلُ

وهذا نمط الحذاق الفحول . وقال :

ومدرَجةٍ للريح غبْراء لم يكن ... ليَجْشَمَها زُمّيلةٌ غير صارِم[1]

يَضِل بها السارِى وإنْ كان هادياً ... وتقطَعُ أنفاسَ الرياحِ النّواسِم

تعسّفت أرى جَوْزَها بشِملّةٍ ... بعيدة ما بين المرى والمَحازِم[2]

كأنّ شرار المَرْوِ[3] من نَبْذِها به ... نجومٌ هوَتْ إحدى الليالى العواتم

إذا ضمّها والسَّفْر ليلٌ فنيبتْ ... دياجيره عنهم رءوس المعالِم

تنادَوْا فصاروا تحت أكنافِ رَحْلِها ... ليهديَهم قدْحُ الحَصَى بالمَناسِم

وقال :

ولما رأيْنَ البَيْنَ قد جدّ جِدّهُ ... ولم يبقَ إلّا أنْ تَبِين الركائبُ

دنَوْنَا فسلّمنا سلاماً مُخالِسًا ... فردّتْ علينا أعينٌ وحواجبُ

تَصُدُّ بلا بُغْضٍ ونخْلس لمحةً ... إذا غفلت عنا العيونُ الرواقبُ

نُذَاد إذا حُمنا لنشفَى غلّةً ... كما ذِيدَ عن وِرْدٍ[4] الحياض الغَرائبُ

وما أحسن ما قال أبو العباس الناشئ فى هذا المعنى :

ولما رأيْنَ البين زُمّت رِكابهُ ... وأيقنّ منا بانقطاعِ المطالبِ

طلبن على الركب المجدين عِلّةً ... فعُجْنَ علينا من صدور الركائب

فلما تلاقَيْنا كتبْنَ بأعْيُنٍ ... لنا كُتُباً أعْجَمْنَها بالحواجب

فلما قرأناهُنّ سِرًّا طويْنَها ... حِذار الأعادى بازْوِرار المناكبِ

وقال إسحاق :

ألا مَنْ لقلبٍ لايزالُ رَمِيّةً ... لِمَنْحَةِ طَرْفٍ أو لِكسرَةِ حاجِبِ

وللخُمُرِ اللاتى تساقط لونُها ... فتور الخطا عن وَارِدَات الذوائبِ

(١) المدرج : مسلك ، والزميلة : الجبان الضعيف . (٢) ليس فى ا ، وفى ط : جورها ، والجوز : وسط الشىء ومعظمه . (٣) المرو : حجارة بيض براقة تورى النار ، أو أصلب الحجارة .
(٤) فى ا : برد .

[استطراد فى ذكر الذوائب]

وعلى ذكر الذوائب قال ابن المعتز[١] :

سقَتْنِىَ فى ليلٍ شبيهٍ بشعرِها ... شَبِيهة خدَّيْهَا بغيرِ رقيبِ
فأمسيت فى ليلين بالشَّعرِ والدُّجَا ... وخَمْرَيْنِ من راحٍ وخَدِّ حبيب[٢]

وقال بكر بن النطاح[٣] :

بيضاء تسحب من قيامٍ شعرَها ... وتغيبُ فيه وهو جَثْلٌ أسْحَمُ[٤]
فكأنها فيه نهارٌ مبصرٌ ... وكأنه ليلٌ عليها مظلِمُ

وقال المتنبى[٥] :

نَشَرَتْ[٦] ثلاثَ ذوائب من شَعْرِها ... فى ليلةٍ فأَرَتْ ليالىَ أربعا
واستقبلَتْ قمرَ السماء بوجهِها ... فأَرَتْنِىَ القمرَيْنِ فى وقت معا

وقال ابن الرومى[٧] :

وفاحم واردٍ يُقَبِّلُ مَمْ ... شاه إذا اختال مُسْبِلًا غُدَرَهْ
أقبلَ كالليلِ فى مفارقِهِ ... منحدِرًا لا يرام[٨] مُنْحَدَرُه
حتى تناهَى إلى مواطئِهِ ... يَلْثَم من كلِّ مَوْطِىءٍ عَفَرَهْ
كأنهُ عاشِقٌ دَنَا شغفاً ... حتى قضى مِنْ حبيبه وَطَرَهْ
يُغْشِى غَوَاشِى قرونِهِ قدَماً ... بيضاء للناظرين مُقْتَدِرَه
مثل الثريّا إذا بدَتْ سحَراً ... بعد غَمَام وحاسِر حَسَرَهْ

أخذه بعض أهل العصر وهو محمد بن مطران ، فقال[٩] :

ظباء أعارتها الظبَا حُسْنَ مَشْيِها ... كما قد أعارَتْهَا العيونَ الجآذِرُ

---

(١) التبيان ٢ ــ ٢٦٠ ، الأمالى ١ ــ ٢٢٧ . (٢) فى ا ، والأمالى : وشمسين من خمر .
(٣) اللآلى ٥١٩ ، الأمالى ١ ــ ٢٢٧ . (٤) جثل : كثير لين ، وفى الأمالى : وهو وحف .
(٥) ديوانه ٢ ــ ٢٦٠ . (٦) فى الديوان ، ا : كشفت . (٧) اللآلى : ٥١٩ ، الأمالى ١ ــ ٢٣١ ، وارجع إلى اللآلى فى هذه الأبيات . (٨) فى الأمالى : لا يذم .
(٩) اللآلى ٥١٩ ، وفى ط : وهو أبو محمد بن مطرف ، وهذا عن ا ، واللآلى ، والأمالى .

فمِنْ حُسْنِ ذاكَ المشي قامت فقبّلت ... مواطئَ من أقدامهنّ الغدائرُ

وقال مسلم بن الوليد[١] :

أجدّكِ هل تدرينَ أنْ رُبَّ ليلةٍ ... كأنّ دُجاها من قرونكِ يُنْشَرُ

نصبْتُ لهــا حتى تجلَّتْ بِغُرّةٍ ... كغُرّةِ يحيى حين يُذْكَرُ جعفرُ

[نظم القصيدة]

قال الحاتمي : مثلُ القصيدةِ مثلُ الإنسان في اتّصالِ بعضِ أعضائه ببعض ؛ فمتى انفصلَ واحدٌ عن الآخر وبايَنَهُ في صحّةِ التركيب ، غادر الجسمَ ذا عاهةٍ تتخوّنُ محاسنَه ، وتُعَفّي معالِمَه ؛ وقد وجدت حُذّاقَ المتقدّمين وأربابَ الصناعةِ من المحدَثين يحترسون في مثل هذا الحال احتراساً يجنّبُهم شوائبَ النقصان ، ويقفُ بهم على محجّةِ الإحسان ، حتى يقعَ الاتّصالُ ، ويُؤْمَنَ الانفصال ، وتأتي القصيدةُ في تناسُبِ صدورها وأعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة ، والخطبة الموجزة ، لا ينفصلُ جزءٌ منها عن جزء . وهذا مذهبٌ اختصّ به المحدَثون لتوقُّدِ خواطرهم ، ولُطْفِ أفكارِهم ، واعتمادهم البديعَ وأفانينه في أشعارهم ، وكأنه مذهبٌ سهّلوا حَزْنَه ، ونهجوا رَسْمَه ؛ فأمّا الفحول الأوائل ومَنْ تلاهُمْ من المخضرمين والإسلاميين فمذهبُهم المتعالم عدِّ عن كذا إلى كذا ، وقصارَى كلٍّ واحدٍ منهم وَصْفُ ناقته بالعِتْق ، والنّجابة والنجاء ، وأنه امتطاها فادّرع عليها جِلْبابَ الليل ؛ وربما اتّفق لأحدِهم معنى لطيف يتخلّص به إلى غرضٍ لم يتعمّده ، إلا أنّ طبعه السليم ، وصراطه في الشعر المستقيم ، نصبا مَنارَه[٢] وأوقدا بإيقاع نارَه ؛ فمِنْ أحسن تخلّص شاعر إلى معتمده قولُ النابغة الذبياني[٣] :

فكفكفتُ[٤] مني عبرةً فرددتُها ... على النّحْرِ منها مستهلٌّ ودامعُ

---

(١) اللآلى : ٥٢٠ ، الأمالى : ١ — ٢٣١ . (٢) في ط : نفى ناره ، وأوقد . .

(٣) ديوانه : ٦٨ ، واللسان — مادة شغف . (٤) في ا : فأسبل .

على حين عاتبتُ الشيبَ على الصِّبَا ... وقلتُ ألمَّا أصْحُ والشيبُ وَازِعُ[1]

وقد حال همٌّ دونَ ذلِكَ شاغِلٌ ... مكان الشُّغافِ تَبْتَغِيه الأصابعُ

وَعيدُ أبي قابوسَ في غيرِ كُنْهِهِ ... أتاني ودوني راكِسٌ فالضَّواجعُ[2]

وهذا كلام متناسخ تقتضي أوائلُه أواخره ، ولا يتميَّز منه شيء عن شيء :

أتاني، أبيتَ اللعن[3] ، أنك لُمتَني ... وتلك التي تَسْتَكُّ منها المسامِعُ

مقالة أن قد قلتَ سوف أناله ... وذلك من تِلقاء مثلك رائع

ولو توصَّل إلى ذلك بعضُ الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعاني ، وفتحوا أبوابَ البديع ، واجتنوا ثمرَ الآداب ، وفتحوا زَهْرَ الكلام لكان معجزا عجبا ، فكيف بجاهِلٍ بَدَوِي إنما يغترفُ من قليبِ قَلْبِه ، ويستمدُّ عفوَ هاجسه .

وقال عليّ بن هارون المنجم عن أبيه : لم يتوصل أحدٌ إلى مدح بمثل قول [ابنِ][4] وهيب :

ما زال يُلثِمُني مَراشفَهُ ... ويعلّني الإبريقُ والقدَحُ

حتى استردَّ الليل خلْعتَهُ ... وبَدَا خِلالَ سوادِهِ وَضَحُ

وبَدَا الصباحُ كأن غُرَّتَهُ ... وَجْهُ الخليفة حينَ يُمتدَحُ

وقال عليّ بن الجهم :

وليلةٍ كحلتْ بالنقْس مُقْلَتَها ... ألقت قِناعَ الدُّجى في كلِّ أخدود

قد كاد يُغرِقُني أمواجُ ظُلْمَتِها ... لولا اقتباسي سَنَا وَجْهِ ابنِ دَاوُدِ

* * *

من النقد — قوله : « كحلَتْ بالنقْس مقلتها » مأخوذ من قول أعرابي : « والليل قد صَبَغ الحصَى بمِدَادٍ » .

---

(١) وازع : كاف . (٢) راكس : واد . والضواجع : منحنيات الوادي .

(٣) في ا : وأخبرت خير الناس أنك . (٤) الصناعتين : ٦٣ ، والمعاهد : ٢–٦١ وفي ط : قول وهيب .

وقد أخذ هذا أبو نواس فقال[١] :

أَبِنْ لِى كيف صِرْتَ إلى حَرِيمى ... وجَفْنُ الليلِ مُكْتَحِلٌ بقَارِ

وقد أخذ هذا أبو تمام فقال[٢] :

إليك هَتَكْنَا جُنْحَ ليلٍ كأنَّهُ ... قد اكتحلتْ منهُ البلادُ بإثْمِدِ

وقد أخذ لفظَ الأعرابى المتقدم أبو نواس فقال :

قد أغتدى والليلُ كالمِدَادِ ... والصبحُ يَنْفِيه عن البلاد

طرد المشيبِ حالِكَ السَّوادِ

وإنما نظرَ فى هذا إلى قول الأعرابى[٣] :

أقولُ والليلُ قد مالتْ أواخِرُه ... إلى الغروب : تأمّل نظرةً حارِ

ألمحة من سَنا بَرْقٍ رأى بصرى ... أم وجه نُعْمٍ بَدا لى أم سَنَا نَارِ

بل وجهُ نُعْمٍ بَدَا والليلُ مُعْتَكِرٌ ... فلاحَ ما بين حُجَّابٍ وأسْتَارِ

ومن بديع الخروج قول علىّ بن الجهم وذكر سحابةً :

وسارية تَزْدَادُ[٤] أرْضاً بجُودِها ... شغَلتُ بها عينا طويلا هجودُها

أتتنا بها ريحُ الصَّبا فكأنها ... فتاةٌ تزجِّيها عجوزٌ تقودها[٥]

[فما برحت بغدادَ حتى تفجّرت ... بأودية ما تستفيق مُدُودها][٦]

فلما قضتْ حقَّ العراق وأهله ... أتاها من الريح الشمال بريدها

فمرت تفوتُ الطيرَ سَبْقاً كأنها ... جنودُ عبيد الله وَلَّتْ بُنُودها

يريد انصراف أصحاب عبيد الله بن خاقان عن الجعفرىّ إلى سُرَّ من رأى عند قتل المتوكل . وقد أخذ هذا التشبيه معكوسا من قول أبى العتاهية :

ورايات يَحُلُّ النصرُ فيها ... تَمُرُّ كأنها قِطَعُ السحابِ

---

(١) ديوانه ٢٠١ . (٢) ديوانه : ١٠٣ .

(٣) اللآلى ١٣٧ ، والأبيات للنابغة ، كما فى الجمهرة : ٧٩ ، وديوان النابغة ٥١ .

(٤) فى ا : ترتاد . (٥) فى ط : تعودها . (٦) من ا .

وقال ديك الجنّ :

وغرير يقضى بحكمين : فى الرا ح بجور ، وفى الهوى بمحالِ
للنقا رِدْفُه وللخُوط ما حُـ مِّـل لينًا ، وجيدُه للغزالِ
فَمَلَتْ مُقْلَتاه بالصّبِّ ما تفـ عل جَدْوَى يَدَيْك بالأموالِ

ومن بارع الخروج قول المتنبي(1) :

مرّتْ بِنا بَيْن تِرْبَيْها فقلتُ لها من أين جانَسَ هذا الشادِنُ العرَبَا
فاستضحكت ثم قالت كالمغيث يُرَى لَيْثَ الشَّرَى وهو من عِجْلٍ إذا انتسَبَا

واشتهار شعره يغنى من ذكره .

[النسيب فى نظام القصيدة]

قال ابن قتيبة(2) : سمعت بعضَ أهل الأدب يذكر أن مقصَّد القصيدة إنما ابتدأ بوصف الديار والدِّمَنِ والآثار ؛ فبكى وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ؛ ليجعلَ ذلك سببًا لذِكْرِ أهله الظاعنين ؛ إذ كانت نازلةُ العمد(3) فى الحلول والظّعن على خلافِ ما عليه نازلة المَدَرِ ؛ لانتقالهم من ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكَلَأَ ، وتتبُّعهم مساقِطَ الغيث حيث كان ؛ ثم وصل ذلك بالنسيب، فبكى شدّة الوجد ، وألم الصبابة والشوق ، ليُميلَ نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعى إصغاءَ الأسماع ؛ لأن النسيب قريبٌ من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما جعل الله تعالى فى تركيب العباد من محبّةِ الغزل ، وإلْف النساء ؛ فليس أحدٌ يخلو من أن يكونَ متعلقًا منه بسبب ، وضاربا فيه بسهم ، حلال أو حرام . فإذا استوثق من الإصغاء إليه ، والاستماع له عَقّب بإيجاب الحقوق ؛ فرحل فى شعره ، وشكا النصب والسهر، وسُرَى الليل، [وحر الهجير ، وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذِمام التأميل](4) ، وقرّر عنده ما ناله من المكاره فى السير ، بدأ فى المديح

(1) ديوانه : ١ ـ ١١٢ . (2) الشعراء : ٢٠ . (3) فى ا : إذ كانت نازلة العمود .
(4) من ا .

فيمثه على المكافأة ، وفضله على الأشباه ، وصغّر فى قدره الجزيل ، وهزّه لفعل الجميل. فالشاعر الجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هـذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً أغلب على الشعر ، ولم يطل فيُمِلّ السامعين ، ولم يقطع وفى النفوس ظمأ إلى المزيد .

[أبو تمام والبحترى]

ويتعلق بهـذه القطعة ما حدّث به الحاتمى عن نفسه ، وإن كانت الحكاية طويلة فهى غيرُ مملولة ؛ لما لبسَتْه من حُلَل الآداب ، وتزينتْ به من حُلى الألباب ، قال : جمعنى ورجلا من مشايخ البصرة ممن يُومَأ إليـه فى علم الشعر مجلسُ بعض الرؤساء ، وكان خبره قد سبق إلىّ فى عصبيّته للبحترى ، وتفضيله إياه على أبى تمام ، ووجدت صاحبَ المجلس مؤثراً لاستماع كلامنا فى هذا المعنى ، فأنشأتُ قولا أنحيتُ فيه على البحترى إنحـاء أسرفتُ فيه ، واقتدحتُ زِنادَ الرجل ، فتكلّم وتكلمتُ ، وخُضْنا فى أفانين من التفضيل والمماثلة ، غلوتُ فى جميعها غلوّا شهده جميع من حضر المجلس ، وكانوا جلّة الوقت ، وأعيان الفضل ، فاضطر إلى أن قال : ما يُحسن أبو تمام يبتدئ ، ولا يخرج ولا يختم ، ولو لم يكن للبحترى عليه من الفضل إلّا حسن ابتداءاته ، ولطفُ خروجه ، وسرعة انتهائه ، لوجب أن يقع التسليمُ له ، فكيف بأوابده التى تزدادُ على التكرار غضارة وجدة . ثم أقبل علىّ ، فقال : أين يُذهب بك عن ابتدائه[1] :

عارضْنَنا أُصُلًا فقلنا[2] الرَّبرَبُ ... حتى أضاء الأقحوان الأشنبُ
واخضرّ موشىُّ البرودِ وقد بَدَا ... منهن ديباجُ الخدودِ المُذْهَبُ

وأتى لأبى تمام مثل خروجه حيث يقول[3] :

أدارَهُمُ الأولى بدارة جُلجل ... سقاكِ الحَيا رَوْحَاته وبوا كِرُهْ
وجاءك يحكى يوسف بن محمـد ... فروّتك رَيّاهُ وجادَكِ ماطِرُهْ

(١) ديوانه ٢ ـ ١٨٧ . (٢) فى ١ : فقلت . (٣) ديوانه ١ ـ ١٦٢ .

وقد كرر هذا وزاد فيه فقال[١]:

تنصّب البرقُ مختالا فقلت له   لو جُدْتَ جودَ بنى يَزْدان[٢] لم تَزِد

ومن ذا الذى لَطُفَ لأن يخرج من وصف روض إلى مدح ، فقال أحسن من قوله :

كأنّ سناها بالعشىّ لصَحْبها   تبلّج عيسى حين يَلْفظُ بالوَعْدِ

وأتى لأبى تمام مثل حسن انتهائه حيث يقول[٣]:

إليك القوافى نازعاتٍ شواردا   يُسيِّر ضاحِى[٤] وَشْيها ويُنَمنَمُ

ومشرقةً فى النظم غُرًّا يَزِيدُها   بهاء وحسناً أنها لك تُنظم[٥]

وقوله فى هذا المعنى[٦]:

ألست المُوالِى فيك نَظْمَ قصائدٍ   هى الأنجم اقتادتْ مع الليل أنجُمَا

ثناء تخال الروض فيه منوّرا   ضحًى وتخالُ الوَشْى فيه مُنَمْنَما

ولقد تقدم البحترى الناس كلهم فى قوله[٧]:

لو أن مشتاقا تكلّف فوق ما   فى وُسْعِهِ لسعى إليك المنبرُ .

قال أبو على : وكنت ساكتاً إلى أن استتمّ كلامه، فكأنّ الجماعة أعجبهم ذلك، عصبيةً علىّ لا عَلَى أبى تمام ؛ لأنى كنت كالشّجى معترضاً فى لهوَاتهم ، وأسرّ كلّ واحد منهم إلى صاحبه سرًّا يومئ به إلى استيلاء الرجل[٨] على ؛ فلما استتم كلامه وبرقت له بارقةُ طمع فى تسليمى له ابتدأت فقلت: لست ممن يُقَعْقَعُ له بالشنان ، ولا يُقْرَع له بالعصا ، لا إله إلا الله ! استنّت الفصالُ حتى القرعى ! هل هذه المعانى إلا عُونٌ مفترعة ، قد تقدم أبو تمام إلى سَبْك نضارها ، وافتضاض أبكارها ، وجرى

---

(١) ديوانه ١ — ٧٢ . (٢) هكذا فى الديوان ، وفى ط : يزداد .

(٣) ديوانه ١ — ٦٢ . (٤) فى ط : صاف . (٥) ليس فى ا ، وفى الديوان : أنهاتيك .

(٦) ديوانه ١ — ٥٩ . (٧) الأدباء ١٨ — ١٦٨ . (٨) فى ط : الوجل .

البحترى على ربيرته فى انتزاع أمثالها واتباعها ، فأمّا قوله : « عارضْنَنا أصلا فقلنا الربرب » ، فمن قول أبى جوريّة العبدى :

سلّمن نحوى للوداع بمقلة[1]   فكأنما نظرت إلينا الربرب
وقرأن بالحدَقِ المِراض تحية   كادت تكلّمنا وإن لم تُعرِب

وأما قوله فى صفة الغيث مخاطبا للدار : « وجاءك يحكى يوسف بن محمد » وقوله فى هذا المَنْى : « لوجدت جود بنى يزدان لم ترد » فمن قول أبى تمام :

ولنُوْيها فى القلبِ نُوىٌ شفّه   وَلَهٌ بظاعِنها وبالمتخلّف
وكأنما استنسق لهنّ محمد   من سَوْمهنّ من الحَياف زُخْرفِ

ومن قوله الذى تقدم فيه كلّ أحد لفظاً رشيقا ومعنى رقيقا[2]:

ديمةٌ سَمْحةُ القياد سكوبُ   مستغيثٌ بها الثّرى المكروب
لو سعَتْ بقعةٌ لإعظَام نُعمى   لسعَى نحوها المكانُ الجديبُ

ومن هنا أخذ البحترى : « لسعى إليك المنبر » :

[أيها الغيث حىّ أهلا بغدْا   ك وعند السرى وحين تَئُوبُ
لأبى جعفر خلائق تحكيـ   ـهنّ قد يشبه النجيب النجيبُ
أنت فينا فى ذا الأوان غريبٌ   وهو فينا فى كل وقت غريبُ][3]

وأما قوله :

كأنّ سناها بالعشى لصحبها   تبلج[4] عيسى حين يلفظ بالوَعْدِ

فإنما نظر فيه إلى قول دعبل بن على :

ومَيْثاء خضراء زرْبيّة   بهـا النَّوْر يلمع فى كل فن[5]

---

(١) فى ا : مودعين بمقلة .   (٢) ديوانه ٥٧ .
(٣) من ا .   (٤) فى ا : تبسم .
(٥) الميثاء : الأرض السهلة . والزربى من النبت : ما اصفر أو احمر وفيه خضرة .

ضحوكا إذا لاعبَتْه الرياح   تأوّد كالشارب المرجَحِنْ
فشبّه صحبي سنا نَوْرِها   بديباج كسرى وعصْبِ اليمنْ
فقلت بَعُدْتم ولكننى   أشبهه بجناب الحَسَنْ
فتى لا يرى المال إلا العطاء   ولا الكنز إلّا اعتقادَ المِنَنْ

وأما قوله فى صفة القوافى: « يسيّر ضاحى وَشْيها وينمنم »، وقوله فى وصفها: « وتخال الوشى فيه منمنما » فمن قول أبى تمام[1]:

حلّوا بها عُقَدَ النّسيب وتَمْنَمُوا   من وَشْيها نثراً[2] لها وقصيدا

ومن قوله الذى أبدع فيه[3]:

ووالله لا أنفكّ أهدى شوارداً   إليكَ تُحمّلْنَ الثناء المنخّلَا
تخالُ به بُرْداً عليك محبّراً   وتحسبه عقداً عليك مفصّلا
ألذّ من السلوى وأطيبَ نفحةً   من المسك مفتوقاً وأيسرَ مَحْمِلَا
أخفّ على قلبي[4] وأثقلَ قيمةً   وأقصرَ فى قلبِ الجليس وأطولَا

وقول البحترى: * هى الأنجم اقتادَتْ مع الليل أنجما * مأخوذ من قول أبى تمام مقصراً عنه كلّ تقصير عن استيفاء إحسانه حيث يقول[5]:

أصِخْ تستمع حُرّ القوافِ فإنها   كواكبُ إلّا أنهنّ سُعُودُ
ولا تمكّن الإخلاقَ منها فإنما   يلذّ لباسُ البُرْدِ وهو جديدُ

فهذه خصال صاحبك فيما عددتَه من محاسنه التى هتكت بها ستور عواره، ونشرتَ مطوىّ أسرارِه، حتى استوضحت الجماعة أنّ إحسانَه فيها عاريّة مرتجعة، ووديعة منتزَعة، فاسمع ما قال أبو تمام فى نحو أبياتِك التى أوجبتِ الفضلَ لصاحبك حين قال مبتدئا[6]:

---

(١) ديوانه ٨٧ .   (٢) فى الديوان: رجزا، وفى ط: نثرا .
(٣) ديوانه ٢٠٠ .   (٤) فى الديوان: على روح، وفى ا: على قلب .
(٥) ديوانه: ٨٦ .   (٦) ديوانه: ١٤٤ .

لا أنت أنت ولا الديارُ ديارُ خفَّ الهوى وتقضَّتْ[١] الأوطارُ
كانت مجاورةُ الطلولِ وأهلها زمناً عِذابَ الوِرْدِ فهي بحارُ

وقوله[٢] :

رقَّتْ حَوَاشِي الدهرِ فهي تَمرمرُ[٣] وغدا الثَّرَى في حَلْيِهِ يتكسَّرُ

وقوله[٤] :

أرأيتَ أيَّ سوالفٍ وخُدودِ عَنَّتْ لنا بين[٥] اللِّوى وزَرودِ

وهل يستطيعُ أحدٌ أن يبتدىء بمثل ابتدائه[٦] :

طللَ الجميعِ لقد عفوت حميدا وكفى على رُزْئى بذاك شهيدًا
دِمَنٌ كأنَّ البين أصبح طالبا دمناً لدى آرامِها[٧] وحقودا

أو مثل قوله مبتدئا[٨] :

يا دارُ دَرَّ عليك إرهامُ الندى واهتزَّ روضُك للثرى فترَأَّدَا[٩]
وكسيتِ من خِلَعِ الحيا مستأسداً أنفاً يغادرُ وحْشَهُ مستأسدًا

أو مثل قوله مبتدئا[١٠] :

غدَتْ تستجيرُ الدمعَ خوفَ نوَى غدَ وعاد قتادا عندها كل مَرْقَدِ
فأذْرَى لها الإشفاقُ دمعاً مورَّدًا من الدم يجرى فوق خدٍّ مورَّدِ

ولقد أحسن حين ابتدأ فقال[١١] :

نُوارٌ في صواحبها نَوارُ كما فاجاك سِربٌ أو صُوار
تكذَّب حاسدٌ فنأَتْ قلوبٌ أطاعَتْ واشياً ونأَتْ دِيارُ

وحيث يقول[١٢] :

ما في وقوفك ساعةً مِنْ بأسِ تقضِى ذِمامَ الأربُعِ الأدْرَاسِ

(١) في الديوان : وتولت . والأوطار : الحاجات. (٢) ديوانه ١٠٦
(٣) تمرمر : تمايل . (٤) ديوانه ٨٢ . (٥) في ا : يوم اللوى فزرود .
(٦) ديوانه ٨٧ . (٧) في ا : أرآمها . (٨) ديوانه ١٢٥ .
(٩) ترأد : اهتز نعمة ، وفي ط : فتأودا . (١٠) ديوانه ١٠٠ . (١١) ديوانه ١٤٠
(١٢) ديوانه ١٧٢ .

فلعلَّ عينَكَ أنْ تجودَ[1] بدَمْعِها والدمعُ منه خاذِلٌ ومُواسِى

وحيث يقول[2] :

ما عَهِدْنا كذا نحيبَ الشُّوقِ كيفَ والدمعُ آيةُ المعشوقِ

وحيث يقول[3] :

دِمَنٌ ألمَّ بهـا فقال سلامُ كم حلَّ عقدةَ صَبْرِهِ الإلمامُ

نحرتْ ركابُ الركبِ حتى يعبُرُوا رجلا وقد عنفوا علىَّ ولامُوا

وحيث يقول[4] :

أما الرسوم فقد أذْكَرْنَ ما سلفا فلا تكفّنّ عن شأنيكَ أوْ يَكِفا

لا عذرَ للصبِّ أن يَقْنَى السُّلوَّ ولا للدمع بعد مضىِّ الحىِّ أنْ يَقِفا

ومن اقتضاباته البعيدة قوله[5] :

لهانَ علينا أن نقولَ وتَفْعَلا ونذكرَ بعضَ الفضلِ منكَ فتُفضِلا

وقوله أيضاً مقتضبا[6] :

الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عَوارِى فحَذارِ من أسدِ العَرِينِ حَذارِ

ومما تقدَّم فيه كلَّ أحد فى حُسْنِ التخلص إلى المدح قوله[7] :

إساءَةَ الحادثاتِ استبطِى نَفَقًا قد أظلّكِ إحسانُ ابنِ حَسّانِ

وقوله[8] :

إذا العيسُ لاقتْ بى أبا دُلَفٍ فقد تقطّعَ ما بينى وبين النوائبِ

وقوله[9] :

لم يجتمع قطّ فى مصر ولا طرف[10] محمد بن أبى مروانَ والنُّوَبُ

---

(١) فى الديون : أن تعين بمائها . (٢) ديوانه ٢١٥ . (٣) ديوانه ٢٧٩ .

(٤) ديوانه ٢٠٠ . (٥) ديوانه ٢٥٢ . (٦) ديوانه ١٥١ .

(٧) ديوانه ٣٢٤ . (٨) ديوانه ٤١ . (٩) ديوانه ٤٧ .

(١٠) فى ا : ولا بلد .

وقوله المنقطع دونه كلُّ قول في هذا المعنى(١):

إنَّ الذى خلق الخلائق قاتَها ... أقواتَها لتصرُّف الأحْرَاسِ
فالأرضُ معروفُ السماء قِرًى لها ... وبنو الرجاء لهم بنو العبَّاسِ
القوم ظلُّ الله أسكن(٢) دينهُ ... فيهم وهم جَبَلُ الملوكِ الراسى

وقوله(٣):

عَامِى وعامُ العيسِ بين وَديقَةٍ ... مَسْجُورةٍ وتنوفةٍ صَيْهودِ(٤)
حتى أغادِرَ كلَّ يوم بالفلا ... للطَّير عِيداً من بناتِ العيد
هيهات منها روضةٌ محمودةٌ ... حتى تناخَ بأحمدَ المحمودِ
بمعرَّس العربِ الذى وَجَدَتْ به ... أمْنَ المرُوع ونجدةَ المَنْجُودِ

ومن أبدع ابتدائه قوله(٥):

سقَى ديارهمُ أجَشُّ هزيمُ ... وغدَتْ عليهم نضرةٌ ونعيمُ(٦)
جادَتْ معاهدَهم عِهَادُ سحابةٍ ... ماعهدُها عنـد الديارِ ذَميمُ

ثم تخلَّص إلى المدح فقال وأحسن كلَّ الإحسان:

لا والذى هو عالم أنَّ النَّوَى ... مُرٌّ(٧) وأن أبا الحسين كريم
مازلتُ عن سَنَنِ الوداد ولا غَدَتْ ... نفسى على إلفٍ سِوَاكَ تحومُ

ثم عاد إلى المدح فقال:

لمحمد بن الهيثم بن شبـابةٍ ... مجدٌ إلى حيثُ السِّماكُ مقيم(٨)
ملكٌ إذا نُسِبَ النَّدَى من ملتقى ... طرَفَيْه فهوَ أخٌ له وحَميم

---

(١) ديوانه ١٧٣ . (٢) في ا : أسكن ظله . (٣) ديوانه ٨٢ .
(٤) الوديقة: شدة الحر، والتنوفة: الصحراء، والمسجورة: الموقدة، والصيهود: الفلاة لا ينال ماؤها. (٥) ديوانه ٢٩٩ ، وفي ا : ومن أبدع الابتداع. (٦) الأجش: الغليظ الصوت ، والهزيم: الرعد الشديد الصوت ، وفي الديوان : أسقى طلولهم . (٧) في ا : صبر .
(٨) في ا : بن محمد ... إلى حبب ، وفي الديوان : إلى جنب .

وأبو تمام الذى وصف القوافى بما لم يستطع وصفَها به أحد فقال[١]:

فإنْ أنا لم يَحمدك عنى صاغراً ... عدوُّك فاعلم أننى غـيرُ حامِدِ
بسيَّاحَة تنساقُ من غير سائق ... وتنقادُ فى الآفاق من غير قائد
محبَّبة[٢] ما إنْ تزالُ ترَى لها ... إلى كل أفق واحدا[٣] غيْرَ وافدِ
محلقة[٤] لمَّا تردْ أذنَ سامع ... فتصدرَ إلا عن يمين وشاهدِ

والذى قال أيضاً فى صفتها[٥]:

جاءتْكَ من نَظْمِ اللسان قِلادةٌ ... سِمْطانِ فيهـا اللؤلؤُ المكنونُ
إنسيّة وحشيّةٌ كثرَتْ بهـا ... حركاتُ أهلِ الأرض وهى سُكُون
حذيت حذاءَ الحَضْرَميّةِ أرهفت ... وأجادَها التَّخْصير والتلْسِينُ
ينبوعها خَضِلٌ وحَلْىُ قريضها ... حَلْىُ الهدى ونسيجها مَوْضُون[٦]
أحْذاكها صنعُ الضمير يمدُّهُ ... جَفْرٌ[٧] إذا نضَبَ الكلامُ معينُ
أما المعانى فهى أبكارٌ إذا ... نُصَّتْ ولكنّ القوافىَ عُونُ

وقد أبدع فى وصفها فقال[٨]:

لم أبقِ حلية منطقٍ إلّا وقدْ ... سبقتْ سوابقُها إليكَ جِيَادى
أبقينَ فى أعناقِ جُودِكَ جَوْهَراً ... أبْقى من الأطواق فى الأجيادِ

هل يستطيع أحدٌ أن ينسب هذا أو شيئا منه إلى السَّرَق والاحتذاء ؟ وهل يستطيع مماثلته بشىء من شعر البحترى ، أو أشعار المحدثين فى عصره ومن قبله ؟

فعيَّ عن الجواب قُصوراً ، وأحجم عن المساجلة تقصيرا ، وحكمت الجماعة لى بالقَهْر وعليه بالنصر ، ولم ينصرف عن المجلس حتى اعترفَ بتقديم أبى تمام فى صنعة البديع

---

(١) ديوانه : ١١٩ . (٢) فى الديوان : عجيبة . (٣) فى الديوان : وافدا ، وفى ط : وافد . (٤) فى الديوان : وعلقة ، وفى ا : محلقة . (٥) ديوانه : ٣٣٠
(٦) موضون : مثنى بعضه فوق بعض . (٧) فى الديوان : جفر ، وهو البئر .
(٨) ديوانه : ١٢٠ .

واختراع المعانى على جميع المحدَثين . وكان يوماً مشهوداً .

[الغناء والجمال]

وقال ثُمامة بن أشْرَس : كنتُ عند المأمون يوماً فاستأذن الغلام لمُمَيْر المأمونى ، فكرهت ذلك، ورأى المأمون الكراهية فى وجهى ، فقال : يا ثمامة، ما بك ؟ فقلت: يا أمير المؤمنين ، إذا غنّانا عمير ذكرت مواطن الإبل، وكُثْبان الرمل، وإذا غنتنا فلانة انبسط أملى ، وقوى جَذلى ، وانشرح صَدْرى ، وذكرت الجنان والولدان ، كم بين أن تغنيك جارية غادة كأنها غصنُ بان ، ترنو بمقلة وَسْنَان ؛ كأنما خلقتْ من ياقوتة ، أو خرطت من فضّة ، بشعر عُكّاشة العمّى حيث يقول[1] :

من كفّ جارية كأن بنانها   من فضة قد طُرِّفَتْ عُنّابا
وكأنّ يمناها إذا ضربت بها   تُلْقِى على الكفّ الشمال حِسابا

وبين أن يغنيك رجل كثّ[2] اللحْية، غليظ الأصابع ، خشن[3] الكف، بشعر وَرْقاء بن زهير حيث يقول :

رأيت زهيراً تحت كَلْكَلِ خالد   فأقبلت أسعى كالعجول أبادره[4]

وكم بين أنْ يحضرك مَنْ تشتهى النظرَ إليه ، وبين من لا يقفُ طَرْفك عليه ؟ فتبسّم المأمون وقال : الفرق بينهما واضح ، والمنهج فسيح ؛ يا غلام ، لا تأذَنْ له ، وأحضرْ أطيبَ قَيْناته ، فظللْنا ، فى أمْتَعِ يوم .

عكاشة وعُكّاشة هذا هو عكاشة بن عبد الصمد البصرى، نقى الديباجة ، ظريف الشعر ، وكان شاعرا مجيداً . وقد أخذ معنى قوله أبو العباس الناشىء وزاد فيه فقال :

وإذا بصُرت بكفّها اليسرى حكت   يدَ حاسبٍ تُلْقِى عليك صنوفا
فكأنما المِضْرَابُ فى أوتاره   قلمٌ يُجَمْجِمُ فى الكتاب حروفا

(١) اللآلى ٤٢٦ ، الأمالى ١ : ٢٣٠ . (٢) ق ١ : ملتف.
(٣) ق ١ : شثن . (٤) العجول : الثكلى والواله من الإبل والنساء .

ويحثّه إبهامُها فكأنّما ... في النَّقْرتنق بهزَجاً وزُيُوفا

أخذ هذا البيت من قول أبي شجرة السلمي وذكر ناقته :

تَطِهُ عنها حَصَى الظِّرّانِ من بلد ... كما تُنُوقِدَ عند الجهْبِذِ الوَرِق

ومثله قول امرئ القيس[1] :

كأنّ صليلَ المَرْوِ حينَ تُشِذُّه ... صليلُ زُيُوفٍ يُنْتَقَدْنَ بعَبْقَرا

وقال أبو الفتح كشاجم :

لو لم تحركه أناملُها ... كان الهواء يُعيدهُ نطقا
جَسَّتْهُ عالمةً بحالته ... جَسَّ الطبيب لدنف عِرْقا
غنّت فخِلْت أظنّني طرباً ... أسْمُو إلى الأفلاك أو أرْقَى
وحسبت يُمْناها تحرّكه ... رعدا وخِلْتُ يسارَها بَرْقا

وأنشد الحاتمي لأبي بكر الصولي :

وغناءٍ أرقَّ من دَمْعة الصبِّ وشكوَى المتيّم المهجورِ
يَشْغَلُ المرءَ منظرٌ ثم[2] نطقٌ ... فهو يُصْغِي بظاهرٍ وضميرِ
صافحَ السمعَ بالذي يشتهيه ... وأذاقَ النفوسَ طعمَ السرورِ
ليس بالقائل الضعيف إذا ما ... راض نغما ولا الشنيع الجهيرِ[3]

وقال أبو نواس :

وأهيف مثل طاقةِ ياسمينٍ ... له حَظّان من دُنْيا ودينٍ
يحرّكه حين يشدُو[4] ساكناتٍ ... فتنبعث الطبائعُ للسكونِ

وهذا مليح ، يريد حركة الجوانح للغناء ، وسكون الجوارح للاستماع . وقال الحدوني يصف عوداً :

---

(١) ديوانه : ٩٠ ، اللسان — مادة زيف . وتشذه : تفرقه. (٢) ف ا : عن نظر ونطق .
(٣) ف ط : إذا ما رام . . . ولا شنيع . (٤) ف ا : ينشد .

وناطقٍ بلسانٍ لا ضميرَ لهُ ... كأنه فخذٌ نِيطتْ إلى قدَمِ
يُبْدِي ضميرَ سواهُ للقلوب كما ... يبدي ضميرَ سواه مَنْطِقُ القلمِ

[صفة القيان]

ومن أحسنِ ما قيل في صفة القِيان قول ابن الرومي[1] :

وقيانٍ كأنها أمهاتٌ ... عاطفات على بنيها حَوَانِي
مُطْفِلات وما حمَلْنَ جنيناً ... مرضعات ولَسْنَ ذاتِ لِبَانِ
ملقِمات أطفالهنّ ثديا ... ناهداتٍ كأحسنِ الرُّمان
مفعمات[2] كأنها حافِلات ... وهي صِفْرٌ من دِرَّةِ الألبانِ
كل طفل يُدعى بأسماء شتى ... بين عُودٍ ومزهرٍ وكِرَانٍ[3]
أمه دَهرَها تترجمُ عنهُ ... وهو بادي الغِنَى عن الترجمانِ

وقال أبو الفتح كشاجم[4] :

جاءت بعُود كأنّ نغْمته ... صوتُ فتاةٍ تشكو فِراقَ فتى
محفّف حفّت[5] العيونُ بهِ ... كأنما الزهر حولَهُ نبتا
دارتْ ملاوِيه فيه فاختلفتْ ... مثل اختلافِ العيونِ[6] مذ ثبتا
لو حركتْه وراء منهزم ... على بريد[7] لعاج والتفتا

وقال[8] :

يقولون تُبْ والكاس في كفّ أغيد ... وصوت المثاني والمثالث عالِي
فقلت لهم لو كنت أزمعت[9] توبةً ... وشاهدت هــذا في المنام بدَا لِي

(١) ديوانه ٨٤ . (٢) في ط : منعمات . (٣) الكران ككتاب : العود أو الصنج.
(٤) ديوانه ١٧ . (٥) في الديوان : محفف خفت النفوس .
(٦) في الديوان : مثل اختلاف الكفين شبكتا ، وفي ط : اختلاف اليدين .
(٧) في الديوان : على بريد العجلاء . (٨) ديوانه ١٤١ . (٩) في الديوان : أضمرت.

وقال[1] :

أفدى التى كلفَ الفؤادُ من اجْلها[2] بالعُودِ حتى شفّنى إطرابا
تاهَتْ بجمع صناعتين وأظهرتْ كبرا بذاك وأعْجِبتْ إعجابا
قالت فضلتك بالغناء وأنت لا تشدو وكنا مثلكم كتّابا
فمُنِيت بالأوتار حتى لم أدع نغما ولم أغفل لهنَّ حسابا
وألفتها فأغار ذاك على يدى قلبى[3] وعاتبهـا عليه عتابا
فجعلت للقرطاس جانبَ صدرِه وجعلتُ جانب عَجْزِه مِضْرابا

وقال[4] :

جاءتْ بعُودٍ كأنّ الحُبّ أنحَلَهُ فما يرى فيه إلا الوهمُ والشبَحُ
فحرّكته وغنتْ بالثقيل لنـا صوتًا به الشوقُ فى الأحشاء ينقدحُ
بيضاء يحضرُ طيبُ اللهو ما حضرتْ[5] فإن نأتْ عنك غاب اللهْوُ والفرَحُ
كل الليالى[6] عليها معْرِضٌ حَسَنٌ وكلٌّ ما تشتهى فهو مقترَح

هذا من قول ابن المعتز :

وغنّتْ فأغنتْ عن السمعِـ ن وارتجّ بالطرب المجلسُ
محاسِنُها نُزْهَة للعيونِ ومَعْرِضها كلّ ما تلبس

وقال أيضاً[7] :

أشتَهِي فى الغناء بُحة حَلْقِ ناغِمِ[8] الصوتِ متعب مكدُودِ
كأنينِ المحبُّ أضعفه الشوْ قُ فضاهَى به أنينَ العُودِ
لا أحِبّ الأوتار تعلو كما لا أشتهى الضربَ لازماً للعَمُود

---

(١) ديوانه ٨ . (٢) فى الديوان : لأجلها . (٣) فى ط ، والديوان : قلبى .
(٤) ديوانه ٢٨ . (٥) فى الديوان : طيب العيش إن حضرت .
(٦) فى الديوان : كل الليالى . . . (٧) ديوانه ٣٩ .
(٨) فى الديوان : ناعم .

وأحبُّ الجنبات كحتّي[1] ... للمبادى موصولة بالتشيد
كهبوب الصبا توسط حالاً ... بين حالين شدة وركودِ

وقال[2] :

آه مِنْ مُحِقٍ بغير انقطاع ... لفتاةٍ موصولة الإيقاع
أتعبتْ صوتها[3] وقد يُجتنى من ... تعبِ الصوت راحةُ الأسماعِ
فتَدَتْ تكثر الشجاج[4] وحطّت ... طبقاتِ الأوتار بعد ارتفاع
كأنين المحبّ خفّض منهُ ... صوتَ شكواه شدّةُ الأوجاع

وقال بعضُ أهل العصر ، وهو أبو الحسن بن يونس :

غنّت فأخفتْ صوتَها في عُودِها ... فكأنّما الصوتانِ صوتُ العودِ
غَيْدَاء تأمرُ عودَها فيُطيعها ... أبداً ويتبعُها اتّباع وَدُود
أندى من النُّوّار صُبحاً صوتُها ... وأرقّ من نَشْر الثَّنا المعهودِ
فكأنّما الصوتان حين تمازجا ... ماء الغمامةِ وابنةُ العُنقود

وأبو الحسن هذا هو علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى صاحب عبد الله بن وهب الفقيه ، وكان لأبي الحسن في الشعر مذهب حسن ، وطبعٌ صحيح ، وحَوْكٌ مليح ، وكان عالماً بالنجوم وما يتعلّق بها من علوم الأوائل وهو القائل :

سقَى اللهُ أكنافَ اللِّوى كما سقى ... بضَرْبٍ من المُزْنِ الكَنَهْوَرِ هاملِ[5]
إذا نشرت ريحٌ جَنانَ سحابةٍ ... غدَا وهو حَلْيٌ للرياضِ العَواطِلِ
به وَجْدُ رَعْدٍ ليس بين جوانحٍ ... ووسواسُ وَدْقٍ ليس بين مفاصل
إذا كان خدّ البرق يلمسْ نبتهُ ... تلقّاه دُرُّ النَّور فَوْقَ الخمائلِ

---

(١) في الديوان : لحي . (٢) ديوانه ١٢٣ . (٣) في الديوان : حلقها .
(٤) في الديوان : البحاح . (٥) الكنهور من السحاب : قطع كالجبال أو المتراكم منه .

وقال ــ وذكر غلاما :

يجرى النسيمُ على غلائل خَدّهِ ... وأرقّ منه ما يَمُرُّ عليهِ
ناولتُه المرآة ينظرُ وَجْهَهُ ... فكسَتْه فتنة ناظريْه إليهِ

وقال ابن المعتز ــ وذكر المرآة :

تُبيّنني لى كلما رُمْتُ نظرةً ... وناصحتى من دون كلّ صَديق
يقابلنى منك الذى لا عدمتهُ ... بلُجّةِ ماء وهْو غير غَريقِ

وقال أبو الفتح كشاجم يصفُ مرآة أهداها :

أخت شمس الصفاء فى الحُسْنِ والإشـ ... ـراق غير الإعشاء للأجفانِ
ذات طوق مشرف من لُجين ... أُجريت فيـه صفرة العِقْيانِ
فهو كالهالة المحيطة بالبد ... ر استتر مضين بعد تمانِ
وعلى ظهرها فوارسُ تلهو ... بِبُزَاةٍ تَعْدُو على غِزْلَانِ
[لك فيها إذا تأملت فأل ... حسن مخبر بنيـل الأمانى](١)
لم يكن قبلها من الماء جرم ... حاصِرٌ نفسَه بغيرِ أوانِ
عدّلت عكسها الشعاع فبدا ... ء إليها ورَجْعه سيّانِ
وهى شمسٌ وإنْ مثالك يوما ... لاح فيها فإنها شَمْسَانِ
أينما قابلتْ مثالك من أر ... ض فيها تقابل النَّيرانِ
فالقها منك بالذى ما رآه ... خائف فاتنى بغير أمانِ

ومن ألفاظ أهل العصر فى مدح الغناء

غِناؤُه كالغِنَى بعد الفقر ، وهو جَبْرٌ للكسر(٢) . [غِناؤه](٣) يبسط أَسِرَّةَ الوَجْهِ ، ويرفعُ حجاب الأُذُن ، ويأخذُ بمجامِع القَلْب ، ويحرِّكُ النفوس ، ويرقص

---

(١) من ا . (٢) فى ا : وهو عقر للسكر . (٣) من ا .

الرءوس . فلان طبيب القلوب والأسماع ، ومحيي موَات[1] الخواطر والطّباع ، يُطْعِم الآذانَ سروراً ، ويقدح فى القلوب نوراً . القلوبُ من غنائه على خَطر ، فكيف الجيوب ! السكر على صوته شهادة . كل ما يغنّيه مقترَح . لغنائه فى القلْبِ موقع القَطْر فى الجَدْب . نغمة نغمته تطرب ، وضروب ضَرْبه لا تضطرب . وقيل: السماع مُتْعَةَ الأسماع ، وإدامُ المدام .

[الأقلام]

أهدى بعضُ الكتّاب إلى أخٍ له أقلاماً وكتب إليه : إنه ـ أطال اللهُ بقاءك ، لبعض الكتاب لما كانت الكتابةُ قوامَ الخلافة ، وقرينة الرياسة ، وعمودَ المملكة ، وأعظم الأمور الجليلة قَدْراً ، وأعلاها خَطَراً ، أحببتُ إليك أن أُتحفك من آلاتها بما يخفُّ عليك محمْله ، وتثقل قيمتُه ، ويكثر نَفْعُه ؛ فبعثتُ أقلاماً من القصب النابت فى الأغذاء[2] ، المغذوّ بماء السماء ، كاللآلئْ المكنونة فى الصَّدَف ، والأنوار المحجوبة بالسّدف ، تنْبُو عن تأثير الأسنان ، ولا يثنيها غَمْز البَنان ، قد كسَتْها طباعها جوهراً كالوشى المحبّر ، وفرند الديباج المنيّر ، فهى كما قال الكميت :

وبيض رقاقٍ صِحاحُ المتو ... نِ تسمع للبيض فيها صَرِيرا
مُهَنّدة من عَتادِ الملوك ... يكاد سَنَاهنّ يُعْشى البصيرا

وكقدح النبل فى ثقل أوزانها ، وقُضُب الخيزُرَان فى اعتدالها ، ووشيج الخطّ فى اطرادها، تمرُق فى القراطيس كالبَرْق اللائح ، وتجرى فى الصحف كالماء السائح، أحسن من العِقْيان ، فى نحورِ القِيَان .

وكتب عبيدالله بن طاهر[3] إلى إسحاق بن إبراهيم من خراسان إلى بغداد يسأله لعبيد الله بن طاهر أن يوجّهَ إليه بأقلام قصبيّة : أما بعد، فإنّا على طول الممارسة لهذه الصناعة التى غلبَتْ

---

(١) فى ا : مماث . (٢) الغذى : الزرع لا يسقيه إلا المطر . وفى ا : الأغذاء .
(٣) صبح الأعشى ٢ ـ ٤٠١ ، والعقد ٤ ـ ١٩٩ ، لعلى بن الأزهر .

على الاسم ، ولزمت لزوم الوَسْم ، فحلّت محل الأنساب ، وجرت مَجْرَى الألقاب ، وجدنا الأقلام القصبيّة أسرعَ في الكواغد ، وأمرّ في الجلود ، كما أن البَحْرية منها أسلس في القَراطيس ، وألين في المعاطف ، وأكلّ عن تمزيقها ، والتعلق بما ينبو من شظاياها . ونحن في بلادٍ قليلة القَصب ، رديء ما يوجد بها منه ؛ فأحببت أن تتقدّم في اختيار أقلام قصبيّة ، وتتأنّق في انتقائها قِبَلك ، وطلبها في منابتها ، من شُطوط الأنهار ، وأرجاء الكروم، وأن تتيمّم باختيارك منها الشديدة المجسّ ، الصّلبة المعضّ ، الغليظة الشحوم ، المكتنزة الجوانب ، الضيّقة الأجواف، الرزينة الوَزْن، فإنها أبقى على الكِتاب ، وأبعد من الحفاء ، وأن تقصدَ بانتقائك منها للرقاق القضبان ، اللطاف النظر ، المقوّمات الأوَد ، المُلْس العُقد ، ولا يكون فيها التواء عوج ولا أمْت ؛ وضُمَّ الصافيةَ القشور ، الخفيةَ الأُبَن[1] ، الحسنة الاستدارة ، الطويلة الأنابيب ، البعيدة ما بين الكعوب، الكريمة الجواهر ، المعتدلة القوام، تكادُ أسافلها تهتزّ من أعلاها، لاستواء أصولها برءوسها ، المستكملة يبساً ، القائمة على سوقها ، قد تشرّبت الماء في لحائها ، وانتهت في النُّضج منتهاها ، لم تعجّل عن تمام مصلحتها ، وإبّانِ يُنعها ، ولم تؤخّر في الأيام المخوفة عاهاتها؛ من خصر الشتاء، وعَفَن الأنداء، فإذا استجمعتْ عندك أمرْتَ بقطعها ذِراعا ذراعا ، قَطْعاً رفيقاً تتحرّز معه أن تتشعّبَ رءوسُها ، أو تنشق أطرافها ، ثم عبأت منها حزماً فيما يصونها من الأوعية ، وعليها[2] الخيوط الوثيقة ، ووجّهتها مع من يحتاط في حراستها وحفظها وإيصالها؛ إذ كان مثلها يُتوانى فيه ، لقلّة خطرها عند من لا يعرف فَضْلَ جوهرها؛ واكتب معه بعدّتها وأصنافها، وأجناسها وصفاتها ، على الاستقصاء ، من غير تأخير ولا إبطاء .

لإسحاق بن إبراهيم — فأجابه ووجّه إليه مع الأنابيب : أتانى كتاب الأمير — أعزّه الله تعالى — بما أمر به وتخصه ، من البحث بما شاكل نَعْتَه ، وضاهى صِفَته ، من أجناس الأقلام ،

(١) الأبنة : العقدة في العود ، وفي ط : الأبن .

(٢) في ا : وعليها .

فتيممت بُغيته قاصداً لها ، وانتهجتُ معالمَ سُبُله آخذا بها ، فأنفذتُ إليه حزماً أنشئت بلطيف السَّقيا ، وحُسْن العهد والبُقْيا ، لم تعجل بإخراجها ، ولا بُودِرتْ قبل إدراكها . فهي مستويةُ الأنابيب معتدلتها ، مثقفة الكعوب مقوّمتها ؛ لا ترى فيها أمْتُ زَوَر[1] ، ولا وصم صغر ولا عِوَج ، وقد رجوت أن يجدَها الأمير عند إرادته وحسَب بُغْيَتِه .

منصور بن عمار — ومن كلام منصور[2] بن عمّار في صفة القلم، ويقال إنه لسليمان بن الوليد الكاتب: أو ليس من عجائبِ اللهِ في خَلْقِه ، وإنعامِه على عباده تعليمه إيّاهم الكتابَ المقيد للباقين حكم الماضين ، والمخاطب للعيون بسرائر القلوب، على لغات مختلفة، بمعان مفترقة معقودة ، وأحرفٍ مقلوبة ، من ألف وتاء ، وجيم وباء ، متباينات الصور ، مختلفات الجهات ، لقاحها التفكير ، ونتاجها التأليف ، تخرس مفردة ، وتنطقُ مزدوجة، بلا أصوات مسموعة ، ولا ألسُنٍ محدودة ، ولا حركات ظاهرة ، بل قلم حرّف باريه قطّته ، ليعلقَ المدادُ به ، وأرْهَف جانبيه ليردّ ما انتشر عنه إليه ، وشقّ في رأسه ليحتبس الاستمداد[3] عليه ، ورفع من شعبتيه لتجتمع حواشي تصويره؛ فهنالك تروى القلم في شِقّه ، وقذف المادة إلى صدره ، فإذا علقتها العيون حكَتْها الألسن ، فالقلوبُ حينئذ رَاعية ، والآذان واعية، لكلامٍ سَدّاه العَقْل، وألحمه اللسان، وأدّته اللهوات، ولفظته الشّفاه ، ووعته الأسماع ، على اختلاف أنحاء ، من صفاتٍ وأسماء ؛ فتبارك الله أحْسَنُ الخالقين .

التجيبي — جمل من رسالة كتبها بعض أهل العصر ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله التجيبي في القلم إلى أبي عمران بن رباح[4]:

إنه لما كان القلمُ مطيّةَ الفِكْر والبيان ، ومُخْرِجَ الضمير إلى العيان ، ومستنبطاً ما تُوارِيه ظُلَمُ الجَنَانِ إلى نُورِ البيان ، ومُرِيح الفطنِ الموازب ، وجالبَ الفِكَرِ

(١) الزور — بالتحريك : الميل ، وفي ط : أمت ولا عوج . (٢) في ط : أبي منصور . العقد ٢ — ١٩١ . (٣) في ط : الأمداد ، وفي العقد : المداد .

(٤) في ط : ابن عبد الله البحتري في القلم إلى ابن عمران بن رباح .

الغرائب [ولسان الغائب ، وبز الكاتب، ومكتّب الكتائب][١]، ومفرق الجلائب، وعماد السِّلْم ، وزناد الحرب ، ويدَ الحدثان ، وخليقة اللسان ، ورأس الأدوات التي خصَّ اللهُ بها الإنسان ، وشرّفه بها على سائر أصناف الحيوان، ومركباً لآلة تقدّمَتْ كلَّ آلة ، وحِكْمة سبقَتْ في الإنسان كلّ حكمة ، وَقوَاماً لهندسة عقلية ، ومصدرا لعَقْل العاقل ، وجهل الجاهل . الناقل إلينا حِكَمَ الأولين، وحاملها عنا إلى الآخرين، الحافظ علينا أمْرَ الدنيا والدين ، أول شيء خلقه الله بأمره وسَبّحه ، ومجّده وحيده وسجدَ له، فكان له فرسان خُلِق لهم وكُنْت عميدَهم، وأقران قُصِر عليهم، وأنت صنديدهم، وميدان كنت زينه ، ومضمار كنت عَيْنَه ، وحِلْيَة كنت سابقها ، ومعجزها ، وغاية كنت مَالِكها ومُحْرِزَها ، ورمت بي الأيام إلى معدنه الذي كلفت به، وعنيت بطلبه ، فانفردت منه بقدح فَذّ أوْحد ، فَرْد في منبته، قد ساعدت عليه السعود في فلك البروج حولا كاملا ، مُخْتلف يُؤلّفه أركانها وطباعها ، ومتباين ألوانها وأنحائها ، وتؤيده بقواها وجواهرها ، حتى غذّته عرقا في الثرى معرقاً ، وأرضعته ناجماً ، وسقته مكمياً، وأروته مقصباً ، وأظمأته مكتهلا ، ولوحته مستحصداً ، وجللته بهاءها ، وألقت عليه عنوانها ، وأودعته أعراقها وأوراقها وأخلاقها ، حتى إذا شق بازله ، ورقّت شمائله ، وابتسم من غشائه ، ونادى من لحائه، وتعرى عن[٢] خز الصيف، بانقضاء الخريف، وانكشف عن لون البيض المكنون ، والصدف المخزون ، ودر البحار ، وفتات[٣] الجار ، دعا منه نفَق[٤] العاج بنقبة الديباج ، وقيص الدرر بطراز النساج ، فاجتمعت له زينة الأيدي البشرية ، إلى الأيدي العلوية ، والأنساب الأرضية ، إلى الأنساب السماوية ، فلما قادته السعادة إليّ ، ورأيته نسيجَ وَحْدِه في الأقلام، رأيت أولى الناس به نسيجَ وَحْدِه في الأنام ، فآثرتُك به مُؤْثِراً للصنيعة ؛ عالمًا أن زين الجياد فرسانها ، وزين السيوف أقرانها ، وزين بزة لابسها[٥] ، وزَيْنَ أداةٍ ممارسها ،

---

(١) من ا . (٢) ا : وتعرى عنه . (٣) في ا : وفتاق .
(٤) في ط : ترى له نقوة العاج وبيضته ، والنقوة : الخالص . مصلتها .

فالآن أعطيت القوس باريها ، وزناد المكارم مُورِيها ، والصمصامة مصلتها ، والقناة مُعملها ، وحلّة المَجْدِ لَابِسها .

النجيرمى وبديهته

وكان النجيرمي جَيِّدَ الروية والبديهة في نظمه ونثره ، حلو التصريف ، مليح التأليف ، وكان يوماً عند أبي المسك كافور الإخشيدى فدخل عليه أبو الفضل بن عياش فقال : أدام الله أيام سيدنا الأستاذ — بالخَفْض ، فتبسّم كافور إلى أبي إسحاق فقال ارتجالا :

لا غَرْوَ إن لَحن الدّاعِي لسيّدنا ... وغُصَّ من هَيْبَةٍ بالريقِ والبُهُرِ
فثل سيدنا حالت مهابتُهُ ... بين البليغ وبين القول بالحصَرِ
فإن يكن خفَضَ الأيام من دَهَشٍ ... من شدةِ الخوف لا مِنْ قِلَّةِ البَصَرِ
فقد تفاءلت في هـذا لسيدنا ... والفأل مأثرة عن سيّد البشر
بأن أيامه خَفْضٌ بلا نَصَبٍ ... وأن دولته صفوٌ بلا كَدَرِ

فأمر له بثلثمائة دينار ولابن عياش بمائتين .

لحمدان الدمشقى فى وصف قلم

وقال حمدان[1] الدمشقى يصف قلماً :

للإيثم بمتنه وشَقِّ لِسَانِهِ ... وله إذا لم تُجْرِه إطراقهُ
كالحيَّةِ النَّضْنَاضِ إلاّ أنهُ ... من حيث يَجْزِى سمه تِرْيَاقُهُ

للعتابى فى الأنابيب والبرى

قال العتّابى: سألنى الأصمعى فقال لى : أى الأنابيب أصلَحُ للكتابة وعليها أصبر؟ فقلت : ما نشِفَ بالهجير ماؤُه ، وستره عن تلويحهِ غشاؤه ، من التّبرية القشور ، الدرّية الظهور ، الفضية الكسور . قال : فأىّ نوع من البَرْى أكتبُ وأصْوَب ؟ قلت : البرْية المستوية القطّ ، عن يمين سنّها[2] بَرية ، تأمن معها الجنّة عند المط[3] ، الهواء فى مشَقّها فتيق ، والريح فى جوفها خَريق ، والمِدَادفى خرطومها رقيق ، قال : فبقى الأصمعى شاخصاً إلىّ ضاحكا لا يحير مسألة ولا جوابا .

---

(١) فى ط : حماد . (٢) فى ط : شقها . (٣) فى ط : المط

[العَتّابى وأدبه]

أدبه والعتابى هو كلثوم بن عمرو بن الحارث التغلبى ، يُـكْنَى أبا عمرو ، قال أبو عُثمان الجاحظ : كان العتّابى ممنّ اجتمع له الخطابة ، والبيان ، والشعر الجيد ، والرسائل الفاخرة، وعلى ألفاظه وحَذْوِه يقول فى البديع جميعُ من يتكلّف ذلك من ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النَّمرى ، ومسلم بن الوليد الأنصارى ، وأشباههما ، وكان العتّابى يَحْتذى حَذْو بشّار فى البديع ، ولم يكن فى المولدين أجودُ بديعاً من بشار وابن هَرْمة — والعتابى من ولد عَمْرو بن كلثوم بن مالك بن عَتّاب بن سعد، ولذلك قال:

إنى امرُؤٌ هدم الإقتار مأثُرتى   واجتاح ماأبْدَتِ[1] الأيامُ من خطرى

أنا ابنُ عمرو بن كلثوم يسوّدهُ   حيّا ربيعةَ والأحياء من مضَرِ

أرومَةٌ عطّلتنى من مكارمها   كالقوسِ عطّلها الرامى من الوتَرِ

وكان صاحبَ بديهة فى المنظوم والمنثور ، حسن العقل والتمييز . والعربُ تقول : من تمنّى رجلا حسنَ العَقْلِ ، حسَنَ البيانِ ، حسنَ العِلْم ، تمنّى شيئاً عسيراً . وقد اجتمع ذلك كلّه للعتابى .

لبسه وعاتبه يحيى بن خالد على لباسه ، وكان لا يُبالى أى ثوبيه ابتذل ! فقال : أبعدَ اللهُ رجلا مهمّته أن يكون جمالُه فى لباسه وعِطره . إنما ذلك حظُّ النساء ، وأهل الأهواء ، حتى يرفعه أكبَراه : هِمّته ولبّه ، ويعلو به معظماه : لسانُه وقَلْبه .

ودخل على الرشيد فقال: تـكلّم يا عتّابى! فقال: الإيناس قبل الإبسَاس، لايمدحُ المرء بأوّل صَوابه ، ولا يُذَمّ بأول خَطئه ؛ لأنه بين كلام زَوّرَه، أو عىٍّ حَصَرَه.

وذكر أبو هفّان أنّ الرشيد لقيَه بعد قَتْل جعفر بن يحيى وزوال نعمته فقال : ما أحْدَثت بعد يا عتّابى ؟ فأنشده ارتجالا[2] :

تلومُ على تَرْكِ الغِنَى باهلية   طَوَى الدهرُ عنها كلَّ طِرْفٍ[3] وتالِدِ

---

(١) فى ا : ماهدم .   (٢) الأغانى ١٢ — ٨ .   (٣) الحديث من المال ، وفى الأغانى : ذوى الفقر .

رأتْ حولها النسوان يرفلن فى الكُسا   منظمةً أجيـادُها[١] بالقلائدِ
[...]كَ أنى نِلتُ ما نال جعفرٌ   من الملك أو ما نالَ يحيى بن خالد
وأن أمير المؤمنين أغَصَّنى   مغَصَّهُما بالمرهفاتِ[٢] البواردِ
فإنّ رفيعات المعالى مشوبةٌ   بمستودعاتٍ فى بطونِ الأساود

انحرافه عن البرامكة

وكان متحرفاً[٣] عن البرامكة ، وفيهم يقول :

إن البرامكَ لاتنفكُّ أنجيَةً[٤]   بصفحة الدّين من نجواهمُ نَدَبُ[٥]
تجرّمَتْ[٦] حججٌ منهم ومُنْصُلُهم   مضرّجٌ بدم الإسلام مختضِبُ

واجتاز عبد الله بن طاهر بالرقة بمنزل العتّابى ، فقال : أليس هذا منزلُ كلثوم ابن عَمْرو ؟ قيل : نعم ، فثَنَى رجله ، ودخل إليــه ، فألفاه جالسا فى بَيْتِ كُتبه ، فحادثه وذاكَره ، ثم انصرف. فتحدّث الناسُ فى ذلك، وقالوا : إن الأمير لم يَقْصِده، وإنما اجتاز به فأخْطَرَ ذلك الزيارةَ ، فكتب إليه :

يا مَنْ أفادَتْنِى زيارَتُه   بَعْدَ الخمول نباهةَ الذِّكْرِ
قالوا الزيارةُ خَطْرَةٌ خَطَرت   ومجاز[٧] خَطْرِك لَيْسَ بالخطر
فادْفَعْ مقالَتهم بثالثة   تستَنْفِد المجهودَ مِنْ شكرى
لا تجعلَنّ الوِتْرَ واحدةً   إنّ الثلاث تتمةُ الوِتْرِ

فبعثته الأبياتُ إلى أنْ زارَ ثلاثاً .

ميله الى المأمون

وكان يميل إلى المأمون ، فلما خرج المأمون إلى خُراسان شيّعه حتى وصل معه إلى سندان[٨] كِسرى ، فقال له المأمون : سألتك بالله يا عتّابى إلا عملتَ على زيارتنا

(١) فى الأغانى : فى الترى : مقلدة أعناقها . (٢) فى الأغانى : بالمصرفات .
(٣) فى ط : منحرفا . (٤) النجى : المتناجون ، والجمع الأنجية . (٥) جمع ندبة : أثر الجرح الباقى على الجلد . (٦) تجرمت : انقضت ، وفى ط : تصرمت .
(٧) فى ا : ويجار . (٨) هكذا بالأصول ؟ ولعلها سنداد (ارجع الى معجم ما استعجم — سند) .

إنْ صار لنا من هذا الأمر شيء . فلما ولي المأمون الخلافةَ ، ودخل بغداد سنة أربع ومائتين توصَّل إليه العتّابي ، فلم يمكنه الوصول ، فقال للقاضي يحيي بن أكثم : رأيتَ أن تُعلِم أميرَ المؤمنين بمكاني ! فقال : لستُ بحاجب ! قال: قد علمت، ولكنك ذو فضل ، وذو الفضل مِعْوان ! فقال : سلكتَ بي غير طريقي ! قال : إن الله تعالى ألحقك بجاهٍ ونعمة ، وهما يقيان عليك بالزيادة إن شكرت ، والتغيير إن كفرت، وأنا اليوم لك خيرٌ منك لنفسك ؛ أدعوك لما فيه زيادة نعمتك ، وأنت تأبى ذلك ؛ ولكلِّ شيء زكاة ، وزكاةُ الجاهِ بَذْلُهُ للمستعين . فدخل يحيي على المأمون ، فقال أجِرْنى من لسان العتّابي ، فلَهَا عنه ، ولم يأذن له ، فلما طال عليه كتب إليه :

ما على ذا كنا افترقنا بسندا ... ن ولا هكذا عَهِدْنا الإخاء

لم أكن أحسب الخلافة[1] يزدا ... د بها ذو الصفاء إلّا صفاء

تضرب الناس بالمثقفة السُّمـ ... ـر على غدرهم وتنسى الوفاء

يعرِّض بقتله لأخيه على غدره، ونكثه لِمَا عقد الرشيد. فلما قرأ المأمون الأبيات أمر أن يُدْخَل عليه . فلما سلم قال : يا عتابي ، بلغتنى وفادتك فسرَّتنى ، وقد كانت بلغتنى وفاتُك[2] فساءتنى ، وإنى لحرىّ بالغم لبُعدك ، والسرور بقربك ! فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو قسم هـــذا الكلام على أهل الأرض لوسعهم عَدْلا ، وأعجزهم شكراً ، وإنّ رضاك لغاية المُنَى ؛ لأنه لا دينَ إلا بك ، ولا دنيا إلا معك . قال : سَلْنى ، قال : يَدُك بالعطية أطلق من لسانى بالمسألة ، فأمر له بخمسين ألفا .

وقال العتّابي وودّع جاريةً له :

ما عَنَاهُ الحِذَارِ والإشفاقِ ... وشآبيب دمعك المُهْرَاقِ

ليس يَقْوَى الفؤادُ منك على الصَّـ ... ـدِّ ولا مُقْلَتا طَلِيحِ المآقى[3]

غدرات الأيام منتزعاتٌ ... ما غنمنا من طول هذا العِناق

---

(١) فى ا : الخليفة . (٢) فى ا : وفادتك . (٣) من طلح : أعيا . وفى ا : الآماق .

إنْ قضَى اللهُ أن يكون تلاَقٍ   بعد ما قد ترين كان تلاقِ
هوّني ما عليك وأقنَى حَيَاءَ   لستِ تبقين لي ولستُ بِبَاقِ
أيّنا قدّمتْ صروفُ المنايا   فالذى أخّرتْ سريعُ اللّحاقِ
ويدُ الحادثات رَهْنٌ بجزّا   تٍ من العيش مُضْبِراتِ المذاق
غرّ مَنْ ظن أن يفوت المنايا   وعُراها قلائدُ الأعناق
كم صفِيّيْنِ مُتّعا باتفاقٍ   ثم صارا لفُرْقةٍ وافتراقِ
قلت للفرقدين والليلُ مُلْقٍ   سُودَ أكنافهِ على الآفاقِ
أبقيَا ما بقيتُما سوف يُرمى   بين شخصيكما بسَهْمِ الفراقِ
بينما المرء فى غضارةِ عَيْش   وصلاحٍ من أمره واتّفاق
عطفتْ شِدّةُ الزمان فأدّتْـــــه إلى فاقةٍ وضيقِ خِنَاق
لا يدومُ البقاء للخَلْق لكنْ   نَ دوامَ البقاء لِلخَلّاق

وقال فى الرشيد :

إمامٌ له كفٌ تضُم بَنَانُها   عصا الدّين ممنوعاً من البَرْى عودُها   من شعره فى الرشيد
وعينٌ محيطٌ بالبريّة طَرْفُها   سواء عليها قُربها وبَعيدُها

وقال فيه :

رعى أمّةَ الإسلام فهو إمامُها   وأدّى إليها الحقّ فهو أمينُها(١)
مقيمٌ بمستنّ القَلَاحيثُ تلتقِى   طَوارقُ أبكارِ الخطوبِ وعُونُها

وكان منصور النمرى سَعَى به إلى الرشيد تخافه ، فهرب إلى بلد الروم ، وله قصائد هربه بعد سعايته يعتذرُ فيها جيدةٌ مختارةٌ ، وهو مشبّهٌ فى حسن الاعتذار بالنابغة الذبيانى ، ومن واعتذاره جيّد اعتذاره قوله للرشيد ، ويقال : بل قالها على لسانِ عيسى بن موسى الهاشمى   من جيد اعتذاره يخاطب الرشيد :

(١) فى ط : معينها .

جعلتُ رجاءَ العفو عذراً وشُبْتُه بهيبةِ إمّا غافرٍ أو مُعاتبِ
وكنتُ إذا ما خفتُ حادثَ نَبْوةٍ جعلتك حِصْناً من حِذارِ النوائبِ
فأنْزلَ بي هِجرانُك اليأسَ بعدما حللتُ بوادٍ منك رَحْبِ المشاربِ
أظلّ ومَرْعايَ الجديبُ مكانَه وآوي إلى حافاتِ أكدرَ ناضبِ
ولم يثنِ عن نفسي الردى غيرَ أنها تنوءُ بباقٍ من رجائك ثاقبِ
هي النفسُ محبوسٌ عليك رجاؤُها مقيدةُ الآمالِ دون المطالبِ
وتحت ثيابِ الصبرِ مني ابنُ لَوْعةٍ يظلُّ ويُمْسي مستلين الجوانبِ
فتى ظفرَتْ منه الليالي بزَلّةٍ فأقلَمْنَ عنه دامياتِ المخالبِ
جنايتُك إني لم أكُنْ بِتُّ عِزّةً بذُلّي وأحرزتُ المنى بالمواهبِ
فقد سُمتني الهجرانَ حتى أذقتني عقوبةَ زلّاتي وسوءَ مناقبِ
فها أنا مُقْعَى في رِضاك وقابضٌ على حدِّ مصقولِ الذبابَيْنِ قاضبِ
ومنتزعٌ عما كرهتَ وجاعلٌ هواكَ مثالاً بين عيني وحاجبي

وفي هذه القصيدة مما يختار أهل الصناعة :

وأشْمَتَ مشتاقٍ دمّى في جفونِه غريبِ الكرى بين الفِجاج السباسبِ
سَحَبْتُ له ذَيْلَ السُّرَى وهو لابِسٌ دُجَى الليلِ حتى مجّ ضوءَ الكواكبِ
ومن فوقِ أكوارِ المهارى لبانةٌ أحِلَ لها أكلُ الذُّرَى والغوارِبِ
وكلُّ فتى عاداتُه قَصْرُ شَوْقِه وطيُّ الحشى دونَ الهمومِ العوازبِ
يُسِرّ الهوى لم يُبْدِه نحتَ فرقةٍ صُراخاً ولم تسمَعْ به أُذُنُ صاحبِ
إذا ادّرع الليلَ انجلى وكأنّه بقيةُ هنديٍّ الحسامِ الضاربِ
بركْبٍ ترى كَسْرَ الكرى في جفونهم وعَهدَ الليالي في وجوهٍ مَشاحبِ

وقال أيضاً :

لو رأتني بذي المَحارةِ(١) فَرْداً وذراعُ ابنةِ الفلاةِ وسادي

---

(١) في ط : ذرا المحالة .

أطفئ الحزن بالدموع إذا ما ... حمة الشوق أثرت فى فؤادى
خاشع الطرف قد توشحنى الضر فلانت له قناة قيادى
ترب بؤس أخا هموم كأن الـ ... ـحزن والبؤس وافيا ميلادى
وكأنى استشعرت ما لفظ النا ... س من النائرات والأحقاد
أتصدى الردى وأدرع الليـ ... ـل بهوجاء فوقها أقتادى
حظ عينى من الكرى خفقات ... بين سرجى[1] ومنحنى أعوادى
أوحش الناس جانبى فما آ ... نس إلا بوحدتى وانفرادى
قد رددت[2] الذى به أتق النا ... س وأبرزت للزمان سوادى
فاستهلت على تعارنى الشو ... ق شآبيب مزنة مرعاد

وقال :

أما راع قلب العامرية أننى ... غدوت ومرجوع السقام قرينى
أكاتم لوعات الهوى وبينها ... تخلل ماء الشوق بين جفونى
ومطروفة الإنسان فى كل لوعة[3] ... لها نظرة موصولة بحنين

[آل وهب]

الحسن بن وهب فى البكاء

وقال الحسن بن وهب بن سعيد :

ابك فمن أحسن ما فى البكا ... أن البكا للوجد تحليل
وهو إذا أنت تأملته ... حزن على الخدين محلول[4]

وقد أعرق بنو وهب فى الكتابة وأنجبوا ، ولهم فى هذا الكتاب ما يشهد لهم بما نسب إليهم ، وفيهم يقول الطائى[5] :

كل شعب كنتم به آل وهب ... فهو شعبى وشعب كل أديب

---

(١) فى ط : سرجى . (٢) فى ا : سروت ... ... بتق اليأس .
(٣) فى ا : تلعة . (٤) ط : مجول . (٥) ديوانه : ٣٨ .

إن قلبي لكم لكالكبد الحرَّ ... رَى وقلبي لغيركم كالقلوب

وفي هذه القصيدة يقول في مدح سليمان بن وهب :

ما على الوُسجِ الرَّوَاتِك[1] من عَتْـ ... ـبٍ إذا ما أتتْ أبا أيوبِ

حُوَّلٌ لا فِعالُه مرتع الذمـ ... ـم ولا عِرضه مناخ[2] العُيوبِ

واجد بالصديق من بُرَحَاء الشـ ... ـشوق وجدانَ غيرِه بالحبيبِ

أخذ سليمان منه معنى هذا البيت الأخير، فقال في رسالة لبعض إخوانه :

ظرْفُ الصداقة، أرقّ من ظرف العلاقة، والنفس بالصديق آنس منها بالعشيق.

فقال له أبو تمام : كلامك هذا أرقّ من شعري .

شعره والحسن بن وهب حَسَنُ الشعر والبلاغة ، جيّد اللسان ، حلو البيان ، وكان يحب بنان[3] جارية محمد بن حمّاد ، وله فيها شعر جيد ، ولها يقول :

أقول وقد حاولتُ تقبيلَ كفّها ... وبي رِعْدةٌ أهتزُّ منها وأسكن

ليهنك أنّى أشجعُ الناسِ كلّهم ... لدَى الحربِ إلا أنني عنك أجْبَنُ

وحضرت مجلسه وبين يديه نار فأمرت بإزالتها ، فقال[4] :

بأبي كرِهتِ النارَ حتى أبعدتْ[5] ... فعلمت ما معناكِ في إبعادها

هي ضرّةٌ لكِ في التِّماعِ ضيائها ... وهبوبِ نفْحتِها لدى إيقادها

وأرى صنيعك في القلوب صنيعَها ... بسَيَالها وأراكِها وعَرَادِها[6]

شَرِكَتْكِ في كلّ الأمورِ بفعلها ... وضيائها وصلاحها وفسادِها

وإلى هذا ينظر قول الأمير تميم بن المعزّ :

ما هجرتُ المُدامَ والوردَ والبد ... رَ بطوعٍ لكن برغمٍ وكُرْهِ

---

(١) الوسج : النوق المسرعات . والرواتك : مقاربات الخطى في السير ، وفي ط : الرزح الرفائل من عتب . (٢) في الديوان : صباح . (٣) في ا : بنات . (٤) الأمالي ١ — ٢٩٧ اللآلي ٦ ٥ ٠ . (٥) في الأمالي : لما أوقدت . (٦) في ط ، ا : وعدادها ، والسيال : شجر سبط الأغصان .

منعتنى من الثلاثة من لو   قتلتنى لم أحلك والله مَنْ هى
قالت الوردُ والمدامةُ والبد   رُ ضيائى ولونُ خدّى ووَجْهِى
قلت بخلًا بكلّ شىء فقالت   لا ولكن بخلت بى وبشِبْهِى
قلت ياليتنى شبيهُكِ قالت   إنما يقتل المحبَّ التَّشهِّى

ولما مات الحسنُ بن وهب وكان موته بالشام عُزّى عنه أخوه سليمان فجاء أبو العيناء فقال : أنشدنى أبو سعيد الأصمعى : سليمان بن وهب وعلمه

لعمرى لنِعْمَ المرء من آل جعفر   بحوران أمْسَى أعلقَتْه الحبائلُ
لقد فقدوا عَزْماً وحزْما وسؤدداً   وعلما أصيلا خالفَتْه[1] المجاهل
فإن عِشتُ لم أملل حياتى وإن تمت   فما فى حياتى بعد مَوْتِك طائلُ

فقال سليمان : أحسن اللهُ جزاءك ، ووصل إخاءك ، إن هذا لمن أحسن الشعر ، وقد تمثّل به قتيبة حين بلغه موتُ الحجاج ، ولكنى أقول كما قال كعب بن سَعْد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار[2] :

أخِى ما أخى لا فاحِشٌ عند بَيْتهِ   ولا وَرَعٌ عنـــد اللقاء هَيُوبُ
حليم إذا ما سَوْرة الجهلِ أطلَقَتْ   حُبى الشيبِ للنفس اللَّجُوجِ غلوبُ
حبيبٌ إلى الزوّار غِشْيَانُ بَيْتِه   جميل المحيّـــا شبّ وهْو أديبُ
إذا ما تراآه الرجالُ تحفّظُوا   فلم تُنطَقِ العَوْرَاء وهْوَ قريبُ

فانصرف الناس يعجبون من علم سليمان ، وحسن جوابه ، وصحّة تمثله .

والأبيات التى أنشدها الأصمعى للحطيئة[3] ، واسمه جَرْوَل بن أوْس بن جُؤَيّة الحطيئة
ابن مخزوم بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عَبْس بن بَغيض ، يقولها فى علقمة بن علاثة، وفيها يقول:

فما كان بينى لو لقيتك سالما   وبين الغِنَى إلّا ليالٍ قلائلُ

---

(١) فى ا : خالفته . (٢) الأمالى : ٢ — ١٥٠ . (٣) الأغانى ٢ — ١٥٧ .

من كلامه

قال سليمان بن وهب : لما جار علينا بالنكبة السلطان ، وجفانا من أجلها سائر الإخوان ، أنصفنا ابن أبي دواد بتطوُّله ، وكفانا الحاجةَ إليهم بتفضّله ، فكنا وإياه كما قال الحطيئة[1] :

جاورتُ آلَ مقلَّدٍ[2] فحمِدتُهم إذ لا يكادُ أخو جوارٍ يُحمَدُ
أيامَ مَن يُرِد الصنيعةَ يصطنِعْ فينا ومَنْ يُرِد الزهادةَ يَزْهَدُ

وله فصل إلى بعض إخوانه :

لك أن تعتب ، وشبيهك أنْ يعذر ؛ فهَبْ أقل الأمرين لأكثرها ، وقدّم فضلك على حقّك ، ويقينَك على شَكّك .

ووصف رجلا بليغاً فقال : كان واللهِ واسعَ المنطق ، جَزْلَ الألفاظ ، ليس بالهذِر في لفظه ، [ولا المظلم في مقصده ؛ معناه إلى القلب أسْرَع من لَفْظِه إلى السَّمْع][3] .

وهذا ضدّ قول محمد بن عبد الملك الزيات في عبيد الله بن يحيى بن خاقان : هو مهزول الألفاظ ، غليظ المعاني ، سخيفُ العقل ، ضعيف العقدة ، واهِي العَزْم ، مأفونُ الرأي .

ألفاظ لأهل العصر في ذمّ الكِتاب والكُتّاب والنثر والشعر

الخرسُ أحسنُ من كلامه ، والعِيُّ أبلغُ من بيانه . خاطره يَنْبُو ، وقلمه يَكْبُو ، ويسهو ويغلط ، ويخطىء ويُسقِط . هو قصير باع الكتابة ، قاصر سَعْي الخطابة ، وكُتُبه مضطربة الألفاظ ، متفاوتة الأبعاض ، منتشرة الأوضاع ، متباينة الأغراض . الجلم أولى بكفّه من القلم ، والطّاس أليقُ بها من القرطاس . كلامٌ تنبو عن قبوله الطباع ، وتتجافَى عن استماعه الأسماع . ألفاظٌ تَنْبُو عنها الآذان فتمجّها ، وتنكرها الطباع فترَجُّها . كلام لا يرْفَعُ الطبعُ له حِجابا ، ولا يفتحُ السمعُ له بابا . كلام

(١) الأغاني : ٢ — ١٧٩ . (٢) في ط : محمد . (٣) من ا .

يُصْدِي الرَّيَّان ، ويصديٌ الأفهام والأذهان . كلام قد تعمّل فيه حتى تبذل[١] ، وتكلّف حتى تعسّف . طبع جاسٍ ، ولفظ[٢] قاسٍ ، لا مساغَ له فى سَمْع ، ولا وصول له مع خلو ذَرْع . كلام لا الرويّة ضربَتْ فيه بسَهم ، ولا الفكرة جالت فيه بقِدْح . كلام تمجُّ الأسماعُ فى حزونته ، وتتحيَّر الأفهامُ من وعُورته . كلمات ضعيفةُ الإتقان ، قليلة الأعيان ، مضمحلّة على الامتحان . ألفاظ تُسْتَعَارُ من الدياجى ، ومعانٍ تقذر من الأثاف . كلام يعثّله يتسلّى الأخرس عن كلّه ، ويفرح الأصم بصممه . أثقل من الجندل ، وأمرّ من الحنظل . هو هـــذيان المحموم ، وسوداء[٣] المهموم . كلام رثّ ، ومعنى غثّ ، لاطائل فيهما ، ولاطلاوة عليهما . أبيات ليست من محكم الشعر وحكمه ، ولا من أحجال الكلام وغُرَره . شعر ضعيف الصنعة ، ردىء الصيغة ، بغيض الصفة ؛ [وقد جمع بين إقواء وإيطاء وإبطاء وإخطاء . ما قطع فى شعره شَعْرة][٤] ولا سقى قطرة . لو شعر بالنقص ما شعرُ . لا يميز بين خبيثِ القول وطيّبه ، ولا يَفرّق بين بِكْره وثيّبه . هو باردُ العبارة ثقيل الاستعارة . هو من بين الشعراء منبوذ بالعَرَاء . لم يلبَسْ شعرُه حلّة الطلاوة[٥] . له شعرٌ لا يطيب دَرْسه ، ولا يخف سَرْده ، وخطٌّ مضطرب الحروف ، متضاعف التضعيف والتحريف ، خطّ يقذى العــين ويشجى الصَّدْر . خط منحطّ ، كأنه[٦] أرجل البطّ ، وأنامل السرطان ، على الحيطان . قلمه لا يستجيب بَرْيه ، ومداده لا يساعد جَرْيه . قلمه كالولد العاقّ ، والأخ الشاق ، إذا أدَرْتَه استطال ، وإذا قوّمته مال ، وإذا بعثته وقف ، وإذا وقفته انحرف . قلم مائل الشق ، مضطرب الشق ، متفاوت [البَرْى ، معدوم الجَرْى ، محرّف القطّ . قلم لم يقلم ظفره فهو][٤] يخدش القِرطاس ، وينقش الأنقاس ، ويأخُذ بالأنفاس . قلم لا ينبعث إذا بعثته ، ولا يقف إذا وقفته . قد وقف اضطرابُ [بَرْيه دون استمرار][٤] جَرْيه ، واقتطع تفاوت

(١) العبارة مضطربة فى ط ، وهذا من ا . (٢) فى ا : قلب . (٣) فى ط : وسورة
(٤) من ا . (٥) فى ا : الحلاوة . (٦) فى ا : منحط كأرجل البط .

[وصف الكلام]

كلام العرب

ذكر عُتبة بن أبى سفيان كلامَ العرب فقال : إن للعرب كلاماهو أرقُّ من الهواء وأعذب من الماء ، مرق من أفواههم مُروقَ السهام من قِسيِّها ، بكلمات مؤتلفات ، إنْ فُسِّرت بغيرها عطِلتْ ، وإن بدِّلت بسواها من الكلام استصعبَتْ ؛ فسهولةُ ألفاظِهم تُوهِمُكَ أنها ممكنة إذا سُمِعَتْ ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طُلِبتْ . هم اللطيفُ فهمهم ، النافعُ علمهم . بِلُغَتِهِمْ نزل القرآن ، وبها يدرَكُ البيان ، وكلُّ نوع من معناه مُبَاينٌ لما سواه . والناسُ إلى قولهم يصيرون، وبهداهم يأتمون، أكثر الناس أحلاماً وأكرمُهم أخلاقاً.

الكلام الممتنع

وكان يقال : خَيْرُ الكلامِ الطمِع الممتنع. وأنشد إبراهيم بن العباس الصولى لخاله العباس بن الأحنف(١) :

إليك أشكو ربِّ ما حَلَّ بى ... مِنْ صدِّ هذا العاتِب المُذْنِبِ
إنْ قال لَمْ يفعل وإن سِيلَ لم ... يبذلْ وإن عُوتِب لم يُعْتِبِ
صَبٌّ بعصيانى ولو قال لى ... لا تشرب الباردَ لم أشربِ

ثم قال : هذا واللهِ الشعر الحسن المعنى ، السهل اللفظ ، العَذْب المستمع، الصعب الممتنع ، العزيزَ النظير ، القليل الشبيه ، البعيد مع قُرْبه ، الحَزْن مع سهولته ، فجعل الناس يقولون : هــذا الكلام أحسن من الشعر . وقال أبو العباس الناشى يصف شعره :

الشعر الناشى.

يتحيَّر الشعراء إن سَمِعوا به ... فى حُسْنِ صنعتِه وفى تأليفهِ
فكأنه فى قُرْبه من فَهْمِهم ... ونكولهم فى العَجْزِ عن ترصيفهِ
شجرٌ بَدَا للعَيْنِ حسنُ نباتهِ ... ونأى عن الأيدى جَنَى مقطوفهِ
فإذا قرنت أبيّه بعُطيِهِ ... وقرنته بقَرِيبه وطريفه

---

(١) ديوانه : ١٤ .

ألفيت معناه يطابقُ لفظَه　　والنظم منـــه جليّه باطِنِه
فأتاه متّسِقا على إحسانه　　قد نِيطَ منه رَزِينه بخفيفه
هذّبتُه فجعلتُه لك باقيا　　ومنعت صرفَ الدهر عن تَصْرِيفه

وقال الناشىء في فَصْلٍ من كتابه في الشعر : الشعرُ قَيْدُ الكلام ، وعقل الآداب ، وسُورُ البلاغة ، ومَعْدن البَراعة، ومجال الجنان ، ومَسْرَحُ البيان ، وذريعة المتوسّل ، ووسيلةُ المتوصّل ، وذِمام الغريب ، وحُرْمَة الأديب ، وعِصْمَة الهارب ، وعدّة الراهب ، ورحلة الدّانى[(١)] ، ودَوْحَة المتمثل ، وروحة[(٢)] المتحمّل ، وحاكم الإعراب ، وشاهِدُ الصواب .

وقال في هذا الكتاب : الشعرُ ما كان مَسْهَلَ المطالع ، فصل المقاطع ، فَحْل المديح ، جَزْل الافتخار ، شجىّ النسيب ، فَكِه الغزل ، سائر المَثَل ، سليم الزلل ، عديم الخلل[(٣)] ، رائع الهجاء ، موجب المعذرة ، مُحَبّ العتبة ، مُطْمِع المسالك ، فائت المدارك ، قريب البيانِ ، بعيدَ المعانى ، نائى الأغوار ، ضاحِى القرار ، نقى المستشف ، قد هُريق فيه ماء الفصاحة ، وأضاء له نورُ الزجاجة ، فانهلّ في صَادِى الفهم ، وأضاء في بهيم الرأى . لمتأمله ترقرق، ولمستشفّه تألّق، يروقُ المتوسّم، ويسر المترسّم[(٤)] ؛ قد أبدت صدوره مُتُونه ، وزَهَتْ في وجوهه عيونه ، وانقادت كواهله لهواديه، وطابقت [ألفاظه معانيه، وخالفت أجناسه مبانيه، فاطّرد لمتصفحه، وأنار][(٥)] لمستوضحه ، وأشْبَه الروضَ في وَشْى ألوانِه ، وتممّم أفنانه، وإشراق نوّاره، وابتهاج أنجاده بأغواره ؛ وأشبه الوشى في اتفاق رُقُومِه، واتّساقِ رُسومه ، وتسطير كفوفه، وتحبير فُوفه ؛ وحكى العِقْد في التئام فُصولِه ، وانتظام وُصوله ، وازديان ياقوته بدُرِه، وفريده بشَذْرِه ، فلو اكتنف[(٦)] الإيجاز موارده ، وصقَلَت مَدَاوِس الدربة

---

(١) في ا : الوانى .　(٢) في ا : ومنحة .　(٣) في ا : الخطأ .
(٤) في ط : التبرم .　(٥) من ا .　(٦) في ط : قد كشف .

مَنَاصِلَه ، وشحذت مدارس الأدب فَيَاصِلَه[1] ، جاء سليما من المعايب ، مهذبا من الأدناس ، تتحاشاه الأُبَن ، وتتحاماه الهُجن ، مُهْدِيا إلى الأسماع بَهْجَته ، وإلى العقول حِكْمَته.

وقد قلت فى الشعر قولًا جعلته مثلا لقائليه ، وأسلوبا لسالكيه ، وهو :

الشعرُ ماقومت زَيْغ صدُورِه ... وشددْتَ بالتهذيب أَسْرَ مُتُونِه
ورأبْتَ بالإطناب شَعْبَ صدُوعِه ... وفتحْتَ بالإيجاز[2] عور عُيُونِه
وجمَعْتَ بين قريبـه وبعيدِه ... ووصَلْتَ بين مجمّـه ومَعِينِه
وعقدت منه لـكلّ أمرٍ يقتضى ... شبهاً به فقرَنْتَه بقرينِه
فإذا بكيتَ به الديارَ وأهلَها ... أجْرَيْتَ للمحزون ماءَ شُئُونِه
ووكلته بهمومه وغمومه ... دهراً فلم يَبْتَر الكَرَى بجفونِه
وإذا مدَحْتَ به جواداً ماجـداً ... وقضَيْتَه بالشُّكر حقّ دُيُونِه
أصفيته بنفيسه ورَصِينه ... ومنحتَه بخطيره وثمينِه
فيـكون جَزْلا فى اتّفاقِ صنُوفِه ... ويكون سَهْلا فى اتّسَاق فُنُونِه
وإذا أردتَ كنايةً عن ريبةٍ ... باينْتَ بين ظهورِه وبُطُونِه
فجعلت سامعَه يشوب شكوكَهُ ... ببيـانه ، وظنونَه بيقينِه
وإذا عتبتَ على أخٍ فى زَلّةٍ ... أدمَجْتَ شدّتَه له فى لِينِـه
فتركته مستأنِسا لدماثةٍ ... مستيئسا لوُعُورِه وحُزُونِه
وإذا نبذت إلى التى عُلّقتَها ... إن صارَمَتْك بفاتنات شئونه
تيمّتَهـا بلطيفه ورقيقه ... وشغفْتَها بخفيّه وكَمِينه
وإذا اعتذرتَ إلى أخٍ فى زلّةٍ ... واشكَلْتَ بين مُحِيله ومُبينِه
فَيَحُورُ ذَنْبُك عند من يعتدّهُ ... عَتْبا عليك مُطَالبا بيمينه

---

(١) فى ط : فواصله.. (٢) فى ا : بالإعجار عور .

والقولُ يَحْسُنُ منه فى مَنْثُورِه ما ليس يحسن منه فى مَوْزُونِه

ما يباح للشعراء

وقال الخليل بن أحمد : الشعراء أمراء الكلام ، يصرّفونه أنّى شاءوا ؛ وجائزٌ لهم ما لا يجوزُ لغيرهم : من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تصريف اللفظ وتعقيده، ومدّ مقصوره ، وقَصْرِ ممدوده ، والجمع بين لُغاتِه ، والتفريق بين صفاته .

وقال: الشعرُ حِلْيةُ اللسان، ومَدْرجةُ البيان، ونظامُ الكلام ، مقسومٌ غيرُ محظور ، ومشتركٌ غير محصور ، إلا أنه فى العرب جَوْهريّ ، وفى العجم صناعى .

قال أعرابى لشاعر من أبناء الفرس : الشعرُ للعرب، فكلُّ مَنْ يقول الشعر منكم فإنما نَزَا على أمّه رجلٌ منا ! فقال الفارسى: وكذلك من لا يقولُ الشعرَ منكم فإنما نَزَا على أمّه رجل منا !

أجود الشعر

وقال عمارة بنُ عقيل : أجودُ الشعر ما كان أمْلَسَ المتونِ ، كثيرَ العيون ، لا يمجُّه السمع ، ولا يستأذِنُ على القلب.

وأنشد الجاحظ شعرَ أبى العتاهية فلم يَرْضَه ، وقال : هو أملَسُ المتون ، ليس له عيونٌ ، كأنه وعمارة تجاذبا كلاماً(١) واحداً .

وقال ابن عقيل : الشعر بضاعةٌ من بضائع العرب ، ودليلٌ مِنْ أدلّةِ الأدب ، وأثارة من أثارات(٢) الحسب . ولن يهزّ الشعر إلا الكريم المَحْتِد ، الكثير السؤدد ، الكلِف بذِكْرِ اليوم والغَد .

ومدح بشار المهديّ فلم يُعطِه شيئا ، فقيل له: لم تُجِدْ فى مَدْحه . فقال : لا والله، لقد مدَحْته بشعرٍ لو قلت مثلَه فى الدهر لما خيف صَرْفُه على حُرّ ، ولكنى أكذب فى العمل ، فأكذب فى الأمل . نظمه التاجم فقال :

ولى فى أحمدٍ أملٌ بَعيد ومَدْحٌ حين أنشده طريفُ
مدائحُ لو مدَحْتُ بها الليالى لما دارتْ علىّ لها صروف

---

(١) فى ط . كأنه وعارة تجاريا كلاما واحدا .

(٢) فى ط : وأثارة من سالف ذوى الحسب .

وصف جرير والفرزدق والأخطل

قال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان : صِفْ لى جريراً والفرزدق والأخطل . فقال : يا أمير المؤمنين ، أما أعظمهم فخراً ، وأبعدهم ذكرا ، وأحسنهم عُذْرا ، وأسْيرهم مَثَلاً ، وأقلّهم غزلا ، وأحلاهم عِللا ، البحر الطامى إذا زخر[1] ، والحامى إذا ذعر ، والسامى إذا خطر ، [الذى إذا هدر جال ، وإذا خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق . وأما][2] أحسنهم نعتا ، وأمدحهم بيتا ، وأقلهم فوْتا ، الذى إن هجا وضع ، وإن مدح رَفَع ، فالأخطل . وأما أغزَرُهم بحرا ، وأرقّهم شعراً ، وأكثرهم ذِكرا ، الأغرّ الأبلق ، الذى إن طَلَب لم يسبق ، وإن طُلب لم يلحق فجرير . وكلهم ذكىُّ الفؤادِ ، رفيع العماد ، وَارِى الزناد .

قال مسلمة بن عبد الملك ، وكان حاضرا : ما سمعنا بمثلك يابن صفوان فى الأولين ولا فى الآخرين ، أشهدُ أنك أحسنُهم وصفا ، وألْيَنُهم عِطفا ، وأخفُّهم مقالا ، وأكرمهم فعالا .

فقال خالد : أتم الله عليك نِعَمه ، وأجزل لك قِسَمه . أنتَ والله أيها الأمير — ما علمت — كريمُ الغِراس ، عالمٌ بالناس ، جوادٌ فى المَحْل ، بسّام عند البَذْلِ ، حليم عند الطَّيْشِ ، فى الذُّرْوَة من قريش ، من أشراف عبد شمس ، ويومك خيرٌ من الأمس .

فضحك هشام وقال : ما رأيت مثلك يا بن صفوان لتخلُّصك فى مَدْح هؤلاء ، ووصفهم ، حتى أرضيتَهم جميعاً وسَلِمْتَ منهم .

العجاج والهجاء

ودخل العجّاجُ على عبدِ الملك بن مروان فقال له : بلغنى أنك لاتُحْسِن الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ قَدَر على تشييد الأبنية ، أمكنه خَرابُ الأخبية ، قال : ما يمنعُك من ذلك ؟ قال : إنّ لنا عِزّا يمنعُنَا من أن نُظْلَم ، وحِلْماً يمنعنا من أنْ نَظلِم . قال : لَكلماتُك أحسنُ من شعرك ! فما العزُّ الذى يمنعك أن تُظْلَم ؟ قال : الأدب [البارع ، والفَهْم الناصع . قال : فما الحِلْمُ الذى يمنعُك من أن تظلم ؟ قال : الأدب][3] المستطرف ، والطبع التالد . قال : لقد أصبحت حكيما . قال : وما يمنعنى

(١) ق ا : زجر . (٢) ليس ق ا . (٣) من ا .

من ذلك وأنا نَجِيُّ أميرِ المؤمنين ؟

قال أبو إسحاق : وليس كما قال العجاج ؛ بل لكثير من الشعراء طباع تَنْبُو عن الهجاء كالطائى وأضرابه ، وأصحابُ المطبوع أقدرُ عليه من أهل المصنوع ، إذ كان الهجو كالنادرة التى إذا جَرَتْ على سجيَّةِ قائلها ، وقَرُبتْ من يَدِ متناولها ، وكانَ واسِع العطن ، كثير الفطن ، قريب القلب من اللسان، التهبَت بنارِ الإحسان .

المقامة القريضية للبديع

ومما يَنْحُو هـــذا النحو من مقامات أبى الفتح الإسكندرى إنشاء بديع الزمان قال[١] : حدثنا عيسى بن هشام قال : طرحَتْنِى النوَى مطارِحَها ، حتى إذا وطِئْتُ جُرْجان الأقصَى ، فاستظهرْتُ على الأيام بضِياعٍ أجَلْتُ فيها يَدَ العِمَارة ، وأموالٍ وقفتُها على التجارة ، وحانُوتٍ جعلتُه مَثابةً ، ورُفقة اتخذتهم صَحَابة ، وجعلتُ للدار حاشِيَتى النهار ، والحانوتِ ما بينهما ؛ فجلسنا يوما نتذاكرُ الشعر والشعراء ، وتلقَّانا شاب قد جلس غيرَ بعيد ، يُنْصِت وكأنه يفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم[٢] ، حتى إذا مال الكلامُ بنا مَيْلَه، وجر الجَدل فينا ذَيْلَه قال: أصبتم عُذَيْقه[٣]، ووافيتم جُذَيْلَه[٤] ، ولو شئْتُ للفظت [فأفَضْت][٥] ، ولو أردت لسردت ، ولجلوت الحقَّ فى معرض بيانٍ يُسْمِعُ الصمّ ، ويُنْزِل العُصم . فقلت : يا فاضل ، أدْنُ فقد منَّيْتَ ، وهاتِ فقد أثنيت ، فدنا وقال : سَلُونى أجِبْكم ، واستمعوا أعْجِبكم . قلنا : فما تقول فى امرئ القيس ؟ قال : هو أول مَنْ وقَف بالديار وعَرَصاتِها ، واغتَــدى والطيرُ فى وُكُناتها ، ووصف الخيلَ بصفاتها ، ولم يقل الشعرَ كاسِبا ، ولم يُجِــدِ القولَ راغبا ، ففَضل مَنْ تفتّقَ لِلْحِيلة لسانُه ، وانتجَعَ للرغبة بنانُه .

قلنا : وما تقول فى النابغة ؟ قال : ينسب إذا عَشِق ، ويَثْلُبُ إذا حَنِق ، ويمدح إذا رَغِب ، ويعتذر إذا رَهِب ، فلا يرمى إلا صائبا .

---

(١) المقامات ٨ . (٢) فى ا : يندم . (٣) عذيق : تصغير عذق : النخلة بحملها .
(٤) الجذيل : تصغير الجذل : عود ينصب للجربى تحتك به . (٥) من ا .

قلنا : فما تقول فى طَرَفة ؟ قال : هو ماء الأشعار وطينتها ، وكَنْز القوافى ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرارُ دفائنه ، ولم تطلق عِتاق[1] خزائنه .

قلنا: فما تقول [فى زهير؟ قال: يُذيب الشعرَ والشعرُ يذيبه، ويدعو القولَ والسِّحْرُ يجيبه . قلنا : فما تقول][2] فى جرير والفرزدق ؟ قال : جرير أرقّ شعرا ، وأغزر غزرا ، والفرزدق أمتن[3] صخرا ، وأكثر فخرا ، وجرير أوجع هَجْوا ، وأشرف يوما ، والفرزدق أكثر روما[4] ، وأكرم قوما ، وجرير إذا نَسَب أشجَى ، وإذا ثَلَب أرْدَى ، وإذا مدح أسنى ، والفرزدق إذا افتخر أجْزى ، وإذا وصف أوفى ، وإذا احتقر أزرى . قلنا : فما تقول فى المحدَثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال : المتقدمون أشرفُ لفظا ، وأكثرُ فى المعانى حظًا ، والمتأخّرون ألطفُ صُنْعا ، وأرقُّ نَسْجا . قلنا : فلو أريتَ من أشعارك، وروَيْتَ من أخبارك . قال : خُذْها فى معرض واحد ، وأنشد :

أمَا ترَوْنِى أتغشّى طِمْرا مُلتَحِفا فى الضُّرِّ أمْرًا إمْرًا[5]
منطويا عَلَى الليـــالى غِمْرا ملاقِيا منها صروفا حُمْرا
أقصى أمانِىَّ طلوعُ الشِّعْرَى فقـد عُنِينا بالأمانى دَهْرًا
وكان هذا الحُرُّ أعلى قَدْرا وماء هذا الوجهِ أغلَى سِعْرًا
ضربت للسَّرْوِ قِبابا خُضْرًا فى دارِ دارًا وإيوان كِسْرَى
فانقلبَ الدهرُ لبطْنٍ ظَهرا وعادعُرْفُ العَيْشِ عندى نُكْرًا
لم يَبْقَ مِنْ وَفْرِى إلا ذِكْرًا ثمَّ إلى اليوم هلمَّ جَرًّا
لولا عجُوزٌ لى بسُرَّ مَنْ را وأفرُخٌ دُونَ جبالِ بُصْرَى
قد جلَبَ الدَّهرُ إليهم شرًّا قتَلْتُ ياسادةُ نَفْسِى صَبْرًا !

(١) فى ا : تفتح أغلاق . (٢) من ا . (٣) فى ا : أمكن صخرا وأكثر فخرا .
(٤) فى ا : روما . (٥) فى ط ، والمقامات : أمرا مرا .

قال عيسى بن هشام : فتلتُه ماتَلَ، وأعرض عنّا فَراحَ ، وجعلتُ أُنفيه وأُثبته، وأُنكره وكأنى أعرفُه ، ثم دلّتنى عليه ثناياه ، فقلت : الإسكندرى والله ! فقد كان فارقَنــا خِشْفا ، ووافانا جِلْفا[1] ، ونهضتُ على أثره ، ثم قبضتُ على خَصْرِه ، وقلت : ألستَ أبا الفتح ؟ ألم نُرَبِّك فينا وَليدا ، ولبثتَ فينا من عُمرك سنين ، فأىُّ عجوزٍ لكَ بسرّ مَنْ رأى ؟ فضحك وقال :

ويحك[2] هذا الزمان زُورُ فلا يغرّنّكَ الغُرُورُ
غرِّق وبرِّق وكل وطرِّق وأسرف وطلّق لمن تَزُورُ[3]
لا تلتزم حالةً ولــكن دُرْ بالليــالى كما تدُورُ

المقامة الغيلانية

ومن إنشائه مقامة ولّدها على لسان عِصْمة وذى الرُّمّة قال[4] : حدثنا عيسى ابن هشام قال: بينا نحن فى مجتمع لنا ومعنا يومئذ رجلُ العرب حِفْظا ورِوَاية عِصْمَة ابن بَدْر الفَزَارى ، فأفضَى الـكلامُ إلى ذِكْرِ من أعرضَ عن خَصْمِه حِلْماء أو أعرض عنه خَصْمُه احتقارا ، حتى ذكر الصَّلَتان العَبْدى والَّلعِين[5] المنقرى ، وما كان من احتقارِ جرير والفرزدق لهما. فقال عصمة: سأحدّثـكم بما شاهدَته عينى، ولاأحدّثـكم عن غيرى : بينا أنا أسيرُ فى بلاد تميم مرتحلا نَجيبة ، وقائدا جَنيبة ، عنّ لى راكبٌ على أَوْرَقَ جَعْد اللُّغَامِ[6] ، فاجتاز بى رافعا صَوْتَه بالسلام ، فقلت : مَنِ الراكبُ الجهيرُ الـكلامِ ، المحيِّى بتحيّةِ الإسلام ؟ فقال: أنا غَيْلَان بن عُقْبَة . فقلت : مرحبا بالـكريم حَسَبُه ، الشهير نَسَبُه ، السائر منطِقُه . فقال: رَحُبَ وَادِيك ، وعزّ ناديك فمن أنت؟ قلت: عِصْمَةُ بنُ بَدر الفزارى . فقال: حياك الله، نعم الصديقُ، والصاحبُ

---

(١) الخشف : ولد الظبية ، والجلف : الجافى الغليظ . (٢) فى ا : ويلك .
(٣) هذا البيت ليس فى المقامات ، وقد روى فى ا :
غرق وبرق وكل وأطرق واسرق وطلق لمن تزور
(٤) المقامات : ٤٤ . (٥) فى ط ، والمقامات : والبعيث ، وهذ من ا .
(٦) الأورق : الجمل فيه بياض وسواد ، وجعد اللغام : كثير الزبد .

والرفيقُ . وسِرْنا فلما هجَّرنا قال : ألا نغوِّرُ[1] يا عِصْمَةَ فقــد صهرَتْنَا الشمسُ ؟ فقلت: أنتَ وذاكَ، فلنا إلىشجرات [ألاءٍ][2] كأنهن عذارَى متبرِّجات، قد نشَرْنَ الغدائرَ، وسرحن الضفائرَ، لأَثَلاتٍ متناوحات ؛ فحطَطْنا رِحالَنا ، ونِلْنَا من الطعام. وكان ذو الرمة زهيدَ الأكل ، وزال كلٌّ منا إلى ظل أثلة يريدُ القائلَةَ ، واضطجع ذو الرُّمة ، وأردتُ أن أصنَعَ صنيعَه ، فولَّيتُ ظَهرِى الأرض ، وعيناىَ لا يملكُهما غُمض . فنظرتُ غيرَ بعيدٍ إلى ناقةٍ كَوْماء ، قد ضَحِيَتْ وغَبِيطُها مُلْقًى[3] ، وإذا رجل قائم يكلؤها كأنه عَسيفٌ أو أسيف[4] . فلَهِيتُ عنهُما ، وما أنا والسؤال عما لا يَعْنِينى! ونام ذو الرُّمة غِرَاراً، ثم انتبهَ، وكان ذلك فى أيام مُهاجاته لذلك المرئىّ[5]، فرفع عقيرتَه ينشد فيه :

أمِنْ مَيَّةَ الطَّلَلُ الدارسُ ... ألظَّ به العاصِفُ الرَّامِسُ[6]

فلم يَبْقَ إلاشجيجَ القَذَال[7] ... ومُسْتَوْقَدٌ ماله قابِسُ

وحَوْضٌ تَثَلَّمَ من جانبَيْهِ ... ومحتَفَلٌ دَائِرٌ طامِسُ .

وعَهْدِى بهِ وبه سَكْنُه ... ومَيَّةُ والإنس والآنس

ستأتى امرأ القيس مأثورةً ... يغنِّى بها العابرَ الجالسُ

ألم تر أنَّ امرأ القَيْس قد ... ألظَّ به داؤه الناجسُ[8]

همُ القومُ لا يألَمُون الهجاء ... وهل يألَمُ الحَجَرُ اليابِسُ

فما لهمُ فى الفَلا راكِبٌ ... ولا لهمُ فى الوغَى فارِسُ

إذا طَمَحَ الناسُ للمكرمات ... فطرْفُهمُ المطرِقُ الناعِسُ

تَعافُ الأكارِمُ إصهارَهم ... فكل نسائهمُ عانِسُ

---

(١) نغور : نقيل ، وفى ط : نقيل . (٢) ليس فى ا ، والألاء : شجر ريف الظل .
(٣) كوماء : عظيمة السنام ، وضحيت : أصابتها الشمس . (٤) العسيف : الأجير ، والأسيف : العبد ، وفى ا : يكلؤه . (٥) فى ط : المرء . (٦) ألظ به : لازمه ، والعاصف : الشديد ، والرامس : الذى يجلب عليه التراب ليخفيه . (٧) شجيج القذال : مكسور الرأس ، ويريد به الوتد .
(٨) الناجس : الذى يلازم صاحبه ولا ينفع فيه فى الطب ، وفى ا : بها داؤها الناجس .

فلما بلغ هذا البيت جعل ذلك النائم يمسحُ عينيه ويقول: أذو الرُّمَيْمَة يمنعني النومَ بشعرٍ غيرِ متقَّف ولا سائر. فقلت: ياغيلان، مَنْ هذا؟ فقال: الفرزد[1]، يعني الفرزدق، وحَمِى ذو الرمة فقال:

وأمّا مُجاشعُ الأرذَلُون ... فلم يسْقِ مِيتَهم[2] رَاجِسُ
سَيَعْقِلُهم عن مَساعي الكِرَام ... عِقَالٌ ويَحْبِسُهم حَابِسُ

فقلت: الآن [يَشْرق فيثور، و][3] يعمُّ الفرزدق هذا وقبيلَه بالهجاء. فوالله مازاد على أنْ قال: قبحاً لك ياذا الرُّمَيْمَة! أتعرِضُ لمثلي بعقَال[4] مُنْتَحل! ثم عاد في نَوْمِه كأن لم يسمَعْ شيئا، وسار ذُو الرّمة وسِرْتُ وإني لأرى فيه انكساراً حتى افترقنا.

* * *

استطراد في النقد

قوله فيما ولد على الفرزدق[5] بعقال مُنْتَحل، يريد أن البيتَ الأخير منقول من قول جرير[6]:

ألم تر أنّ الله أخزَى مجاشِعاً ... إذا ما أفاضَتْ في الحديث المجالسُ
وما زال معقولاً عِقالٌ عن الندى[7] ... ومازال محبوساً عن المجد حَابِسُ

عقال بن محمد بن [سعيد بن][8] مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، وهو جدّ الفرزدق. وحابس بن عقال بن محمد بن سُفْيان بن مُجاشع ابن دارم، وهو أبو الأقرع[9] بن حابس أحدُ المؤلّفة قلوبهم.

فقر في الشعر

قيل لابن الزِّبَعْرَى: لِمَ تقصّر أشعارك؟ فقال: لأنها أَعْلَق بالمسامع، وأجْوَل فىالأشعار

---

(١) في ط: فقال الفرزدق. (٢) في ط: منبتهم، والراجس: السحاب.
(٣) ليس في ا. (٤) بفعال. (٥) في ا: قلت قوله فيما ولد على الفرزدق.
(٦) البيت الثاني وحده في ديوانه: ٣٢٦. (٧) في الديوان: عن العلا.
(٨) من ا. (٩) في ا: جد الأقرع.

فى المحافل . وقيل ذلك لعقيل بن عُلَّفة فى أهاجيه فقال : يكفيك من القِلَادَة ما أحاط بالعُنُق .

كذب الشعر

غيره — لسانُ الشاعر أرض لاتُخْرِج الزهر حتى تستسلفَ المطر ، وما ظنّك بقوم الاقتصارُ محمود إلا فيهم ، والكذب مذموم إلا منهم . إياكم والشاعر فإنه يطلب على الكذب مَثُوبة ، ويقرع[1] جليسه بأدنى زَلّة .

أبو القاسم الصاحب بن عباد — النثر يتطايَرُ كتطايُر الشرر ، والنظم يبقى بقاء النَّقْش فى الحَجَر .

الزحاف فى الشعر

أبو عبيدة : الزِّحاف فى الشعر كالرُّخْصَة فى الدين لا يُقدِم عليها إلا فقيه .

وقال أبو فراس الحمدانى :

تناهَضَ الناسُ للمعالى ... لَمَّا رأَوْا نحوَها نُهوضى
تكلفوا المكرمات كَدّا ... تكلُّفَ الشعرِ بالعَرُوضِ[2]

وقد مدح الجاحظ العروض وذمّها ، فقال فى مدحها : العروض ميزان ، ومعراض بها[3] يعرَفُ الصحيح من السقيم ، والعليل من السليم ، وعليها[4] مدَارُ الشعر ، وبها[4] يسلم من الأَوَدِ والكَسْر . وقال فى ذمّه : هو علم مُوَلّد ، وأدب مستَبْرَد ، ومذهب مرفوض ، وكلام مجهول ، يستكِدّ[5] العقل بمستفعلن وفعول ، من غير فائدة ولا محصول .

من مفردات الأبيات فى هذا المعنى

ومن مفردات الأبيات فى هذا المعنى قول دعبل :

يموتُ رديء الشعر من قبل أهْلِهِ ... وجَيِّدُه يَبْقَى وإن ماتَ قائلُه

البحترى :

أعْيَا علىَّ فلا هَيَّابةٌ فَرِقٌ ... يَخْشَى الهجاءَ ولا هَشٌّ فيُمتدَحُ

---

(١) فى ا : ويفزع . (٢) فى ط : للعروض . (٣) فى ط : ومعياره .
(٤) فى ط : وعليه ، وبه . (٥) فى ط : يستكد .

آخر :

مما يَقتُل الشعراء غمّاً … عداوة من يُغَلّ[١] عن الهجاء

أحمد بن أبي فَنَن :

وإنّ أحقّ الناس باللوم[٢] شاعرٌ … يَلوم على البخلِ اللئام ويَبْخَلُ

وهذا كقول على بن العباس الرومى فى أبى الفياض سَوّار بن أبى شُرّاعة وكان سوّار شاعراً مجيداً :

يا مَنْ صناعتُه الدعاء إلى العُلَا … ناقَضْتَ فى فِعليك أىّ نِقاضِ

عجباً لحضّاض الكِرام على الذى … هو فيه محتاجٌ إلى حَضّاضِ

وَصَفَ المكارِم وهْو فيها زاهِدٌ … ورأى الجميلَ وفيه عنه تَغاضِ

لم ألقَ كالشعراء أكثر حارضا[٣] … وأشدّ معتبةً على الحَرّاضِ

كم فيهمُ من آمرٍ برشيدةٍ … لم يأتِها ومرغِّبٍ رفّاضِ[٤]

يا حسرتى لمودّةٍ أدبيةٍ … لم تفترق عنها افتراقَ تراضِ

ليس العتابُ بنافعٍ فى قاطعٍ … أغيا المشيبُ تتابعَ القِرّاضِ

ثم قال بعد هذا التبكيت والعِتاب ما منعه أن يتوهّم أنه هجاء[٥] :

وَلَمَا هجوتك بل وعظتُك إنّنى … لاأجعلُ الأعراض كالأغراضِ[٦]

فاكفُفْ سِهامَكَ عن أخيك فإنما … آسَفْتَه فرَماك بالمِراضِ[٧]

فتى حلمتَ وجدتَ أخفَّ دَهْرِهِ … ومتى جهلت مُنيت بالرّماضِ

فاعذِر أخاك على الوعيد فإنما … أنذرت قبل الرَّمْى بالإنباضِ[٨]

---

(١) فى ط : يغل . (٢) فى ا : باللوم . (٣) حرض : طال همه . وفى ط : صارخا .

(٤) فى ط : عن قاض . (٥) ديوانه ٣٢ . (٦) فى ا : كالأعراض .

(٧) آسفه : أغضبه ، وفى ط : أثبته . والمراض : سهم يصيب يمرضه دون حده .

(٨) نبض فى قوسه : حرك وترها لترن كأنبض .

[واعلم وقيت الجهلَ أن خساسةً ... بطرُ الغنى ومذلّةُ الإبماض][1]

ثم هجاه بقوله :

وما تكلمتَ إلّا قلت فاحشةً ... كأن فكّيك للأعراض مقراضُ

مهما تقل فسِهامٌ منك مرْسَلةٌ ... وفوك قوسُك والأعراض أغراض

وابن الرومى هذا كما قال مسلم بنُ الوليد الأنصارى فى الحكم بن قنبر المازنى :

عابنى من معايبٍ هُنّ فيهِ ... حكمٌ فاشتفى بهامن هجائى

وكما قال الآخر :

ويأخذ عيبَ الناسِ من عَيْبِ نفسه ... مرادٌ لعمرى ما أرادَ قريبُ .

[الأحنف بن قيس]

وفوده على عمر — وروى عيسى بن دَأب قال : أوّل ما عرف الأحنف بن قيس وقدّم أنه وفد على عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان أحدث القوم سنّا ، وأقبحهم منظراً ، فتكلم كلُّ رجل من الوَفْدِ بحاجته فى خاصته ، والأحنف ساكتٌ ، فقال له عمر : قل يا فتى! فقام فقال: ياأميرَ المؤمنين ، إنّ العرب نزلتْ بمساكن طيبة، ذات ثمار وأنهار عِذَاب، وأكنّة ظليلة ، ومواضع فسيحة ؛ وإنا نزلنا بسبخةٍ نشاشة ، ماؤها مِلْح ، وأفنيتها ضيقة، وإنما يأتينا الماء فى مثل حلق النعامة؛ فإلّا تدركنا ياأمير المؤمنين بحفر نهر يغزر ماؤه، حتى تأتىَ الأمة فتغترف بجرّتها وإنائها أوشك أن نهلك ، قال : ثم ماذا ؟ قال : تزيد فى صَاعِنا ومُدّنا ، وتثبت من تلاحق فى العطاء من ذريتنا . قال : ثم ماذا ؟ قال : تخفّف عن ضعيفنا ، وتنصف قوينا ، وتتعاهد ثغورنا ، وتجهز بعثنا ، قال : ثم ماذا؟ قال : إلى هاهنا انتهت المطالبِ ، ووقف الكلام . قال : أنت رئيس وَفْدِك ، وخطيب مِصرك ، قم عَنْ موضعك الذى أنت فيه . فأدناه حتى أقعده إلى جانبه ، ثم سأله عن نسبه ، فانتسب له ، فقال : أنت سيدُ تميم ، فبقيت له السيادة إلى

(١) من ا .

أن مات . وهو الأحنف ، واسمُه الضحّاك بن قيس بن معاوية بن حصين بن حصن ابن عبادة بن النزال بن مرة بن عبيد بن مقاعس بن عمرو بن كعب بن [سعد بن][1] زيد مناة بن تميم .

من كلام الأحنف

وقال بعض بنى تميم[2] : حضرتُ مجلس الأحنف وعنده قومٌ مجتمعون له فى أمر لهم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنّ الكرمَ مَنْعُ الحرم ، ما أقربَ النقمةَ من أهل البَغْى ، لا خيرَ فى لذّةٍ تُعقِب ندماً ، لم يهلك من اقتصد ، ولم يفتقر من زهد[3] ، رب هزْل قد عاد جِدًّا ، من أَمِن الزمان خانه ، ومن تَعَظّم عليه أهانه ، دَعُوا المِزَاحَ فإنه يُوْرِثُ الضغائن ، وخيرُ القول ما صدّقه الفِعْل ، احتملوا لِمَنْ أدلّ عليكم ، واقبلوا عُذْرَ من اعتذر إليكم ، أطِعْ أخاك وإن عَصَاك ، وصِلْهُ وإن جفاك ، أنصِفْ مِنْ نفسك قبل أن يُنتَصفَ منك ، إيّاكم ومشاوَرَةَ النساء ، واعلم أنّ كُفْرَ النِّعَم لؤم وصُحْبَةَ الجاهل شُؤم ، ومن الكرم الوفاء بالذّمم ، ما أقْبَحَ القطيعةَ بعد الصلةِ ، والجفاءَ بعد اللُّطف ، والعداوة بعد الوُدّ ، لا تكونَنّ على الإساءةِ أقوى منك على الإحسان ، ولا إلى البُخْل أسرعَ منك إلى البَذْل ، واعلَمْ أنّ لك من دُنياك ما أصلحت به مَثْوَاك ، فأنفق فى حَقّ ، ولا تكن خازِناً لغيرك ، وإذا كان الغَدْرُ موجوداً فى الناس فالثِّقَةُ بكل أحدٍ عَجْز ؛ اعرِفِ الحقّ لمن عرَفَه لك ، واعلم أنّ قطيعةَ الجاهلِ تَعْدِل صلةَ العاقل . قال : فما سمعتُ كلاماً أبلغَ منه . فقمت وقد حفظته .

وصفه للبنين فى مجلس معاوية

ودخل الأحنف على معاوية ويزيدُ بين يديه وهو ينظرُ إليه إعجاباً فقال : ياأبا بحرٍ ، ما تقولُ فى الولد ؟ فعلم ما أراد ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، هم عمادُ ظهورنا ، وثمرُ قلوبنا ، وقرة أعيننا ، بهم نَصولُ على أعدائنا ، وهم الخلف منا بَعْدَنا ، فكن لهم أرضاً ذليلة ، وسماء ظليلة ، إن سألوك فأعْطِهم ، وإن استعتبوك فأعْتِبْهم . ولا

(١) من ا . (٢) الأمالى ٢ — ٢٠ ، ذيل اللآلى : ٥٦ .
(٣) فى ا : [لم يفتقر من قصد ولم يهلك من زهد] .

تَعَهُّمُ رِفْدَكَ فيملّوا قُرْبَك ، ويستثقلوا حياتَك ، ويتمنّوا وفاتك . فقال : لله درُّك يا أبا بَحْر ، هُمْ كما قلت !

من شعر الأحنف

وزعمت الرواة أنها لم تسمع للاحنف إلّا هذين البيتين :

فلو مدّ سَرْوى بمالٍ كثير   لجدتُ وكنتُ له باذِلا

فإنّ المروءةَ لا تستطاع   إذا لم يَكُنْ مالُها فاضِلا

وكان يُبَخَّل . وقال لبنى تميم : أتزعمون أنى بخيل! والله إنى لأشير بالرَّأى قيمتُه عشرةُ آلاف درهم ! فقالوا : تقويمك لرأيك بُخْل . وكان الأحنفُ من الفضلاء الخطباء النُّسَّاك ، وبه يُضْرَب المثل فى الحِلْم .

استغفار النبى له

وقد ذُكر للنبى صلى الله عليه وسلم فاستغفَر له ؛ فقد بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم رجلا[(١)] إلى قومه بنى سَعْد يَعْرِض عليهم الإسلام ، فقال الأحنف : إنه يدعوكم إلى خَيْر ، ولا أسمعُ إلا حسناً . فذُكِر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : اللهم اغفِر للأحنف . وكان الأحنفُ يقول : ما شىء أرْجَى عندى مِنْ ذلك .

وصف الأحنف

قال عبدُ الملك بن عُمَيْر : قدم إلينا الأحنفُ ، فما رأينا خصلةً تُذَمّ فى رجل إلّا رأيناها فيــه ، كان أصلع[(٢)] الرَّأس ، متراكب الأسنان ، أشْدَق ، مائل الذَّقن ، ناتئ الوجنتين ، باخق[(٣)] العينين ، خفيفَ العارضين ، أحنف الرِّجلين ، وكانت العين تقتحمُه دمامةً وقِلّةَ رُواء ، ولكنه إذا تكلّم جَلّى عن نفسِه . وهو الذى خطب بالبصرة حين اختلفت الأحياء ، وتنازعت القبائل ؛ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا معشرَ الأزد [وربيعة][(٤)] ، أنتم إخوانُنا فى الدين ، وشركاؤنا فى الصِّهْر ، وأكفاؤنا فى النسب ، وجيرانُنا فى الدار ، ويدُنا على العدُوّ ، والله لأزْدُ البَصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة ، [ولأزد الكوفة أحبّ إلينا من تميم الشام][(٥)] ، وفى أموالنا وأحلامنا سعة لنا ولكم .

---

(١) فى ط : رجلا من بنى ليث . (٢) فى ا : صعل . (٣) البخق : أقبح العور ، أو ألا يلتق شفر عينيه . وفى ط : ماحق . (٤) ليس فى ا . (٥) من ا .

وقد قام خطباء البصرة في هذا اليوم وتكلّموا وأسهبوا، فلما قام الأحنف أصْغَت من كلامه القبائلُ إليه ، وانثالَتْ عليه ، وقال الناس : هذا أبو بَحْرٍ ، هذا خطيب بني تميم ، وحضر ذلك الجمع جاريةٌ لآلِ المهلب فذهبتْ ترومُ النظر إليه ، فاعتاص ذلك عليها ، فأشرفَتْ عليه من دارها ، فلما رأته والأبصارُ خاشعةٌ لكلامه، ورأت دمامةَ خَلْقِه، وكثرةَ آفاتِ جوارِحه ، قالت : فُقِدَتْ هذه الخِلْقة ولو افترّتْ عن فَصْلِ الخطاب.

وذكر المدائني أنّ الأحنفَ بن قيس وفدعلى معاوية رضي الله عنه مع أهل العراق، فخرج الآذِنُ ، فقال : إنّ أميرَ المؤمنين يعزم عليكم ألّا يتكلّمَ أحدٌ إلّا لنفسه ، فلما وصلوا إليه قال الأحنف : لولا عَزْمَةُ أميرِ المؤمنين لأخبرته أن دافّةً دَفّتْ ، ونازلةً نزلَتْ ، ونابتة نبتَتْ ، كلهم بهم حاجة إلى معروفِ أمير المؤمنين وبرّه. قال : حسبك يا أبا بحر ، فقد كفيت الشاهِدَ والغائب .

ولما عزم معاوية على البيعة ليزيد كتب إلى زياد أن يوجّه إليه بوَفْد أهلِ العراق ، فبعث إليه بوَفْدِ البصرة والكوفة ، فتكلّمت الخطباء في يزيد ، والأحنف ساكِتٌ ، فلما فرغوا قال : قل يا أبا بَحْرٍ ، فإنّ العيونَ إليك أشْرَعِ منها إلى غيرك. فقام الأحنف فحمد الله وأثنى عليه ، وصلّى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنك أعلَمُنا بيزيدَ في ليله ونهاره ، وإعلانه وإسراره ، فإنْ كنتَ تَعْلَمُهُ لله رضا فلا تشاوِرْ فيه أحداً ، ولا تُقِمْ له الخطباء والشعراء ، وإن كنتَ تعلم بُعْدَه من الله فلا تزوّده من الدنيا وتَرْحَل أنْت إلى الآخرة ؛ فإنك تَصير إلى يومٍ يفرُّ المرء من أخيه ، وأمّه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . قال: فكأنه أفْرِغ على معاوية ذَنوب ماء بارد. فقال له : اقعُدْ يا أبا بَحْرٍ ؛ فإن خِيرَةَ الله تَجْرِي ، وقضاء الله يمضي، وأحكام الله تنفذ، لا مُعَقِّبَ لحكمه ، ولا رادّ لقضائه ؛ وإن يَزِيدَ فتًى قد بلَوْنَاه ، ولم نجِدْ في قريش فتى هو أجْدَر [illegible] المؤمنين ، أنت تَحْكِي عن شاهد ، ونحن نتكلّمُ على غائب ، وإذا أراد الله شيئاً كان .

* * *

استطراد

قال ابن الرومى[1] :

إن امرأً رَفَضَ المكاسب واغتدى   يتعلَّمُ الآدابَ حتى أحكما
فكسا وحَلَّى كلَّ أروَعَ ماجد   من حُرِّ ما حاكَ القريضَ ونظَّما
ثقة برِعْى الأكرمين حقوقَه   لأحقّ ملتمسٍ بألّا يُحرَما

إلحاح الشعراء

قال أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمّار : ومن نادرِ شعر أبى الحسن فى هذا المعنى قوله ، ووصف إتعابَ الشعراء أنفُسَهم بدءوبهم فى صناعتِهم ، وما يتصرّم من أعمارهم ، وأن إلحاحَهم فى طلَبِ ما فى أيدى من أسلفُوه مديحَهم لو كان رغبةً منهم إلى ربّهم كان أجْدَى عليهم ، وأقرب من دَرك بُغيتهم ، وأنجح طلبتهم ، ثم انحرف إلى توبيخ من مَدَحه فحرمه بأحسن عبارة ، وأرضى استعارة ، فقال[2] :

للناس فيما يكلفون مَغارِم   عند الكرّام لها قَضاءُ ذمامِ
ومغارم الشعراء فى أشعارهم   إنفاق أعمارٍ وهَجْر مَنَامِ
وجفاء لذاتٍ ورفضُ مكاسب   لو حُولفت حرستْ من الإعدام
وتشاغُل عن ذكر ربٍّ لم يَزَلْ   حسن الصنائع سابغ الإنعام
من لو بخدمته تشاغل معشرٌ   خدموكم أجْدَى على الخدّام
أفما لذلك حُرْمة مرعيّة   إنّ الكرامَ إذاً لغيرُ كِرامِ
لم أحتسِبْ فيك الثوابَ بمدْحتى   إياك يابنَ أكارمِ الأقوامِ
لو كان شعرى حِسبة[3] لم أكسُهُ   أحداً أحقّ به من الأيتام
لاتقبلنّ المدْحَ ثم تعافه[4]   فتنام والشعراء غيرُ نيامِ
واحذَرْ مَعَرّتهم إذا دَنّستهم[5]   فلهم أشدُّ[6] مَعَرّة العُرّام
واعلَمْ بأنهمُ إذا لم يُنْصَفوا   حكموا لأنفسهم على الحكّامِ
وجناية[7] العادى عليهم تنقضى   وعقابُهم يَبْقَى مع الأيامِ

(١) من هنا إلى آخر قول المتنى فى الصفحة التالية مقحم هنا وحقه أن يكون فى الكلام على الشعر فى صفحة ٦٤٢ مثلا، ولكن هكذا الأصول. (٢) ديوانه : ١٧ . (٣) فى الديوان : مدحى حسبة.
(٤) فى ا : تعفه (٥) فى ا : دايقتهم . (٦) فى ط : أشد لعرة. (٧) فى الديوان : وظلامة.

أبو الطيب المتنبي :

ومكايد السفهاء واقعةٌ بهم　　　وعداوةُ الشعراء بئس المُقتَنَى

* * *

امرأة على قبر الأحنف

مات الأحنف(١) بن قيس بالكوفة، فمشى مصعب بنُ الزبير في جنازته بغير رداء، وقال : اليوم مات سرُّ العرب ؛ فلما دُفن قامت امرأةٌ على قبره فقالت : لله دَرُّك من مُجَنٍّ في جَنَنٍ ، ومُدْرَجٍ في كَفَنٍ ، نسألُ الذي فجعنا بموتك ، وابتلانا بفقدك أن يجعلَ سبيلَ الخيرِ سبيلَك ، ودليلَ الرشد دليلَك، وأن يوسّع لك في قبرك ، ويغفرلك يوم حَشْرِك ؛ فوالله لقد كنتَ في المحافل شريفاً ، وعلى الأرامل عَطوفاً ، ولقد كنت في الحيِّ مسوَّداً ، وإلى الخليفة موفَداً ، ولقد كانوا لقولك مستمِعين، ولرأيك متّبِعين؛ ثم أقبلت على الناس فقالت : ألا إن أولياءَ الله في بلادِهِ شهود على عبادِه، وإني لقائلةٌ حقًّا ، ومثنيةٌ صِدْقاً ، وهو أهلٌ لحُسْنِ الثناء ، وطيب النثا(٢) ، أما والذي كنتَ من أجله في عِدة ، ومن الحياةِ إلى مدّة ، ومن المقدار إلى غاية، ومن الإياب إلى نهاية، الذي رفع عملَك ، لمّا قضى أجلَك ، لقد عِشت حميداً مودُوداً ، ومُتَّ سعيداً مفقوداً ؛ ثم انصرفت وهي تقول :

لله درُّك يا أبا بَحْرِ　　　ماذا تغيَّبَ منكَ في القبرِ
لله درُّك أيَّ حَشْوِ ثرًى　　　أصبحتَ من عُرْفٍ ومن نُكْرِ
إنْ كان دهرٌ فيك جرَّ لنا　　　حدَثاً به وهَنَتْ قوَى الصَّبْرِ
فلكم يدٍ أسديتَها ويدٍ　　　كانَتْ تَرُدُّ جرائرَ الدهرِ

ثم انصرَفت فسُئِل عنها ، فإذا هي امرأتُه وابنةُ عمه . فقال الناس : ما سمعنا كلامَ امرأةٍ قطّ أبلغ ولا أصدق منه .

لِمَ بلغ الأحنف هذه المنزلة

قال : وكان الأحنفُ قدم الكوفة في أيام مصعب بن الزبير ، فرآه رجلٌ أعورَ

---

(١) الأمالي : ٣ — ٢٧ ، ذيل اللآلي ١٠ . (٢) في الأمالي : الدعاء .

دميا قصيراً أحْنَفَ الرجلين، فقال له : يا أبا بحر ؛ بأى شىء بلغتَ فى الناس ما أرى ؛ فوالله ما أنتَ بأشرف قومِك ، ولا أجودِهم ! فقال : يابن أخى ، بخلاف ما أنت فيه ! قال : وما هو؟ قال : تَرْكِى من أمرك ما لا يعنينى ، كما عَنَاك من أمرى ما لا تتركه .

[منصور النمرى]

الشعراء بباب المعتصم

اجتمع الشعراء بباب المعتصم فبعث إليهم : مَنْ كان منكم يُحْسِنُ أنْ يقول مثل قول منصور النَّمرى فى أمير المؤمنين الرشيد(1) :

إنّ المكارمَ والمعروفَ أوديةٌ   أحلّك اللهُ منها حيث تجتمِعُ
إذا رفعتَ امرأً فاللهُ رافِعُه   ومن وضعْتَ من الأقوام متضِعُ
من لم يكن بأمين اللهِ معتصماً   فليس بالصلواتِ الخمس ينتفِعُ
إنْ أخلف الغيثُ لم تُخْلِفْ أناملُه(2)   أو ضاق أمرٌ ذكرناه فيتّسع

فليدخل ، فقال محمد بن وهيب : فينا من يقولُ خيراً منه ، وأنشد :

ثلاثةٌ تشرقُ الدنيا ببهجتهم   شمس الضحى وأبو إسحاق والقمرُ
يحكى أفاعيله(3) فى كل نائبةٍ   الغيث والليث والصمْصَامة الذّكر

فأمر بإدخاله وأحسن صلته .

* * *

من النقد

أخذ معنى البيت الأول من بيتى محمد بن وهيب أبو القاسم محمد بن هانئ الأندلسى(4) فقال :

الدّنفان من البريّة كلها   قلبى وطَرْف بابلىٌّ أحْوَرُ
والمشرقات النيراتُ ثلاثة   الشمسُ والقمرُ المنير وجَعْفَر

وبيت أبى القاسم [الأول](5) مأخوذ من قول ابن الرومى(6) :

يا عليلا جعل العِلّة مفتاحاً لسقمى(7)
ليس فى الأرضِ عليلٌ   غير جَفْنَيك وجسْمى

(1) الأمالى ١ ــ ١١٢ ، اللآلى ٣٣٦ ، ديوان المعانى ١ ــ ٥٩) ٢ ــ ١٠٣ ، تاريخ بغداد ١٣ ــ ٦٨ . (2) فى ديوان المعانى : مخايله ، وفى ط : إن أخلف المزن .
(3) فى ا : تحكى أفاعله . (4) فى ا : الأزدى . (5) من ا .
(6) ديوانه ١٩ . (7) فى الديوان : لظلمى .

ومر النمري بالعتابي مهموماً فقال : مالك ، أعزّك الله ؟ فقال : امرأتي بطلْق منذ ثلاث ونحنُ على يأسٍ منها . فقال له العتابي : وإنّ دواءَها منك أقربُ من وجهها . قل : هارون الرشيد ، فإنّ الولدَ يخرج ! فقال : شكوت إليكَ ما بي ، فأجبتني بهذا؟ فقال : ما أخذت هذا إلا من قولك :

إنْ أخلف الغيث لم تخلف أناملُه ... أو ضاق أمرٌ ذكرناه فيتسعُ

وأبياتُ منصور بن سلمة بن الزبرقان النمري التي ذكرها المعتصم من قصيدةٍ له وهي أحسنُ ما قيل في الشيب أولها[1] :

ما تنقضي حسرةٌ مني ولا جَزَع ... إذا ذكرتُ شباباً ليس يُرتجعُ
بانَ الشباب وفاتتْني بِغرّته[2] ... خطوبُ[3] دَهْرٍ وأيامٌ لهـــا خُدَعُ
ما كنتُ أوفي شبابي كُنْه غِرّتهِ ... حتى انقضَى فإذا الدنيا له تَبعُ
تعجبتْ أن رأتْ أسرابَ دمعته ... في حلبة[4] الخدِّ أجْرَاها حتّى وَجعُ
أصبحتِ لم تطعمي ثكل الشباب ولم ... تشجَيْ بغُصّته فالعذْر لا يقَعُ
لا ألحينّ فتاتي[5] غير كاذبةٍ ... عين المكذوب فما في ودّكم طمَع
ماواجه الشيبَ من عَيْب وإن وَمِقَتْ ... إلا لهـــا نَبْوَةٌ عنهُ ومرْتَدعُ
إني لمعترف ما فيَّ بيٍنْ أرَبٍ ... عند الحسان فما للنّفْسِ تَنْخَدِع
قد كدت تقضي على فَوْت الشباب أسًى ... لولا تعزّيك أنّ الأمرَ منقطعُ

وذُكِر أن الرشيد لما سمع هذا بكى، وقال : ماخير دنيا لا نخطر فيها ببرد الشباب! وأنشد متمثلا[6] :

أتأمُل رَجْعَة الدنيا سَفَاهًا ... وقد صار الشبابُ إلى ذهابِ
فليت الباكياتِ بكل أرض ... جُمِعْنَ لنا فنُحْنَ على الشبابِ

(١) ديوان المعاني ٢ ــ ١٥٣ ، اللآلي ٣٣٦ ، أخبار أبي تمام ٢٧ .

(٢) في ديوان المعاني وأخبار أبي تمام : بعبرته . (٣) في ديوان المعاني : صروف ، وفي ا : خطوف . (٤) في ا : حلية . (٥) في ا : فإني . (٦) اللآلي : ٣٣٧ .

تقديم الرشيد للنمري

وكان الرشيد يقدم منصورا النمري بجَوْدَة شعره ، ولِمَا يمتّ إليه من النسب من العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وكانت نتيلة أم العبـاس من النمر بن قاسط ؛ ولِمَا كان يُظهِـرُ من الميل إلى إمامَةِ العباس وأهله ، والمنافرة لآل على رضى الله عنه ويقول(١) :

بنى حسن وقل لبنى حُسينٍ عليـكم بالسدادِ من الأمورِ
أميطُوا عنكُم كذِبَ الأماني وأحلاما يعدن عِداة زُور
تسمّون النبي أبًا ويأبى من الأحزاب سَطرٌ فى سطور

يريدُ قولَ الله تعالى : ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم . وهذا إنما نزل فى شأن زيد بن حارثة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبنّاه فقال له الرشيد : ما عدوتَ ما فى نفسى ، وأمره أن يدخلَ بيتَ المال فيأخذ ما أحبّ .

كان يعتقد الرفض

وكان يضمر غير ما يظهر ، ويعتقد الرّفض ، وله فى ذلك شعر كثير لم يَظْهَرْ إلّا بعد موته ، وبلغ الرشيد قوله(٢) :

آلُ النبي ومن يُحِبُّهم يتطامَنُون مَخافَةَ القَتْلِ
أمِنَ(٣) النصارى واليهود ومَن من أمَّةِ التوحيد فى أزْلِ(٤)
إلا مَصَالت ينصرُونهمُ بظُبَا الصّوارم والقَنَا الذُّبْلِ(٥)

فأمر الرشيد بقتله [وكان حينئذ برأس العين](٦) ، فمضى الرسول فوجده قد مات ، فقال الرشيد : لقد هممت أن أنبش عظامَه فأحرقها ، وكان يُلْغِز فى مدحه لهارون ، وإنما يريد قول النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ رضوان الله عليه : أنت منى بمنزلة هارون من موسى . وقال الجاحظ : وكان يذهب أولا مذهب الشُّراة ، فدخل الكوفة وجلس إلى هشام بن الحكم الرافضى وسمع كلامَه ، فانتقل إلى الرفض ، وأخبرنى

(١) الشعراء ٨٣٦ . (٢) الشعراء ٨٣٧ . (٣) فى الشعراء : أمنوا .
(٤) الأزل : الضيق والشدة . (٥) المصالت : جمع مصلت ، وهو المقدام . (٦) من ا .

مَنْ رآه على قبر الحسين بن على رضى الله عنهما ينشد قصيدتَه التى يقول فيها :

فما وُجدت على الأكتاف منهم ... ولا الأقفاء آثارُ النُّصولِ
ولكنّ الوجوهَ بها كُلومٌ ... وفوق حُجورهم مَجْرَى السيولِ
أُريق دمُ الحسينِ ولم يراعوا ... وفى الأحياء أمواتُ العُقولِ
فدتْ نفسى جبينَك مِنْ جَبينٍ ... جرَى دمُه على خدٍّ أسيلِ
أيخلو قلبُ ذى وَرَعٍ ودِينٍ ... مِنَ الأحزانِ والألمِ الطويلِ
وقد شرِقت رماحُ[1] بنى زيادٍ ... برىٍّ من دماء بنى الرسول
بتُربة كَرْبلاء لهم دِيارٌ ... نيامُ الأهل[2] دارِسَةُ الطُّلُولِ
فأوصال الحسين ببَطْنِ قاعٍ ... ملاعبُ للدَّبور وللقَبول
تحياتٌ ومغفرة وروحٌ ... على تلك المحلة والحلولِ
برئنا يارسولَ الله ممن ... أصابك بالأذيّةِ والذُّحُولِ

[ابنا المعذل]

وقال أحمد بن المعذل :

أخو دَنَفٍ رَمتْه فأقصدتْه ... سِهَامٌ من جفونك لا تَطِيشُ
كئيب[3] إن ترحّل عنه جيشٌ ... من البَلْوى ألمّ به جُيُوش

أدب أحمد ابن المعذل

وكان أحمد بن المعذّل[4] بن غَيْلان العبدى فى اللغة والبيان والأدب والحلاوة غاية . قال : دخلتُ المدينة فتحملت على عبد الملك بن الماجشون برجل ليخصّنى ويعنى بى ، فلما فاتحنى قال : ما تحتاجُ أنت إلى شفيع ، معك من الحذاء والسقاء ما تأ كلُ به لبّ الشجر ، وتشرب صَفْوَ الماء ، وكان أخوه عبد الصمد يؤذيه ويهجُوه ،

---

(١) ق ا : دماء . (٢) ا : كهام الأصل . (٣) ق ا : كئيبا .
(٤) اللآلى ٣٢٥ .

بين أحمد وأخيه

فكتب إليه أحمد : أما بعدُ فإنّ أعظم المكروه ما جاء من حيث يرجَى المحبوب ، وقد كنتَ مؤمّلا مَرْجوا ، حتى شمل شرك ، وعمّ أذاك ، فصرت فيك كأبى العاقّ إن عاش نغّصه ، وإن مات نقصه ، واعلم لقد خشنت صَدْرَ أخٍ جَنْبُه لك ناصح ، والسلام .

وكان يقول له : أنت كالأصبع الزائدة إن تُرِكَتْ شانَتْ ، وإن قطعت آلمت !

ومثل هذا قول النعمان بن شَمِر الغسانى(١) :

وصالُ أبى بردٍ عَنَاء وتركهُ ... بلاء فما أدرِى به كيف أصنعُ
إذا زُرْته يومين ملّ زيارتى ... وإن غبت عنه ظلّت العينُ تَدْمَع

وقول الضحاك بن همام الرقاشى :

وأنتَ امرؤٌ منا خلقت لغيرنا ... حياتُك لا ترجَى وموتك فاجعُ
وأنت على ما كان منك ابن حرة ... وإنى لما يرضى به الخصم مانعُ(٢)
وفيك خصالٌ صالحاتٌ يشينها ... لديك جفاء عنـده الودُّ ضائعُ

وقال بعضُ المحدثين :

إذا ساءنى فى القولِ والفعلِ جاهداً ... وفى كلّ حالٍ من أحب وأمحضُ
فياليتَ شِعْرى ما يعاملنى به ... على كلّ ذنبٍ مَن أعادِى وأبغضُ

أخذ أحمد الصلة

وقال أبو العباس المبرّد : وكان أحمد بن المعذّل من الأبّهة، والتمسك(٣) بالمنهاج، والتجنُّب للعيْث ، والتمرّض للإشفاق لما فى أيدى الناس ، وإظهار الزُّهْدِ فيه ، والتباعد عنه على غاية ، حتى حُمِل فى فقهاء وأدباء من أهل البصرة ؛ فأخذَ الصلة غيرَ مُمتنع ولا مُنْـكر . ووصله إسحاق بن إبراهيم فقَبِل ، واستدعى اجتباءه إياه ، وتحلّى له جهده ، فقال عبد الصمد :

عذيرى من أخٍ قد كان يُبْدِى ... على من لابس السلطانَ عَتْبَهْ

(١) فى ا : الغسانى .
(٢) فى ط : ظالم .
(٣) فى ا : والنسك .

وكان يذمهم فى كل يوم ... له بالجهل والهذيان خُطْبَهْ
فلما أن أتته دُرَيهماتٌ ... من السلطان باعَ بِهِنَّ رَبَّهْ

وقال فيه :

لِى أخٌ لا تَرَى لهُ ... سائلا غيرَ عاتِبِ
أجْمَعُ الناسِ كلِّهِمْ ... للئـــيمِ الذّاهِبِ
دون معروفِ كفِّهِ ... لَمْسُ بَعضِ الكواكبِ
ليت لى منك يا أخى ... جارةً مِنْ مُحاربِ
نارها كلَّ شَتْوَةٍ ... مِثْلُ نارِ الحُبَاحِبِ

***

ذهب إلى قول القُطامى ، وقول القطامى من خبيث الهجاء ، وكان نزل بامرأة القطامى يهجو من محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر فذمّ مثواه عندها فقال(١) :

وإنى وإنْ كان المسافرُ نازلًا ... وإن كان ذا حقّ على الناسِ واجبِ
فلا بدّ أن الضيفَ يُخْبِرُ ما رَأى ... مُخَبِّرُ أهْلٍ أو مُخَبِّرُ صاحبِ
لَمخبرك(٢) الأنباءَ عنْ أمِّ منزل ... تضيَّفْتُها بين العُذيب فراسِبِ(٣)
تلفّعت(٤) فى طَلٍّ وريحٍ تَلُفُّنى ... إلى طِرْمِساءٍ(٥) غيرِ ذاتِ كواكبِ
إلى حَيْزَبُونٍ تُوقِد النارَ بعـــدما ... تَلَفَّعَتِ الظلماء من كل جانب
تَصَلَّى بها بَرْدَ العِشاءِ ولم تكُنْ ... تَخَالُ وميضَ(٦) النار يَبْدُو لِراكبِ
[فمـــا راعها إلا بغام مطيتى ... تريح بمحسود من الصوت لاغبِ](٧)
فجُنَّتْ جنونا من دِلَاثٍ(٨) مُنَاخَةٍ ... ومن رَجُلٍ عارِى الأشاجعِ شاحبِ
سَرَى فى حَلِيكِ(٩) الليل حتى كأنما ... تَخَزَّمَ بالأطراف شوكُ العقاربِ

(١) اللآلى ١٣١ ، الشعراء ٧٠٣ ، الخزانة ٣ ـ ١٨٨ معاهد التنصيص ١ ـ ١٨١ .
(٢) فى ا : مخبرك الأنباء من . (٣) العذيب وراسب : موضعان .
(٤) فى الشعراء : تلفعت . (٥) الطرمساء : الظلمة الشديدة . (٦) فى الشعراء : وبيص .
(٧) من ا . (٨) الدلاث : السريع والسريعة من النوق ، وغيرها . (٩) فى ط : جليد .

تقول وقد قرّبتُ كُورِى وناقتى   إليك ، فلا تذْعَرْ علىّ رَكائبى
فسلّمت والتسليمُ ليسَ يسرُّها   ولـكنه حَقٌّ على كل جانب
فردّت سلاماً كارهاً ثم أعرضتْ   كما انحاشَت الأفعى مخافةَ ضارِبِ
فلـــا تنازعْنا الحديثَ سألتُها   مَن ِالحىُّ ؟ قالت: معشرٌ من مُحارِب
من المشتوين القِدّ مما تَرَاهُمُ   جِياعاً وريفُ الناس ليس بناضِبِ
فلما بَدا حرمانُها الضيفَ لم يكن   علىّ مبيتُ السوء ضَرْبةَ لازب
وقُمْتُ إلى مَهْرية قد تعوّدَتْ   يَداهاَ ورِجْلَاها حثيثَ المراكِبِ[1]
ألا إنما نيران قيسٍ إذا شَتَوْا   لطارقِ ليل مِثْلُ نارِ الحُبَاحب

ومحارب قبيلة منسوبة إلى الضعف، وقد ضَربت العربُ بها المثل ؛ قال الفرزدق لجرير :

وما استعهد الأقوام من زوج حُرةٍ   من الناس إلا منك أو من مُحارِبِ

أى يأخذون العَهْدَ عليه أنه ليس من كليبٍ ولا من محارب .

وقال أبو نواس فى قصيدته التى فخر فيها باليمانية وهجا قبائل معدّ :

وقيس عيلان لا أريدُ لها   من المخازى سوى محاربها[2]

* * *

أم ابن المعذل — وكانت أمّ[3] عبد الصمد بن المعذل طباخةً ، فكان أحمد يقول إذا بلغه هجاؤه : ما عسيت أن أقول فيمن أُقِيحَ[4] بين قِدْر وتَنُّور ، ونشأ بين زق[5] وطُنبور ؟

وعبد الصمد شاعر أهل البصرة فى وقته ، وهو القائل :

تـكلّفنى إذلالَ نفسى لعِزّها   وهان عليها أنْ أُهانَ لتُـكرما
تقول سَلِ المعروفَ يحيى بنَ أكثم   فقلت سَلِيه رَبَّ يحيى بنَ أكثما

---

(١) فى الشعراء : حثيث المواكب . (٢) فى ط : مخازيها .
(٣) اللآلى ٣٢٦ ، وفى ط : امرأة ، وهـذا من ا . (٤) فى اللآلى : قفح .
(٥) فى ا : رق .

قال أبو شُراعة القيسي: كنتُ في مجلس المغني مع عبد الصمد بن المعذّل، فتذاكرنا شعر أشعارَ المولدين في الرقيق، فقال عبد الصمد: أنا أشعرُ الناسِ فيه وفي غيره فقلت: في الرقيق أحذق منك والله بالرقيق الذي يقول، وهو راشد بن إسحاق أبو حُكيمة الكوفي:

شعر عبد الصمد

وشعر راشد بن إسحاق

ومستوحِشٍ لم يُمسِ في دارِ غُربةٍ … ولكنّهُ ممن يحبّ غريبُ
طَوَاه الهوى واستشعر الوَصْلَ غيرهُ … فشطَّتْ نَوَاهُ والمَزَارُ قَريب
سلامٌ على الدارِ التي لا أزورُها[(١)] … وإن حَلّها شخصٌ إليَّ حبيبُ
وإن حَجبتْ عن ناظريَّ ستُورُها … هوًى تَحْسُنُ الدُّنيا به وتَطيبُ
هوى تَضْحَكُ اللذاتُ عند حضورِه … ويسخُن طَرْفُ اللهو حين يَغيب
تثنّى به الأعطافُ حتى كأنّهُ … إذا اهتزّ من تحتِ الثيابِ قَضيبُ
ألم تر صَمْتِي حين يَجْرِي حديثه … وقد كنت أُدْعى باسْمِه فأجيبُ
رضيت بسَعْي الدهر بيني وبينه … وإن لم يَكُن للعين فيه نصيبُ .
أحاذِر إنْ واصلته أن ينالني … وإياه سَهْمٌ لِلفراقِ مُصيبُ
أرى دون من أهوى عيونا تُريبني[(٢)] … ولا شك أني عندهنّ مريبُ
أُداري جليسي بالتجلّد في الهوى … ولي حين أخلو زَفْرَةٌ ونَحيبُ
وأُخبِرُ عنه بالذي لا أُحبّهُ … فيضحك سِنّي والفؤادُ كئيب
مخافةَ أن تغرَى بنا ألسنُ العِدَا … فيطمع فينا كاشحٌ فيعيب
كأنّ مجالَ الطَّرْف في كل ناظر … على حَرَكاتِ العاشقين رقيبُ
أرى خطرات الشوق يبكين ذا الهوى … ويصبين عقلَ المرء وهو لبيبُ
وكم قد أذلّ الحبُّ من متمنِّعٍ … فأضحى وثوبُ العزّ منه سَليبُ
وإنّ خُضُوعَ النفسِ في طلب الهوى … لأمرٌ إذا فكرتُ فيه عَجيب

فلم ينطق بحرف .

---

(١) في ا : بعزها .   (٢) في ط : تربني .

من مديح أبى شراعة

ولأبى شُرَاعة يمدح بنى رياح[1] :

بنى رياح أعادَ اللهُ نعمتَكم خيرَ المَعادِ وأسقَى رَبعَكم دِيَما

فكم بِهِ من فتى حُلْو شمائلُهُ يكادُ يَنهلُّ من أعطافِه كَرَما

لم يلبسوا نعمةً لِله مُذْ خلقوا إلا تلبَّسها إخوانهم نِعَما

وفى إبراهيم بن رياح يقول عبد الصمد بن المعذل :

قد تركت الرياح يابن رياح وهى حَسْرَى إنْ هبَّ منها نسيم

نَهكتْ مالَكَ الحقوقُ فأَضْحَى لكَ مَالٌ نِضوٌ وفعلٌ جَسيمُ

وكان عبد الصمد [بن المعذل][2] متصلا بإبراهيم وبنيه، وأفاد منهم أموالا جليلة، واعتقد عقدا نفيسة ، فما شكر ذلك ولا أصحبه بما يجب عليه من الثناء عند نَكْبَته ، وكان الواثق عزَلَه عن ديوان الضياع ، ودفعه إلى عمر بن فرج[3] الرخجى ، فحبسه فهجاه عبد الصمد .

من أخلاق عبد الصمد

قال أبو العباس محمد بن يزيد : وكان عبد الصمد شديدَ الإقدام على الأغراض ، ردىء السريرة فيما بينه وبين الناس ، خبيث النيَّة ، يرصُد صديقَه بالمكروه ، تقديرا أن يماديَه فيسوءه بأمْرٍ يعرفُه ؛ ولا يكاد يَسْلَم لأحد ، وكان مشهورا فى ذلك الأمر ، يلبس عليه ، ويُحمل على معرفةٍ به ، عجباً بظَرْفِ لسانه ، وطيبِ مجلسه ، وأيضا لقُبْح مسبَّته ، وشائن معرَّته .

حبس الواثق ابن رباح

قال أبو العيناء : ولما حبس الواثق إبراهيم بن رياح ، وكان لى صديقا ، صنعتُ له هــــذا الخبر رجاء أنْ يلتهىَ إلى أمير المؤمنين فينتفع به ، فأخبرنى زيدُ بن علىّ ابن الحسين أنه كان عند الواثق حين قُرِئ عليه فضَحِك واستظرفه ، وقال : ما صنعَ

خبر أبى العيناء فى ذلك

هــــذا كلَّه أبو العيناء إلا فى سبب إبراهيم بن رياح وأمر بتخليته. والخــبر : قال لقيتُ أعرابيا من بنى كلاب فقلت له : ما عندك من خَبر هــــذا العسكر ؟ فقال :

(١) فى ط : بنى رباح . (٢) من ا . (٣) فى ط : فرح .

فتل أرضاً عالها ، قال : فقلت : فما عندك من خبر الخليفة ، قال: بخْبخ بعزّه ، وضرب بجرانه ، وأخذ الدرهم من مصره ، وأرهف قلم كلّ كاتب بجبايته . قلت : فما عندك في أحمد بن أبي دُاود ؟ قال : عُضلة لا تُطاق[1] ، وجَنْدَلة لا تُرام ، يُنتحى بالمُدَى لتحزّه فيحور[2] ، وتُنْصَب له الحبائل حتى تقول : الآن ، ثم يضبر ضَبْرَة[3] الذئب ، ويخرج خروجَ الضّب ، والخليفة يَحْنُو عليه ، والقرآن آخذ بضبعيه. قلت : فما عندك في عمر بن فرج ؟ قال : ضَخْم ، حِضجَر[4] ، غضوب ، هِزَبْر ، قد أهدفه القومُ لبَغْيِهم ، وانتضلوا له عن قسيّهم، وأخر[5] له بِثِقل مصرع من يصرع . قلت: فما عندك في خبر ابن الزيّات ؟ قال : ذلك رجل وسع الوَرَى شرّه ، وبطن بالأمور خبره ، فله في كلّ يوم صَريع ، لا يظهر فيه أثرُ ناب ولا مخلب ، إلا بتسديد الرأى. قلت : فما عندك في خبر إبراهيم بن رياح ؟ قال : ذاك رجل أوْبقه كرمُه ، وإن يَفُزْ للكرام قدح ، فأحر بنجاته[6] ، ومعه دعاء لا يخذُله ، وربٌّ لا يُسْلِمه ، وفوقه خليفة لا يظلِمه . قلت : فما عندك في خبر نجاح بن سلمة ؟ قال : لله درّه من نافض أوتاره، يتوقد كأنه شعلةُ نار، له في الفَيْنَة بعد الفينة، عند الخليفة خلسة كخلسة السارق ، أو كحسْوَة الطائر ، يقومُ عنها وقد أفاد نعما ، وأوقع نقما . قلت : فما عندك في خبر ابن الوزير ؟ قال : إخاله كبْش الزنادقة ، ألا ترى أنّ الخليفة إذا أهمله خضم ورتع ، وإذا أمر بتقصّيه أمطر فأمْرَع . قلت: فما عندك من خبر الخصيب [أحمد][7] ؟ قال : ذاك ، أحمق ، أكل أكْلَة نَهِم ، فاختلف اختلافَ بشم . قلت : فما عندك في خبر المعلى بن أيوب ؟ قال : ذاك رجل قُدّ من صَخْرة ، فصبْره صبرُها ، ومسّه مسُّها، وكلّ ما فيه بعد فنها ولها . قلت : فما عندك من خبر أحمد بن إسرائيل ؟ قال : كَتُوم

---

(١) في ط : عضلة من العضل ، والعضلة : الداهية .

(٢) في ط : لتنحره فيجوز . (٣) في ط : يطفر طفرة ، والضبر : الوثوب .

(٤) الحضجر : العظيم البطن ، وفي ط : ضجر . (٥) في ط : وأهل له .

(٦) في ط : فلا عز بهجاته . (٧) من ا .

غرور[١] ، وجَلْد صبور ، رجل جلده جلد نمر ، كلما خرقوا له إهابا ، أنشأ الله له[٢] إهابا . قلت : فما عندك من خبر الحسن بن وهب ؟ قال : ذاك رجل اتخذ السلطانَ أخا ، فاتخذه السلطانُ عبدا . قال : قلت : فما عندك من خبر أخيه سليمان بن وهب ؟ قال : شدَّ ما استوفيت مسألتك أيها الرجل ! ذاك حرمة حبست مع صواحباتها فى جزيرة محرّمة ، ليس من القوم فى ورد ولا صَدَر ، هيهات :

كُتِب القتْلُ والقتالُ علينا وعلى الغانيات جَرُّ الذيول

قال : قلت : فما عندك من خبر عبد الله بن يعقوب ! قال : أمواتٌ غيرُ أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون .

قلت : فأين نزلت فأؤمك ؟ قال : ما لى منزل تؤمّه ، أنا أستتر فى الليل إذا عَسْعَس وأنتشرُ فى الصبح إذا تنفّس .

***

من شعر راشد بن إسحاق

ومن مليح شعر راشد بن إسحاق بن راشد وهو أبو حُكيمة وكان قوىّ أسْرِ الشعر :

تحيرتُ فى أمرى وإنى لواقف أُجيلُ وجوهَ الرأى فيك وما أدْرِى
أالعزم عَزم اليأس فالموتُ راحةٌ أم اقنَعُ بالإعرَاض والنَّظَرِ الشَّزْرِ
وإنى وإن أعرضت عنك لَمُنْطَوٍ على حُرقٍ بين الجوانح والصدرِ
إذا هاج شوق مثّلتكَ لىَ المنى فألقاك ما بينى وبينك فى سِتْرِ[٣]
فديتك[٤] لم أصبِر ولى فيك حيلةٌ ولكن دعانى اليأسُ فيك إلى الصبر
تصبَّرت مغلوباً وإنى لموجَعٌ كما صبَرَ الظمآنُ فى البلد القفْرِ

وقال :

عتبتُ عليك فى قَطْعِ العتاب فما عطفتك ألسنة العتابِ

---

(١) فى ط : غدور . (٢) فى ط : حرق لهم بابا . (٣) فى ط : فى الستر .
(٤) فى ط : فمن تيك .

وفيما صرت تظهر لى دليل على عَقْب الضميرِ المسترابِ
وما خطرتْ دواعى الشوقِ إلّا هززتُ إليك أجنحة التصابى

وقال أيضاً :

ضحِكْتُ ولو تدْرِينَ ما بِى من الهوى بَكَيْت لمحزونِ الفؤاد كئيبِ
لمن لم تُرَحْ عيناه من فيض عَبْرَةٍ ولا قلْبه مِنْ زَفْرَةٍ ونحيبِ
لمستأنس بالهمّ فى دارِ وَحْشَةٍ غريب الهوَى باكٍ لكلّ غريبِ
ألا بأبى العيش الذى بانَ فانقضى وما كان من حُسْنٍ هناك وطيبِ
ليالىَ يدعونا الصِّبا فنجيبهُ ونأخذُ مِنْ لذّاته بنصيبِ
تَرَدُّدُ مستور الأحاديث بيننا على غَفْلَةٍ من كاشح ورقيبِ
إلى أن جرى صرفُ الحوادث فى الهوى فبُدّل منها مَشْهَدٌ بمَغيبِ

وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره صُنْتُ الكتاب عن ذكره .

[عبد الملك بن صالح]

بين يدى الرشيد

دعا الرشيد بعبد الملك بن صالح(1) وكان معتقلا فى حَبْسه ؛ فلما مَثَل بين يديه التفت إليه ، وكان يحدّث يحيى بن خالد بن برمك وزيره ، فقال متمثلا :

أريد حياتَه ويريدُ قَتْلى عَذِيرَكَ مِنْ خليلك من مُرادِ

ثم قال : يا عبد الملك، كأنّى أنظر إلى شُؤْبُوبها قد هَمَع ، وإلى عارضِها قد لَمَع ، وكأنّى بالوعيد قد أوْرَى(2) ، بل أدْمى ، فأبرز عن بَراجمَ بلا مَعَاصِم ، ورءوس بلا غلاصم ، فمهلًا بنى هاشم، فبي والله سهل لكم الوَعْر ، وصفا لكم الكدر، وألقت إليكم الأمور أثناءَ أزمّتها ، فنذار لكم نذرا قبل(3) حلول داهية ، خَبوط باليد والرِّجْل(4) . فقال عبد الملك : أفذًا(5) تكلم أم تَوْأما ؟ قال : بل فَذّا . قال : اتّق

(1) العقد الفريد : ٢ — ١٥٤ . (2) فى ا : أربى . (3) فى ط : فتداركتم ، وفى العقد : فالتدارك التدارك قبل . (4) فى ا : لبوط بالرجل . (5) الفذ : الفرد .

اللهَ يا أمير المؤمنين فيما ولّاك ، واحفظه فى رعاياك الذى[1] استرعاك ، ولا تجعل الكفر بموضع الشكر ، والعقاب بموضع الثواب، فقد والله سهلت لك الوعور، وجمعت على خوفك ورجائك الصدور ، وشددتُ أواخِيَ ملكك بأوثق من رُكْنَى يَلَمْلَم ، وكنت لك كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب — يعنى لبيداً[2] :

ومقامٍ ضيّق فرّجتهُ ... بلسانٍ وبيَانٍ وجَدَلْ
لو يقومُ الفيلُ أو فيّالُه ... زَلّ عن مثل مقامى وزَحَل[3]

فأعاده إلى مجلسه، وقال : لقد نظرتُ إلى موضع السيف من عاتقه مراراً ، فيمنعنى عن قتله إبقائى على مثله .

[مدح الحقد وذمه]

لعبد الملك ابن صالح

وأراد يحيى بن خالد أن يضَعَ من عبد الملك ليُرْضِيَ الرشيد ، فقال له : يا عبد الملك، بلغنى أنك حَقود! فقال عبد الملك : أيها الوزير، إنْ كان الحقد هو بقاء الشر والخير، إنهما لباقيان فى قلبى ! فقال الرشيد : تالله ما رأيت أحداً احتجّ للحقد بأحسن مما احتجّ به عبد الملك .

لابن الرومى

وقد مدح ابن الرومى الحقد ، وأخذ هذا المعنى من قول عبد الملك وزاد فيه ؛ فقال لعائب عابَه بذلك[4] :

لئن كنت فى حفظى لما أنا مودعٌ ... من الخير والشرّ انتحيت على عرضى
لما عِبْتَنى إلّا بفضل إبانة[5] ... وربَّ امرئٍ يزرى على خُلُقٍ مَحْض
ولا عيبَ أنْ تجزى القروضُ بمثلها ... بل العيبُ أن تَدّان دَيْنا ولا تقضى
وخيرُ سجيّاتِ الرجال سجيةٌ ... توفيك ما تسدى من القَرْض[6] بالقرض

(١) فى ط : الفىء ، وفى العقد : وفى رعيتك التى استرعاك . (٢) ديوانه : ١٩٣
(٣) زحل : زال ، وفى ا : ورحل . (٤) ديوانه : ١٦٣ .
(٥) فى الديوان : إلا بما ليس عائبا، وكم جاهل... (٦) فى الديوان : من القرض والفرض.

إذا الأرض أدّت رَيْع ما أنت زارعٌ … من البَذْر فيها فهي ناهيك من أرضِ
ولولا الحقودُ المستكنات لم يكنْ … لينقض وتراً آخرَ الدهر ذو نقضِ
وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى … وبعض السجايا ينتمين[1] إلى بعضِ
فحيث ترى حِقداً على ذي إساءة … فثمَّ ترى شكراً على حَسَن القَرْض

وقال يردّ على نفسه ويذم ما مدح توسّعاً واقتداراً[2] :

يامادحَ الحقدِ محتالا له شبهاً … لقد سلكت إليه مسلكا وَعِثَا
إنّ القبيح وإنْ صنّعت[3] ظاهِرَهُ … يعودُ مالمْ منه مرةً شَعِثَا
كم زخرف القول ذو زُور ولبّسهُ … على القلوب ولكن قل ما لبثاَ
قد أبرم اللهُ أسباب الأمور معاً … فلن ترى سبباً منهن منتكثا
يا دافنَ الحِقْدِ في ضمن جوانبهِ … ساء الدفينُ الذي أضحت[4] له جَدَثا
الحقد داء دَوِيٌّ لا دواء لهُ … يَبْرِي الصدور إذا ماجره[5] حُرِثا.
فاستشفِ منه بصفحٍ أو معاتبةٍ … فإنما يبرِئُ الصدور ما نفثا
واجعل طلابك بالأوتار ما عظمتْ … ولا تكن بصغير القول مكترِثا
فالعفوُ أقربُ للتقوى وإن جُرِمٌ … من مجرم جرح الأكبادَ أو فرثا
يكفيك في العفو أن الله قرّظهُ … وَحْياً إلى خير من صلّى ومن بُعِثا
شهدت أنك لو أذنبت ساءك أن … تلقى أخاك حقوداً صدْره شرثا
إذا وسّرك أن تلقى[6] الذنوب معاً … وأن تصادف منه جانباً دَمِثاَ
إني إذا خلط الأقوام صالحهَم … بسيئ الفعل جِدّا كان أو عَبَثاَ
جعلت قلبي كظرف السبك حينئذ[7] … يستخلص الفضة البيضاء لاالخَبَثا

(١) في ط : يتقرين [illegible] يسحق .
(٢) ديوانه : ١٣٢ . (٣) صنعت الجارية : أحسن إليها حتى سمنت ، وفي ا : ضيعت .
(٤) في الديوان : أمست . (٥) في ا : جهره حدثا .
(٦) في الديوان : وسرك أن ينسى الذنوب . (٧) في ط : جعلت قلبي كظرف السبك من جسد.

ولستُ أجمله كالحوض أمدحُه ... بحِفْظِ ما طاب من ماء وما خُبثا

* * *

من النقد

والبيتُ الذى تمثل به الرشيد[1] هو لعمرو بن معديكرب يقوله لقيس بن المكشوح المرادى ، وقد تمثّل به على بن أبى طالب رضى الله عنه لمّا رأى عبد الرحمن بن مُلْجَم المرادى فقال له : أنت تخضب هذه من هذه[2] ، وأشار إلى لحيته ونقرته[3] . فقيل له : ياأميرَ المؤمنين ، ألا تقتله ! فقال : كيف يقتلُ المرء قاتلَه ؟

وكان بين مَسْلمة بن عبد الملك وبين العباس بن الوليد تباعُد فبلغ العباس أن مسلمة يلتقصه ، فكتب إليه يقول[4] :

ألا تَقْنَى الحياء أبا سعيدٍ ... وتُقْصِر عن مُلاحاتى وعَذْلِى
فلولا أنّ فرعكَ حين تُنْمَى ... وأصلك منتهى[5] فرعى وأصلى
وأنى إن رَمَيْتك هِضْتُ عَظمى ... ونالتنى إذا نَالَتْك نَبْلِى
لقد أنكرتَنى إنكارَ خوفٍ ... يَضمُّ حشاكَ عن شتْمى وأكْلِى
فكم من سَوْرَةٍ أبطأتَ عنها ... بنى لك مجدها طلبى وحَفْلِى[6]
ومبْهمة عييت بها فأبدى ... عَويلى[7] عن مخارجها وفَضْلى
كقول المرء عَمْرو فى القوافى ... لِقَيْس حين خالف كلَّ عَذْل
عذيرى من خليلى من مرادٍ ... أُريدُ حياتَه ويريدُ قَتلى

لم يتفق له فى القافية كما قال عمرو ، فغيّره .

[رجع إلى عبد الملك بن صالح]

وعبد الملك هذا هو ابن صالح بن على وكان بليغاً جهيراً فاضلا عاقلا .

كلامه لمؤدبه

وقال الجاحظ : قال لى عبد الرحمن مؤدّب عبد الملك بن صالح قال لى عبد الملك بعد أن خصَّنى وصيَّرنى وزيراً بدلا من قُمامة : يا عبدَ الرحمن ، انظر فى وجهى ؛ فأنا

(١) صفحة ٦٥٩ . (٢) فى ا : من هذا . (٣) فى ط : وتفرته . والثغرة : نقرة النحر بين الترقوتين . (٤) الأمالى : ١ — ١٤ ، اللآلى ٦٢ . (٥) فى الأمالى : منتمى .
(٦) فى ط : وحلى . (٧) فى ا : حويلى .

أعرفُ منك بنفسك، ولا تُشهِدنى على ما يقبح ؛ دع [عنك كيف الأمير ؟][1] ، وكيف أصبح الأمير؟ وكيف أمسى ؟ واجعل مكانَ التقريظ حُسْنَ الاستماع منى، واعلم أن صوابَ الاستماع أحسنُ من صواب القول، وإذا حدّثتك حديثاً فلا يفوتنّك شىء منه ؛ وأرنى فهمَك فى طرفك ؛ إنى اتخذتك وزيرا بعــد أن كنت معلما ، وجعلتُك جليسا مقرّبا بعد أن كنتَ مع الصبيان مُبْعَداً ، ومتى لم تعرف نقصان ما خرجت منه لم تعرف رُجْحَان ما صرتَ إليه .

مسايرته الرشيد

وسايرَ الرشيدُ عبدَ الملك، فقال له قائل: طأطئ من إشرافه، واشدُدْ من شكائمه، وإلّا فسدَ عليك . فقال له الرشيد : ما يقولُ هذا ؟ قال : حاسدُ نِعْمة ، ونافس رُتبة، أغضبه رِضَاكَ عنى ، وباعدَه قُرْبك منى ، وأساءه إحسانُك إلىّ . فقال له الرشيدُ : انخفض القومُ وعلوتَهم ؛ فتوقّدت فى قلوبهم جَمْرَة التأسّف . فقال عبد الملك : أضْرَمَها اللهُ بالتزّيد عندك ! فقال الرشيدُ : هذا لك وذاك لهم .

اعتذاره حين أرتج عليه

وصعد المنبر، فأرْتِجَ عليه فقال : أيّها الناس، إن اللسان بضْعَة من الإنسان تكِلّ بكَلاله إذا كلّ، وتنفسح [بانفساحه] إذا ارتجل، إن الكلامَ بعد الإفحام كالإشراقِ بعد الإظلام ، وإنا لا نسكتُ حَصَرا ، ولا ننطقُ هَذَرا ؛ بل نسكتُ مفيدين، وننطق مُرْشِدين، وبعد مقامنا مقام، ووراء أيامِنا أيام، بها فَصْلُ الخطاب، ومواقع الصواب؛ وسأعودُ فأقول إن شاء الله تعالى .

أمام الرشيد بعد حبسه

وقال الأصمعى : كنتُ عند الرشيد فدعا بعبد الملك بن صالح من حَبْسِه فقال : يا عبد الملك ، أكُفراً بالنِّعْمة ، وغَدْراً بالسلطان ، ووثوبا على الإمام ؟ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، بُؤْتُ بأعباء الندم ، واستحلال النِّقَم، وما ذاك إلّا من قولِ حاسدٍ ناشدتك الله والولاية[2] ، ومودّة القرابة . فقال الرشيد : يا عبدَ الملك ، تَصَنَّعُ لى لسانك ، وترفَعُ لى جنانك ، بحيث يحفظُ اللهُ لى عليك ، ويأخذ لى منك ، هــذا كاتبُك قُمامة ينبئ عن غِلّك[3] . فالتفت عبدُ الملك إلى قُمامة وكان قائما ، فقال :

(١) من ا . (٢) فى ط : والولاء . (٣) فى ا : عن عملك .

أحقًا يا قامة ؟ قال : حقا ، لقد رُمْتَ خَتْرَ أمير المؤمنين ! فقال عبد الملك : وكيف لا يكذب عليَّ يا أمير المؤمنين في غَيْبَتي من يَبْهَتني في حضرتي ؟

فقال الرشيد : دَعْ قامة ، هـــذا ابنُك عبد الرحمن ينبيء عنك بمثل خبر قامة .

فقال عبد الملك : إنّ عبد الرحمن مأمور أو عاقّ ؛ فإن كان مأموراً فهو معذور ، وإن كان عاقًا فما أتوقّع من عقوقه أكثر .

[في مقام الخوف]

الحسن بن عمران أمام الرشيد — وقال الرشيد للحسن بن عمران وقد أُدْخِل عليه يرسف في قُيُودِه : ولّيتك دمشق وهي جنّةٌ مونِقة ، تحيط بها غُدُر كاللجين ، فتكفّ على رياض كالزّرابي ، وكانتْ بيوتَ أموال فما برح بها(١) التعدّي ، حتى تركتَها أجردَ من الصَّخْرِ ، وأوحش من القَفْر ! فقال : يا أميرَ المؤمنين ، ما قصدت لغير التوفيق من جهته ، ولكني ولّيت أقواماً ثَقُلَ على أعناقهم الحقُّ ، فتفرّغوا في ميدان التعدي ، ورأوْا أنّ المراغمة بتَرْك العِمارة أوقع بإضرار السلطانِ ، وأنوَه بالشنعة ؛ فلا جَرَم أنّ موجدَةَ أمير المؤمنين قد أخذتْ لهم بالحظّ الأوفر من مساءتي ! فقال عبد الله بن مالك : هذا أجزلُ كلامٍ سُمِع لخائف ، وهذا ما كنا نسمعه عن الحكماء : « أفضل الأشياء بديهةُ أَمْنٍ وردَتْ في مقامِ خَوْف » .

ويزيد بن مزيد — ولما رَضِيَ(٢) الرشيدُ عن يزيد بن مَزْيد دَخل عليه فقال : الحمد لله الذي سهّل لي سُبُلَ الكرامةِ بلقائك ، وردّ عليَّ النعمةَ بوَجْهِ الرضا منك ، وجزاكَ الله في حال سُخْطِك حقّ التثبتين(٣) المراقبين ، وفي حال رضاكَ حقّ المنعمين المتطوّلين ؛ فقد جعلك اللهُ ، وله الحمد ، تتثبّت [تحرّجا](٤) عند الغضب ، وتتطول [ممتنًا](٤) بالنعم ، وتستَبْقي المعروفَ عند الصنائع تفضّلا بالعَفْو .

---

(١) في ط : بك . (٢) العقد ٢ — ١٤٨ : (٣) في ط : التثبيت .
(٤) من ا .

[من الرثاء]

وفي يزيد بن مَزْيد يقول مسلم بن الوليد مرثيته وقد رُويت له في يزيد بن أحمد السلمي[١] :

قَبْرٌ ببَرْذَعةَ استسرّ[٢] ضريحهُ ... خَطراً تقاصَرُ دونهُ الأخطارُ
نُقضت بك الأحلاسُ نَقْضَ إقامةٍ[٣] ... واسترْجَعتْ نُزّاعها الأمصارُ
فاذْهبْ كما ذهبتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ ... أثنى عليها السهلُ والأوْعارُ
سلكَتْ بكَ العرَبُ السبيلَ إلى العُلا ... حتى إذا سبق الرّدَى بك حارُوا

ابن أبي عطية يرثي أخاه

وقال أبو عبد[٤] الرحمن محمد بن أبي عطية يرثي أخاه :

حنّطتَه يا نصرُ بالكافور ... وزَفَفْتَه للمنزلِ المهجورِ
هلّا ببعض خصاله حنطتهُ ... فيضوع أفق منازلٍ وقُبور
والله لو بنسيم أخلاقٍ لهُ ... تُعْزَى إلى التقديسِ والتطهيرْ
حنّطت من وطئ الحصى وعلا الربى ... لتزوّد بل[٥] عدة لنشور
فاذهب كما ذهب الشبابُ فإنهُ ... [قد كان خيرَ مُجاوِرٍ ومُجير[٦]]
[واذهب كما ذهب الوفاء فإنه][٦] ... عصفت به ريحا صَبَاً ودَبُور
واللهِ ما أبّنتُه لأزيدهُ ... شرَفاً ولكن نَفْثَةَ المصدُورِ

رثاء رجل من العرب

ومات رجلٌ من العرب كان يعولُ اثنى عشر ألفاً ، فلما حُمل على سريره صَرّ . فقال بعضُ من حضر[٧] :

وليس صَرِيرُ النعشِ ماتسمعونهُ ... ولكنه أصلابُ قومٍ تَقَصّفُ
وليس فتيق المسك ما تجدونهُ ... ولكنه ذاك الثناء المخلَّفُ

---

(١) الأمالي : ١ ــ ٢٧٦ . (٢) في ا : استمر ، وفي الأمالي : قبر بحلوان .
(٣) في ا : نقضت بك الآمال أحلاس الغنى . (٤) في ا : أبو عبيد الرحمن .
(٥) هكذا في ط ، وفي ا : بياض مكان الكلمتين . (٦) من ا .
(٧) الأمالي : ١ ــ ١١٣ ، اللآلي : ٣٣٩ .

وقال عبد الله بن المعتز فى عبيد الله بن سليمان بن وَهْب يرثيه :

يابن وَهْبٍ بالـكُرْهِ منى بقيتُ   عجبى يوم متَّ كيف حَيِيتُ
إنما طيِّبُ الثناء الذى خلف   ت لا مِسْك نَشْرِك المفتوتُ
واختصرْتَ الطريقَ بعدك للمو   ت فلاقيتُه ولستُ أفوتُ
كيف يَبْقَى على الحوادثِ حَىٌّ   بيدِ الدَّهْرِ عُودُه منحوتُ

وقال أيضاً(١) :

ذكرت ابنَ وَهْبٍ فلله ما   ذكرتُ وما غيّبوا فى الـكَفَنْ
تقطِّر أقلامه من دم   ويملأ بالظنّ مالم يَـكُنْ
وظاهر أطرافه ساكنٌ   وما(٢) تحته حركاتُ الفطنْ

وقال(٣) :

ذكرت عبيد الله والتربُ دُونَه   فلم تحبس العينانِ منى بكاهُما(٤)
وحاشاهُ من قولٍ «سقَى الغيثُ قبرَهُ»   يداهُ تروّى(٥) قبرَه مِنْ نداهُما

وهذا مأخوذ من قول الطائى(٦) :

سقى الغيثُ غيثاً وارَتِ الأرضُ شخصَهُ   وإن لم يكُنْ فيه سحابٌ ولاقَطْرُ
وكيف احْتِمالِي للسحابِ صنيعةً   بإسقائها قبرًا وفى لَحْدِه البَحْرُ

وقال ابن المعتز(٧) :

لم تمُتْ أنتَ إنما مات مَنْ لم   يُبْقِ فى المجدِ والمكارم ذِكْرَا
لست مستسقيا لقبرك غيثاً   كيف يظما وقد تضمَّن بَحْرا

والبيت الثانى من هذين(٨) من بيت الطائى .

---

(١) ديوانه : ٢ — ١٣٤ . (٢) فى الديوان : ومن تحته . (٣) ديوانه : ٢—١٣٢
(٤) فى الديوان : فلم تملك العينان إلا بكاهما . (٥) فى الديوان : اسق .
(٦) ديوانه : ٣٧٠ . (٧) ديوانه : ٢ — ١٣١ . (٨) فى ا : وبيته الأول .

وقال(١) :

محمدُ بنُ حميد أُخلِقت رِمَمُهْ   أُريق ماء المعـــالى إذْ أُرِيقَ دَمُهْ
رأيتُه بِنجادِ السيفِ مُحْتَبِياً   كالبدر حين انْجَلَتْ عن وجهه ظُلَمُهْ
فى روضةٍ حفَّها من حولها(٢) زَهَرٌ   أيقنت عند انتباهى أنها نِعَمُهْ
فقلتُ والدمعُ من وَجْدٍ ومن حُرَقٍ   يَجْرِى وقد خدَّدَ الخدين منسجمهْ
ألم تمت يا سليلَ المجد(٣) من زمنٍ   فقال لى : لم يَمُتْ من لم يمت كَرَمُهْ

وقال بعض أهلِ العصر :

عُمْرُ الفتى ذِكْرُه لا طولُ مدَّتِه   وموتُه موتُه لا موتُه الدّانِى
فأَحْيِ ذِكْرَك بالإحسان تَزْرعهُ   تُجْمَع به لك فى الدنيا حَيَاتانِ

وقال عبد السلام بن رَغبان(٤) الحِمصى :

سق الغيثُ أرضاً ضُمِّنتك وسَاحَةً   لقبرك فيه الغيث والليثُ والبَدْرُ
وما هى أهــلٌ إذْ أصابتك بالبِلَى   لسُقيا ولـكن من حَوَى ذلك القبرُ

أخذ هذا البيت [الأول](٥) الراضى فقال يرثى أباه المقتدر :

بنفسى ثَرًى(٦) ضُمِّنْتَ فى ساحة البِلى   لقد ضَمَّ منك الغيثَ والليثَ والبَدْرا
فلو أنَّ عمرى كان طوعَ مشيئتى   وأسعدنى المقدورُ قاسمتُكَ العمرا
ولو أنَّ حيًّا كان قبراً لميت   لصيَّرْتُ أحشائى لأعْظُمِه قَبْرا

هذا البيت ينظر إلى قول المتنبى(٧) :

حتى أتَوْا جَدَثاً كأنَّ ضريحَهُ   فى قَلْبِ كلِّ موحِّدٍ محفورُ

* * *

قطر الندى عند المعتضد

لما حُملت قَطْرُ الندى بنت خمارويه بن [أحمد بن](٥) طولون إلى المعتضد كتب معها

(١) أبو تمام : ٣٨٧ . (٢) فى الديوان : قد علا حافاتها ، علمت بعد .
(٣) فى الديوان : ياشقيق الجود . (٤) فى ا : زغبان — بضم الزاى . (٥) من ا .
(٦) فى ط : أليث العمرى . (٧) ديوانه : ٢ — ١٣٠ .

كتاب أبيها أبوها إليه يذكره بحُرْمَة[1] سلفها [بسلفه][2] ، ويذكرُ ما تردُ عليه من أُبّهة الخلافة ، وجلالة الخليفة ، ويسأل إيناسها وبَسْطَها . فبلغَتْ من قَلْبِ المعتضد لما زُفّت إليه مبلغا عظيما ، وسُرَّ بها غاية السرور ، وأمر الوزير أبا القاسم عبيد الله بن سليمان

رد الحسن ابن ثوابة ابن وهب بالجواب عن الكتاب ، فأراد أن يكتبه بخطه ، فسأله أبو الحسين بن ثوابة أن يُؤْثِره بذلك ففعل ؛ وغاب أياما وأتى بنسخة يقول في فصل منها : وأمّا الوَدِيعةُ فهي بمنزلة شيء انتقل من يمينك إلى شمالك ، عنايةً بهـا ، وحِياطة عليها ، ورعايةً لمودتك فيها . ثم أقبل عبيد الله يُعجب من حُسْنِ ما وقع له من هذا، وقال : تسميتَك تقدمه لها بالوديعة ، نصفُ البلاغة . فقال عبيد الله: ما أقبحَ هذا ! تفاءلت لامرأةٍ زُفّت إلى صاحبها بالوديعة ، والوديعةُ مستردة . وقولك : من يمينك إلى شمالك أقبح ؛ لأنك جعلت أباها اليمين وأمير المؤمنين الشمال، ولو قلت : «وأما الهديةُ فقد حسُن موقعها منّا ، وجلّ خطرُها عندنا ؛ وهي إنْ بعدَتْ عنك، بمنزلة من قرُبتْ منك؛ لتفقّدنا لها ، وأُنْسِنا بها ، ولسرورها بما وردَتْ عليه ، واغتباطها بما صارت إليه » لكان أحسن . فنفذ الكتاب .

عقلها وكانَتْ قَطْرُ الندى مع جمالها موصوفةً بفَضْلِ العقل[3] ، خلا بها المعتضد يوما للأُنس بها في مجلسٍ أفرده لم يحضره غيرها ، فأخذَتْ منه الكأس ، فنام على فخذها، فلما استثقلَ وضعَتْ رأسَه على وسادة ، وخرجت فجلست في ساحةِ القصر على باب المجلس ، فاستيقظ فلم يجِدْها ، فاستشاط غضبا ، ونادى بها فأجابته على قرب ، فقال : ما هذا؟ أخليتك إكراما لك، ودفعتُ إليك مهجتي دون سائر حظاياي ، فتضَعين رأسي على وسادة ! فقالت: يا أمير المؤمنين ، ما جهلتُ قدرَ ما أنعمتَ به عليّ وأحسنتَ فيه إليّ ، ولكن فيما أدّبني به أبي أن قال لي : لا تنامي مع الجلوس ، ولا تجلسي بين النيام .

* * *

(١) في ط : بخدمة . (٢) من ا . (٣) في ا : بفضل العقل .

[رجع إلى الرثاء]

وفى أبى الحسين بن ثوابة يقول ابن المعتز يرثيه[١] :

رثاء ابن المعتز لابن ثوابة

ليس شىءٌ لصحةٍ ودوامِ ... غلبَ الدهرُ حيلةَ الأقوامِ
وتولَّى أبو الحُسين حميداً ... فعلى رُوحه سَلام السلامِ
حين عاقدته على الحِفْظ للعَهْـ ... ـدِ وصافحْتُه بكفِّ الذِّمام
واصطفته على الأخلّاء نفسى ... كاصطفاء الأرواح للأجسامِ
كانَ رَيْحانة النَّدامى وميزا ... نَ القوافِى شعراً و بحرَ كلامِ
ومكان السهم[٢] الذى لا يَرَى الشـ ... ـكَّ ولا يستنيمُ بالأوهام
ساحر[٣] الوحى فى القراطيس لا تحـ ... ـبس عنه أعنّة الأقلام
فإذا ما رأيته خِلْتَ فى خـ ... ـدَّ يْه[٤] صُبْحًا منقبًا بظلام
نفسُ صَبْرًا لا تجزَعى إن هذا ... خُلقٌ من خلائق الأيام

[أيام الشباب]

وأنشد أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب لرجل من بنى كلاب[٥] :

سقَى اللهُ دهراً قد تولَّت غَياطِلُه[٦] ... وفارقَنا إلا الحُشَاشةَ باطِلُه
ليالىَ خِدْنى كلُّ أبيضَ ماجدٍ ... يُطيع هَوَى الصابِى وتُعصَى عواذِلُه
وفى دَهْرِنا والعيشُ فى ذاك غِرّةٌ ... ألا ليتَ ذاك الدهرَ تُثنَى أوائلُه
بمـا قد غَنينا والصِّبا جُلُّ همِّنا ... يُعايلنا رَيْعانُه ونُعايلُه
وجرَّ لنا أذيالَه الدهرُ حِقْبَةً ... يطاوِلُنَا فى غَيّه ونُطاوِلُه
فسقياً له من صاحبٍ خذَلَتْ بنا ... مطيَّتُنا فيـه وولَّت رَواحلُه
أَصُدُّ عن البيت الذى فيه قاتلى ... وأهجرُه حتى كأنِّىَ قاتلُه

(١) ليس فى ديوانه المطبوع بأيدينا . (٢) فى ط : الوهم .
(٣) فى ط : ساحر . (٤) فى ا : كفيه .
(٥) الأمالى : ١ — ٧٧ ، اللآلى : ٢٠٨ . (٦) الغياطل : جمع غيطلة : الظلمة .

هـــذا البيت يناسب قول ذى الرمة وإن لم يَكُنْ فى هذا المعنى يصِفُ ظبية وولَدَها :

إذا استودَعته صفصفا أو صريمة ... تنحّت ونصّتْ جِيدَها بالمناظِر[1]

حِذَاراً على وسْنَانَ يَصْرعُهُ الكَرى ... بكل مقيل عن ضِعافٍ فواتِر

وتهجرُه إلا اختلاساً نهارها ... وكم من محبٍّ رهبةَ العين هاجِر

وقال أبو حَيَّةَ النميرى :

أما وأبى الشباب لقـــد أراهُ ... جميـــلا ما يرادُ به بديلُ

إذِ الأيامُ مقبلةٌ علينا ... وظِلٌّ أرَاكَةِ الدنيا ظليلُ

وقال على بن بسام[2] :

بشاطئ نهر قبرك فالمصلّى ... فما والأَهْمَا فالقريتين

معاهِد لَهْوِنا والعيشُ غضٌّ ... وصرفُ الدهرِ مقبوضُ اليدين

* * *

ابن بسام وشيء من أدبه

وكان ابنُ بسام هذا، وهو على بن [محمد بن][3] منصور بن بسّام، مليح المقطعات، كثير الهجاء خبيثه ، و[ليس][3] له حظّ التطويل وهو القائل :

كم قد قطعتُ إليك من دَيمومَةٍ ... نُطَفُ[4] المياهِ بها سَوادُ الناظِرِ

فى ليلةٍ فيها السماءُ مرِدّةٌ[5] ... سوداء مظلمةٌ كقلبِ الكافِرِ

والبرقُ يخفِقُ من خلالِ سحابهِ ... خَفْقَ الفؤاد لموعدٍ من زائرِ

والقطر منهمِلٌ يسُحّ كأنّهُ ... دمع المودّع إثر إلفٍ سائرِ

وقال فى العباس [بن الحسين][3] لما وزر للمكتفى :

وزارة العباسِ من نحسِها ... ستقلع الدولةَ من أُسِّها

---

(١) الصفصف : المستوى من الأرض . والصريمة : الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر . ونصت جيدها : رفعته . (٢) المختار ٣٣٢ . (٣) من ا .

(٤) النطفة : الماء الصافى ، وجمعه نطف . (٥) فى ط : مزادة .

شبَّهتُه لمّا بدَا مُقبِلا   في خلع يخجل من لُبسِها
جارية رَعناء[1] قد قدَّرتْ   ثياب مولاها على نفسِها

وقال في علي بن يحيى المنجم يرثيه :

قد زرتُ قبرك يا عليّ مسلماً   ولكَ الزيارة من أقلّ الواجبِ
ولو استطعت حملتُ عنك ترابَهُ   فلطالما عني حملتَ نوائبي

وكان مولعاً بهجاء أبيه ، وفيه يقول وقد ابتنى داراً :

شِدتَ داراً خلتها مكرمةً   سلّط اللهُ عليهـا الغَرَقَا
وأرانيك صريعاً[2] وسطها   وأرانيها صعيداً زَلَقا

وقال أبو العباس بن المعتز يهجوه[3] :

من شاء يَهْجُو عليّاً   فشِعرُه قد كفاهُ[4]
لو أنّه لأبيـهِ   ما كان يَهْجُو أباهُ

[مع الخلفاء]

وقال المأمون لأحمد بن أبي خالد ، وهو يخلف الحسنَ بن سهل ، وقد أشار إليه برأي استرجحَه : قد اعتلّ الحسنُ ولزم بيته ، ووكَل الأمرَ إليك ، فأنا إلى راحته وبقائه ، أحوجُ إلى إتعابه وفنائه ، وقد رأيتُ أن أستوزرك ؛ فإن الأمر له ما دمت أنت تقوم به، وقد طالتْ رأيه في هذا الأمر ، فما عَدَاك[5] . فقال : يا أمير المؤمنين، أعْفِني من التسمّي بالوزارة ، وطالبني بالواجب فيها ، واجعلْ بيني وبين الغاية[6] ما يرجوني له وَليّي ، ويخافني له عدُوّي، فما بعد الغايات إلا الآفات . فاستحسن كلامه، وقال : لابد من ذلك واستوزره . المأمون وأحمد بن أبي خالد

(١) في ا : خازنة الكسرة . (٢) في ا : سريعا . (٣) ديوانه : ٢ — ٣ .
(٤) رواية الديوان : من رام هجو علي   فشعره قد هجاه   (٥) في ط : فأعداك .
(٦) في ا : وبين العامة .

المأمون وحسن الخط

ورأى المأمونُ خطَّ محمد بن دَاود[1] فقال : يا محمد ؛ إن شاركتنا فى اللفظ ، فقد فارقناك فى الخطّ . فقال : ياأمير المؤمنين ، إنّ من أعظم آياتِ النبى صلى الله عليه وسلم أنّه أدّى عن الله سبحانه وتعالى رسالاته ، وحفظ عنه وَحْيَه ، وهو أمّى لا يعرف من فنون الخط فَنّا ، ولا يقرأ من سائره حَرْفا، فبقى عمود ذلك فى أهله، فهم يشرفون بالشَّبَه الكريم فى نَقْص الخط ، كما يشرفُ غيرُهم بزيادته ؛ وإنّ أمير المؤمنين أخصُّ الناسِ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والوارثُ لموضعه ، والمتقلّد لأمره ونهيه ؛ فعلقت به المشابهة الجليلة ، وتناهَتْ إليه الفضيلة . فقال المأمون : يا محمد ، لقد تركتَنى لا آسَى على الكتابة ولو كنتُ أمّيا .

وهذ شبيهٌ بقول سعيد بن المسيّب ، وقد قيل له : ما بال قريش أضعفُ العرب شعرا ، وهى أشرفُ العرب بيتا ؟ قال : لأنّ كَوْن رسول الله صلى الله عليه وسلم منها قطع مَتْن الشعر عنها .

رفق المأمون

وقال إبراهيم بن الحسن بن سَهل : كنّا فى مجلس المأمون وعَمْرو بن مسعدة يقرأ عليه الرقاع، فجاءته عطسَةٌ ، فلوَى عنقه فردّها ، فرآه المأمون فقال : ياعمرو ، لاتفعل فإن ردّ العَطْسة وتحويل الوجه بها يُورِثان انقطاعا فى العنق . فقال بعض ولد المهدى: ما أحسنَها من مولًى لعبده ، وإمام لرعيته ! فقال المأمون : وما فى ذلك ؟ هـذا هشامٌ اضطربت عِمامته فأهوى الأبرش الكلبى إلى إصلاحها ، فقال هشام : إنّا لا نتّخذ الإخوان خَوَلا[2] ! فالذى قال هشام أحسنُ مما قلته[3] . فقال عمرو : ياأمير المؤمنين، إنّ هشاما يتكلّفُ ما طبعت عليه ، [ويظلم][4] فيا تعدل فيه ، ليس له قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا قيامك بحقّ الله ، وإنك والملوك لـكما قال النابغة الذبيانى[5] :

---

(١) فى ا: محمد بن أبى داود . (٢) الخول : العبيد .
(٣) فى ا : عاملته . (٤) من ا . (٥) ديوانه : ١٧ .

أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أعطاكَ سَوْرَةً ... تَرى كُلَّ مَلْكٍ دونَها يتذبذبُ
لأنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ... إذا طلَعَتْ لم يبدُ منهن كوكبُ

أخذ النابغة هذا من قول شاعرٍ قديم من كندة :

تكادُ تميدُ الأرضُ بالناس إنْ رَأوا ... لعمرو بن هنـد غَضْبَةً وهو عاتبُ
هو الشمس وافَتْ يوم دَجْنٍ[1] فأفْضَلَتْ ... على كل ضوءٍ والملوكُ كواكبُ

يزيد وجميل ابن أوس

قال يزيد بن معاوية لجَميل بن أوْس وكان أكرمه واجتباه : لِمَ كرِهْتَ الإفراط في تقديمي ، وتطامَنْتَ عن الدرجة التي سما بك إليها مكانك مني ؟ فقال : [أيدَ الله سلطانك وأعلى مكانك][2] ، إن الذين كانوا قبلنا من أهل العلوم[3] والآداب ، والعقول والألباب ، كانوا أطول أعمارا منـا ، وأكثر للزمان صُحْبة ، وأكثر للأيام تجربة . وقد قال الحكيم: بقدر الثواب عند الرّضا يكون العقابُ عند السخط، وبقَدْر السموّ في الرفعة تكون وَجْبة[4] الرفعة ، ولا خير فيمن لا يسمع الموعظة ، ولا يقبل النصيحة ؛ وأنا ياأمير المؤمنين وإن كنت آمناًمن التعرض لسُخْطِك والدنوّ مما يقرِّب منه ، فلستُ بآمن من طَعْنِ المُساوِى في الدرجة عندك ، وحقد المشارك لي في المنزلة منك ، وليس من تقديمك قليل ، ولا من تَعْظيمك يسير ، فإن أقل ذلك فيه النباهة ، والفخر ، [والثناء][2] والذكر ، وحسبي مما بذلته من أموالك استحقاق عندك لإكرامك ، وحسبي من تقديمك خالص رضاك ، وصفاء ضميرك .

مختار من أقوال الحكماء عند وفاة الإسكندر

لما جُعِل الإسكندرُ في تابوت من ذهبٍ تقدّم إليه أحدُهم فقال : كان الملكُ يخبأ الذهبَ ، وقد صار الآن الذهبُ يخبؤه . وتقدم إليه آخر ، والناسُ يبكون ويجزعون، فقال : حرّكنا بسكونه . أخذه أبو العتاهية فقال :

---

(١) في ا : يوم سعد . (٢) من ا . (٣) في ا : الحلوم .
(٤) في ط : تكون الضعة .

يا علىّ بن ثابت بانَ منّى صاحبٌ جَلّ فقدُه يوم بِنْتَا
قد لعمرى حكيتَ لى غُصصَ المو تِ وحرّكْتَنى لها وسكنْتَا

وتقدم إليه آخر فقال : كان الملكُ يَعِظُنا فى حياته ، وهو اليومَ أوعظُ منه أمس . أخذه أبو العتاهية فقال :

وكانت فى حياتك لى عِظَاتٌ وأنتَ اليومَ أوعظُ منك حيّا

وتقدّم إليه آخر فقال : قد طاف الأرضين وتملّكها ، ثم جعل[1] منها فى أربعة أذرع . ووقف عليه آخر فقال : مالك لاتُقِلّ عضواً من أعضائك ، وقد كنت تستقِلّ ملكَ العباد . ووقف عليه آخر فقال : انظرْ إلى حلم النائم كيف انقضى ، وإلى ظلّ الغمام كيف انجَلَى . وقال آخر : مالك لا ترغَبُ بنفسك عن ضيق المكان، وقد كنت ترغبُ بها عن رحب البلاد . وقال آخر : [كان الملك غالبا فصار مغلوبا، وآكلا فصار مأكولا . وقال آخر][2]: أمات هذا الميت كثيراً من الناس لئلّا يموت، وقد مات الآن. وقال آخر : ما كان أقبح إفراطك فى التجبّر أمس، مع شدّة خضوعك اليوم. وقالت بنت دارا: ما علمت أنّ غالب أبى يُغلَب. وقال رئيس الطباخين: قد نضدت النضائدُ، وألقيت الوسائد ، ونُصِبت الموائد ، ولستُ أرى عميدَ المجلس !

جملة من كلام ابن المعتز فى الفصول القصار فى ذكر السلطان .

أشقَى الناس بالسلطان صاحبُه، كما أنّ أقربَ الأشياء إلى النار أسرعُها احتراقاً. لا يُدْرِكُ الغنى بالسلطان إلّا نفسٌ خائفة، وجسْمٌ تعِب، ودينٌ متثلم. إن كان البحرُ كثير الماء فإنه بعيدُ المَهْوى ، ومَنْ شارك السلطانَ فى عزّ الدنيا شاركه فى ذُلّ الآخرة . فسادُ الرعية بلا ملك كفسادِ الجسم بلا رُوح . إذا زادك السلطانُ تأنيسا فزِدْهُ إجلالا . مَنْ صحب السلطانَ صبر على قسْوته كصَبْرِ الغوّاص على ملوحة بَحْرِه .

(١) ق ١ : حصل . (٢) من ١ .

الملك بالدين يبقى والدين بالمُلْكِ يقْوى . من نصح الخدمة نصحتْه المجازاة . لا تلتبس بالسلطان فى وقت اضطرابِ الأمور عليه ؛ فإنّ البحر لا يكادُ يسلم صاحبُه فى حالِ سكونه ، فكيف عند اختلاف رياحِه ، واضطرابِ أمواجه ؟

ومن كلام أهل العصر وغيرهم فى هذا النحو

الأوطانُ حيثُ يعدل السلطان. إذا نطق لسان العدل فى دار الإمارة فلها البُشْرى بالعزّ والإمارة. أخْرِ بالملك العادل أن يستقلَّ سريرَه فى سرّة الأرض. ريحُ السلطان على قومٍ سَموم ، وعلى قوم نسيم . أخلق بدم المستخف(1) بالجبابرة أن يكون جُبَارا(2) . من غمس يده فى مال السلطان فقد مشى بقدمه على دَمه . الملك خليفةُ الله فى عبادِه وبلادِه ، ولن يستقيم أمرُ خلافته مع مخالفته . الملك مَنْ ينشرُ(3) أثواب الفضل ، ويبسطُ أنواعَ العدل . السلطانُ كالنارِ إنْ باعدتَها بطل نَفْعُها ، وإن قاربتَها عَظُم ضررها. إقبالُ السلطان تَعَبٌ وفِتْنَة ، وإعراضُه حسرة ومذلة. صاحبُ السلطان كراكب الأسد يهابُه الناسُ وهو لمركبه أهيبُ. السلطانُ إذا قال لعمّاله: هاتوا ، فقد قال لهم : خذوا . ثلاثة لا أمان لهم : السلطان ، والبحر ، والزمان . ليكن السلطان عندك كالنار ، لا تدنُو منها إلا عند الحاجةِ إليها، وإن اقتبست منها فعلى حذر . مثل أصحاب السلطان كقومٍ رقوا جبلا ثم وقعوا منه، فكان أقربهم إلى التلف أبعدهم فى المرق . مثل السلطان كالجبل الصّعْب الذى فيه كلُّ ثمرة طيبة ، وكل سَبُع حَطُوم ، فالارتقاء إليه شديد ، والمقام فيه أشدّ. لئن عزّ الملوك فى الدنيا بالجور ليذلُّن فى الآخرة [بالعدل](4) .

لابن عباد الصاحب :

إذا ولّاك سلطانٌ فزده(5) من التعظيم واحْذره وراقِبْ

---

(1) فى ط : بالمستخف . (2) الجبار : الهدر والباطل .

(3) فى ط : الملك مع من ينشر . (4) من ا . (5) فى ط : إذا ماودك السلطان زده

فما السلطانُ إلا البحرُ عظماً ... وقربُ البحرِ مَحْذُورُ العواقِب

[وصف كاتبة وكاتب]

ووصف أحمد بن صالح بن شيران[1] جاريةً كاتبة فقال : كأنَّ خطَّها أشكال صورتِها ، وكأنَّ مِدادَها سوادُ شعرها، وكأن قرطاسها أديمُ وَجْهِها، [وكأنَّ قلمَها بعضُ أناملِها ، وكأن بنانَها سِحْرُ مُقْلتِها ، وكأن سِكِّينَها غُنج لحظِها][2] وكأن مِقطَها قلبُ عاشقها .

وقال بعضُ الكتّاب يصفُ غلاماً كاتباً :

انظر إلى أثرِ المداد بخدِّهِ ... كبنفسجِ الرَّوْضِ المَشُوبِ بوَرْدِهِ
ما أخطأتْ نوناته من صُدْغِه ... شيئاً ولا ألِفاتُه مِنْ قدِّهِ
ألقَتْ أناملُه على أقلامِهِ ... شَبَهاً أراكَ فِرِنْدَها كفِرِندِهِ
وكأنما أنقاسُه من شَعرِه ... وكأنما قرطاسه من خدِّه

وقال أحمد بن أبي سمرة الدارى فيما ينظر إلى هذا من طَرْف خَفِى :

[سرابُ الفيافى صادقٌ عند وعدها ... وسمُّ الأفاعى مبرئٌ عند صدِّها][3]
رمتنى ولم أشْعُرْ بأيام وَصْلِها ... بمِيتَى مهاةٍ أنْحسَتْنى[4] بِبُعْدِها
فعلقها قلبى كما قد تعلقت ... صوالج صدغيها بتفاح خدها
فقلبىَ لمـا أضعفته كخصرها ... ودمعىَ لما نظمته كعقدها
ونيل الثريا ممكنٌ عند وصْلِها ... وأسرع من برق تناقضُ وعدها

---

(١) فى ط : أحمد بن أبى صالح بن بشير . (٢) ساقط من ا .
(٣) من ا . (٤) فى ط : أحوستنى .

[من أدب بديع الزمان وابن العميد]

من البديع إلى ابن العميد

رقعة كتبها بديع الزمان إلى ابن العميد يستنجزه : أين تكرّم الشيخ العميد أيّده اللهُ على مولاه ، وكيف معدله إلى سِوَاه ، أيقصر فى النعمة ، لأنى قصّرت فى الخدمة ؟ إذن فقد أساء المعاملةَ ، ولم يحسن المقابلة ، وعثر فى أذيال السهْو ، ولم ينعش بيدِ العفو ، أم يقول : إن الدهر بيننا خدع ، وفيما بعد متسع ، فقد أزف رَحِيلى ، ولا ماء بعد الشطّ ، ولا مَطلع وراء الخط ؛ أم ينتظر سؤالى ؟ وإنما سألته ، يوم أمّلته ؛ واستمحتهُ ، يوم مدحته ، واقتضيته ، يوم أتيته ، وانتجعت سحابه ، لما قرعت بابَه ، وليس كل السؤال أعْطِنى ، ولا كل الردّ أغْنِنى ؛ أم يظن أيده الله تعالى أنى أردّ صِلَته ، ولا ألبَس خلعته ؟ وهذه فراسة المؤمن إلا أنها باطلة ، ومَخِيلة العارف إلا أنها فاسدة . أم ليس يجد فىَّ مكاناً للنعمة يضمُّها ، وأرضاً للمنّة يزرعها ؟ فلا أقل من تجربةٍ دفعة ، والمخاطرة بإنفاذ خلعة ، ليخرج من ظلمة التخمين إلى نور اليقين ، وينظر أأشكر أم أكفر ؛ أم يتوقع أيده الله صاعقة تملكنى ، أو بائقة تهلكنى ، فلهذا أمَل موفَّر ، لأن شيخ السوء باق معمَّر ؛ أم يقدر أيده الله أنى أشكره إذا اصطنع ، وأعذره إذا منع ، وتالله لو كنت ينبوع المعاذِر ما حظى[1] منها بجرعة ، فليُرحى بسُرعة .

وكتب أبو القاسم[2] الهمذانى إلى البديع : قد كتبت[3] لسيدى حاجة إن قضاها وأمضاها ، ذاق حلاوة[4] العطاء ، وإن أباها وقلّ شَباها لَقِى مرارةَ الاستبطاء ، فأى الجودين أخفّ عليه ؟ أجود بالعِلق ، أم جودٌ بالعرض ؟ وتزول عن الطريف ، أم عن الخلق الشريف ؟

فأجابه : جعلت فداك هذا طبيخ[5] ، كلّه توبيخ ، وتزيد ، كله وعيد ، ولقُم ،

(١) فى ا : ماحظى . (٢) هكذا بالأصول . (٣) فى ط : طبخت . (٤) فى ا : حرارة
(٥) فى ا : طبخ .

إلا أنّها نِقَم ، ولم أرَ قِدراً أكثرَ منها عظاماً ، ولا آكلاً أكثر مني كَظْماً ، ولم أرَ شربة أمرّ منهـا طعماً ، ولا شارباً أتمّ مني حلماً ، ما هذه الحاجة ؟ ولتكن حاجتك من بعدُ ألينَ جوانب، وألطفَ مطالب ، توافق قضاءها، وترافق ارتضاءها ، إن شاء الله تعالى .

وفى مقامات أبى الفتح الإسكندرى من إنشائه قال[١] :

حدثنا عيسى بن هشام قال : أحلّنى جامعَ بخارى يوم[٢]، وقد انتظمتُ مع رُفْقةٍ فى سِمْطِ الثريّا ، وحين احتفل الجامعُ بأهله طلع علينا ذو طِمْرَيْن[٣] ، قد أرسل صِوانَاً ، واستتل [طِفْلاً] عُرْيَاناً[٤] ، يضيق بالضّر وُسْعه[٥] ، ويأخذه القُرُّ ويَدَعُه ، لا يملكُ غَيْرَ القِشرة بُرْدَة ، ولا يلتقى لَحْياه رِعْدَة ، ووقف الرجل وقال : لا ينظرُ لهذا الطفل إلّا مَنْ رحم طفله ، ولا يرقُّ لهذا الضُّر إلا مَنْ لا يأمنُ مِثْلَه ؛ يأصحاب الجُدُود[٦] المفروزة ، والأَرْدِية المطروزة، والدور المنجَّدة، والقصور المشيّدة، إنكم لن تأمنوا حادثاً ، ولن تعدموا وارثاً ، فبادِرُوا الخيرَ ما أمكن ، وأحْسِنوا مع الدهر ما أحسنَ، فقد والله طَعِمْنا السِّكْبَاج[٧]، وركِبنا الهِملاج[٨]، ولبِسْنَا الديباج، وافترشنا الحشايا بالعشايا ، فما راعَنا إلا هبوبُ الدهر بِغَدْرِه ، وانقلاب المِجَنّ لظهره ، فعاد الهِمْلاج قَطوفاً[٩] ، وانقلب الديباج صُوفاً ، وهلمّ جرا ، إلى ما تشاهدون من حَالى[١٠] وزِيّى ؛ فها نحن نرضع من الدهر ثَدْىَ عقيم، ونركب من الفقر ظهر بَهيم، ولا نرنُو إلا بعين اليتيم، ولا نمد إلا يد العديم، فهل من كريم يَجْلُو عنّا غياهب[١١] هــذه البؤوس ، ويفُلُّ شَبا هذه النحُوس . ثم قعد مرتفقاً ، وقال للطفل : أنت

---

(١) مقامات البديع : ٨٩ ، وليس لأبى الفتح مقامات . (٢) فى ا : نؤمه .
(٣) الطمر : الثوب البالى . (٤) استتل : جعله تابعا . (٥) فى ا : بالضر وسعه .
(٦) فى ا : المزوز . (٧) السكباج : لحم يطبخ بالخل .
(٨) الهملاج : الدابة السريعة فى سيرها . (٩) القطوف : الدابة البطيئة السير .
(١٠) فى ا : حلى وزى . (١١) فى ا : غيابة .

وشأنك. فقال : وما عسى أن أقول، وهذا الكلامُ لو لقى الشَّمر لحلقه ، أو الصخر لفلقه، وإنّ قلباً لم يُنضِجْه ما قلت لنِىء[1] ! قد سمعتُم يا قوم، ما لم تسمعوا قبل اليوم، فليشغل كلّ منكم بالجُود يدَه ، وليذكر غده ، واقيا بى ولدَه ، واذكرونى أذكركم ، وأعطونى أشكركم !

قال عيسى بن هشام : فما آنَسَنى فى وَحْدتى[2] إلا خاتم ختّمت به خنصره ، فلما تناوله أنشأ يقول :

وَمُمَنْطَقٍ مِن نفسه بقلادَةِ الجوزاء حُسْنا
كتَتيِم لَقى الحبيـ ـب فضمّه شغفاً وحزنا
متألقٍ من غير أُنْـ ـرِ عَلى الأيام خِدْنا
عِلْق سَنِىٌّ قَدْرُهُ لكنَّ مَنْ أهداهُ أسْنَى
أقسمت لو كان الوَرَى فى المَجْدِ[3] لفظاً كنتَ مَعْنَى

قال عيسى بن هشام : فتبعته حتى سَفَرَت الخَلْوَة عن وجهه ، فإذا والله شيخنا الإسكندرى ، وإذا الصبىّ غلامٌ له ، فقلت :

أبا الفتح شِبْتَ وَشبَّ[4] الغلام فأين الكلامُ ، وأين السلام ؟

فقال :

غريبا إذا جمعتنا الطريق أليفا إذا نظمتنا الخيام

فعلمت أنه كره لقائى[5] فتركته وانصرفتُ .

[وصف فص وخاتم]

وقال أبو الفتح كشاجم يصف فَصّا :

ساجلْ بفصّك مَنْ أرَدْتَ وباهِهِ فكفى به كمداً لقلب الحاسِدِ

---

(١) فى ط : لنبى . (٢) ق ا : فما آلسنى عن وحدتى . (٣) ق ا : الفضل .
(٤) ق ا : وشاب . (٥) ق ا : مؤالفى .

متألّقٍ فيه الفِرِنْد كأنه ... وجهي غداةَ ندًى وضيفٍ قاصِدِ
لو أنّ ظمأى منه عُلّت لارْتَوَتْ ... من ماء جوهرِه المَعِينِ البارِدِ
يَبْهَر العيونَ إضاءةً في رِقّةٍ ... فكأنني متختّم بعُطارِدِ

وصف خاتم

وقال بعضُ المحدَثين يصف خاتمًا :

ووَحِيدُ السِّكْمان صِيغَ بديعاً ... فإذا تمّ صِيغَ من جوهَرَيْنِ
خلعتْ خَجْلَةَ الخدودِ عليهِ ... خلعاً قد لبسن[1] فوق اللُّجين
فإذا ما رأيتَه في بنــانٍ ... قد كساها من حُسْنِه حُلّتَيْنِ
قلتَ نجمٌ هَوَى من الجوّ حتى ... صار تجري بُروجه[2] في اليَدَيْنِ

البحتري يستهدي فصا

وقال البحتري يستهدي المعتز فصًّا[3] :

فهل أنت يابنَ الراشدين مختّمي ... بياقوتةٍ تبهَى عليّ وتُشْرِق
يغارُ احمِرارُ الوَرْدِ من حُسْنِ صِبغها ... ويحكيه جادِيُّ الرحيقِ المعتّقُ
إذا برزَتْ والشمسَ قلت تجارَيا ... إلى أمَدٍ[4] أو كادت الشمسُ تسبقُ
إذا التهبتْ في الأَلْحُظِ ضاهَى ضياؤها ... جبينَك عنـد الجودِ إذ يتألّقُ
أُسَرْبَلُ منها ثوبَ فخرٍ معجّلٍ ... فيبقى بها ذِكرٌ على الدهرِ مخلقُ

وعلى ذكر الخاتم قال أبو الفتح كشاجم :

عرَضْنَ فعرّضْنَ القلوبَ مِنَ الهَوى ... لأسرعِ من كَيّ القلوب على الجَمْرِ
كأنّ الشفاهَ اللُّعْسَ منها خواتِمٌ ... من التّبْرِ مختومٌ بهنّ على الدُّرِّ[5]

وقال الناظم[6] :

يَروعُ مُناجِيه بهارُوتِ لحظِهِ ... ويُؤْنِسُه منه بصُورةِ آدمِ
ترى فيه لامًا فردةً فوق وَرْدَةٍ ... وفصًّا من الياقوتِ من فوق[7] خاتمِ

---

(١) ق ا : تستبين . (٢) ق ط : يجرا صبوجه . (٣) ديوانه : ١ — ٩٦ .
(٤) ق ط : إلى مدد . (٥) ق ا : على در . (٦) ق ا : النظام .
(٧) ق ا : من فص .

[الكلام والصمت]

وقال أبو تمام الطائى : تذاكرْنا فى مجلس سعيد بن عبد العزيز الكلامَ وفضلَه ، والصمتَ ونبْله ، فقال : ليس النَّجْمُ كالقمر ؛ إنك إنما تمدحُ السكوتَ بالكلام ، ولا تمدحُ الكلامَ بالسكوت ، وما أنبأ عن شيء فهو أكبرُ منه .

قال الجاحظ : كيف يكونُ الصمتُ أنفعَ من الكلام ، ونفعُه لا يكادُ يجاوِزُ صاحبَه ، ونَفعُ الكلام يعمّ ويخصّ ، والرواةُ لم تَرْوِ سكوتَ الصامتين ، كما روت كلام الناطقين ؛ فبالكلام أرسل اللهُ تعالى أنبياءه لا بالصَّمْتِ ، ومواضعُ الصمْتِ المحمودةُ قليلة ، ومواطنُ الكلامِ المحمودةُ كثيرةٌ ، وبِطُولِ الصَّمْتِ يَفْسد البيان . وكان يقال : محادثةُ الرجال تلقيحٌ لألبابها .

وذُكِرَ الصمتُ فى مجلسِ سليمان بن عبد الملك فقال : إنّ مَنْ تكلَّم فأحسن قدر أنْ يسكتَ فيُحْسِن ، وليس مَنْ سكت فأحسن يتكلّمُ فيُحْسِن . قال بعضُ النساك : أسكتتنى كلمةُ ابن مسعود عشرين سنةً ؛ وهى : من كان كلامُه لا يوافِق فِعْلَه فإنما يوبّخ نَفْسَه .

[الحنين إلى الوطن]

قال أبو عَمْرو بن العلاء : مما يدلُّ على حرية الرجل وكرم غَرِيزته حنينُه إلى أوطانه ، وتشوّقه إلى متقدم إخوانِه ، وبكاؤه على ما مضى من زَمَانِه . وقالوا : الكريم يحنُّ إلى جنابه ، كما يحنُّ الأسدُ إلى غَابِه . وقالوا : يشتاق اللبيبُ إلى وطنه كما يشتاق النجيب إلى عَطَنه .

لأهل العصر فى ذكر الوطن

ألفاظ لأهل العصر فى ذكر الوطن : بلد لا تُؤْثِرُ عليه بلداً ، ولا تَصْبِر عنه أبداً . هو عشُّه الذى فيه دَرَجَ ، ومنه خرجَ . مجمع أُسرته ، ومقطع سُرّتِه . بلد أنشأته تربتُه ، وغذّاه هواؤه ، وربّاه نسيمُه ، وحُلّتْ عنه التمائمُ فيه .

قالوا : وكان الناسُ يتشوّقون إلى أوطانِهم ، ولا يفهمون العلّةَ فى ذلك ، حتى

أوضحها علي بن العباس الرّومي في قصيدةٍ لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من التجّار ، يعرف بابن أبي كامل ، أجبَرَه على بَيْع داره ، واغتصبه بعض جُدرها ، بقوله[1] :

ولي وطنٌ آليتُ ألّا أبيعه ... وألّا أرى غيري له الدهرَ مالكا
عهِدتُ به شَرْخَ الشبابِ ونعمةً ... كنِعْمَةِ قومٍ أصبحُوا في ظِلالكا
وحبّب أوطانَ الرجالِ إليهمُ ... مآربُ قضّاها الشبابُ هُنالكا
إذا ذَكَروا أوطانَهم ذكّرتْهمُ ... عهودَ الصِّبا فيها فحنُّوا لذلكا
فقد ألِفَته النفسُ حتى كأنّهُ ... لها جَسَدٌ إن بانَ غُودِرَ هالكا

يقول له فيها :

وقد عزّني فيها[2] لئيمٌ وسامَني ... فقال ليَ اجهَدْ فيَّ جَهْدَ احتيالكا
وما هُو إلا نسجُك الشِّعرَ ضلّةً ... وما الشعرُ إلّا ضلّة من ضلالكا
بصيرٌ بتسآل[3] الملوكَ ولم يكن ... بعارٍ على الأحرار مِثلُ سؤالكا
وإني وإنْ أضحَى مُدِلًّا بمالهِ ... لآملُ أن أُضحِي مُدِلًّا بمالكا
فإن لم تصِبْني من يمينك نِعْمَةٌ ... فلا تخطئنْه نقمةٌ من شِمالكا
فكم لقِيَ العافون بَدْءًا وعودةً ... نوالَك والعادون مرّ[4] نكالكا

وقال علي بن عبد الكريم النصيبي[5] : أتاني أبو الحسن بن الرومي بقصيدته هذه وقال : أنصِفْني ، وقل الحق : أيهما أحسن قولي في الوطن أو قول الأعرابي[6] :

أحبُّ بلادِ الله ما بين مَنْعِجٍ ... إليّ وسلمى أن يَصُوبَ سحابُها[7]
بلادٌ بها نِيطَتْ عَلَيَّ تمائمي ... وأوّل أرضٍ مَسّ جِلدِي تُرابُها

---

(١) ديوانه : ١٣ ، ديوان المعاني : ٢ — ١٨٩ ، وفي ا : وذلك قوله . (٢) عزّني فيها : غلبني عليها . (٣) في ا : بعير سؤال . (٤) في ط : غمز .
(٥) في ا : عبد الصمد النصيبي . (٦) اللآلي : ٢٧٢ ، الأمالي : ١ — ٨٣ .
(٧) منعج : واد ، وسلمى : أحد جبلي طيء .

فقلت: بل قولك ؛ لأنه ذكر الوطنَ ومحبّتَه، وأنت ذكرتَ العلة التي أوجبتْ ذلك.

وقال ابنُ الرومي أيضاً يتشوّق إلى بغداد ، وقد طال مقامه بسُرّ من رأى[1] :

بلدٌ صحِبتُ به الشبيبةَ والصبا ولبستُ ثوبَ العيش وهو جديدُ
فإذا تمثّل في الضمير رأيتُه وعليه أغصانُ الشبابِ تميدُ

وقال أبو العباس[2] : ولما احتفل القائل[3] في هذا المعنى السابق إليه قال :

* بلادٌ بها حَلّ الشبابُ تمائمي *

وقد تقدّم . وإذا كانت تمائمه قطعت بأبرق العزّاف[4] ، وكان الترابُ الذي مسّ جلدَه ترابَ جزيرة سيراف[5] وجب أن يحنّ إليه حنينَ المتأسّفين على غُوطَةِ دمشق[6] ، وقصور مدينة السلام[7] ، ونجف الجزيرة[8] ، ومستشرف الخورنَق[9] ، وجَوْسَق سرَّ مَنْ رأى[10] لمّا بعد عنها ، وطال مقامه بغيرها ، كلّا ، ولكن هذا الرجل علم أن الحنينَ إلى الأوطان لِما تُذُكِّر من معاهد اللهو فيها ، بجدّة الشباب الذي ذكر أنّ غول سَكْرَتِه يغطي على مقدار فضيلته في قوله[11] :

لا تلْحَ مَنْ يبْكي شبيبتَه إلّا إذا لم يَبْكِها بدَمِ
عَيْبُ الشبيبة غولُ سَكْرَتِها ومِقدارُ ما فيها من النعَمِ
لَسْنا نراها حقّ رُؤيتِها إلّا أوانَ الشيبِ والهَرَمِ
كالشمس لا تبدو فضيلتُها حتى تغشّى الأرضُ بالظُّلَمِ
ولَرُبّ شيء لا يبيّنُهُ[12] وجدانه إلّا مع العَدَمِ

---

(١) ديوانه : ٧٥ . (٢) في ط : أبو العباس بن عمار . (٣) في ط : القائد .
(٤) العزاف : ماء لبني أسد . (٥) سيراف : مدينة بفارس أعظم فرضة لهم .
(٦) غوطة دمشق : هي إحدى الجنان الأربع في عرف المتقدمين . (٧) مدينة السلام : بغداد . (٨) النجف كما قال ياقوت، عينان يقال لإحداهما الربض ، وللأخرى النجف .
(٩) الخورنق : قصر كان بظهر الحيرة ، بأمر ببنائه فيما يقال النعمان بن امرئ القيس .
(١٠) الجوسق : القصر ، وسر من رأى: مدينة بناها المعتصم بين تكريت وبغداد على شرق دجلة . (١١) ديوانه : ٤١٣ . (١٢) في ط : لايسريه .

من النقد

أخذ هذا من قول الطائى(١) :

راحَتْ وفودُ الأرضِ عَنْ قبرِه ... فارغةَ الأيدى مِلاءَ القلوبْ

قد علمت ما رزئتْ إنما ... يعرفُ فَقْدُ الشمسِ بعد الغروبْ

وأخذ ابنُ الرومى قولَه فى صفة الوطن من قول بشّار :

متى تعرف الدارَ التى بَانَ أهلها ... بسعدى فإن العهدَ منك قريبُ

تذكّرك الأهواء إذْ أنتَ يافعٌ ... لديها فَمَغْناهاَ لديك حَبيبُ

أو من قول بعض الأعراب :

ذكرتُ بلادى فاستهلّتْ مَدَامِعى ... بشوق إلى عَهْدِ الصّبا المتقادِمِ

حننتُ إلى أرضٍ بها اخضرّ شاربى ... وقُطِّع عنى قبلَ عقد التمائم

وأنشد ثعلب لرجاء بن هارون العَسكى(٢) :

أحِنُّ إلى وادِى الأراكِ صبابةً ... لعَهْدِ الصّبا فيه وتذكار أول(٣)

كأنَّ نسيمَ الريحِ فى جَنَباتِه ... نسيمُ حبيب أو لقاء مؤمّل

قال أبو بكر الصولى : ولست أشكُّ أنه من قولِ رجاء أخذ ، وبه ألمّ ، وعليه عوّل ؛ لأنه فى تناوله المعنى غريبُ الأخذ ، عائرُ السّهم(٤) ، لا يعارِض معنى معروفا إذا أنشد علم الناسُ أنه مَعْدِنُه الذى انتحته منه .

وقد اختُلس معنى قول ابن الرومى :

فقد ألفته النفسُ حتى كأنه ... لها جسدٌ إن بانَ غُودِرَ هالِكا

أخذه على بن محمد الإيادى وقال فأحسن الأخْذَ ولطف فى السرقة :

بالجزع فالخَبْتَيْنِ أشْلاء دارِ(٥) ... ذات ليال قد تولتْ قِصارْ

بانوا فاتت أسفا(٦) بعدهم ... وإنما النـــاسُ نفوسُ الديارْ

---

(١) ديوانه : ٣٠٤ . (٢) فى ط : العسلى . (٣) وادى الأراك : قريب من مكة .

(٤) العائر من السهام : مالا يدرى راميه . (٥) فى ط : كانت لنا .

(٦) فى ط : فما بنت أسى .

وقال أعرابي :

أيا حبذا نجدٌ وطيب تُرَابه　　تصافِحُهُ أيدِي الرياحِ الغرائب
وعهدٌ صِبانا فيه[1] ينازعُكَ الهوى　　بذلك أترابٌ عِذَابُ المشارب
تنالُ المُنى منهنّ في كل مطلب　　عِذَابُ الثنايا وارداتُ الذوائب[2]

وقال ابن ميّادة يخاطبُ الوليدَ بن يزيد[3] :

ألا ليتَ شعرى هل أبيتنّ ليلةً　　بحرّةِ ليلى حيث ربّتَنى أهلى[4]
بلادٌ بهـا نيطتْ علىّ تمائمى　　وقُطّعنَ عنى حين أدركَنى عقلِى
فإن كنتَ عن تلك المواطن مانِعى　　فأفشِ[5] علىّ الرزقَ واجمعْ إذًا شملى

وقال سوّار بن المضرّب[6] ، ورويت لمالك بن الريب :

سقى اللهُ اليمامة من بلادٍ　　نوافحُها[7] كأرواحِ الغوانى
وجوًّا زاهِراً للريح فيـهِ　　نَسيمٌ لايَرُوعُ التربَ وانِي
به سُقتُ الشباب إلى زمانٍ[8]　　يقبح عنـدنا حسنَ الزمانِ

وقال أعرابي[9] :

أقول لصاحبي والعيسُ تَخْدِى　　بنا بَيْنَ المُنيفة فالضِّمار[10]
تمتّعْ مِنْ شميم عَرارِ نَجْدٍ　　فما بَعْدَ العشيّةِ من عرارِ[11]
ألا يا حبّـذا نفحات نَجْد　　وريّا رَوْضِهِ غِبَّ القِطار
[وأهلك إذ يحلّ القوم نجدا　　وأنت على زمانِك غيرُ زارِ][12]
شهور يَنْقَضين وما شعرنا　　بأنصافٍ لهن ولا سِرَارِ[13]

---

(١) فى ط : عهود لنا فيه. (٢) الوارد من الشعر : المسترسل ، وفى ط : باردات الذوائب
(٣) المختار ١١٧ ، الأمالى ٢ — ٣١ ، اللآلى ٢٢٣ ، الأغانى ٢ — ٣١٠ ، الشعراء ٧٤٨ .
(٤) حرة ليلى : فى بلاد بنى كلب ، وربت الصبى : رباه . (٥) فى ط : فأفتر ، وفى بعض الأصول : فأيسر . (٦) فى ا : بن المضرب . (٧) فى ط : نوافجها .
(٨) فى ط : إلى مشيب . (٩) اللآلى ١٤٠ ، المختار ٣٢٨ .
(١٠) المنيفة : ماء لتميم . (١١) العرار : ورد أصفر طيب الرائحة .
(١٢) من ا . (١٣) السرار : مستهل الشهر أو آخره .

وهذا البيت كقول الآخر[١] :

سقَى اللهُ أياماً لنا قد تتابعتْ ... وسَقْياً لِعَصْرِ العامريَّةِ من عَصْرِ
ليالِيَ أعطَيتُ البَطالةَ مِقْوَدِي ... تمرُّ الليالي والشهورُ ولا أدْرِي

* * *

هجاء ابن الرومي لسليمان

وتخلَّفَ سليمان عن نُصْرة ابن الرومي فذاك الذي هاجه على هجائه ، فمن ذلك قولُه ، وقد خرج في بعض الوجوه فرجع مهزوماً[٢] :

جاء سليمان بني طاهرِ ... فاجتاح[٣] معتزّ بني المعتصِمْ
كأن بغــداد وقد أبصرتْ ... طلعته ناكحة تلتقِمْ[٤]
مستقبِل منــه ومستدبِر ... وجه بخيلٌ وقفاً منهزِمْ

وقال :

قِرْنُ سليمان قد أضرَّ بِه ... شوقٌ إلى وجْهِه سيتلفهُ
كم يَعِدُ القِرْنَ باللقاء وكَمْ ... يكذبُ في وَعْدِه ويخلفهُ
لا يعرف القِرنُ وجْهَه ويرى ... قَفاه من فَرْسَخٍ فيعرفهُ

وقد أخذ هــذا المعنى من قول بعض الخوارج ، وقد قال له أبو جعفر المنصور : أخْبِرْني أي أصحابي كان أشدّ إقداماً في مُبارزتك ، فقال : ما أعرفُ وجوههم ، ولــكنني أعرفُ أقفاءهم ، فقل لهم يدبروا أعرِّفك .

وفي هذه النازعة يقول ابن الرّومي لمواليه بني هاشم وكان ولاؤه لعبيد الله[٥] بن عيسى بن جعفر بن المنصور[٦] :

تخِذْتُكمْ دِرْعاً علَيَّ لتَدْفَعُوا ... نبال[٧] العِدى عني فكنتم نِصَالَها
وقد كنتُ أرجو منكم خَيْرَ ناصِرٍ ... على حين خِذْلانِ اليمين شِمالَها

---

(١) اللآلى ٧٦٣ ، الأمالي ٢ — ١٣٩ . (٢) ديوانه ٢٨ . (٣) في ط : فاجتاح .
(٤) تلتدم : تضرب وجهها . (٥) في ا : لعبد الله بن عيسى .
(٦) ديوانه ٨٨ . (٧) في ا : سهام .

فإن أنتمُ لم تحفظوا لمودّتى ذِماماً فكونوا لا عليها وَلَا لَهَا

قِفُوا موقفَ المذور عنى بمعزل وخَلُّوا نِبَالى والعِدَا ونِبالَها[1]

ألفاظ لأهل العصر فى وصف الأمكنة والأزمنة

بلدةٌ كأنها صورةُ جنة الخلد ، منقوشة فى عَرْضِ الأرض . بلدةٌ كأنّ محاسنَ الدنيا مجموعةٌ فيها، ومحصورة فى نواحيها. بلدةٌ كأن ترابَها عنبرٌ ،وحَصْباءها عقيق، وهواءها نسيم ، وماءها رَحِيق . بلدةٌ مشوقة السُّكْنَى ، رَحْبَةُ المَثْوَى ، كوكبُها يقظان ، وجَوّها عُرْيان ، وحَصَاها جوهر، ونسيمُها معطّر، وترابها مِسْك أذفر[2]، ويومها غداةٌ ، وليلها سَحر ، وطعامها هنىّ ، وشرابها مرِى . بلدة واسعةُ الرقعة ، طيبة البقعة ، كأنّ محاسن الدنيا عليها مفروشة ، وصورة الجنة فيها منقوشة، واسطة البلاد وسرّتها ، ووجهها وغرّتها .

ولهم فى ضد ذلك

بلد مُتَضايِقُ الحدود والأفنية ، متراكِبُ المنازلِ والأبنية . بلد حرُّها مؤذٍ ، وماؤها غير منذ[3] . بلدة وسخة السماء ، رَمِدة الهواء، جوّها غبار، [وأرضها خَبَارٌ][4]، وماؤها طِين ، وترابُها سِرْجين . وحيطانها نَزُوز[5] ، وتشرينها تموز[6] ، فكم فى شمسها من محترق ، وفى ظلها من غَرِق . بلدة ضيقة الديار، سيئة الجوار ، حيطانها أخصاص ، وبيوتها أقفاص ، وحُشُوشها مسايل ، وطرقها مَزابل .

---

(١) فى ا : ونصالها . (٢) أذفر : جيد إلى الغاية . (٣) ا : غير مفد .
(٤) من ا ، والخبار : مالان من الأرض واسترخى . (٥) نزت الأرض : تحلب منها. النز — الماء . (٦) تشرين وتموز : من أسماء الشهور .

ولهم فى صفات الحصون والقلاع

حصن كأنه مَرْقَب النجم ، يحسر دونه الناظر ، ويقصر عنه العُقابُ الـكاسِرُ ، يكادُ من عُلَاه يغرق فى حوض الغمام . حصن انتطق بالجوزاء ، وناجَتْ أبراجُه بُرُوجَ السماء . قلعة حلَّقت بالجو تُنَاجى السماءَ بأسرارها . قلعة يَمُدّ فى السماء مُرْتقاها، حتى تساوَى ثراها مع ثُريّاها . قلعة تتوشّح بالغيوم، وتتَحلّى بالنجوم. قلعة عالية على المرتق صمّاء عن الراق، قد جاوزت الجوزاء سَمْتاء وعزلت السماك الأعزلَ سَمْكا . هى متناهية فى الحصانة ، موثوقة بالوثاقة ، ممتنعة على الطلب والطالب ، منصوبةٌ على أضيق المسالك، وأوعر المناصب، لم تَزِدْها الأيامُ إلا نُبُوّ أعطاف ، واستصعاب جوانب وأطراف، قد ملّ الوُلَاةُ حِصارَها ، ففارقوها عن طموح منها وشماس ، وسيمت[1] الجيوشُ طلّها ، فغادرتْها بعد قنوطٍ ويأسٍ، فهى حِمَى لا يُرَاغ[2]، ومَعْقِل لا يُستطاع ، كأنّ الأيام صالحَتْها على الإعفاء من الحوادث ، والليالى عاهدَتْها على التسليم من القوارع . قلعة تحوى من الرِّفْعَة قَدْرًا لا تُستهان مواقعه ، وتلوى فى النعمة جيداً لا تستلان أخادعه[3] ، ليس للوَهْم قبل القدم إليها مسرى ، ولا للفِكْر قبل الخَطْو نحوها مجرى .

ولهم فى صفات القصور والدور

قصر كأن شرفاته بين النَّسْر والعَيُّوق[4]، كأنه يُسارِى الفرْقَد ، وقد اكتسَتْ له الشّعرى العَبور[5] ثوب الغيور . قصر طال مَبْنَاه، وطاب مَغْنَاه ، كأنه فى الحصانة جبلٌ منيع ، وفى الحسن رَبيع مَريع[6] . شرفات كالعذارى شَدَدْن مناطقها[7] ،

---

(١) فى ط : وسئمت .   (٢) فى ط : لايراع ، وأراغ : طلب .
(٣) الأخادع : جمع أخدع، وهو شعبة من الوريد ، وفى ا : لايستطاع أخادعه .
(٤) النسر كوكبان ، والعيوق : نجم يضيء فى طرف المجرة .   (٥) الشعرى العبور : نجم
(٦) المريع : المخصب . (٧) المناطق : جمع منطقة، وهى ماينتطق به .

وتَوَّجْن بالأكاليل مَفَارِقها . قَصْرٌ أقرّت له القصورُ بالقُصور ، كأنه سَحاب فى بحر السماء[1] . دار قَوْرَاء توسع العين قُرة ، والنفس مسرّة . كأنّ بانيها استسلف الجنة فعجّلت له . دار تخجل منها الدور ، وتتقاصَرُ عنها القصور ؛ إن مات صاحبُها مغفوراً لهفقد انتقل مِنْ جنة إلى جنة. دار قد اقترن اليُمْن بيمناها، واليُسْر بيُسْراها . الجسومُ منها فى حَضَر ، والعيون على سَفَر . دار هى [دائرة الميامن ، و][2] دَارَة المحاسن . دارٌ دارَ بالسعد نجمُها ، وفاز بالحسن سَهْمها . دار يخدمها الدهر ، ويأويها البَدْرُ ، ويكنفها النَّصر ؛ هى مَرْتَع النواظر ، ومتنفَّس الخواطر . دارٌ قد أخذت أدواتِ الجنَان ، وضحكت عن العَبْقَرِيّ الحِسَان .

[من رسائل الميكالى وشعره]

فصلٌ لأبى فضل الميكالى إلى بعض إخوانه : إلى بعض إخوانه

ما ابتدأتُ بمخاطبة سيّدى حتى سرَتِ المسرّةُ فى نفسى، وقويتْ أركانُ بَهْجَتى وأُنْسِى ، وحتى أقبلَتْ وجوهُ الميامن تتهلّل إلىّ ، وبدَرُ المساعِد تنثالُ علىّ ، وكيف [لا يعلكنى الجذَل والفرح ، وكيف][3] لا يهزُّنى النشاطُ والمَرَح ، وقد زففْتُ وُدّىإلى كُفْءٍ كريم، وعرضْته لحظّ من الجمال جسيم، وأرجو أن يردَ منه على حُسْنِ قبولٍ وإقبال ، ويَحْظَى من ارتياحه له ببُرْدِ اشتمال، ويُصادف[4] من اهتزازه وإنشائه وعمارته وإعانته، وتحصين أطرافه من شوائب الخلل وشوائن الوَهن والميل ما تستحكم به مرائرُ الوِصَال ، وتؤمن على قُواها عوَادى الانتقاض والانحلال .

وله : إذا لم يُؤْتَ المرء فى شكر النعم إلا من عِظَم قَدْرِ الإنعام والاصطناع واستغراقه منه قُوَى الاستقلال والاضطلاع[5] فليس عليه فى القصور عن كُنْهِ واجبه عَتْب ، ولا يلحقه فيه نقيصةٌ ولا عَيْبٌ . ولئن ظهر عَجْزِى عن حق هذه النعمة فإنى وله أيضا

(١) فى ط : فى بحر السحاب . (٢) من ا ، والدارة : هالة القمر .
(٣) من ا . (٤) فى ط : ويصان . (٥) فى ط : والاصطباع .

أُحِيل بحسن[١] الثناءَ على من لا يُعجِزه حمله، ولا يؤوده ثقله، ولا يزكو الشكرُ إلا لديه، ولا تُصْرَفُ الرغبةُ إلا إليه، والله يُبقيه لمجدٍ يقيم أعلامَه، وفضلٍ يقضي ذِمامَه، وعُرْفٍ يَبثّ[٢] أقسامه، ووليّ يوالي إكرامه، وعدوّ يديمُ قمْعَه وإرْغامَه.

وله أيضاً

وله: ولو وفيتُ هذه النعمة الجسيمة حقَّها لسَعَيْتُ إلى حضرته ـ آنسها اللهُ تعالى ـ حَبْوًا على القدم، ولآثرْتُ فيه خدمة اللسان على خِدْمة القلم، ولما رضيتُ له بيراعي القصير، وعبارتي الموسومة بالعجز والقصور، حتى أستعير فيه ألسنةً تحملُ شكرا وثناء، وتوسع نشراً ودعاء، ثم لا أكونُ بلغتُ مبلغاً كافيا، ولا أبليت عُذْراً شافيا؛ إلّا أنّ عدم الإذن ثبّطني عن مقصودِ الغرض، وعاقني عن الواجب المفترض؛ فأقمتُ عاكفاً على دعاء أرفعه إلى الله عزّ وجل مبتهلا، وأواصله مجتهداً في ليلي ونهاري محتفلا.

وله: أحقّ النعمة[٣] بالزيادة نعمة لم تزل العيون إليها مستشرفة، والقلوب إليها متشوّقة، والأيام بها واعدة، والأقدار فيها مساعدة، حتى استقرّت في نصابها، وألقتْ عِصيّ اغترابها، فهي للنماء والزيادة مترشحة، وبالعزّ والسعادة متوشّحة، وبالأدعية الصالحة مستدامة مرتّبة، وباتّفاق الكلمة والأهواء عليها مرتبطة محصّنة.

وله في التعزية

وله فصل من كتاب تعزية بالأمير ناصر الدين:

أقدار الله تعالى في خلقه لم تزلْ تختلفُ بين مكروه ومحبوب، وتتصرّفُ بين موهوب ومسلوب، غادية أحكامُها مرّةً بالمصائب والنوائب، رائحة أقسامها تارةً بالعطايا والرغائب؛ ولكن أحسنَها في العيون أثراً، وأطيبَها في الأسماع خبَرا، وأحْرَاها بأن تكسب القلوب عزاء وتصبُّرا، ما إذا انطوى نشر، وإذا انكسر جبر، وإذا أخذ بيد ردّ بأخرى، وإذا وهب بيمنى سلبَ بيُسرى، كالمصيبة بفلان التي فرّحتِ

---

(١) في ط: أحل حسن. (٢) في ط: يثبت.

(٣) العبارة في ط: وأوصله مجتهدا في إقامته آناء ليلي ونهاري محتفلا. ولولا النعمة.

الأكباد ، وأوهنت الأعضاد ، وسوّدت وجوهَ المكارم والمعالي ، وصورت الأيامَ في صُور الليالي ، وغادرت المجدَ وهو يلبَس حِدَادَه ، والعَدْلَ وهو يبكي عِمَادَه ، والدين وهو يندب جهاده[1] ، حتى إذا كاد اليأسُ يغلبُ الرّجاءَ ، ويردُّ الظنونَ مُظْلِمةَ النواحي والأرجاء ، قبض الله تعالى من الأمير الجليل مَنِ اجتمعتْ عليه الأهواء ، ورضيَتْ به الدهماء ، فأسّى به حادثَ الكَلْم[2] ، وسدّ بمكانه عَظيمَ الثَّلْم ، وردَّ الآمال والنفوسَ قد استبدلتْ بالحيرة قوة وانتصارا ، وصارتْ للدولة المباركة أعوانًا وأنصاراً .

من شعره في تجنيس القوافي

ومن شعره في تجنيس القوافي في معانٍ مختلفة :

إذا لم تكُنْ لمقالِ النصيح سميعاً ولا عاملا أنت بهْ
سيَنبَهُك الدهرُ من رَقْدَة الـــملاهي وإنْ قُلْتَ لا أنتبهْ

وقال :

تفرّق الناسُ في أرزاقهم فِرَقاً فَلابِسٌ من ثَراء المال أوْ عاري
كذا المعايش في الدنيا وساكنها مقسومة بين أوعاث وأوْعار[3]

وقال :

حوى القِدّ[4] عمراً فقلت اعتقد رضاً بالقضاء ولا تحتقد
فإمّا احتقدت قضاءَ الإلَه فأقبحْ بمحتقد تحت قد

وقال[5] :

تمّت محاسنه فما يُزرى بها مع فضله ونَمائه وكماله
إلا قصورُ وجوده عن جُودِه لَا عَوْنَ للرجل الكريم كمَالُه
انصُرْ أخاك إذا اجتداك فَوَاسِه وإن استمانك وائقاً بك مَالِه[6]

---

(١) ق : وهو يعزى عباده . (٢) في ط : فأسى ، والكلم : الجرح .
(٣) الأوعاث : جمع وعث وهو المكان السهل تغيب فيه الأقدام ، والأوعار : جمع وعر ، وهو ضد السهل . وفي ا : أدمات . (٤) القد : السير يقد من جلد غير مدبوغ ، والمراد مايربط به الأسير والسجين . (٥) اليتيمة : ٤ — ٣٤٦ .
(٦) ماله : مالئه وانصره .

وقال أيضا :

إذا تغدّيت صَدْرَ يومي ... ثم تأذّيتُ بالغــداء

فقلت إذْ مسّني أذاهُ ... أرى غدائي أراغ دائي[1]

وله في هذا [الصوغ][2]:

لنــا صديقٌ يجيد لقا ... راحتُنا في أذَى قفاهُ

ماذاق من كسبه ولكنْ ... أذى قَفَاه أذاقَ فَاه

وقال يهجو رجلا[3] :

يريد يوسّع في بيْتِهِ ... ويأبى له الضيقُ في صَدْرِهِ

فتى سَخِطَ النّصْبَ في قِدْرِهِ ... كما رَضِيَ الخَفْضَ في قدرهِ

يحذّر أوصالَ أضيافهِ ... ولا يُبْرِزُ الخُبْزَ من خِدْرِه

وله في وصف كتاب

وقال في غير هذا المذهب يصفُ كتاباً وَرَد عليه[3]:

قد أتانا من صديقٍ كلامٌ ... كلآلٍ زانَهنّ نظام

فسرى في القلب مني سرورٌ ... مطربٌ يعجز عنه المُدام

مثل ما يرتاح ربّ بنات ... حوله من جمعهن زِحَام

فرعى الله طويلا يُرَجّي[4] ... خلفًا من نَسْلِه لا يُذامُ

وأتاه بعــد يأسٍ بشير ... قال يا بشراى هــذا غلامُ

وله يصف الشمع

وقال يصف الشمع :

وليلٍ كلَوْنِ الهَجْر أو ظُلْمةِ الحِبْرِ ... نَصَبْنا لراجيـــهِ[5] عموداً من التِّبْرِ

يشقّ جلابيبَ الدُّجى فكأنما ... ترى بين أيدينا عموداً من الفَجْر

يُحاكي رُواءَ العاشقينَ بلَوْنهِ ... وذَوْب حشاه والدّموع التي تجري

---

(١) أراغ : حرك وهاج. (٢) اليتيمة : ٤ ــ ٣٤٦ ، ومابين القوسين من ا .
(٣) اليتيمة : ٤ ــ ٣٤٥ . (٤) في ط : طويل حياة . (٥) في ط : لراعيه .

خلَا أنّ جارِى الدمع ينحله قوىً ... عَهدِى بدَمْع العين ينحلّ إذْ يجرى
تبدّى لنا كالغصن قدًّا وفوقه ... شعاعٌ كأنّا منه فى ليلة البَدْرِ[1]
تحمّل نورا حَتْفُه فيـه كامنٌ ... وفيه حياةُ الأُنسِ واللهوِ لو يدْرِى
إذا مَا علته عِلّةٌ جُزّ[2] رأسه ... فيختالُ فى ثوبٍ جديدٍ من العمر

وقال:

يا ربّ غُصْنٍ نورهُ ... يُزْرِى بنور الشفقِ
يظلُّ طولَ عمرِهِ ... يَبْكِى بجفنٍ أرِقِ
نارُ الحب فى الحشا ... ونارُه فى المفرقِ
لاح لنا فى مغربٍ ... فردًا فى مَشرِق

وقال:

وقضيبٍ من بنات النحـ ... ـل فى قدّ الكعابِ
يُشْبِه العاشقَ فى لو ... نٍ ودمعٍ ذى انسكاب
قد كَسَا الباطن منـــهُ ... وهُو عريانُ الإهَابِ[3]
فإذا ما أنعم الأبـ ... ـدان ملبوس الثِّيابِ
فهو للشقوة منها ... فى بلاءٍ وعذابِ

* * *

وقال كشاجم يصف شمعا أهداها [إلى بعض الملوك][4] : ولكشاجم يصف الشمع

صفر من بناتِ النّحل تُكْسَى ... بواطنُها وأظهُرُها عَوارِى
عذارى يُفتضَضْن مِنَ الأعالى ... إذا افتضت من السّفل العَذَارى
وأمست تلتهج الأضواء حتّى ... تلقح فى ذوائبها بِنَارِ
كواكب[5] لسْنَ عنك بآفِلَات ... إذا ما أشرقتْ شمسُ العُقارِ

---

(١) فى ط : ليلة القدر . (٢) فى ط : خر . (٣) الإهاب : الجلد .
(٤) ساقط من ا . (٥) فى ا : كواعب .

بعثت بها إلى مَلِكٍ كريم شريف الأصل محمود النِّجار
فأهديت الضياء بها إلى مَن محاسنُه تُضيء لكل سارِى

وقال :

يشق الفتى بخلافِ كلّ معاندٍ يُؤْذِيه حتى بالقَذَى فى مائهِ
يهوى إذا أصفى الإناء لشُرْبِهِ ويروغ عنه عِنْدَ سَكْبِ إنائهِ[1]

وقال :

أطالِبُ أيامى بإنجازِ مَوْعِدى وهاهِيَ تلوى بالوفاء وتَجمحُ
أقولُ عساها أن تلِينَ لطلبى قليلا فبعض الشوك بالنَّ يَسمحُ

وقال :

أرى وصالَك لا يَصْفو لآمِلهِ والهجرُ يتبعُه رَكْضاً على الأثرِ
كالقوس أقرب سهميها إذا عطفت عليه أبعدها من منزع الوتَرِ

أخذ هذا من قول ابن الرومى وذكر رجلا متلوناً[2] :

رأيتك بينا أنتَ خِلٌّ وصاحِبٌ إذا بك قد ولّيتنا ثانيا عطفَا
وأنك إذْ أحْنى حنوّك مُوجِبٌ بعاداً لمن بادلتَه الودَّ واللطفاَ
لكالقوس أحنى ما تكونُ إذا انحنَتْ على السهم أنْأى ما تكونُ له قَذْفَا

وله فى نحو ذلك :

توددْت حتى لم أجِدْ متوددًا وأتعبتُ أقلامى عتابا[3] مرَدَّدا
كأنىَ أستدعى لك ابن حنيّةٍ[4] إذا النزع أدْناه من الصدر أبْعَدَا

* * *

أبو الفضل الميكالى

وذكر عمر بن على بن محمد المطوعى أبا الفضل الميكالى فى كتاب ألّفه فى منظومه ومنثوره فقال : قد أصبحتْ حضرتُه ـ لا زالتْ أرِجَةَ الأرجاء بطيبِ شمائِله ،

---

(١) أصفى الإناء : أماله . (٢) ليس فى الديوان المطبوع بأيدينا .
(٣) فى ط : عناء . (٤) الحنية : القوس .

راضية الرضا(١) عن صَوْبِ أنامله ـ موسمَ الآمالِ ، ومحطَّ الرحال ؛ وعبدَه(٢) أحرار الكلام ، كما خدمَتْه أحرارُ الأيام ، وأطاعته المعانى والمعالى ، كما أطاعه صَرْفُ الأيام والليالى ، فهو ـ أدامَ اللهُ تمكينَه ـ شهابُ المجدِ الذى لا يخبُو واقده ، ورَوْض الكرم الذى لا يجدب رائدُه ؛ إن أردْتَ البلاغةَ فهو مالكُ عنانِها، وفارسُ ميدانها، وناظم دُرِّها ومرجانها ، وصائغ لُجَيْنها وعقيانِها ؛ وإن أردت السماحةَ فهو محلُّها ومكانُها ، وتاريخُها وعنوانُها ، ويدُها ولسانُها ، وحَدَقَتُها وإنسانها ، وحديقتها وبُستانُها ؛ وإن أردْتَ شرفَ الأصْل والنسب ، والجمع بين الموروث [من المجـــد](٣) والمكتَسب ، فناهيك بأوائله شرَفاً سابقاً ، وفضلاً باسقاً ، ومجداً فى فلك الفخر سامقاً(٤) ؛ فهم الجحاجِحَةُ الغُرُّ(٥) ، والكواكبُ الزُّهر ، ومن بهم يفتخِرُ الفخر، ويتشرّف الدهر، زحموا مناكبَ الكواكب من بُعْدِ أقدارهم، وسكّوا فَرْقَ الفرقد وصَدْرَ البَدْرِ بشرَفِ أخطارهم ، فما فيهم إلا قمر فَضْلٍ دارَ فى فَلَك عِلمٍ ، وهلال مجْدٍ لاحَ فى سماء فَهْم، توارثُوا المجدَ كابراً عن كابر، وباقياً عن غابر، وسافرَتْ أخبارُهم فى البُعْد والقُرْب ، وطارت فى أقاصى الشَرقِ والغَرْبِ، وسارَتْ مَسِيرَ الشمس فى كلّ بلد، وهبَّتْ هبوبَ الريح فى البر والبحر، فهم كما قال أبو عبادة البحترى فى الشاه بن ميكال وأهله فأحسن وأجاد وأبلغ ما أراد(٦) :

بنى أحْوَذِىٍّ(٧) يغمر الطرف مُوفِياً ... بِبَسْطَتِه والسيفُ وَافِى الحمائلِ

تضيقُ الدروعُ التُّبعيَّات منهم ... على كل رَحْبِ الباع سَبْطِ الأنامِل

غُراعرُ(٨) قوم يسكنُ الثغرَ إن مَشَوْا ... على أرضِه والثغرُ جمّ الزلازل

---

(١) فى ط : أريضة الرياض . (٢) فى ط : وأمداه . (٣) ساقط من ا .

(٤) سامق : عال ، وفى ط : ملك الفخر . (٥) الجحاجحة : جمع جحجاح وجحجح ، وهو السيد . (٦) ديوانه : ٢ ـ ١٠٩ . (٧) الأحوذى : الخفيف الحاذق والمشمر للأمور القاهر لها . (٨) غراعر : بالضم : شريف ، وجمعه بالفتح .

فكم فيهم من مُنْعِمٍ متطوِّلٍ ... بآلائه أو مُشْرِفٍ مُتطَاوِلِ
إذا سُئلوا جادَتْ سيوفُ أكفِّهم ... [نظائرَ جاتِ التلاعِ السوائلِ
خليقون سروا[1] أن تلين أكفّهم][2] ... عرائك أحداث الزمان الجلائل
وما زال لحظُ[3] الراغبين معلّقا ... إلى قمرٍ فيهم رفيع المَنازِلِ

وفيه ، أو في أبيه ، يقولُ أبو سعيد أحمد بن شبيب :

وإلى الأمير ابن الأمير تواهَقَتْ ... رَزْحى الركاب بِرَازِحى الرَّكاب[4]
شِيَمٌ أرَقُّ من الهواء بل الهوَى ... وألذُّ من ظَفَرٍ بِعُقْبِ ضِرَابِ[5]
وعزائمٌ لو كُنَّ يوماً أَسْهُمَا ... لَنَفَذْنَ في الأيامِ غَيْرَ نَوَابِ
مائيـة الجرَيانِ إلّا أنها ... نارِيَّةُ الإقْدَامِ والإلهاب
يخطرن بين سياسةٍ ورِيَاسةٍ ... ويَجِهْنَ بين مَثُوبةٍ وعِقَابِ

[ابن أبي دُواد]

ابن أبي دواد والواثق

قال أبو عبد الله بن حمدون النديم: لقد رأيت الملوك في مقاصيرها، ومجامع حَفْلِها[6] فما رأيت أعْزرَ أدبا من الواثق ؛ خرج علينا ذات يوم وهو يقول : لقد عرض عرضة من عرضه لقول الخزاعي ، يريد دعبلا :

خليلَّ ماذا أرتجي من غدٍ[7] امرئ ... طَوَى الكَشْحَ عني اليومَ وهو مَكِينُ
وإنّ امرأً قد ضَنَّ عني بمنطق ... يَسُدّ به مِنْ خَلّتي لَضَنِينُ

فانبرى أحمد بن أبي دُواد يسأله كأنما نشط من عِقَال في رجل من أهل اليمامة فأطْنب وأسهب ، وذهب في القول كل مَذْهَب ؛ فقال الواثق : يا أبا عبد الله ؛ لقـد

---

(١) في ا : شرا . (٢) من ا . (٣) في ا : حظ .
(٤) تواهقت الإبل : مدت أعناقها في السير وتبارت . ورزحت الناقة : سقطت تعبا أو هزالا ، وإبل رزحى . (٥) الضراب : القتال . (٦) في ط : خالها .
(٧) في ط : من غنى .

أكثرتَ في غير كبير ، ولا طَيِّب ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه صديقى :

وأهونُ ما يُعْطِى الصديقُ صديقَهُ   من الهيِّن الموجودِ أن يتكلما

فقال : وما قَدر اليمامى[1] أن يكون صديقك ، وإنما أحسبه أن يكون من عرض معارفك . قال : يا أمير المؤمنين؛ إنه شهرنى بالاستشفاع إليك، وجعلنى بمَرْأى ومَسْمَع، من الردّ والإسعاف ، فإذا لم أقم له هذا المقام أكون كما قال أميرُ المؤمنين آنفا :

خليلىَّ ماذا أرتجى من غدِ امرئٍ   طوى الكَشْحَ عنى اليومَ وهوَ مَكِينُ

فقال الواثق : بالله يا محمد بن عبد الملك إلّا عجّلتَ لأبى عبد الله حاجتَه ، ليسلم من هُجْنَة المَطْل ، كما سَلِم من هُجْنَةِ الردّ .

تلطف ابن أبى دواد

وكان ابن أبى دُواد من أحسن الناس تأتّيا ، وكان يقول : ربما أردت أن أسألَ أميرَ المؤمنين الحاجةَ بحَضْرَةِ ابن الزيات فأؤخّر ذلك إلى وقت مغيبه لئلا يتعلّم حُسْنَ التلطُّف منى ! وكان بينه وبين محمد بن عبد الملك عداوةٌ عظيمة ، وأمر الواثقُ أصحابَه أن ينهضُوا قياما لأبى جعفر إذا دَخل ، ولم يرخِّص فى ذلك لأحد ، فاشتدّ الأمرُ على ابن أبى دُواد ، ولم يَجِدْ لخلاف الواثق سبيلا . فوكل بعض غلمانه بمراقبة موافاته ، فإذا أقبل أخبره فنهض يركع ، فقال ابن الزيات :

صلَّى الضُّحَى لما استفادَ عَداوتى   وأراه يَنْسُك بعدَها ويَصُومُ

لا تعدمنَّ عداوةً موسومةً   تَركتْك تَقْعُدُ بعـــدها وتقومُ

كثرة حوائجه

وقال الواثق يوما لابن أبى دُواد تضجُّرا بكثرة حوائجه : قد أخْلَيْتَ بيوتَ الأموال بطلباتك لِلّائذين بك ، والمتوسّلين إليك . فقال : يا أمير المؤمنين ، نتائج شكرها متّصلة بك ، وذخائرُها موصولةٌ لك ، ومالِى من ذلك إلا عشق اتصال الألسن بخلودِ المدح . فقال : والله لا منعْنَاكَ ما يزيدُ فى عشقك، ويقوّى فى همتك فينا ولنا؛ وأمر فأُخرج له خمسة وثلاثون ألف درهم .

---

(١) فى ا : اليمانى .

بديهته قال أبو العيناء : [قلت] لابن أبى دُواد : إنّ قوما من أهل البصرة قدموا إلى سُرّ من رأى يداً علىّ ، فقال : يَدُ اللهِ فوقَ أيديهم . فقلت : إنّ لهم مَكْراً . فقال : ولايحيقُ المكرُ السّيئُ إلّا بأهله . فقلت : إنّهم كثير . قال : كم من فئةٍ قليلةٍ غلبَتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ واللهُ مع الصابرين . فقلت : لله درُّ القاضى فهو كما قالت الصموت الكلابية :

لله درك أى جُنّةِ خائفٍ ومتاعِ دُنيا أنت للحدثانِ
متخمِّط يَطأُ الرجالَ شهامةً وَطْءَ الفنيقِ مدارجَ[1] القِرْدَانِ[2]
ويكبّهم حتى تظلّ رُءوسُهم مأمومةً[3] تنحطُّ للغربانِ
ويفرِّجُ البابَ الشديدَ رِتاجُهُ حتى يَصيرَ كأنه بابانِ

وكانت هذه المجاوبة بين أبى العيناء وبين أبى العلاء المِنْقَرى ، وكان قد استجاش عليه قوماً من أهل البصرة .

قطعة من شعر الأعراب فى الغزل

ابن ميّادة[4] :

ألا ليت شِعْرِى هــل يَحُلَّنَّ أهلُنا وأهلكِ روضاتٍ ببطن اللِّوَى خُضْرا
وهل تأتينَ الريحُ تدرج موهنا برياكِ تمرورى بنا بلداً قَفْرا
بريح خُزامى الرمل بات معانقا فروع الأقاحى تنضب الطلَّ والقَطْرا
ألا ليْتَنِى ألقاكِ يا أمّ جَحْدَرٍ قريبا فأمّا الصبرُ عنك فلا صَبْرا

وقال :

وما رَوْضَةٌ باتَ الربيعُ يجودُها على ما بها من حَنْوةٍ وعَرارِ[5]

---

(١) فى ا : دوارج . (٢) المتخمط : المتكبر الغاضب والقهار الغلاب . والفنيق : الفحل المكرم عند أهله ، والقردان : جمع القراد . (٣) أى بلغت الشجة أم الرأس .
(٤) الأغانى : ٢ — ٢٧٦ ، ٢٧٧ . (٥) الحنوة : الريحانة ، والعرار : ورد أصفر طيب الرائحة .

بأطيبَ من ريح القرنفل مَوْهِناً ... بمـا التفّ من درْعٍ لها وخِمارِ

وقال آخر(١):

تجالِسُنَا بنتُ الدّلالِ تَملّقت ... غُراه بحبّاتِ القـلوبِ الهوائمِ

وبيّن ماتخفي من الوَجْد ردّها ... غريق الأناسي في الدّموع السّواجم

جرَى الدمعُ مَجْرَى مائه فكفَفْتهُ ... بِعُنّابِ أطرافِ الأكفّ النواعم

وردّ التحيات الهوَى من عيونها ... بيُقْظان طَرْفٍ في مَخِيلة نائمِ

وقال العلاء بن موسى الجُهَني:

ولما رأتني خطراً شَوْكَةَ العِدَى ... رَدى النفْسِ مُحتَابا إلى غير مَوْعدِ

جلَتْ داجيَ الظلماء منها بِسُنّةٍ(٢) ... ونَحرٍ مَشُوبٍ لونُهُ بالزبرجدِ

وبالشّذر(٣) مَشْبُوكا كأنّ التهابَهُ ... تلهّبُ جَمْرِ الفرقد المتوقّدِ

وجاءت كسَلّ السيفِ لو مرّ مشيُها ... على البيض أمسَى سالما لم يُخَضّد

فبِتْنَا ولم نكذِبْك لو أنّ ليلنا ... إلى الحَوْلِ لم نَملل وقلنا له ازْدَدِ

نَذُودُ النفوسَ الصادياتِ عن الهوى ... ذِيادًا ونسقيهنّ سقى المصرّدِ

فلما بدا ضوء الصبـاحِ وراعَنا ... مع الصبح صَوت الهاتفِ المتشهّدِ

نَهضْنَا بشَخْصٍ واحدٍ في عيونهم ... نَطاً في حواشِي الأتحميّ المعضّدِ(٤)

إلى جنّـةٍ منهم وسلّمت غاديا ... عليهـا سلامَ الباكِرِ المتزوّد

وولّت وأغباش الدُّجى مرجَحِنّةٌ ... تأطّر غُصْنِ البانةِ المتأوّدِ(٥)

وقال أعرابي من طيء:

وأحور يصطادُ القلوبَ وما لهُ ... من الريش إلّا زَعْفَرانٌ وإثْمِدُ(٦)

وما كنتُ أخشَى الفتْكَ ممّن سلاحُهُ ... سِوارٌ وخَلْخَال وطَوْق منضّدُ

---

(١) في ط: وقال. (٢) السنة: الجبين. (٣) الشذر: قطع من الذهب، أو اللؤلؤ الصغار. (٤) الأتحمي: البرد. والمعضد: ثوب له علم في موضع العضد.
(٥) التأطر: التمايل، ومثله التأود، وليس هذا البيت في ا. (٦) الإثمد: الكحل.

وأشنب برّاق الثنايا غُروبُهُ   من البَرَد الوَسْمِيّ أصْفَى وأبرَدُ(١)
خليلىّ بالله اقعدا فتبيَّنا   ومِيضاً ترى الظلماءَ منه تقدَّدُ
يكشف أعراضَ السحابِ كأنهُ   صفيحةُ هِنْدِىٍّ تسَلّ وتُغْمَدُ
فبتّ على الأجبال(٢) ليلاً أشيمُهُ   أقومُ له حتى الصباحِ وأقعدُ

هذا فى البرق كقول الطرماح فى النور :

يَبْدُو وتضمره البلاد كأنهُ   سَيْفٌ على شَرَفٍ يُسَلّ ويُغْمَد

[طيف الخيال]

وقال بشار :

أعددْتَ لى عَتْبا بحبِّكمُ   يا عبد طالَ بحبّكم عَتْبى
ولقد تعرض لِى خيالكمُ   فى القُرْطِ والخلخال والقُلْب(٣)
فشربت غيرَ مباشر حَرَجاً   برُضاب أشنبَ باردٍ عَذْبِ

وقال المتنبى(٤):

بِتْنَا يُنَاوِلُنَا المُدَامَ بكَفِّهِ   مَنْ ليس يَخْطُرُ أن تَراه بِبالِهِ
نَجنِى الكواكبَ من قلائد جيدهِ   وننالُ عَيْنَ الشمسِ من خلخالهِ

وأول شعر أبى الطيب :

لا الحلم جادَ بهِ ولا بمثالهِ   لولا ادّكارُ وَدَاعِه وزِيالِهِ(٥)
إن المعيدَ لنا المنامُ خَيالَهُ   كانت إعادَتُه خيالَ خَيالهِ
إنى لأُبْغِضُ طيفَ من أحببتُهُ   إذ كان يَهْجُرنا زمانَ وصالهِ

يقول : التمثيل والتخيل له فى اليقظة أعاد خياله فى المنام ، فكأن الخيالَ الذى فى النوم تصوّر فى اليقظة .

وأظهر من هذا قول الطائى(٦):

زار الخيالُ لها لا بل أزارَكَهُ   فِكرٌ إذا نام فكرُ الخَلْقِ لم يَنَمِ

---

(١) الشنب : برد ورقة وعذوبة فى الأسنان . والغروب : جمع غرب وهو الريق ، والوسمى : مطر الربيع الأول .   (٢) فى ط : الأحياء .   (٣) القلب : السوار .
(٤) ديوانه : ٣ — ٥٤ .   (٥) الزيال : الفراق .   (٦) ديوانه : ٢٦٨ .

ظَبْيٌ تقنَّصْتَه لـــا نصبت لهُ ... فى آخر الليل أشراكاً من الحُلُمِ

أما بيته الأول فمن قول جميل :

حييتُ[١] طيفك من طَيْفٍ ألمّ بِهِ ... حدّثت نفسك عنه وهْوَ مشغولُ

وقال ذو الرمة[٢] :

نأت دار ميّ أن تُزَار وزَوْرُها ... إذا ما دَجا الإظلامُ منا وساوسُ[٣]

إذا نحن عرّسنا بأرضٍ سَرَى لنا ... هوًى لبّسته بالقلوبِ اللوابِسُ

وبيته الثانى ألمّ فيه بقول قيس بن الملوّح :

وإنى لأستغشى وما بىَ نَعسة ... لعلّ خيالًا منكِ يَلْقَى خياليا

وأخرج من بين الجلوس لعلّنى ... أحدّثُ عنك النفسَ فى السرّ خاليا

تقطع أنفاسى لذكرك أنفساً ... يَرِدْنَ فما يَرْجِعْنَ إلّا صَوادِيا

وقد قال فيه قيس بن ذريح :

وإنى لأهْوَى النومَ فى غير نَعْسةٍ ... لعلّ لقاء فى المنـــامِ يكونُ

تخبّرنى الأحلامُ أنى أراكمُ ... فياليتَ أحلامَ المنامِ يقينُ

وكان البحترى أكثرَ الناس إبداعا فى الخيال ، حتى صار لاشتهارِه مثلا يقال له خيال البحترى ، وفى بعض ذلك يقول[٤] :

ألمّتْ بنـــا بعد الهدوّ فسامحتْ ... بوَصْلٍ متى تطلُبْه فى الجِدّ تمنعِ

فما برحت حتى مضى الليلُ وانقضَى ... وأعْجَلها دَاعِى الصباحِ الملمّعِ

فولّتْ كأنّ البينَ يَخْلِجُ[٥] شَخْصَها ... أوان تَوَلّتْ من حشاىَ وأضْلُعِي

وقال[٦] :

سقى الغيثُ أجزاعا عهدت بجوّها[٧] ... غزالًا تراعيه الجآذِرُ أغْيَدا

(١) فى ط : أحفيت ، وليس هذا البيت فى ديوانه المطبوع . (٢) ديوانه : ٤٦ .

(٣) رواية الشطر الثانى فى الديوان : إلى صحبى بالليل هاد مواعس .

(٤) فى ا : قوله ، والأبيات فى ديوانه : ١ـ ٦٠ . (٥) يخلج : يجذب وينزع .

(٦) ديوانه : ١ ـ ٨٥ . (٧) فى ط : أجزاعا عهدت بجيدها ، وهذا من ا والديوان ، والجزع : علة القوم .

إذا ما الكرى أهدى إلىَّ خيالَهُ ... شَفَى قُربُه التبريحَ أو نقع الصدى

فلم تر مثلَيْنا ولا مثل شأننا ... نُعذَّبُ أيقاظاً وننعَمُ هُجَّدا

وقال[1] :

بلى وخيال من أُثَيْلَة[2] كلما ... تأوَّهتُ من وَجْدى تعرَّض يُطْمِعُ

يُرِى مقلتى ما لا ترى من لقائه ... وتسمع أذنى رَجْعَ ما ليس تسمع

[ويكفيك من حق تخيّل باطل ... تردّ به نفس اللهيف فترجعُ][3] .

قوله فى البيت الأخير من قول الحسين بن الضحاك :

وماذا يفيدك[4] طيفُ الخيا ... لِ والهجرُ حظّك ممن تُحِبّْ

غَناءٌ قليلٌ ولكننى ... تَعلّيتُه[5] بقنوعِ المحِبّْ

وللحُسين فى هذا المعنى وإن لم يكن فى ذِكْرِ الخيال :

وصفَ البَدْرُ حُسْنَ وجهِك حتّى ... خِلْتُ أنّى ، وما أراكَ ، أراكا

وإذا ما تنفّس النرجسُ الغضْ ... ضُ توهّمْته نسيمَ جناكا

خدَعٌ للمُنَى تُعلّلُنى فيـ ... ـك بإشراقِ ذا ونكهةِ ذاكا

وأول من طرد الخيالَ طَرَفة بن العبد ، فقال :

فقل لخيال الحنظلية ينقلبْ ... إليها فإنى واصلٌ حَبْلَ مَنْ وصَلْ

فتبعه جرير فى قوله فقال:

طرقَتْك صائدةُ القلوبِ وليس ذا ... حِينَ الزيارةِ فارْجِعى بسَلامِ

قال البحترى ، ونق هذا المعنى بقوله[6] :

قد كان منى الوَجْدُ غِبَّ تذكّرٍ ... إذ كان منك الصدُّ غِبَّ تَنَاسى

---

(١) ديوانه : ١ — ١٩٧ . (٢) فى الديوان : قتيلة .
(٣) من ا . (٤) فى ا : تعرض . (٥) فى ط : تمنيته .
(٦) ديوانه : ١ — ٢٤٨ .

تجرى دموعى حين دَمعك جامدٌ ... ويَلِينُ قلبى حين قلبك قاسى
ما قلت للطيف المسلّم لا تعُدْ ... تمشى ولا نهنهتُ حامِلَ كاسى

وقال ابن هانئ الأندلسى (١) :

ألا طرقتنا والنجومُ ركودُ ... وفى الحىِّ أيقاظٌ ونحن هُجُودُ
وقد أعجل الفجر الملمّع خطوها ... وفى أخريات الليل منه عَمُودُ
سَرتْ عاطِلا غَضْبَى على الدرّ وحدهُ ... فلم يدرِ نحرٌ (٢) ما دَهاهُ وجيدُ
فما برحت إلا ومن سِلْكِ أدْمُعى ... قلائدُ فى لبّاتِها وعُقودُ
ألم يأتِها أنّا كبرنا عن الصّبا ... وأنا بلينا والزمانُ جديدُ

وقال علىّ بن محمد الإيادى :

أما إنه لولا الخيالُ المراجعُ ... وعاصٍ يُرَى فى النوم وهْوَ مطاوعُ
لأشفق واستحْيا من النوم وَالِهٌ ... يُرى بعد رَوْعَاتِ الهوى وهو هاجع

وقال أيضاً :

طيفٌ يزورُك من حبيبٍ هاجرٍ ... أهْلًا به وبطيفِه مِنْ زائِرِ
شقّ الدجى وسَرى فأمْعنَ فى السُّرى ... حتى ألمّ فبات بين مَحَاجِرِى
يحدُو به هيَفُ القوام المنثنى ... نَحْوِى وسالفةُ الغزال النافر
لله درُّك من خيالٍ واصلٍ ... أسرى فأنصف من حبيب هاجرِ
عَلّلت علة قلب صَبٍّ هائمٍ ... وقضيت ذِمّةَ (٣) فيض دَمْعٍ قاطرِ

وقال عبد الكريم بن إبراهيم :

لم أدرِ مَغْنَاكِ لولا المسكُ والقُطُرُ (٤) ... وزَوْرَةٌ لِمُلِمٍّ عهــدُه عفرُ
سرى يعارضُ أنفاسَ الرياح بما ... تحمّر الوردُ منْهُ وانتشى الزّهرُ

(١) فى ا : أبو القاسم بن هانئ . (٢) فى ط : ثغر . (٣) فى ا : همة .
(٤) القطر — بالضم : العود الذى يتبخر به .

يخفى بثوبِ الدُّجَى مَسْرَاهُ مستتراً ... ومن تقنّع صُبْحًا كيف يستترُ
كأنَّ أعينَ واشيه تُرَاقبهُ ... فيه فيدمج أخبارِى فيختصرُ

وقال :

أهلا به من زائرٍ معتادِ ... والليلُ يرفُل فى ثيابِ حدادِ
يتجاوزُ الراياتِ يخفقُ ظلُّها ... ويشقُّ ملتفَّ القَنَا المنآدِ[1]
أنّى اهتدَى فى ظل أخضر مُغْدِفٍ ... حتى تيمّمَ بالسُّرَاه وِسَادِى
بِأرَقَّ من كبد المتيّم مقــدماً ... فى حيث ينبو الحارث بن عُبَادِ
معتادَةً أمِنتْ غـارِمَ حَلْيِها ... والحَلْيُ نَمّامٌ على العُوّادِ
وكأنمـا ياقوتُها فى نحرِها ... متوقّد ممـا يُجِنّ فؤادِى

[حسن تخلص]

خطب صالح بن أبى جعفر المنصور فى بعضِ الأمر فأحسن ، فأراد المنصورُ أن يقرّظه ويثنى عليه ، فلم يجسُر أحدٌ على ذلك لمكان المهدى ، وكان مرشّحا للخلافة ، وخافُوا ألّا يقع الثناء على أخيه بموافقته ، فقام عِقَال بن شبّة[2] ، فقال : ما رأيتُ أبين بيانا ، ولا أفصحَ لسانا ، ولا أحسن طريقا ، ولا أغمض[3] عروقا ، من خطيب قام بحضْرَتك يا أمير المؤمنين ، وحُقّ لمن كان أميرُ المؤمنين أباه ، والمهدىّ أخاه ، أن يكون كما قال زهير[4] :

يطلبُ شأوَ امرَأين قدّما حَسناً ... بزّا[5] الملوكَ وبزّا هذه السُّوَقَا
هو الجوادُ فإن يَلحَقْ بشأوِهما ... على تكاليفه فمثْلُه لحِقا
أو يسبقاهُ على ما كان من مَهَلٍ ... فبالذى قدّمَا من صالحٍ سَبَقا

فعجب الناسُ من حُسْن تخلصه. فقال أبو جعفر : لا ينصرف التميمى إلا بثلاثين ألفا.

---

(١) فى ط : المياد . (٢) فى ط : شيبة . (٣) فى ط : أعيص . (٤) ديوانه : ٥١ .
(٥) فى الديوان : نالا الملوك .

قال أبو عبد الله كاتبُ المهدى : ما رأيت مثل عِقَال قط فى بلاغته ؛ [مدح الغلام، و](١) أرضَى المنصور ، وسَلِم من المهدى .

[زهير وهرم]

استطراد فى شعر زهير

وفى قصيدة زهير هذه يمدح هرم بن سنان بن أبى حارثة المرى(٢) :

قد جعلَ المُبْتَغُون الخَيرِ فى هَرِمٍ ... والسائلون إلى أبوابه طُرُقا
من يَلْقَ يوماً على عِلَّاتِهِ هرِماً ... يَلْقَ السماحةَ منـه والندَى خُلُقَا
وليس مانعَ ذى قُرْبَى وذى رَحِمٍ ... يوماً ولا مُعْدِماً من خَابطٍ وَرَقا(٣)
ليثٌ بعَثَّرَ(٤) يصطادُ الرجالَ إذَا ... ما الليثُ كذَّبَ عن أقرانِه صَدَقا
يطعَنُهم ما ارتموا حتى إذا اطَّعَنُوا ... ضارب حتى إذا ما ضَارَبُوا اعتنقا
فَضْلُ الجوادِ على الخيلِ البِطَاء فلا ... يُعْطى بذلك ممنونا ولا نَزِقَا
هـذا وليس كمَن يعيا بخُطَّتِهِ ... وسْطَ الندىّ إذا ما ناطقٌ نطقا
لو نال حىٌّ من الدنيا بمكرمةٍ ... أفقَ السماء لنالَتْ كفُّه الأفقا

وكان زهيرٌ كثيرَ المدح لهرم ، ويروى أن بنتا لسنان بن أبى حارثة رأت بنتا لزهير بن أبى سلمى فى بَعْض المحافل ، وإذا لها شارةٌ(٥) وحالٌ حسنة، فقالت: قد سرنى ما أرى من هذه الشارة والنعمة عليك. [فقالت : إنها منكم](٦) . فقالت : بلى والله، لك الفضل ، أعطيناكم ما يَفْنَى ، وأعطيتمونا ما يَبْقَى !

وقد قيل : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لابنة هرم بن سنان : ما وهَب أبوك لزهير ؟ قالت : أعطيناه مالا وأثاثا أفناه الدهر . قال : لـكن ما أعطاكوه لا تُفْنِيه الدهور . وقد صدق عمر رضى الله عنه، لقد أبقى زهير لهم مالا تفنيه الدهور، ولا تُخْلِقه العصور ، ولا يزال به ذكر الممدوح ساميا، وشرفه باقيا، فقد صار ذكرهم علما منصوبا ، ومثلًا مضروبا ، قال الطائى ، وذكره فى شعره :

مالى ومالك شِبْهٌ حين أذكرهُ ... إلا زهير وقد أصْغَى له هرم

(١) من ا . (٢) ديوانه : ١٩ . (٣) كناية عن الجود . (٤) عثر : بالبمن .
(٥) فى ط : شأن . (٦) ساقط من ا .

وقال يوسف الجوهرى يمدح الحسن بن سَهْل :

لو أنَّ عينى زهيرٍ أبصرتْ حَسَنًا وكيف يصنعُ فى أموالهِ الكرمُ
إذن لقال زهيرٌ حين يُبْصِرُهُ هـذا الجوادُ على العلاتِ لا هَرِمُ

وقال آخر ، ويدخل فى باب تفضيل الشعر :

الشعرُ يحفظُ ما أوْدَى الزمانُ به والشعرُ أفضل ما يجنى من الكرَم
لولا مقالُ زهيرٍ فى قصائده ما كان يعرف جُودٌ كان من هَرِم

وقيل : أعطى هرم [العطاء الجزيل][1] عوَض قول زهير فيه[2] :

تالله قد علمت سَرَاةُ بنى ذُبْيَان عامَ الحَبْسِ والأصْرِ
أنْ نِعْمَ حشوُ الدِّرْعِ أنت إذا دعيَتْ نَزَالِ ولُجَّ فى الذُّعْرِ
حامى الذِّمارِ على مُحَافظة الـ جُلَّى أمينُ مغيَّبِ الصدْرِ
حَدِبٌ على المَوْلَى الضَّرِيكِ[3] إذا ضاقت عليه نوائبُ الدَّهْرِ
ومرَهَّقُ النيران يُحْمَدُ فى الـ لأْوَاء غيرُ ملعَّنِ القِدْرِ[4]
والستر دونَ الفاحشاتِ وما يلقاكَ دونَ الخيرِ من سِتْرِ

وقال[5] :

إن البخيلَ ملومٌ حيثُ كان ولـكنَّ الجوادَ على عِلّاتِه هَرِمُ
هو الكريمُ الذى يُعطيك نائلَهُ عَفْواً ويُظلَم أحياناً فيظَّلِمُ
وإن أتاه خليلٌ يوم مسألة يقولُ لا غائبٌ مالِى ولا حَرِم

الخليل الذى أخلّ به الفقر ؛ إلى غير ذلك من مُختارِ مدحه فيه .

[فضل الشعر]

ولما امتدح نُصَيب عبد الله بن جعفر رضى الله عنه أمر له بإبل وخَيْل ، وثياب ودنانير ودراهم ، قال له رجل : أتُعطى لمثل هذا العبد الأسود هذا العطاء[6] ؟ فقال:

---

(١) ساقط من ا . (٢) ديوانه : ٨٨ . (٣) الضريك : المحتاج .
(٤) مرهق النيران : تغشى نيرانه ، واللأواء : الشدة . وغير ملعن القدر : لا تسب قدره لأنه يطعم . (٥) ديوانه : ١٠٢ . (٦) ق ط : فقيل له: تعطى هذا القذر الأسود ؟ وما أثبتناه من ا .

إن كان أسود فإنّ شِعْرَه أبيض ، وإن كان عبداً فإنّ ثناءه لحر[1] ، ولقد استحق بما قال أكثرَ مما أعطى ، وهل أعطيناه إلا ثياباً تبلى ، ومالًا يَفْنَى ، ومطايا تنضى ، وأعطانا مديحاً يُرْوَى وثناء يَبْقى .

وقال الأخطل يمتنُّ على بنى أمية بمدحه لهم :

أبنى أمية إن أخذت نَوَالكم ... فلَمَا أخذتم من مديحى أكْثَرُ

أبنى أمية لِى مدائحُ فيكمُ ... تُنْسَوْن إنْ طَال الزمانُ وتُذْكَرُ

ولما مدح أبو تمام الطائى محمد بن حسان الضبى بقصيدته التى أولها[2] :

أسقى طلولَهم أجَشُّ هَزِيمُ[3] ... وغدَتْ عليهم نَضْرَةٌ ونَعِيمُ

وصَلَه بمال كثير ، وخلع عليه خلعة نفيسة ، فقال يصفها[4] :

قد كَسانا من كُسْوَةِ الصيف خِرْقٌ[5] ... مُكْتَسٍ من مكارمٍ ومَسَاعِ

حُلّةً سابِرِيّةً وكِساء[6] ... كَسَحَا القَيْضِ أو رداء الشجاع[7]

كالسرابِ الرقراقِ في الحُسْنِ إلّا ... أنه ليس مثله في الخِدَاعِ

قَصَبيًّا تسترجفُ الريح مَتْنَيْـ ... ـه بأمرٍ من الهبوب مطاعِ[8]

رجَفانا كأنه الدهرُ منه ... كَبِدُ الصب[9] أوْ حَشَى الُمْرتَاعِ

لازما ما يليهِ تحسبُه جز ... ءا من المتنين والأضلاع[10]

كسوة مِنْ أغرَّ أروعَ رَحْب الـ ... ـصدرِ رَحْبِ الفؤادِ رَحْبِ الذِّراعِ

سوف أكسوكَ ما يعفِّى عليها ... من ثناء كالبرد بردِ الصَّناعِ

حسنُ هاتيك فى العيون وهــذا ... حسنهُ فى القلوب والأسماعِ

---

(١) فى ا : لعربي . (٢) ديوانه : ٢٩٩ . (٣) الأجش : الخشن الصوت . الهزيم : صوت الرعد . (٤) ديوانه : ١٩٥ . (٥) الخرق : الفتى الحسن الكريم الخليقة .

(٦) فى الديوان ، ا : ورداء . (٧) السحا : ما تقشر عن الشىء ، والقيض : القشرة العليا اليابسة على البيضة . وفى ط : كسحا البيض ، والشجاع : الحية . (٨) رواية البيت فى ط :

ترجف الريح متنه حين يلقا ... ك بأمر من الأســـور مطاع

(٩) فى ط ، والديوان : كبد الصب . (١٠) فى ط : من المتن أو من الأضلاع .

فقال : لعنةُ الله عليّ إن بقي عندي ثوب أو يَصل إلى أبي تمام ؛ وأمر بحَمْل ما في خزائنه إليه .

من أخبار أبي تمام

قال إبراهيم بن العبّاس الصولي لأبي تمام : [أمراء]⁽¹⁾ الكلام يا أبا تمام رعيّةٌ لإحسانك ، قال : [ذاك]⁽¹⁾ لأني أستضيءُ بنورك ، وأرِدُ شريعتك . وكان الطائي مع جَوْدَةِ شعره بليغَ الخطاب، حاضرَ الجواب، وكان يقال: ثنتان قلّما يجتمعان⁽²⁾: اللسان البليغ ، والشعر الجيد .

وقال الحسن بن جُنَادة الوشّاء : انصرف أبو تمام من عند بعض أصحاب السلطان فوقف عليّ ، فقلت : من أين ؟ فقال : كنت عند بعض الملوك فأكلنا طعاما طيّبا ، وفاكهة فاضلة ، وبُخِّرنا وغُلِّفنا ؛ فخرجْتُ هارباً من المجلس، نافراً إلى التسلي ، وما في منزلي نبيذ، [فإن كان عندك منه شيء فامنحني . فقلت : ماعندي نبيذ]⁽¹⁾ ، ولكن عندي خَمْرٌ أريده لبعض الأدوية ، فقال : دع اسمه ، وأعطِنا جِسْمَه ، فليس يثنينا عن المدام ما هجّنته به من اسم الحرام .

[استنجاز أعرابي]

قال عبيد الله بن محمد بن صدَقة : كنّا عند أبي عبيد الله ، فدخل عليه أعرابي قد كان له عليه وَعْد ، فقال له : أيها الشيخ السيد ، إني والله أتسحّبُ على كرمك ، وأستوطِئُ فراشَ مجدك، وأستعين على نعمك بقدرك؛ وقد مضى لي موعدان ، فاجعل النجْحَ ثالثا ، أقد لك الشُّكْر في العرب شادِخَ الغُرَّة، باديَ الأوضاح. فقال أبو عبيد الله : ماوعدتك تغريراً، ولا أخّرتُك تقصيراً، ولكن الأشغال تقطعني، وتأخذ بأوْفَر الحظّ مني ، وأنا أبلغ لك جهد الكفاية ، ومنتهى الوُسْع بأوفر مأمول ، وأحمد عاقبة، وأقرب أمد ، إن شاء الله تعالى .

فقال الأعرابي : ياجلساءَ الصّدق ، قد أحصرني التطول ، فهل من معين مُنْجِد، ومساعدٍ منشد ؟ فقال بعضُ أحداث الكتاب لأبي عبيد الله : والله — أصلحك الله —

---

(١) من ا . (٢) في ط : زين المرء اثنان .

لقد قصدك ، وما قصدك حتى أمّلك ، وما أمّلك إلا بعد أن أجال النظر ، فأمن الخطر ، وأيقن بالظَّفَر ، فحقق له أمله بتهيئة القليل ، وتهنئة التعجيل(١) . قال الشاعر :

إذا ما اجتلاه المَجْدُ عن وَفْدِ آملٍ　　تبلّج عن بشر ليستكمل الشكرا(٢)

ولم يثنِه مطل العـــداة عَنِ التى　　تصونُ له الحمدَ الموفّر والأجرا

فأحضر أبو عبيد الله للأعرابى عشرةَ آلافِ درهم ، وقال الأعرابى للفتى : خُذْها فأنت سَبَبُها . فقال : شكرُكَ أحبُّ إلىَّ منها . فقال له أبو عبيد الله : خُذْها فقد أمَرْنا له بمثلها . فقال الأعرابى : الآنَ كَمُلَتِ النعمة ، وتمّت المنة .

معاوية بن يسار

وكان أبو عبيد الله واسعَ الذَّرع سابغَ الدرع فى الكرم والبلاغة ، واسمُه معاوية ابن يَسَار ، وكان يقول : إنّ نخوةَ الشرف تُنَاسِبُ بطر الغِنَى ، والصبرُ على حقوق الثَّرْوَةِ أشدُّ من الصَّبْرِ على ألَمِ الحـاجة ، وذلُّ الفقر يسمى على عزِّ الصبر ، وجور الولاية مانع من عَدْل الإنصاف ، إلا من ناسب بعد الهمة ، وكان لسلطان عزمه قوة على شهوته . وكان يقول : لا يكسر رأسُ صناعة إلا فى أخسّ رُتَّان(٤) ، وأرذل سلطان ، ولا يعيبُ العلمَ إلا من انسلخ عنه ، وخرج منه . وكان يقول : حُسْنُ البِشْر عَلَم من أعلام [النجاح](٥) ، ورائد من [روّاد الفلاح](٥) . وما أحسن ما قال زهير(٦) :

تراه إذا ما جئته متهلّلا　　كأنك تُعطيه الذى أنتَ سائله

بينه وبين المهدى

وقال له المهدىُّ بعد أن قتل ابنَه على الزندقة : لا يمنعك ما سبقَ القضاء فى ولدك ، من [ثلج صَدْرِكَ](٥) ، وتقديم نُصْحِك ؛ فإنى لا أعرض لك رأيا على تُهمة ، ولا أؤخر لك قدما عن رُتبة . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما كان [ولدى حسنة](٥) من نبت إحسانك أرضه ، ومن تفقُّدك سماؤه ، وأنا طاعة أمرك ، وعَبْد نهيك ، وبقية رأيك لى أحسن الخلف عندى .

وكان يقول : العالم يمشى البراز آمنا ، والجاهل يهبط النيطان كامناً ، ولله درّ زهير حيـ...

---

(١) فى ا : بتهنية التعجيل .　(٢) فى ط : يسوف عن بعمر ليستكمل الشكرا .

(٣) فى ط : ابن عبد الله بن بشار ، وهذا من ا .　(٤) الرت : الرئيس ، وجمعه رتان .

(٥) من ا .　(٦) ديوانه ٥٠ .

الستر دون الفاحشات وما يَلْقاك دونَ الخيرِ من سِتْرِ

وقال أبو عبيد الله : ذاكرنى المنصورُ فى أمرِ الحسَين[١] بن قَحْطَبَة ، فقال : كان أوثقَ الناسِ عندى ، وأقربهم من قلبى ، فلما لقى أبا حنيفة انتكث . فقلت : إن فسدت[٢] نيتُه فسيضَمُه الباطلُ كما رفعه الحقُّ ، وتشهد مخايلُه عليه كما شهِدَتْ له ، فتعدل فى أمره من شَكّ إلى يقين . ثم قال لى : اكتُمْ علىَّ ما أَلْقَيْتُ عليك .

موقع شفاعة عنده

قال عمران بن شهاب : استعنت على أبى عبيد الله فى أمرٍ ببعضِ إخوانه وكان قد تقدَّم سؤالى إياه فيه ، فقال لى : لولا أن حقك لا يُجْحَد ولا يُضاع ، لحجبت عنك حُسْنَ نظرى ؛ أظننتنى أجهل الإحسانَ حتى أعلَّمه ، ولا أعرف موضعَ المعروف حتى أعرَّفه ؟ لو كان لا يُنالُ ما عندى إلا بغيرى لكنت مثل البعير الذلول ؛ يُحمل عليه الحمل الثقيل[٣] ، وإن قِيدَ انقاد ، وإن أنيخ برك ، ما يملك من نفسه شيئا .

فقلت : معرفتُك بموضع الصنائع أثبت معرفة ، ولم أجعل فلانا شفيعا إنما جعلته مذكِّرًا : قال : وأى إذكار أبلغ عندى فى رَعْى حقك من مسيرك إليه وتسليمك عليه[٤] ؟ إنه متى لم يتصفَّح المأمول أسماء مؤمِّليه غدوة ورواحا لم يكن للأمل محلّا ، وجرى عليه القدارُ لمؤمِّليه على يديه بما قدر[٥] ، وهو غيرُ محمود على ذلك ولا مشكور ، ومالى إمامٌ بعد وردى من القرآن إلا أسماء رجال أهْل التأميل ، حتى أعرضهم على قلبى ، فلا تستعِينَنَّ على شريفٍ إلا بشَرَفهِ ؛ فإنه يرى ذلك عيبا لمُرفه ؛ وأنشد :

وذاك امرؤ إن تأْتِه فى عظيمة إلى بابه لا تَأْتِه بشفيعِ

من توقيعاته

ومن توقيعاته : الحق يعقب فَلْجا أو ظفرا ، والباطل يُورث كذبا ونَدَما .

وكتب إليه رجل : والنفس مولعة بحبِّ العاجل . فكتب إليه لكن العقل الذى جعله الله للشهوة زماما وللهوى رباطا موكّل بحبِّ الآجل ، ومستصغِرٌ لكل كثير زائل .

---

(١) فى ط : الحسن . (٢) فى ط : بدت . (٣) فى ط : يحمل عليه ولا يحمل الثقل .
(٤) فى ط : إلى وتسليمك علىّ . (٥) فى ط : وجرى عليه القدر لمؤمليه بما قدر .

قال مصعب بن عبد الله الزبيرى : وفد زياد الحارثى على المهدى وهو بالرّىّ ولىّ عهد ، فأقام سنتين لايَصِلُ إليه شىء من بِرّه[١] ، وهو ملازم كاتبه أبا عبيد الله[٢]، فلما طال أمره دخل إلى كاتبه فأنشده :

ما بعد حولين مرّا من مطالبةٍ ... ولا مقامٌ لذى دِينٍ وذى حَسَبِ
لئن رحلتُ ولم أظفر بفائدةٍ ... من الأمير لقد أعذرت فى الطّلَبِ

فوقّع أبو عبيد الله[٢] : يصنعُ الله لك ! فكتب إليه :

ما أردت الدعاءَ منك لأنى ... قد تيقّنت أنه لا يُجابُ
أيجاب الدعاء من مستطيل ... جُلُّ تسبيحه الخَنَا والسِّبابُ

ألفاظ لأهل العصر فى ذكر الاستطالة والكبر

مع مايشاكلُ ذلك من معانيها ويطرق نواحيها من المساوى والمقابح

فلان لسانُه مِقْراضٌ للأعراض ، لا يأكل خبْزَه إلا بلحوم الناس . هو غرضٌ يرشَق بسهام الغيبة ، وعلَم يقصد بالوقيعة، قد تناولته الألسن العاذلةُ، وتناقلت حديثَه الأنديةُ الحافلة . قد لزمه عار لا يُمْحَى رَسْمُهُ ، ولزمه شَنَار لايزولُ وَسْمُه ، فأصبح [نقل كلّ لسان، وضحكة كل إنسان، وسار دولة الألسن، ومثلة الأعين . قدعرّض عرضه][٣] غرضا لسهام الغائبين ، وألسنة القاذفين ، وقلّد نفسه عظيم العار والشّنار، وألبسها السّبّة الخالدة على الليل والنهار . قد أسكرته خَمْرَةُ الكبر ، واستغرقته غُرّةُ التيه[٤]، كأن كسرى حامل غاشيته، وقارون وكيل نفقته، وبلقيس إحدَى داياته[٥]، وكأنّ يوسف لم ينظرْ إلا بطلعته[٦]، [وداود لم ينطق إلّا بنغمته][٧]، ولقمان لم يتكلم

---

(١) فى ط . من فنده . (٢) فى ط : أبا عبد الله . (٣) من ١ .
(٤) فى ط : لذة التيه . (٥) فى ١ : دايته ، والداية : الظئر . (٦) فى ١ : إلا بنعمته.
(٧) ساقط من ١ .

إلا بحكمته ، والشمس لم تطلع إلا من جبينه ، والغمام لم يَبْدُ إلا من يمينه ، وكأنه امتطى السِّماكين، واشتمل الفرقدين، وتناول النَّيِّرين بيدين، وملك الخافقين، واستعبد الثقلين، وكأن الخضراء له عرشت ، والغَبْراء باسمه فرشت .

فلان له من الطاوُس رِجْلُه ، ومن الوَرْدِ شَوْكُه ، ومن الماء زَبَدُه ، ومن النار دخانها ، ومن الخمر خُمارها ، قد هبّت[1] سمائمُ غمائمه ، ودبَّت مكايد عقاربه ، والنمام يضرب بسَيْفٍ كَليلٍ إلا أنه يقطع ، ويضرب بعضد واهن إلا أنه يوجع . هو تمثالُ الجبن ، وصورة الخوف ، ومقرّ الرعب، فلو سمّيت له الشجاعة لخاف لَفْظَها قبل معناها، وذكرها قبل فحواها ، وفزع من اسمها دون مسماها ، فهو يهلك من تخوفه أضغاث أحلام ، فكيف بمسموع الكلام؟ إذا ذكرت السيوف لمس رأسه هل ذهب، ومسّ جبينه هل ثُقب ؟ كأنه أسلم في كتّاب الجُبْنِ صبيًّا ، ولُقن كتاب الفشل أعجميا . وَعْدُه بَرْقٌ خُلَّب ، وروغان ثعلب . غيم وعده جَهام ، وحدُّ سَيْفِه كَهام . حصلتُ منه على مواعيد عرقوبية ، وأحزان يعقوبية، قد حرمني ثمرَ الوعد، وجرَّني على شَوْكِ المطْلِ . فتى له وعدٌ أخدع من البَرْقِ الخُلَّبِ خلقا ، وقد تناول من العارض الجهام طبعا ، وتركني أرْعَى رياضَ رجاء لايُنبت ، وأجْنِي ثمار أمل لايُورق ؟ فأنا في ضمان الانتظار ، وإسار عدة ضمار . هو يرسل بَرْقَه ، ولا يسيل ودقه ، ويقدم رَعْدَه ، فلا يمطر بعده . وعْدُه الرقمُ على بساط الهواء ، والخطّ في بسيط الماء .

حلّ هذا من قول أبي الفضل بن العميد :

لا أستفيقُ من الغرام ولا أرى ... خِلْوًا من الأشجان والبرحاء
وصروفُ أيامٍ أقمن قيامتي ... بِنَوى الخليطِ وفُرْقَةِ القُرَناء
وجَفاء خِلٍّ كنتُ أحسبُ أنه ... عَوْنِي على السراء والضراء
ثَبْتُ المزِيَّة في العقوق وودُّه ... متنقلٌ كتنقّل الأحياء[2]

---

(١) في ا : ذهبت .   (٢) في ط : الأفياء .

ذى خلة يأتيك أبتُ عهدهِ　　　كالخطّ يرسَم فى بسيطِ الماء .

أردت هذا البيت .

هو صخرة خَلْقَاء[١] ، لايستجيبُ للمرتقَى، وحيّة صمّاء لاتسمع للرُّقَى، كأنّى أستنفر بالجوّ رعودا[٢]، وأهزّ منه بالدعاء طودا ، هو ثابت العِطف، [نابى العطف][٣]، عاجز القوة، قاصر المُنّة، يتعلّق بأذناب المعاذير، ويحيل على ذنوبِ المقادير . هو كالنعامة تكونُ جملا إذا قيل لها طيرى ، وطائرا إذا قيل لها سيرى ، يفاض له بذل ، ولا يفوّض إليه شغل ، ويعلاُ له وَطْب ، ولا يُدْفَع به خَطْب ، قد وفر همّة على مطعم يجوّدُه ، ومَلْبَس يجدّده ، ومرْقَد يمهّده ، وبنيان يشيّده ، هذا كقول الحطيئة :

دَعِ المكارمَ لا ترحَلْ لبُغْيَتِها　　　واقعُدْ فإنك أنتَ الطاعمُ الكاسِي

قَلْبٌ نَغِل ، وصَدْرٌ دَغِل ، وطويّةٌ معلولة ، وعقيدة مَدْخُولَة ، صَفْوُه رنق ، وبِرّه مَلَق ، قد مُلِىء قلبُه رَيْنا[٤] ، وشُحِنَ صدرُه مَيْنا ، يدّعِى الفضلَ وهو فيه دعىّ ، دَأبه بثُّ الخدائع ، والنّفثُ فى عُقَد المكايد ، ضميرُه خُبث ، ويمينُه حِنْث ، وعهده نكْث . هو سحابة[٥] صَيْف، وطارِقُ ضَيْف ، قُوتُه غنيمة، والظفر به هزيمة. هو العودُ المركوب ، والوَتَرُ[٦] المضروب، يطؤه الخفُّ والحافرُ، ويستضيمُه الواردُ والصادر . [يغمض عن الذكر][٧] ، وينفُر عن الفِكْر . ذاتُه لايوسَم أغفالها[٨] ، وصفقتُه لاتنفرج أقفالها . هو أقلُّ من تبنة فى لبنة ، ومن قُلامة فى قامة . هو بيذق[٩] الشِّطْرَنْج فى القيمة والقامَة ، جَهْلُه كثيف ، وعَقْلُه سخيف ، لايستترُ من العقل بسجف ، ولا يشتمل إلّا على سخف . يمدُّ يدَ الجنون فيحرك بها أذُنَ الحَزْم، ويفتح جِرَاب السخف ، فيصفَع به قفَا العقل . لاتزالُ الأخبارُ تورد سفائِح جَهْلِه

(١) صخرة خلقاء : ملساء .　　(٢) فى ا : بالجود عودا .　　(٣) من ا .
(٤) الرين : الدنس .　　(٥) فى ا : ريح .　　(٦) فى ا : والزير ، والزير : الدقيق من الأوتار .　　(٧) من ا .　　(٨) فى ا : ذاته لاترسم .　　(٩) فى ط : مدبب . والتصحيح من ا ، والبياذق : الرجالة ، ومنه بيذق الشطرنج (لسان — بذق) .

وخُرْقه ، والأنباء تنقلُ نتائجَ سُخْفِه وحُمْقِه . قد ظلّ يتعثّرُ فى فضولِ جَهْلِه ، ويتساقطُ فى ذيولِ عقلِه. هو سمينُ المالِ مهزولُ النّوال. ثَرْوَةٌ فى الثريا وهمّةٌ فى الثّرَى. وجْهُه كهَوْلِ المطلع ، وزوال النّعمة ، وقضاء السّوء ، وموتِ الفُجَاءة . هو قذَى العَيْنِ ، وشَجَى الصدْرِ ، وأذَى القلب ، وحمّى الروح . وَجْهُه كآخر الصك ، وظلم الشك ، كأنّ النحسَ يطلع من جَبِينه ، والخلّ يقطر من وجنته . وجْهُه ظُلْمَة الهَجْر ، ولفظُه قِطَع الصَّخر . وجهُه كحضور الغَرِيم ، ووصول الرقيب ، وكتاب العَزْل، وفِرَاق الحبيبِ . له من الدينار نضرته ، ومن الوَرْدِ صُفْرَتُه ، ومن السحاب ظُلْمَتُه ، ومن الأسد نَكهته. هو عصارةُ لؤمٍ فى قرارة خُبْث. ألأم مهجة فى أسقط جثّة . حديث النّعْمَة ، خبيثُ الطعمة . خبيث المركب ، لئيم المنتسب ، يكادُ من لُؤْمِه يُعْدِى مَنْ جلس إلى جَنْبِه ، أو تسمّى باسْمِه . قد أُرْضِع بلبان اللُّؤْم ، ورُبّى فى حِجْر الشؤم ، وفُطِم عن ثدى الخَيْرِ ، ونشأ فى عَرْصَة الخُبْثِ ، وطلّقَ الكرم ثلاثا ، لم ينطق فيه استثناء ، وأعْتَق الجدَ بتاتاً ، لم يستَوْجِبْ عليه ولاء . هو حمار مبطّن بثور مفروز[1] بتَيْس ، مطرّز بطرد ، [أتى من اللؤم بنادر][2]، لَم تَهْتَدِ له قصةُ مادر . هو قصيرُ الشبر ، صغيرُ القِدْرِ ، قاصر القدر ، ضيّق الصّدْرِ ، ردّ إلى قيمة مثله فى خبث أصْلِه ، وفَرْط جهله ، لا أمسَ ليومه ، ولا قديم لقوله ، سائلُه محروم ، ومالُه مَكْتُوم ؛ لا يَحِينُ إنفاقه ، ولا يحلّ خناقه . خَبْزُه كالعنقاء تَسْمَعُ بها ولا ترى . خُبْزُه فى حالق ، وإدامه فى شَاهِق . غِنَاه فَقْر ، ومَطْبَخُه قفْر ، يملأ بطنَه والجار جائع ، ويحفظُ مالَه والعِرْضُ ضائع ، قد أطاع سُلْطَان البُخْل وانخرط كيف شاء فى سِلْكِه . هو ممن لا يبضّ حجَره ، ولا يثمر شجره ، سُكَيت الحَلْبَة ، وساقة الكتيبة ، وآخِرُ الجريدة . لعنة الغائب ، وعرضة الشاهد والغائب . هو عَيْبَةُ العيوب ، وذَنُوب الذّنوب . وقال أبو الفضل الميكالى :

---

(١) ثوب مفروز : له تطاريف . وفى ط : مقرون . (٢) من ١ .

وطلعةٍ بقبحها قد شهرتْ   تحكي زوالَ نعمة ما شكرتْ
كأنّها عن لحمها قد قشرتْ   أقبحْ بهــا صحيفةً قد نُشرتْ
عنوانها إذا الوحوش حُشِرتْ   يلعنها ما قدّمتْ وأخّرتْ
صاحِبُها ذو عورة لو سترت   إن سار يوماً فالجبال سيِّرتْ
أو رامَ أكْلا فالجحيم سُعِّرَتْ

رسالة البديع في ذلك

ويختص بهذه الأنواع رسالة بديع الزمان إلى القاضي[1] على بن أحمد يشكو أبا بكر الحيرى القاضي ويذمّه — وقد أطلتُ عِنان الاختيارِ فيها لصحّة مبانيها، وارتباط ألفاظِها بمعانيها:

الظُّلامة — أطال اللهُ بقاء القاضي — إذا أتَتْ من مجلِس القضاء، لم ترق إلّا إلى سيّدِ القضاة. وما كنت لأقصر سيادتَه على الحكام، دون سائر الأنام، لولا اتصالُهم بسببه، واتّسامُهم بلقبه، وهبهم مطفّلين على قسمه، مغيرين على اسمه[2]، أهُمْ في الصحة أدِيم كأديمه، أو قديمٌ في الشرفِ كقديمه، أو حديث في الكرم كطريفه؛ فهنيئاً لهم الأسماء، وله المعاني، ولا زالت لهم الظواهرُ، وله الجواهر؛ ولا غرْوَ أن يسمَّوْا قضاة، فما كلُّ مائع ماء، ولا كلّ سَقْفٍ سماء، ولا كلّ سيرة عدل العمرين، ولا كلّ قاضٍ قاضي الحرمَيْن، ويالثارات القضاء! ما أرخص ما بِيـــع، وأسرع ما أضيع! والسنّة الإنذار، قبل خلوّ الدّيار، وموت الخيار، ألّا يغاروا لحلى الحسناء، على السوداء؛ ومركب أولِي السياسة، تحت النّاسة، ومجلس الأنبياء من تصـــدّر الأغبياء، وحمى البزاة من صَيْد البغاثِ، ومرتع الذكور من تسلّط الإناثِ. ويالِلرجال، وأين الرجالُ! ولي القضاءَ من لا يملكُ من آلاته غير السِّبالِ، ولا يعرف من أدواته غير الاعتزال[3]، ولا يتوجّه في أحكامه إلا إلى الاستحلال، [ولا يرى التفرقة إلا في العيال][4]، ولا يُحسِنُ من الفقه غير جمع المال، [ولا يتقن من الفرائض إلا قلّة الاحتفال،

---

(١) الرسائل: ١٠٣. (٢) طفل وتطفل بمعنى، وفي ط: وهم مطفلون ... مغيرون.
(٣) في الرسائل: الاختزال. (٤) من ا.

وكثرة الافتعال][١] ، ولا يدرس من أبواب الجدال إلّا قبيح الفعال ، وزُورَ المقالِ، ذاك أبو بكر القاضي ، أضاعَه اللهُ كما أضاع أمانتَه ، وخانَ خزانته ، ولا حاطَه من قاضٍ في صَوْلةِ جندي ، وسبلة كردي[٢] ... إلى أن قال: أيكفي أن يُصبِحَ المرء بين الزقّ والعودِ ، ويمسي بين موجباب الحدود ، حتى يكمل شبابه ، وتشيب أترابه . ثم يلبس دنيّته ، ليخلع دينيّته ، ويسوى طيلسانه ، ليحرف[٣] يده ولسانه ، ويقصر سِبَالَه ، ليطيل حباله ، ويظهر شقاشقه ، ليستر[٤] مخارقه ، ويبيّض لحيته ، ليسوّدَ صحيفته ، ويبدى ورَعه ، ليخفى طمعه ، ويغشى محرَابه ، ليملأ جِرَابه، ويكثر دُعاءه، ليحشوَ وعاءه ، ثم يخدم بالنهار أمعاءَه ، ويعالج بالليل وجعاءَه، ويرجو أن يخرج من بين[٥] هذه الأحوال عالما ، ويقعد حاكماً ؟ هــذا إذا المجد كالُوه بقفزان ، وباعوه في سوق الخسران ! هيهات حتى يَنْسَى الشهواتِ، ويَجُوب الفَلَوَات ، ويمتضد[٦] المحابرَ ويحتَضِن الدفاتر ، وينتج الخواطر ، ويُحالف الأسفار ، ويمتاد[٧] القِفار ، ويصل الليلة باليوم ، ويعتاض السهرَ من النوم ، ويحمل على الروح ، ويجنى على العين ، وينفق من العيش ، ويخزن في القلب ، ولا يستريح من النظر إلّا إلى التحديق[٨] ، ولا من التحقيق إلّا إلى التعليق ؛ وحاملُ هذه الكلف إنْ أخطأه رائدُ التوفيق ، فقد ضلّ سواءَ الطريق ، وهذا الحيرى رجل قد شغله طلبُ الرياسة عن تحصيل آلاتها، وأعجله حصولُ الأمنية عن تمحل[٩] أدواتها :

والكَلْبُ أحسنُ حالةً   وهو النهاية في الخَسَاسَهْ

ممّنْ تَصَدّى للريا   سةِ قبل إبّانِ الرياسه[١٠]

فوُلّى المظالم وهو لا يعرِفُ أسرارَها ، وحَمَل الأمانةَ وهو لا يَدْرى مقدارَها ؛ والأمانةُ عند الفاسق خفيفةُ المحمل على العاتق ، تشفق منها الجبال، ويحملها الجهّال،

---

(١) ليس في ا . (٢) في ا : تركى . (٣) في ا : ليخرب . (٤) في ا : ليغطى .
(٥) في ا : تنى . (٦) في الرسائل : ويمتص . (٧) في ا : ويقتات .
(٨) في ا : إلى التحقيق، ولا من التحليق . (٩) في ا : تنخل . (١٠) في ا: السياسة .

وقعد مَقْعَد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بين حديثه يروى ، وكتاب الله يُتلى ، وبين البينة والدعْوَى ، فقبّحه اللهُ تعالى من حاكمٍ لا شاهِد عنده أعدل من السلة والجام ، يُدْلَى(١) بهما إلى الحكّام ، ولا مزكى أصدق لديه من الصُّفر ، ترقص على الظافر ، ولا وثيقة أحبُّ إليه من غمزات الخصوم على الكيس المختوم ، ولا كفيل أوقع بوفاقه من خبيئة الذَّيل ، وحمال الليل ، ولا وكيل أعزَّ عليه من المنديل والطبق ، في وقت الغَسَق والفلَق ، ولا حكومة أبغض إليه من حكومة المجلس ، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المُفْلِس ، ثم الويل للفقير إذا ظُلم ، فما يغنيه موقف الحكم إلا بالقَتْل من الظالم ، ولا يجيره مجلس القضاء إلا بالنار من الرَّمْضَاء . وأقسم لو أنّ اليتيم وقف بين أنياب الأسود ، بل الحيات السُّود ، لكانت سلامتُه منهما أرجى من سلامته إذا وقع من هذا القاضي بين عَقَاربه وأقاربه ؛ وما ظنُّ القاضي بقومٍ يحملونَ الأمانةَ على مُتُونهم ، ويأكلون النارَ في بطونهم ، حتى تتغلظ قصَراتهم(٢) من مال اليتامى ، وتسمن أكفالُهم من مال الأيامى ، وما رأيه في دار عمارتُها خرابُ الدور ، وعُطْلَة القدور ، وخَلاَء البيوت ، من الكسوة(٣) والقوت ، وما قولُه في رجل يُعَادِي الله في الفَلْس ، ويبيعُ الدّين بالثمن البخْس ، وفي حاكم يبرُز في ظاهر أهل السَّمْتِ ، وباطن أصحاب السبتِ ، فِعْلُه الظلمُ البَحْت ، وأكله الحرام السُّحْت ، وما قولُه في سوس لا يقع إلا على صوف الأيتام ، وجرادٍ لا يقع إلا على الزرع الحرام(٤) ، ولصّ لا ينقب إلا خزانة الأوقاف ، وكردى لا يُغِيرُ إلا على الضعاف ، وليث لا يفترِسُ عبادَ الله إلا بين الركوع والسجود ، وخارب(٥) لا ينهب مالَ الله إلا بين العهودِ والشهود .

وصف العلم

وذكر في هذه الرسالة فصلًا في ذِكْر العلم وهو مستطرف البلاغة ، مستعذب وليد البراعة ، قال(٦) :

---

(١) في ا : يولى . (٢) القصرة : أصل العنق . (٣) في ا : الكسرة .

(٤) في ا : زرع الغرام . (٥) في ط : ومحارب . (٦) الرسائل : ١٠٥ .

والعلم – أطال الله بقاءَ القاضي – شيء كما تعرِفُه ، بعيد المرام ، لا يُصَادُ بالسهام ، ولا يُقْسَمُ بالأزلام ؛ ولا يُرَى في المنام ، [ولا يُضْبَط باللجام ، ولا يُورَثُ عن الأعمام ، ولا يكتب للئام][1] ، وزَرْع لا يَزْكُو ، حتى يصادِفَ من الحَزْم ثَرَى طيباً ، ومن التوفيق مطرا صَيِّبا ؛ ومن الطبع جوّا صافيا ، ومن الجهد روحاً دائما ، ومن الصبر سقيا نافعا ، والعلم علق لا يباع ممن زاد ، وصَيْدٌ لا يألف الأوغاد ، وشيء لا يُدْرَكُ إلا بنَزْع الروح ، وعوْن الملائكةِ والرّوح ، وغَرَضٌ لا يصابُ إلا بافتراش المدَر ، واتّساد[2] الحجَر ، وردّ الضجَر ، وركوب الخطَرِ ، وإدْمَان السهر ، واصطحاب السفر ، وكَثْرة النظَرِ ، وإعمال الفِكر ، ثم هو ممتاص إلا على من زكا زَرْعه ، وخلا ذَرْعه[3] ، [وكرم أصْله وفرْعه ، ووَعى بصره وسمعه][1] ، وصفا ذهنه وطبعُه ، فكيف ينالُه من أنفق صِباه على الفَحْشاء ؛ وشبابَه على الأحشاء ، وشغل نهاره بالجمع وليلَه بالجماع ، وقطع سَلْوتَه بالغنى ، وخَلْوتَه بالغناء ، وأفرغ جده على الكيس ، وهزله في الكأس ؛ والعلم ثمرٌ لا يصلح إلا للغَرْس ، ولا يغرس إلا في النفس ، وصيد لا يقع إلا في النزر ، ولا ينشب إلّا في الصدر ، وطائر لا يخدعه إلّا قَنَص اللفظ ، ولا يعلقه إلّا شَرَكُ الحفظ ، [ولا ينشب إلّا في الصدر ،][4] وبحرٌ لا يخوضُه الملّاح ، ولا تطيقه الألواح ، ولا تهيجه الرياح ، وجبَلٌ لا يتسنّم إلا بخُطا الفِكرِ ، وسماء لا يُصعَد إلا بمِعْرَاج الفَهْم ، ونَجْمٌ لا يلمس إلا بيَدِ الجِد .

ومن مفردات الأبيات في المعايب والمقابح

قول أبي تمام[5] :

مَسَاوٍ لو قُسِمْنَ على الغَوَاني لما أُمْهِرْنَ إلّا بالطلاقِ

(١) ساقط من ا . (٢) في ط : واستناد . (٣) في ا : درعه .

(٤) من ا . (٥) ديوانه : ٤٠١ .

آخر :

قومٌ إذا جَرَّجَانٍ مِنْهُم أَمِنُوا من لُؤْمِ أحسابهم أن يُقتلوا قَوَدا

البحترى :

نبافى يدى وابن اللئيمة وَاجِدٌ[1] ويَنْبُو الخبيثُ الطَّبْعِ وهو صَقِيلُ

ابن الرومى ، فى رجل يعرف بابن رمضان :

رأيتك تدَّعِى رمضان دعوى وأنتَ نظيرُ يومِ الشَّكِّ فيهِ

وله فى أعمى :

كيف يَرْجُو الحياء منه صديقٌ ومكانُ الحياء منه خَرابُ

غيره :

هو الكَلْبُ إلَّا إنَّ فيــه ملالةً وسُوءَ مُرَاعاةٍ وماذَاكَ فى الكَلْبِ

آخر :

أبا دُلَفَ يا أكْذَبَ الناسِ كلّهم سِوايَ فإنى فى مديحك أكذبُ

أبو الفضل الميكالى :

هو الشَّوْكُ لا يعطيك وافرَ مثَرِ يدَ الدَّهْرِ إلّا حين تَضْرِبُه جَلْدا

[اللحن وتعلم العربية]

قال المأمون لبعض وَلَدِه وسمع منه لَحْنا : ماعلى أحدِكم أن يتعلّمَ العربية ، فيقيم بهـا أوَدَهُ ، ويزيّنُ بها مَشْهَدَه ، ويفلّ حُجَجَ خَصْمه بحسْ كتاب حكمه ، ويملك مَجْلِس سُلْطانه ، بظاهرِ بيانه ؛ ليس لأحدِكم أن يكونَ لسانُه كلسان عبدِه أوأمته ، فلا يزالُ الدهرَأسيرَ كلمته .

وقال رجلٌ للحسن البصرى يأبو سعيد ، قال : كَسْبُ الدراهم شغلكَ أن تقولَ يا أبا سعيد . ثم قال : تعلّموا العلم للأديان ، والنحوَ للسان ، والطبَّ للأبدان .

---

(١) فى ا : واحد .

وكان الحسن كما قال الأعرابي وسمع كلامه : والله إنه لفصيحٌ إذا لفظ ، نصيحٌ إذا وَعظ . وقيل له : يا أبا سعيد ، ما نَراكَ تلحن ، قال : سبَقْت اللحن . أخذه أبو العتاهية، وقيل له : إنك تخرج في شعرك عن العروض، فقال: سبقت العروض. وقال إسحاق بن خلف البهراني :

النحو يصلح[1] من لسانِ الألْكَن ... والمرء تُعْظِمُه[2] إذا لم يلحنِ
فإذا طلبت من العلوم أجلَّها ... فأجلُّها منهـا مقيمُ الألْسُنِ

وقال عليّ بن بَسّام :

رأيتُ لسانَ المَرْء رائدَ عِلْمِهِ ... وعنوانَه فانظُرْ بماذا تُعَنْوِنُ
ولا تَعْدُ إصلاحَ اللسانِ فإنهُ ... يخبّر عما عنده ويبين
على أن للإعراب حَدًّا وربما ... سمعت من الإعراب ماليس يحسُنُ
ولا خيرَ في اللفظِ الكريهِ استماعُه ... ولا في قبيحِ اللَّحْنِ والقصد أزْيَن

وقال بعضُ أهل العصر ، وهو أبو سعيد الرستمى :

أفِي الحقّ أن يُعْطَى ثلاثون شاعراً ... ويحرَم ما دونَ الرّضا شَاعِرٌ مثلى
كما سامحوا عمْرًا بواوِ زيادةٍ ... وضُويِقَ بسم الله في ألِفِ الوَصْلِ

أبو الفتح البستى :

حُذِفْتُ وغيرى مثبَتٌ في مكانِهِ ... كأنّى نونُ الجمعِ حين يُضَاف

وقال :

أفْدِي الغزالَ الذى في النّحْوِ كلّمنِى ... مُنَاظِراً فاجتليت الشّهدَ من شفَتِهْ
فأوردِ الحججَ المقبولَ شاهدها ... محققاً ليريني فَضْلَ معرفَتِهْ
ثم اتفقتُ على رَأْيٍ رضيتُ بهِ ... والرفع من صِلَتى والنصب من صفته[3]

الحسن اللحام :

أنا من وجوهِ النحوِ فيكم ... ومن اللغاتِ إذا تُعَدُّ المُهْمَل

---

(١) في ا : يبسط . (٢) في ا : تكرمه .
(٣) في ط : * النصب من صفتى والرفع من صفته *

[الشوق والتفدية ، ووصف الحسان]

وقال أحمد بن يوسف :

الغلام من ولد أنو شروان

كتب غلامٌ من ولد أنوشروان ممن كان أحد غلمان الديوان ، إلى آخر منهم وكان قد علق به ، وكان شديدَ الكَلَف به والمحبّة له : ليس من قَدْرِى ـ أدام الله سعادتك ـ أن أقولَ لمثلك جُعِلْتُ فِدَاك ؛ لأنى أراك فوقَ كلِّ قيمة خطيرة ، وثمن مُعْجِز ، ولأنَّ نفسى لا تُسَاوِى نفسك ، فَتُقْبَل فى فِدْيتك ، وعلى كل حال ؛ فجعلنى اللهُ فِدَاء ساعة من أيامك ؛ اعلم أيها السيد العلىُّ المنزلة ، أنه لو كان لمَبْلوك من شدة الخطب أمرٌ يقِفُ على حدّه النعت ، لا جتهدنا أن يضعِفَ من ذلك ماعسى أن يعطف به زِمَام قَلْبِك ، وتحنو على الرّقة والتحفّى أثناء جوانحك ، ولكن الذى أمسيت وأصبحت ممتحَنا به فيك شسع على[1] كل بيان ، ونزح عَنْ كلِّ لسان ؛ والحب أيها المالك لم يَشُبْه قَذَى ريبة ، ولم يختلط به قلب معَاب ، فلا ينبغى لمن كرمت أخلاقُه أن يعاف مقاربَة صاحبه المدل بحرمة نيته ، والذى أتمناه أيها المولى اللطيف مجلس أقف فيه أمامك ، ثم أبوح بما أضنى جسدى ، وفتّ كبدى ، فإن خفّ ذلك عليك ورأيت نشاطا من نفسك إليه كنتَ بكن فك أسيراً وأبرأ عليلا ، ومن الخير سلك سبيلا ، يتوعّرُ سلوكُها على مَنْ كان قبله ، ومَنْ يكون بعده ؛ ثم أضاف إلى ذلك منّةً لا يُطيقها جَبَلٌ رَاسٍ ، ولا فلك دائر ، فرأيك أيها السيد والمعتمد فى الإسعاف ، قبل أن يندرَنى[2] الموتُ ؛ فيحول بينى وبين ما نزعت إليه النفس مواصلا برّا إن شاء الله تعالى .

الجواب عليه

فأجابه: تولّى اللهُ تعالى ما جرى به لسانك بالمزيد ، ولا أوْحش ما بيننا بطائر فُرْقَة ؛ ولا صافر[3] تشتّت ، وضمّنا وإياك فى أوثق حبالِ الأُنس ، وأوكد أسبابِ الأُلفة ؛ وقفت على ما لخصته من العجز عن بلوغ ما خامرَ قلبك ، وانطوى فى ضميرك ، من الشّغَف المقلق ، والهوى المضرع ، ولعمرى لو كشَفْتُ لك عن مِشْار ما اشْتَمل عليه مضمر صدرى لأيقنت أنّ الذى عندك إذا قسْتَه إلى ما عندى كالتلاشى البائد ،

(١) فى ط : منع من . (٢) فى ط : يندرنى . (٣) فى ط : حافر .

ولكنك بفضل الإنعام سبقتنا إلى كشف ما فى الضمير . وأما طاعتى لك ، وذمامى إليك فطاعةُ العبد المُقتنَى ، الطائع لما يحكُم له وعليه مولاه ومالكه ، وأنا صائرٌ إليك وقتَ كذا ؛ فتأهّبْ لذلك بأحسن عافية ، وأتمّ عُقدة[1] ، وأسعَد نجم جرى بالألفة إن شاء الله تعالى .

لبعض الكتاب — وكتب بعض الكتّاب : إنى لأكرَهُ أنْ أفديك بنفسى استحياء من التقصير فى المعاوضة ، ومن التخلّف فى الموازنة ، وعلى الأحوال كلّها ، فقدّم اللهُ رُوحى عنك ، وصاننى عن رُؤْية المكروه فيك .

للمتنبى — وقال المتنبى[2] :

فدًى لك من يُقصّر عن مَدَاكا[3] فلا مَلِكٌ إذَنْ إلا فِدَاكا
ولو قلنا فِدًى لك من يُسَاوِى دَعَوْنَا بالبقاء لمَنْ قَلاكا
وآمَنَا فِدَاءَك كلَّ نفْسٍ وإنْ كانت لمملكةٍ مِلاكا

[وقال عبيد الله بن شبيب : كتب إلىّ بعض إخوانى من أهل البصرة كتابا ملح فيه وأوجز ؛ وهو : أطال الله بقاءك كما أطال جفاءك ، وجعلنى فداك إن كان فىّ فداؤك .

كتبتُ ولو قدرتُ هوًى وشوقا إليك لكنت سطراً فى كتابى][4].

وكتب آخر إلى إبراهيم وأحمد ابنى المدبّر ، وقد أصابتهما مِحْنةٌ ثم أردفتها نعمة : لو قُبلت فيكما ، ودانيتُ قدريكما ، لقلت : جعلنى الله فداكما ، ولكنى لا أجزى عنكما ، فلا أقبل بكما ، وقد بلغتنى المحنة التى لومات إنسان غمًّا بها لكنته] ، ثم اتصلت النعمة التى لو طار امرؤ برحابها لكنته][4] وكتب تحته :

وليس بتزويق اللسانِ وصَوْغِه ولكنّه قد خالط اللّحْمَ والدّما

لابن ثوابة — وكتب ابن ثَوَابة إلى عبيد الله بن سليمان يعتذرُ فى تَرْك مكاتبته بالتفدية[5]

---

(١) فى ط : عافية . (٢) ديوانه : ٢ — ٣٨٥ . (٣) فى ا : نداكا .
(٤) من ا . (٥) فى ط : فى التعزية ، والصحيح من ا .

[الله يعلم ، وكفى به عليما ، لقد وددت مكاتبتك بالتفدية][1] ؛ فرأيت عيبا أن أفديك بنفسٍ لابدَّ لها من فَنَاء ، ولاسبيلَ لها إلى بَقَاء ، ومَنْ أظهر لك شيئاً وأضمر لك خِلافَه فقد غشّ ؛ والأمر إذا كانت الضرورةُ تُوجبُ أنه ملقٌ[2] لايحقق ، وإعطاء لايتحصّل ، لم يجب أن يخاطبَ به مِثْلك ، وإن كان عندقومٍ نهايةً من نهايات التعظيم ، ودليلا من دلالات الاجتهاد ، وطريقاً من طرق التقرّب .

قال الزبير بن أبي بكر : قال لي مسلمة بن عبد الله[3] بن جُنْدَب الهُذَلي : خرجت أريدُ العقيق[4] ومعي زَيّان[5] السوّاق ؛ فلقينا نسوة فيهن امرأةٌ لم أرَ أجملَ منها فأنشدت بيتين لزَيّان :

ألَا ياعبادَ الله هــذا أخوكمُ قتيلٌ فهل فيكم له اليوم ثائرُ[6]
خُذُوا بدمي ، إن متُّ ، كلَّ خريدةٍ مريضةِ جَفْنِ العين والطَّرْفُ ساحِرُ

ثم قال : شأنك بها يابنَ الكرامِ فالطلاقُ له لازمٌ إن لم يكن دَمُ أبيك في نقابها . فأقبلت عليَّ وقالت : أنت ابن جندب ؟ فقلت : نعم . قالت : إن قتيلنا لايُودَى ، وأسيرنا لايفدى ، فاغْتَنِمْ لنفسك ، واحتسب أباك .

لرجل من فزارة

قال أبو عبيدة : قال رجُل من فَزَارَة لرجل من بني[7] عذرة : تعدُّونَ موتكم من الحبّ مزية ، وإنما ذاك من ضَعْف البِنْيَة ، وعَجْز الروية . فقال العذري :

أما إنكم لورأيتم المحاجرَ البُلْج[8] ، ترشق بالأعين الدُّعْج[9] ، فوقها الحواجبُ الزُّجّ[10] ، [وتحتها المباسم الفُلْج[11]] ، والشِّفَاهُ السُّمْر ، تفترّ عن الثنايا الغُرّ ، كأنها

(١) من ا . (٢) في ا : ملق .
(٣) في ط : مسلم بن عبيد الله . (٤) العقيق : موضع بالقرب من المدينة .
(٥) في ا : ريان . (٦) ثائر : مطالب بدم القتيل . (٧) في ا : من عذرة .
(٨) البلج : جمع أبلج ، وهو المشرق . (٩) الدعج : جمع دعجاء ، وهي العين يشتدفيها البياض مع السواد . (١٠) الزج : جمع أزج ، وهو الحاجب الدقيق . (١١) الفلج : جمع أفلج ، وهو مابين أسنانه تباعد ، وما بين القوسين ساقط من ا .

بَرَدِ[١] الدَّرِّ ، لجعلتموها اللّات والعُزّى ، ورفضتم الإسلام وراء ظهوركم .

لأعرابي في وصف الحسان

وقال أعرابي : دخلتُ بغداد فرأيتُ فيها عيونا دُعْجاً ، وحواجبَ زُجّاً ، يسحَبْنَ الثياب ، ويَسْلُبْنَ الألباب .

وذكر أعرابي نساء فقال : ظمائن في سوالفهن طول ؛ غير قبيحات العُطول[٢] ، إذا مشَيْنَ اتّعلْنَ[٣] الذيول ، وإن رَكِبْنَ أثقلْنَ الحمول .

ووصف آخر نساء فقال : يتلثّمن على السبائك ، ويتّشِحْنَ على النيازك[٤] ، ويتّزِرْن على العَوَاتِك[٥] ، ويرتفقن على الأرائك ، ويتهادَيْن على الدَّرَانك[٦] . ابتسامُهن وَمِيض ، عن ثَغْرٍ كالإغريض[٧] ، وهن إلى الصِّبا صُور[٨] ، وعن الخنا حُور[٩] .

الهوى

سئل بعضُ الحكماء عن الهوى ، فقال : هو جليسٌ مُمْتِع ، وأليف مُؤْنِس ، أحكامه جائزة[١٠] ، ملكَ الأبدانَ وأرواحها ، والقلوبَ وخواطرها ، والعيونَ ونواظرَها ، والنفوسَ وآراءها ، وأعطىَ زمام طاعتها ، وقيادَ مملكتها ، توارَى عن الأبصار مَدْخَلُه[١١] ، وغمض عن القلوب مَسْلَكه .

وسئلت أعرابيةٌ عن الهوى فقالت : لامُتّع الهوَى بملكه ، ولا مُلّي بسلطانه ، وقبض الله يدَه ، وأوْهَن عَضُده . فإنه جائر لاينصف في حكم ، أعمى ما ينطقُ بعدل ، ولا يقصر في ظلم ؛ ولا يَرْعَوِي لِلَوم ، ولا ينقادُ لحقّ ، ولا يبق على عقل ولا فهم ، لو ملك الهوى وأطيع لردّ الأمورَ على أدبارها ، والدنيا على أعقابها .

---

(١) في ا : سرد . (٢) العطول : التجرد من الحلى . (٣) في ط : أسبلن .

(٤) النيازك : جمع نيزك وهو الرمح القصير ، يصف النساء بدقة الخصور .

(٥) قال في القاموس : يقال : اتّزر به وتأزّر به ، ولاتقل : اتزر ، وقد جاء في بعض الأحاديث . ولعله من تحريف الرواة . (٦) الدرنوك والدرنك : ضرب من الثياب أو البسط ، وفي ط : الدوانك . (٧) الإغريض : ماينشق عنه الطلع من الحبيبات البيض .

(٨) صور : مائلات وفي ا : عن الصبا . (٩) حور : مائلات ، وفي ا : وعن الحيا .

(١٠) في ط : جائرة . (١١) في ط : مدركه .

ووصف أعرابي الهوى فقال : هو دَاءٌ تَدوَى به النفوسُ الصِّحَاح ، وتسيل منه الأرواح ، وهو سقم مكتتم ، وجَمْر مُضْطَرِم ؛ فالقلوبُ له منضجة ، والعيون ساكبة[1] .

أحب دون قدره

قال أبو عبيد الله[2] محمد بن عمران المرزباني : أخبرني المظفر بن يحيى قال : أحبّ رجلٌ امرأةً دونه في القَدْر ، فعذَله عمّه ، فقال : ياعمّ ، لاتَلُمْ مُجْبَرا على سقمه؛ فإن المقر على نفسه مستغْنٍ عن منازعةِ خَصْمِه ، وإنما يُلام من اقترف ما يقدر على تركه، وليس أمرُ الهوى إلى الرأى فيملكه، ولا إلى العقل فيدبره؛ بل قُدْرَتُه أغلبُ، وجانِبُه أعزّ من أن تنفذ فيه حيلةُ حازم ، أو لطف محتال .

امرأتين في عتاب

وقال بعضهم : رأيت امرأتين من أهل المدينة تعاتِب إحداهما الأخرى على هوًى لها ، فقالت : إنه يقال في الحكمة الغابرة[3] ، والأمثال السائرة : لا تلومنّ من أساء بك الظنّ إذا جعلتَ نفسَك هدَفا للتهمة ، ومن لم يكن عوْنا على نفسه مع خصْمه لم يكن معه شيء من عقدة الرأى ، ومن أقْدَم على هَوًى وهو يَعلمُ ما فيه من سوء الغبّة سلط على نفسه لسانَ العَذْلِ ، وضيع الحَزْم. فقالت المعذولة : ليس أمرُ الهوى إلى الرأى فيملكه ولا إلى العقل فيدبره ، وهو أغلب قدرةً ، وأمنع جانباً من أن تنفذ فيه حيلة[4] الحازم ؟ أو ما سمعت قول الشاعر[5] :

ليس خطبُ الهوَى بخطْبٍ يسير ... لا ينبّيك عنه مثلُ خَبِير

ليس أمرُ الهَوى يدبر بالرأ ... يِ ولا بالقياس والتفكير

إنما الأمرُ في الهوى خطراتٌ ... محدثاتُ الأمورِ بَعْدَ الأمور

قال المرزباني : أخبرني الصولي أنّ هذه الأبيات لعُلَيّة بنت المهدى ولها فيها لَحْن .

---

(١) في ط : ساكبة . (٢) في ط : قال عبيد الله . (٣) في ا : العابرة .
(٤) في ط : رأى الحازم . (٥) شاعرات العرب : ٢٣١ — لعلية بنت المهدى .

التعرض للحب

وقيل لعبد الله بن المقفع : ما بالُ العاقل المميِّز الذهن ، واللبيب الفطن ، يتعرض للحب وقد رأى منه مواضعَ الهَلَكة ، ومصارعَ التَلَف ، وعلم ما يؤول إليه عُقْبَاه ، وترجح به أُخراه على أُولاه ؟ فقال: زُخْرِفَ ظاهرُ العشق بجمال زينة يستدعي القلوب إلى ملامستها ، ومُلِّي بعاجل حلاوة يطبّي النفوسَ إلى ملابسة[1]، كظاهر زخرف الدنيا ، وبهاء رونقها ، ولذيذ جنى ثمرها ، وقد سكرت[2] أبصارُ قلوب أبنائها عن النظر[3] إلى قبيح عيوب أفعالها ، فهم في بلائها منغمسون ، وفي هلكة فتنتها متورّطون ، مع علمهم بسوء عواقب خَطْبها ، وتجرُّع مرارة شربها ، وسرعة استرجاعها ما وهبت ، وإخراجها مما ملكت ، فليس يَنْجُو منها إلا مَنْ حَذِرها ، ولا يهلك فيها إلا من أَمِنها . وكذلك صورةُ الهوى ؛ هما في الفتنة سواء .

[العفاف]

وقال ابن دُرَيد : قال بعضُ الحكماء : أَغْلِق أبواب الشبهات بأفعال الزهادة ، [وافتح أبوابَ البر بمفاتيح العبادة][4] ؛ فإنّ ذلك يُدْنِيك من السعادة ، وتستوجب من الله الزيادة . وقال غيرُه : إن اللذةَ مشوبةٌ بالقُبْح، ففكّروا في انقطاع اللذةِ وبقاء ذكرِ القُبْحِ .

قال أبو عبد الله بن إبراهيم بن عرفة [نفطويه] :

ليس الظريفُ بكاملٍ في ظَرْفِهِ ... حتى يكونَ عن الحرام عفيفا
فإذا تعفّفَ عن محارمِ رَبِّهِ ... فهناك يُدْعَى في الأنامِ ظَرِيفا

وقال :

كم قد ظفرتُ بمن أَهْوَى فيمنَعُني ... منه الحياءُ وخَوْفُ اللهِ والحَذَرُ
وكم خَلَوْتُ بمن أَهْوَى فيُقْنِعُني ... منه الفُكَاهَةُ والتقبيلُ والنَّظَرُ

---

(١) العبارة في ط : يستدعي القلوب إلى ملابسته ، وحلى عاجل حلاوته بطلب النفوس إلى ملابسته . (٢) في ط : ذكرت . (٣) في ط : بالنظر . (٤) ساقط من ا .

أَهْوَى المِلاحَ وأَهْوَى أَنْ أُجالِسَهم ... وليس لى فى حَرَامٍ منهمُ وَطَرُ[1]
كذلك الحبُّ لا إتيانُ معصيةٍ ... لا خيرَ فى لذةٍ من بعدها سَقَر

وقال العباس بن الأحنف :

أتأذنونَ لِصَبٍّ فى زيارتكم[2] ... فعندكم شهواتُ السمعِ والبَصَرِ
[لا يبصر السوءَ إن طالَتْ إقامتُه ... عفّ الضمير ولكن فاسق النظر][3]

وقال بعضُ الطالبيين :

رموْنى وإياهم بشنْعاء هُم بها ... أحقُّ، أَدَالَ[4] اللهُ منهم وعجّلا
بأمرٍ تركناه وربِّ محمدٍ ... جميعا فإما عفةً أو تجمّلا

وقال سعيد بن حميد :

زَائِرٌ زَارَنَا على غَيْرِ وَعْدِ ... مُخْطَفَ الكَشْحِ مُثْقَلَ الأرْدافِ[5]
غالَبَ الخوفَ حين غالبه الشوْ ... قُ وأخفى الهوى وليس بخافِ
غضَّ طَرْفِى عنه تُقَى اللهِ فاخترْ ... تُ على بَذْلِه بقاءَ التَّصافِ
ثم ولَّى والخوفُ قد هزَّ[6] عِطْفَيْـــــــه ولم يَخْلُ مِنْ لِباسِ العَفَافِ

وفى الحديث الشريف : « مَنْ أحبَّ فعفَّ فمات فهو شهيدٌ » . والعفافُ مع البَذْل ، كالاستطاعة مع الفعل[7] ؛ كما قال صريع الغوانى :

وما ذمِّىَ الأيامَ أنْ لَسْتُ حامداً ... لِعَهْدِ لياليها التى سلَفَتْ قبلُ
ألا رُبَّ يومٍ صادقِ العَيْشِ نِلْتهُ ... بها ونَدامَاى العفافةُ والبَذْلُ

وأنشد الصولى لأبى حاتم السجستانى فى المبرّد ، وكان يلزم حَلْقَته ، وكان من المِلاَح وهو غلام :

---

(١) الوطر : الحاجة . (٢) فى ا : فى عيادتكم . (٣) من ا .
(٤) فى ط : أزال . (٥) مخطف الكشح : ضامره . (٦) فى ط : عم .
(٧) فى ط : الفعل .

ماذا لقيتُ اليومَ من ... مُتَمجِّنٍ خَنِثِ الكلامْ[1]
وقفَ الجمالُ بوجْهِهِ ... فسمَتْ له حدَقُ الأنَامْ
حركاتُه وسُكُونُهُ ... يُجنَى بها ثمَرُ الأثامْ[2]
فإذا خلَوْتُ بمثلِهِ ... وعزمْتُ فيه على اعترامْ[3]
لم أعْدُ أخلاقَ العفا ... فِ وذاكَ أوْكَدُ للغرامْ
نفسِي فِدَاؤكَ يا أبا الـ ... ـعباس جَلَّ[4] بك اعتصامْ
فارْحَمْ أخاكَ فإنهُ ... نَزْرُ الكَرَى بادِي السقامْ
وأنِلْهُ مادُونَ الحرا ... مِ فليس يرْغَبُ في الحرامْ

وكان أبو حاتم يتصدّق كلَّ يومٍ بدرهم[5]، ويختم القرآن في كل أسبوع.

وذكر أنه اجتمع أبو العباس بن سُرَيج الشافعي وأبو بكر بن داود العباسي في مجلس علي بن عيسى بن الجراح الوزير، فتناظَرَا في الإيلاء، فقال: يابن سريج[6]: أنت بقولك: «من كثرت لحظَاته دامتْ حسَراته» أبْصَرُ منك بالكلام في الإيلاء.

فقال أبو بكر: لئن قلتَ ذلك فإني أقول:

أنزّه في روْضِ المحاسنِ مُقْلَتي ... وأمْنَعُ نفسي أن تنالَ مُحَرّمَا
وأحمِلُ من ثِقْل الهوَى مالو انّه ... يُصَبُّ على الصّخْرِ الأصَمّ تهدّمَا
وينطق طَرْفِي عن مترجم خاطِري[7] ... فلولا اختلاسِي رَدّهُ لتكلّما
رأيتُ الهوَى دَعْوَى من الناسِ كلِّهم ... فلستُ أرى حبًّا صحيحا مسلّما

فقال أبو العباس: بِمَ تفتخرُ عليّ؟ وأنا لو شئت لقلت:

ومطاعِمٍ للشّهْدِ مِنْ نَغَماتِهِ ... قد بِتُّ أمْنَعُهُ لذيذَ سِنَاتِهِ
صبًّا بحُسْنِ حديثِهِ وكلامِهِ ... وأكرِّر اللحظاتِ في وجَناتِهِ

---

(١) متمجن: كثير المجون، وخنث الكلام: لينه. (٢) في ط: الأنام.
(٣) في ط: اغترام. (٤) في ط: حل. (٥) في ا: بدينار.
(٦) في ط: فقال ابن سريج. (٧) في ا: مقلتي.

حتى إذا ما الصبحُ لاح عمودُهُ ولّى بخاتم ربّه وبرائه

فقال أبو بكر : أصلح الله الوزير ، تحفظ عليه ما قال حتى يقيمَ شاهدَين عدلين أنه ولّى بخاتم ربه ! فقال أبو العباس : يلزمني في هـــذا ما يلزمك في قولك : أنزّه في رَوْض المحاسن مُقْلتي . . . البيت . فضحك الوزيرُ، وقال : لقد اجتمعتُما ظرفا ولُطفا وفَهْما وعلما .

ألفاظ لأهل العصر في محاسن النساء

هي روضةُ الحسْنِ ، وضرّةُ الشمْسِ ، وبَدْرُ الأرض . وهي من وجهها في صباحٍ شَامِس[1] ، ومن شَعْرها في ليل دَامِس[2] ، كأنها فلقة قمَر على بُرْج فضة . بَدْر التم يضيء تحت نِقابها ، وغُصْن البانِ يهتزّ تحت ثيابهـا . ثَغْرُها يجمعُ الضَّرِيب والضرَب[3] ، كأنهُ نثر الدرّ ، كما قال البحتري :

إذا نَضَوْنَ شفُوفَ الرَّيْطِ آونةً قشَرْنَ عَنْ لؤلؤ البَحْرَين أصْدَافا

قد أنبتَ صدرُها ثمرَ الشباب . خرطَتْ لها يدُ الشبابِ حُقّيْنِ من عاج . كأنها البدرُ قُرِّط بالثريّا[4] ، ورِيطَ بها عِقْدٌ من الجوزاء . أعلاها كالغُصْنِ ميّال ، وأسفلُها كالدّعص مُنْهَال[5] ، لها عنُق كإبريق اللُّجَيْنِ ، وسُرّة كمُدْهُن العاجِ . نِطاقُها مُجْدِب، وإزارُها مُخْصِب. مَطْلَعُ الشمسِ من وَجْهِها ، ونَبْت الدرّ من فيها، وملقط الوَرْدِ من خدّها ، ومنبع السّحْرِ من طَرْفِها ، ومبادى الليل من شَعْرِها ، ومغرس الغصن[6] من قدّها ، ومهيل الرّمْلِ من رِدْفِها .

---

(١) شامس : مشمس . (٢) دامس : مظلم . (٣) الضريب : اللبن يحلب من عدة لقاح في إناء ، والضرب : العسل الأبيض . (٤) قرط : ألبس القرط . (٥) الدعص : الكثيب من الرمل . (٦) في ا : ومغرس الحسن .

ولهم في محاسن الغلمان والمعذّرين[١]

زاد جمالُه ، وأقمر هلالُه . ترقرقَ في وجهه ماء الحُسْنِ ، شادنٌ فاترٌ طرْفه ، ساحرٌ لفظُه . غلامٌ تأخذه العَيْن ، ويَقْبَلُه القلبُ ، ويأخذه الطرْفُ ، وترتاح إليه الرّوح . تكادُ القلوبُ تأكلُه ، والعيون تشرَبُه . جرى ماء الشباب في عُودِه فتمايلَ كالغُصْنِ ، واستوفى أقسامَ الحُسْنِ ، ولبس ديباجةَ الملاحة . كأنَّ البَدْرَ قد ركب على أزراره . لا يشبَع منه الناظرُ ، ولا يروَى منه الخاطِر . كاد البدرُ يحكيه ، والشمسُ تُشبِهه وتُضاهيه . . صورة تَجْلُو الأبصار ، وتُخْجِل الأقمار . شادنٌ مُنتقبٌ بالبَدْر ، ومكتَحِلٌ بالسحر . ما هو إلّا نُزْهة الأبصار ، ومُخْجل الأقمار ، وبِدْعَة الأمصار . غمزات طرْفه تُخْبِر عن ظَرْفه ، ومنطقُه ينطقُ عن وَصْفِه . تخالُ الشمسَ تبرقعَتْ غرّته ، والليل ناسب أصداغَه وطُرّتَه . الحُسْنُ ما فوق أزراره ، والطِّيبُ ما تحت إزاره . شادن يَضْحَكُ عن الأقحوان ، ويتنفّسُ عن الريحان . كأنّ خدّه سكرانٌ من خَمْر طرفه[٢] ، وبغداد مسروقةٌ من حُسْنِه وظَرْفه ، أعجمت يدُ الجمالِ نونَ صُدْغِه بخال . هذا محلول من قول ابن المعتز :

غلالة خَدّه صُبِغت بوَرْدٍ	ونونُ الصُّدْغِ مُعْجَمةٌ بخالِ

له عينان حَشْوُ أجفانهما السِّحْرُ ، كأنه قد أعار الظَّبْيَ جِيدَه ، والغُصْنَ قدَّه ، والراح رِيقَه ، والوَرْدَ خدّه . الشَّكل من حركاته[٣] ، وجميعُ الحُسْنِ بعض صفاته . قد ملكَ أزِمّةَ القلوب ، وأظهر حجّةَ الذنوب[٤] ، كأنما وَسَمَه الجمالُ بنهايته ، ولحظَه الفلكُ بعنايته ، فصاغَه من لَيْلِه ونهاره ، وحَلّاه بنجومه وأقماره ، ونقَشه ببدائع آثاره ، ورَمَقَه بنواظر سعُودِه ، وجمله بالجمال أحدَّ حدوده[٥] . قد

---

(١) عذر الغلام : نبت شعر عذاره . وفي ط : فقر في محاسن الغلمان .

(٢) في ط : من خمرة فيه . (٣) الشكل : الدلال .

(٤) أظهر حجة الذنوب : يريد أن جماله حجة على أن المفتون به معذور لا إثم عليه .

(٥) في ط : بالكمال أحد حدوده .

صَبَغَ الحياء غلالَةَ وَجْهِه ، ونُثِر لؤلؤُ العرق عن وَرْدِ خدّه . تكادُ الألحاظُ تسفك من خَدّه دمَ الخجَلِ . له طُرّة كالغَسَقِ ، على غُرّةٍ كالفَلَقِ . جاءنا في غلالة تنمّ على مايستره ، وتخفو مع رِقّتها عما يظهره[1] . وجهٌ بماء الحُسْنِ مغسول ، وطَرْف بمِرْوَد السّحْرِ مكحول . ثغر حُمِيَ حمايةَ الثغور ، وجُمِل ضرّة[2] لقلائد النحور . السحْرُ في ألحاظه ، والشهدُ في ألفاظه . اختلس قامةَ الغُصْنِ ، وتوشّح بِطارفِ الحسنِ ، وحكى الروض غبّ المُزْنِ . الأرضُ مشرقةٌ بنورِ وجهِه ، وليل السّرَارِ في مثل شِعْرِه . الجنةُ مجتناةٌ من قُرْبِه ، وماء الجمالِ يترقرقُ في خدّه ، ومحاسنُ الربيع بين سَحْرِه ونَحْرِه ، والقمرُ فَضْلَةٌ من حُسْنِه. ماهو إلّا خالٌ في خدّ الظّرف، وطِرَازٌ على علم الحُسْنِ ، ووَرْدَةٌ في غُصْنِ الدهر ، ونَقْشٌ على خاتم الملك ، وشمسٌ في فَلَك اللطف . هو قَمَرٌ في التصوير ، شمسٌ في التأثير . منظر يملأ العيونَ ، ويملكُ النفوسَ، زَرافين أصداغه معاليق القلوبِ[3]. كأنّ صُدْغَه قُرْطٌ من المسك على عارِض البَدْرِ . وجهُه عرس، وصدغه مأْتم، ووصله جنة، وهجره جهنم . أصداغُه قد اتخذت شَكْلَ العقاربِ ، وظلمت ظُلْمَ الأقارب . إن كان عقرب صُدْغه تلسع ، فترياق رِيقه يَنْفَع . كأن شاربَه زِئْبِرُ الخزّ الأخضرِ[4] ، وعِذَارُه طراز المِسْكِ والعنْبر [الأذفر][5] ، على الوَرْدِ الأحمر . إذا تكلّم تكشّفَ حِجَابُ الزمرّد والعقيق ، عن سِمْطِ الدرّ الأنيق . قد هَمّ أرقمُ الشَّعْر على شارِبه ، وكاد فم[6] الحُسْن يقبّله . كأنّ العِذَار ينقش فصّ وَجْهِه ، ويحرق فِضّة خدّه. طرّزَ الجمالُ ديباجَ وَجْهِه، وأبانَ عِذَارُه العذرَ في حُبّه . [لعب الربيعُ بخدّه فأنبت البنفسج في وَرْده . لما احترقتْ فضةُ خدّه احترق سواد القلب من حبّه][5].

كيف لا يخضرُّ شاربُه   ومياهُ الحُسْنِ تسقيه

(١) في ط : وتخنو مع رقتها على ما يظهره . (٢) في ط : درة .
(٣) الزرفين : حلقة الباب ، أو عام ، وقد زرفن صدغيه : جعلهما كالزرفين .
(٤) الزئبر : مايظهر من درز الثوب . (٥) من ا . (٦) في ا : وكادت يد الحسن .

ولهم فى نقيض ذلك فى ذمّ خروج اللحية

قد انتقب بالدَّيْجُور ، بعد النور[١]، فدَوْلةُ حسْنِه قد أعرضَتْ أيامه، وانقرضَتْ دَوْلَتُه وأحكامُه . استحال خدُّه دُجا ، وزمرّد خَطّه سُبَجا[٢] ، وأخمدت نارُ حُسْنِه بعد الإيقاد ، ولَبِس عارضُه ثوبَ الحِدَاد . ذَبُل وَرْدُ خدّه، وتشوّك زعفرانُ خطّه. فارقنا خَشْفا ، ووافانا جِلْفا[٣] ، وفارقنا هلالا وغزَالا ، وعاد وبالا ونَكالا . مالى أرى الآباطَ جائشة[٤]، والآنافَ مُعْشِبة، والعيونَ منوّرة، والأزرار مرعى، والأظفارَ حمّى[٥]، واللحى لبودا ، والأسنان خُضْرًا وسُودا .

من رسائل البديع ومقاماته

رسالة إلى بعض من عزل

وكتب إلى بديع الزمان بعضُ من عُزل عن ولاية حسنة يستمدّ ودادَه، ويستميلُ فؤاده ، فأجابه بما نسخته[٦] : وردَتْ رقعتُك أطالَ اللهُ بقاءَك ، فأعرَضْتها طرف التعزّز ، ومددت إليها يدَ التقزز ، وجمعت عليها ذَيْلَ التحرُّز ، فلم تند على كبدى ، ولم تحظَ بناظرى ويدى ، ولقد خطبت من مودّتى مالم أجدْك لها كفيًا ، وطلبت من عِشْرتى مالم أرك لها رضيًا ، وقلت : هذا الذى رفع عنّا أجفانَ طَرْفِه ، وشال بشمرات أنفه ، وتاه بحُسْنِ قدّه ، وزها بوَرْد خدّه ، ولم يسقِنا من نَوْئه ، ولم نَسِرْ بضوئه؛ فالآنَ إذْ نسخ الدهرُ آيةَ حُسْنِه ، وأقام مائل غُصْنِه، وفلّل[٧] غَرْب عُجْبِه، وكفَّ شأو زهوه ، وانتصر لنا منه بشمرات قد كسفت هلاله ، وأكسفَتْ باله ، ومسخَتْ جماله ، وغيّرتْ حاله ، وكدّرَتْ شِرْعته ، ونكّرت طلْعته ، جاء يستق من جرفنا جَرفا ، ويغرف من طيقتنا غرْفا ، فمهلا يا أبا الفضل مهلا :

---

(١) الديجور : الظلمة. (٢) السبجة والسبيجة كساء أسود . وفى ط : وزمرد خده. وهذا من ا ، وخط الغلام : نبت عذاره. (٣) الخشف–مثلثة : ولد الظبى . والجلف : الرجل الجاف (٤) فى ط : جاشية . (٥) فى ط : حما . (٦) الرسائل : ٥٧ . (٧) فى ط : وفقأ .

أرغبتَ فينا إذ علا ... ك الشَّعرُ في خدٍّ قحِلْ
وخرجتَ من حدِّ الظبا ... ء وصِرتَ في حدِّ الإبل
أنشأت تطلبُ[1] عِشرتي ... عُدْ للعداوةِ يا خجل

أنسيت أيامك؛ إذ تكلِّمُنا نَزْرًا، وتنظرنا شَزْرًا، وتجالسُ مَنْ حضر، ونسرق إليك النظر، ونهتزّ لكلامك، ونهش لسلامك:

فمَنْ لكَ بالعينِ التي كنتُ مرةً ... إليك بها في سالفِ الدهرِ أنظرُ

أيام كنت تمايل والأعضاء تتزايل، وتتمايَج والأجسادُ تتفالَج، وتتفلّت والأكباد تتفتّت، وتخطر وترفل، والوَجْدُ بنا يعلُو ويسفل، وتُدْبِر وتُقْبِل، فتمشي وتخبل[2]، [وتصد][3] وتُمْرِض، فتمشي وتمرض:

وتبسِم عن ألمَى كأنَّ مُنوِّرًا ... تخلل حرَّ الرمل دِعْصٌ له ند

فأقصِرْ الآنَ فإنه سوقٌ كَسَد، ومتاعٌ فَسد، ودولة أعرضت، وأيام انقضت:

وعهد نِفاق مضَى ... وسوق كسادٍ نزَلْ
وخدٌ[4] كأنْ لم يكُنْ ... وخطٌ كأن لم يزَلْ

ويوم صار أمس، وحسرة بقِيَتْ في النفس، وثغر غاضَ ماؤه فلا يرشف، وريق خدع فلا ينشف، وتمايُل لايعجب، وتثنٍّ لايطرب، [ووجه زال بهاؤه][5]، ومُقلة لا تجرح ألحاظها، وشفةَ لاتفتن ألفاظها، فحتّام تُدِلّ، وإلامَ تحتملُ وعلام؟ وآن أن تذعِن الآن، وقد بلغني ما أنتَ متَعاطيه من تمويه يجوز بعد العِشاء في الغَسَق، وتشبيه يفتضحُ عند ذوي البصر والصدق، من إفنائك لتلك الشعرات حفًا وحَصًا، وإنحائك عليها نتفًا وقصًا. وسيكفينا الدهرُ مؤنة الإنكار عليك بما يزفّ من بنات الشعر وأمهاته

(١) في ط: الآن تطلب. (٢) في ط: فتمشي وتخجل. (٣) من الرسائل ١٠.
(٤) في ط: ووجه. (٥) من ا.

إليك ؛ فأما ما استأذنت فيه رأيي من الاختلاف إلى مجلسي فما أقلَّ إليك نشاطي ، وأضيق عنك بساطي ، وأشنع قلق منك ، وأشد استغنائي عن حضورك ، فإن حضرت فأنت دار نَرُوضُ عليه الحلم ، ونتعلم به الصبر ، ونتكلف فيه الاحتمال ، ونغضي منه الجفنَ على قَذى ، ونَطوي منه الصدر على أذى ، ونَجعله للقلوب تأنيبا ، وللعيون تأديبا . ومالك إلا أن تمتاض من الرغبة عنا رغبةً فينا ، ومن ذلك التدالّ علينا تذللا لنا ، ومن ذلك التعالي تَبَصْبُصا ، ومن ذلك التغالي تَرخّصا . وما بالُ الدهر أعقبك من التزايد تنقّصا ، ومن التسحُّب على الإخوان تقمُّصا ، ولئن اعتَضْتَ من الذهاب رُجوعا ، لقد اعتضنا من النزاع نزُوعا ، فأنا بَرَحْلك وجانبك ، ملقٍ حَبْلك على غاربك ، لا أُوثِر قُرْبَك ، ولا أُنْدَه سِرْبك ، والسلام .

من مقاماته المقامة الأسدية

ومن إنشاء بديع الزمان في مقامات الإسكندري ولعلّ مافيها من الطول غير مملول؟ قال[1] : حدثنا عيسى بن هشام قال : كان يبلغني من مقامات الإسكندري ما يُصْغِي له النفور ، ويَنْتَفِضُ له العصفور ، ويُرْوَى لي من شِعْره ما يَمْتَزِج بأجزاء الهواء رِقّة ، ويَغْمُضُ عن أوهام الكهنة دِقّة ، وأنا أسألُ اللهَ بقاءه ، حتى أُرْزَقَ لقاءه ، وأتعجّب من قعودِ همّته بحالته ، مع حُسْنِ آلته ، وقد ضربَ الدهر شؤونه أسدادا[2] وهلمّ جرا . إلى أنِ اتفقتْ لي حاجةٌ بحمص ، فشحَذْتُ إليها الحِرْصَ ، في صُحْبَة أفرادٍ كنجوم الليل ، أَحْلاسِ لظهورِ الخيل[3] ، فأخذنا الطريقَ نَنْتَهِبُ مسافتَه ، ونستأصِلُ شأفَته ، ولم نزَلْ نَفْرِي أسنمةَ النِّجادِ[4] بتلك الجيادِ ، حتى صِرْن كالحِنيِّ ، ورَجَعْنَ كالقِسيّ ، وتاحَ لنـــا وادٍ في سفحِ جبلٍ ذي ألاءٍ وأثْلٍ[5] ، كالمذارى يُسَرّحْن الضفائرَ ، ويَنْشُرْن الغدائر ، فمالتِ الهاجرةُ بنا إليها ، فنزلنا نُغَوِّر

---

(١) المقامات : ٣٢ . (٢) في المقامات : ضرب الدهر شؤونه بأسداد دونه .

(٣) يقال : هم أحلاس الخيل أي ملازمو ركوبها . (٤) نفرى : نقطع ، والنجاد : جمع نجد ، وهو ما ارتفع من الأرض . (٥) تاح : ظهر ، والألاء : شجر دائم الخضرة .

ونَفُور ، وربَطْنا الأفراسَ بالأمْراس(١) ، ومِلْنا مع النُّعاس ، فما راعَنا إلّا صهيلُ الخيول ، ونظرتُ إلى فَرَسي وقد أرْهَفَ أذنيه ، وطمَحَ بعينيه ، يجُذُّ قُوَى الحَبْل بمشافرِه ، ويخُدُّ خدَّ الأرض بحوافرِه ، ثم اضطربت الخيـلُ ، فأرسلت الأبوال ، وقطَّعتِ الحبالَ ، وصار كلٌّ منا إلى سلاحِه ، فإذا الأسدُ في فَرْوَة الموتِ ، قد طلَع من غابِه ، منتفجا(٢) في إهابه ، كاشِرًا عن أنيابه ، بطَرْفٍ قد مُلِئ صلَفا ، وأنْف قد حُشِي أنَفا ، وصَدْرٍ لايبرحُه القلب ، ولا يسكُنُه الرُّعْب ؛ فقلنا خَطْبٌ واللهِ ملِمّ ، وحادِثٌ مهِمّ ، وتبادَرنا إليه من سَرَعان(٣) الرُّفْقَة فتى :

أخضرُ الجِلْدَة من بيْتِ العَرَبْ ... يَملأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الـكَرَبْ

بقَلْبٍ ساقه قَدَر ، وسَيْفٍ كُلُّهُ أثْر(٤) ، فملَكَتْه سَوْرَةُ الأسد ، فخانَتْه أرضُ قدمِه ، حتى سقط لِيَدِه وفمه ، وتجاوزَ الأسَدُ مَصْرَعَه ، إلى مَنْ كان معه ، ودَعا الحَيْنُ أخاه ، إلى مثل ما دَعاه ، فسار إليه ، وعَقل الرُّعْبُ يديه ، فأخذ أرْضَه(٥) ، وافترس الليثُ صدرَه ، ولـكن شغلتُ بعمامتي فمه ، حتى حقَنْتُ دَمه ، وقام الفتى فوَجَأَ بَطْنَه(٦) حتى هَلَكَ من خَوْفِه ، والأسد بالوَجْأةِ في جَوْفه(٧) ، ونهضْنا على أثَر الخَيْل ، فتألَّفنا منها ما ثبَت ، وتركْنا ما أفْلَتَ ، وعُدْنا إلى الرفيق لنجهزَه :

فلما حثَوْنا التُّرْبَ فوقَ رفيقِنا ... جَزِعْنا ولـكِنْ أيَّ ساعةِ مَجْزَعِ

وعُدْنا إلى الفَلاة ، فهبَطْنا أرضَها ، وسِرْنا حتى إذا ضَمُرت المزادُ(٨) ، ونَفِدَ الزادُ ، أو كادَ يُدْرِكُه النَّفاد، ولم نَمْلِك الذهاب ولا الرّجوعَ ، وخِفْنا القاتِلَيْنِ الظمأَ والجوعَ ، عنَّ لنا فارسٌ فصَمَدْنا صَمْدَه ، وقصَدْنا قَصْدَه ، ولما بلَغنَا نَزَلَ عن

(١) الأمراس : الحبال . (٢) المتفج : المتكبر . وفي ط : منتفخا .
(٣) سرعان الناس ــ محركة . أوائلهم المستبقون إلى الأمر ــ ويسكن .
(٤) الأثر ــ بفتح فسكون : جوهر السيف . (٥) أخذ أرضه : كناية عن السقوط .
(٦) وجأ بطنه : شقه . (٧) يريد أن الأسد هلك من شق جوفه كما هلك الفتى من خوفه ، وفي ا : الوجأة . (٨) المزاد : جمع مزادة وهي القربة ، وفي ا : أضمرت .

حاذ فرسه[١] ينقُضُ[٢] الأرضَ بثفَنَتيه، ويلق التراب بيدَيْه، وقصدني من بين الجماعة، فقبَّلَ رِكابي ، وتحرَّم بثيابي[٣] ، ونظرْتُ فإذا وَجْهٌ يبرُق برْقَ العارضِ المتهلّل ، وفرس متى ترق العينُ فيه تسهَّل ، وعارِضٌ قد اخضرّ ، وشاربٌ قد طرَّ[٤] ، وساعِدٌ ملآن ، وقضيب ريّان ، ونجار تركيّ ، وزيّ مَلَكيّ ، فقلت : ما جاء بك ؟ لا أبا لك ! فقال : أنا عبدُ بعضِ الملوك ، همَّ مِنْ قَتْلِي بِهَمّ[٥] ، فهِمتُ على وجْهي إلى حيثُ تراني ؛ وشهِدَت شواهدُ حالِه، على صِدْقِ مقالِه ، ثمّ قال: أنا اليوم عبدُك، ومالي مالُك . فقلت : بُشْرَى لك وبك ، أدّاك سيرُك إلى فِناء رَحْب ، وعيش رَطْب، وهنأتْني الجماعة ، بحسب الاستطاعة ، وجعل ينظرُ فتقتلُنا ألحاظُه ، وينطِقُ فتفتِنُنا ألفاظُه ، والنفس تُناجيني فيــه بالمحظور ، والشيطان من وراء الغرور ، فقال : ياسادة ، إنّ في سَفْح هذا الجبل عَيْناً، وقد ركبتُم فلاةً عَوْراء[٦]، فخذُوا من هنالِكَ الماء ، فلوَيْنا الأعِنّة إلى حيث أشار ، وبلغناه وقد صَهَرَت الهاجرةُ الأبدانَ[٧] ، وركِبت الجنادبُ العيدانَ[٨] ، فقال: ألا تقِيلُون في هذا الظلّ الرَّحْبِ ، على هذا الماء العذب ؟ فقلنا : أنتَ وذاك . فنزل عن فرسه ، ونحّى مِنطقته ، وحَلّ قُرْطُقَته[٩] ، فما استتَرَ عنّا إلا بِغِلالةٍ [تَنِمُّ] على بدَنِه ، فما شكَكْنا أنّه خاصَم الوِلْدَان ، ففارقَ الجِنَان ، وهرَب من رِضْوان، وعمَدَ إلى السروج فحطّها، وإلى الأفراس فحَسَّها[١٠]، وإلى الأمكنة ففرشها ، وقد حارتِ البصائر فيــه ، ووقعت الأبصارُ ، ووَتَد كل منا شيئاً ، وخنث اللفظ ملَقا . وقلت : يافتى ، ما ألطفَك في الخِدْمَة ! وأحسنَك في الجملة ! فالويلُ لمن فارَقْتَه ، وطُوبَى لمن رافقْتَه ، فكيفَ نَشْكُر الله على النعمةِ بك! فقال : ما ستَرَوْنَه أكثَر ، أتُعجبكم خِفّتي في الخِدْمة ، فكيف لو رأيتموني

(١) حاذ الفرس : ظهره ، وفي المقامات : حر ، وفي ا : خال . (٢) في ط : يفلش .
(٣) في ط : بجناني . (٤) طر الشارب : نبت . (٥) الهم : العزم .
(٦) يقال للبادية إذا فقدت ماءها : عوراء . (٧) الهاجرة : حر الشمس .
(٨) إنما تركب الجنادب العيدان إذا اشتد الحر . (٩) القرطق : نوع من الكساء .
(١٠) حس الفرس : ألقى له حشيشا ، وفي ط : خلاها .

فى الرُّفْقَة أُرِيكم من حِذْقِى طُرَفًا ، لتزدادوا بى شَغَفًا ، فقلنا : هاتِ ، فعمد إلى قوس [أحدنا][1] فأوْتَرَه ، وفوّق سَهْمًا فرماه فى السماء ، وأتبعه بآخر فشقّه فى الهواء ، وقال : سأريكم نوعًا آخر ، ثم عمد إلى كِنَانتى فأخذها ، وإلى قَرَسى فعَلاه ، ورمى أحدَنا بسَهم أثبته فى صَدْرِه ؛ وآخر طيّره من ظَهْرِه ، فقلت : ويحك ما تَصْنعُ؟ قال: اسكت يا لُكَعُ ، والله ليشُدّنّ كلّ منكم يَدَ رفيقِه ، أو لأغصّنّه بريقِه ، فلم نَدْرِ ما نصنعُ ، وأفراسُنا مربوطة ، وسُرُوجُنا محطوطةٌ ، وأسلحتُنا بعيدة ، وهو راكبٌ ونحن رَجّالة ، والقوسُ فى يده يرشُقُ بها الظهورَ ، ويَمْشُقُ[2] بها البطونَ والصدورَ ، وحين رأينا منه الجِدّ ، أخذْنا القِدّ[3] ، فشدّ بعضُنا بعضًا ، وبقيت وَحْدى لا أجِدُ من يشدّنى ، فقال : اخرُجْ بإهابِكَ ، عن ثيابك ، ثم نزل عن فرسه ، وجعل يصفَعُ الواحِدَ منّا بعد الآخر ، ويقول : أقِبْ قضيبَك ، نخذ نصيبَك ، [ونزع ثيابه][1] وصار إلىّ وعلىّ خفّان جديدان ، فقال : اخلعهما لا أمّ لك ؛ فقلت : هذا خفٌّ لبِسْتُه رَطْبًا ، فليس يمكننى خلعه ، فقال : علىّ نزعه ، ثم دنا لينزِعَ الخُفّ ، ومدَدْتُ يدى إلى سكّين فيه وهو مشغول ، فأثبتّه فى بطنه ، وأبنتُهُ من مَتْنِه . فما زاد على فمٍ فغَرَه ، وألقَمَه حجَرَه ، وقُمْتُ إلى أصحابى فحَلَلْتُ أيدِيَهم ، وتوزّعنا سلَبَ المقتولَيْن ، وأدركْنا الرفيقَ ، وقد جاد بنفسه ، وصار إلى رَمْسِه ، وصِرْنا إلى الطريق فوردنا حِمْص بعد ليال ، فلما انتهينا إلى فُرْضَةٍ من سُوقِها رأينا رجلا قد قام على رأس ابن وبُنَيّة ، بجِراب وعُصَيّة ، وهو يقول :

رَحِمَ اللهُ من حَشَا ... فى جِرَابى مَكَارِمَهْ
رَحِمَ اللهُ من رَنَا[4] ... لسعيد وفاطِمَهْ
إنّهُ خادِمٌ لكُمْ ... وهْىَ لاشكّ خادِمَهْ

(١) من ا . (٢) المشق : سرعة فى الطعن والضرب . وفى ط : يشق .
(٣) القد : السير من جلد غير مدبوغ يوثق به الأسرى . (٤) فى ط ، والمقامات : رثا .

قال عيسَى : فقلت : إنّ هـذا الرجل هو الإسْـكَندرى الذى سَمِعْتُ به وسألْتُ عنه ، فإذا هو هو ، فدَلَفْتُ إليه ، فقلت له : أحكمك حكمك ، فقال : درهم ، فقلت :

لَكَ دِرهمٌ في مِثْلِهِ ما دامَ يُسْعِدُنى النفَسْ
فاحْسِبْ حِسابَكَ والتَمِسْ كيما تنـال الملتَمَسْ

لك درهم في اثنين ، في ثلاثة ، في أربعة ، في خَمْسة حتى بلغتُ العشرين ، ثم قلت : كم معك ؟ قال : عشرون رغيفاً ، فأمرتُ له بها ، وقلت : لا نصرة مع الخِذْلان ، ولا حِيلَة مع الحِرْمَانِ .

* * *

من غزل أبى فراس

وقال أبو فِرَاس الحَمْدَانى :

سَكِرتُ من لَحْظِه لا مِنْ مُدَامتهِ ومال بالنومِ عن عينى تَمَايُلُه
وما السُّلافُ دَهَتْنِى بل سَوَالِفُه ولا الشَّمولُ دهَتْنِى بل شَمَائِلُه
ألْوَى بصبرىَ أصْدَاغٌ لُوِينَ له وغَالَ عَقْلِى[1] بما تَحْوى غلائِلُه

من غزل ابن المعتز

وقال ابنُ المعتزّ ، وقد تقدّم عنه في هذه الألفاظ[2] :

ويوم فاخِتِى[3] الدَّجن مُرْخٍ عَزَاليه[4] بهطْلٍ وانْهمال
أبَحْتُ[5] سرورَه وظللت فيه برَغْمِ العاذلات رَخِىَّ بَالِ
وساقٍ يجعلُ المنديل منهُ مكان حمائلِ السيفِ الطوالِ
غلالةُ خَدّه صبغَتْ بوَرْدٍ ونونُ الصُّدْغِ مُعْجَمة بخَالِ
بدا والصبحُ تحت الليل بادٍ كطِرْفٍ أبلق مرخى الجلال[6]
بكأس من زجاج فيه أُسْدٌ فرائسهن ألبابُ الرجالِ
أقولُ وقد أخذت الكأس منهُ وقتْكَ السوءَ ربّاتُ الحجالِ

* * *

---

(١) في ا : وغل صدرى . (٢) ديوانه : ٢ — ٧٥ . (٣) في ط : فاحى .
(٤) العزالى : جمع عزلاء ، وهى مصب الماء من الراوية ، وفى الديوان : تهاديه بطل وانهمال .
(٥) في ط : أتحت ، وفى الديوان : ربحت . (٦) الطرف : الكريم من الخيل ، والجلال ، جمع جل ، وهو مايلبسه الفرس .

من النقد

وقد أحسنَ ما شاء في قوله : *فرائسهن ألبابُ الرجالِ* وإن كان أصل المعنى لأبي نواس في ذكر تصاوير الكاس .

قال الصولي : مرّ أبو نواس بالمدائن فعدل إلى ساباط[1] ، فقال بعضُ أصحابه : ندخل إيوان كسرى ؛ فرأينا آثاراً في مكانٍ حسَن تدلُّ على اجتماع كان لقوم قبلنا ، فأقمنا خمسةَ أيام نشربُ هناك ؛ وسألنا أبا نواس صفةَ الحالِ ، فقال[2] :

ودارِ نَدامَى عطّلُوها وأدْلجُوا ... بها أثَرٌ منهم جَديدٌ ودارِسُ
مَساحِبُ من جَرّ الزِّقاق على الثَّرَى ... وأضغاثُ رَيْحانٍ جنِيٌّ ويابِسُ
ولم أدْرِ منهم غيرَ ما شهدَتْ بهِ ... بشرق ساباطَ الديارُ البَسَابِس[3]
حبَسْتُ بها صَحْبي فجدّدتُ شَمْلَهم ... وإني على أمثال تلك لَحابِسُ
أقمْنَا بها يوماً ويوماً وثالثاً ... ويومٌ له يوم الترحُّلِ خامِسُ
تُدَارُ علينا الراحُ في عَسْجديّةٍ ... حَبَتْها بأنواع التصاويرِ فارسُ
قرارَتُها كِسْرَى وفي جنَبَاتها ... مَهًى تدّريها بالقِسِيِّ الفوارسُ
فللراحِ ما زُرّتْ عليها جيوبُها ... وللماء ما دارت عليه القَلانِسُ[4]

وقال علي بن العباس النوبختي : قال لي البحتريّ : أتدري من أين أخذ الحسن قوله : * ولم أدْرِ منهم غير ما شَهِدَتْ به * . . . البيت . فقلت : لا . قال : من قول أبي خراش :

ولم أدر مَنْ ألقَى عليه رِداءه ... سوى أنه قد سُلَّ عن ماجدٍ مَحْض

فقلت : المعنى مختلف . فقال : أما ترى حَذْوَ الكلامِ واحداً ، وإن اختلف المعنى !

قال الجاحظ : نظَرْنا في الشعر القديم والمحدَث فوجدْنا المعاني تُقلَّب ويؤخذ بعضُها من بعض ، غير قول عَنْتَرة في الأوائل[5] :

(١) ساباط : موضع بالمدائن . (٢) ديوانه : ٢٣٢ . (٣) البسابس : القفار .
(٤) في ط : القوانس . (٥) ديوانه : ١٢٣ .

وخلا الذبابُ بها يغنّى وحْدَه ... غَرِدًا كفعْل الشاربِ المترنّم

هَزِجا يَحُكُّ ذراعَه بذراعه ... قَدْحَ المُكِبّ على الزنادِ الأجْذَم

وقول أبي نواس في المحدثين .

قرارتُها كِسرى وفي جنَباتها ... مَهًى تدّريها بالقسيّ الفوارسُ

فللرّاح ما زُرّتْ عليه جيوبُها ... وللماء ما دارتْ عليه القلانسُ[1]

أخذه أبو العباس الناشيء فقال وولّد معنًى زائداً :

ومُدَامةٍ لا يبتغى مِنْ رَبّها ... أحدٌ حَبَاه بها لَدَيْه مَزِيدا

في كأسها صُوَرٌ تُظَنّ لحُسْنِها ... عُربا برزْنَ من الخيام وغِيدَا

وإذا المزاج أثارها فتقسّمت ... ذهباً ودُرّا توْأماً وفريدا

فكأنهن لبِسْنَ ذاك مَجَاسِدا ... وجعلْنَ ذا لِنُحُورِهنّ عقُودا

وأبياتُ أبي خراش[2] ، وكان خراش وعروة[3] غزَوَا ثمالة فأسَروهُما ، وأخذوها[4] ، وهمّوا بقتلهما ، فنهاهم بنو رزام وأبي بنو هلال[5] إلا قَتْلَهما ، وأقبل رجل من بني رزام فألْقَى على خراش رداءه ، وشُغِل القومُ بقَتْل عُرْوة ، وقال الرجل لخراش: انجه ، فنجا إلى أبيه[6] ، فأخبره الخبر ، ولا تعرفُ العرب رجلا مدح مَنْ لا يعرفه غيرُه :

حمِدْتُ إلَهى بعد عُرْوة إذ نَجا ... خِرَاشٌ وبعضُ الشر أهونُ من بعض

فواللهِ لا أنْسى قتيلًا رُزِئْتُه ... بجانب قُوسَى ما مشيتُ على الأرض[7]

بلى إنّها تَعْفُو الكُلُومُ وإنما ... نُوكَّل بالأدنى وإنْ جَلّ ما يَمْضِى

ولم أدْرِ مَنْ ألقَى عليه رِدَاءهُ ... سوى أنه قد سُلّ عن ماجدٍ مَحْضِ

---

(١) في ط : القوانس . (٢) اللآلي ٦٠١ ، وشعراء الهذليين ٢ — ١٥٧ ، وخزانة الأدب ٢ — ٤٠٨

(٣) في ا : وعمه . (٤) في ا : فنذر بهما فأخذوها . (٥) في اللآلي : بنو بلال .

(٦) في ط : وقال الرجل لأبي خراش : انجه فنجا إلى ابنه . (٧) قوسى — بفتح القاف وضمها : موضع ببلاد السراة من الحجاز .

ولم يك مثلوجَ الفؤادِ مهبّجاً … أضاع الشبابَ في الرَّبيلةِ والخَفْضِ [١]
ولكنه قد نَوَّحَتْه مَخَامِصٌ [٢] … على أنه ذو مِرَّةٍ صادقُ النَّهْضِ
كأنهمُ يشَّبَّثون بطائرٍ … خفيفِ المُشَاشِ عَظْمُهُ غيرُ ذي نَحْضِ [٣]
يُبادِرُ فَوْتَ الليلِ فهو مُهَابِذٌ [٤] … يَحُثُّ الجناحَ بالتبسّطِ والقَبْضِ

الربيلة : الخَفْض والدعة ، والمهابذ : المجتهد في العَدْو والطيران .

وقال أبو خراش يرثى أخاه عروة [٥] :

تقولُ أراه بعد عُرْوَةَ لاهياً … وذلك رُزْءٌ لو علمْتِ جليلُ
فلا تحسَبي أنى تناسيتُ عَهْدَهُ … ولكنّ صَبْرِى يا أميمَ جميلُ
ألم تَعْلَمى أنْ قد تَفَرَّقَ قَبْلَنا … خليلا صفاء مالكٌ وعَقِيلُ
وأنى إذا ما الصبحُ أنسيتُ [٦] ضوءه … يعاوِدُنى قِطْعٌ [٧] علىَّ ثقيلُ
[أبى الصبرَ أنى لا أزالُ يهيجنى … مبيتٌ لنا فيما مَضَى ومَقِيلُ] [٨]

مالك وعقيل اللذان ذكرهما نَدِيما جذيمة الأبرش ، وكانا أتياه بابنِ أخته عمرو ، وكان قد استهوَتْه الجنّ ، فقالا فتمنّيا مُنادمته ، وهما اللذان عنى متمّم بن نويرة في مرثية أخيه مالك :

وكنّا كنَدْمَانَى جذيمةَ حِقبةً … من الدهرِ حتى قيل لن يتصدَّعا
فلما تفرّقْنا كأنى ومالكاً … لطولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معا

وقول عَنْتَرة في وَصْفِ الذباب أوْحَد فرد ، ويتيم فَذّ ، وقد تعلّق ابن الرومى بذيله وزاد معنى آخر في قوله [٩] :

---

(١) المهبج : المثقل . الربيلة : كثرة اللحم وتمامه . أى أضاعه في الخفض والدعة .

(٢) في أشعار الهذليين : نازعته مخامص . أى جاذبه جوع . (٣) النحض : اللحم وأخذ اللحم عن العظم . (٤) [illegible] وفي اللسان مادة هبذ : يبادر جنح الليل .

(٥) أشعار الهذليين ٢ — ١١٦ . (٦) في أشعار الهذليين : آنست .

(٧) قطع من الليل : بقية . (٨) ليس في ا . (٩) ديوان المعانى : ١ — ٣٦١ ، اللآلى : ٤٨٦ ، ديوانه : ٢٩٩ .

إذا رنقت شمسُ الأصيلِ ونفّضَتْ ... على الأفق الغربيّ وَرْساً مُزَعْزَعا[1]
ولاحظتِ النُّوارَ وهي مريضةٌ ... وقد وضعَتْ خَدًّا على الأرضِ أضْرَعا
كما لاحظت عُوّادَها عَيْنُ مُدْنَفٍ ... توجّع من أوصابِه ما توجّعا
وبين إغضاء[2] الفِرَاق عليهما ... كأنّهما خِلّا صَفاء تودّعا
وقد ضربَتْ في خُضْرَةِ الرَّوْضِ صُفْرةٌ ... من الشمس فاخضرّ اخضِرَاراً مُشَعْشَعا
وظلّتْ عيونُ النَّورِ تخضَلُّ بالندى ... كما اغرورقَتْ عَيْنُ الشجِيِّ لتَدْمَعا
وأذْكى نسيم الرَّوْضِ ريعانُ ظلّه ... وغنّى مُغنّي الطيرِ فيه مُرَجِّعا
وغرد رِبْعي الذبابِ خِلالَهُ ... كما حَثْحَثَ النَّشْوانُ صَنْجاً مشرّعا[3]
فكانت أرانينَ الذبابِ هناكُمُ ... على شدَواتِ الطيرِ ضَرْباً موقّعا

وذكر أبو نُواس معنًى قولهِ في تصاويرِ الكئوس في مواضعَ من شعره فمن ذلك[4]:

بنَيْنا على كِسْرَى سماءَ مُدَامَةٍ ... مكلَّلةً حافاتُها بنجُومِ
فلو رُدَّ في كِسْرَى بنِ ساسانَ رُوحُهُ ... إذاً لاصْطفاني دونَ كلِّ نَدِيمِ

[الدمن والأطلال]

وأول هذا الشعر[4]:

لِمَنْ دِمَنٌ تَزْدَادُ طِيبَ نَسيمِ ... على طولِ ما أقوَتْ وحُسْنِ رسُومِ[5]
تجافَى البِلَى عنهنَّ حتى كأنّما ... لَبِسْنَ على الإقْوَاءِ ثوبَ نَعيمِ

وهذا معنًى مليح وإن أخذه من قول أعرابي:

شطّتْ بهم عنك نيّةٌ قذف[6] ... غادرت الشَّعْبَ غيرَ مُلْتَئِمِ
واستودَعَتْ سِرّهَا الديارَ فما ... تزدادُ طِيباً إلّا على القِدَمِ

---

(١) الورس: نبت أصفر يصبغ به. (٢) في ا: أعضاء. (٣) في ط: كما حثت النشوان صهباء مترعا، وهذا من ا. (٤) ديوانه: ٢٩٨. (٥) أقوت: أقفرت. (٦) في ط: عنك دمنة قدمت.

وهذا ضِدّ قول محمد بن وهيب :

طَلَلانِ طالَ عليهما الأمد[1] ... دَرَسا فلا عَلَمٌ ولا قَصَدُ[2]

لَبِسا البِلَى فكأنما وَجَدَا ... بعد الأحِبّة مثلَ ما وجَدُوا[3]

وقال الأخطل :

لأسماء مُحتَلٌ بناظرةِ البِشر ... قَدِيمٌ ولمّا يعفُه سالِفُ الدّهْرِ

يكادُ من العِرفان يَضحَكُ رَسْمُهُ ... وكم من ليالٍ للديار ومن شَهْرِ

هذا أيضاً كقول أبي صخر الهذلي:

لليْلَى بذاتِ الجَيْش دارٌ عرفْتها ... وأخرى بذاتِ البين آياتُها سَطْرُ

كأنهما مالآن لم يتغيّرا ... وقد مرّ للدارين من بَعدِنا عَصْرُ

وقد قال مزاحم العقيلي[4] :

تراها على طولِ القَوَاء جَديدةً ... وعَهْدُ المَغاني بالحلولِ قَدِيمُ

وقرأ الزبير بن بكار أخبار أبي السائب [المخزومي] فلما بلغ إلى قول مالك بن أسماء الفزاري :

بكتِ الديارُ لفقدِ ساكِنها ... أفعِند قلبي أبتغي الصَّبْرَا

هذا البيت نظير قول ابن وهيب :

بيناهُمُ سَكَنٌ بجيرَتِهِمْ ... ذكروا الفِراقَ فأصبحوا سَفْرَا

فظللت ذا ولَهٍ يمازِجُني ... مَنْ لا يَرَى أمْرِي له أمْرَا

وإن أبا السائب قال عند سماع البيت الأوسط : ما أسرع هذا ! أما اعتَدّوا ! أما قدّموا رِكابا ! أما ودّعُوا صديقا ! فقال الزبير : رحم الله أبا السائب ! فكيف لو

---

(١) في ا : الأبد . (٢) القصد : العوسج ، وفي ا : ولا فقد . (٣) في ط : مثل ما أجد.

(٤) في ط : وقال ابن أحمر العقيلي .

سمع قولَ العباس بن الأحنف[1] :

سألونا عن حالِنا كيف أنتم ... فقَرنّا وَدَاعَنا بالسؤالِ
ما أنَخْنا حتى ارتَحَلْنا فما نَفْـ ... ـرِقُ بين النزول والارتحالِ

هكذا رواها الزبير بن بكار لمالك بن أسماء، ورواها غيره لأيوب بن شبيب[2] الباهلي.

ومن ألفاظ أهل العصر فى صفة الديار الخالية

دارٌ لبِسَت البِلى وتعطّلت من الحُلَى . دار قد صارت من أهلها خالية ، بعد ما كانَتْ بهم حَالِية . دار قد أنفَدَ البينُ سكّانَها ، وأقعد حيطانَها ، شاهدُ اليأسِ منها ينطِقُ ، وحَبْلُ الرجاء فيها يقصر ؛ كأنّ عُمرانها يُطْوَى ، وخرابَها يُنشر ، أركانُها قيام وقعود ، وحيطانُها رُكّعٌ وسجود .

من النقد يشبه الأول من قول مالك بن أسماء قول مزاحم العقيلى :

بكَتْ دارُهم مِنْ فَقْدِهم فتهلّلت ... دموعى فأىُّ الجازعَيْنِ ألْوَمُ
أمستعبرٌ يبكى على الهون[3] والبلى ... أمَ اخرُ يَبْكِى شَجْوَه فيهيمُ

أبو الطيب المتنبى[4] :

لكِ يا منازلُ فى القلوبِ منازلُ ... أقفرْتِ أنتِ وهُنّ منكِ أواهِلُ
يَعْلَمْنَ ذاكِ وما علمتِ وإنما ... أولاكُما يبكى[5] عليه العاقِلُ

وقال على بن جبلة ، فى معنى قول العباس بن الأحنف :

زائرٌ نَمّ عليه حسنهُ ... كيف يُخفى الليلُ بدْراً طلَعا
بأبى مَنْ زارَنى مكتتِما ... خائفاً مِنْ كلّ أمرٍ جَزِعا
رَصَد الغَفْلَةَ حتى أمكنَتْ ... ورَعى الحارسَ[6] حتى هجَعا

---

(١) ليس فى ديوانه المطبوع بأيدينا . (٢) فى ط : شعيب .
(٣) فى ط : اللهو . (٤) ديوانه : ٣ — ٢٤٩ . (٥) فى الديوان : يبكى .
(٦) فى ط : الساهر .

رَكِبَ الأهوالَ فى زَوْرَتِه ... ثمّ ما سلَّم حتى ودَّعا

وقال الحسين بن الضحاك :

[بأبى زورٌ تلفت له ... فتنفَّستُ عليه الصُّعَدا

بينما أضحكُ مسرورا به ... إذ تقطَّعتُ عليـــه كمَدَا

أبو الطيب المتنبي[1]] :

بأبِى مَنْ وددْتُه فافترقنَا ... وقضَى اللهُ بعد ذاكَ اجتماعا

فافترقنَا حَوْلا فلما اجتمَعْنا ... كانَ تسليمُه علىَّ الوداعا

وقال أبو الحسن جحظة : قال لى خالد الكاتب : دخلتُ يوماً بعض الدِّيارات فإذا أنا بشابٍّ موثَق فى صِفَاد[2] حسنِ الوجه ؛ فسلّمتُ عليـه فردَّ علىّ وقال : مَنْ أنت ؟ قلت : خالد بن يزيد . فقال: صاحب القطعات الرقيقة ؟ قلت : نعم ! فقال: إنْ رأيت أنْ تفرِّجَ عنى ببعض ما تنشدنى من شعرك فافعَل ، فأنشدته :

ترشَّفْت من شفَتَيْها عقاراً ... وقبَّلْتُ من خَدِّها جُلّنارا

وعانَقْتُ منهـا كثيباً مهيلا ... وغُصْناً رَطيباً وبدراً أنارا

وأبصرْتُ من نُورها فى الظلام ... لـكلِّ مكانٍ بليـــلٍ نهارا

فقال : أحسنت ! لايفضُض اللهُ فَاك ، ثم قال : أجِزْ لى هذين البيتين[3] :

ربَّ ليلٍ أمدُّ من نَفَسِ العَا ... شِق طُولًا قطعْتُه بانتحابِ

وحديثٍ ألذّ من نَظَرِ الو ... امق بدَّلْتُه بسُوء العتابِ

فوالله لقد أعملت فكرى فما قدرت أن أجيزها . [ويمكن أن يجازا بهذا البيت:

ووصال أقلّ مِنْ لَمْحة البَا ... رِق عُوِّضْتُ عنه طولَ اجتنابِ][4]

(١) من ا . (٢) الصفاد : حبل يوثق به أو غل ، وفى ط : أصفاد .
(٣) اللآلى : ٩٣٨ . (٤) ليس فى ا .

[طول الليل]

وقال ابنُ الرومى فى طول الليل(١) :

رُبَّ ليـلٍ كأنه الدهرُ طولًا … قد تناهَى فليس فيـه مَزِيدُ
ذى نجومٍ كأنهنّ نجوم الـ … ـشَّيْبِ ليسَتْ تغيبُ لكن تَزِيدُ

وهذا من أجود ما جاء فى هذا المعنى . وقد قال بشّار :

لخدَّيْك مِن كفَّيْك فى كلِّ ليلةٍ … إلى أن ترى وَجْـهَ الصباح وِسَادُ
تبيتُ تُراعى الليـلَ ترجو نَفَادهُ … وليس لليـلِ العاشقين نَفَادُ

وقال(٢) :

خليلَىَّ مابالُ الدُّجَى لا تزحزحُ … وما بالُ ضوء الصبح لا يتوضَّحُ
أضلَّ النهـارُ المستنيرُ سبيلَهُ … أم الدهر ليلٌ كلّه ليس يَبْرَحُ
كأنّ الدجَى زادَتْ ومازادت الدُّجَى … ولكِنْ أطالَ الليـلَ همٌّ مبرِّحُ

وقال [أيضا](٣) :

طال هذا الليلُ بل طال السَّهر … ولقـد أعرفُ لَيْلِى بالقِصَرْ
لم يطُلْ حتى جفانى شادِنٌ … نَاعِمُ الأطراف فَتَّانُ النظَرْ
لىَ فى ليلى(٤) منـه لوعةٌ … ملَكَتْ قلبى وسَمْعِى والبصَرْ
فكأن الهمَّ(٥) شخصٌ ماثلٌ … كلما أبصره النومُ نَفَرْ

وقال أيضاً :

كأنَّ فؤاده كرةٌ تنزّى(٦) … حذارَ البَيْن إن نفع الحذارُ
يروّعُه السِّرارُ بكلِّ شىء … مخافةَ أن يكونَ به السِّرارُ

---

(١) ليس فى ديوانه المطبوع .   (٢) ديوان المعانى ١ ـ ٣٥٠ ، اللآلى : ٣٠٩ .
(٣) ديوان المعانى ١ ـ ٣٥٠ والزيادة من ا . (٤) فى ط : قلبى .   (٥) فى ا : البحر .
(٦) تنزى : تثب ، وفى ط : ترامى .

[كأن جفونه سُمِلَتْ بشوكٍ   فليس لنومه فيها قَرارُ][1]
أقول وليلتى تزدادُ طولًا   أما لِلَّيـــلِ بعدهمُ نهارُ
جفَتْ عينى عن التغميض حتى   كأنَّ جفونَها فيها قِصارُ

من النقد

قيل لبشار : من أين سرقت قولك : * يرُوعُه السرارُ بكلِّ شىء *
فقال : من قول أشعب الطمع ، وقد قيل له : ما بلغ من طَمَعِك ؟ قال : ما رأيتُ اثنين يتسارّان إلا ظننتهما يُرِيدان أن يأمرا لى بشىء . وأخذه أبو نواس فقال[2] :

لا تبيحنّ حُرمة الكتمانِ   رَاحةُ المستهامِ فى الإعلانِ[3]
قد تسترْتُ بالسكوت وبالإط   راق جهدى فنمَّتِ العينانِ
تركتْنى الوُشاة نصْبَ المشيرِ   ن وأحدوثةً بكلِّ مكانِ
ما نرى خاليَيْنِ فى النـاسِ إلّا   قلْتُ ما يخلُوان إلّا لِشانى

ومثل قول بشار : * جفَتْ عَيْنى عن التغميض * . . . البيت ، قول الآخر[4] :

كأنَّ المحبَّ بطول السُّهادِ   قصيرُ الجفونِ ولم تَقْصُرِ

وقد تناول هذا المعنى العتابى [فأفسده وقال][5] :

فى مآقٍ انقباضٌ عن جفونهما   وفى الجفونِ عن الآماقِ تقْصيرُ

* * *

وجع المل طول الليل

وقال المتنبى[6] :

أعِيدوا صَباحى فهو عند الكواكبِ   وردُّوا رُقادى فهو لَحْظُ الحبائبِ
كأنّ[7] نهارى ليلةٌ مدلهِمَّةٌ   على مُقْلَةٍ من فَقْدِكم فى غَياهبِ
بعيدةُ ما بَيْنَ الجفونِ كأنما   عقدتم أعالِي كلِّ هُدْبٍ بحاجبِ

وقال الشعبى : تشاجر الوليدُ بن عبد الملك ومسلمة أخوه فى شعر امرىء القيس والنابغة فى طول الليل أيهما أشعر ؟ فقال الوليد : النابغةُ أشعر ، وقال مسلمة :

---

(١) من ا .   (٢) المختار من شعر بشار : ٩ .   (٣) فى ا : الكتمان .
(٤) فى المختار — ٢٣ : أن البيت لجبل .   (٥) المختار من شعر بشار : ٢٣ ، والزيادة من ا .   (٦) ديوانه : ١ — ٩٠ .   (٧) فى ا : فإن .

بل امرؤ القيس ، فرضيا بالشعبي فأحضراه فأنشده الوليد[1] :

كِليني لهَمٍّ يا أُميمة ناصِبِ   وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكبِ
تطاول حتى قلتُ ليس بمُنقَضٍ   وليس الذي يَرْعَى النجومَ بآيبِ
وصَدْرٍ أراحَ الليل عازبَ همّهِ   تضاعفَ فيه الحزنُ من كل جانب

وأنشده مسلمة قول امرئ القيس[2] :

وليلٍ كموْجِ البَحْرِ أرْخَى سدُولَهُ   عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليَبْتَلي
فقلت له لمّا تمطّى بجَوْزِهِ   وأردفَ أعجازاً وناء بكَلْكَلِ
ألا أيُّها الليـلُ الطويلُ ألا انجلي   بصُبْحٍ وما الإصباح منك بأمْثل
فيالك من ليلٍ كأن نجومهُ   بكل مُغار الفتل شُدَّتْ بيَذْبُلِ

من النقد — فطرب الوليد طرباً . فقال الشعبي : بانت القضيّة . معنى قول النابغة * وصدر أراح الليل عازب همه * أنه جعل صَدْرَهُ مأوى للهموم ، وجعل الهموم كالنَّعم السارحة[3] الغادية ، تسرحُ نهاراً ثم تأتي إلى مكانها ليلا . وهو أول من استثار هذا المعنى ، ووصف أنّ الهمومَ مترادفةٌ بالليل لتقييد الألحاظ عما هي مطاقة فيه بالنهار ، واشتغالها بتصرُّف اللحظ عن استعمال الفكر ، وامرؤ القيس كره أن يقول : إن الهمّ يخفّ عليه في وقت من الأوقات ، فقال : وما الإصباح منك بأمثل .

وقال الطرماح بن حكيم الطائي[4] :

ألا أيها الليل الذى طال أصبح   بيومٍ وما الإصباح فيك بأرْوَحِ
على أن للعينين في الصُّبْح رَاحةً   لطرحهما طرْفَيْهما كلَّ مَطْرَح

فنقل لفظ امرئ القيس ومعناه ، وزاد فيه زيادةً اغتفر له معها فُحْش السرقة ؟ وإنما تنبّه عليه من قول النابغة ، إلا أنّ النابغة لوّح وهذا صرّح .

(١) ديوان المعاني : ١ ــ ٣٤٦ . (٢) ديوان المعاني : ١ ــ ٣٤٥ .
(٣) ق ١ : الشاردة . (٤) اللآلي : ٣٢٠ ، ديوان المعاني : ١ ــ ٣٤٦ .

وقال ابن بسام[1]:

لا أظلمُ الليلَ ولا أدّعِى … أنّ نجومَ الليلِ ليستْ تغورْ
ليلى كما شاءتْ فإنْ لم تزُرْ … طال وإن زارت فليلى قصيرْ

وإنما أغار ابنُ بسام على قولِ على بن الخليل، فلم يغير إلا القافية[2]:

لا أظلمُ الليلَ ولا أدّعِى … أنّ نجومَ الليل ليست تزولْ
ليلى كما شاءتْ قصيرٌ إذا … جادَتْ وإن ضنَّتْ فليلى طويلْ

وهذه السرقةُ كما قال البديعُ في التنبيه على أبى بكر الخوارزمى في بيت أخذ رويّه وبعض لفظه: « وإن كانت قضية القطْعِ تجب في الربع، فما أشد شفقتى على جوارحه [أجمع][3]: ولعمرى إنّ هذه ليستْ سرقة، وإنما هى مكابرة محضة، وأحسب أنّ قائله لو سمع هذا لقال: هذه بضاعتُنا رُدّت إلينا، فحسبت أن ربيعة بن مكدم وعُتَيبة[4] بن الحارث بن شهاب كانا لا يستحلّان من البيت ما استحلّه، فإنهما كانا يأخذان جُلّه، وهذا الفاضل قد أخذ كله. وقد أخذ على بن الخليل من قول الوليد بن يزيدَ ابن عبد الملك بن مروان[5]: سرقة

لا أسألُ اللهَ تغييراً لما صنعَتْ … نامَتْ وإن أسهرَتْ عينىّ عيناها
فالليلُ أطولُ شىء حين أفقدُها … والليلُ أقصرُ شىء حين ألقاها

وابن بسام في هذا [الشعر][3] كما قال الشاعر:

وفتى يقول الشعر إلا أنهُ … في كل حال يَسْرِقُ المسروقا

ألفاظ لأهل العصر في طول الليل والسهر

وما يعرض فيه من الهموم والفكر

ليلة من غصص الصَّدْرِ، ونِقَمِ الدّهْرِ. ليلةُ همومٍ وغموم، كما شاء الحَسُود،

(١) ديوان المعانى ١ـ٣٤٨، المختار: ٢٠، اللآلى: ٣١١.
(٢) المختار من شعر بشار: ٢١.   (٣) من ١.   (٤) في ط: عيينة.
(٥) المختار: ٢١، اللآلى ٣١٢.

وساءَ الوَدُود . ليلة قُصَّ جناحُها ، وضَلَّ صباحُها . ليل ثابتُ الأطناب ، طامى الغوارب ، طامحُ الأمواج[1] ، وافى الذَّوائب . ليال ليست لها أسْحَار ، وظلمات لا تتخللها أنوار . بات بليلة نابغيّة ، يُرَاد قولُه[2] :

فبِتُّ كأنّى ساوَرَتْنِى ضئيلةٌ ‏ ‏ ‏ من الرُّقْشِ فى أنيابِها السُّمُّ ناقِعُ

[يُسَهَّدُ من ليل التِّمام سليمُها ‏ ‏ ‏ لِحَلْى النساء فى يديه قعاقعُ[3]]

بات فى الصيف بليلة شتوية . سامَرَتْه الهموم ، وعانَقَتْه الغموم ، واكتحَلَ السهاد ، وافترش القَتَاد ، فاكتحل بطول السهَر ، وتململ على فراش الفِكَر . قد أقِضَّ مِهادُه ، وقلق وسادُه . هموم تفرّقُ بين الجَنْبِ والمِهاد ، وتجمَعُ بين العين والسُّهاد . طَرْف بِرَعْىِ النجوم مطروف ، وفراش بشمار الهمّ محفوف . كأنه على النجوم رقيب ، وللظلام نَقِيب .

ولهم فيما يتصل بضدّ ذلك من ذكر [إقبال][3] الليل وانتشار الظلمة وطلوع الكواكب

أقبلَتْ عساكِرُ الليل ، وخفقَتْ راياتُ الظلام . وقد أرخى الليلُ علينا سُدولَه ، وسحب الظلامُ فينا ذيولَه . توقَّد الشفقُ فى ثوب الغَسَقِ . أقبلت وفودُ النجوم [وجاءتْ مواكبُ الكواكب . تفتّحت أزاهير النجوم][3] ، وتورّدت حدائقُ الجو ، وأذْكَى الفلكُ مصابيحَه . قد طفت النجوم فى بحرِ الدُّجَى ، ولبس الظلامُ جلبابا من القار . ليلة كغراب الشباب ، وحَدَقِ الحِسَان ، وذوائب العذَارى . ليلة كأنها فى لباسِ بنى العباس[4] . ليلة كأنها فى لباس الثكالى ، وكأنها من الغبش فى مواكب الحبش . ليلة قد حلك إهابها فكأنّ البحر يهابُها .

---

(١) فى ط : بطىء الغوارب طاغى . . . (٢) للنابغة فى ديوانه : ٦٩ . (٣) من : ا .
(٤) كان السواد شعار بنى العباس .

ولهم فى ذكر النوم والنعاس

شَرِبَ كأسَ النعاس ، وانتشى من خَمْرِ الكَرى ، قد عَسْكر النُّعاس بطَرْفه ، وخَيَّم بين عينيه وجَفْنِه . غرق فى لُجَّةِ الكَرى ، وتمايل فى سَكْرة النوم . قد كحل الليلُ الورَى بالرقاد ، وشامت الأعين أجفانها فى الأغماد .

وفى انتصاف الليل وتناهيه وانتشار النور وأفول النجوم

قد اكْتَهَل الظلامُ . قد انتصفنا عُمْرَ الليل ، واستغرقْنا شبابَه . قد شاب رأسُ الليل ، كاد يَنِمّ النسيمُ بالسَّحَر . قد انكشف غطاء الليل . ستَرَ الدّجى هرم الليل ، وشَمِطَتْ ذَوَائِبُه ، وتقوّسَ ظهرُه ، وتهدّم عُمْرُه . قُوّضت خيامُ الليل ، وخلع الأُفُق ثوبَ الدُّجى . أعرض الظلامُ وتولَّى ، [وتَدَلَّى][1] عنقودُ الثريا . طُرِّزَ قميصُ الليل بغرّة الصبح ، وباح الصبح بسرِّه . خلع الليلُ ثيابَه ، وحدر الصبحُ نِقابَه . لاحت تباشيرُ الصبح ، وافترّ الفَجْرُ عن نواجذه ، وضرب النورُ فى الدُّجى بعموده . بثّ الصبح طَلائِعه . تبرقَعَ الليلُ بغُرّةِ الصبح . أطار بازِى الصبح غرابَ الليل ، وعزلت نوافج الليل بجاماتِ الكافور ، وانهزم جُنْدُ الظلام عن عَسْكَر النور . خلعْنا خاتمة الظلام ، ولبسنا رداء الصباح ، وملأ الآذان بَرْقُ الصباح ، وسطع الضوء ، وطلع النور ، وأشرقت الدنيا ، وأضاءت الآفاق . مالت الجَوْزاء للغروب ، وولّتْ مواكب الكواكب ، وتناثرت عقودُ النجوم ، وفرّت أسرابُ النجوم من حدَقِ الأنام ، وَهَى نِطاقُ الجوزاء ، وانطفأ قنديلُ الثريا . قال بعضُ الأعراب : خرجنا فى ليلة حِنْدِس قد ألقَتْ على الأرض أكارِعَها ، فمحَتْ صورة الأبدان ، فما كنّا نتعارف إلا بالآذان .

قال ابن عكان السعدى :

وليلٍ يقول الناسُ فى ظلماته ... سواء صحيحات العيونِ وعُورُها

---

(١) من ا .

كأن لنا منـــه بيوتاً حصينةً مُسوحاً أعاليها وساجاً ستورها[1]

وهذا بارع جدًا . أراد أنّ أعلاه أشدُّ ظلاما من جوانبه .

وقال أعرابي في صفته : خرجتُ حين انحدرَت النجومُ ، وشالَتْ أرْجُلها ، فما زِلْتُ أصْدَعُ الليلَ حتى انصدعَ الفجر .

بديع الشعر في صفة الليل

ومن بديع الشعر في صفةِ الليل قول الأعرابي :

والليلُ يَطْرُدُه النهارُ ولا ترى كالليلِ يطردُهُ النهارُ طَرِيدا
فتراه مثلَ البيتِ مَالَ رِوَاقُهُ هتك القوّضُ سِتْرَهُ الممدودَا

ومن البديع :

على حين أثنى القومُ خيراً عَلَى السُّرَى وطارَتْ بأخرى الليلِ أجنِحَةُ الفَجْرِ

آخر :

وليل ذى غَيَاطِلَ مُدْلَهِمٍّ رميتُ بنَجْمِه غرضَ الأُفولِ
يردُّ الطرف منقبضاً كَلِيلا وعلاَّ هَوْلُه صَدْرَ الدَّلِيلِ

ابن المعتز[2] :

هامَتْ رَكائِبُنا إليك بنا بظليل أهْلِ النارِ والملح[3]
فكأنّ أيديهن دائبةً يفحَصْنَ[4] ليلتهنّ عن صُبحِ

وقال كشاجم :

سَقْياً لليلٍ قصرتُ مُدّتهُ بِبدرِ مرّانَ مرّ مشكورا
وباتَ بدْرُ الدجى يشمشمها نُورِيَّة تملأ الدُّجَى نُورَا
غارَتْ على نفسها وقد سَفرتْ فعاد جيبُ الحباب مزرُورَا
حتى رأيتُ الظلامَ يدرجُه !! غرب ودَرجِ الصباحِ منشُورا
فاختلط الليلُ والنهارُ كما تخلط كفٌّ مسكا وكافوراً

(١) في ط : كـورها . (٢) ديوانه : ٢ ـ ٧٤ . (٣) رواية الديوان : ... فما يخبطن أ . . النار والنبح . (٤) في الديوان : لازمة يفحصن .

وقال علي بن محمد السكوني[1] :

مَتى أرْتَجي يوماً شِفاءً من الضّنا ... إذا كانَ جانِيهِ عليَّ طبيبي
ولِي عائداتٌ مِنْهُنّ فجئْنَ في ... لباسِ سوادٍ في الظلامِ قَشيبِ
نجومٌ أُرَاعِي طولَ ليلي بُرُوجَها ... وهنَّ ابْعُدِ السيرِ ذاتُ لُغُوبِ
خوافقُ في جُنْحِ الظلامِ كأنها ... قلوبٌ معنّاةٌ بطُولِ وَجيبِ
تَرَى حُوتَها في الشرقِ ذاتَ سباحةٍ ... وعَقْرَبَها في الغربِ ذاتَ دَبيبِ
إذا ماهَوَى الإكْليلُ منها حسِبْتَه ... تهدُّلَ غُصْنٍ في الرياضِ رطيبِ
كأنَّ التي حولَ المجرّةِ أوردَتْ ... لتَكْرَعَ في ماءٍ هنـاكَ صَبيبِ
كأنّ رسولَ الصُّبحِ يخلطُ في الدُّجى ... شجاعةَ مِقْدامٍ بجُبْنِ هَيُوبِ
كأنّ اخضرَارَ البَحْرِ صَرْحٌ ممرَّدٌ ... وفيـه لآلٍ لم تُشَنْ بثقوبِ
كأنّ سوادَ الليلِ في ضوءِ صُبْحِهِ ... سوادُ شباب في بياضِ مَشيبِ
كأنَّ تدِيرَ الشمسِ يحكي ببِشْرِهِ ... عليَّ بن دواد أخِي ونسيبي
ولولا اتّقائي عَتْبَه قلت سيدي ... ولـكن يَرَاهَا من أجلّ ذنوبي
جوادٌ بمـا تحْوِي يَدَاهُ مهذّب ... أديبٌ غَدا خِـلًّا لـكلّ أديبِ
نسيب إخاه وهو غـيرُ مناسبٍ ... قريبٌ صفاه وهو غـيرُ قريبِ
ونِسبةُ ما بينَ الأقاربِ وحشةٌ ... إذا لم يؤنّسها انتسابُ قلوبِ .

[أخو القرابة وأخو الصفاء]

وهذا البيت كقول الطائي[2] :

وقلتُ أخي قالوا أخٌ من قرابةٍ ... فقلت لهم إنّ الشكولَ[3] أقاربُ
[نسيبي في رأيي وعزمي ومذهبي ... وإنْ باعَدَتْنَا في الأصولِ المناسبُ][4]

وقال عبد السلام بن رغبان ، وسلك طريق الطائي [فما ضلَّ عنها][5] :

(١) المختار : ٢٥١ .   (٢) ديوانه: ٣٠٢ .   (٣) الشكول : المشاكلون .
(٤) من ا .   (٥) ليست في ا .

أخٌ كنتُ أبكيه دماً وهو حاضرٌ ... حذاراً وتعمى مُقْلتي وهو غائبُ
بكاءَ أخٍ لم تَحْوِهِ بقرابةٍ ... بَلَى إنّ إخوانَ الصفاء أقاربُ
فمات فما شَوْقي إلى الأجْرِ واقف ... ولا أنا في عُمْرِي إلى اللهِ راغبُ
وأظلمتِ الدنيا التي أنتَ نورُها ... كأنك للدنيا أخٌ ومناسِب
يُبرِّدُ نيرانَ المصائبِ أنني ... أرى زمناً لم تبق فيه مصائبُ

وفي هذه القصيدة :

ترشَّفتُ أيامي وهُنّ كوالحٌ ... إليك وغالبْتُ الرَّدَى وهو غالبُ
ودافعتُ في كَيد الزمان ونَحْرِهِ ... وأي يدٍ لِي والزّمان المُحَاربُ
وقلتُ له خَلِّ ابنَ أمّي لعُصْبَةٍ ... وهانا[1] أو فازْدَدْ فإنّا عَصَائِبُ
فواللهِ إخلاصاً من القولِ صادقاً ... وإلّا فحُبِّي آلَ أحمدَ كاذِبُ
لو ان يَدِي كانَتْ شِفَاءكَ أودَمِي ... دم القلبِ حتى يَقْضِبَ الحبلَ قاضِبُ[2]
لسلّمتُ تَسْلِيمَ الرِّضَا وأتخذتُها ... يداً للرَّدَى ما حَجَّ للهِ راكِبُ
فتًى كان مثلَ السيفِ من حيثُ جِئْتَهُ ... لنائبةٍ نابَتْكَ فهو مُضَارِبُ
فتى هَمُّه حَمْدٌ على الدهر رابحٌ ... وإنْ نابَ عنه مالُهُ وهو عازِبُ
شمائلُ إن تَشْهَدْ فهنّ مشاهد ... عظامٌ وإن ترحل فهنّ رَكَائِبُ

وقال الطائي لعليّ بن الجهم[3] :

إن يُكْدِ[4] مطّرفُ الإخاء فإنّنا ... نَغْدُو ونَسْرِي في إخاء تالدِ
أو يفترق نَسَبٌ يؤلّفُ بيننا ... أدَبٌ أقمناهُ مقامَ الوالدِ
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا ... عَذْبٌ تحدّرَ من غمامٍ واحدِ

وقال محمدُ بن موسى بن حماد : سمعتُ عليّ بن الجهم وذكر دعبلا فامنه وكفره ،

---

(١) في ا : وهانا . (٢) قضبه : قطعه . (٣) ديوانه : ٨٦ .
(٤) يكد : يقل خيره ، وفي ط : يكب .

وقال : وكان يطعَنُ على أبى تمام ، وهو خيرٌ منه ديناً وشعراً ، فقال رجلٌ : لو كان أبو تمام أخاك ما زدت على مَدْحِك له . فقال : إلّا يكن أخا نَسَب فهو أخو أدَب ، أما سمعتَ ما خاطبنى به ؟ وأنشد الأبيات .

وقال رجل لابن المقفع : إذا لم يكن أخى صديقى لم أحببه[1] . قال : نعم صدقت ، الأخ نسيبُ الجسم ، والصديق نسيبُ الروح . وقال أبو تمام يخاطب ابنَ عبد الملك الزيات[2] :

أبا جعفر إنَّ الجهالةَ أمُّها ... ولودٌ وأمّ العلم جدّاء[3] حائل
أرى الحشوَ والدهماء أضحوا كأنهم ... شعوبٌ تلاقَتْ دوننا وقبائل
غدَوْا وكأنّ الجهلَ يجمعهم أباً ... وحظ ذوى الآداب فيهم نوافل
فكن هضبةً تأوِى إليها وحرةً ... يعرّد[4] عنها الأعوجىُّ الناقل
فإن الفتى فى كل حال مناسب ... مناسبُ روحانية مَن يشاكل

وقال البحترى لأبى القاسم بن خرداذبة[5] :

إن كنتَ من فارس فى بيت سؤددها ... وكنتُ من بحترى البيت[6] والنسب
فلم يضرنا تنائى النسبين وقد ... رُحنا نسيبين فى علم[7] وفى أدب
إذا تقاربت الآدابُ والتأمت ... دنت مسافة بين العُجْم والعرب

[وصف النجوم]

وقد احتذى طريقه أبو القاسم محمد بن هانىء ، فقال يمدح جعفر بن على ، وذكر النجوم فقال :

جعلْنَا حشايانا ثيابَ مُدامِنا ... وقدّت لنا الظلماء من جلدها لحفا
فمن كبدٍ تُدْنى[8] إلى كبد هوى ... ومن شفةٍ توحى إلى شفةٍ رَشْفا

---

(١) فى ط : لم أواخه . (٢) ديوانه : ٢٥٦ . (٣) الجداء : الصغيرة الثدى والقليلة اللبن . وفى ط : الجدباء . (٤) يعرد : يهرب ، وفى ط : تفرد .
(٥) ديوانه : ٢ — ١١ . (٦) هكذا فى ا ، وفى الديوان : وكنت من طىء فى البيت .
(٧) فى الديوان : فى خلق . (٨) فى ط : تبدى .

بميثك نبّه كأسه وجفونَهُ　　　فقد نبّه الإبريقُ من بعد ما أغفَى
وقد فككت الظلماء بعض قيودها　　　وقد قام جيشُ الليلِ للفجرِ فاصطفّا
وولّت نجومٌ للثريا كأنها　　　خواتم تبدُو فى بنانِ يدٍ تخفى
ومرّ على آثارِها دَبَرانُها　　　كصاحب ردْءٍ أكمنت خيله خَلْفا
وأقبلت الشعرى العَبُور ملبة　　　بمرزمها اليعبوبِ تجنبه طرفا
وقد بادرتها أختُها من ورائها　　　لتخرق من ثِنْيَى مجرّتها سِجْفا
تخافُ زئيرَ الليث يقدم[1] نثرة　　　وبربر فى الظلماء ينسفها نَسْفا
كأنّ السماكين اللذين تظاهرا　　　على لِبْدَتَيْهِ ضامنان له الحَتْفا
فذا رامح يهوى إليه سِنانُه　　　وذا أعزل قد عض أنمله لَهفا
كأن رقيبَ النجم أجدل مرقبٍ　　　يقلّب تحتَ الليلِ فى ريشه طرفا
كأن سهيلا فى مَطالِع أفقه　　　مفارقُ إلفٍ لم يجدْ بعده إلفا
كأنّ بنى نَعْش ونَعْش مطافلٌ　　　بوَجْرَة قد أضللن فى مَهْمَهٍ خَشْفا
كأن سُهاها عاشقٌ بين عوّدٍ　　　فآونةً يبدُو وآونةً يخفَى
كأن مُعلّى قطبها فارسٌ له　　　لواءان مركوزان قد كره الزّحْفا
كأن قُدامى النَّسْر والنَّسْرُ واقعٌ　　　قصيصن[2] فلم تسمُ الخوافِى به ضَعْفا
كأنّ أخاهُ حين دوّم طائرًا　　　أتى دون نصف البدْرِ فاختطف النّصْفا
كأنّ الهزيعَ الآبنوسيَّ موْهِنا　　　سرى بالنسيج الخسروانىّ مُلْتفّا
كأنّ ظلامَ الليلِ إذْ مالَ ميْلةً　　　صريعُ مُدامٍ بات يشربُها صِرْفا
كأنّ عمودَ الفجر[3] خاقانُ عسْكرٍ　　　من الترك نادى بالنجاشىِّ فاستخفَى
كأنّ لواء الشمس غُرّةُ جعفرٍ　　　رأى القِرْنَ فازدادت طلاقته ضِعْفا

وقال ابن طباطبا [العلوى][4] :

كأن اكتتامَ المشترى فى سَحابهِ　　　ودِيعةُ سِرٍّ فى ضَميرِ مُذيعِ

(١) فى ا : زئير الليل قدم . (٢) فى ط : ضعفن . (٣) فى ط : الصبح . (٤) من ا .

كأنَّ سُهَيْلا والنجوم أمامَهُ ... يعارِضُها راعٍ وراءَ قطيعِ
وقد لاحَتِ الشِّعرى العَبُور كأنها ... تَقَلُّبُ طَرْفٍ بالدموعِ هموعِ
وأضجعت الجوزاء فى أفْق غَرْبها ... فباتَتْ كنَشْوانٍ هناك صريعِ
إلى أن أجاب الليلُ داعِىَ صُبْحِه ... وكان يُنَادِى منه غيرَ سميعِ

وقال :

وكأنَّ الهلالَ لـــما تبَدَّى ... شَطْرُ طوقِ المرآةِ ذى التذهيبِ
أو كقَوْسٍ قد انحنَتْ طرفاه[1] ... أو كنُونٍ فى مُهْرَقٍ مكتوبِ

وقال على بن محمد العلوى يصف القمرَ ، وقد طرح جرمه على دِجلة :

لم أنْسَ دِجْلَةَ والدُّجَى مُتَصَرِّمٌ ... والبَدْرُ فى أفق السماء مغرِّبُ
فكأنها فيــه رِداء أزرقٌ ... وكأنه فيهــا طرازٌ مُذْهَبُ

وقال [الأمير][2] تميم بن المعز ، وكان يحتذى مثال ابن المعتز ، ويقف فى التشبيهات بجانبه ، ويفرغ فيها على قالبه ، ويتبعه [فى][2] سلوك ألفاظ الملوك :

اسقِيَانِى فلستُ أُصْغِى لعَذْلٍ ... ليس إلّا تعلّةَ النفس شُغْلِى
أأطيع العذول فى ترك ما أهـــوَى كأنى اتهمت رَأْيى وعقلى
علِّلانى بهــا فقد أقبل الليـــلُ كلَوْن الصدود من بعد وَصْلِ
وانجَلَى الغَيْمُ بعد ما أضحكَ الرَّوْ ... ضَ بكاء السحاب جادَ بوَبْلِ
عن هلال كصَوْلجان نضــار ... فى سماء كأنّهــا جامُ ذَبْلِ

وقال[3] :

ربَّ صفراء علّلَتْنِى بصفرا ... ء وجُنْح الظَّلَام مُرْخى الإزارِ
بين ماء وروضة[4] وكروم ... ودَوَابٍ منيفةٍ وصحَارِ
... تجيب القِيانُ فيهــا القَمارِى

---

(١) فى ط : بانجذاب . (٢) من ا . (٣) المختار : ٢٠٧ ، وفيه نسبت الأبيات إلى ابن المعتز . (٤) فى ا : وبركة .

وكأن الدُّجَى غدائرُ شَعْرٍ ... وكأنَّ النجومَ فيهـا مدارى
وانجَلَى الغيمُ عن هِلالٍ تبدَّى ... فى يدِ الأفقِ مثل نِصْفِ سِوَارِ

وقال :

عتبتْ فانثنى عليها العِتابْ ... ودَعا دَمْعَ مقلتيْها انسكابُ
وضعت[1] نحو خدِّها بيديها ... فالتقَى الياسمينُ والعُنابُ
رُبَّ مُبْدِى تعتُّبٍ حمل المُتْـــــبَ رياءً وهمّه الإعتابُ
فاسقنيها مُدامةً تصبغُ الكا ... سَ كما يصبغ الخدودَ الشبابُ
ماترى الليل ! كيف رقَّ دُجاهُ ... وبدَا طَيْلسانه ينجابُ
وكأنَّ الصباحَ فى الأفق بازٍ ... والدُّجَى بين مِخْلبيْهِ غرابُ
وكأنَّ السماءَ لُجَّةُ بحرٍ ... وكأنَّ النجومَ فيها حَبابُ
وكأنَّ الجوزاءَ سيْفٌ صقيل ... وكأنَّ الدُّجَى عليها قِرابُ

الشراب والكئوس فى الليل

وقال :

وزِنجيَّة الآباء كَرْخيَّة الجلب ... عتابية[2] الأغراس كَرْميَّة النَّسبْ
كُمَيْت بزلْنا دَنَّها فتفجَّرتْ ... بأحمر قانٍ مثـــل ما قَطَر الذَّهبْ
فلما شربْناها صَبَوْنَا كأننا ... شربْنا السرورَ المَحْضَ واللهوَ والطربْ
ولم نأتِ شيئاً يسخط الجدَّ فِعْلُه ... سوى أننـــا بِعْنَا الوقارَ من اللَّعِبْ
كأن كؤوس الشرب وهى دوائر ... قطائعُ ماءٍ جامدٍ تحمل اللَّهبْ
يمدّ بهـــا كفًّا خضيبا مُدِيرها ... وليس بشىء غـــيرها هو مختضِبْ
فبتْنا نُسقَّى الشمسَ والليل راكدٌ ... ونقرب من بَدْرِ السماء وما قربْ

(١) فى ط : وسعت . (٢) فى عنبرية .

وقد حجب الغيمُ الهلالَ كأنه ... ستارة شَرْبٍ خلفها وَجْهُ مَن أحبّ
[كأنّ الثريا تحت حُلْكَةِ لونها ... مداهن بلّور على الأرض تَضْطَرِبْ](١)

وقال :

كأنّ السحابَ الغرَّ أصبحن أكْؤُسا ... لنا وكأنّ الراحَ فيها سَنَا البَرْقِ
إلى أنْ رأيتُ النجمَ وهْو مغرِّب ... وأقبل راياتُ الصباحِ من الشرق
كأنّ سوادَ الليلِ والصبحُ طالعٌ ... بقايا مجال الكحْلِ في الأعينِ الزُّرْقِ

وقال :

وكأسٍ يُعيدُ العُسْرَ يُسراً ويجتنى ... ثمارَ الغِنى للشرب من شجر الفقْرِ
يولد فيها المزْجُ دُرًّا منضَّداً ... كما فتّتَتْ فوق الثرى نقط القطرِ
صغاراً وكبرى فى الكؤوس كأنها ... على الرّاحِ واوات تجمّعن فى سَطْرِ
إذا حثّها الساقِى الأغرّ حسبْتَها ... نجومَ الثريا لُحْنَ فى راحَةِ البَدْرِ
صبحت بها صَحْبى وقد رندّج(٢) الدُّجى ... بفضّة لألاء الصباحِ سَنَا الفَجْرِ
وقد أزْهرتْ بيضُ النجومِ كأنها ... على الأفق الأعْلَى قلائدُ من دُرّ

وقال :

ألَا فاسقيانى قهوةً ذهبيةً ... فقد ألبسَ الآفاق جنح الدجى دعجْ
كأنّ الثريا والظلامُ يحفّها ... فصوصُ لُجَيْنٍ قد أحاط بها سَبَجْ
كأنّ نجومَ الليلِ تحتَ سوادِهِ ... إذا جنّ زنجىٌّ تبسّمَ عن فلجْ

وقال :

أيا دَيْرَ مرحنا سقتْك رعودُ ... من الغيمِ يهمى مزنُها ويجودُ
فكم واصلتنا فى رُباك أوانسُ ... يَطُفْنَ علينا بالمُدامَةِ غِيدُ
[وكم نابَ عن نور الضحى فيك مبسم ... ونابتْ عن الوردِ الجنِىّ خُدُودُ](٣)

---

(١) ليس فى ا . (٢) هكذا بالأصول . (٣) من ا .

وماسَتْ على الكُثبانِ قضبانُ فِضّةٍ ... فأثقالها من حَمْلِهِنّ نُهودُ
وإذ لِمّتي لم يوقظ الشيبُ ليلَها ... وإذ أثري في الغانياتِ حَميدُ
ليالي أغدو بين ثوبَيْ صبابةٍ ... ولَهْوٍ ، وأيامُ الزمانِ هُجُودُ

وقال :

سألتُه قُبلَةً منه على عَجَلٍ ... فاحمرَّ من خَجَلٍ واصفرَّ من وَجَلِ
وَاعتلَّ ما بينَ إسعافٍ برِقّه[1] ... وبين مَنْعٍ تمادَى فيه بالعِلَلِ

وقال :

وجهي بَدْرٌ لا خفاء به ... ومُبصِرُ البَدْرِ لا يَدْعُوهُ للقُبَلِ

* * *

من النقد — وهذا ينظرُ إلى قوله :

أباحَ لمُقلتي السهرَا ... وجارَ عليَّ واقتدَرا
غزالٌ لو جرَى نَفَسي ... عليه لذَابَ وانفَطَرا
ولكنْ عينُه حَسَدَتْ ... عَليَّ الغنجَ والحوَرا
ومَنْ أوْدَى به قمرٌ ... فكيفَ يعاتبُ القمرَا

كأنه ذهب إلى قول أبي نواس[2] :

كأنّ ثيابه أطلعـ ... ـن مِنْ أزراره قمَرَا
يزيدكَ وَجْهُهُ حُسْنا ... إذا ما زِدْتَه نظَرا
بعيْنِ خالط التفْتيـ ... ـرُ مِنْ أجفانِها الحَوَرا
وَوَجْهٍ سابِريٍّ[3] لو ... تَصَوَّبَ ماؤه قطَرا

قيل للجاحظ: مَنْ أنشدُ الناس وأشعرهم؟ قال: الذي يقول :وأنشد هذه الأبيات .

ونظير قوله :

كأنّ ثيابَه أطْلَعْـ ... ـنَ من أزرارِه قمرا

---

(١) في ط : برقه . (٢) ديوانه : ١٩٣ . (٣) أصل السابري: ثوب رقيق جيد .

قول الحكم بن قنبر المازنى :

وَيْلِى على مَنْ أطارَ النومَ فامتنعا وزاد قلبى إلى أوجاعِهِ وَجَعا

* * *

وقال تميم :

نَقَبَتْ وجهها بخزٍّ وجاءتْ بمُدامٍ منقَّبٍ بزُجاجِ

فتأمّلت فى النقابَيْنِ منها قمراً طالعاً وضوء سِراجِ

فاسقيانى بلا مِزاجٍ(١) فإنى فى المعالى صِرْفٌ بغير مِزاجِ

وانظر الأفْقَ كيف بدّله الإصـ ـباحُ من بَعْدِ آبنوس بعاجِ

وقال :

إذا حَــذِرْتَ زَماناً لاتُسَرُّ بهِ كم قد أتى سَهْلٌ دهر بعد أصْعَبِه

فاقبَلْ من الدهرِ ما أتاك مختلطاً لعل مُرَّك يحلُو فى تقلّبه

خُذْها إليك، ودَعْ لومى ، مشعْشَعَةً من كفِّ أقنى(٢) أسيلِ الخدِّ مُذْهَبِه

فى كل معقد حسن فيه معترضٌ عليه يَحْمِيه من أن تَستبدَّ به

فكُحْلُ عينيه ممنوعٌ بخَنْجَرِه ووَرْدُ خدّيه محْمِىٌّ بعقرَبه

لاتترك القدحَ المَلآن فى يدهِ إنى أخافُ عليـــه(٣) من تلهّبه

فصُنْه عن سقينا إنى أغَارُ بِهِ وسقّه واسْقِنى من فَضْلِ مَشْربه

وانظُرْ إلَى الليلِ كالزَّنجىِّ منهزماً والصبحُ فى إثره يَعدُو بأشْهَبه

والبدرُ منتَصِبٌ ما بين أنجُمِه كأنه مَلِكٌ ما بَيْنَ مَوْكِبِه

من مختار شعر تميم بن المعز

وإذ أفضيت إلى ذكره ، فهاك من مختار شعره ، [قال](٤) :

مستقبل بالذى يهوى وإن كَثُرَتْ منه الذنوبُ ومقبولٌ بما صَنَعا

(١) مزاج الشراب : مايمزج به . (٢) فى ط : ظبى . (٣) فى ا : عليها . (٤) من ا .

فى وجهه شافعٌ يَمحُو إساءتَهُ ... من القلوب وَجيهٌ حيثما شفَعا
كأنما الشمسُ مِنْ أثوابه برزَتْ ... حسناً أو البدرُ من أزرارِه طلَعا

استعارة [مأخوذة][1] من قولِ الآخر ، وهو ابن زُرَيق :

أستودعُ الله فى بغداد لِى قمرا ... بالكَرْخِ من فَلَكِ الأزرار مَطْلَعُه[2]

ومن قول أحمد بن يحيى القران[3] :

بَدَا فكأنما قمرٌ ... على أزرارِه طَلَعَا
يحثّ المسك من عَرَقٍ ... جبين بنانُه وَلَعا

وقال أبو ذر أستاذ[4] سيف الدولة :

نفسى الفِدَاء لمن عصيتُ عَواذِلى ... فى حبِّه لم أخشَ مِنْ رُقَبَائِهِ
الشمسُ تظهرُ فى أسِرّة وَجْهِهِ ... والبدرُ يَطْلُعُ من خِلَالِ نقائه[5]

وقال تميم :

أأعذل قلبى وهو لى غيرُ عاذِل ... وأعصِى غرامى وهو ما بين أضْلُعى
ومَنْ لى بِصَبْرٍ أستزيلُ به الجوَى ... ولا جلدى طوعى ولا كَبِدى مَعِى
فأوّلُ شوقِى كانَ آخرَ سَلْوَتى ... وآخرُ صَبْرِى كان أوّل أدْمُعِى

وقال :

وَرْدُ الخدودِ أرَقُّ من ... وَرْدِ الرياضِ وأنْعَمُ
هـذا تنشّقه الأنو ... فُ وذَا يقبّله الفَمُ
وإذا عَدَلْت فأفضَلُ الـ ... وَرْدَيْن وَرْدٌ يُلْثَمُ
لاوَرْدَ إلّا ما تولّى ... صِبْغَ حُمْرَتِه الدّمُ
هذا يُشَمُّ ولا يضـ ... ـمّ وذَا يُضَمُّ ويُشْمَمُ

---

(١) من ا . (٢) الكرخ : محلة ببغداد . (٣) فى ا : القراق .
(٤) فى ط : أبو دارسان . (٥) فى ط : من خلال قبائه .

سُبْحانَ من خلق الخدو دَ شقائقاً تُتَنَسَّمُ
وأعارَها الأصداغَ فهْـــى بها شقيقٌ يُعْلَمُ
واستنطقَ الأجفانَ فهْـــىَ بلَحْظِها تتكلَّمُ
وتُبِينُ للمحبوبِ عَنْ سرِّ الحبيبِ فيفهَمُ
وتشيرُ إنْ رأتِ الرقيـــبَ بلَحْظِها فتُسلِّم
وأعارَها مَرَضاً تَصِحُّ به القلوبُ وتَسْقَمُ
فِتَنُ العيونِ أجَلُّ من فِتَنِ الخدودِ وأعظمُ

وقال :

إنْ كانتِ الألحاظُ رُسْلَ القلوب فينا فما أهونَ كَيْدَ الرقيبْ
قبَّلْتُ مَنْ أهوى بعيني ولم يعلَمْ بتقبيلِيَ خَدَّ الحبيبْ
لكنّه قد فَطِنَتْ عَيْنُهُ بلَحْظِ عيني فِطْنَةَ المستريبْ
إن كان علمُ الغيبِ مستخفياً عنّا فعِنْدَ اللَّحْظِ علمُ الغيوبْ

وقال :

قالوا الرحيلُ لخمسةٍ تأتي سَرِيعاً من جمادى
فأجبْتُهم إنّى اتخذْ تُ له الأسى والحزْنَ زادا
سبحانَ مَنْ قسَم الأسَى بين الأحِبّةِ والبِعَادا
وأعارَ للأجفانِ خُشْـــناً تستَرِقُّ به العِبادا

وقال :

عقرَبُ الصُّدْغِ فوق تفّاحةِ الخـ ـدّ نميمٌ مطرَّزٌ بعذابِ
وسيوفُ اللحاظ فى كلّ حين مانعاتٌ جَنى الثنايا العِذابِ
وعيونُ الوشاةِ يُفسِدْنَ بالرَّ مْقِ والمَنْعِ رؤيةَ الأحبابِ
فمتى يَشتَفِى المحبُّ وتُطفَى بالتدانِي حرارةُ الإكتئاب

وقال :

ترى عِذارَيه قد قاما بمعذرتى   عند العَذول فيَنْدُو وهو يعذِرُنى
رِيمٌ كأنَّ له فى كل جارحةٍ   عقدا من الحُسْنِ أو نَوْعاً من الفِتَنِ
كأنَّ جوهرَهُ من لُطفه عَرَضٌ   فليس تَحْوِيه إلا أعْينُ الفَطِنِ
أخفَى من السرِّ لكن حُسْنُ صورتِه   إذا تأمّلته أبْدَى مِنَ العلَنِ
واللهِ ما فتَنَتْ عينِى محاسنُهُ   إلّا وقد سحَرَتْ ألفاظُه أذنِى
ما تصْدُرُ العينُ عنه لحظَها مَلَلا   لأنَّه كلّ شَخْصٍ مرتضَى حَسَنِ
يا منتهَى أمِلِى لا تُدْنِ لى أجَلِى   ولا تعذِّبْ ظنونِى فيك بالظِّنَنِ
إنْ كان وجهُك وجهاً صِيغَ من قمرٍ   فإنّ قدَّكَ قدٌّ قُدَّ مِنْ غُصُنِ

وقال :

ألا يا نسيمَ الريحِ عرِّجْ مسلِّما   على ذلك الشخصِ البعيدِ المودّعِ
وهُبَّ على من شَفَّ جسْمِى بِعادُهُ   سَمُوما[1] بما استمليْتَ من نارِ أضْلُعِى
فإنْ قال ما هذا الحَرُورُ[2] فقل لهُ :   تَنَفُّسُ مُشْتَاقٍ بحبّك مُوجَعِ

ومختارُ شعرِه كثير ، وقد تفرّق منه قطعةٌ كافية فى أعراض الكتاب .

رجع ما انقطع

قال الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عبّاد :

لقد رحلَتْ سُعْدَى فهل لك مُسْعِدٌ[3]   وقد أنجدَتْ داراً فهل أنت مُنْجِدُ
رعيتُ بطرف النجْم لمّا رأيتُها   تَباعدُ بُعْدَ النَّجْمِ بل هى أبْعَدُ
تُغيرُ الثريّا وهى[4] قُرطٌ مسلسلٌ   ويشغل منها الطرفَ دُرٌّ مبدَّدُ[5]
وتعترِضُ الجَوْزَاءُ وهى كَكاعبٍ   تَمَيَّلُ من سُكْرٍ بها وتَميَّدُ

---

(١) السموم : الريح الحارة تكون غالبا بالنهار . (٢) الحرور : الريح الحارة بالليل ، وقد تكون بالنهار . (٣) أسعده : أعانه . (٤) ق ا : وهو .

(٥) فى ط : ويطرد منها الطرف در منضد .

وتحسبها طَوْراً أسيرَ جِنايةٍ ترشَّحُ بعــدَ المشى وهو مُقيَّد[١]
ولاحَ سُهيلٌ وهو للصُّبح رَاقِبٌ كما سُلَّ مِنْ غِمْدٍ جُرَازٌ[٢] مهنَّدٌ
أُرَدِّدُ طَرْفِي في النجوم كأنها دنانيرُ لكِنَّ السماءَ زَبَرْجَدُ
رأيتُ بها ، والصبحُ ما حانَ وِرْدُهُ ، قناديلَ والخضراء صَرْحٌ ممرَّدٌ[٣]
وفيه لنا من مربط الشمسِ أشقرٌ إذا ما جرى فالريحُ تكْبُو وتَرْكُدُ

وقال أبو الحاتمى :

وليلٍ أقمنا فيه نُعْمِل كأْسَنا إلى أن بَدَا للصُّبح في الليل عَسْكَرُ
ونَجْمُ الثريا في السماء كأنه على حلَّةٍ زَرْقاءَ جَيْبٌ مُدَنَّرُ

البحترى[٤] :

ولقد سَرَيْتُ[٥] مع الكواكب راكباً أعجازَها بعزيمةٍ كالكوكبِ
والليلُ في لونِ الغُرابِ كأنَّهُ هو في حُلُوكَتِه وإن لم يَنْعَبِ
والعِيسُ تنصل من دُجاه كما انجلى صِبغُ الخِضابِ عن القَذالِ الأشْيَبِ
حتى تبدَّى الفَجْرُ[٦] من جَنَبَاتِه كالماء يَلْمَعُ من خِلالِ الطُّحْلبِ

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى :

أهلًا بفَجْرٍ قد نَضَى ثوبَ الدُّجَى كالسيف جُرِّدَ من سَوادِ قِرَابِ[٧]
أو غادةٍ شقَّتْ صِدَاراً أزرقاً[٨] ما بين ثُغْرَتِها إلَى الأتراب

وقال رجلٌ من بنى الحارث بن كعب يصف الشمس :

مخبأةٌ أمّا إذا الليلُ جَنَّها فتَخْفَى وأمّا بالنهار فتظهرُ
إذا انشقَّ عنها ساطعُ الفَجْرِ وانجَلَى دُجَى الليلِ وانجابَ الحِجَابُ المستّرُ

---

(١) ليس في ا ، وترشح الفصيل : قوى على المشى . (٢) الجراز : السيف القاطع .
(٣) الخضراء : السماء . (٤) ديوانه : ٢ — ١٣١ .
(٥) في الديوان : ولقد أبيت . وفي ا : شربت . (٦) في الديوان : الصبح .
(٧) قراب السيف : غمده . (٨) في ط : أورقا .

وألبس عرض الأرضِ لوناً كأنَّهُ   على الأفق الشرقيّ ثوبٌ مُعَصْفَرُ
تجلَّتْ وفيها حين يَبْدُو شعاعُها   ولم يعلُ(١) للعينِ القصيرةِ مَنْظَرُ
عليها كَرَدْعِ الزعفرانِ يشبّهُ   شَعاعٌ تلألأ فهو أبيضُ أصفرُ
فلما علَتْ وابيضّ منها اصفرارُها   وجالَتْ كما جالَ المَنيحُ(٢) المشهَّرُ
وجلّتْ الآفاقَ ضوءاً يثيرها   بحرٌ لها وَجْهُ الضُّحَى تتسعّر
ترَى الظلّ يُطوَى حين تَبْدُو، وتارةً   تراه إذا زالتْ عن الأرضِ يُنْشَر
كما بدأتْ إذْ أشرقَتْ في مَغيبها   تعود كما عادَ الكبيرُ المعمَّر
وتدنَفُ(٣) حتى ما يكادُ شعاعُها   يَبِين إذا ولَّتْ لمن يتبصَّرُ
فأفنَتْ قروناً وهْيَ في ذاكَ لم تزَلْ   تموتُ وتَحْيَا كلَّ يومٍ وتُنْشَر

[من أحسن ما قال العرب]

وقال عبد الملك بن مروان لبعض جُلسائه يوما: ما أحكم أربعة أبياتٍ قالتها العرب في الجاهلية ؟ فأنشده :

منع البقاءَ تقلُّبُ الشمسِ   وطلوعُها من حيث لا تُمسي
وطلوعُها بيضاءَ صافيةً   وغروبُها صفراءَ كالوَرْسِ
تجرى على كَبِدِ السماء كما   يَجْرِى حِمامُ الموتِ في النفْسِ
اليوم تَعْلَم ما يجيء به   ومضَى بفَصْلِ قضائه أمْسِ

قال : أحسنت ، فأخبرنى بأمدح بيتٍ قالَتْه العرب في الشجاعة . قال : قول كعب ابن مالك الأنصارى :

نَصِلُ السيوفَ إذا قصُرْنَ بخَطْوِنا   قدما ونلحقها إذا لم تلحقِ

قال : فأخبرنى بأفضل بيتٍ قيل في الجود . فأنشده لحاتم طيء(٤) :

---

(١) في ط : ولم يحل . (٢) المنيح : قدح بلا نصيب وقدح يستعار تيمنا بفوزه ، وفي ط : المهيج المسير ، وما أثبتناه من ا . (٣) دنفت الشمس : مالت للغروب . وفي ط : وتدنف .
(٤) ديوانه : ١١ ، المختار : ١٠٨ ، اللآلى : ٩٢٨ .

أماويّ ما يُغْنِي الثراء عن الفَتَى ... إذا حشرجَتْ يوماً وضاق بها الصدرُ
ترىْ أن ما أبقيتُ لم أكُ رَبَّه(١) ... وأن يدى مما بَخِلْتُ به صِفْرُ
ألم ترَ أنَّ المالَ(٢) غادٍ ورائحٌ ... ويبقَى من المالِ الأحاديثُ والذِّكْرُ
غَنِينا زمانا بالتصعلك والغِنَى ... فكلاً سقاناهُ بكأسيهما الدَّهْرُ(٣)
فما زادَنا بَغْياً على ذِي قرابةٍ ... غِنَانا ولا أزرى بأحسابِنا الفَقْرُ

قال : فأخبرنى عن أحسن الناس وصفا ؟ قال : الذى يقول :

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رَطْباً ويابِساً ... لدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البَالِي

والذى يقولُ :

كأنَّ عيونَ الوَحْشِ حول خِبَائنا ... وأرحُلِنا الجَزْعُ الذى لم يُثَقَّبِ

والذى يقول :

وتعرفُ فيه من أبيه شَمائلاً ... ومن خَالِه ومن يزيد ومن حُجر
سماحةَ ذَا مع بِر ذَا، ووفاء ذَا ... ونائل ذَا إذا صَحَا وإذا سَكِر

يريد امرأ القيس .

ومن ألفاظ أهل العصر فى طلوع الشمس وغروبها

ومتوع النهار وانتصافه وابتدائه وانتهائه

بدا حاجِبُ الشمسِ ، ولمَعَتْ فى أجنحةِ الطيرِ ، وكشفَتْ قِناعَها ، ونشرتْ شعاعَها ، وارتفع سُرادِقُها ، وأضاءتْ مشارِقُها ، وانتشر جناحُ الضوء فى أفق الجو. طنَّب(٤) شعاعُ الشمسِ فى الآفاق ، وذهَّبَت أطرافَ الجدران . أينع النهارُ وارتفع . استوى شبابُ النهار ، وعلا رَوْنَقُ الضحى ، وبلغت الشمسُ كَبِدَ السماء . انتعل

(١) فى الديوان : أن ما أهلكت لم يك ضرنى . (٢) فى رواية الديوان : أماوى إن المال .
(٣) رواية الديوان :

لبسنا صروف الدهر لينا وغلظة ... كما الدهر فى أيامه العسر واليسر

(٤) طنبه تطنيبا : مده بأطنابه وشده .

كلُّ شيء ظلَّه ، وقام قائمُ الهاجرة ، ورمَت الشمس بجمَرَاتِ الظهر . اصفرَّتْ غِلالةُ الشمسِ ، وصارت كأنها الدينارُ يلمعُ فى قرارِ الماء ، ونفضَتْ تِبْرًا على الأصيل . وشدَّتْ رَحْلَها للرحيل . وتصوَّبَت الشمسُ للمغيب ، وتضيَّفَتْ[1] للغروب ، فأذِن جَنْبها للوُجوبِ . شاب النهارُ ، وأقبل شبابُ الليلِ ، ووقفت الشمسُ للميان ، وشافَهَ الليلُ لسانَ النهارِ . الشمسُ قد أشرقَتْ بروجُها ، وجنحت للغروب ، وشارفتْ دَرج الوجوب . الجوُّ فى أطمار منهجة[2] من أصائله ، وشفوف مورَّسَة من غلائله . استتر وَجْهُ الشمسِ بالنِّقَاب ، وتوارَتْ بالحجابِ . كان هذا الأمرُ من مطلع الفلق ، إلى مجتمع الغَسَق . فلان يركبُ فى مقدمة الصُّبح ، ويرجع فى ساقة الشفق[3] ، ومن حين تفتحُ الشمسُ جَفْنَها إلى أن تغمض طَرْفها ، ومن حين تسكنُ الطيرُ أوكارَها ، إلى حين ينزلُ السَّرَاة مِنْ أكوارِها[4] .

* * *

المقامة الكوفية

مقامة[5] لأبى الفتح الإسكندرى من إنشاء البديع ، اتَّصلَتْ بذكرِ الليلِ والنهار : قال عيسى بن هشام : كنت وأنا فَتِيُّ السنِّ أشدُّ رَحْلِى لكلِّ عَمَايَة[6] ، وأركُضُ طِرْفِى لكل غَوَايَة ، حتى شربْتُ من العُمْرِ سائغَه ، ولبسْتُ من الدهرِ سابِغَه ، فلمَّا صاح النهارُ بجانبِ ليلى ، وجمعتُ للمعادِ ذَيْلِى ، وطِئْتُ ظَهرَ الرَّوضَةِ[7] ؛ لأداء المفروضة ، وصَحِبنى فى الطريق رَجلٌ لم أُنكِره من سوء ، فلما تخالينا ، وحين تَجالينا[8] ، سفرَتِ القصَّة من أصلٍ كوفىّ ، ومَذْهَب صُوفىّ ، وسِرْنا ؛ فلما حللنا الكوفةَ مِلْنَا إلى داره ، [ودخلناها] [9] وقد بَقَل[10] وجْهُ النهار ، واخضرَّ

---

(١) تضيفت : مالت .   (٢) فى ط : الجو فى أطمار بهجة .   (٣) فى ط : الغسق .
(٤) فى ط : تنزل المرأة . (٥) المقامات : ٢٨ . (٦) العماية : عدم إدراك الصالح ، وأراد به الملاذ .
(٧) وطئ ظهر الروضة : ركب المركب الذلول .   (٨) تجالى الرجلان : كشف كل منهما عن حاله .   (٩) من ا .   (١٠) بقل وجه الغلام : خرج شعره .

جارتُه ، ولما اغتمض جَفْنُ الليل وطَرَّ شارِبُه[1] قُرِع علينا البابُ ، فقلْنا : من القارعُ المُنْتَاب[2] ؟ فقال : وَفْدُ الليل وبريدُه ، وفَلُّ الجوعِ وطريدُه ، وأسيرُ الضُرِّ والزمَنِ المُرِّ ، وضيفٌ وطؤُه خفيف ، وضالّتُه رغيف ، وجارٌ يستعْدِى على الجوع ، والجَيْبِ المَرقوع ؛ وغريب أُوقِدت النارُ على سفره ، ونبحَ العَوّاء في أثره[3] ، ونُبذت خَلْفَهُ الحُصيّاتُ[4] ، وكُنِسَتْ بعده العَرَصَات ، فنِضْوُه طَلِيح ، وعيْشُه تبريح ، ومن دون فرخه مَهَامِهُ فِيح[5] . قال عيسى بن هشام : فقبَضْتُ من كِيسى قَبْضَةَ الليثِ وبعثتُها إليه ، وقلتُ : زِدْنا سُؤالا نَزِدْكَ نَوَالا ، فقال : ما عُرِض عَرْفُ العودِ على أحرَّ من نار الجُودِ ، ولا لُقِىَ وَفْدُ البرِّ ، بأحسن من بريد الشكر ، ومَنْ ملك الفَضْلَ فليواس ، فلا يذهبُ العُرْفُ بين اللهِ والناس ، وأما أنتَ فحقّق اللهُ أملكَ ، وجعل اليدَ العُلْيَا لك .

قال عيسى بن هشام : ففتحنا البابَ ، فإذا شيخُنا أبو الفتح الإسكندرى ، فقلنا : يا أبا الفتح ، شدّ ما بلغَتْ بك الخَصَاصَةُ ، وهذا الزىُّ خاصة ! فتبسّم وأنشأ يقول :

لا يَغُرَّنَّكَ الذى أنا فيه من الطلَبْ
أنا فى بُرْدَةٍ تُشَقُّ لهـــا بُرْدَةُ الطرَبْ
أنا لو شِئْتُ لاتّخَذْ تُ شِقَاقًا من الذهَبْ

[من رسائل البديع]

من البديع إلى بعض إخوانه

وكتب البديعُ إلى بعض إخوانه : غضَبُ العاشق أقصرُ عمراً من أن ينتظرَ عُذراً ؛ وإن كان فى الظاهر مَهَابَةَ سَيْف ، إنه فى الباطن سحابةُ صَيْف ، وقد رَأَيْتُ إعراضَه صَفْحا ، أفجدًّا قصدَ أم مَزْحاً ، ولو التبس القَلْبَان حتّى التباسهما ما وجد الشيطانُ بينهما مساغا ، ولا والله لا أريكَ رداًّ ، أجِدُ منه بدًّا ، إن كان قصد أن عبة

---

(١) طر شاربه : طلع . (٢) المنتاب : هو الطارق بليل.
(٣) العواء : الكلب يعوى كثيرا . (٤) فى ا : الحصيات . (٥) المهامه الفيح : القفار الواسعة الأرجاء .

تحتمل شكًّا لا لأجدرُ محبة ، ألا نشترى بحبّةٍ ، وإن كان قصدَ مزْحاً فا أغنانا عن مزْح يحلّ عُقَد الفؤاد [حتى نقف على المراد ، لا تسمنا إلا العافية] (١) والسلام .

وله إليه : المودّة ـ أعزّك الله ـ غَيْب ، وهو فى مكان من الصَّدْر ، لا ينفذه بصر ، ولا يُدْرِكه نَظَر ، ولكنها تُعْرَف ضرورة ، وإن لم تظهر صُورَة ، ويدركها الناس ، وإن لم تدركها الحوّاسّ ، ويستمْلِى المرء صحيفتَها من صدره ، ويعلم حالَ غيره من نفسه ، ويعلم أنها حبٌّ وراء القلب ، وقلب وراء الخِلْب ، وخِلْب (٢) وراء العَظْم ، وعَظْمٌ وراء اللحم ، ولحم ورَاء الجلد ، وجلدٌ وراء البُرْد ، وبُرْد [وراء البعد] (١) . ولو كانت هذه الحجُب قوارير لم ينفذها نظر ، فيستَدِلّ عليها بغير هـذه الحاسّة بدليل إلّا أن أزوره ، والله لو التبست به التباساً يجعل رأسينا رأساً ، ما زدْته ودًّا ، ولو حال بينى وبينه سُورُ الأعرافِ ، ورمْل الأحقافِ ، ما نقصته حقا .

* * *

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى :

وغزَالٍ منَحْته خالصَ الودّ فجازَى بالصدّ والإنتحاب (٣)
لم ألمْهُ إن ردّنى لحجابٍ ردّنى والِهَ الفؤاد (٤) لِمَا بِى
هو روحٌ وليس يُنْكَر للرُّوح تَوَارٍ عن الورَى بحجابٍ

* * *

من البديع إلى أخيه

وللبديع إلى أخيه :

كتابى أطال الله بقاءَك ، ونحن وإن بَعُدَتِ الدارُ فَرْعَا نَبْعَةٍ ، فلا يجنِيَنّ بُعْدِى على قُرْبك ، ولا تمحوَنّ ذِكْرِى من قلبك ، فالأخَوَان ، وإن كان أحدُهما بخراسان والآخر بالحجاز مجتمعان على الحقيقة مفترقان على المجاز ، والاثنان فى المعنى واحد وفى اللفظ اثنان ، ومابينى وبينك إلا ستر طولُهُ فِتْرٌ ، وإن صاحبى رَفيق ، اسمه توفيق ، لنلتقِينّ سريعاً ، ولنسعدَنّ جميعاً ، والله ولىّ المأمول .

(١) من ا . (٢) الخلب بالكسر : لحمة رقيقة تصل بين الأضلاع أو الكبد .
(٣) فى ط : والاجتناب . (٤) فى ط : واله الحشا ذا التهاب .

كتاب لابن العميد

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى بعض إخوانه :

قد قَرُبَ ـ أيدك الله ـ محلّك على تَرَاخِيه ، وتَصاقَب مستقرُّك على تَنَائيه ؛ لأنّ الشوقَ يمثّلُك ، والذكر يخيّلك ؛ فنحنُ في الظاهر على افتراق ، وفي الباطن على تلاق ، وفي التسميةِ مُتَبَاينون ؛ وفي المعنى متواصِلُون ؛ ولئن تفارقت الأشباحُ ، لقد تعانقت الأرواح .

جملة من كلام ابن المعتز في الفصول القصار

الدهرُ سريعُ الوثبة ، شنيع العَثْرَة . أهلُ الدنيا كرَكْبٍ يُسَارُ بهم وهم نِيَام . والناسُ وَفْدُ البِلى ، وسكّان الثَّرَى ، وأقران الرَّدَى . المرء نَصْبُ الحوادثِ وأسيرُ الاغترار . الآمالُ مصايِرُ الرجالِ . الحِرْصُ يَنْقص المرء من قَدْرِه ، ولا يزيدُ في رزْقه . الكذب والحسدُ والنفاق أثافِيّ الذلّ . النّمام جِسْرُ الشر . الحاسدُ اسمُه صديق ومعناه عدوّ . الحاسدُ ساخِط على القدر ، مغتاظ على من لا ذَنْب له ، بخيل بما لا يملِكُه ، يشفيك [منـــه][(1)] أنه يغتمُّ في وقت سرورك . الفُرْصَةُ سريعةُ الفَوْتِ بطيئةُ العَوْدِ . الصبر من ذى المصيبة مصيبةٌ على ذوي الشّمات . التواضعُ سُلَّم الشرفُ ، والجُود صِوَانُ العِرْضِ من الذم . الغَدْر قاطع . [الأسرار][(1)] إذا كثر خُزّانها ازدادت ضياعا . السوء كشجرة النار يَحْرِق بعضُها بعضا . عَبْدُ الشهوة أذلُّ من عبد الرقّ . وعاء الخطأ بالصَّمْتِ يختم ، والخرق بالرِفْقِ يلحم . الوَعْدُ مرضُ المعروف ، والإيجازُ برؤه ، والمَطْل تلفه . إذا حضَرَ الأجل ، افتضح الأمل . لا تشن وَجْهَ العفو بالتقريع . لا تنكحْ خاطبَ سِرّك . ومن زَاد أدَبُه على عقله كان كالراعي الضعيف مع شاء كثيرة .

قال أبو العباس الناشيء لأبي سهل بن نوبخت :

زعمْتَ أبا سهل بأنك جامعٌ ضُرُوباً من الآداب يجمعُها الكمّلُ

(١) من ا .

وهَبْك تقولُ الحقَّ أىَّ فضيلةٍ تكونُ لذى عِلْمٍ وليس له عَقْلُ

الهمُّ حَبْسُ الروح . قلوبُ العقلاء حصونُ الأسرار . مَن كَرُمَتْ عليه نفسُه هان عليه ماله . من جرى فى عنان أمله، عثر بأجَلِه . ما كلُّ من [يُحْسِنُ][1] وعدَه يحسنُ إنجازه . ربما أوردَ الطمعُ ولم يُصْدِر ، وضمِن ولم يُوفِ . وربما شرق شاربُ الماء قبل ريّه . من تجاوزَ الكفافَ لم يُغْنِه إكثارٌ . كلما عظُم قَدْرُ المنافس فيه عظمت الفجيعةُ بفَقْدِه، ومن أَرْحَله الحِرْص أنْضَاه الطلب . الأمانىّ تُعْمِى أعيُنَ البصائر ، والحظُّ يأتى من لم يؤمه . وربما كان الطمعُ وعاءً حَشْوُهُ التالف ، وسائقاً يَدْعُو إلى الندامة . ما أحْلَى تلقّى البغية ، وأمرَّ عاقبةَ الفراق . من لم يتأمّل الأمرَ بعَيْنِ عقله ، لم تَقَعْ حيلتُه إلّا على مَقَاتِله .

[رثاء المعتضد وتعزيته]

رثاؤه وقال أبو العباس يَرْثى المعتضد :

قضَوْا ما قضَوا من أمرِهم ثم قدَّموا إماما إمامَ الخَلْق بين يَدَيْه
وصلوا عليه خاشعين كأنّهم صفوفٌ قيامٌ للسلامِ عليهِ

وقال يَرْثيه :

قالت شريرة[2] ما لجَفْنِك ساهراً قَلِقاً وقد هدأتْ عيونُ النُّوَّمِ
ما قد رأيت من الزمانِ أحلَّ بى هـذا وتحت الصَّدْرِ ما لم تَعْلَمِى
يا نفس صبراً للزمانِ وريْبِه فهو الملىء بما كرهْتِ فسلِّمى
إنّ الذى حازَ الفضائلَ كلَّها هو ذاك فى قَعْرِ الضريحِ المُظْلِم
أما السيوفُ فمن صنائعِ بأسِهِ لولاه لم يُرْوَيْن من سَفْكِ الدَّم
وكأنَّ أحداثَ الزمانِ عبيدهُ فمتى يؤخِّرهن لا تستقدم[3]
يَقْظانُ من سِنَةِ المُضيِّع قلبُهُ ومعوّل للمُمْـولِ المتظلِّم

---

(١) من ا . (٢) هكذا فى ا ، وفى ط : سريرة . (٣) فى ط : لا تقدم .

يَرْعَى الضغائن قبل ساعةِ فرصةٍ   فإذا رآها أمكنَتْ لم يُحْجِم
كم فرصةٍ تُرِكَتْ فصارَتْ غصَّةً   تَشْجَى بطولِ تلهُّفٍ وتَنَدُّمِ
ولربَّ كَيْدٍ ظلَّ يَسْجُد بعدها[1]   فى بِشْرِ وَجْهٍ مطلَقٍ متجهِّمِ
وهى المنـــايا إن رمين بِنَبْلِها   يرمين فى نَفْسِ الأجلِّ الأعْظمِ
لله دَرُّك أى ليث كتيبةٍ   والخيلُ تعثر بالقَنَا المتحطِّم
ولقد عمرت ولا حريم معاند   حرمٌ ولا الإســـلام بالمستسلم

وقال للمعتضد يعزّيه بابنه هارون :

يا ناصرَ الدينِ إذ هُدَّتْ قواعِدُهُ   وأصْدَقَ الناسِ فى بُؤْسَى وإنعامِ
وقائدَ الخيلِ مذ شُدَّتْ مآزِرُهُ   مذلَّلاتٍ بإسْرَاجٍ وإلجامِ
كأنّهن قناً ليسَتْ لها عُقَدٌ   يهزُّهَا الزَّجْرُ فى كرٍّ وإقدامِ
قُبٌّ كطىِّ ثيابِ العَصْبِ[2] مضمرة   تقرِّبُ النارَ بين البيض والهامِ
وسائسَ الملك يَرْعاه ويكلؤهُ   إذا حَلَا الغُمْضُ فى أجفانِ نُوَّامِ
تَجْرِى أنامِلُه الدنيـــا لصاحبها   ونَصْلُه مِنْ عِدَاهُ قاطرٌ دامِى
كالسَّهْمِ يمنه الرَّامِى فصفحته   تَلْقَى الرَّدَى دونَه، والفُوقُ للرامِى
لا يَشْتَكِى الدَّهرَ إنْ خَطْبٌ ألمَّ به   إلّا إلى صَعْدَةٍ أو حَدِّ صَمصامِ[3]
صبراً، فدَيْنَاكَ إنّ الصبرَ عادَتُنَا   وإن طُوِينَا على حُزْنٍ وتهيامِ
فبادِرِ الأجْرَ نحو الصَّبْرِ محتَسِباً   إنّ الجزوعَ صَبُورٌ بعـــد أيامِ

تعزيه بجاريته

ولما ماتت دُرَيدة[4]، وهى جاريةٌ [المعتضد و][5] كانت مَكِينةً عنده، جزع عليها جزعا شديدا، فقال له عبيد الله بن سليمان: مِثْلُكَ يا أميرَ المؤمنين تَهُونُ عليه المصائبُ؛ لأنّك تجدُ من كل فقيدٍ خَلَفا، وتنالُ جميعَ ماتريد من العِوَضِ، والعِوَض لايُوجَد منك، فلا ابْتَلَى اللهُ الإسلام بفَقْدِكَ، وعمره بطولِ بقاء عُمْرِك، وكأن الشاعر عَنَى أمير المؤمنين بقوله :

(١) فى ا : ولرب كيد ظل يسجد معلما .   (٢) فى ط : القصر .
(٣) الصمصام : السيف لاينثنى .   (٤) فى ط : دويرة .   (٤) من ا .

يُبكَى علينا ولا نَبكِي على أحَدٍ ... لنَحْنُ أغلَظُ أكباداً من الإبلِ

فضحك المعتضد وتسلّى وعاد إلى عادته .

قال محمد بن داود الجراح : فلقيني عبيدُ الله فأخبرني بذلك ، وقال : أردت شعراً في معنى البيت الذي أنشدتُه فما وجدته ؛ فقلت له قد قال البُطَيْن البجليّ :

طوى الموتُ ما بيني وبين أحبّةٍ ... بهم كُنتُ أُعطِي مَنْ أشاء وأمنعُ

فلا يحسب الوَاشُون أنّ قَناتَنا ... تَلِينُ ولا أنّا من الموتِ نَجْزَعُ

ولكنّ للأُلّافِ — لابدّ — لَوْعَةً ... إذا جملت أقرانُها تتطلّعُ[1]

فكتبه ، وقال : لو حفظته لما عدلتُ عنه .

[من شعر ابن المعتز]

في ذكر الموتى

وقال ابن المعتز ، وذكر الموتى[2] :

وسُكّانِ دارٍ لا تَزَاوُرَ بينهم ... على قُرْبِ بعضٍ في المحلّةِ من بَعْضِ

كأنّ خواتِما من الطينِ فوقَهم ... فليس لها حتى القيامة من فَضِّ

في المدح

وقال يمدح عبيد الله بن سليمان :

أيا مُوصِلَ النُّعْمَى على كلّ حالةٍ ... إليّ قريباً كنتُ أو نازحَ الدّارِ

كما يلحق الغيثُ البلادَ بسَيْلِه ... وإن جادَ في أرضٍ سِواها بإمطار

ويا مقبلاً والدّهرُ عنّيَ مُعرِضٌ ... يقسّمُ لَحْمِي بين نابٍ وأظفارِ

ويامَنْ يَرَاني حيث كنتُ بقلبِه ... وكم من أناسٍ لا يَرَوْنَ بأبْصَارِ

لقد رَمَتْ بي آمالُ نفسيَ كلها ... فيا لهفَ نفسِي لو أعنت بمقدار

ذكرتَ مُنى سَمْعِ الإمامِ وعينه ... ورفّعتَ ناري كي يرى ضوءها السارى

وكم نعمةٍ لله في صَرْفِ نِقْمَةٍ ... ترجّى ومكروهٍ حَلَا بعد إمرار

وما كلُّ ما تَهْوَى النفوسُ بنافعٍ ... ولا كلّ ما تخشى النفوسُ بضرّار

---

(١) في ط : تتقطع . (٢) ديوانه : ١ — ١١٦ .

قوله : * كما يلحق الغيثُ البلادَ بسَيْله * مأخوذ من قول نَهشَل بن حَرِيّ وقد بعث إليه كثير بن الصَّلْتِ كُسوةً ومالا من المدينة : من النقد

جزَى اللهُ خيرا والجزاء بكفِّهِ   بنى الصلت إخوان السماحةِ والمجدِ
أتانى وأهلِى بالعراقِ نداهُمُ   كما انقضَّ سيلٌ من تِهامة أو نجدِ

وقال ابن المَوْلَى :

سُرِرْتُ بجعفرٍ إذ حَلّ أرْضِى   كما سُرّ المسافرُ بالإيابِ
كممطورٍ ببلدته فأضْحَى   غَنِيًّا عن مطالبة السَّحَابِ

* * *

وبعث عبدُ الله(١) بنُ طاهر إلى أبى الجنوب بن أبى حفصة وهو ببغداد عشرين ألفَ دِرْهم فقال : لعبد الله بن طاهر

لعمرى لنعم الغَيْثُ غيثٌ أصابنا   ببغداد من أرْض الجزيرةِ وَابِلُه
ونِعْمَ الفتى والبِيدُ بينى وبينه   بعشرين ألفاً صَبّحَتْنِى رسائِلُه
فكنّا كحىٍّ صبّحَ الغَيْثُ أهلَهُ   ولم تنتجعْ أظعانُه وحَمَائِلُه
أتى جودُ عبدِ الله حتى كفت بهِ   رواحلَنا سيرَ الفَلاةِ رَوَاحِلُه

وكانت بنو كلاب ومن والاها من العرب بنواحى الكوفة تجمَّعوا وعزَموا على أخْذِ الكوفةِ سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة ، فبعث أبو شجاع عضد الدولة دِنير(٢) ابن لشكروز فأصلحهما ، وكان أبو الطيب المتنبّي بها فوصله وبعث إليـــه خلعاً وقاد إليه فرساً بسَرْجٍ ثقيل ، فقال فى قصيدة(٣) : للمتنبي

فلو لم يَسِرْ سِرْنَا إليه بأنفُسٍ   غرائبَ يُؤْثِرْنَ الجيادَ على الأهْلِ
وما أنا ممن يَدّعِى الشَّوْقَ قلبُه   ويحتَجّ فى تَرْكِ الزيارة بالشُّغْلِ

---

(١) فى ا : عبيد الله . (٢) فى التبيان : دلير ، وهذا من ا .
(٣) ديوانه : ٣ — ٢٩٤ .

ولكن رأيتَ الفضلَ في القصدِ شِرْكةً ... فكان لكَ الفضلانِ في القصدِ والفضلِ

وليسَ الذي يتّبعُ الوبْلَ رائداً ... كمَنْ جاءه في دارِه رائدُ الوبْلِ

لابن المعتز في المعتضد

وكان ابنُ المعتزّ يمدحُ أبا أحمد بن المتوكل ، ويلقّب بالناصر والموفّق ، وكانت حالُه ترامَتْ في أيام المعتضد إلى غايةٍ لم يبلغها الخليفة ، وقد ذكرها الصولى في قصيدة [لصاحب المغرب][1] ، فقال وقد اقتصّ خلفاء بني العباس من أولهم :

ومعتضد مِنْ بعـده وموفّق ... يُرَدّدُ من إرث الخلافة ما ذهبْ

مُوَازٍ لهُم في كل فضْلٍ وسؤدد ... وإنْ لم يكن في العدّ منهم لِمَنْ حَسَبْ

وقال المعتضد ، أو قِيلَ على لسانه لما غلب الموفّق على أمره :

أليس من العجائبِ أنّ مثلى ... يرى ما هانَ ممتنعاً عليهِ

وتؤخذ باسْمِه الدنيا جميعاً ... وما مِنْ ذاكَ شيء في يديهِ

وشعر ابن المعتز فيه[2] :

إليك امتطينا العيسَ تنفخ في البُرى ... وللصُّبحِ طَرْفٌ بالظلامِ كحيل

صدينَ من التّهجيرِ حتى كأنّها ... سيوفٌ جلاها الصّقْل فهى تَحُولُ

فبِتْنا ضيوفاً للفلاةِ قِراهمُ ... عَنِيق[3] ونَصٌّ دائمٌ وذَميلُ

يهزّ برودَ العَصْبِ فوقَ متونِها ... نسيمٌ كنَفْثِ الراقياتِ عَليلُ

ولما طغى أمرُ الدّعيّ رميتَهُ ... بعزْمٍ يردُّ العَضْبَ وهو فَليل

وجرّد من أغماده كل مرْهَفٍ ... إذا ما انتضته الكفُّ كادَ يَسيلُ

جرَى فوق مَتْنَيه الفرِنْدُ كأنما ... تنفّس فيه القَيْنُ وهو صقيلُ

وأعلمته كيف التصافُح بالقنا ... وكيف تُروى البيض وهى مُحُولُ

سريعٌ إلى الأعداء أما جنانُه ... فماضٍ وأمّا وَجْهُه فجميل

ويقرى السؤال العُذْرَ من بعد ماله ... ويستصغرُ المعروفَ حينَ يُنيلُ

---

(١) من ا . (٢) ديوانه : ١ — ١٢٤ . (٣) العنيق : نوع من السير كالعنق .

أخذ معنى قوله : « نسيم كنفث الراقيات عليل » عبد الكريم بن إبراهيم ، من النقد فقال :

سلامٌ على طيب رَوْحاتنا ... إلى القَصْرِ والنهرِ الخِضْرِمِ(١)
إلى مَنبِتِ المَوْزِ طاري الصَّبا ... ب يقذفُ بالبَانِ والسَّاسمِ(٢)
تخالُ به قَطِماً مُقْرَماً ... يكرّ على قَطِمٍ مُقْرَمِ(٣)
ويَسجُو فيسحب في ذائلٍ(٤) ... يمانٍ تَسهَّمَ بالأنجمِ
كأنّ الشمالَ على وَجْهِهِ ... بهــا سقمٌ وهي لَمْ تسقمِ
ضعيفةُ رَشٍّ كنَفْثِ الرُّقى ... على كبدِ المُدْنَفِ المُغْرَمِ
إذَا دَرجَتْ فوقه دَرجَةً ... ه في حُبُكِ الزَّرَدِ المُحكَمِ
وقد حلّلتهُ بأوراقها ... فروعٌ غذتْـهـا نِطافُ الدِّيَمْ
علَتْها الحمامُ بتغريدها ... كما سجَعَ النَّوْحُ في مَأْتَمِ
كأنّ شعاعَ الضُّحى بينها ... على السوسنِ الغضِّ والخُرَّمِ(٥)
وشائعُ من ذَهَبٍ سائلٍ ... على خُسْروانيّةٍ نُمَّمِ
رُبًا تتقّاً من فوقها ... عَزالِي الربيعِ لها المِرْزَمِ
على كلّ عجيبةٍ خلّةٍ ... تَسَدَّى على جَدْوَلٍ مفعَمِ
كما فتل الوَقْفَ صَوَّاغُه ... وكالأرقمِ انْسابَ للأرقمِ

صاحب الزنج — وقول ابن المعتز : ولمــا طغا أمرُ الدعيّ ، يريد صاحب الزنج بالبصرة ، وكانت لابن الرومي في المدح — شوكته قد اشتدّت وظفر به بعد مواقعة كثيرة ، وفي ذلك يقول ابنُ الرومي في قصيدة طويلة جدا يمدح فيها أبا أحمد [الموفق بن المتوكل ، وصاعد بن خالد ، والعلاء بن صاعد

(١) الخضرم : العظيم . (٢) الساسم : شجر أسود ، وقيل : هو الآبنوس .
(٣) فحل قطم : صئول ، وأقرم الفحل : أكرمه من المهنة ، فهو مقرم .
(٤) ذائل : طويل الذيل . (٥) الخرم : نبات الشجر ، والناعم من العيش (القاموس) .

ابنه ، وهى من أجود شعره فقال] :(١)

أبا أحد أبليتَ أمّة أحمدٍ … بلاء سيرضاهُ ابنُ عمّك أحمد
حصرتَ عميدَ الزنجِ حتى تخاذلتْ … قُواه وأودَى زادُه المتزوَّدُ
فظلّ ، ولم تقتله ، يلفظُ نفسهُ … وظلّ ، ولم تأسِرْه، وهوَ مقيّدُ
وكانتْ نواحِيه كثافاً فلم تزَلْ … تحيّفها شَحْذاً كأنكَ مِبْرَدُ
تفرّق عنه بالمكايد جُنْدَهُ … ويزدادهم جندا وجندك محصَدُ
ولاَبِسُ سَيْفِ القِرْنِ بعداستلابهِ … أضرُّ له من كاسديه وأكْيَدُ
فما رُمْته حتى استقلّ برأسه … مكان قناةِ الظهر أسمرُ أجرَدُ

[هذا مأخوذ من قول مسلم بن الوليد :

ورأس مهراق قد ركبت قلته … لدنا يقوم مقام الليّتِ والجيد(١)]

ولم تأل إنذاراً له غــيرَ أنهُ … رأى أنّ مَتْنَ البحرِ صَرحٌ ممرّدُ
سكنْتَ سكونا كان رَهْناً بوثْبَةٍ … عماسٍ(٢) كذاك الليثُ للوثْبِ يلبدُ

هذا مأخوذ من قول النابغة :

وقلت يا قوم إن الليثَ منقبضٌ … على براثنِهِ للوثْبَةِ الضارِى

ويقول فى مدح صاعد :

يقرّظ إلا أنّ ما قيلَ دونهُ … ويوصَف إلا أنه لا يحدّدُ(٣)
أرقّ من الماء الذى فى حُسَامِهِ … طِباعاً وأمْضَى من شَبَاهُ وأنْجَدُ
له سَوْرَة مكتنّة فى سَكِينةٍ … كما اكتنّ فى الغِمْدِ الجُرازُ المهنّد
كأنّ أباه حين سمّاه صاعدا … رأى كيف يَرْقَى فى المعالى ويَصْعَدُ

* * *

من النقد [لما سمع البحترى هــذا البيت قال : منى أخذه . فى قوله فى العلاء بن صاعد(٤)] :

(١) من ا . (٢) العماس : الحرب الشديدة . (٣) فى ط : يجحد .
(٤) من ا ، وفى ط : وله فى العلاء ، وصاعد . والبيت فى ديوان البحترى : ١ـ١٩٢ .

سَمَاهُ أسرته العلاء وإنما ... قصدوا بذلك أن يتمَّ عُلَاهُ

وهــذا فى قوله ، كما قال [ابن][١] المرزبان وقد أنشد لابن المعتز فى مناقضة الطالبيين[٢] :

دَعُوا الأُسْدَ تسكنُ فى غابها ... ولا تدخلوا بين أنيابها

فنحن ورثنا ثيابَ النبي ... فلِم تجذبُونَ بهدابها

[قال :][١] قد أخذه من [قول][١] بعض العباسيين :

دَعُوا الأُسْدَ تسكن أغيالها ... ولا تقربوها وأشبالَها

ولكنه سرق سَاجاً ، وردّ عاجاً ، وغلّ قطيفة ، وردّ ديباجا .

ومن قصيدة ابن الرومى :

تراه على الحَرْبِ العَوَانِ بمَعْزِل ... وآثارُه فيها ، وإنْ غابَ ، شُهَّدُ

كما احتجب المقدارُ والحكم حكمهُ ... على الخلق طرًّا ليس عنه معرّدُ[٣]

البحترى[٤] :

ولى الأمور بنفسه ومحلّها ... متقاربٌ ومرامُها متباعِدُ

يتكفل الأدنَى ويُدْرِكُ رأيه الـ ... أقصى ويتبعُه الأبِيّ العانِدُ

إن غار فهو من النباهة منجد ... أو غاب فهو من المهابة شاهد

وقال أعرابى يصف رجلا : كان إذا ولّى لم يطابق بين جفونه، ويرسل العيونَ على عيونه ؛ فهو غائبٌ عنهم ، شاهدٌ معهم ، والمحسِنُ آمن، والمسىء خائف:

فتى رُوحه روحٌ بسيطٌ كيانه ... ومسكن ذاك الرُّوحِ نورٌ مجسّدُ

صَفَا ونَقَى عنه القَذَى فكأنّهُ ... إذا ما استشفّتْهُ العقولُ مصمّد

كرمتم فجاش المفحمون بمدحكم ... إذا رجزوا فيكم أثبتم فقصّدوا

أرَى مَنْ تعاطى ما بلغتم كرائمٍ ... منَالَ الثريَّا وهو أكمهُ مُقْعَد

---

(١) من ا . (٢) ديوانه : ١ — ٦ . (٣) عرد : هرب ، وفى ط : معرد .
(٤) ديوانه : ٢ — ١٢٠ .

كما أزهرتْ جناتُ عَدْنٍ وأثمرَتْ ... فأضْحَتْ وعُجْمُ الطيرِ فيها تغرّدُ

وفى هذه القصيدة يقول[1] :

لِمَا تُؤذِنُ الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفلِ ساعةَ يُولَدُ
وإلّا فمــا يُبكيه منها وإنها ... لأفسَحُ مما كان فيه وأرغَدُ
إذا أبصر الدنيا استهلّ كأنّهُ ... بما سوفَ يَلْقَى من رداها يُهَدَّدُ

قال الصولى : افتتح ابنُ الرومى هــــذه القصيدة على ما يلزمه[2] من فتح ما قبل حَرْفِ الروى اقتداراً، فحمله ذلك على أن قال :

متاحٌ له مقداره فــكأنما ... تقوّض ثَهْلَان عليه وسندَدُ

ثهلان : اسم جبل ، وهذا لا يصحّ ، إنما هو سندِد بكسر الدال ؛ لأن فعلَلا لم يجئ إلا فى أربعة أحرف : درهم ، وهِجْرَع [للأحمق][3] ، وهِبْلَع للذى يبلعُ كثيرا ، وقِلْعم للذى يقلعُ الأشياء .

لابن المعتز وغيره فى السيف

وقول ابن المعتز فى وصف السيف[4] : * كأنما تنفّس فيه القَيْنُ وهو صقيل * معنى بديع فى وصف الفرند ، وقد قال[5] :

ولى صارمٌ فيه المنايا كوامنٌ ... فما يُنْتَضَى إلّا لسَفْكِ دماء
ترى فوق مَتْنَيْهِ الفِرِنْدَ كأنّهُ ... بقية غَيْمٍ رقّ دون سماء

وقال أيضاً إسحاق بن خلف :

ألقى بجانب خصره ... أمضى من الأجل المتاح
وكأنما ذَرَّ الهبا ... ء عليه أنفاسُ الرياح

ولما صار سيفُ عمرو بن معد يكرب الذى كان يسمّى الصَّمْصَامة إلى الهادى ، وكان عمْرٌو وهبه لسعيد بن العاص ، فتوارثه ولدُه إلى أن مات المهدى ، فاشتراه

---

(١) الأمالى ٢ ـ ٢٨٥ ، اللآلى : ٩٢٦ ، ديوانه : ٣٩٣ .   (٢) ه، ط : مالايلزمه .
(٣) من ا .   (٤) فى صفحة ٧٧٦ .   (٥) ديوانه : ٢ ـ ١٠٥ .

موسى الهادى منهم بمال جليل ، وكان أوسعَ بنى العباس كفًّا ، وأكثرهم عطاء ، ودعا بالشعراء ، وبين يديه مِكْتَل فيه بدْرَة ، فقال : قولوا فى هـذا السيف ؛ فبدر ابن يامين البصرى فقال^(١) :

لابن يامين

حاز صمصامةَ الزُّبيدِى من بيـ ... ـن جميع الأنام موسى الأمينُ
سيف عَمْرو وكان فيما سمِعْنا ... خيرَ ما أُغْمِدتْ عليه الجفونُ
أخضر اللون بين خديه بردٌ ... من ذعاف يميسُ فيه المنون
أوقدت فوقَه الصواعِقُ ناراً ... ثم شابَتْ فيه الذعافَ القيونُ
فإذا ما سللتهُ بهر الشمـ ... ـس ضياء فلم تكد تستبينُ
ما يُبَالِي مَن انتضاهُ لحرب(٢) ... أشمالٌ سطَتْ به أو يمينُ
يستطيرُ الأبصارَ كالقبس المشـ ... ـعَل ما تستقرُّ فيه العيونُ
وكأنّ الفِرِندَ والجوهر الجا ... رى على صفحتيه ماء معين
نِعْمَ مخراق ذى الحفيظة فى الهيـ ... ـجاء يَعْصَى به ونِعْمَ القرينُ

قال موسى : أصبت ما فى نفسي ، واستخفَّه [الفرح](١) فأمر له بالمِكْتَل والسيف ؛ فلما خرج قال للشعراء : إنما حُرِمتم من أجلى ، فشأنكم المكتل ، وفى السيف غناى ، [فقام موسى](٣) فاشترى منه السيف بمالٍ جليل

البحترى(٤) :

للبحترى

قد جُدْتَ بالطِّرْفِ الجوادِ فثنِّه ... لأخيك من جَدْوَى يديك بمُنْصَل
يتناول الرُّوحَ البعيدَ منالهُ ... عفواً ويفتح فى القضاء المُقْفَل
بإنارة فى كل حَتْفٍ مظلِمٍ ... وهداية فى كل نفس مجهل
يَغْشَى الوغى فالترس ليس بجُنَّةٍ ... مِنْ حدّه والدِّرْعُ ليس بمَعْقِل

---

(١) اللآلى : ٦٠٤ ، ديوان المعانى ٢ — ٥٢ ، مع الخبر . (٢) فى اللآلى : ما يبالى إذا الضريبة حانت . (٣) من ا ، وديوان المعانى . (٤) اللآلى : ٦٠٤ ، ديوانه : ٢ — ٢١٩ ديوان المعانى : ٢ — ٥٣ .

ماضٍ وإن لم تُمْضِه يَدُ فارس ... بطلٍ ومصقولٌ وإن لم يُصْقَل
مُصْغٍ إلى حُكْم الردَى فإذا مَضَى ... لم يلتفِتْ ، وإذا قضَى لم يَعْدِل
متوقِّد يَبْرِى بأوّل ضَرْبةٍ ... ما أدركَتْ ولو أنّها فى يَذْبُل
فكأن فارسه(١) إذا استعصى به الـ ... رّ حفان يمصى بالسِّماكِ الأعزلِ
فإذا أصاب فكل شىء مَقْتَلٌ ... وإذا أُصيبَ فما له من مَقْتَل
حملت حمائله القديمة بَقْلة ... من عَهْدِ عادٍ غضّةً لم تَذْبُل

لابن هانئ — وقال أبو القاسم بن هانئ للمعز :

عجباً لمُنْصُلِك المقلّد كيفَ لم ... تَسِلِ النفوسُ عليك مِنْه مَسِيلا
لم يحمل جبّارُ الملوك بذكرهِ ... إلا تشحَّطَ فى الدماء قتيلا
فإذا رأيناهُ رأينا عِلّةً ... للنيرات ونيّرا مملولا
بك حسنه متقلّدا وبَهاؤهُ ... متنكّبا ومَضاؤه مسلولا
فإذا غضبتَ علته دونك رُبْدةٌ ... يَغْدُو بها طَرْفُ الزمانِ كحيلا
وإذا طربت إلى الرِّضا أهدَى إلى ... شمسِ الظهيرة عارِضاً مصقولا
كتب الفِرِنْد عليه بعضَ صفاتِكم ... فعرفتُ فيه التاجَ والإكليلا

وقال :

هل يدنيّنى من فنائك سابِحٌ ... مَرِح وحائلة القَسوعِ أمونُ
ومهنّد فيه الفِرِنْدُ كأنّهُ ... درّ له خَلْفَ الفراتِ كَمِينُ
غضب المضارب مقفرا من أعين ... لكنه من أنفس مسكون

للكندى — وأهدَى الكندى إلى بعض إخوانِه سيفا ، فكتب إليه : « الحمدُ لله الذى خصّكَ بمنافع كمنافع ما أهديتَ ، وجعلكَ تهتزُّ للمكارم اهتزازَ الصارم ، وتَمضِى فى الأمور مضاء حَدّه الأثور ، وتصونُ عرضك بالإرفادِ ، كما تُصانُ السيوفُ بالأغمادِ ، ويطرد

---

(١) فى الديوان : شاعره .

ماء الحياء في صفحات خدّك الشوف ، كما يشفّ الرونقُ في صفائح السيوف، وتصقلُ شرفك بالعطياتِ ، كما تصقلُ متونُ المشرفيّات .

[وفد الشام إلى المنصور]

قدم على أبي جعفر المنصور وَفْدٌ من الشام بعد انهزام عبد الله بن علي ، وفيهم الحارثُ بن عبد الرحمن الغفاري ، فتكلّم جماعةٌ منهم ، ثم قام الحارث فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنا لسْنا وَفْدَ مباهاة ، ولكنا وفدُ توبة استخفّت حليمَنا ؛ فنحن بما قدمنا معترفون ، وبما سلَفَ منّا مُعتذرون ، فإنْ تُعاقِبْنا فبما أجرَمْنا ، وإن تعْفُ عنا فطالما أحسنْتَ إلى من أساء . فقال المنصور: أنتَ خطيب القوم؛ وردّ عليه ضياعَه بالغُوطة .

وقال رجلٌ من أهل الشام للمنصور : يا أمير المؤمنين ، من انتقم فقد شَفَى غيظَه وانتصف ، ومن عفا تفضل، ومن أخذ حقّه لم يجبْ شكره، ولم يذكر فَضْله؛ وكَظْمُ الغيظِ حلم ، والتشفّي طرَفٌ من الجزَع . ولم يمدح أهلَ التقى والنهى من كان حليما بشدّةِ العقاب ، ولكن بحُسْنِ الصفْحِ والاغتفار ، وشدة التغافل . وبعدُ فالمعاقِب مستدعٍ لعداوةِ أولياء المذْنِب ، والعافي مسترعٍ لشكرهم آمِنٌ من مكافأتهم ، ولأن يُثْنَى عليك باتّساع الصدْرِ خيرٌ من أن توصَف بضيقه ، على أنّ إقالتك عثراتِ عبادِ الله موجبٌ لإقالةِ عثْرتِك من ربهم ، وموصول بعفوه، وعقابُك إيّاهم موصولٌ بعقابه ، قال الله عز وجل : « خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأَعْرِضْ عن الجاهلين » .

وقال بعض الكتاب لرئيسه وقد عتب عليه : « إذا كنتَ لم ترْضَ مني بالإساءة فلم رضيت من نفسك بالمكافأة » .

وأذنب رجلٌ من بني هاشم فقبضه المأمون فقال : يا أميرَ المؤمنين ، مَنْ حمل مثلَ دالّتي[1] ، ولَبِس ثوْبَ حرمتي ، غُفِرَ له مثلُ زلّتي ، قال : صدَقْتَ وعفا عنه .

---

(١) في ط : حالتي .

ولما دخل بعضُ الكتاب على أميرٍ بمدنكبة نالته فرأى من الأمير بعضَ الازدراء . فقال له : لا يَضَعُني عندك خمولُ النَّبْوة ، وزوال الثروة ؛ فإنّ السيفَ العتيق إذا مسَّهُ كثيرُ الصدأ استغنى بقليلِ الجَلاء حتى يعودَ حدّه ، ويظهر فِرِنْدُه؛ ولم أصِفْ نفسى عُجباً ، لكن شُكراً . وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا أشرفُ وَلَد آدم ولا فخر » ؛ فجهر بالشكر ، وترك الاستطالة بالكِبْر .

[المعتصم]

تميم بن جميل عنده

وكان تميم بن جميل السدوسى [قد أقام][1] بشاطئ الفرات، واجتمع إليه كثيرٌ من الأعراب ، فعَظُم أمرُه ، وبَعُد ذكره ؛ فكتب المعتصمُ إلى مالك بن طوق فى النهوض إليه ، فتبدَّد جَمْعُه ، وظفِر به ، فحمَله موثقا إلى بابِ المعتصم ، فقال أحمد ابن أبى دواد : ما رأيتُ رجلا عاينَ الموتَ ، فما هاله ولا شغله عما كان يجبُ عليه أن يفعلَه إلا تميم بن جميل ؛ فإنه لما مَثَلَ بين يدى المعتصم وأحضر السيفَ والنِّطْعَ ، ووقف بينهما تأمله المعتصم ، وكان جميلا وَسيما ، فأحبَّ أن يعلمَ أين لسانه من منظره، فقال : تكلم يا تميم . فقال : أمّا إذ أذِنْتَ يا أمير المؤمنين فأنا أقولُ : الحمدُ لله الذى أحسنَ كلَّ شىء خلقه ، وبدأ خَلْقَ الإنسانِ من طين، ثم جعل نَسْلَه من سُلالةٍ من ماء مَهِين ، [يا أمير المؤمنين :][1] جبر [اللهُ][1] بك صَدْعَ الدِّين، ولمَّ بك شَعَثَ المسلمين ، وأوضحَ بك سُبُل الحقّ ، وأخمدَ بك شِهابَ الباطل ؛ إن الذنوبَ تخرس الألسُن الفصيحة، وتُعْيِي الأفئدةَ الصحيحة ،ولقد عظُمَت الجريرةُ ، وانقطعَت الحجّة، وساء الظنّ، فلم يبق إلا عفوُك أو انتقامُك ، وأرجو أن يكونَ أقربهما منى وأسرعهما إلىّ أشبههما بك ، وأولاهما بكرمك ، ثم قال:

أرى الموتَ بين السيفِ والنِّطْعِ كامنا ... يُلاحظنى من حيثما أتلفَّتُ

وأكبرُ ظنّى أنك اليومَ قاتِلى ... وأىُّ امرئ مما قضَى اللهُ يفلت

---

(١) من ا .

وأى امرئٍ يأتى بعُذْرٍ وحُجَّةٍ　　وسيفُ المنـايا بين عينيه مُصْلَتُ
وما جزَعِى مِنْ أن أموتَ وإننى　　لأعلمُ أنَّ الموتَ شىءٌ مؤقّتُ
ولـكنّ خَلْفِى صِبْيةً قد تركتهم　　وأكبادُهم مِن حَسْرةٍ(١) تتفتّتُ
فإنْ عشتُ عاشُوا سالمين بغِبْطةٍ　　أذودُ الرَّدَى عنهم وإن متّ موّتوا
وكم قائلٍ لايبعد اللهُ دارَهُ　　وآخر جَذْلانٌ يسرُّ ويشمتُ

فتبسّم المعتصم ، وقال : يا تميم ، قد وهبتُك للصّبية ، وغفرتُ لك الصّبْوَة ، ثم أمر بفكّ قيودِه ، وخلع عليه ، وعقد له على شاطىء الفُرات .

كتابه إلى عبد الله بن طاهر

وكتب المعتصمُ حين صارت إليه الخلافةُ إلى عبد الله بن طاهر ، عافانا اللهُ وإياك ، قد كانت فى قلبى منك هَنَاتٌ(٢) غفرها الاقتدار ، وبقيتْ حزازات أخافُ منها عليك عند نظرى إليك ؛ فإن أتاك ألفُ كتابٍ أستقدمك فيه فلا تقدم ، وحَسْبُك معرفةً بما أنا منطوٍ لكَ عليه إطْلاعِى إياك على مافى ضميرى منك . والسلام .

العباس بن المأمون والمعتصم

قال العباسُ بن المأمون : ولما أفضَتْ الخلافةُ إلى المعتصم دخلتُ فقال : هذا مجلسٌ كنت أكْرَهُ الناسِ لجلوسى فيه ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، أنتَ تعفُو عما تيقّنته ، فكيف تعاقب على ما توهّمته ؟ فقال : لو أردت عقابَك لتركت عتابك .

بعض صفاته

وكان المعتصم شَهْماً شجاعاً ، عاقلا مفوّها ، ولم يكن فى [خلفاء](٣) بنى العباس أمىّ غيره؛ وقيل: [بل كان يكتبُ خطّاً ضعيفا. و](٣) كان سبب ذلك أنه رأى جنازة

سبب كونه أميا

لبعض الخدَم ، فقال: ليتنى مثله لأتخلّص من الـكُتّاب! فقال الرشيد: والله لاعذّبتك بشىء تختارُ عليه الموتَ . قال أبو القاسم الزجاجى : وهـذا شىء يُحْكَى من غير رواية صحيحة إلا أنّ جملته أنه كان ضعيفَ البَصر بالعربية .

وقرأ أحمد بن عمار المذرى(٤) ، وكان يتقلّد العَرْضَ عليه فى الحضرة كتاباً فيه :

---

(١) فى ا : من حسرتى . (٢) فى ط : هنوات . (٣) من ا .
(٤) فى ط : الشيذرى .

« ومطرنا مطراً كثُر عنه الكَلَأ » . فقال له المعتصم : ما الكَلأ ؟ فقال : لاأدرى . فقال : إنا لله وإنّا إليه راجعون ! خليفة أُمّى وكاتبٌ أمى ! ثم قال : من يقرب منا من كتّاب الدار ؟ فعرف مكان محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان يتولّى قهرمَة الدار ، ويُشْرِفُ على المطبخ فأحضره ، فقال : ماالكَلأ ؟ فقال : النبات كله رطبه ويابسه ؛ فالرطبِ منه خاصة يقال له خَلا ، ومنه سمّيت المخلاَة ، واليابس يقال له حشيش ؛ ثم اندفع فى صفاتِ النباتِ من ابتدائه إلى اكتهاله[1] إلى هَيْجِه ، فاستحسنَ ذلك المعتصم ، وولّاه العَرْضَ من ذلك اليوم ، فلم يَزَلْ وزيراً مدةَ خلافتهِ [وخلافةِ الواثق][2] ، حتى نكبه المتوكل بحقودٍ حقدها عليه أيام أخيه الواثق .

وقال الرياشى : كتب ملك الروم إلى المعتصم كتاباً يتهدّده فيه، فأمر بجوابه، فلما قُرِئ عليه لم يَرْضَ ما فيه ، وقال لبعض الكتاب : اكْتُبْ « أمّا بعدُ فقد قرأت كتابك ، وفهمت خطابك ؛ والجوابُ ما ترى لا ما تسمع ، وسيعلمُ الكافرُ لمن عُقْبَى الدار » .

وهذا نظيرُ قول قَطَرى للحجّاج ، وقد كتب إليه كتاباً يتهدّده ، فأجابه قطرى: أما بعد ، فالحمدُ للهِ الذى لو شاء لجمع شخصَيْنا ؛ فعلمت أنّ مُشاقَقة الرجال [أقوم][3] منْ تَسْطِير القَال والقيل[4] .

[كعب بن مَعْدان عند الحجاج]

ولما افتتح المهلبُ خراسان ، ونَفَى الخوارج عنها ، وتفرّقت الأزارقة كتب الحجاج إليه أن اكتب لى بخبر الوقيعة ، واشرح لى القصةَ حتى كأنى شاهِدُها ؛ فبعث إليه[5] المهلبُ كعب بن مَعْدان الأشقرى ، فأنشده قصيدة فيها ستون بيتا تقتصُّ خبرهم ، لايخرم منه شيئاً ؛ فقال له الحجاج : أخطيب أم شاعر ؟ قال له :

---

(١) فى ا : اكتهاله . (٢) ليست فى ا . (٣) ليس فى ا .

(٤) فى ا : والسلم . (٥) الأمالى : ١ — ٢٦٥ ، اللآلى : ٥٨٨ .

كلاهما ، أعزّ الله الأمير ! قال : أخبرنى عن بنى المهلب . فقال له : المغيرةُ سيدهم ، وكفاك بيزيد فارسا ، وما لقى الأبطال مثل حبيب ، وما يستحيى شجاع أن يفرّ من مُدْرِك ، وعبد الملك موتٌ [ذُعَاف وسمٌ][1] ناقع ، وحسبك بالفضل فى النّجْدَة ، واسْتَجْهِز[2] قبيصة ، ومحمد ليث غاب . فقال الحجاج : ما أراك فضلت عليهم واحدا منهم ؟ فأخبِرْنى عن جملتهم ومن أفضلهم ؟ فقال : هم ـ أعزّ اللهُ الأميرَ ـ كالحَلْقَة المفرَغَة لا يُدْرَى أين طرفها . قال : إنّ خبرَ حَرْبِكم كان يبلغنى عظيما ، أفكذلك كان ؟ قال : نعم أيها الأمير ، السماع دون العِيان . قال : أخبرنى كيف رِضَا المهلّبِ عن جنده ، ورِضَا جنده عنه ؟ قال : أعزّ الله الأمير ، له عليهم شفقةُ الوالد ، ولهم به برّ الولد . قال : أخبرنى كيف فاتكم قَطَرِىّ ؟ قال : كدناه فى منزله فتحوّل عنه ، وتوهّم أنه كان كادنا بذلك . قال : فهلا اتبعتموه ، قال : الكلب إذا أُجْحِر عقر . قال : المهلبُ كان أعلمَ بك حيث أرسلك .

[بشر بن مالك عند الحجاج]

وقد رُوِى أنّ المهلبَ لما فرغ من قتل عبد ربه الحرورى دعا بِشْر بن مالك فأنفذه بالبشارة إلى الحجاج ، فلما دخل على الحجاج قال : ما اسْمُك ؟ قال : بِشْر بن مالك . فقال الحجاجَ : بشارة وملك ! كيف خلّفتَ المهلب ؟ قال : خلفته وقد أمن ما خاف ، وأدرك ما طَلبَ . قال : كيف كانت حالُكم مع عدوكم ؟ قال : كانت البداءة لهم والعاقِبَةُ لنا . قال الحجاجُ : العاقبة للمتقين . ثم قال : فما حالُ الجند ؟ قال : وسعَهم الحقُّ ، وأغناهم النّفَل ؛ وإنهم لمع رجل يسومُهم سياسة الملوك ، ويقاتِلُ بهم قتالَ الصعلوك ، فلهم منه برُّ الوالد ، وله منهم طاعة الولد . قال : فما حال ولد المهلب ؟ قال : رعاةُ البياتِ حتى يؤمنوه ، وحُماةُ السَّرْحِ حتى يردوه . قال : فأيهم أفضل ؟ قال : ذلك إلى أبيهم ، قال : وأنت أيضا ، فإنى أرى لك لسانا وعبارة ،

(١) من ١ .   (٢) فى ط : وأسمحهم .

قال : هم كالحَلْقة المفرغة لا يُدرى أين طرفها . قال : ويحك . أكنت أعددت لهذا المقام هذا المقال ؟ قال : لا يعلم الغيبَ إلا اللهُ .

[أبو الصقر]

ودخل أبو الصَّقْر قَبْلَ وزارته على صاعِد بن مخلد وهو الوزير حينئذ، وفى المجلس أبو العباس بن ثوابةَ ، فسأل الوزيرُ عن رجل ، فقال : أنق[1] ، يريد نق ، فقال ابن ثوابة : فى الخَرْء . فتضاحك به أهل المجلس، فقام أبو الصقر مغضبا[1] .

وكان أبو العَيْناء[2] يُعَادِى بنَ ثوابة لمُعَاداته لأبى صقر ؛ فاجتمعا فى مجلس صاعد فى غدِ ذلك اليوم فتلاحَيا ، فقال ابن ثوابة : أما تعرفنى ؟ فقال: بلى أعرفك ضَيِّقَ العطن، كثيرَ الوَسَن ، خارًّا على الذَّقن ؛ وقد بلغنى تعدّيك على أبى الصقر، وإنما حلم عنك؛ لأنه لم يَجِدْ لك عزًّا فيذلّه ، ولا عُلوًّا فيضَعه ، ولا مَجْداً فيهدمه ؛ فعافَ لحمَك أنْ يأكلَه ، ودمَك أن يسفكَه . فقال ابنُ ثوابة : ما تسابَّ إنسانان إلّا غلب ألأمهما . فقال أبو العيناء : فلهذا غلبتَ بالأمس أبا الصقر !

ومما يُعَدُّ من مكارم أبى الصقر أن ابنَ ثَوابة دخل عليه فى وزارتِه ، فقال : تالله لقد آثَرَكَ اللهَ علينـــا وإن كنّا لخاطئين . فقال أبو الصقر : لا تثريبَ عليك يغفر الله لك [وهو أرحم الراحمين][3] . فما قصر فى الإحسانِ إليه ، والإنعام عليه مدة وزارته .

ولما ولى أبو الصقر الوزارة خيّر أبا العيناء فيما يحبّه حتى يفعلَه به ، فقال : أريد أن يكتبَ [لى الوزير][3] إلى أحمد بن محمد الطائى يعرّفُه مكانى ، ويلزمُه قضاء حق مثلى .

فكتب إليه كتابا بخطّه فوصّله إلى الطائى ، فسبب له فى مدة شهر مقدار ألف

---

(١) مكان هذه العبارة فى ط عبارة مضطربة ، وهذه من ا .

(٢) ذيل اللآلى : ٤٥ . (٣) من ا .

دِينار وعاشره أجل عشرة ، فانصرف بجميع ما يحبّه .

وكتب إلى أبي الصقر كتابا مضمنه : أنا ـ أعزّك الله ـ طليقُك من الفقر، ونقيذك من البؤس، أخذْتَ بيدى عند عَثْرةِ الدهر، وكَبْوَةِ الكِبر، وعلى أية حالٍ حين فقدتُ الأولياء والأشكال ، والإخوان والأمثال ، الذين يفهمون فى غيرِ تعَب ، وهم الناسُ الذين كانوا غياثاً للناس ، فحللت عقدة الخلة، وردَدْتَ إلىّ بعد النفور النعمة ، وكتبت لى كتابا إلى الطائىّ، فكأنما كان منه إليك، أتيته وقد استصعبَتْ علىّ الأمور، وأحاطَتْ بى النوائب ؛ فكثّر من بِشْرِه وبذَل من يُسْرِه ، وأعطى من ماله أكرمَه ، ومن برّه أحكَمه ، مُكْرِماً لى مدةَ ما أقمت ، ومُثْقِلا لى من فوائده لما ودّعت ، حكّمنى فى ماله فتحكّمتُ ، وأنتَ تعرفُ جَوْرِى إذا تمكّنتُ ، وزادنى من طَوْله فشكَرْتُ ؛ فأحسن اللهُ جزاءك ، وأعظم حباءك ، وقدّمنى أمامك ، وأعاذنى من فَقْدِك وحمايك ؛ فقد أنفقتَ علىّ مما ملكك الله ، وأنفقتُ من الشكر ما يسّره اللهُ لى ، واللهُ عزّ وجل يقول : لِيُنْفِقْ ذو سَعَةٍ من سَعَتِه . فالحمدُ لله الذى جعل لكَ اليدَ الغالبة[1] ، والرتبة الشريفة . لا أزال اللهُ عن هــذه الأمة ما بسط فيها من عَدْلِك ، وبثّ فيها من رِفْدِكَ .

[أبو العيناء يذم ابن الخصيب]

قطعة مختارة من نسخة الكتاب الذى عمله أبو العَيْنَاء فى ذمّ أحمد بن الخَصِيب لمّا نُكِب على ألسنةِ الكتّاب والقوّاد وأرباب الدولة [فى ذلك الوقت][2] . قال : ذكره محمد بن عبد الله بن طاهر فقال : مازال يَخرق ولا يرقَع ، وما زِلْتُ أتوقّع له الذى وَقَع فيه . [وذكره أنامش ، فقال : غدر بمن آزره ، وتخطّى إلى مالا يقدره، فحل به ما يحذره . وذكره بغاه فقال : أبطرَتْه النعمة ففجأته النقمة][2] . وذكره

(١) فى ط : الغالية . (٢) من ا .

وصيف فقال : تَرَكَ العقلاء على يَأسٍ مرتبته والحَمْقَى على رجاء درجته ! وذكره موسى بنُ بغاء ، فقال : لولا أنَّ القَدَر يعشى البَصَر لما نَهَى فينا ولا أمر . وذكره فارسُ بن بغاء فقال : لم تتمّ له نِعْمَة ؛ لأنه لم تَكُنْ له في الخير همّة . وذكره الفضل ابن العباس فقال : إن لم يكنْ تاريخ البلاء فما أعظم البلوى . وذكره هارون بن عيسى فقال: كانت دولةٌ من دُوَلِ المجانين، خرجَتْ من الدنيا والدِّين. وذكره المَلِي بن أيوب، فقيل له : ما أعجَب ما نُكِبَ ، فقال : نعمتُه أعجبُ من نَكْبته ! وذكره ميمون ابن إبراهيم ، فقال : لو تأمّل فعاله فاجتنَبها لاستغنى عن الآداب أن يطلبها ! وذكره محمد بن نجاح فقال : لئن كانت النعمةُ عظمَتْ على قوم خرجَ عنهم لقد عَظُمَت المصيبةُ على قومٍ نزل فيهم ! وذكره على بن [يحيي بن](1) المنجم ، فقال : لم يكن له أوّل يَرْجِعُ إليه ، ولا آخر يعودُ عليه ، ولا عقل فيزكو لديه(2) ! وذكره محمد بن موسى ابن شاكر المنجم فقال : [قبّحه الله](1) إن ذكرتَ ذَا فَضْلٍ تنقّصه لما فيه من ضِدّه ، أو ذكرت ذا نَقْصٍ تولّاه لما فيه من شكله . وذكره ابنُ ثوابة فقال : امرؤ أساء عِشْرَةَ الأحرار ، فأصبح مُقْفِرَ الديار . وذكر حجاج بن هارون فقال : ما كان له في الشرف أسبابٌ مِتَان ، ولا في الخير عاداتٌ حِسان . وذكره [أحمد بن حمدون فقال : إن منحته القدرة لقد حلته النكبة . وذكره](1) محمد بن الفضل فقال : ما زال يستوحِشُ بالنعمة حتى أنِسَ بالنقمة. وذكره عبد الله بن فراس فقال: كنت إذا نصحته زنّاني ، وإذا غششته منّاني. وذكره أبو صالح بن عمار فقال: لئن علا بحظ لقد انحط بحق. وذكره سعيد بن حميد فقال : إذا أصاب أحجم ، وإذا أخطأ صمّم .

[أبو بكر سيبويه وأهل مصر]

وكان في هذا العصر بمصر أبو بكر المعروف بسيبويه ناقلة البصرة يُشَبِّهه في حضورِ جوابِه وخطابه ، وحُسْنِ عبارته ، وكَثْرَةِ روايته ، وكان قد تناول البلاذُر ؛

---

(1) من ا . (2) في ط : فيدركه عاقل لديه .

أسأل الشيخ فى معناه عرفنى كيف الأتى له ، وإنما أطلْتُ ليعلم صِدْقَ اهتمامى ، وفَرْطَ تقليدى للمنّة والتزامى .

وله جواب عن صنيعة بصاحب هذه العناية : ورد فلان سيدى وهو عينُ بلدتنا وإنسانُها ، ومقلتها ولسانها ؛ فأظهر آيات فضله ، لاجرم أنه وصل إلى الصميم من الإيجاب الكريم ؛ وهو الآن مقيمٌ بين رَوْح ورَيْحان وجنة نعيم ، تحيّتُه فيها سلام ، وآخر دعواه ذكرك وحسنُ الثناء عليك بما أنت أهله ، وأنا أصدقُ دعواه ، وأفتخر به افتخار الخصىّ بمتاع مولاه ، وقد عرفته ولسّنه ، وكيف يجرى فى البلاغة رَسَنه ، فا ظنك به ؟ وقد ملكتها المجالس ولحظتها العيــون ، وسلّ صارماً من فيه يعيد شكرك ويبديه ، وينشر ذكرك ويطويه ؛ والجماعة تمدحُ لمدحه ، وتجرح بجرحه . فرأيك فى تحفظ أخلاقك التى أثمرت هذا الشكر ، وأنتجت هذه المآثر الغر موفقا إن شاء الله تعالى .

ومن إنشائه[1] فى مقامات الإسكندرى ، قال : حدثنا عيسى بن هشام ، قال : لما تَطَقَّتنى الغِنى بفاضل ذَيْلِهِ ، شُهِمت بمال سلَبْتُه ، أو كنز أصبتُه ، تخفرنى الليلُ ، وسرَتْ بى الخيلُ . وسلكْتُ فى هربى مسالِكَ لم يَرُضْها السيرُ ، ولا اهتدَتْ إليها الطيرُ ، حتى طويتُ أرضَ الرُّعْبِ ، وتجاوزْتُ حدّه ، وصِرتُ إلى حِمَى الأمنِ ووجدتُ بَرْدَه ، وبلغتُ أذربيجان وقد حفِيَت الرواحلُ ، وأكلتْهـا المراحل ، ولما بلغتها .

نزلنا على أن المقام ثلاثةٌ ... فطابَتْ لنا حتى أقمنا بها شهرا

فبينا أنا يوماً فى بعض أسواقِها إذ طلع رجل بِرُكْوَةٍ[2] قد اعتضدها ، وعصا قد اعتمدها ، ودنيّـة[3] قد تقلّسها ، وفوطةٍ قد تطيْلَسها ؛ فرفع عقيرته وقال : اللهم يامبدئَ الأشياء ومعيدَها ، ومحيي العظام ومبيدَها ، وخالقَ المصباح ومديره ،

(١) المقامات : ٤٩ ، وهى المقامة الأذربيجانية .

(٢) الركوة : وعاء يجمع فيه ما يحصله . (٣) الدنية : القلنسوة .

وكان يسايرُ كافوراً ، فقال : وهـــذا ابن برك ممن يغرّك[1] ، لن ينفعَك ولن يضرّك .

حديثه مع الأمير مفلح

وأخلى الحـــام لمفلح الحسيني ، فأتى سيبويه ليدخلَ فمُنِع ، وقيل : الأمير مفلحٌ به . فقال : لا أنقى الله مغسولَه ، ولا بلّه سُولَه ، ولا وقّاه من العذاب مهُولَه . وجلس حتى خرج فقال : إنّ الحمام [لا يُخلى إلّا][2] لأحدِ ثلاثة : مبتلًى في قُبُــله ، أو مبتلى في دُبره ، أو سلطان يخافُ من شره ، فأى الثلاثة أنت ؟ قال : أنا المقدّم .

حديثه مع الخازن

وأحضره أبو بكر بن عبد الله الخازن فقال: قد بلغني بذاء لسانِك وقبيحُ معامَلتك للأشراف ؛ فاحذَرْ أن تعودَ فينالَكَ منى أشدُّ العقوبة ؛ فخرج [متحزنا . فكان][2] الولدان يتولّعون به ويذكرون له الخازنَ ، فيشتدّ عليه ذلك ، فينصرف ولا يكلّمهم؛ فمرّ به رجل يكنى أبا بكر من ولد عقبة بن أبي معيط ، وغلامٌ قد ألحّ[3] عليه بذلك ، فضحك المعيطى ، فقال للغلام : ضرب الله عنق الخازن كما ضربَ النبيّ صلى الله عليه وسلم عنق عقبة بن أبي معيط على الكفْر ، وضرب ظَهْرَ أبيك بالسوط كما ضربَ علىّ بن أبي طالب بأمر عثمان رضى الله عنهما ظهر الوليد بن عقبة على شُرْبِ الخمر ، وألحقك يا صبيّ بالصبيَة ، يريد قولَ النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد قال له عقبة لمّا أمر النبي صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه بقَتْلِه : « فمَنْ للصِّبية يا رسول الله ؟ » قال : النارُ لك ولهم . فانصرف المعيطى وبطنُ الأرضِ أحبُّ إليه من ظَهْرِها .

[رجع إلى أبي العيناء]

أبو العيناء أول عاق

وقال أبو العيناء : أنا أوّلُ من أظهر العقوقَ لوالديه بالبَصرة ، قال لى أبى : إنّ اللهَ قدْ قرَنَ طاعتَه بطاعتى ، فقال تعالى : أنِ اشْكُرْ لى ولوالديك . فقلتُ :

---

(١) فى ا : حرك مغرك . (٢) ليس فى ا . (٣) فى ط : لج.

يا أبت ، إنّ اللهَ تعالى قد أمنني عليك ولم يأمنك علي . فقال تعالى : ولا تقتلوا أولادكم خَشْيَةَ إملاقٍ نحن نرزقهم وإياكم .

وقال أعرابي لأبيه : يا أبت ، إنّ كبيرَ حقك لا يبطل صغير حقّي عليك ، والذي تمتّ إليّ أمتّ بمثله إليك ، ولست أزعُمُ أنّا سواء ، ولكن لا يحل لك الاعتداء .

ودخل على عبيد الله بن سليمان فضمّه إليه ، فقال : أنا إلى ضمّ الكفاية أحوجُ مني إلى ضَمّ اليدَيْن ، وقال له مرة : أنا معك مقبوض الظاهر مرحوم الباطن [1] .

قال أبو الطيب المتنبي [2] :

ماذا لقيت من الدنيا وأعْجَبها   أنى بما أنا باكٍ منه محسودُ

وقال له رجل : يا مخنّثُ . فقال : وضربَ لنا مثلًا ونَسِيَ خَلْقَه !

وذكر أبو العيناء محمد بن يحيي بن خالد بن برمك ، فقال : بأبي وأمي دام الوَجْهُ الطَّلْق ، والقول الحقّ ، والوعد الصّدق ، نيته أفضلُ من علانيته ، وفعلُه أفضل من قوله . وقال له المتوكل : ما أشدّ مامرّ عليك من فَقْدِ بصرك ؟ فقال : ما حُرِمْتُ منه من النظر إليك أيها الأمير ! وقال لعبيد الله بن يحيي : مسّنا وأهلنا الضرّ ، وبضاعتُنا الحمدُ والشكر ، وأنت الذي لا يخيب عنده حرّ . وقال له يوما : قد اشتدّ الحجاب ، وفحش الحرمان ، فقال: ارفق يا أبا عبد الله ، فقال: لو رفق بي فعلُك لرفق بك قولي! وقال له : أيها الوزير ، إذا تغافل أهلُ التفضل هلك أهل التجمّل . وذم رجلا فقال : لايعرفُ الحقّ فينصره ، ولا الباطلَ فيُنْكِره . وقيل له : ما أبلغ الكلام ؟ فقال : ما أسكَتَ المُبْطِل ، وحَيّر المحق . وقيل له : مات الحسن بن سهل . فقال : والله لئن أتعب المادحينَ لقد أطال بكاء الباكين ، والله لقد أصيب بموته الأنام ، وخرست بفقده الأقلام .

(١) في ط : مغبوط الظاهر موجود الباطن . (٢) ديوانه : ٢ — ٤١

[من الرثاء]

لأشجع السلمي

قال أشجع بن عمرو السُّلمي[١] :

مضى ابنُ سعيدٍ حين لم يَبْقَ مَشْرِقٌ ... ولا مغربٌ إلّا له فيه مادِحُ
وما كنتُ أدري ما فواضلُ كفّهِ ... على الناس حتى غيّبَتْه الصفائحُ
فأصبح في لَحْدٍ من الأرض ميّتا ... وكانت له حيّا تضيق الصحاصِحُ[٢]
كأن لم يمت ميتٌ سواك[٣] ولم تقُمْ ... على أحدٍ إلّا عليك النوائحُ
فما أنا من رُزْءٍ وإنْ جَلَّ جازعٌ ... ولا بسرورٍ بعدَ موتك فارحُ
لئن حسُنَتْ فيك المراثي وذكرُها ... لقد حسُنَتْ من قبل فيك المدائحُ
سأبكيكَ ما فاضَتْ دموعي فإن تَغِضْ ... فحسبُك مني ما تكنُّ الجوانحُ

للحسين بن مطير

قوله : * وكانت به حيًّا تَضيقُ الصحاصِحُ * يتعلّق بقول الحسين بن مطير في مَعْن بن زائدة[٤] :

ألِمّا على مَعْنٍ وقُولا لقبرِهِ ... سقَتْكَ الغوادي مَرْبعاً ثم مَرْبعاً
فيا قبرَ معنٍ أنتَ أولُ حُفْرَةٍ ... من الأرض خُطَّتْ للسماحة مَضجعا
ويا قبرَ مَعْنٍ كيف واريتَ جودَهُ ... وقد كان منه البَرّ والبحر مُتْرَعَا
بلَى قد وسِعْتَ الجودَ والجودُ ميّتٌ ... ولو كان حيا ضِقْتَ حتى تصدّعا
فتًى عِيشَ في معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مَجْرَاه مَرْتَعا
ولمّا مضَى معنٌ مضى الجودُ وانقضَى ... وأصبح عِرْنينُ المكارم أجدعا

وهذا كقول عبد الصَّمد بن المعذّل في عمرو بن سعيد بن سَلْم[٥] الباهلي :

أقبرَ أبي أميــة لو عُلاهُ ... حلتَ إذاً لضِقْتَ به ذِراعا
حويتَ الجودَ والتقوى وعمراً ... فكيف أطَقْتَ يا قبرُ اضطلاعا

---

(١) اللآلئ : ٧٤٥ ، الأمالي : ٢ — ١٢٠ ، الوفيات ١ — ٤٢٩ . (٢) الصحاصح : جمع صحصح : ما استوى من الأرض . (٣) في الأمالي : حي سواك . (٤) اللآلئ : ٦٠٩ ، الأمالي : ١ — ٢٧٥ ، الفوات : ١ — ١٨٥ ، الوفيات : ٢ — ١١٢ . (٥) في ط : مسلم .

لوَيْهِمْ أطَقْتَ لهم ضِمانا ··· ولولا ذاكَ لم تُطِقِ اتّساعا

الخنساء

وقول أشجع : * لئن حسنت فيك المراثى وذكرها * من قول الخنساء :

يا صَخْرُ بمدّك هاجَني استعبارى ··· شانيكَ باتَ بذلّتى وصَغارى

كنا نعدّ لك المدائحَ مدّةً ··· فاليوم صرتَ تُناحُ بالأشعار

جنوب

وقالت جنُوبُ أُخت عمرو [ذى الكلب][1] :

سألتُ بعمرو أخى صَحْبَهُ ··· فأفظعنى حين ردُّوا السؤالا

فقالوا أُتيحَ له نائمًا ··· أعزُّ السلاح عليه أجَالا[2]

أُتيحَ له نَمِرَا أجْبُلٍ[3] ··· فنالا لعمرك منه ونَالا

فأقسمُ يا عمرُو لو نبّهاكَ ··· إذًا نبّها منك داءً عُضَالا

[إذًا نبّها لَيْثَ عِرّيسةٍ ··· مُبيدا مُفيتا نفوسا ومالا][4]

إذًا نبّها غيرَ رِعديدة ··· ولا طائشا دهشاً حين صَالا

هما معْ تصرف ريْبِ المنون ··· من الدهر ركنا شديداً أمالا

وقالوا قتلناهُ فى غارةٍ ··· بآية أنْ قد ورثنا النِّبالا

فهلّا إذًا قبلَ ريب المنون ··· فقد كانَ فذًا وكنتم رجالا

وقد علمَتْ فَهْمٌ عنـد اللقاء ··· بأنهمُ لك كانُوا نِفَالا

كأنهمُ لم يحسُّوا بهِ ··· فيخلوا نساءهمُ والحِجَالا

ولم ينزلوا بمحولِ السنين ··· به فيكونوا عليه عِيالا

وقد علـم الضيفُ والمُرْملونَ ··· إذا اغبرَّ أفْقٌ وهبَّت شمَالا

وخلّتْ عن أولادِها المرضعات ··· ولم تَرَ عينٌ لمزنٍ بلالا

بأنك كنتَ الربيعَ المغيثَ ··· لمن يَعْتَفيك وكنت الثِّمالا

---

(١) شاعرات العرب : ١٠٠ . (٢) فى الشاعرات : أعز السلاح عليه أمالا .
(٣) فى ا : جبأل ، والجبأل : الضبع . (٤) من ا . (٥) ليس فى ا .

وخَرقٍ[1] تجاوزتَ مجهولَهُ ... بوَجْنَاء حَرْفٍ تشكَّى الكَلالا
[فكنتَ النهار به شمسَه ... وكنتَ دُجَى الليل فيه هلالا
وحيّ صبحت وحيّ أبحتَ ... غداة اللقاء منايا عِجالا][2]
وكم من قبيل، وإن لم تكن ... أردْتَهمُ منك باتوا وجالا

قال عمر بن شبّة: وكان عمرو بن عاصم هذا يَغزُو فهْماً فيصيب منهم فوضعوا له رَصَداً على الماء، فأخذوه فقتلوه، ثم مرُّوا بأخته جنوب ، فقالوا: أخاكِ! فقالت: لئن طلبتموه لتجدُنَّه [منيعا ، ولئن ضفتموه لتجدنه مريعا ، ولئن وعدتموه لتجدنه][2] سريعا ! فقالوا : قد أخذناه فقتلناه ، وهذا نبله . فقالت : والله لئن سلبتموه لا تجدون ثُلَّته وافية ، ولا حجرته جافية[3] ، ولرب ثدى منكم قد افترشه ، ونهب قد احتوشه ؛ ثم قالت الأبيات المتقدمة الذكر .

من إنشاد أبى حاتم

وأنشد أبو حاتم ولم يقل قائله :

ألا فى سبيل الله ماذا تضمنَّت ... بطونُ الثرى واستُودِعَ البلَدُ القَفْرُ
بدورٌ إذا الدنيا دَجَتْ أشرقَتْ بهم ... وإن أجدبَتْ يوما فأيديهم القَطْرُ
فياشامتاً بالموت لا تشمتنْ بهم ... حياتُهمُ فخرٌ وموتُهم ذِكْرُ
أقاموا بظَهْرِ الأرض فاخضرَّ عودُها ... وصاروا ببطن الأرض فاستوحش الظَّهْرُ

العتبى يرثى ابنه

وقال أبو عبد الله العتبي ، وتوفى له بنون فُجِع بهم ومات فى آخرهم ابنٌ له يكنى أبا عَمْرو وكان يقول الشعر ؛ فقال يرثيه :

لقد شمت الواشون بى وتغيّرتْ ... وجوهٌ أراها بعـــد موتِ أبى عَمْرِو
تجرّى علىَّ الدهرُ لما فقدته ... ولو كان حيًا لاجترأتُ على الدهرِ
أسكّان بطن الأرض لو يُقبَلُ الفِدَا ... فدينا وأعطينا بكم ساكِنى الظَّهْرِ
فياليت مَنْ فيها عليها وليتَ من ... عليها ثوَى فيها مُقيما إلى الحَشْرِ

---

(١) الخرق : الأرض الواسعة والقفر . (٢) من ا .
(٣) هذه عبارة ا ، وفى ط : لأنحدرن إلى حجرته حافية .

وقاسمني دَهرى بنىّ مشاطرا ... فلما توفّى شطره مال فى شَطْرِى

فصاروا كأنْ لم يعرِف الموت غيرهم ... فثُكلٌ على ثُكلٍ وقبرٌ على قَبْرِ

وقال فى ابنٍ توفى صغيرا :

إنْ يكُنْ ماتَ صغيراً ... فالأسَى غيْرُ صَغِيرِ

كانَ رَيْحانِى فأمسى ... وهو رَيْحانُ القُبُورِ

غَرَسَتْه فى بساتِيـ ... ـنِ البلى أيْدِى الدهورِ

ومن هنا أخذ أبو الطيب المتنبي قوله[1] :

فإن تَكُ فى قبرٍ فإنك فى الحشا ... وإنْ تَكُ طِفْلًا فالأسَى ليس بالطِّفْلِ

لخلف الأقطع

وقال خلف[2] بن خليفة الأقطع :

أُعاتِبُ نفسي إن تبسَّمْتُ خَالِيا ... وقد يَضْحَكُ الموتُورُ وهو حَزِينُ

وبالبِذّ[3] أشجانى وكم من شَجٍ له ... دُوَيْنَ المصلّى والبقيعِ ، شجُونُ

رُبًا حولها أمثالُها إنْ أتيتَها ... قَرَيْنَك أشجاناً وهنّ سُكُونُ

كَفَى الهجرَ أنّا لم يَضِحْ[4] لكَ أمرُنا ... ولم يأتِنا عمّا لديك يَقِينُ

لأبى عطاء السندى

وقال أبو عطاء السِّندى فى ابن هبيرة[5] :

ألَا إنّ عينا لم تَجُدْ يوم واسطٍ ... عليك بباقى[6] دَمعِها لجَمُودُ

عشيةَ قام النائحاتُ وشُقِّقَتْ ... جُيوبٌ بأيدى مأتَمٍ وخدودُ

فإن تُمسِ مهجورَ الفِناء فربما ... أقام به بعد الوفُودِ وفُودُ

فإنك لم تَبْعُدْ عَلَى متعهدٍ ... بلى كلّ ما تحت التراب بَعِيدُ

لأعرابى

أعرابى :

ومن عجب أن بِتّ مستودعَ الثرَى ... وبِتُّ بما زوّدتنى متمتّما

فلو أننى أنصفتُك الودّ لم أبِتْ ... خلافَك حتى نَنْطَوِى فى الثرى معا

---

(١) ديوانه : ٣ — ٤٤ (٢) فى ط : خليف . (٣) فى ط : وبالند . (٤) فى ا : يصل .
(٥) اللآلى : ٦٠٢ ، الأمالى : ١ — ٢٧١ . (٦) فى الأمالى : بجارى .

سأحمي الكرى عيني وأفترش الثرى ... يميني إذا صار الثرى لك مضجعا
وبعدك لا آسَى لعظم رزيّةٍ ... قَضَيْتَ فهوّنْتَ المصائبَ أجمعا

ومعنى هذا البيت الأخير تداوله الناس نظما ونثرا .

لأبي نواس

[قال أبو نواس في الأمين :](1)

طوَى الموتُ ما بيني وبين محمّدٍ ... وليس لما تَطْوِى المنيةُ ناشِرُ
لئن عمرتْ دورٌ بمن لا أحبّهُ ... لقد عمرت ممن أُحِبُّ المقابِرُ
وكنت عليه أحذُر الموتَ وحدَهُ ... فلم يبقَ لي شيء عليه أُحاذِر

لأم الهيثم

وقيل لأمّ الهيثم السَّدُوسِيّة : لأسرع ما سلوت عن ابنك(2) الهيثم ! قالت : أما والله لقد رُزِئته كالبدرِ في بهائه ، والرمحِ في استوائه ، والسيفِ في مَضَائه ؛ ولقد فَتَّتْ مصيبتُه كبدي ، وأفنى فَقْدُه جلدي ، وما اعتَضْتُ من بعده إلا أَمْنَ المصائب لِفَقْدِه .

تعزية لأبي العيناء

وعزّى أبو العيناء أحمد بن أبي دُواد عن ولدٍ له ، فقال : ما أُصيبَ من أثيب ، والله لقد هان لفقده جليل(3) المصائبِ من بعده .

لأعرابي مات بنوه بالطاعون

ودخل أعرابي من بادية البصرة إلى الشام ومعه بنون ، فلما كان بِقِنَّسرين مات بنوه بالطاعون فقال :

أبعد بنيَّ الدهرَ أرجُو غَضارَةً ... من العيش أو آسَى لما فات من عُمْرِى
غطارِفَةٌ زُهرٌ مضَوْا لسبيلهم ... فلهفي على تلك الغَطَارِفَةِ الزُّهْر
سقى اللهُ أجساداً ورائي تَرَكْتُها ... بحاضر قِنَّسرين من صيِّب(4) القَطْر
يذكّرنيهم كلُّ خير رأيتُه ... وشرٍّ ، فما أنفكُّ منهم على ذِكْرِ

هذا البيت كقول الآخر :

رعاكِ ضمانُ اللهِ يا أمَّ مالكٍ ... ولله أن يرعاكِ أوفى وأوسَعُ

---

(1) من ا . (2) في ط : ماسليت ولدك . (3) في ا : جميع . (4) في ا : من سيل .

يذكرنيك الخير والشرُّ والذى أخاف وأرجو والذى أتوقّعُ

وقال مسلم بن الوليد : لمسلم بن الوليد

وإنى وإسماعيل يوم وداعه لكا لغمد يوم الرّوع فارقه النّصْلُ
أما والحبالات المرّات بيننا وسائل(١) أدّتها المودةُ والوصل
لمـــا خنتُ عهداً من إخاء ولا نأى بذكراك نأىٌ عن ضميرى ولا أهلُ
وإنى فى مالى وأهلى كأننى لفقدك لا مالٌ لدىّ ولا شُغلُ
يذكّرنيك الخيرُ والشرُّ والحِجَا وقيلُ الخنى والحِلمُ والعِلمُ والجهلُ
فألقاك عن مذمومها متنزهاً وألقاك فى محمودها ولك الفضل
وأحمَدُ من إخلافك البخلَ إنهُ بعِرْضِك لا بالمال حاشَى لك البخْلُ
أمنتجعاً مَرْوًا بأثقال همّة دع الثّقلَ واحْمِلْ حاجةً مالها ثِقْلُ
ثناء كعَرْفِ الطيب يهدى لأهله(٢) وليس له إلّا بنى برمك أهلُ
فإن أغْشَ قوماً بعدهم أو أزورهم فكالوحش يُدْنيها مِنَ القنَص(٣) المَحْلُ

ومن ألفاظ أهل العصر فى التعازى وما يتعلق بمعانيها

من ذكر البكاء والجزع وعظم المصائب

خبرٌ عز على النفوس مَسْمَعُه ، وأثّر فى القلوب مَوْقِعُه . خبرٌ تصطكُّ له المسامعُ ، وترتجُّ به الأضالع ، وتسقط له الحبالى، وتَصْحُو منه السكارى . خبرٌ كادت له القلوبُ تطير ، والعقول تطيش ، والنفوس تطيح. خبر يخفض(٤) البصر ويقذيه، ويَغِيضُ الأملَ ويقدح فيه . الخبر فى أثناء الرجاء قد انقطع ، وأصمّ به الناعى وقد أسمع . ناعى الفضائل قائم ، وأنفُ المحاسن رَاغم . خبرٌ أحرج الصَّدْر ، وأحلّ

---

(١) فى ا : وسائل أدتها المودة والأصل . (٢) فى ط : يهدى لعرفه .
(٣) فى بعض الأصول : الآنس . (٤) فى ا : يغيض .

البكاء ، وحرم الصبر ، وأطارَ واقع السكون ، وأثار كامِنَ الوجوم ، وثقلت وَطْأته على أجزاء النفس ، وتأدّت معرته إلى سرِّ القلب . كتبتُ والأرضُ واجفةٌ ، والشمسُ كاسفةٌ ، للرزء المظيم ، والمُصاب الجسيم ، في فلك الملك ، ورُكْنِ المجد ، وقريع الشّرْق والغرب ، وما عسى أن يُقال في الفلك الأعلى إذا انْهارَ من جوانبه ، وتهافَتَ على مناكبه . أتى الناعي ، فندب المساعي ، وقامت بواكي المجد ، وكسفت شمسُ الفَضْل ، وعاد النهارُ أسودَ ، والعيش أنْكَد . غربَ لموته نجمُ الفَضْل ، وكسدت سوقُ الأدَب ، وقامت نوادب السماحة ، ووقف فلكُ الكَرَم ، ولطمت عليه المحاسن خدودَها ، وشقّت له المناقب جيوبَها [وبرودها][1] . قد كانت الرزيّةُ بحيث مارت السماء مَوْرا ، وسارت الجبالُ سيرا ، حتى شوهدت الكواكبُ ظهرا ، ثم تهافتتْ شفعا ووترا ، فارتاعت الأُمّة وانبسطت الظلمة ، وارتفعت الرّحْمَةُ ، واضطربت المِلّة ، وقامت نوادبُ المجد ، وأصبح الناسُ من القيامةِ على وَعْد . إنّ المجدَ بعده لجاري الدمع ، وإنّ الفضلَ لمزعج النفس ، وإنّ الكرمَ لحَرِجُ الصدر ، وإن المُلْكَ لواهِنُ الظَّهْر . كتابي وأنا من الحياة متذمّر ، وبالعيش مُتَبَرِّم ، بعد ما ماد الطَّوْد الشامخ ، وزال الجبل الباذخ ، ونطقت نوادب المجد ، وأقيمت مآتم الفضل . نعى فلان فتنكّر وجهُ الدهر ، وقبضت مُهْجَةُ الفَخْرِ ، فلا قَلْبَ إلّا قد تباين صَدْعه ، ولا عين إلا وهي ترشحُ بالدَّمِ[2] بعده . كتبتُ والأحشاء محترقة والأجفانُ بمائها غَرِقة ، والدمعُ وَاكِفٌ ، والحزن عاكف[3] . مصابٌ أطلق أسرابَ الدموع وفرّقها ، وأقلق أعشارَ القلوب وأحرقها . مصابٌ فضّ عقودَ الدموع ، وشبَّ النارَ بين الضلوع . مصاب أذاب دموعَ الأحرار ، فتحلّبت سحائبُ الدموعِ الغِزار ، وانسدّتْ مسالك السكون والاستقرار . كتبتُ عن عين تَدْمَع ، وقلْبٍ يجزع ، ونفس تَهْلَع ، وقد أذْلّتْ مَصُون[4] العَبرة ، وحجبتُ وافدَ الحيرة ، ومدّ الهمُّ إلى جسمي يَدَ السقم ، وجرّ الدمعُ على خدّى ذيولَ الدم . لولا أن العينَ بالدمع أنطقُ من كل

(١) ساقط من ا . (٢) في ط : تبكي بالدمع . (٣) في : عاصف .
(٤) في ط : وقد أذيلت مصون .

لسان وقلم ، لأخبرتُ عن بعض ما أوْهَنَ ظَهْرى ، وأوْهى أزْرِى . إنّ الفجيعة إذا لم تحاورْ بجيش من البكاء ، ولم يخفَّفْ من أثقالها بالاشتكاء ، تضاعفَ داؤها ، وازدادَتْ أعباؤها ، وعزّ دواؤها[1] . قد شفيتُ غليلى بما استَذْرَيْتُه من أسراب الدموع المتحيرة ، وخففْتُ عنى بعض البُرَحاء بما امترَيْتُه من أخلافها التحدرة . إن فى إسْبَال العَبْرة ، وإطلاق الزَّفْرَة ، والإجهاش بالبكاء والنشيج ، وإعلانِ الصياح والضجيج ، تنفيساً عن برحاء القلوب ، وتخفيفا من أثقالِ الكروبِ . قد أتى الدهرُ بمـا هدَّ الأصلاب ، وأطارَ الألبابَ ، من النازلة الهائلة ، والفجيعة الفظيعة . رُزْءٌ أضعفَ العزائمَ القويةَ ، وأبكى العيونَ البَكيَّة[2] . مصيبةٌ زَلْزَلتِ الأرضَ ، وهدَّمت الكرم المَحْضَ ، وسلبت الأجفان كَرَاها ، والأبدانَ قُوَاها . فجيعةٌ لايُدَاوِى كَلْمَها آسٍ ، ولا يسدّ ثَلْمَها تَنَاسٍ . مصيبةٌ تركتِ العقولَ مُدَلَّهة ، والنفوس مُوَلَّهة . رُزْءٌ هضّ وهاضَ[3] ، وأطال الانخزال والانخفاض ، ولم يَرْضَ بأن فَضّ الأعضاء حتى أفاض الدماء . رزءٌ ملأ الصدورَ ارتياعا ، وقسم الألبابَ شَعاعا ، وترك الجفونَ مَقروحة ، والدموعَ مسفوحة ، والقُوى مهدودة ، وطُرق العزاء مسدودة . رزءٌ نكأ القلوبَ وجرحَها ، وأحرّ الأكبادَ وقرّحها . مالى يدٌ تخطّ إلّا بكلفة ، ولا نفس تردد إلا فى غصّـــة ، ولا عين تنظر إلا من وراء قَذى ، ولا صدر ينطوى إلّا على أذى ؛ فالدموعُ واكفة ، والقلوب وَاجفة ، والهمّ وارِد ، والأُنسُ شارد :

والناسُ مأتمهُم عليه واحدٌ   فى كل دارٍ رَنَّةٌ وزفيرُ

كأنى كِنْدَة وهى تَلَهَّفُ على حُجْر[4] ، والخنساء تَبْكى على صخر . أنا بين عَبْرَةٍ وزَفْرَة ، وأنَّةٍ وحسرة ، وتململ واضطراب ، واشتمال والتهاب . مصيبةٌ

---

(١) فى ا : وأعوز دواؤها . (٢) البكى : الكثير البكاء .

(٣) هضه : كسره ودقه . وهاض العظم : كسره . (٤) حجر : والد امرئ القيس .

أصبحتُ لِفَقْدِها وَقِيذا، ولِكُرْبَتِها أخيذا . كتبتُ وقد ملك الجزعُ عذابى، وحصل ناظرى فى إسار بكائى ، فالقلبُ دهش ، والبنان يرتعش ، وأنا من البقاء متوحّش . قد انتهى بى الهلع إلى حيثُ لا التأسّى مُصحِب ، ولا التناسى مصاحِب ، بى انزعاج يحلّ عَقْدَ الحَزْم ، واكتئابٌ ينقضُ شروط العَزْم . قد بلغ الحزنُ مبلغا لم أبتذِله للنوائب ، وإن جلّت وَقْعا ، ونالت منى مَنالا . لم يعتد طرق المصائب ، وإن عظمت قِمعا . كتبتُ عن اضطرابِ نفسٍ، واضطرامِ صدر ، والتهاب قلب ، واستهابِ صَبر ؛ فما أعظمه مفقودا ! وما أكرمه ملحودا[1] ! إنى لأنوح عليه نَوْحَ الناقب، وأرثيه مع النجوم الثواقب ، وأبكيه مع المعالى والمحاسن ، وأثنى [عليه][2] بثناء الساعى والمآثر . ليت عينَ الزمانِ شلّتْ قبل أن فتكتْ بمُهْجَةِ الفضل ، وعين الزمانِ كُفّت قبل أن رأت مَصْرَعَ الفخر . لقد رُزِئنا من فلان عالمًا فى شخص ، وأمّةً فى نفس . مضى والمحاسنُ تَبكيه ، والمناقبُ تعزّى فيه . العيونُ لما قرّت به أسخنها فيه رَيْبُ المنون ، ولما شُرِحَتْ به الصدور قبضها بفَقْده القدور . قد ركبَ على الأعناق بعد العِناق ، وعلى الأجياد بعد الجِيادِ ، وفاح فتيتُ المسك من مآثره ، كما يفوحُ العنبرُ من مجامره . كان منزلُه مألفَ الأضيافِ ، ومأنس الأشراف ، ومنتجَع الرَّكْب ، ومقصد الوَفْد ، فاستبدل بالأُنْسِ وَحْشة ، وبالنضارة غُبرة، وبالبياض ظُلْمَة، واعتاض من تزاحُمِ المراكب تلادم المآتم ، ومن ضَجيج النداء والصهيلِ عجيجَ البكاء والعويل . هذى المكارمُ تُبْدِى شجْوَها لفَقْده ، وتَلْبَس حِدادَها من بَعْده ، وهذى المحاسنُ قد قامتْ نوادبُها مع نوادبه ، واقترنتْ مصائبُها بمصائبه . لو قُبِلَت الفِدْيَة لوقَيْتُه بنفسى وأيامِ عمرى ، عِلمًا بأنّ العيشَ بمثله من إخوانِ الصفاء يَصْفو ، وبظَعْنِه عن الدنيا يكدرُ ويَنْبو . لو وُقِى من الموت عزيزٌ قومٍ لعِزّته ، أو كبيرٌ بأولاده وأسرته ، أو ذو سُلطان باستطالته وقُدرته، أو زعيم دولةٍ بحشَده[3] وعُدّته، لكان

---

(١) فى ط : موجودا . (٢) من ١ . (٣) الحشد : بالسكون ويحرك — الجماعة ، وفى ط : بحشمه .

الماضي أحقّ من وُقي، وأولى من فُدي، وكنا أقدر على دَفْع ما حدث، وذَبّ ما كرث وأرْهق؛ لكنه الأمرُ المسوّى فيه بين من عزّ جانبُه وذَلّ، وكثُر مالُه وقَلّ، حتى لحق المفضولُ بالفاضل، والناقصُ بالكامل.

ولهم فيما يطابق هذا النحو من وصف الدهر وذمّ الدنيا[1]

من كلام أهل العصر

هو الدهرُ لا يُنْتَجَب من طوارقه، ولا ينكر هجوم بوائقه. عطاؤه في ضمانِ الارتجاع، وحِبَاؤه في قِرَان الانتزاع. من عرفَ الزمانَ لم يستشعرْ منه الأمان، وتصرّف الحوادثِ بين الموروث والوارث. الدهرُ مشحون بطوارقِ الغِيَر، مَشُوبٌ صَفْوُ أيامه بالكَدَر، ممزوج صَابُه بالعسل، موصولة حبالُ الأمنِ فيه بأسباب الأجل. قد جعل اللهُ الدنيا دارَ قلعة، ومحلّ نقلة، فمن راحلٍ ليومه، ومن مؤخَّر لغده، وكلٌّ متشوّف[2] لأجله، وجارٍ لأمَدِه. ما الدنيا إلا دار النقلة، ولا المقام فيها إلّا للرّحلة. إنّ المرء حقيق إذا طرقه ما يتحيّف صَبْرَه، [ويتطرّق صدره][3]، أنْ يعودَ إلى علمه بالدنيا كيف نُصبت على النقْلة، وجُبِلَتْ طويل المهلة، وابتدئت بالنفاد، وشُفع كونُها بالفساد، وإنّ الثاوي فيها رَاحِل، والأيام فيها مراحل. موهوب الدنيا مسلوب وإنْ أُرْجِئ إلى مهل، وممنوحها مجذوب وإن أُخّر إلى أجل. لو خلَد من سَبَقَ لما وسِعَت الأرضُ مَنْ لحق؛ ولذلك جعلتِ الدنيا دار قلعة، ومحلّ نجعة.

سُبِقْنا إلى الدنيا فلو عاش أهلُها ... مُنِعْنا بها من جَيْئةٍ وذُهوب
تملّكها الآتي تملُّكَ سالبٍ ... وفارقَها الماضي فراقَ سَلِيب

لعتبة بن هارون

وقال عتبة بن هارون: كنتُ مع فضل[4] الرقاشي، فمرّ بمقبرة فقال: يا أهلَ الديار الموحِشة، والمحال المُقْفِرة، التي نطق بالخرابِ فِناؤها، وشيِّد بالتراب بناؤها،

(١) هذا العنوان ساقط من ا. (٢) في ا: منسوب لأمله. (٣) ساقط من ا.
(٤) في ط: مع الفضل.

ساكِنُها مُغْتَرِب ، ومحلّها مُقْتَرِب ، أهلُ هـذهِ المنازلِ متشاغلون ، لايتواصلون تواصُلَ الإخوان ، ولا يتزاوَرُون تزاورَ الجيران ، قد طحنهم بكَلْكَلِه البِلَى ، وأكلَهم الجَنْدَل والثّرَى .

لخاقان بن صبيح

وقال خاقان بن صُبَيْح[1] : لوحْشَة الشكّ التمسنا أُنْسَ اليقين ، ومن ذلّ الجهل هربنا إلى عزّ المعرفة ، ولَخوفِ الضلالةِ لزمنا الجادّة .

لبعض الحكماء

وقال بعضُ الحكماء : كونُ المصائب وسكونُ النوائب وبَغَتات المنايا مطويّات في الساعات، متحركات في الأوقات، وربّ مغتبِطٍ بساعةٍ فيها انقضاء أجلِه، ومتمتع بوقت صار فيه إلى قبْرِه ، ومنتظر ورودَ يوم فيه منيّته .

لأعرابي

ووعظ أعرابيٌّ ابنا له أفسدَ مالَه في الشراب ، فقال : لا الدهر يَعِظك ، ولا الأيامُ تنذرك ، والساعات تَعُدُّ عليك ، والأنفاسُ تعد منك ، وأحَبُّ أمرَيْك إليك أرَدُّهما للمضرة لديك .

لبديع الزمان المقامة الأهوازية

ومن إنشاء بديع الزمان في المقامات[2] حدّثنا عيسى بن هشام قال : كنتُ في الأهواز[3] في رُفْقة متى ماترقّ العينُ فيهم تسهّل، ليس منّا إلا أمرد بكْر الآمال، بضّ[4] الجمال ، أو مختطٌّ حَسَن الإقبال ، مرجوّ الأيام والليال ؛ فأفَضْنَا في العشرة كيف [نضعُ قواعدَها ، والأخوّة كيف][5] نحكم مَعاقدها ، والسرور في أي وقت نتعاطاه ، والأُنس كيف نتهاداهُ ، وفائت الحظّ كيف نتلافاه ، والشراب [من أين نخلصه ، والمجلس كيف نرتبه ؟ فقال أحدُنا: على البيت والمنزل. وقال آخر: على الشراب والنقل][5] . وقال بعضُنا : إلى السماع والجماع ، وقمنا نجر أذيال السوق ، حتى انسلخنا من السوق ، واستقبلنا رجلٌ في طِمْرين ، في يُمْناه عُكّازة ، وعلى كتفه جِنَازة[6] ؛

---

(١) في ط : بن صبح .   (٢) المقامات : ٦٢ .   (٣) الأهواز : بلدة بين البصرة وفارس .   (٤) في ط : غض .   (٥) من ا .
(٦) الجنازة ـ بكسر أوله : النعش والميت معا ، وبالفتح : السرير وبهما : الميت وحده .

فتطيَّرْنا لما رأينا الجِنازة ، وأعرضْنا عنها صَفْحا ، وطوينا دونها كَشْحا ، فصاح بنا صيحةً كادَت الأرضُ لها تنفطِر ، والنجومُ تنكَدِر ، وقال: لتركبُنّها صُغْرا ، ولتركبُنّها قَسرا . ما لكم تكرهون مطِيّةً ركبها أسلافُكم ، وسيركبها أخلافُكم ، وتتقذّرون سريرا وطِئه آباؤكم ، وسيطؤه أبناؤكم ، أما والله لتُحمَلُنّ على هذه العِيدان ، إلى تلكم الدِّيدان ، ولتُنقَلُنّ بهذه الجياد ، إلى تلكم الوِهاد . ويحكم تطيّرون كأنكم مخيَّرون ، وتكرهون كأنكم منزَّهون ، هل تنفع هذه الطِّيَرة ، يا فَجَرة ؟

قال عيسى بن هشام : فقد نقضَ علينا ما كُنّا عقدناه ، وأبطلنا ما كنّا أرَدْناه ؛ فَمِلْنا إليه وقلنا : ما أحوجَنا إلى وعْظِك ، وأعشقَنا للَفْظِك ! ولو شئت لزِدْتَ . قال : إنّ وراءكم مواردَ أنتم وارِدُوها ، وقد سِرْتُم إليها عشرين حِجّة :

وإنّ امرأً قد سار عشرينَ حِجّةً   إلى مَنهلٍ من وِرْدِه لقَريبُ

وفوقكم مَنْ يعلمُ أسرارَكم ، ولو شاء لهتك أستارَكم ، يعامِلكم في الدنيا بحِلْمِه ، ويَقْضِي عليكم في الآخرة بعِلْمه ، فليكن الموتُ منكم على ذِكْر ، لئلا تأتُوا بنُكْر ؛ فإنكم متى استشمرتموه لم تجمَحُوا ، ومتى ذكرتموه لم تمزحوا ، وإن نسيتموه فهو ذاكِرُكم ، [وإن تعتم عنه فهو ثائرُكم ، وإن كرهتموه فهو زائرُكم][1] . قلنا : فما حاجتُك ؟ قال : هي أطولُ من أن تُحَدّ ، وأكثر من أن تُعَدّ . قلنا : فسائغُ الوقت ؟ قال : ردُّ فائتِ العُمْرِ ، ودَفْعُ نازلِ الأمرِ . قلنا : ما إلى ذلك سبيل ، ولكن لكَ ما شئت من متاعِ الدنيا وزخرفها . قال : لا حاجةَ لي فيها .

* * *

من النقد

قوله * وإن امرأ قد سار عشرين حجة * محرف عن قول قائله :

وإنّ امرأ قد سار خمسين حجة * والبيت لأبي محمد التيمي[2] أنشده دِعبل[3] :

إذا ما مضى القَرْنُ الذي أنتَ فيهمُ   وخُلِّفْتَ في قَرْنٍ فأنت غَريبُ

والبيت بعده . قال دعبل : وتزعم الرواة أنه لأعرابي من بني أسد . وقال خلاد

(١) ليس في ا . (٢) في ط : التيمي . (٣) اللآلئ — ذيل : ٣ .

الأرقط : كنّا على باب أبي عمرو بن العلاء ومعنا التيمي ، فذكرنا كتابَ الحجاج ابن يوسف إلى قتيبة بن مسلم : إني وإياك لِدَتان ، وإن امرأً قد سار خمسين حجة لقمين أن يرده[1] . فأصلحناه بيتاً ، فاجتلبه التيمي في شعره .

[من رسائل البديع]

من البديع إلى أبي القاسم الكرخي

وكتب البديع إلى أبي القاسم الكرخي[2] : أنا وإن لم ألق تطاوُلَ الإخوان إلا بالتطوّل ، وتحمل الأحرار إلا بالتجمّل ، أحاسب الشيخَ على أخلاقه ضناً بما عقدتُ يدي عليه من الظنّ به ؛ والتقدير في مَذْهَبه ، ولولا ذاك لقُلْتُ في الأرض مجالٌ إن ضاقَتْ ظلالُه ، وفي الناس واصلٌ إن رثّتْ حبالُه ، وأؤاخذُه بأفعاله ؛ فإن أعارني أذناً واعيةً ، ونفسا مُراعية ، وقلبا متعظا ، ورجوعا عن الذهاب ، ونزوعا عما يقرعُه من هذا الباب ، فرشت لمودّته صدْري ، وعقدت عليه جوامع خَصْرى[3] ، ومجامع عُمْري ؛ وإنْ ركب من التمالي غَيْرَ مركب ، وذهب من التغالي في غير مذهب ، أقطعتُه خطة أخلاقه ، ووليته جانبَ إعراضه ، فكنت امرأً :

لا أذودُ الطيرَ عن شجرٍ قد بلوتُ المرّ من ثَمرِه

فإني — أطال اللهُ بقاء الشيخ مولاي — وإن كنت في مقتبل السنّ والعمر ، فقد حلبتُ شَطْرَىِ الدهر ، وركِبْتُ ظهرى البرّ والبَحْرِ ، ولقيتُ وَفْدَى الخيرِ والشر ، وصافحتُ يدى النّفع والضر ، وضربتُ إبطى العُسْر واليُسْر ، وبلوتُ طعمى الحُلْو والمُر ، ورضعتُ ثديى العُرْف والنُّكْر ؛ فما تكادُ الأيامُ تُريني من أفعالها غريبا ، وتُسْمِعُني من أقوالِها[4] عجيبا ، ولقيت الأفراد ، وطارَحْتُ[5] الآحاد ؛ فما رأيتُ أحدا إلّا ملأت حافتيْ سمعِه وبصره ، وشغلت حيِّزى فكره ونَظَره ، وأثقلت كفّه في الحُزْن ، وكفّته في الوَزْن ؛ ووَدّ لو بارزَ القِرْنَ بصفحتي ، أو لقِي الفَضْل بصحيفتي ،

---

(١) في ط : أن يزيد . (٢) الرسائل : ٦٥ . (٣) في ط ، والرسائل : خنصرى .
(٤) في ا : أموالها . (٥) في ا : وطوفت .

فما لى صغُرْتُ هذا الصغرَ فى عينه ؟ وما الذى أزْرَى بى عنده ؟ حتى احتجبَ وقد قَصَدْتُهُ ، ولزِم أرضَه وقد حضرته ، وأنا أحاشيه أن يجهلَ قَدْرَ الفضلِ ، أو يَجْحدَ فضلَ العلم، أو يمتطى ظَهْرَ التيه، على أهليه، وأسألهان يختصَّنى من بينهم بفضل إنعام إن زلت بى مرةً قَدَم رأى فى قَصْده ، وكأنى به وقد غضب لهذه المخاطبة المجحفة، والرتبة المتحيِّفة، وهو فى جَنْب جفائه يسير، وإن أقلع عن عادته إلى الوفاء، ونزع عن شيمته فى الجفاء ؛ فأطال الله بقاء الأستاذ وأدام عزّه وتأييدَه .

ومن البديع إليه

وله إليه رقعة[1] :

يعزُّ علىّ — أطال اللهُ بقاء الشيخ الرئيس — أن ينوبَ فى خِدْمته قلمى عن قَدَمى، ويسعد برؤيته رسولى ، دون وُصولى ، ويَرِدَ شِرْعَةَ الأُنْسِ به كتابى ، قبل ركابى ، ولكن ما الحيلةُ والعوائق جمة :

وعلىّ أن أسعى وليـ ـس علىّ إدراكُ النجاح

وقد حضرتُ دارَه ، وقبّلتُ جدارهُ ، وما بى حبُّ الجُدْرَان ، ولكن شغفاً بالقُطّانِ ، ولا عِشْقُ الحيطان ، ولكن شوقا إلى السكّان ، وحين عَدَتِ العوادِى عنه ، أمْليتُ ضميرَ الشوقِ على لسان القلم ، معتذراً إلى الشيخ على الحقيقة ، عن تقصيرٍ وقع ، وفُتورٍ فى الخِدْمَةِ عَرَض ، ولكنى أقول :

إنْ يَكُنْ تَرْكِى لقَصْدِكَ ذنباً فكفى ألّا أرَاكَ عِقَابا

كتابه إلى عدنان بن محمد

وله جواب إلى رئيس هراة عدنان بن محمد[2]: ورد كتابُ الشيخ الرئيس سيدى، فظلت وفودُ النعم تَتْرَى علىّ ، ومثلت لدى وبين يدى ، ووجدتُ سيدى وقد أخَذ مكارمَ نفسِه ، فجعلها قِلادة غَرْسِه ، وتتبّع المحاسن من عِنده ، فحلّى بها نَحْرَ عبده[3] ، وما أشبّه رائع حُليه ، فى نحر وَليّه ، إلّا بالغُرّةِ اللائحةِ ، على

---

(١) الرسائل : ٦٧ . (٢) الرسائل: ١١١ (٣) فى ا : فكساها لعبده .

[الدَّهْمَة](١) الكالحة(٢) ، لا آخذَ الله الشيخ بوصفٍ نزّعه عن عرضه ، وزرّعه في غير أرضه ، ونسبٍ سلخه من خلقه وخلقه ، وأهداه إلى غير مستحقّه ، وفضْلٍ استفاده من فرْعِه وأصله ، وأوصـله إلى غير أهله . ذكر حديث الشوقِ ولو كان الأمرُ بالزيارة حتما ، أو الإذن [جَزْماً](٣) أطلق عزما ، لكان آخر نظرى في الكتاب ، أول نظرى إلى الركاب ، ولاستعنت(٤) على كُلَف السير بأجنحة الطير ، لكنه ـ أدام الله عزّه ـ صرعنى(٥) بين يدِ مريعة النبْذ ، ورِجْل وشيكة الأخذِ ، وأرانى زهداً في ابتناء ، كحسوٍ في ارتقاء، ونزاعاً(٦) في نزوع، كذهاب في رُجوع، ورغبة فىّ كرغبة عنى ، وكلاماً في التِلاف ، كالضرب تحت اللحاف ، فلم أصرّح بالإجابة وقد عرض بالدعاء ، ولم أعْلِن بالزيارة وقد أسرّ بالنداء ، ولو لم يَدّعنى بلسان المُحاجَاة ، ولم يجاهِرْنى بفمِ المناجاة ، لكنتُ أسرعَ إليه من الكرم إلى عطفيه(٧) ، وفكرتُ في مُرَادِ الشيخ ، فوجدتُه لايتعدّى الكرم يشبّ نارُه ، والفضل يُدرك ثاره ، وإذا كان الأمرُ كذلك فما أولاه بترفيهِ مولاه ، عن زَفْرَةٍ صاعدة ، بسفرة باعدة(٨) ، ونكباء جاهدة .... وقدزادسيدى في أمْرِ المخاطبة، وما أحسن الاعتدال، وقد كفانا منـه الأستاذ ، وأسأله ألّا يزيد ، وقد بدأ ويجب ألّا يعيد ، فلا تنفع كثرة المدّ ، مع قلة الممدود ، والزيادة في الحدّ مع نقصان المحدود نقص من المحـدود(٩) ، وربّ ربح أدّى إلى خُسْرَان ، وزيادة أفضَتْ إلى نُقْصَان ، ورأى الشيخ في تشريفه بجوابه موفّق إن شاء الله تعالى .

* * *

من النقد اجتلَب قولَه في أول هذه الرسالة من قول أبي إسحاق الصابي في جواب كتاب لبعض إخوانه :

---

(١) من ا . (٢) الكالحة : العابسة . (٣) ساقط من ا .
(٤) في ا : استعنت على السير أجنحة الطير . (٥) في ط : وصرفني .
(٦) في ا : ونزاع . (٧) في ا : طرفيه . (٨) في ط : بزفرة قاصدة .
(٩) في ا : والزيادة في الحد نقص من المحدود .

من رسالة للصابي

وصل كتابك مشحوناً بلطيف برّك، موشّحاً بنامر فضلك، ناطقاً بصحّة عهدك، صادقاً عن خلوص ودّك، وفهمته وشكرتُ اللهَ تعالى على سلامتك شُكرَ المخصوص بها؛ ووقفتُ على ما وصفته من الاعتداد بي؛ وتناهيت إليه من التقريظ لي، فما زدتَ على أن أعرَّتني خِلالَك، ونحلتَني خِصالَك؛ لأنّكَ بالفضائل أولى، وهي بك أحرى، ولو كنت في نفسي ممن يشتملُ على وصفه حَدي إذا حددتُ، أو يحيط بكماله وَصفِي إذا وصفتُ، لشرعتُ في بلوغها والقرب منها، لكن المادحَ لك مستنفِد لك وُسْعه وقد بخَسك، ومستغرق طوقَه وقد نقصك، فأبلغُ ما يأتي به المُثني عليك، ويتوسّل إليه المُطرِي لك، الوقوفُ في ذلك دون منتهاه، والإقرار بالعجز دون غايته ومدَاه.

ونقل البديعُ ما ذكره من ترْك السفر والبغية[1] بما حضر من قولِ ابن الرومي[2]:

أما حقُّ حامِي عرضِ مثلك أن يَرى ... له الرِّفدَ والترفيه أوجبَ واجبِ
أقِت لكي تزدادَ نُعماكَ نعمةً ... وتغنى بوجهٍ ناضرٍ غير شاحِبِ
وكي لا يقولَ القائلون أثابهُ ... وعاقبه والقول[3] جَمُّ المساغبِ
وليس عجيباً أنْ ينوبَ تكرُّمٌ ... غُذيتَ[4] به من آملٍ لك عاتبِ
ذِمامِيَ ترْعى لا ذِمامَ سفينةٍ ... وحقّيَ لا حقَّ القِلاص النجائبِ

ودخل على أبي العتاهية ابنهُ[5]، وقد تصوّف، فقال: ألم أكُنْ قد نهيتُك عن هذا؟ فقال: وما عليك أن أتعوّد الخيرَ، وأنشأ عليه! فقال: يا بني، يحتاجُ المتصوّف إلى رقّة حال، وحلاوة شمائل، ولطافة معنى، وأنت ثقيلُ الظل، مظلم الهواء، راكدُ النسيم، جامدُ العينين، فأقبل على سوقك فإنها أعود عليك. وكان بزّازاً.

(١) في ط: والبغثة. (٢) ديوانه: ٧. (٣) في ط: والقوم جم المشاغب.
(٤) في ط: غريب. (٥) في ط: ودخل أبو العتاهية على ابنه محمد.

فقر من كلام المتصوفة والزهاد والقُصّاص

نورُ الحقيقةِ أحسنُ من نَوْر الحديقة . الزهد قطع العلائق ، وهَجْر الخلائق . الدنيا ساعة ، فاجعلها طاعة . التصوّف تَرْكُ التكلّف . قيل لتصوّف : أتبيع مرقعتك؟ قال : أرأيتم صيادا يبيع شبكته ! وقيل لبعضهم : لو تزوّجْتَ ! قال : لو قدرت أن أطلق نفسي لطلقتها ، وأنشد :

تجرّدْ من الدنيا فإنك إنما سقطت إلى الدنيا وأنتَ مجرّدُ

الدنيا نَوْم والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، ونحن في أضغاث أحلام . ذو النون : العبد بين نعمة وذنبٍ ، لا يصلحهما إلا الشكر والاستغفار . غيره : ينبغي للعبد أنْ يكون في الدنيا كالمريض لابد له من قوت ، ولا يوافقه كل طعام . ليس في الجنة نعيمٌ أعظم من علم أهلها أنها لا تزول . ابن المبارك : الزهدُ إخفاء الزهد . إذا هرب الزاهدُ من الناس فاطلبه ، وإذا طلبهم فاهرب عنه . من أطلق طَرْفه كثر أسفُه . من سُوء القدر فَضْل النظر . من طاوعَ طَرْفه تابع حَتْفَه ، ومن نظر بعين الهوى حار ، ومن حَكم على الهوى جار ، ومن أطال النظر لم يدرك الغاية ، وليس لناظرٍ نهاية . ربما أبصر الأعمى رُشْدَه ، وأضلّ البصير قَصْدَه . وقيل : ربَّ حربٍ جُنِيت من لفظة ، وربّ حبٍّ غُرِسَ من لحظة ، وأنشد :

نظرت إليها نظرةً لو كسوتها سرابيلَ أبدانِ الحديدِ المسرّدِ
رَقّت[1] حواشيها وفُضّ حديدُها ولانَتْ كما لانَتْ لداود في اليَدِ

وقال سعيد بن حميد :

نظرت فقادَتْني إلى الحَتْفِ نظرةٌ إلىّ بمضمون الضميرِ تشيرُ
فلا تصرفنّ الطرْف في كلّ منظر فإنّ معاريضَ البلاء كثيرُ
ولم أر مِثْلَ الحبّ أسقم ذا هوًى ولا مثل حُكْم الحبّ كيف يجورُ

---

(١) في ا : أرق .

لقد صنت ما بى فى الضمير لو أنه[1] يُصان لدى الطرْف النوم ضميرُ

غيره[2] :

اليوم أيقنت أن الحبَّ متلفةٌ وأن صاحبَه منه على خَطَرِ
كيف الحياةُ لمن أمسى على شَرَفٍ من المنيّةِ بين الخوفِ والحَذَرِ
يلومُ عينيه أحيانًا بذنبهما ويحملُ الذنبَ أحيانًا على القَدَرِ
إذا نأى أو دَنَا فالقلبُ عندكمُ وقلبُه أبداً منه على سَفَرِ

ونظر محمد بن أسباط الصوفى إلى أبى المثنى الشيبـانى وقد نظر فى وَجْهِ غلام مليح ، فقال [إياك و][3] إدْمَان النظر [فإنه][3] يكشف الخبر ، ويفضَحُ البشَر ، ويطول به المكثُ فى سقَر . وقال المَلِى الصوفىّ : شكوتُ إلى بعض الزهاد فسَاداً أجدُه فى قلبى ، فقال : هل نظرتَ إلى شىء فتاقَتْ إليه نفسُك ؟ قلت : نعم ، قال : احفَظْ عينيك ؛ فإنك إن أطلقتهما أوقعتاك فى مكروه ، وإنْ ملكْتَهما ملكْتَ سائرَ جوارِحك . وقال مسلم الخوّاص لمحمد بن على الصوفى : أوْصِنى . فقال : أوصيك بتقوى الله فى أمرِك كلّه ، وإيثار ما يحبّ على محبتك ، وإياك والنظر إلى كل ما دعاك إليه طَرْفك ، وشوّقك إليه قلبك ؛ فإنهما إن ملكاك لم تملكْ شيئا من جوارحك ، حتى تبلغ لهما ما يطالبانك به[4] ، وإن ملكتهما كنت الداعى إلى ما أردت ، فلم يعصيا لك أمراً ولم يردّا لك قولا .

قال بعض الحكماء : إنّ الله عزّ وجل جعل القلبَ أميرَ الجسدِ ومَلِكَ الأعضاء ؛ فجميعُ الجوارحِ تَنْقادُ له ، وكلّ الحواسّ تطيعُه ، وهو مدبِّرُها ومصرِّفها ، وقائدُها وسائقها ، وبإرادته تنبعثُ ، وفى طاعته تتقلّب ؛ ووزيره العقل ، وعاضده الفهمُ ، ورائدُه العينان ، وطليعته الأذنان . [وهما فى النقل سواء ، لا يكتمانه أمراً ، ولا يطويان

(١) فى ط : كأنما . (٢) فى ا : وقال . (٣) من ا .
(٤) فى ط : حتى تبلغ بهما ما يطالبانك به .

دونه سراً : يريد العين والأذن](١) . وقيل لأفلاطون : أيهما أشدّ ضرراً بالقلب السمع أم البصر ؟ قال : هما للقلب كالجناحين للطائر لايستقلّ إلّا بهما ولا ينهض إلا بقوتهما(٢) ، وربما قُصَّ أحدهما فنهض بالآخر على تعب ومشقة . قيل : فما بالُ الأعمى يمشى ولا يرى ، والأصم يمشىُ ولا يسمع ؟ قال : لذلك قلت : إن الطائر قد ينهضُ بأحـــد جناحيه ولا يستقلّ بهما طيراناً ، فإذا اجتمعا كان ذهابه أمضى ، و[طيرانه](٣) أوْحَى(٤) . وقال الأسود بن طالوت الجارودى : نظر إلىّ أبو النمر الصوفى وقد أطلتُ النظرَ إلى غلام جميل ، فقال : ويحك ! إنّ طَرْفك لِعظيم ماجنى من البلاء قد عرّضك للمكروه وطول العناء ، لقد نظرت إلى حَتْفٍ قاتل للقلوب ، وبلاء مظهر للعيوب ، وعارٍ فاضح للنفوس ، ومكروه مُذْهِل للعقول ، أكل هـــذا الاغترار بالله جرأك عليه حتى أمنت مَكْرَه ، ولم تخَفْ كيدَه ؛ اعلم أنك لم تكن فى وقت من أوقاتك ، ولا حالةٍ من حالاتك(٥) ، أقرب إلى عقوبة الله منك فى حالتك هذه ، ولو أخذك لم يتخلّصك الثقلان ، ولم يَقْبَلْ فيك شفاعةَ إنس ولا جان . ونظر محمد بن ضوء الصوفى إلى رجل ينظرُ إلى غلام مليح ، فقال : كفى بالعبد نقصا عنـــد الله ، وضَعة عند ذوى العقول ، أن ينظرَ إلى كل ما سنَحَ له من البلاء . ونظر [أبو](٦) مسلم الخشوعى فأطال النظر ، فقال : إنّ فى خَلْقِ السموات والأرض واختلافِ الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . ثم قال : سبحان الله ! ما أهجمَ طَرْفى على مكروه نفسه(٧) ، وأدمنه على تسخّط سيده ، وأغراه بما نُهى عنه ، وألهجَه بما حذّر منه ! لقد نظرت إلى هذا نظراً شديداً خشيتُ أنه سيفضحنى عند جميع مَنْ يعرفنى فى عَرْصَة القيامة ؛ ولقد تركنى نظرى هذا وأنا أستحيى من الله تعالى إنْ غفر لى ! ثم صعق . ونظر غالبٌ(٨) المضرور إلى غلام جميل على فرس رائع ، فقال : لاأدرى بم

(١) ساقط من ا . (٢) فى ا : بقربهما . (٣) من ا . (٤) أوحى : أسرع .
(٥) فى ا : من حالاته . (٦) فى ا : مسلم . (٧) فى ط : نفسى .
(٨) فى ط : غالبة .

أداوى طَرْفِى ، ولا بم أعالج قلبي ؟ ما أتوبُ إلى الله من ذنب إلا رجعت فيه ، ولا أستغفرهُ من أمر إلا أتيت أعظم منه ، حتى لقد استحييتُ أن أسأله المغفرة لما يلحق قلبي من القنوط من عفوه ، لعظيم حالى بالمنكر الذى أصنعُه . فقال له قائل : وأىّ منكر أتيتَ ؟ فقال : أتريدُ منى أكثرَ من نظرى هذا ! والله لقد خشيت أن يُبطل كلُّ عمل قدمته ، وخير أسلفتهُ ، ثم بكى حتى ألصق خدَّه بالأرض .

ورأى بعضُ الزهّاد صوفيا يضحكُ إلى غلام جميل ، فقال له : يا خاربَ القلب ، ويا مفتضح الطَّرْف ؛ أما تستحى من كِرَامٍ كاتبين ، وملائكة حافظين ، يحفظون الأفعال ، ويكتبونَ الأعمال ، وينظرون إليك ، ويشهدون عليك ، بالبلاء الظاهر ، والغِلّ الدخيل الخامر ، الذى أقمت نفسك فيه مقامَ مَنْ لا يُبالِى من وقف عليه ، ونظر من الخلق إليه .

وقال أبو حمزة بن إبراهيم : قلت لمحمد بن العلاء الدمشقى ـ وكان سيدَ المتصوفة ، وقد رأيته يماشى غلاماً وضيئاً مدة ثم فارقه : لِمَ هجرتَ ذلك الفتى بعد أنْ كنتَ له مواصلا ، وإليه مائلا ؟ فقال : والله لقد فارقته من غير قِلى ولا ملل ؛ ولقد رأيتُ قلبي يدعونى إذا خلوت به ، وقربت منه ، إلى أمر لو أتيته لسقطت من عَيْنِ اللهِ عزّ وجل ؛ فهجرتُه تنزيها للهِ ولنفسى عن مصارع الفتن ، وإنى لأرجو أن يعقبنى سيدى من مفارقته ما أعقب الصابرين عن محارمه ، عند صدق الوفاء بأحسنِ الجزاء ؛ ثم بكى حتى رحمْته .

قال أبو حمزة : ورأيتُ مع أحمد بن على الصّوفى ببيت المقدس غلاما جميلا ، فقلتُ : منذ كم صحبك هذا الغلام ؟ فقال : منذ سنين ، فقلت : لو سرتما إلى بعض المنازل فسكنتما فيه كان أحمد لكما من الجلوس فى المسجد بحيثُ يراكما الناس ؟ فقال : أخافُ احتيالَ الشيطان علىّ به وقت خَلْوَتى ، وإنى لأكره أن يرانى اللهُ فيه على معصية فيفرّق بينى وبينه يوم يظفر المحبّون بأحبابهم ، قال أبو الفتح البستى :

تنازع الناسُ فى الصوفىّ واختلفوا ... فيه وظنّوه مشتقّا من الصوفِ
ولست أنحل هذا الاسم غير فتًى ... صافَى فصُوفِىَ حتى لقّب الصوفى

ورأى بقراط[1] رجلًا من تلامذته يتفرّس في وَجْه أو حَيًا[2] ، وكانت فائقةَ الجمال ؛ فقال : ما هذا الشغل الذى منعك الروِيّة والفكرة ؟ فقال : التعجبُ من آثار حكمة الطبيعة في صورة أو حَيا . فقال : لا تجعلنّ نظرك لشهوتك مركبًا، فيجمع لك في الوحول الأذية[3] ؛ ولتكُنْ نفسُك منه على بال ، إنّ آثار الطبيعةِ في وَجْه أوحَيا الظاهرة تحق بصرك ، وإن فكرت في صورتها الباطنة تحد نظرَك . وقال بعضُهم : رأيتُ جاريةً حسناء الساعِد ؛ فقلت : يا جارية ، ما أحسن ساعدَك ! فقالت : [أجل، لكنه][4] لم تختص به ، فغضّ بصَرَ جسمك عما ليس لك ، لينفتح بصرُ عقلك فترى مالك .

[الرأى والهوى]

وقال بعضُ الفلاسفة اليونانيين : فصْلُ ما بين الرّأى والهوى أنّ الهوَى يخصّ والرأى يعمّ ، وأنّ الهوى في حيز[5] العاجل ، والرأى في حيز[5] الآجل ، والرأى يبقى على طول الزمان ، والهوى سريعُ الدثور والاضمحلال ، والهوى في حيز الحِس، والرأي فيحيِّز العقل .

وقال بعضُ الحكماء : من انقاد لهواه عرضته الشهوات . وقال آخر : من جَرَى مع هواه طِلقًا[6] ، جعل عليه للذل طرقا . وقال ابن دُريد: أوصى بعضُ الحكماء رجلا فقال : آمرك بمجاهدة هواك ؛ فإنه يقال : إنّ الهوى مفتاحُ السيئات ، وخصيم الحسنات ، وكلّ أهوائك لك عدو ، وأعداها هوًى يكتمك نفسَه ، وأعدي منه هوى يمثّل لك الإثم في صورةِ التقوى ؛ ولن تفصل بين هذه الخصوم إذا تناظرت لديك إلا بحَزْمٍ لا يشوبُه وهَن ، وصِدْقٍ لا يطمع فيه تكذيبٌ ، ومضاء لا يقارُبه

(١) في ط : سقراط . (٢) الضبط من ا . (٣) في ط : فيجمع لك دخول الأذية بهو مقامنا .
(٤) من ا . (٥) في ط : في حيز . (٦) يقال : عدا طلقا ، أي شوطا .

التبيط ، وصبر لاينتاله الجزع ، وهمة لا يتقسّمها التضييع ، وقال أبو العتاهية[1] :

لا تأمن الموتَ فى طَرْف وفى نفَس ... ولو تمنّعت بالحجّاب والحرسِ
فما تزالُ سِهامُ الموتِ نافذةً ... فى جنب مدّرع منّا ومُتّرسِ
ما بالُ دِينك ترضى أنْ تدنّسَهُ ... وثوبُك الدهر مَغسولٌ من الدّنسِ
ترجو النجاةَ ولم تسلُكْ مسالِكَها ... إنّ السفينةَ لا تجرى على يَبَسِ

[بدائه فى مجالس الخلفاء]

شبيب والمهدى — خرج شبيب بن شيبة من دارِ المهدى فقيل له : كيف رأيتَ الناس ؟ قال : رأيتُ الداخل راجيا والخارجَ راضيا . نحا إلى هذا المعنى ربيعةُ الرق فقال :

قد بسطَ المهدىّ كفَّ الندى ... للناس والعفو عن الظالمِ
فالراحلُ الصادِر عن بابه ... مبشرٌ للواردِ القادم

وقال مسلم بن الوليد فى نحو هذا المعنى :

جزيت ابنَ منصورٍ على نَأْيِ دارهِ ... جزاء مقرٍّ بالصنيعة شاكِرِ
فتى راغمَ الأموالَ واصطنع العُلَا ... وأثبتَ نيرانَ الندى للمشاعِرِ[2]
[ترى الناسَ أرسالا على باب داره][3] ... ...

وقال المتنبي[4] :

وألقى الفمَ الضحّاكَ أعلم أنّهُ ... قريبٌ بذِى الكفِّ المفدّاةِ عهدُهُ

خالد بن صفوان والسفاح — دخل خالد بن صَفْوَان على أبى العباس السفاح ، وعنده أخواله من بنى الحارث ابن كَعْب فقال : ما تقولُ فى أخوالى ؟ فقال : هم هامَةُ الشرف ، وعِرْنينُ الكَرم ، وغَرسُ الجود، إنّ فيهم لخصالا ما اجتمعَتْ فى غيرهم من قومهم ؛ إنهم لأطولهم أمماً ،

---

(١) ذيل اللآلى : ١٢ .   (٢) فى ط : بالمشاعر .
(٣) من ا ، ومكان بقية البيت بياض بالأصل .   (٤) فى ط : اليسى ، والتصحيح من ا ، والبيت فى ديوان المتنبى : ١ — ٢٨ .

وأكرمهم شيما، وأطيبهم طعما، وأوفاهم ذمما، وأبعدهم هما، الجمرة فى الحرب، والرَّفد فى الجَدْبِ، والرأس فى كل خَطْب، وغيرهم بمنزلة العَجْب[1]، فقال: وصفت أبا صفوان فأحسنْتَ، فزادَ أخواله فى الفخر؛ فغضب أبو العباس لأعمامه، فقال: أفخرٌ ياخالد؟ قال: أعلى أخوال أمير المؤمنين! قال: وأنتَ من أعمامه؟ قال: كيف أفاخِر قوما هم بين ناسج برد، وَسائس قِرْد، ودابغ جِلْد، دلّ عليهم هدهُد، وغرّقهم جُرَذ، وملكتهم أمّ ولد! فأشرق وَجْهُ أبى العباس. قال يموت بن المزرّع: سمعتُ خالى الجاحظ، وذكر كلام خالد هذا، فقال: والله لو فكر فى جَمْعِ معايبهم، واختصار اللفظ فى مثالبهم بعد ذلك المدح المهذب سنة لكان قليلا، فكيف على بديهته لم يَرُضْ له فكرا.

هكذا أورد هذه الحكاية الصولى وقد جاءت بأطولَ من هذا وليس من شَرْطِنا.

بين معن ابن أوس ومعاوية

قال مَعْن بن أوْس الهذلى[2]:

لعمرك ما أدْرِى وإنى لأوْجَلُ   على أيّنا تَأتى المنيةُ أولُ
وإنى أخوك الدائمُ الودِّ لم أحلْ   إذا ناب خطبٌ[3] أو نَبَا بك منزل
كأنك تشفِى منك داء مساءتى   وسُخْطِى وما فى رِيبتى ما تَعَجّلُ
وإن سُؤْتَنِى يوما صبرتُ إلى غدٍ   ليعقبَ يوما آخرٌ منك مُقْبلُ
ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى   يمينَك فانظرْ أىّ كفّ تَبدّلُ
وفى الناسِ إن رثّتْ حبالُك واصلٌ   وفى الأرض عن دارِ القلى متحوّل
إذا أنت لم تنصفْ أخاك وجدتَه   على طرف الهجران إنْ كان يعقِلُ
ويركبُ حدَّ السيف من أن تَضِيمهُ   إذا لم يكن عن شَفْرةِ السيفِ مَزْحلُ
وكنتُ إذا ما صاحبٌ رامَ ظِنّتى[4]   وبَدّل سوءا بالذى كان يفعل[5]

---

(١) العجب: مؤخر كل شىء.

(٢) ديوان الحماسة: ٣ — ١٣٢.

(٣) فى الحماسة: إن ابزاك خصم.

(٤) فى ا: هجرتى.

(٥) فى الحماسة: بالذى كنت أفعل.

قلبتُ له ظَهرَ المِجَنّ ولم أدُمْ على العهد إلا ريثما أتحوّل
إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد عليه بوجهٍ آخرَ الدهر تُقبل

ودخل عبد الله بن الزبير على معاوية بن أبي سفيان وأنشد شعر مَعْن فقال : لمن هذا ؟ فقال : لي يا أمير المؤمنين . قال : لقد شعرت بعدي يا أبا بكر ! ثم دخل عليه مَعْن فأنشده الشعر بعينه ، فقال : يا أبا بكر ، ألم تقل إنه شعرك ؟ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنه ظئري، فما كان له فهو لي .

أراد معاتبة معاوية فعاتبه بشعر معن ؛ ليبلغ ما في نفسه ، وليس ادّعاؤه له على حقيقة منه .

بين خالد بن صفوان وهشام

وقال خالد بن صفوان : دخلتُ على هشام بن عبد الملك فاستَدْنَاني حتى كنت أقربَ الناس إليه ثم تنفّس الصعداء ، وقال : يا خالد ، ربّ خالدٍ جلس مجلسك هو أشهى إليّ حديثا منك ! فعلمت أنه أراد خالداً القسري[1] . فقلت : أفلا تعيده يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هيهات ! إن خالدا أدلّ فأملّ ، وأوجف فأعجف ، ولم يدع لراجع مرجعاً . وتمثل بهذا البيت :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تَكَد عليه بوجهٍ آخرَ الدهر تُقبِل

ومجلس عبد الملك

وروى أبو حاتم عن أبي عبيدة قال[2] : كان عبـــد الملك بن مروان في سمره مع أهل بيتهِ وولده وخاصّته فقال لهم : ليقل كلٌّ واحدٍ منكم أحسن ما قيل من الشعر ، وليفضّل [مَنْ][3] رأى تفضيله ، فأنشدوا وفضّلوا ، فقال بعضهم : [امرؤ القيس ، وقال بعضهم :][3] النابغة ، وقال بعضهم : الأعشى ، فلما فرغوا قال : أشعرُ الناس والله من هؤلاء الذي يقول : وأنشد بعض هـــذه الأبيات التي أنشد ، وهي لمعن ابن أوس[4] :

وذي رَحِمٍ قلّمتُ أظفارَ ضِغْنِهِ بحلميَ عنه وهو ليس له حِلْم

---

(١) في ط : القشيري . (٢) الأمالي : ٢ — ١٠١ . (٣) من ا ، والأمالي .
(٤) المختار : ١٩٩ ، اللآلي : ٧٣٣ ، وذيله : ١٠٤ .

يحاول رغمى لا يحاولُ غيرهُ … وكالموتِ عندى أن يَحُلَّ به الرغْم
فإن أعفُ عنه أُغْضِ عيناً على قَذًى … وليس له بالصَّفْح عن ذنبه عِلْمُ
وإن أنتصرْ منه أكُنْ مثل رائشٍ … سهامَ عدوّ يُستهاض بها العظمْ
صبرتُ على ما كان بينى وبينهُ … وما يستوى حَرْبُ الأقاربِ والسِّلْمُ
وبادرتُ منه النأىَ والمرء قادرٌ … على سهمه ما كان فى كفّه السهم[1]
ويشتم عرضى فى المُغيَّب جاهداً … وليس له عندى هَوَانٌ ولا شتم
إذا سُمْتُه وَصْلَ القرابةِ سامنى … قطيعتَها تلك السفاهةُ والإثمْ
فإن أدْعُه للنّصف يَأْبَ إجابتى … ويَدْعو لحكم جائر غيرهُ الحكم
فلولا اتقاء اللهِ والرحم التى … رعايتُها حقٌّ وتعطيلها ظلم
إذاً لعلاه بارقٌ وخَطَمْتُهُ … بوسْمٍ شَنَارٍ لا يشابِهُه[2] وَسْمُ
ويسعى إذا أبنى ليهدِمَ صالحِى … وليس الذى يبنى كمَن شأنُه الهَدْمُ
يودُّ لو انّى معدِمٌ ذو خَصَاصةٍ … وأكرهُ جهدى أن يخالطَه العُدْمُ
ويعتدُّ غنْماً فى الحوادث نكبتى … وما إنْ له فيها سَنَاءٌ ولا غُنْم
فما زلتُ فى لِينى له وتعطُّفى … عليه كما تحنو على الولدِ الأمّ
وخَفْضِى له منى الجناحَ تألُّفا … لتُدْنيَه منى القرابةُ والرّحْمُ
وصَبْرِى على أشياء منه تُريبنى … وكَظْمى على غيظى وقد ينفع الكَظْمُ
لأسْتَلَّ منه الضِّغْن حتى استللتُه … وقد كان ذا ضِغْنٍ يضيق به الحزم[3]
رأيتُ انثلاماً بيننا فرقَعْتُه … برفقى أحيانا وقد يُرْقَع الثَّلْمُ
وأبرأتُ غِلَّ الصدرِ منه توسُّعا … بحلمى كما يُشْفَى بالادوية الكَلْمُ
فأطفأت نار الحرب بينى وبينهُ … فأصبحَ بعد الحرب وهو لنا سَلْمُ

---

(١) فى ا : ما كان يمسكنه ، وفى الأمالى : مادام فى كفه .
(٢) فى الأمالى : لايشاكهه ، وهو بمعناه . (٣) فى الأمالى : يضيق به الحزم .

[من رسائل ابن العميد]

رسالة إلى أبي عبدالله الطبري

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى أبي عبد الله الطبري : وصل كتابُك فصادفني قريبَ عهد بانطلاق ، من عَنَتِ الفراق ، وأوفقني مستريحَ الأعضاء والجوانح من حر الاشتياق ؛ فإنّ الدهرَ جرى على حكمِهِ المألوف في تحويل الأحوال ، ومضى على رَسْمه المعروف في تبديل الأبدال ، وأعتقني من مخالّتك عِتقا لا تستحقُّ به ولاء ، وأبرأني من عهدتك براءة لاتستوجبُ معها دركا ولا استثناء ، ونزع من عُنق رِبْقَةَ الذّل في إخائك بيدي جفائك ، ورشّ على ما كان يحتدم في ضميري من نيرانِ الشوق ماء السلوّ ، وشنّ على ما كان يلتهبُ في صَدْري من الوَجْد ماء اليأس ، ومسح أعشار قلبي فلاءَم فُطورَها[1] بجميل الصبر ، وشعبَ أفلاذَ كبدي ، فلاحم صدوعَها بحُسْن العزاء ، وتغلْغَل في مسالكِ أنفاسي فعوّض نفسي من النزاع إليك نُزوعاً عنك ، ومن الذهاب فيك رجوعا دونك ، وكشفَ عن عيني ضبابات ماألقاهُ الهوَى على بصري ، ورفع عنها غيابات ما سَدّله الشك دُون نظري ، حتى حدَر النقاب عن صفحاتِ شِيَمك ، وسفَر عن وجوه خليقتِك ؛ فلم أجدْ إلّا منكراً ، ولم ألق إلا مستكبراً ، فوليتُ منها فراراً ، ومُلِئتُ رعباً ، فاذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك ، ورددت إليك ذميا عهدك .

وفي فصل من هذه الرسالة : وأما عذرُك الذي رُمْت بَسْطَه فانقبض ، وحاولْت تمهيدَه وتقريرَه فاستَوْفَزَ وأعرض ، ورفعتُ بضبعه فانخفض ، فقد ورد ولقيته بوجهٍ يؤثر قبوله على رَدّه ، وتزكيته على جرحه ، فلم يفِ بما بذلته لك من نفسِه ، ولم يقم عند ظنّك به . أنّى وقد غطّى التذمّمُ وجهَه ، ولفّ الحياء رَأْسَه ، وغضّ الخجلُ طَرْفَه ؛ فلم تتمكن من استكشافه ، وولّى فلم تقدر على إيقافه ، ومضى يعثرُ في فضولِ ما يغشاه من كرب حتى سقَط ، فقلنا : لليدِ والفم ؛ ثم أمر بمطالبة صاحبه فلم أجده إلّا تأبّطَ شرّا ، أو تحمل وزراً .

(١) الفطر : الشق وجمعه فطور ، وفي ط : قطور .

من النقد

وقوله هذا محلول من عقد نظمه ؛ إذ يقول :

اقرَا السلامَ على الأمير وقل لهُ ... قَدْكَ اتّئبْ[1] أربَيتَ في الغلواء
أنتَ الذي شتّتَّ شَمْلَ مسرتي ... وقدحتَ نارَ الشوقِ في أحشائي
ورضيتَ بالثمن اليسير معوضةً ... مني فهلّا بِعْتَنِي بغلاء
وسألتك المُعْتَبي فلم تَرْثِ لها ... أهلًا فجُدْتَ بِعذْرَةٍ شَوْهاء
وردَتْ مموّهةً فلم يرفعْ لها ... طَرْف ولم ترزق من الإصغاء
وأعار منطقها التذمّمَ سكتةً ... فتراجعَتْ تمشي على استحياء
لم تشف من كمدٍ ولم تبردْ على ... كبدٍ ولم تمسحْ جوانبَ داء
داوتْ جوًى بجوًى وليس بحازمٍ ... من يستكفُّ النارَ بالحلفاء
من يشف مِنْ كمد بآخر مثلِه ... أثرتْ جوارحُهُ على الأدواء

رسالة إليه أيضا

وله إليه رسالة : أخاطب الشيخ سيدى ــ أطال الله بقاءه ــ مخاطبةَ مُخْرِجٍ يروم الترويحَ عن قلبه ، ويريغ[2] التفريجَ من كَرْبه ؛ فأكاتبه مكاتبةَ مصدور ، يريدُ أن ينفثَ بعضَ مابه ، ويخفّف الشكوى من أوصابه ، ولو بقيَتْ في التصبّر بقيةٌ لسكتّ ، ولو وجدت في أثناء وجدى مخرجة يتحلّلها تجلّدا لأمسكت ؛ فقديما لبسْتُ الصديقَ على علّاته ، وصفَحْتُ له عن هَناته ، ولكني مغلوب على العزاء ، مأخوذٌ عن عادتي في الإغضاء ، فقد سلّ من جفائك ماترك احتمالي جفاء ، وذهب في تعسي من ظلمك ما أترف حلمى[3] فجعله هباء ، وتوالى علىّ من قُبْحِ فعلك في هجر يستمر على نسَق ، وصدّ مطّردٍ متّسِق ، مالو قُضّ على الورى ، وأفيض على البشر لامتلأتْ منه صدورهم ، فهل أقدرُ على ألّا أقول ، وهل نشكك إلى مراعاتك ، وهل نشكوك إلى الدهر حليفك على الإضرار ، وعقيدك على الإفساد ، وأشكوه إليك ، فإنّكما وإن كنتما في قطيعة الصديق رَضيعَىْ لِبَان ، وفي استيطاء مراكب العقوق شريكى عنان ،

---

(١) اتأب : خزى واستحيا ، وفي ط : اتئد . (٢) يريغ : يطلب ، وفي ط : يريد .
(٣) في ا : مااتسف .

فإنه قاصرٌ عنك فى دقائقَ مخترعةٍ ، أنتَ فيها نسيجُ وَحْدِك ، وقاعدٌ عما تقومُ به من لطائفَ مبتدعة، أنتَ فيها وحيدُ عصرك ، أنتما متفقان فى ظاهرٍ يَسُرُّ الناظرَ ، وباطنٍ يسوء الخابر، وفى تبديل الأبدال، والتحول من حالٍ إلى حال، وفى بثِّ حبائلِ الزور، ونَصْبِ أشراكِ الغرور ، وفى خلف الموعود ، والرجوع فى الموهوب ، وفى فظاعةِ اهتضام ما يُعير ، وشناعة ارتجاعِ ما يمنح ، وقَصْدِ مشارَّة الأحرار ، والتحامل عند ذوى الأخطار ، وفى تكذيب الظنون ، والميلِ عن النباهة للخمول ، إلى كثير من شِيَمِكما التى أسندتما إليها ، وسنتكما التى تعاقدتُما عليها ، فأين هو ممن لا يجارى فيه نقض عُرَى العهود ، ونكث قُوَى العقود ؟ وأنَّى هو عن النميمة والغيبة ، ومشى الضَّرَّاء فى الغِيلة ، والتنفق بالنفاق فى الحيلة ، وأين هُو ممن ادَّعى ضروبَ الباطل ، والتحلِّى بما هو منه عاطل ، وتنقُّص العلماء والأفاضل؛ هذا إلى كثير من مساوٍ منثورة أنت ناظمها ، ومخازٍ متفرقة أنت جامعُها . أنت أيدك اللهُ إنْ سوّيته بنفسك، ووزنته بوزنك، أظلمُ منه لذويه ، وأعقُّ منه لبنيه؛ وهبك على الجملة قد زعمتَ مفترياً عليه أنه أشدُّ منك قدرة ، وأعظمُ بَسْطَة ، وأتمّ نصرة، وأطلق يدا فى الإساءة، وأمضى فى كل نكاية شَبَاة ، وأحدّ فى كل عاملة شداة[1] ، وأعظم فى كل مكروه متغلغلا ، وآلف إلى كل محذور متوصلا ، إن الدهر ليس بمُعتِب من يجزعُ ، وإن المُتْبَى منك مأمولة ، ومن جهتك مرقوبة ، وهيهات ! فهل توهَّم أنه لو كان ذا روح وجثمان ، مصوراً فى صورةِ إنسان ، ثم كاتبتُه أستعطفه على الصلة وأستعفيه من الهَجْر، وأذكِّره من المودة ، وأستميل[2] به إلى رعايةِ الثِّقَة ، وأستعد على ما أشاعه الفراقُ فى نفسى من اللَّوْعة ، وأضْرَمه بالبعادِ فى صدرى من الحرقة ، كان يستحْسِنُ ما استحْسَنْتُه من الاضطراب عند جوابى ، ويستجيز ما استَجَزْته من الاستخفافِ بكتابى .

وله فصل فى هــــذه الرسالة ، وقد ذكر دعواه فى العلم : وهبْك أفلاطون نفسه

---

(١) الشداة : بقية القوة وطرفها وحد كل شىء . (٢) ق ا : وأشتمل .

فأينَ ماستَنْتَه من السياسةِ ، فقد قرأناه، أتجدُ فيه إرشادا إلى قطيعة صديق،وأحسبك أرسطا طاليس بعَيْنِه ، أين ما رَسَمْته من الأخلاق ، فقد رأيناه فلم نر فيه هدايةً إلى شيء من العقوق ، وأما الهندسة فإنها باحثةٌ عن المقادير ، ولن يعرفها إلا مَنْ جهل مقدارَ نفسه ، وقَدرَ الحقّ عليه وله ؛ بل لك فى رؤساء الآداب العربية [مِنَّا ربحٌ ومضطرب ، ولسنا نُشَاحّك . لكن أحبّ أن تتحقّق بالغريب من القول ، دون الغريب][1] من الفعل ، وقد أغربت فى الذهاب بنفسك إلى حيث لا تهتدى للرجوع عنه. وأما النحوُ فلن تَرفع عن حذق فيه، وبَصَرٍ به، وقد اختصرتَه أوْجزَ اختصار، وسهلت سبيلَ تعليمه على من يجعلك قُدْوة ، ويرضى بك أسوةً ، فقلت : الغدرُ والباطلُ وماجرى مجراهما مرفوعٌ، والصدق والحق وما صاحبهما مخفوض، وقد نصب الصديقُ عندك ، ولكن غرضا يُرشق بسهام الغَيْبة ، وعَلَما يقصد بالوقيعة ، ولست بالعروضى ذى اللهجةِ فأعرف قَدْرَ حذقك فيه ، إلا أنى لا أراك تتعرّضُ لكاملٍ فيه ولا وافرٍ ، وليتك سبحتَ فى بحر المجتثّ حتى تخرج منه إلى شَطّ المتقارب .

وفى فصل منها أيضا :

وهَبْنى سكتُّ لدعواك سُكوتَ متعجّب ، ورضيتُ رِضاً متسخّط ، أيرْضى الفضلُ اجتذابَك بأهدابه من يدى أهليه وأصحابه ، وأحسبك لم تزاحِمْ خطابَه ، حتى عرفت ذلة نَفَره[2] وقلة بصره ،؛ فاصدقنى هل أنشدك[3] :

لو بِأبَانين جاء يَخْطُبها ضُرِّج ما أنْفُ خَاطبٍ بدَم

وليت شعرى بأى حلى تصدّيت لَهُ ، وأنت لو تتوّجت بالثريا ، وقلدت قِلادة الفلك ، وتمنطَقْتَ بمنطقة الجوزاء، وتوشّحْتَ بالمجرة لم تكن إلا عُطُلا، ولو توشّحْتَ بأنوارِ الربيع الزاهر ، وسرّجت فى جبينك غُرّةَ البدرِ الباهرِ ، ما كنتَ إلا عُطُلا،

---

(١) ساقط من ا . (٢) فى ط : قلة نفره ، وهذا من ا . (٣) ياقوت : ـ ٧٢

سيما مع قلّة وفائك، وضَعْفِ إخائك، وظلمة ماتتصرّف فيه من خِصالك، وتراكم الدُّجَى على ضلالِك ، وقد ندِمْتُ على ماأعرتك من ودّى، ولكن أى ساعةِ مَنْدَم، بعد إفناء الزمان فى ابتلائك ، وتصفُّحى حالاتِ الدهر فى اختيارك ، وبعد تضييع ما غرسْته . ونقض ما أسسْتُه ، فإن الودادَ غرسٌ إذا لم يوافق ثرى تريا ، وجوًّا غَدِيًا[1] ، وماء رَوِيًّا ، لم يُرْجَ زكاؤُه ، ولم يجر نماؤُه ، ولم تتفتّح أزهارُه ، ولم تجن ثمارُه ؛ وليت شعرى ، كيف ملك الضلالُ قيادى حتى أشكل علىّ ما يحتاجُ إليه المزوجان ، ولا يستغنى عنه المتآلفان ، وهما ممازجة طَبْع ، وموافقة شَكْلٍ وخَلْق ، ومطابقة خِيم[2] وخُلُق، وما وصلتنا حالٌ تجمعنا على ائتلاف، وحَمَتْنَا من اختلاف، ونحن فى طرف ضدّين ، وبين أمرين متباعدين ، وإذا حصَّلْت الأمرَ وجدتُ أقل ما بيننا من البعاد أكثر مما بين الوِهادِ والنِّجَادِ ، وأبعد مما بين البياض والسوادِ، وأيْسَر مابيننا من النفار أقلّ ما [بيننا من النصار، وأكثر ما][3] بين الليل والنهار ، والإعلان والإسرار .

[حسن التأتى]

أسد بن عبد الله والمنصور

قال أسَد بن عبد الله لأبى جعفر المنصور : يا أميرَ المؤمنين ؛ فَرْطُ الخُيَلَاء ، وهيبةُ العزة ، وظلُّ الخلافة ، يكفُّ عن الطلب من أمير المؤمنين إلّا عن إذْنِه . فقال له : قل ، فقد والله أصبتَ مَسْلَكَ الطلب ؛ فسأل حوائجَ كثيرةً قُضِيَتْ له.

وقال عمرو[4] بن نُهيك لأبى جعفر المنصور : يا أميرَ المؤمنين ، قد حضر خَدَمكَ الإعظام والهيبة عن ابتدائك بطلباتهم ، وما عاقبةُ هذين لهم عنـدك ؟ قال : عطاء يَزيدهم حياء ، وإكرامٌ يكسوهم هيبةَ الأبد ، قال عيسى بن على : ما زال المنصور

---

(١) غذا البلد يغذو : طاب هواؤه . (٢) الخيم : الطبع . (٣) ساقط من ا .
(٤) فى ط : عثمان .

يشاورُنا في أمره حتى قال إبراهيم بن هَرْمَة فيه[1] :

إذا ما أراد الأمر ناجى ضميرهُ　　فناجَى ضميراً غير مختلف العَقْلِ
ولم يُشْرِكِ الأدنين في جُلِّ أمرهِ　　إذا اختلفت بالأضعفين قُوَى الحَبْلِ

فِقر في ذكر المشورة

المَشُورةُ لِقاحُ العقل ، ورائدُ الصواب ، وحَزْمُ التدبير . المشاورة قبل المساورة . والمشورةُ عينُ الهداية .

ابن المعتز : من رضي بحالِهِ استراح ، والمستشيرُ على طرف النجاح . وله : مَن أكثرَ المشورة لم يعدم في الصواب مادحاً ، وفي الخطإ عاذراً .

بشار بن برد : المشاور بين إحدى الحسنيين : صواب يفوزُ بثمرته ، أو خطأ يُشارك في مكروهه ، وقال :

إذا بلغ الرأي الشورةَ فاستَعِنْ　　بحَزْمِ نصيحٍ أو مشورةِ حازم
ولا تحسب الشورى عليك غضاضةً　　فإنّ الخوَافِي قوةٌ للقوادم
وما خيرُ كفٍّ أمسك الغلّ أختَها　　وما خيرُ سيف لم يؤيَّدْ بقائم
وخَلِّ الهوينى للضعيف ولا تكُنْ　　نؤوما فإن الحزّ ليس بنائم
وأدْنِ إلى القرب المقرّب نفسهُ　　ولا تُشهد النجوى امرأً غير كاتم
فإنك لا تستطرد الغمّ بالمنى[2]　　ولا تبلغ العليا بغير المكارم

* * *

رجع إلى حسن التأتي

دخل الهذيل بن زُفَر على يزيد بن المهلب في حالات لزِمَتْه فقال : أيها الأمير ، قد عظُم شأنُك أن يُستعانَ بك أو يستعانَ عليك ، ولستَ تفعل شيئاً من المعروف إلا وأنتَ أكبرُ منه ، وليس العجبُ من أن تفعل ، بل العجب من ألّا تفعل ؛ فقضاها .

---

(١) المختار من شعر بشار : ٢٠٥ ، ذيل اللآلى : ٢٦ . (٢) في ط : بالمنى .

[تاريخ الكتب]

استخلص القاضي أبو خليفة الفضل بن حباب الجمحي رجلا للأُنْس به ، فقال : أَغَبِّرْ ثيابي وأعود ، قال : ما أفعل ، إيناسك وَعد ، وإيحاشك نقد ، وكان أبو خليفة من جِلَّةِ المحدثين ، وله حَلاوةُ معنى وحسن عبارة وبلاغةُ لفظ . قال الصولي: كاتبتُ أبا خليفة في أمور أرادها فأغفلتُ التاريخَ منها في كتابين ، فكتب إليّ بعد نفوذِ الثاني : وصل كتابُك ـ أعزّك الله ـ مُبْهَمَ الأوان ، مُظْلِمَ المكان ، فأدّى خبراً ما القرب فيه بأولى من البُعْد ؛ فإذا كتبت ـ أكرمك الله تعالى ـ فلتكن كتبُك مرسومةً بتاريخ ؛ لأعرف أدنى آثارك ، وأقرب أخبارك ، إن شاء الله تعالى .

وقال بعض الكتاب : التاريخ عمودُ اليقين ، ونافي الشك ، به تُعْرَف الحقوق ، وتُحفَظُ العهود .

وقال رجل لأبي خليفة سَلَّم عليه : ما أحسبك تعرف نسبي[(١)] . فقال : وجهك يدلُّ على نسبك ، والإكرامُ يمنع من مسألتك ، فأوْجِدْ لي السبيلَ إلى معرفتك .

وسأل أبو جعفر المنصور قبل أن تُفْضِي إليه الخلافة شبيب بن شيبة ، فانتسب له فعرفه أبو جعفر ، فأثنى عليه وعلى قومه ؛ فقال له شبيب : بأبي أنت وأمي ! أنا أحبّ المعرفة وأُجِلُّك عن المسألة . فتبسّم أبو جعفر وقال : لطف أهل العراق ! أنا عبد الله بن محمد [بن علي][(٢)] بن عبد الله بن العباس . فقال : بأبي أنت وأمي ! ما أشبهك بنسبك ، وأدلّك على منصبك .

فِقَر وأمثال يتداولها العمال

الولاية حلوة الرضاع مرّة الفطام . غبار العمل خيرٌ من زعفران العطلة .

ابن الزيات : الإرجاف مقدّمة السكون[(٣)] . عبد الله بن يحيى : الإرجاف رائد الفتنة .

حامد بن العباس : غرسُ البلوى يثمر الشكوى . أبو محمد المهلبي : التصرف أعلى وأسنى ، والتعطل أشقى وأعنى . أبو القاسم الصاحب : وعْدُ الكريم ألزَمُ من

---

(١) في ا : تقتبني . (٢) ساقط من ا . (٣) في ا : السكون .

دَيْن الغريم . ابن المعتز : ذلُّ العَزْلِ يضحك من تِيه الولاية . وقال :

كم تائهٍ بولايةٍ ... وبعَزْلهِ رَكضَ البَرِيدُ
سُكْرُ الولايةِ طيبٌ ... وخُمارها صَعْبٌ شديدُ

وقال : من ولى ولاية فتاه فيها فأخبره أنَّ قدره دونها . العزل طلاقُ الرجال وحيض العمال . وأنشدوا :

وقالوا العَزْلُ للعمال حَيْضٌ ... لحاهُ الله من حَيْضٍ بَغيض
فإنْ يكُ هكذا فأبُو عَلِيٍّ ... من اللاتى يَئِسْنَ من المحيض

منصور الفقيه :

يا مَنْ تولَّى فأبدى ... لنا الجفا وتَبدَّلْ
أليس منك سَيمْنَا ... من لم يمتْ فسيُعزلْ

وقال أيضاً :

إذا عُزِل المرء واصلتُه[1] ... وعند الولايةِ أستكبرُ
لأنَّ الولىَّ له نَخوةٌ ... ونفسى على الذلِّ لا تصبرُ

[منصور الفقيه]

ومنصور هذا هو منصور بن إسماعيل بن عيسى بن عمر التيمى[2] . وكان يتفقّه على مذهبِ الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وهو حلو المقطعات ، لا تزالُ تندر له الأبيات مما يُسْتَظرَف معناه ، ويُستحلَى مغزاه ، [ويبق ثناه][3]، وهو القائل لما كفَّ بصره: من شعره

مَنْ قال ماتَ ولم يستَوْفِ مُدَّتهُ ... لعظم نازلةٍ نالَتْهُ معذور
وليس فى الحكم أن يحيا فتًى بلغَتْ ... به نِهايةُ ما يخشى المقادير
فقل له غيرَ مُرْتابٍ بغفلتِهِ ... أو سوء مذهبه قد عاش منصورُ

---

(١) فى ط : واليته . (٢) فى ط : ابن عمر التيمى ، وهذا من ا .
(٣) ليس فى ا .

وعتب على بعض الأشراف ، وكانت أمُّه أمةً قيمتها ثمانية عشر دينارا فقال :

من فاتنى بأبيه ولم يفتنى بأمّهْ
ورام شتمىَ ظلماً سكتُّ عن نصفِ شتْمِه

وقال :

لو قيل لى خُذْ أماناً من حادث الأزمانِ
لما أخذْتُ أماناً إلّا من الإخْوانِ

وقال :

رضيت بمــا قسمَ اللهُ لى وفوّضتُ أمرى إلى خالقى
كما أحسن اللهُ فيما مضَى كذلك يُحسن فيما بَقِى

وقال :

لو كنت منتفعا بعذْ لك مَعْ مواصلة الكبائرْ
ما ضرَّ شُرْبَ السمِّ داء لَمْ أن شرب السم ضائرْ

وقال :

إذا القوتُ تأتّى لــ ك والصحةُ والأمنُ
وأصبحتَ أخا حُزْنٍ فلا فارقك الحُزْنُ

ورأيت له فى أكثر النسخ ــ على أنَّ أكثر الناس يرويه لإبراهيم بن المهدى، وهو الصحيح :

لولا الحياء وأنى مشهورُ والعيبُ يَعْلَقُ بالكبيرِ كبيرُ
لحللْتُ منزلنا الذى نحتلّهُ ولكان منزلنا هو المهجور

وهذا كقول الصاحب أبى القاسم :

[دعتنى عيناك نحو الصبا دعاء يكرر فى كل ساعهْ
فلولا وحقك عذر المشيب لقلتُ لعينيك سمعاً وطاعهْ

وقال ابن دريد فى معنى البيت الأول فأحسن :][1]

إذا رأيت امرأً فى حال عُسْرَتِهِ ... مُصَافِياً لك ما فى وُدِّه خَلَلُ

فلا تَمَنَّ له أن يستفيدَ غِنًى ... فإنه بانتقالِ الحالِ ينتقلُ

[تغير الحال بكثرة الأموال]

لمحمد بن الحسن بن سهل

وكان لمحمد بن الحسن بن سَهْل صديقٌ قد نالته عُسْرةٌ ، ثم ولّى عملا ، فأتاه محمد قاضيا حقًا ومسلمًا عليه ، فرأى منه [نبوةً و][1] تغيّرا ، فكتب إليه :

لَئِن كانتِ الدنيا أنالَتْكَ ثروةً ... وأصبحتَ ذا يُسْرٍ وقد كُنْتَ ذا عُسْرِ

لقد كشف الإثراء منك خلائقاً ... من اللؤم كانت تحتَ ثَوْبٍ من الفقر

وقال أبو العتاهية فى عمرو بن مسعدة ، وكان له خِلًّا قبل ارتفاع حاله ، فلما علَتْ رُتبته مع المأمون تغيّر عليه :

غَنِيتَ عن العهد القديم غنيتا ... وضيّعتَ عهداً كان لى ونسيتا

وقد كنتُ لى أيام ضَعْفٍ من القوى ... أبرَّ وأوْفَى منك حين قَوِيتا

تجاهلتَ عما كنتَ تُحسِن وَصْفَهُ ... ومتَّ عن الإحسان حين حَيِيتا

رسالة البديع إلى أبى نصر ابن المرزبان

وكتب بديعُ الزمانِ إلى أبى نصر بن المرزبان فيما ينخرطُ فى هذا السلك[2] : كنتُ — أطال اللهُ بقاء الشيخ سيدى وأدام عزَّه — فى قديم الزمان أتمنّى الخيرَ للإخوان ، وأسألُ الله تعالى أن يُدِرَّ عليهم أخلافَ الرزقِ ، ويمدَّ لهم أكنافَ العيش ، ويؤتيهم أصنافَ الفضْلِ ، ويوطئهم أكنافَ العز ، ويُنيلهم أعراقَ المجدِ ؛ وقُصارايَ الآن أن أرغبَ إلى الله تعالى ألا يُنيلَهم فوق الكفاية ؛ فشدّ ما يَطْغَوْنَ عند النعمة ينالونها ، والدرجةِ يعلونها ، وسَرْعَ ما ينظرون من عال، ويجمعون من مال ، وينسون فى ساعة الليونة أوقاتَ الخشونة ، وفى أزمان العذوبة أيام الصعوبة . وللكتّاب مَزِيَّةٌ فى هذا الباب ؛ فبيناهم فى الغربة أعوان كما اتفرج الشط ، وفى المُطْلَة إخوان كما

(١) من ا . (٢) الرسائل : ٩٣ .

انتظم السِّمْطُ ، حتى إذا لحظهم الجدُّ لحظةَ حَمْقَاء بمنشور عمالة ، أوْ صَكّ جِبالةٍ ؛ عادَ عامرُ مودّتِهم خرابا ، وانقلب شرابُ عهدهم سرابا ، فما اتّسعت دورُهم إلا ضاقَت صدورُهم ، ولا عَلَتْ قدورُهم إلّا خبُثَتْ بدورهم . ولا عَلَتْ أمورُهم إلا أسبِلَت ستورُهم ، ولا أوقِدَتْ نارُهم إلا انطفأ نُورهم ، ولا هُمْلِجت عِتَاقهم إلّا فظعت أخلاقُهم ، ولا صَلحت أحوالُهم ، إلا فسدت أفعالُهم ، ولا كثُرَ مالهم(١) ، إلّا قلّ جمالُهم ، وعزّ معروفهم ؛ وورِمَتْ أنوفهم ، حتى إنهم ليصيرون على الإخوان مع الخطوب خَطْبا ، وعلى الأحرار مع الزمان أَلْبا(٢) . فقُصارَى أحدهم من المجد أن ينصبَ تحته تَخْتَه ، وأن يوطِئ استه دستَه ، وحَسْبُه من الشرف دارٌ يصهرجُ أرْضَها ، ويزخرف بعضَها ، ويزوّق سقوفها ، ويعلّق شفوفها(٣) ؛ وناهيه من الشرف أنْ تغدو الحاشيةُ أمامَه ، وتحمل الغاشية قدّامه ، وكفاه من الكرم ألفاظٌ فقاعيّة(٤) ، وثيابٌ قداعية(٥) ، يلبسها ملوما(٦) ، ويحشوها لُوما ، وهذه صفةُ أفاضلهم . ومنهم من عنَحُكَ الودَّ أيام خُشكاره حتى إذا أخصب جعل ميزانَه وكيلَه ، وأسنانه أكيلَه ، وأنيسه كيسه ، وأليفه رغيفَه ، وأمينَه يمينه ، ودنانيره سَميره ، وصندوقه صديقَه ، ومفتاحه ضجيعَه ، وخاتمه خادِمَه ، وجمع الدرّةَ إلى الدرّة(٧) ، ووضع البَدْرَةَ على البدرة ، فلم تقع القَطْرَةَ من طَرْفه ، ولا الدرة(٧) من كفّه ؛ ولا يخرج ماله عن عهدة خاتمه ، إلى يوم مَأْتمه ، وهو يجمعُ لحادثِ حياته ، أو وارثِ وفاته ، يسلُكُ في القَذَرِ كلَّ طريق ، ويبيعُ بالدرهم ألفَ صديق ؛ وقد كان الظنُّ بصديقنا أبي سعيد — أيّده الله تعالى — أنه إذا أخصب أوانا كنفًا من ظلّه ، وحبانًا من فضله ، فمَنْ لنا الآن بمثله ؟ إنه — أطال الله بقاءه — حين طارت إلى أذنه عُقاب المخاطبة بالوزير ، وجلس من الديوان في صَدْرِ الإيوان ،

---

(١) في ا : ولا كثر جاههم إلا قل اعتبالهم وقل معروفهم .

(٢) هم عليه ألب — بفتح الهمزة وكسرها : أي مجتمعون عليه بالظلم والعداوة .

(٣) في ا : شقوقها .   (٤) في ط : براعته ، والتفقيع : التشدق في الكلام .

(٥) في ط : وثياب شفاعته . وفي الرسائل : ثياب شقاعية .   (٦) في ط : يكسبها .

(٧) في ط : الذرة .

افتضّ عُذْرة السياسة لديّ ، بتمرض ببعض المختلفة إلى ، وجعل يمرضه للهلاك ، ويتسبب إليه بِعال الأتراك ، وجعلت أكاتبه مرة وأقصده أخرى ، وأذكّره أنّ الراكب ربما استنزل ، والوالي ربما عُزِل ، ثم يجف ريق الخجل على لسان العذر ؛ فتبق الحزازة في الصدرِ ، وما يجمعني والشيخ إن كان زاده قولي إلا علوًّا في تحكمه ، [وغلوًّا في تهكمه][1] ، وجعل يمشي الجَمَزَى في ظلمه ؛ [ويبرأ إلىّ من علمه][2] ، فأقولُ : إذا رأيت ذِلّةَ السؤال مني وعزّةَ الرد منه لي :

قل لي متى فرزنتَ سُرْ　　عة ما أرى يا بَيْذَق[3]

وما أضيع وقتاً فيه أضَعْتُه ، وزماناً بذكره قطَعْته ، هلمّ إلى الشيخ وشرعته ، فقد نكأ القلب بقَرْحه ، وكيف أصِفُ حالا لايقرع الدهر مَرْوَةَ حالِه ، ولا ينتقض عروة إجلالِه ؛ فأ أولاني بأن أذكره مجملا ، وأتركه مفصّلا ، والسلام .

رسالة أخرى للبديع

وكتب إلى بعض إخوانه في أمر رجل ولي الأشراف[4] :

فهمت ماذكرتَ ـ أطال الله بقاءك ـ من أمر فلان أنه ولي الأشراف ، فإن يصدق الطير[5] يكن إشرافا على الهلاك ، بأيدي الأتراك ، فلا تحزُنْكَ ولايتُه فالحَبْلُ لايبرم إلّا للفتل ، ولا تعجبك خلعته فالثور لا يزيَّنُ إلا للقتل ، ولا يرعك نِفاقُه فأرخص ما يكون النّفط إذا غلا ، [وأسفل ما يكون الأرنب إذا علا][2] ، وكأنّي به وقد شنّ عليه جران العودِ شنّ المطر الجودِ ، وقيد له مركبُ الفجار ؛ من مربط النجار ، وإنما جرّ له الحبل ليُصفَع كما صُفِع من قبل ، وستعودُ تلك الحالة إحالة ، وينقلبُ ذلك الحبلُ حبالة ، فلا يحسد الذئب على الإلية يُعْطاها طعمة ، ولا يحسب الحبّ يُنثر للعصفور نعمة ، [وهبه وُلّى إمارة البَحْرَين أليس مرجعه ذلك العقل ، ومصيره ذلك الفضل ، ومنصبه ذلك الأصل . وعصارته ذلك النسل ، وقعيدته تلك الأهل][1] ، وقوله ذلك

---

(١) من ا .　　(٢) ساقط من ا .

(٣) الفرزان : من لعب الشطرنج أعجمي معرب ، البياذقة : الرجالة ، ومنه بيذق الشطرنج.

(٤) الرسائل : ١١٩ .　　(٥) في ط : فإن تصدق الطيرة تكن .

القول ، وفعله ذلك الفعل ، فكان ماذا ؟ أليس قد سلب أكثر مما أعطى ، وما حرم أفضل مما أوتى ، وما عدم أوفر مما غنم ! مالك تنظرُ إلى ظاهره ، وتعمى عن باطنه ؟ أكان يعجبك أن تكونَ قعيدتُه فى بيتك ، وبغلتُه من تحتك ، أم كان يسرُّك أن تكونَ أخلاقُه فى إهابك ، وبوّابُه على بابك ، أم كنت تودّ أن تكونَ وَجْعاؤه[1] فى إزارك ، وغلمانه فى دارك ، أم كنتَ تَرْضَى أن تكون فى مربطك أفراسُه ، وعليك لباسُه ، ورأسك رأسُه ؟ جعلت فداك ، ما عندك خيرٌ مما عنده ، فاشكر اللهَ وحدَه على ما آتاك ، واحمَدْه على ما أعطاك ، ثم أنشد :

إنّ الغَنِىّ هو الراضى بعيشته لا مَنْ يظلُّ على الأقدارِ مكتئبا

[فى البخل]

ألّف سهل بن هارون كتاباً يمدح فيه البخلَ وَيذمُّ الجودَ ، ليظهر قدرته على البلاغة ، وأهداه للحسن بن سهل فى وزارته للمأمون ، فوقّع عليه : لقد مدحتَ ما ذمّه الله ، وحسَّنْتَ ما قبّح الله ، وما يقوم صلاحُ لفظك بفساد معناك ، وقد جعلنا نوالك عليه قبول قولك فيه .

شىء من الحسن بن سهل

وكان الحسنُ من كرماء الناسِ وعقلائهم . سُئل أبو العيناء[2] عنه ، فقال : كأنما خلَقَ آدمَ فى ولده ، فهو ينفع عيلتَهم ، ويسدُّ خلّتَهم ، ولقد رفع اللهُ للدنيا من شأنها ، إذ جعله من سكّانِها ، أخذ هذا المعنى أبو العيناء من قول الشاعر :

وكأنّ آدمَ كان قبل وفاتِه أوصاك وهو يجودُ بالحَوْباء[3]

ببَنيه أن ترعاهم فرعيتَهم وكفيت آدمَ عيلةَ الأبناء

وأخذ أبو الطيب المتنبى آخر كلام أبى العيناء فقال[4] :

قد شرف الله دُنيا أنتَ ساكِنُها وشرّفَ الناسَ إذ سوّاك[5] إنسانا

---

(١) الوجعاء : السافلة وهى الدبر . (٢) فى ط : أبو العتاهية .

(٣) الحوباء : النفس . (٤) ديوانه : ٤ — ٢٣٦ . (٥) فى ا : سموك .

وقيل للحسن بن سهل : لِمَ قيل : قال الأول ، وقال الحكيم ؟ قال : لأنه كلام قد مرّ على الأسماع قبلنا ، فلو كان زللًا لما نُقِل إلينا مستحسَنا.

ومن أمثال البخلاء واحتجاجهم وحِكَمهم

أبو الأسود الدؤلى : لا تُجاوِد(1) الله ، فإنه أجودُ وأمجد، ولو شاء أن يوسّع على خَلْقِه حتى لا يكون فيهم محتاج فعل . وقال : لو أطَعْنا المساكين فى إعطائنا إياهم كنا أسوأ حالًا منهم . وقال الكندى : قولُ « لا » يدفع البلاء ، وقول « نعم » يُزيل النعم . وقال : سماع الغناء بِرْسام(2) حادّ ؛ لأنّ المرءَ يسمع فيطرب، فيسمح فيفتقر ، فيغتمّ فيمرض فيموت . وقال لابنه : يابنى ، كُنْ مع الناس كاللاعب بالقمار، إنما غرضُه أخْذُ متاعهم ، وحِفْظُ متاعه . وقال [غيره :](3) مَنْعُ الجميع أرْضَى للجميع. إذا قبح السؤال حسن المنع . وقال ابن الجهم : من وَهَبَ فى عمله فهو مخدوع ، ومن وَهَبَ بعد العَزْلِ فهو أحمق ، ومن وَهب من جوائز سلطانه أو ميراث لم يَتْعَب فيه فهو مخذول ، ومن وهب كِيسه وما استفاد بحيلته فهو المطبوع على قلبه ، المختوم على سمعه وبصره .

ومن إنشاداتهم :

لا تَجُدْ بالعطاء فى غير حقٍّ ... ليس فى مَنْعِ غير ذى الحقّ بُخْلُ

وقال كُثيّر :

إذا المالُ لم يوجِبْ عليك عطاؤُه ... حقيقة تقوًى أو صديق تُوَافِقه

منعت وبعضُ المنعِ حَزْمٌ وقوةٌ ... ولم يفتلتك(4) المال إلّا حَقَائقُه

ابن المعتز :

---

(1) جاودت فلانا: غلبته بالجود، وفى ط :لاتجاوزوا جودالله .(2) البرسام :علة يهذى فيها.
(3) فى ط : وقال . (4) افتلت الشيء : أخذه بسرعة ، وفى ط : ولم يحتملك .

يارُبَّ جُودٍ جرَّ فقرَ[1] امرىء   فقام للناس مقامَ الذليل
فاشدُد عُرا مالِك واستَبْقِه   فالبُخلُ خيرٌ من سؤال البخيل

وكتب بعضُ البخلاء يصفُ بخيلا : حضرت ـ أعزّك الله ـ مائدةَ فلان للقدر المجلوب ، والحَيْن المُتاح ، والشقاء الغالب، فرأيت أوانى تروق العيونَ محاسنها، ويونق النفوس ظاهرها وباطنها ، وترمى اللحظات ببدائع غرائبها ، وتستوق الشهوات بلطائف عجائبها مكلّلة بأحسن من حلى الحسان ووجوهها، وزَهْر الرياض ونَورها ؛ كأنّ الشمسَ حلّت بساحتها ، والبدر يغرف من جوانبها[2]، فمددت يداً عنتها الشراهة، وغلبها القدر الغالب ، وجرّها الطمع الكاذب ، وإذا له مع كَسْر كل رغيف لحظة نُكْر ، ومع كل لُقْمَةٍ نَظْرة شزر ، وفيما بين ذلك حُرقٌ قائمة ، يصلى بها مَنْ حضره من الغلمان والحشم ، [وقام بين يديه من الولدان][3] والخدم ، ومع ذلك فترة المغشىّ عليه من الموت ؛ فلما وضعت الحربُ أوزارها برفع الخوان ، وتجلت عنه سمادير[4] الغشيان ، بسط لسانَ جهلِه، ونصر ما كان[4] من بخله، ونظر إلى مؤاكله ، نظر المسترقّ له بأكلته ، المالك لخيطِ رقبته ؛ يظنّ أنه أولى من والديه بنسبته ، وأحقّ بماله من وَلَده وعياله ، يرى ذلك [فضلا ، وحقا لازما ، وأجرا واجبا][5] نزل به الكتابُ والسنة ، واتّفق عليه قُضاةُ الأمة ، فإنْ دفعه رد حكم القضاة عليه ، وإن سمَح به فغيرُ محمود عليه .

فِقَر لابن المعتز وغيره فى الصديق والصدق

إنما سُمّى الصديقُ صديقا لصدقه فيما يدّعيه لك، وسُمّى العدو عدوًّا لعدوه عليك إذا ظفر بك . علامةُ الصديق إذا أراد القطيعةَ أن يؤخّر الجواب، ولا يبتدىء بالكتاب لا يفسدنك الظنُّ على صديق قد أصلحك اليقين له . إذا كثرت ذنوبُ الصديقِ

(١) فى ا : جر فى فقر . (٢) فى ط : من حافتها . (٣) من ا . (٤) السمادير : ضعف البصر أو شىء يتراءى للإنسان من ضعف بصره عن السكر وغشى الدوار والنعاس .
(٤) فى ط : ونس ما ظهر . (٥) من ا .

تَحقّقَ السرورُ به ، وتسلطت التهم عليه . من لم يقدم الامتحانَ قبل الثقة والثقة قبل الأُنس أثمرت مودّتُه ندما . نُصْح الصديق تأديبٌ ، ونصحُ العدو تأنيب . ظاهرُ العتاب خيرٌ من باطن الحقد . جيش الودّ يقتل العتاب :

تَرْكُكَ العتاب ، إذا استحقّ أخٌ منك العتابَ ، ذريعةُ الهَجْرِ

وكتب أبو إسحاق الصابى إلى صديق له من الحَبْس : نحن فى الصحبة كالنسرين ، لكنى واقع ، وعلى الطائر أن يغشَى أخاه ويراجع . من قلّ صدقه قل صديقه . من صدقت لهجته ظهرت حُجّته . الصادق بين المهابة والمحبة . من عُرف بالصدق جاز كذبه ، ومن عرف بالكذب لم يَجُزْ صدقه ، ومن تمام الصدق الإخبار بما تحتمل العقول .

[كتاب الحسن بن سهل إلى أبى تمام]

وكتب الحسن بن وهب إلى أبى تمام الطائى : أنت حفظك الله تحتذى من البيان فى النظام مثل ما نقصد نحن فى النثر[1] من الإفهام ، والفضلُ لك ـ أعزك الله ـ إذ كنت تأتى به فى غاية الاقتدار ، على غاية الاقتصار ، فى منظوم الأشعار ، فتحل متعقده ، وتربط متشرده ، وتضم أقطاره[2] ، وتجلو أنواره ، وتفصله فى حدوده ، وتخرجه فى قيوده ، ثم لا تأتى به مهملا فيستبهم ، ولا مشتركا فيلتبس ، ولا متعقدا فيطول ، ولا متكلفا فيحول ؛ فهو منك كالمعجزة تضرب فيه الأمثال ، وتشرح فيه المقال ؛ فلا أعدمنا الله هداياك واردة ، وفوائدك وافدة ، وهى طويلة .

وفى هذه الرسالة يقول أبو تمام وقد أرى أنه قال ذلك فى غيرها[3] :

[لقد جَلّى كتابُك كل بَثٍّ جَوٍ وأصاب شاكلةَ الرَّمِىِّ
فضضت ختامه فتبلّجَتْ لى غرائبه عن الخبر الجلىِّ
وكان أغضّ فى عينى وأندى على كبدى من الزهر الجنىِّ

(١) فى ط : فى الدرر . (٢) فى ط : وتنظم أخطاره . (٣) ديوانه : ١ ـ ٣٤٤
والقطعة كلها وما بعدها إلى صفحة ٨٣٦ من ا .

وأحسَن موقعا منى وعندى ... من البُشرى أتت بَعد النعىّ
كتبت به بلا لفظٍ كريهٍ ... على أذن ولا لفظٍ قمِىّ
وضُمِّنَ صَدْرُه مالم تضمَّن ... صدورُ الغانياتِ من الحلِىّ
فإن تَكُ من هداياك الصفايا ... فربَّ هديةٍ لك كالهَدِىّ
لئن غرَّبتها فى الأرض بكرا ... لقد زفّتْ إلى سمع كَفِىّ

وقال البحترى فى الحسن بن وهب[1] :

وإذا تألق فى الندىّ كلامه الـ ... ـمصقول خلت لسانه من عضبه
وإذا دجَتْ أقلامه ثم انتحت ... برقَتْ مصابيحُ الدجا فى كتْبه
باللفظ يقرب فهمه فى بعده ... منّـــا ويبعد نيله فى قُرْبه
حكم فسائحها خلال بنانه ... متدفّق وقليبها من قلبه
كالروض مؤتلق بحمرة ورده ... وأنيق زهرته وخضرة عشبه
أو كالبرود تخيرتْ لمتوّجٍ ... من خاله أو وشيه أو عَصْبِه
وكأنها والسمع معقودٌ بهـا ... وجْهُ الحب بدا لعين محبّـه

أنشد بعضُ الكتاب هــذه الأبيات أبا العباس ثعلبا فاستعادها حتى فهمها ، ثم قال : لو سمع الأوائل هذا ما فضّلوا عليه شعرا .

وقال بعض الكتاب :

ورسالة ألفاظهـــا ... فى النظم كالدّرّ النثير
جاءتْ إليك كأنها !! = وفيقٌ فى كل الأمورْ
بأرقّ من شكوى وأحْـ ... ـسن من حياة فى سُرُورْ
لو واجهت أعمى لأصْـ ... ـبح وهو ذوطَرْفٍ بَصِيرْ
فكأنها أمل سَرَى ... من بعد يأسٍ فى السرُورْ

(١) ديوانه : ٢ ــ ١٩٨.

أو كالفقيد إذا أتتْ ... لقدومه بُشرَى البشيرْ
أو كالنام لساهرٍ ... أو كالأمان لمستجيرْ
كتبت بحبر كالدَّرَى ... أو كُفْر نعمى من كفور
فكأنما هو باطل ... ما بين حقٍّ مُستَنيرْ

وقال أحمد بن أبى العباس بن ثوابة][1]:

فى كل يوم صدورُ الكتب صادِرةٌ ... من رأيه وندى كفّيه عن مثلِ
عن خَط أقلامه يجرى القضاء على ... كل الخلائق بين البيض والأَسَل
كأن أسطره فى بطن مُهْرَقِهِ ... نور يضاحِكُهُ دَمْعَ الواكف الخضِلِ
لعابه علل[2] والصدر ينفثها ... وربما كان فيه النفع للملل[3]
كالنار تعطيك من نور ومن حُرق ... والدهر يعطيك من غَمٍّ ومن جَذَلِ

وقال آخر:

مدادٌ مثل خافية الغرابِ ... ورقٌّ مثل رقراق السرابِ[4]
وأقلام كأرواح الجوارى[5] ... وألفاظ كأيام الشباب

[بلاغة عَمْرو بن مَسْعدة]

قال أحمد بن يوسف: دخلت على المأمون، وفى يده كتابٌ، وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة، ويصعّد فيه بصرَه ويصوِّبُه؛ فالتفت إلىّ وقد لحظنى فى أثناء قراءته الكتاب فقال: أراك مُفَكِّرًا فيما تراه منى! فقلت: نعم، وقى اللهُ أمير المؤمنين المخاوف! قال: لا مكروه إن شاء الله، ولكنى قرأتُ كتابا وجدتُه نظيرَ ما سمعت الرشيد يقوله عن البلاغة، فإنى سمعتُه يقول: البلاغةُ التباعد من الإطالة، والتقرب من البغية، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى، وما كنتُ أتوهمُ أن

---

(١) من ا. (٢) فى ا: غلل. (٣) فى ا: للفلل.
(٤) فى ا: الشراب. (٥) فى ط: كأطراف المراب.

أحداً يقدر على هذه البلاغة[1] حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا فإذا فيه :

كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قِبَلي من الأجناد والقوّاد في الطاعة والانقياد على أحسن ما تكونُ عليه طاعةُ جُنْدٍ تأخَّرَتْ أعطياتهم ، واختلّت أحوالهم !

ألا ترى يا أحمد إلى إدماجه [المسألة في الإخبار][2]، وإعفائه سلطانَه من الإكثار. ثم أمرَ لهم برزق ثمانية أشهر .

وفي عَمْرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي[3] :

أعِنّي على بارق ناصب ... خَفِيٍّ كومْيك بالحاجبِ
كأنّ تألّقه في السماء ... يدا كاتب أو يدَا حاسِب
فروّى منازلَ تذكارها ... يهيّج من شوقك الغالب
غريب يحنّ لأوطانهِ ... ويبكي على عصره الذاهب
كفاك أبو الفضل عمرو الندى ... مطالبة الأملِ الكاذبِ
وصِدْق الرجاء وحُسْن الوفاء ... لعمرو بن مسعدة الكاتب
عريض الفِناء طويل البنا ... ء في العزّ والشرف الثاقب
بنى الملك طود له بيتهُ ... وأهل الخلافة من غالب
هو المرتجَى لصروف الزمان ... ومعتصَم الراغبِ الراهب
جوادٌ بما ملكت كفُّهُ ... على الضيف والجار والصّاحِبِ
بأدم الركاب ووشي الثيا ... ب والطِّرْف والطَّفْلَة الكاعِبِ
نؤمّلهُ لجسام الأمورِ ... وندعوه للجلل الكارِبِ
خصيب الجناب مَطِير السحاب ... بشيمته[4] ليّن الجانِب

---

(١) في ا : المبالغة .
(٢) العبارة من ا . وفي ط : إلى إدماجه في الأجناد .
(٣) اللآلئ : ٤٤٤ .
(٤) في ا : بسامة .

يروّى القنا من نحور العدا ... ويعرق[1] فى الجود كاللاعب
إليك تبدت[2] بأكوارها ... حراجيج[3] فى مهمه لاحب
كأنّ نعاما تمادى بنا ... تزايل من برد حاصب[4]
يردْن ندى كفّك المرتجى ... ويقضين من حقك الواجب
ولله ما أنت من جائر[5] ... بسجْل لقوم ومن غارب
يُساق العدا بكئوس الردى ... ويسبق مسألةَ الطالب
وكم راغب نلتـه بالعطا ... وكم نلت بالحتْف من هارب
وتلك الخلائق أعطيتَها ... وفضل من المانح الواهب
كسبت الثناء وكَسْبُ الثنا ... ء أفضلُ مكسبة الكاسب
يقينك يجلو ستور الدجا ... وظنُّك يُخْـبر بالغائب

وهذا الشعر يتدفق طبعاً وسلاسة .

[الكلام الجيد الطبع]

قلت : والكلامُ الجيد الطبع مقبول فى السمع ، قريبُ المثال ، بعيد النال ، أنيق الديباجة ، [رقيق الزجاجة][6] ، يدنو من فَهْم سامعه ، كدنوّه من وهم[7] صانعه ، والمصنوع مثقف الكعوب ، معتدلُ الأنبوب ، يطّرد ماء البديع على جنباته ، ويجول رَوْنَق الحسن فى صفحاته ، كما يجول السِّحْر فى الطَّرْف الكحيل ، والأثْر فى السيف الصقيل ، وحمل الصانع شعره على الإكراه فى التعمل وتنقيح المبانى دون إصلاح المعانى يعفى آثار صنعته ، ويطفئ أنوار صيغته ، ويخرجه إلى فساد التعسف ،

---

(١) فى ط : ويفرق . (٢) فى ا : تبدت .
(٣) الحرجوج : الناقة السمينة الطويلة ، أو الشديدة أو الضامرة .
(٤) هذه رواية ا ، وفى ط :
كأن نعاما تبارى بنا ... بوابل من برد عاصب
(٥) فى ط : جابر . (٦) ساقط من ا . (٧) فى ط : فهم .

وقُبْح التكلف ؛ وإلقاء المطبوع بيده إلى قبول مايمنه هاجسُه، وتنفثه وساوسه، من غير إعمال النظر ، وتدقيق الفِكر ، يخرجه إلى حَدّ المشتهر الرث ، وحيِّز الغث ؛ وأحسن ماأجرى إليه وأعوِّل عليه التوسط بين الحالين ، والمنزلة بين المنزلتين، من الطبع والصنعة .

وقد قال أعرابي للحسن البصري : علمني دينا وسيطا ، لا ساقطا سقوطا ، ولا ذاهبا فروطا . قال الحسن : أحسنت ، خيرُ الأمور أوساطها . والبحترى عن هذا القوس ينزع ، وإلى هذا النحو يرجع .

[من الشعر الجيد]

ومن الشعر الذى يجرى مع النفس قولُ ابن المعتز يمدح المكتفى ، إذ قدم من الرَّقَّة لابن المعتز
بعد القبض على القرمطى فقال[1] :

لا ورمّانِ النهود ... فوقَ أغصانِ القدودِ
وعناقيد من أصدا ... غ وورْدٍ من خُدودِ
وبُدور من وُجوهٍ ... طالعات بالسعود
ورسول جاء بالميـ ... ـعاد من بَعْدِ الوعيد
ونعيم من وِصَال ... فى قفَا طولِ الصدود
ما رأت عينى كظَبْيٍ ... زارنى فى يوم عيد
فى قباء فاختِيّ الـ ... ـلونِ من لبس الجديد
كلما قاتل جنـد ... يٌّ بسيف وعَمُودِ
قاتل الناسَ بعينيـ ... ـن وخدّين وجيد[2]
قد سقانى الخمر[3] من فيـ ... ـه على رغم الحسُودِ
وتعانقنا كأنا ... وهْوَ فى عقدٍ شديد

(١) ديوانه : ١ — ١١٣ . (٢) فى ا : بخدين وعينين وجيد .
(٣) فى ط ، الديوان : الراح .

تقرع الثَّغْرَ بثَغْرٍ   طيّب عند الورود
[مثل ما عاجل بردٌ   قطرَ مُزنٍ بجمود
سحرا من قبل أنْ   ترجع أرواحُ الوفود
ومضى يخطر فى الث   ى كجبّارٍ عنيد][1]
مرحباً بالملك القا   دم بالجدّ السعيد
يا مذلّ البَغْى يا قا   تل حيّات الحقُودِ
عِشْ ودُمْ فى ظِلِّ عَيْش   خالدٍ باقٍ جديد
فلقد أصبح أعدا   ؤك كالزَّرْعِ الحصيدِ
ثم قد صاروا حديثاً   مثل عادٍ وثمود
جاءهم بحرُ حديد   تحت أجبالٍ بُنُودِ
فيه عِقْبانُ خيول   فوقها أُسْدُ جُنُودِ
وردُوا الحربَ فدوا   كل خطِّيٍّ مَديدِ
وحسام شَرِهِ الحـ   ـدّ إلى قَطْعِ الوَرِيد
ما لهذا الفتح يا خيـ   ـرَ إمام من نديد[2]
فاحمد اللهَ فإن الـ   ـحَمْدَ مفتاحُ المزيدِ

لعلى بن الخليل

وقول على بن الخليل مولى يزيد بن مَزْيَد الشيبانى ، وكان يُرى بالزندقة : قال الفضل بن الربيع : جلس الرشيد يوماً للمظالم فجعلت أتصفّحُ الناسَ وأسمعُ كلامهم ، فرميت بطَرْفى ، فرأيتُ فى آخرهم شيخاً حسَنَ الهيئة والوَجْه ما رأيتُ أحسنَ منه ؛ فوقف حتى تقوّض المجلس ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ رقعتى ! فأمر بأخذها ، فقال : إنْ رأى أمير المؤمنين أن يأذنَ لى بقراءتها ؛ فأنا أحسنُ تعبيراً لخطّى من غيرى — فقال له : اقرأ. فقال : شيخ ضعيف ، ومقامٌ صَعب ، ولا آمَنُ الاضطراب ؛ فإن رأى

---

(١) من ا .   (٢) فى ا : نديد .

أميرُ المؤمنين أن يصلَ عنايته بأمرى فى الإذن بالجلوس فعل ، فقال : اجلس ، فجلس وأنشأ يقولُ :

يا خيرَ مَنْ وخدت بأرحلهِ ... نُجُبُ الرِّكاب بمَهْمَهٍ جَلْسِ
تطوى السباسبَ فى أزمّتها ... طىَّ التجارِ عمائمَ البِرْسِ(١)
لما رأتك الشمسُ طالعةً ... سجدتْ لوجهك طالعة الشمْسِ
خيرُ البرية أنتَ كلهم ... فى يومك الغادى وفى الأمْسِ
وكذاك لن تنفكَّ خيرهمُ ... تُمسِى وتصبح فوق ما تُمْسِى
لله ما هارون مِنْ ملك ... عفُّ السريرة طاهر النفْسِ
تمّت عليــه لربه نِعَمٌ ... تزداد جدَّتهــا مع اللّبْسِ
من عِتْرَةٍ طابَتْ أرُومتها ... أهل العفاف ومنتهى القُدْسِ
متهللين على أسرّتهم ... ولدى الهياج مصاعبُ شُمْسِ
إنى لجأتُ إليك من فَزَعٍ ... قد كان شرّدنى ومن لَبْسِ
لما استخَرْتُ الله مجتهداً ... يمّمتُ نحوك رِحْلَة العَنْسِ
واخترت حِلمك لا أجاوزهُ ... حتى أغيَّبَ فى ثرى رَمْسِى
كمْ قد سريت إليك مدّرعا ... ليلا يموجُ كحالِكِ النقْسِ
إنْ داعنى من هاجسٍ فَزَعٌ ... كان التوكّل عنده تُرْسِى
ما ذاك إلَّا أننى رجلٌ ... أصبو إلى نَفَرٍ من الإنْسِ
بيض أوانسٍ لا قرون لها ... يقتلن بالتطويل والحَبْسِ
وأجاذب الفِتْيان بينهمُ ... صفراء مثل مُجاجةِ الوَرْسِ
للماء فى حافاتها حَبَبٌ ... نظم كرَقْمٍ صحائف الفُرْسِ
والله يعلمُ فى بَلِيتِه ... ما إن أضمت إقامة(٢) الخَمْسِ

---

(١) البرس : القطن أو شبيه به أو قطن البردى . (٢) فى ط : قيامة .

قال : ومَنْ تكون ؟ قال: على بن الخليل ، الذى يقال إنه زنديق. فقال له : أنت آمن ، وأمر له بخمسة آلاف درهم .

محمد بن حازم الباهلى

وأنشد أبو العباس المبرد لرجل يصفُ دعوة دعَا بها الله عز وجل ، وقد رأيتها فى شعر محمد بن حازم الباهلى :

وسارِيةٍ لم تَسْرِ فى الأرض تَبْتغى … محلًّا ولم يقطع بها البِيدَ[1] قاطعُ
سرت حيث لم تُحْدَ الرِّكابُ ولم تُنَخْ … لوِرْدٍ ولم يقصر لها القيد مانعُ
تمر وراء[2] الليل والليل ضاربٌ … بجثمانه فيه سَمِيرٌ وهاجعُ
إذا وردتْ لم يرْدُدِ اللهُ وَفْدَها … على أهلها ، واللهُ رَاءٍ وسامعُ
تفتّحُ أبوابُ السمواتِ دونَها … إذا قرع الأبوابَ منهنّ قارعُ
وإنى لأرجو اللهَ حتى كأننى … أرى بجميلِ الظنّ ما اللهُ صانعُ

[أجوبة حسنة]

لرجل من شيبان

ودخل رجل [من شيبان][3] على مَعْن بن زائدة فقال : ما هذه الغَيْبة ؟ فقال : أيها الأميرُ ، ماغاب عن العَيْنِ مَنْ يذكره القلْب ، ومَا زال شوق إلى الأمير شديدا ، وهو دون ما يَجِبُ له ، وذِكْرى له كثير ، وهو دُون قَدْرِه ، ولكن جفوة الحجّاب ، وقلة بِشْرِ الغلمان ، منعانى من الإتيان ! فأمر بتسهيل إِذْنه وأجزل صِلَته .

لمعن

وقال أبو جعفر المنصور لمعن بن زائدة : كبرت يا مَعْن ! قال : فى طاعتك ياأميرَ المؤمنين . قال : إنك لجَلْد ، قال : على أعدائك . قال : وإنّ فيك لبقيّة ، قال : هى لك يا أميرَ المؤمنين . قال : فأى الدولتين أحبُّ إليك ؛ هذه أم دولة بنى أمية ؟ قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين ؛ إن زاد برُّك على برّهم كانت دولتُك أحبَّ إلى .

معن بن زائدة

ومعن هذا هو معن بن زائدة بن عبد الله [بن زائدة بن مَطَر بن شَرِيك بن عمرو

(١) فى ا : البعد . (٢) فى ط : بجنح . (٣) من ا .

أخي الحوفزان بن شريك بن عمرو بن قيس][1] بن شرحبيل بن مثبه بن همام بن مرّة بن ذُهْل بن شيبان. وبنو مطَر بيت شيبان، وشيبان بيت ربيعة. وكان ممن أجودَ الناسِ ، وفيه يقول مَرْوَان بن أبي حفصة ويعم بني مطر :

بنو مطَرٍ يوم اللقاء كأنهم   أسودٌ لها في غِيلِ خَفَّان أشبُلُ
همُ يمنعون الجارَ حتى كأنما   لجارهمُ بين السِّماكَيْنِ منزلُ
ولا يستطيعُ الفاعلون فَعَالَهمْ   وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا
بَهاليلُ في الإسلام سادُوا ولم يكُنْ   كأوّلهم في الجاهلية أوّلُ
هم القومُ إن قالوا أصابوا وإن دُعُوا   أجابوا وإن أعْطَوا أطابوا وأجْزَلُوا

أخذ البيت الأول ابن الرومي وزاد فيه فقال :

تلقاهمُ ورِماح الخطِّ بينهم   كالأُسْدِ ألبسها الآجامَ خَفَّانُ

لشيخ من العرب

أتى قوم من العرب شيخا لهم قد أرْبَى على الثمانين وأهدف[2] على التسعين، فقالوا: إنّ عدوّنا استاق سَرْحَنا ، فأشِرْ علينا بما نُدرك به الثّأر ، وننفي به العارَ .

فقال: الضعفُ فسخ هِمّتي، ونكث إبْرَام عزيمتي، ولكن شاوِرُوا الشجعانَ من ذوي العَزْم ، والجبناء من ذوي الحزم ؛ فإنّ الجبان لا يألو برأيه ما يقي مُهَجَكُم ، والشجاع لا يألو برأيه ما يشيد ذكركم، ثم اخلصوا من الرأي بنتيجة تبعد عنكم معرّة نَقْصِ الجبان ، وتَهوّر الشجعان ، فإذا نجمَ الرأيُ على هذا كان أنفذ على عدوكم من السّهْمِ الصائبِ ، والحُسَام القاضب .

لأعرابية

قال الأصمعي : سمعت أعرابية تقول لرجل تخاصِمُه : والله لو صُوّر الجهل لأظلم معه النهار ، ولو صوّر العَقْلُ لأضاء معه الليل، وإنك من أفضلهما لمُعْدِم ؛ فخَفِ الله، واعلم أنّ من ورائك حَكَما لا يحتاجُ المدّعي عنده إلى إحضار البينة .

للفرزدق

قال الفرزدق يهجو كليبا :

ولو يُرْمَى بلؤم بني كليب   نجومُ الليل ماوضَحَتْ لِسارِي

(١) من ١.   (٢) أهدف عليه : أشرف .

ولو لبس النهارَ بنو كُلَيب ... لدنّس لؤمُهم وَضَحَ النهارِ

[من جيد كلام الأعراب]

وقال سفيان بن عُيينة : سمعت أعرابيا يقول عشية عَرَفة : اللهم لا تحرمْني خيرَ ما عندك لِشرِّ ما عندى ، وإن لم تتقبّلْ تَعَبي ونَصَبي فلا تَحْرِمنى أجْرَ المصاب على مصيبته .

وقال آخر منهم لصديق استبطأه فَلامَهُ : كانت لى إليك زَلَّة يمنعنى من ذِكرها ما أمَّلْتُ مِنْ تجاوُزك عنها ، ولستُ أعتذِرُ إليك منها إلا بالإقلاع عنها .

وقال آخر لابن عم له : والله ما أعْرف تقصيراً فأقلع ، ولا ذنباً فأعتب ، ولست أقولُ : إنك كذبت ولا إننى أذنبت .

وقال آخر لابن عم له : سأتخطّى ذنبك إلى عُذْرِك ، وإن كنت من أحدهما على يَقين ، ومن الآخر على شكّ ، لتتمّ النعمةُ منى إليك ، وتقومَ الحجّةُ لى عليك .

وأصيب أعرابىٌّ بابنٍ له ، فقال ، وقد قيل له اصبر : أعلى اللهِ أتجلّدُ أم فى مصيبتى أتبلّد؟ والله لَلْجَزَع من أمره أحبُّ إلىّ الآن من الصَّبْرِ ! لأن الجزعَ استكانة ، والصبرِ قَساوة ، ولئن لم أجزع من النقص لا أفرح بالمزيد .

ودعا أعرابى فقال : اللهم إنى أعوذُ بك أن افتقرَ فى غِناكَ ، أو أضلّ فى هُداك ، أو أذلّ فى عزّك ، أو أضام فى سُلْطانك ، أو أضْطَهد والأمر إليك .

قال الأصمعى : سمعتُ أعرابيا يَعِظُ رجلا وهو يقول : وَيْحَك ! إنّ فلانا وإنْ ضحك إليك ، فإنه يضحكُ منك ؛ ولئن أظهر الشفقةَ عليك ، إنّ عقاربه لتسرى إليك ؛ فإنْ لم تتخذه عدوّا فى علانيتك ، فلا تجعله صديقاً فى سريرتك .

سمع أعرابىّ رجلا يقعُ فى السلطان فقال : إنك غُفْل لم تَسِمك التجارب ، وفى النصح لَسْعُ العقارب ، كأنى بالضاحك إليك ، وهو باكٍ عليك .

وحذّر بعضُ الحكماء صديقا له صحبه رجل ، فقال : احذَرْ فلانا ، فإنه كثيرُ

المسألةِ ، حسن البحث ، لطيف الاستدراج ، يحفظُ أول كلامك على آخره ، ويعتبرُ ما أخَّرت بما قدَّمت ، فلا تظهرنَّ له المخافةَ ، فيرى أنْ قد تحرَّزْت ؛ واعلم أنَّ من يقظة الفِطْنة إظهارُ الغفلة مع شدة الحذَر ، فباثّه مباثّةَ الآمِن ، وتحفَّظْ منه تحفظَ الخائف ؛ فإنَّ البحث يظهر الخفىَّ الباطن ، ويُبْدى المستكنَّ الكامن .

أتى أعرابىّ رجلا لم يكن بينه وبينه حُرْمة فى حاجةٍ له ، فقال : إنى امتطيتُ إليك الرجاء ، وسَرَيْتُ على الأمل ، ورافقت[1] الشكر ، وتوسَّلْت بحُسْنِ الظن ، فحقِّق الأمل ، وأحْسِن المثوبة ، وأكرم الصَّفَد ، وأقِم الأوَد ، وعجِّل السَّراح .

قال الأصمعى : وسمعتُ أعرابيا يقول : إذا ثبتت الأصول فى القلوب ، نطقت الألسنةُ بالفروع ! والله يعلمُ أنَّ قلبي لك شاكر ، ولسانى ذاكِر ، ومحال أن يظهرَ الودّ المستقيم ، من الفؤاد السقيم .

ومدح أعرابى رجلا فقال : إنه ليغسل من العار وجوها مسودّة ، ويفتح من الرأى أبواباً منسدّة .

وقال أعرابى[2] :

كم قد ولدتُم من رئيسٍ قَسْوَرٍ … دامى الأظافرِ فى الخميس المُمْطِرِ[3]
سَدِكَتْ أنامِلُه بقائم مُرْهَفٍ … [وبنشر[4] فائدة وجذوة مِنْبرِ
ما إن يريد إذا الرماحُ تشاجرَتْ … دِرْعاً سوى سِرْبالِ طِيبِ العُنْصرِ
يلقى السيوفَ بوجهه وبنَحْرِه][5] … ويقيم هامتَه مقامَ المِغْفَرِ
ويقول للطِّرْفِ اصطبر لِشَبَا القَنَا … فهدمتُ رُكْنَ المجد إن لم تُعْقَرِ
وإذا تأمَّل شخصَ ضيفٍ مُقْبِل … مُتَسَرْبِلٍ سِرْبالَ مَحْلٍ[6] أغبرِ
أوْمى إلى الكَوْماء هذا طارق … نحرتْنِيَ الأعداء إن لم تنحرِ

---

(١) فى ا : ووفقت . (٢) المختار من شعر بشار ١٧٩ ، اللآلئ ٢٧٨ ، وانظر اللآلئ فى نسبها . (٣) فى ا : الممطر . (٤) فى المختار : وبيث . (٥) من ا .
(٦) فى ا : سربال ليل .

وقال :

قامت تَصدّى له عمداً لتقاته ... فلم يرَ الناسُ وجداً كالذى وجَدَا

جَيْدَاء رَبْدَاء[1] لم تعقد قلائدها ... وناهدٌ مثل قَلْب الظّبْي ماخضِدا[2]

فراح كالحائم الصّدْيان ليس له ... صَبْرٌ ولا يأمن الأعداء إن وردَا

وقال آخر :

ومكتئباتٍ بعد وَهْنٍ طرقْنَنِى ... بأردية الظلماء ملتحفاتِ

دَسَسْنَ رسولا ناصحا وتلونهُ ... على رِقبةٍ منهن مستترات

فبتُّ أعاطيهنّ صرفَ صَبابةٍ[3] ... وبِتْنَ على اللذات معتكفات

فياوَجْدَ قلبي يوم أتبعتُ[4] ناظرى ... سُليمى وجادَتْ بعدها عَبرَاتى

* * *

من حكم الأحنف

وقال الأحنف بن قيس : من لم يستوحش من ذُلّ المسألة لم يأنَفْ من الرد .

وقال سفيان الثورى لأخ له : هل بلغك شيء مما تكرهُه عمن لاتعرف ؟ قال : لا . قال : فأقلل ممن تعرف .

لابن الرومى

أخذه ابن الرومى فقال :

عدوُّك مِنْ صديقك مُستَفاد ... فأقلِلْ ما استطعتَ من الصحابِ

فإنّ الداء أكثر ما تراهُ ... يكونُ من الطعام أو الشراب

فدَعْ عنك الكثيرَ فكم كثير ... يُعافُ وكم قليل مُستطابِ

وما اللجج الملاح مرويّاتٍ ... ويُلفى الرّىُّ فى النُّطَفِ العِذابِ

[من المدح]

وقال رجل لخالد القسرى : والله إنك لتَبْذُل ما جلّ ، وتجبر ماانفلّ ، وتكثر ماقلّ ؛ ففضلُك بديع ، ورأيك جميع ، تحفظ ما شذّ ، وتؤلف مانَدّ .

وسئل أعرابى عن قومه ، فقال : يقتلون الفَقْر عند شدّة القرّ ، وأرواح الشتاء ، وهبوب الجِرْبِياء[5] ، بأسنمة الجُزور ، ومُتْرَعات القدور ، تهشّ[6] وجوهُم عند

(١) ق ا : رعاء . (٢) ق ط : ماحصدا . (٣) ق ط : مدامة . (٤) ق ط : إتلاء .

(٥) الجربياء : الشمال أو بردها ، أو الريح بين الجنوب والصبا . (٦) ق ا : تحش .

طلب المعروف ، وتعبس عند لمانِ السيوف .

ووصف أعرابي قوما ، فقال : لهم جودُ كرام اتّسعت أحوالها ، وبأسُ ليوث تتبعُها أشبالُها ، وهِممُ ملوكٍ انفسحت آمالُها ، وفخرُ آباء شرُفت أخوالها .

وقال خالد بن صفْوان ــ وقد دخل على بعض الوُلاة : قدمت فأعطيت كلاً بقسْطه من نظرك [ومجلسك](1) ، وصوتك ، وعدْلك ، حتى كأنك من كلّ أحد ، وحتى كأنكَ لستَ من أحد .

وذكر خالد رجلا ، فقال : كان والله بديعَ المنطق ، ذلقَ الجرأة ، جزْل الألفاظ ، عربيّ اللسان ، ثابت العقدة ، رقيقَ الحواشي ، خفيفَ الشفتين ، بَليل الريق ، رحْبَ الشرف ، قليلَ الحركات ، خفيّ الإشارات ، حُلْو الشمائل ، حسن الطلاوة ، حييّاً جَريّا ، قؤولا صَمُوتا ، يفل الحزّ(2) ، ويصيب المفاصل . لم يكن بالهذِر في منْطقه ، ولا بالزمِر في مروءته ، ولا بالخرِق في خليقته ، متبوعا غير تابع ، كأنه علمٌ في رأسه نار .

وقال بعض البلغاء لرئيسه : إنّ من النعمة على المثْني عليك أنه لا يأمَنُ التقصير ، ولا يخاف الإفراط ، ولا يحذر أن تلْحقه نقيصةُ الكذب ، ولا ينتهي به المَدْحُ إلى غاية إلّا وجد في فضلك عَوْنا على تجاوزها ؛ ومن سعادةِ جدّك أنّ الداعيَ لا يعدم كثرةَ المتابعين ، ومساعدةَ النيّة على ظاهر القول .

ألفاظ لأهل العصر في ضروب المادح

قد وضعت كثرة التجارب في يد مرآة العواقب . قد نجّدته صروفُ الدهور ، وحنّكته مصايرُ الأمور . قد أرضعَته الحنكة بلبانها ، وأدّبته الدرْبة في إبّانها . فلان نوازلُ التجارب حنّكته ، وفوادِحُ الأيام عرّكته . هو عارف بتصاريف

(1) من ا .   (2) في ا : يفل الحر .

[الأيام ، آخذٌ برهان التجارب ، نافذ فى مجال التحصيل والتمييز . قد صحب الأيام ، وتولّى](١) النقضَ والإبرام. هو ابنُ الدهر حنكةً وتجريبا، وعُوداً على الدهر صَلِيبا، قد أدّبه الليلُ والنهار ، ودَارت على رأسه الأدوار ، واختلفت به الأطوار . له همّةٌ علا جناحُها إلى عنان النجم ، وامتدَّ صباحها من شرق إلى غرب، لايتعاظمه إشراف الأمر إذا أخطره بفكره ، وانتساف الصّخر إذا ألقاه فى وَهْمه، هِمّتُه أبعَدُ من مَناطِ الفَرْقَد، وأعلى من منكبِ الجوزاء . أوسعُ من الأرض ذات العرض. هو حيّ القلب، منشرحُ الصّدْر ، ذكىُّ الذهن ، شجاعُ الطبع ، ليس بالنؤوم ولا السؤوم ، فذّ فَرْد ، وأسد وَرْد ، وكأنّ له فى كل جارحة قلبا .

كأنّ قلبه عين، وكأن جِسْمَه سمع. شهابٌ مقدّم، وقدح مقوّم. [وهوشهمٌ](١) مشدود النطاق . قائم على ساق ، قد جدّ واجتهد، وحشر وحشد، شمّر عن ساق الجد ماأطاق ، قد ركب الصعب والذّلول ، وتجشّم الحَزْنَ والسُّهول ، وقطع البر والبحر ، وأعمل السيفَ والرمْحَ ، وأسرجَ الدُّهْم والشهب .

هو مولود فى طالع الكمال ، وهو جلة الجمال . قد أصبح عينَ المكارم ، وزَيْن المحافل. هو فَرْدُ دهره ، وشمسُ عصْره ، وزيْنُ مِصْره ، وهو عَلَمُ الفضل ، وواسطة عِقْدِ الدهر ، ونادِرَة الفلك ، ونُكْتة الدنيا ، وغُرّة العصر . وقد بايعته يَدُ المَجْد ، ومالت به الشورى إلى النصر(٢). فلان يزيدُ عليهم زيادةَ الشمسِ على البدر ، والبحر على القَطْرِ . هو رائش نبلهم ، ونَبْعَة(٣) فضلهم ، وجُمّة وردِهم ، وواسطة عِقْدهم .

هو صَدْرُهم وبَدْرُهم ، ومن عليه يدورُ أمرُهم ، يُنيف عليهم إنافة صفحة الشمس على كُرَةِ الأرض ، كأنهم فلك هو قُطْبُه ، وجَسَدٌ هو قَلْبُه ، ومملوك هو ربُّه . هو مشهور بسيادتهم ، وواسطةُ قِلادتهم . موضعُه من أهل الفضل موضع الواسطة من العقد ، وليلة التمّ من الشهر ، بل ليلة القَدْر إلى مطلع الفجر . أفضَل وأنْعَم وأسدى فى الإحسان وألحم ، وأسْرَج فى الإكرام وألجم ، قسم من

(١) من ا . (٢) فى ا : شورى إلى النص . (٣) فى ا : وبقية .

إنعامه ما يسَعُ أمما ، وتلق السعادة أمما ، أعطاه عنانَ الاهتمام حتى استولَى على قَصَبِ المرام . رُدّ عنه الدهرُ أحصّ [1] الجناح ، وملَّكه مقادة النجاح . أولاه من معهود البرّ ومألوفه ، وقصرت الأعداء عن مِثاله وألوفه . أولاه إسعافا سمْحا ، وعطاء سحّا ، ومَنّا صفوا وعفوا . أفاض عليه شِعابَ البِرّ ومسايله ، وجمع له شعوبَ الجميل وقبائله ، وهطلَتْ عليه سحائبُ عنايته ، ورفرفت حولَه أجنحةُ رعايته ، قد فكه بكرمه من قَيْد السؤال ، ومرّة الاختلال . رَاشه بعد ماحصّه الفقر ، وأرضاه وقد أسخطه الدهر .

ملأ العيونَ وسهر دوننا لتحقيق الظنون . قد شِمتُ من كرمه أكرم سحاب ، وحصلت من إنعامه فى أخصبِ جَناب . قد سد ثُلْمَة حالى ، وأدرّ حلوبة آمالى . ما أخلو من طَلّ إحسانه ووابله ، وغامر إنعامه وقابله . قد استمطرتُ منه بنَوْء غزير ، وسريتُ فى ضوء قمر منير .

قد كرعتُ من برّه فى مشارع تنزد ولا تنْزُر ، ورفَلْتُ من طوله فى ملابس تطول ولا تقصُر . إقامته فى ظلّ ظليل وفَضْلٍ جزيل ، وربع بليل ، ونسيم عليل ، وماء رَوِىّ ، ومهاد وطىّ ، وكنٍّ كنين ، ومكان مكين . أنا آوى إلى ظله كما يأوى الطير المذعور إلى الحرم ، وأواجه منه وَجْه المجد وصورة الكرم . أنا من إنعامه بين خير مستفيض ، وجاهٍ عريض ، ونعم بيض . قد استظهرت على جَوْرِ الأيام بعَدْله ، واستترتُ من دهرى بظله . ما أرد فيه طَرْفى وأعدّه من خالص مِلكى منتسبٌ إلى عطائه ، بجميل رأيه .

مسافة بصرى تبعد إن سافرْتُ فى مواهبه ، وركائب فكرى تَطلَح [2] إن أنضيتُها فى استقراء صنائعه . نعمته نعمة عمّت الأمم ، وسقت النعم ، وكشفت الهموم ورفعت الهمم . نعمه قد سطع صباحُها مستنيراً ، وطنب شعاعها مستطيراً ، قد عرفتنى [3] نِعَمُه حتى استنفدت شُكْرَ لسانى ويدى وأتعبت ظهرى ، وملأت صَدْرى . نِعَمُه عندى مشرقةُ الجوّ ، مغرقة النوء ، مونقة الضوء . تتابعَتْ نِعمُه

(١) طائر أحص الجناح : قليل الشعر . (٢) طلح البعير : أعيا . (٣) فى ط : عركتنى .

تتابعَ القَطْرِ على القفر ، وترادفت مِنَنُه ترادفَ الغنى إلى ذوى الفقر . نِعمُه أشرقَتْ بها أرضِى ، ومُطِرَ بها رَوْضى ، ووَرى لها زَندى ، وعلا معها جَدّى ، وأتانى الزمانُ يعتذرُ من إساءته ، وجاءنى الدهرُ ينتظرُ أمرى . نِعمَة أنعمت البالَ ، وسرّت النفس والحال . نعم تعمُّ عمومَ المطر ، وتزيدُ عليه بإفراد النفع عن الضرر .

نعمٌ تَضْعف الخواطر عن التماسها، وتَسْفُر القرائح عن اقتراحها . له أيادٍ قدعمَّت الآفاق ، ووسمت الأعناق ، وأيادٍ قد حبست عليك الشكر ، واستعبدت لك الحر .

مِنَنٌ توالَتْ توالى القَطْر ، واتسمت سِعةَ البَرّ والبَحْر ، وأثقلت كاهل الحرّ . عندى قلادة منتظمة من مِنَنه قد جعلتها وَقفاً على نحور الأيام ، وجلوتها على أبصار الأنام . أيادٍ يقصر عن حقوقها جهدُ القولِ ، وتزهر فيها سواطع الإنعام والطَّوْل . أياديه أطواق فى أجياد الأحرار ، وأفلاك تدورُ على ذوى الأخطار .

له مِنَنٌ يضعف عن تحملها عوانق الأطواد ، ويتضاعفُ حملها على السَّبْع الشداد ، لو تحمل الثّقَلان ثقلَ هذا الامتنان لأثقل كواهلَهم وأضعف عواتقَهم . أياد يفرض لها الشكر ويحتم ، ومنن يبتدأ بها الذكر ويُختَم . أياد تثقل الكاهلَ، ومِنَنٌ تُتْعِبُ الأنامل . مِنن تضعف منن الشكر ، وينشر معها قوى النّشر .

مِنَن هى أحسن أثراً من الغيث فى أزاهير الربيع ، وأحْلى موقعاً من الأمن عند الخائف المروع . إن أتعبت نفسى فى تعداد مننه وحَصْرها فسأطمع فى إحصاء السحاب وقطرها. أياد لا تحصى أو تحصى محاسنُ النجوم، ومِنَن لا تحصر أو تحصر أقطارُ الغيوم. أيادٍ كعدد الرمل والنمل ، أعيت على العدّ ، ولم تقف عند حد .

زادَتْ أياديه حتى كادت تجهد الأعداد[1] ، وتسبق الإعداد . أياديه عندى أغزر من قَطْرِ المطر ، وعوارفه لدىّ أسرعُ من رَجْع البصر . رفعنى من قَمْرِ التراب إلى سَمْك السحاب . استنبطه من الحضيض الأوْهَد ، إلى السناء الأبعد ، وقد نبّهه عن خمول ، وأجرى الماء فى عوده بعد ذبول ، ورقاه إلى ذرْوَة من المجد بعد نزول . فضائل تزل أقدام النجوم لو وطِئَتْها ، وتقصر هِمَمُ الأفلاكِ

(١) فى ا : الاعتداد .

لو طلبتها . ثبتَ قدَمُه فى المحلّ المنيف ، ومكّنَه من جوامع التشريف . جذب بضبعه من السقط المنحطّ إلى الرفع المشتطّ .

ولهم فى أدعية من صدور الكتب تليق بهذه الأثنية والمدائح

أطال الله له البقاء كطول يده بالعطاء ، ومدّ له فى العمر كامتداد ظلّه على الحُرّ ، وأدام له المواهب ، كما أفاض به الرغائب ، وحرس لديه الفضائل ، كما عوّذ به الشمائل . تولّى الله عنى مكافأته ، وأعان على الخير نيّته وفِعْلَه ، وأصحب بقاءه عزًّا يبسطُ يديه لأوليائه على أعدائه ، وكلاءةً تذبّ عن ودائع مِنَنه عنده ، وزاد فى نعمه وإن عظمتْ ، وبلغه آماله وإن انفسحَتْ ، ولا زال الفضلُ يأوى منه إلى رُكْنٍ منيع ، وجنابٍ مريع .

لازالت الألسنُ عليه بالثناء ناطقة ، والقلوبُ على مودّته مطابقة ، والشهاداتُ له بالفضل متناسقة . لازال يعطِفُ على الصادر والوارد ، عَطْفَ الأمّ والوالد . أبقاه اللهُ للجميل يُشْلِى معالَمه ، ويَحْمِى مكارِمَه ، ويعمر مدَارِجَه ، ويثمّرُ نتائجه . أدام اللهُ أيامَه التى هى أيام الفضائل ومواقيتها ، وأزمان المآثر وتواريخها .

أدامه اللهُ للمواهب ، سامية الذوائب ، موفية على مُنْيَة الراجى وبغية الطالب . أبقاه اللهُ للعطاء يقضّه بين خدمه ، والجلال يفيضُه على إنشاء نعمه . والله يتابعُ له أيامَ العلاء والغبطة ، والنماء والبسطة ، ليرتَع أنواع الخدم فى رياض فواضله ، ويكرعَ أصنافُ الحشم فى حياضِ مواهبه . واللهُ يبقيه طويلَ الذراع ، مديد الباعِ ، مليًا بالاتصال[1] والاصطناع . جزاهُ اللهُ عن نعمةٍ هيّأها بعد أن أسبغها ، وعارفة مَلّاها[2] بعد أن سوّغها .

أفضلُ ماجازى به مبتدئُ إحسان ، ومُجير إنسان ، لازالمكانُه مَصانًا[3] للكرم ، مَمَانا للنعم ، لاتريعه المواهب ، ولا ترومُه النوائب ، بُسِطَت بالعلا يَدُه ، وقُرِن بالسعادة جَدّه ، وجُعل خيرُ يوميه غده ، ولا زالت الأيام والليالى مطاياه ، فى أمانيه وآماله

(١) فى ط : بالإفضال . (٢) فى ط : حلاها . (٣) فى ا : مغنيا بالنعم لاتريعه .

[وأيامه][١] ، وصرف صروف الغِيَرِ عن إصابة إقباله وكماله .

وقال ابن المعتز فى القاسم بن عُبيد الله :

أَيا حاسداً يَشكُو التلهّف قلبهُ ... إذا ما رآه غازياً وسْطَ عَسْكرِ
تصفّحْ بنى الدنيا فهل فيهمُ لهُ ... نظيرٌ ترى ؟ ثم اجتهد وتفكّرِ
فإن حدّثَتْكَ النفسُ أنك مثلُه ... بنَجْوى ضلالٍ بين جنبيك مضمَرِ
فجُدْ وأجد رأياً وأقدم على العِدا ... وشدَّ عن الإثمِ المآزِرَ واصْبِرِ
وعاصِ شياطينَ الشبابِ وقارع اا ... ءِ وانْبِ وارفع صَرْعَةَ الضُّرِ واجبرِ
فإن لم تطق ذا فاعذر الدهرَ واعْتَرِفْ ... لأحكامه واستغفرِ اللهَ يغفرِ

[صناعة الـكلام]

قال الجاحظ : صناعةُ الـكلامِ عِلْق نفيس ، وجَوهرٌ ثمين ، هو الـكنزُ الذى لا يَفْنَى ولا يَبْلَى ، والصاحبُ الذى لا يُمَلُّ ولا يُقْلَى ، وهو العيارُ على كلِّ صناعة ، والزِّمامُ لـكل[٢] عبارة ، والقِسْطاسُ الذى به يَسْتبينُ نقْصُ كلِّ شيء ورُجْحانه ، والرَّاوُوق الذى يُعرف به صَفاءُ كلِّ شيء وكَدَره . والذى كلُّ علم عليه عِيَال ، وهو لـكلِّ تحصيل آلةٌ ومثال .

وقال ابن الرومى :

ما عُذْرُ معتزلىٍّ مُوسِرٍ منعَتْ ... كَفّاه مُعْتَزِليا مِثْلَه صَفَدا[٣]
أيَزْعُم القدَرَ المحتوم ثبَّطَه ... إن قالَ ذاك فقَدْ حلَّ الّذى عَقَدا

وقال [ابن الرومى][٤] :

لذوى الجِدالِ إذا غَدَوْا لجدالهم ... حُجَجٌ تضلُّ عن الهدى وتَجُورُ
وهن[٥] كآنية الزُّجاج تَصادمتْ ... فهوَتْ وكلٌّ كاسرٌ مَكْسُورُ
فالقاتِلُ المقتولُ ثمّ لِضَعْفه ... ولوهْيِه والآسِرُ المأسُورُ

---

(١) من ا . (٢) ف م : على كل عبارة . (٣) الصفد : العطاء . (٤) من م .
(٥) ف ا : وهم .

وقال [أبو العباس] [١] الناشئ يفتخر بالكلام :

وَنحن أناسٌ يعرفُ الناسُ فَضْلَنا ... بألسُنِنا زِينتْ صُدورُ المحافلِ
تُنير وُجوهُ الحقِّ عند جَوابِنا ... إذا أظلمتْ يوما وُجُوهُ المسائلِ
صَمَتْنَا فلم نَتْرُكْ مَقَالًا لصامتٍ ... وقُلْنا فلم نترك مَقالا لِقائلِ

وقال يصفُ أصحابه :

فلو شهدت مقاماتى وأنديتى ... يَوْمَ الخصام وماء الموتِ يَطَّرِدُ
فى فتيةٍ لم يلاقِ الناسُ مذ وُجِدوا ... لهم شَبيهاً ولا يُلفَوْن إنْ فقدوا
مجاوِرو الفضل أفلاكُ العُلا سبل الـ ... تقوى محلّ الهدى عُمد النهى الوُطُد [٢]
كأنّهم فى صدور الناسِ أفئدةٌ ... تحسّ ما أخطئوا فيها وما عَمَدُوا
يُبدون للناس ما تُخْفِى ضمائرهم ... كأنّهم وَجَدُوا منها الذى وَجَدوا
دَلّوا على باطنِ الدنيا بظاهِرِها ... وعِلْمِ ما غابَ عنهمْ بالذى شَهِدوا
مطالع الحقّ ما مِنْ شُبْهةٍ غَسِقَتْ [٣] ... إلّا ومِنْهُمْ لديها كوكبٌ يَقِدُ

وقال سعيد بن حُميد :

قالت: اكتُمْ هوايَ واكْنِ عن اسمى ... بالعزيزِ المُهَيْمِنِ الجَبّارِ
قلت : لا أستطيع ذلك ، قالت : ... صِرْتَ بعدى تقولُ بالإجْبارِ
وتخلّيتَ عن مقالةِ بشر بـ ... ـن غياث لمَذْهب النجّارِ

وقال أبو القاسم بن عباد الصاحب [٤] :

كنتُ دهراً أقولُ بالإستطاعه ... وأرى الجَبْرَ ضلّةً [٥] وشَناعه
ففقدت استطاعتى فى هوى ظَـ ... ـبْى فسمعاً للمُجبرين وطاعه

وقال أيضا [٤] :

ولمّا تناءتْ بالحبيبِ دِيارُه [٦] ... وصِرنا جميعا مِنْ عيانٍ إلى وهْمِ [٧]

(١) من ا . (٢) الوطيد : الثابت . (٣) غسقت : أظلمت .
(٤) اليتيمة : ٣ ــ ٢٤٧ . (٥) الضلة : الضلال . (٦) فى اليتيمة : بالأحبة دارهم .
(٧) فى م : وصودرت منه من عيان على وهم ، وفى ا : وصودر منه من عيان على وهم .

تمكّن منّى الشوقُ غيرَ مُخَالسٍ ... كمنزلِ قد تمكّنَ من خَصْمِ

[من النسيب]

لابن الطثرية

وأنشد محمد بن سلّام بعض هــذه الأبيات التى أنشدها ، وزعم أنها لأبى كبير الهذلى ، ورُويت ليزيد بن الطَّثَرِيَّة وغيره ، والرواة يُدْخلون بعض الشعر فى بعض وهى[1] :

عُقَيْلِيَةٌ أمّا مَلَاثُ إزارِها ... فوَعْثٌ وأمّا خَصْرُها فبَتِيلُ[2]
تَقَيَّظُ أكْنَافَ الحِمَى ويُظِلُّها ... بنَعْمانَ من وَادِى الأَرَاكِ مَقِيلُ
فيا خُلَّةَ النفسِ التى ليس دُونَها ... لنا من أخلّاءِ الصفاءِ خَلِيلُ
ويا من كتمْنا حُبَّه لم يُطَعْ به ... عدوٌّ ولم يُؤْمَنْ عليه دَخِيلُ
أما مِنْ مقامٍ أشتكى غُرْبةَ النوى ... وخَوْفَ العِدا فيه إليكِ سَبِيلُ؟
أليس قليلًا نظرةٌ إنْ نظرتُها ... إليكِ ؟ وكلّا ليس منكِ قليلُ
وإنّ عناءَ النفسِ مادمتِ هكذا ... عَنُودَ النوى محجوبةً لطويلُ
أراجعةٌ قلبى علىّ فَرَائِحٌ ... مع الرَّكْبِ لم يُكتبْ عليكِ قتيلُ
فلا تحملى وِزْرِى وأنتِ ضعيفةٌ ... فحَمْلُ دمى يومَ الحسابِ ثَقِيلُ
فيا جنّةَ الدنيا ويا مُنْتَهَى المنى ... ويا نُورَ عينى ، هل إليكِ سبيلُ
فديتكِ ، أعدائى كثيرٌ ، وشُقّتى ... بعيدٌ ، وأشياعى[3] لديكِ قليلُ
وكنتُ إذا ما جئتُ جئتُ بعلّةٍ ... فأفنيتُ عِلّاتى ، فكيف أقولُ؟
فما كلُّ يومٍ لى بأرضكِ حاجةٌ ... ولا كلُّ يومٍ لى إليكِ رسولُ[4]

لأبى كبير

وأنشد ابنُ سلّام لأبى كبير[5] الهذلى :

وإنى لستَشْفٍ لها اللهَ كُلَّما ... لَوَى الدَّيْنَ مُعْتَلٌّ وشَحَّ غَرِيمُ

---

(١) الحماسة : ٣ ــ ٢٨٨ ، الوفيات : ٣ ــ ٣٢٧ .
(٢) الملاث : الموضع الذى يدار به الشىء . والبتيل ، الهضيم الدقيق .
(٣) فى ا : وأنصارى . (٤) فى م ، سبيل . (٥) فى ط : الكبير .

سحائبَ لا مِنْ صيِّبٍ ذى صَواعِقٍ ... ولا مُحرِقاتٍ ماؤهنّ حَميمُ
ولا مخلفات حين هِجْنَ بنَسْمَةٍ(١) ... إليهن هوجاء الْهَبِّ عَقيمُ
إذا ما هَبَطْنَ القاعَ قد ماتَ نَبْتُه ... بَكَيْنَ به حتى يَعيش هَشيمُ

[ابن حطان والحجاج]

ولما ظفر الحجّاج بعمران بن حِطّان الشارى قال : اضربوا عُنُقَ ابن الفاجرة ، فقال عمران : لبئسما أدّبكَ أهلُك يا حجّاج ! كيف أمنت أن أجيبك بمثلِ ما لقيتنى به ؟ أبعدَ الموت منزلةٌ أصانِعك عليها ؟ فأطرق الحجاج استحياء ، وقال : خلّوا عنه ؛ فخرج إلى أصحابه فقالوا : والله ما أطْلَقك إلا الله ، فارْجِعْ إلى حَرْبه معنا . فقال : هيهات ! غلَّ يداً مُطْلِقها واسترقّ رقبةً مُعْتِقُها ! وأنشد :

أأقاتلُ الحجاجَ عن سُلْطانِه ... بيدٍ تُقِرُّ بأنّها مَوْلاتُه
إنى إذاً لأخُو الدّناءة والذى ... عَفَتْ على عرفانه جَهلاتُه
ماذا أقولُ إذا وقفت مُوازِيا ... فى الصّفِّ واحتجّتْ لهُ فَعلاتُه
وتحدّثَ الأكْفاء أنّ صَنائِعا ... غرست لدَىّ فحنظلَتْ نخلاتُه
أأقول جار علىّ ؟ إنى فيكمُ ... لأحقّ مَنْ جارَتْ عليه وُلاتُه
تالله ما كِدْتُ(٢) الأمير بآلةٍ ... وجوارحى وسِلاحها آلاتُه

أخذ أبو تمام(٣) هذا ، فقال معتذراً إلى أبى المغيث موسى بن إبراهيم الرافعى :

أألبس(٤) هُجْرَ القولِ مَنْ لو هَجَوْتُه ... إذاً لهجَانى عنه معروفُه عِندِى
كريم متى أمْدَحْه أمدحه والورَى ... مَعِى وإذا(٥) ما لمته لمْتُه وَحْدِى

(١) فى م : تنسمت ، وفى ا : تبسمت .   (٢) فى ا : لاكدت .
(٣) ديوانه : ١٣٩ .   (٤) فى الديوان : أسربل .
(٥) فى الديوان : ومتى .

من شعر عمران

وعِمْران بن حِطّان هو القائل:

لم[1] يعجز الموتَ شيءٌ دون خالقه ... والموتُ فانٍ إذا ما غاله الأَجَلُ

وكلّ كرب أمامَ الموتِ مُنْقَطِعٌ ... بالموت، والموتُ فيما بعدهُ جَلَلُ[2]

بين جرير والفرزدق

وكان الفرزدقُ عمل بيتا، وحلف بالطلاق أنّ جريراً لا ينقضه، وهو:

فإني أنا الموتُ الذى هو نازلٌ ... بنفسك فانظرْ كيف أنتَ مُحَاوِلُه

فاتصل ذلك بجرير فقال: أنا أبو حَزْرَة، طلقت امرأةَ الخبيث، وقال[3]:

أنا الدّهْرُ يُفْنِى الموتَ والدهرُ خالدٌ ... فجئْنِى بمثل الدهرِ شيئاً يُطَاوِلُهْ

وإنما أشار جرير إلى قول عمران.

وهو عِمْران بن حِطّان بن ظبيان بن[4] سهل بن معاوية بن الحارث بن سدوس ابن سنان[5] بن ذهل بن ثعلبة، ويكنى أبا شهاب، وكان من الشُّراة[6]، وكان من أخطبِ الناس وأفْصَحهم، وكان إذا خطب ثارت الخوارجُ إلى سلاحها، وكان من أقبح الناسِ وَجْها، قالت له امرأته وكانت فى الجمال مثله فى القبح: إنى لأرجو أن أكون وإياك فى الجنة؛ لأن الله رزقك مِثْلِى فشكرت! وابتلانى بمثلك فصبرت

[أعرابى وبعض الولاة]

ودخل أعرابى على بعض الوُلاة فقال: أصلَح اللهُ الأمير، اجعلنى زِماماً من أزمّتك، فإنى مِسْعَر حرْبٍ، ورَكّاب نُجُب[7]، شديدٌ على الأعداء، لَيِّنٌ على الأصدقاء، منطوى الحصيلة، قليل الثّمِيلة[8]، غرار النوم، قد غذَّتْنِى الحروبُ أفاويقَها، وحلَبْتُ الدهرَ أشطُرَه، فلا يمنعْكَ منى الدّمَامة، فإنّ تحتَها لَشهامَة.

---

(١) فى ا: إن. (٢) جلل هنا: يسير. (٣) ديوانه: ٤٨٣.

(٤) فى ا: بن سهل. (٥) فى ط: بن شيبان. (٦) الشراة: الخوارج. وفى م وا: من القعد. (٧) مسعر حرب: موقد نار الحرب. وفى ط: ركاب لجب، وفى م: نجد.

(٨) الثميلة: البقية من الطعام والشراب فى البطن، وفى ا: منطوى الخصيلة.

[الدنيا]

قال المسيح عليه السلام . الدُّنيَا لإبليس مَزْرَعة ، وأهلها له حُرّاث .

وقال إبليس لعنَه الله : العجَب لبنى آدم يحبّونَ الله ويَعْصونَه ، ويُبغضوننى ويُطيعوننى .

[أربع كلمات]

خرج الزهرى يوما من عند هشام بن عبد الملك فقال : ما رأيتُ كاليوم ، ولا سمعت كأربع كلمات تَكلّم بهن رجلٌ عند هشام ؛ دخل عليه فقال : ياأميرَ المؤمنين؛ احفظ عنى أرْبَع كلمات ، فيهن صلاحُ مُلْكك، واستقامةُ رعيّتك . قال: هاتِهِنَّ . قال : لا تَعِدنَّ عِدةً لا تَثِقُ من نفسك بإنجازها ، ولا يغرّنّكَ الْمُرْتَقَى وإن كان سَهْلًا إذا كان الْمُنْحدَر وَعْرا ، واعلم أن للأعمال جزاء فاتّقِ العواقبَ ، وأن للأمورِ بَغَتَات فكُنْ على حَذَر .

قال عيسى بن دَأْب : فحدّثت بهذا الحديث الهادى[1] وفى يده لُقْمة ، قد رفعها إلى فِيهِ فأمسكها ، وقال : ويحك ! أعِدْ علىّ ! فقلت : ياأمير المؤمنين، أسِغْ لقْمتك، فقال : حديثك أحبُّ[2] إلىّ .

[معاوية وعمرو بن سعيد]

ولما عقَد معاويةُ البيْعَةَ ليزيد قام الناسُ يخطبون ؛ فقال لعمرو بن سعيد : قُمْ يا أبا أمية . فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعـد فإنّ يزيد بن معاوية أجلٌ تؤمونه ، وأمل تؤملونه ، إن استضفتم إلى حِلْمه[3] وسِعَكم ، وإن احتجتُم إلى رَأْيه أرشدكم ، وإن افتقرتم إلى ذاتِ يده أغناكم ، جَذَع قارح[4] ، سُوبِقَ فسَبَق ،

---

(١) فى ط : المهدى . (٢) فى ا : أعجب . (٣) فى ط : إن استطلتم إلى حكمه .

(٤) الجذع : الشاب الحدث . والقارح : الشديد الضرب .

ومُوجِدٌ فجدَّ ، وقُورِع فقَرَع ، وهو خَلَفُ أمير المؤمنين ، ولا خلف عنه .

فقال له معاوية : اجلس ، فقد أبلغتَ .

وعَمْرُو بنُ سعيد هذا هو الأشْدَق ؛ [وإنما سُمى الأشدق][1] لتشادقه[2] في الكلام ، وقيل: بل كان أفْقَم[3] مَائِل الشدق، وهذا قول عوانة بن الحكم الكلبي، وهو خِلَافُ قول الشاعر :

تشادق حتى مال في القول شِدْقُهُ ... وكلُّ خَطيبٍ لا أبالَكَ أشدقُ

وكان أبو سعيد بن العاص أحدَ[4] خطباء بني أمية وبلغائهم .

ولما مات سعيد دخل عمرو على معاوية فاستنطقه فقال : إنّ أولَ كل مركب صَعْب ، وإن مع اليوم غدا . فقال معاوية : وفى هذه العلة إلى من أوصى بك أبوك ؟ قال : أوصى إليّ ولم يُوصِ بي . فقال معاوية : إن ابن سعيد هذا لَأَشْدَق !

[تواضع الرشيد]

قال ابن السماك للرشيد : يا أميرَ المؤمنين، تواضُعُك في شرفك أفضلُ من شرفك؛ إنّ رجلا آتاه الله مالًا وجَمَالا وحَسَبا ، فواسَى[5] في جماله ، وعفّ في جماله، وتَواضعَ في شرفِه ، كُتب في ديوان الله عزّ وجلّ .

[للمتنبي في الحمى]

نالت أبا الطيب المتنبي علّة بمصر، فكان بعض إخوانه من المصريين يُكثر الإلمامَ به ، فلما أبلّ قطعه ، فكتب إليه : وصلْتَني أعزّك الله مُعْتلّا ، وقطعتني مُبِلًّا، فإن رأيت ألّا تكدر الصحة عليّ ، وتُحبّب العلةَ إليّ ، فعلت .

وفى هذه العلة يقول[6] :

---

(١) من م . (٢) في ا : لتشدقه . (٣) الفقم : تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى .
(٤) في م : آخر . (٥) في ا : فأسى . (٦) ديوانه : ٤ ـ ١٤٥ .

أقمْتُ بأرضِ مِصْرَ فلا ورائِي ... تَخُبُّ بِيَ الرِّكابُ[1] ولا أمامي
عَليلُ الجِسْمِ مُمْتَنِعُ القيامِ ... شديدُ السُّكْرِ من غيرِ المُدامِ
وزائِرتِي كأنَّ بِهَا حياءً ... فليسَ تَزُورُ إلّا في الظلامِ
بَذَلْتُ لها المَطارِفَ والحَشايا ... فعافَتْها ، وباتَتْ في عِظامِي
يَضِيقُ الجِلْدُ عن نَفَسِي وعنها ... فتُوسِعُهُ بأنواعِ السقامِ
إذا ما فارقَتْنِي غَسَّلَتْنِي ... كأنّا عاكِفانِ على حَرامِ
كأنّ الصّبح يَطرُدُها فتجْرِي ... مدامِعُها بأربعةٍ سِجَامِ
أُراقِبُ وقتَها مِنْ غيرِ شوقٍ ... مُراقبةَ المَشُوقِ المُستهامِ
ويصدُقُ وعدُها والصدقُ شرٌّ ... إذا ألقاكَ في الكُرَبِ العِظامِ

ألفاظ لأهل العصر في العيادة وما جانسها من ذكر التشكي والمرض

وتلونه وسوء أثره والانزعاج لعوارضه

عرض لي مرضٌ أساء بالنجاة ظني ، وكاد يصرف وجه الإفاقة عني . هو شُورى بين أمراض أربعة : صُدَاع لا يخفّ ، وحُمّى لا تُغِبّ[2] ، وزُكام لا يجف ، وسُعال لا يَكُفّ . عِلّة هو في أسْرِها مُعْتَقل ، وبقَيْدِها مُكَبَّل .

أمراض تلوّنت عليّ ، وأساءت بي وإليّ ، فأنا أشكرُ الله تعالى إذ جعلها عِظَة وتذكيرا ، ولم يُبْقِ منها الآن إلا يسيرا ، أحسب أن الأمراض قد أقسمت على أن تجعل أعضائي مَرَاتعها ، [وآلت على أن تُصيّر جوارحي مرابعها][3] .

عِلَل لا يصدر منها [آتٍ إلا التكدير ورد][3] ، ولا يمزل منها والٍ إلا بولِيّ عهد . قد كرّت تلك العلة فعادت عِللا ، [وسقتني بعد نَهَل عَلَلا][3] . علل بَرَتْه بَرْيَ الأخِلّة ، وتقصته نَقْصَ الأهلّة ، وتركته حَرَضًا ، وأوسعته مَرَضا ، وغادرته والخيالُ أكثفُ منه جُثّة ، والطيفُ أوفر منه قوّة . عرض له من المرض ما صار معه القنوطُ

---

(١) في الديوان : تخب بي المطي .
(٢) أغبته الحمى ، وأغبت عليه : أخذته يوما وتركته يوما .
(٣) من م ، ا .

يُنَادِيه ويُراوِحه ، واليأس يُخاطبه ويُصافحه . قد ورَدَ من سوء الظن أَوْخَمَ المناهل ، وبات من حسن[1] الرجاء على مراحل . طالتُ السكرم يترجّح نجمه بين الإضاءة والأفول ، وتمثلُ شمسه بين الإشراق والغروب .

أصبح فلانٌ لا يُقِلّ[2] رأسَه ، ولا يجوز ظلّه ، ويدُ المنية تقْرَع بابه . ما هو للعلة إلا عَرَض ، ولسهام المنية إلا غرَض . شاهدت نفسى وهى تَخْرج ، ولقيت رُوحى وهى تَمْزُج[3] ، وعرَفت كيف تكون السَّكْرة ، وكيف تقع الغَمْرة ، وكيف طَعْمُ البعد والفراق ، وكيف تلتفُّ الساق بالساق . مرض لحقنى رَوْعته ، وملكتنى لَوْعته .

وجدت فى نفسى ألماً أوحشه[4] آنَسُه ، وآنسه أوحشه . بلغنى من شكايته ما أوحش جناب الأُنْس ، وأرانى الظُّلمة فى مَطْلع الشمس . قد بلغنى ما عَرَضَ لك من المرض ، وألمّ بك من الألم ؛ فتحاملَ على سوداء صدرى ، وأقْذَى سوادَ طَرْفى ، وقد استنفد القَلَق لعلّتك ما أعدّه الصبرُ من ذخيرة ، وأضعف ما قوّاه العزم من بصيرة .

قَلْبى يتقلّبُ على حدّ السيف إلى أن أعْرف انكشافَ العارض وزِيَاله ، وأتحقق انحساره وانتقاله . أنهى إلىّ من الخبر العارض ، حسمَ الله مادّته ، وقصَّر مُدّته ، ما أرانى الأفق مظلما ، وطريق العيش مُبْهَمًا .

فِقَر فى تهوين العلة بحسن الرجاء وذكر المشاركة والاهتمام بحلولها والاستبشار بزوالها

إن الذى بلغنى من ضَعْفه قد أضعف المنَّة ، وإنْ لم يُضعف الظنَّ بالله والثقة ، قد استشفَّ العافية من ثوب رقيق . ما أكثر ما رأينا هذه العلل حَلّت ، ثم تَجلّتْ ، وتوالت ثم تولّتْ . خبّرنى فلان بعلّتك فأشركنى فيها ألما وقلقا ، فلا أعل اللهُ لك جسما ولا حالا ، فليست نِكَاية الشغل فى قلبى بأقلّ من نِكَاية الشكاية فى جسْمك ،

(١) فى م : حسى ، وفى ط : وحشى . (٢) لايقل : لايحمل .
(٣) عرج : صعد . (٤) فى ا : أمسه آنسه .

ولا استيلاء القَلَق على نفسى بأيسر من اعتراض السّقم لبدنك ، ومن ذَا الذى يصح جسمه إذا تألمت إحدى يديه ، ومن يحل محلّها فى القرب إليه؟ أنا منزعج لشَكَاتك، مبتهج بمُعَافاتك ، إن كانت علَّتُك قد قَرَحَتْ[1] وجرَحتْ، فإنّ صحتك قد آسَتْ[2] وآنست . بلغتنى شَكَاتك نارتَمَتْ، ثم عرفت خِفّتها فارتَمَحْت . الحمد لله على قُرْب المدة بين المِحْنَة والمِنْحة ، والنقمة والنعمة ، وعلى أنّا لم نُمهالك بأيدى المخافة حتى تداركَ بحُسْنِ الرأفة ، ولم نستسلم لخطّة الحذر حتى سَلِم من وَرْطَة القدر .

ولهم فى شكاة أهل الفضل والسؤدد

شكاتُه التى تتألّم منها المروءةُ والفضل، ويسقم منها الكرم المَحْضُ. شكاته التى غَصّت بها حلوقُ المَجْدِ ، وحَرِجَت[3] لها صدورُ أهل الأدب والعلم، وبدا الشحوبُ منها على وَجْه الحرية ، وحرم معها البِشْرُ على غُرّة المروءة .

قد اعتلّ بعلّته الكَرَم ، وشكا بشكايته السيفُ والقلم . شكاة عرضت منه لشَخْص الكرم الغضّ ، والشرف المَحْض .

لو قبلت مهجتى فدية ، دون وعكة ،جُدْتُ بها ، وساعة أنس بفقدها لبذلتها عالما بأنى أفْدى الكرم ولا غير ، والفضل ولا ضَيْر .

ولهم فى تنسم الإقبال وذكر الإبلال

قد شِمْت بارِقَة العافية ، وشَمِمْتُ رائحةَ الصحة . أقبل صُنْعُ الله من حيث لم أحتسب ، وجاءنى لُطْفه من حيث لا أرْتقب ، وتدرّجْت إلى الإبلال وقد حسبته حُلْما ، ورضيت به دون الاستقلال غُنْما . وقد تخلّصتُ إلى شطّ العافية لما تداركنى الله تعالى بلطيفة من لطائفه ، وجمل هبة الروح عارِفَة من عَوَارفه ، وتنسمتُ رَوْحَ الحياة ، بعد أن أشْفَيتُ على الوفاة ، وثَنَيْتُ وجهى إلى الدنيا بعد مواجهتى للدار

(١) قرحت : جرحت . (٢) آست : داوت . (٣) حرجت : ضاقت .

الأخرى . قد صافَحَ الإقبال[1] والإبلال ، وقارب النهوضَ والاستقلال[2] . سيُريك الله من العافية التي أذاقك ويسبغ ثوبها ، ولا يعيد عليك مكروهَها . قد استقلَّ استقلالَ السيف جُودث عهده ، وأُعيد فِرِنْدُه[3] ، والقمر انكشف سِرَارُه[4] ، وذاعت أسراره . حين استقلَّت يدي بالقلم، بشَّرتك بانحسار الألم . قد أتاك الله بالسلامة الفائضة ، وأزال من الشكاة العارضة .

أبَلَّ فانشرحَت الصدور ، وشمل السرور . الحمد لله الذي حرس جِسْمَك وعافاه، ومَحا عنه أثرَ السقم وعَفَّاه . الحمد لله الذي جعل العافيةَ عُقْبى ماشكيت ، والسلامة عِوَضاً عما عانَيت . الحمد لله الذي أعفاك من مُعاناة الألم ، وعافاك للفضل والكرم ، ونظمني معك في سِلْكَ النعمة ، وضمَّني إليك في مُنْبلج الصحَّة .

الحمد لله الذي جعل السلامةَ ثَوْبك الذي لاتنضوه ، وسيفك فيما تأمُله وتَرْجوه . الله يَجْمَل السلامةَ أطول بُرْدَيْك ، وأشدَّها سُبوغا عليك، ويدفع في صدور المكارم دون رفعك ، وفي نحور المَحَاذِر قبل الانتهاء إلى ظِلِّك ، لازالت العافية شِعارَك ، ماواصل ليلك نهارك .

فِقر في أدعية العيادة والاستشفاء بكتبها

أعفاك اللهُ عن الطبِّ والأطباء ، بالسلامة والشفاء ، وجعله عليك تَمْحيصاً لاتنغيصاً ، وتذكيراً لانكيرا ، وأدبا لاغضباً .

الله يدرُّ لك صَوْبَ العافية ، ويُضْفِي عليك ثوبَ الكفاية الوافية . أوْصَل الله تعالى إليك من برد الشفاء ما يكفيك حَرَّ الأدواء .

كتابك قد أدَّى روحَ السلامة في أعضائي ، وأوْصَل برد العافية إلى أحشائي . تَركني كتابك والنعم تَثِبُ إلى صحتي، والخطوب تتجافى عن مُهْجتي، بعد أمراض اكتنفت ، وأسقام اختلفت . قد استبق كتابك والعافية إلى جسمي كأنهما فرَسَا

---

(١) في ا : الإقلال . (٢) في ا : وقارن النهوض والاستقبال ، وفي م : والاستبلال .

(٣) الفرند : جوهر السيف ووشيه . (٤) السرار : الليلة التي يستسر فيها القمر — أي يختفي .

وهكن تباريا، ورَسيلا[1] مِضْمَار تجاريا . أبدلني كتابُك من حُزون الشكاية سهولَ المعافاة، ومن شدّة التألّم، رجاء التنعّم .

قطعة من كلام الأطباء والفلاسفة

العاقل يتركُ ما يحبُّ ليستغنيَ عن العلاج بما يكره .

جالينوس : المرض هَرَم عارِض، والهَرَم مرضٌ طبيعي . وله : مجالسة الثقيل حُمّى الروح .

بختيشوع : أكلُ القليل مما يضرّ أصلح من أكل الكثير مما ينفع .

يوحنّا[2] ابن ماسويه : عليك من الطعام بما حَدُث، ومن الشراب بما قَدُم .

وقال له المأمون: ماأحسن ما يُتنقّل به على النبيذ؟ قال: قول أبي نُوَاس، يريدقوله:

الحمد لله ليس لى مثلٌ   خرى شرابى وَنُقلىَ القُبَلُ

ثابت بن قُرة : ليس شيء أضَر بالشيخ من أن تكونَ له جارية حسناء، وطبّاخ حاذق؛ لأنه يُكثر من الطعام فيسقم، ومن الجماع فيَهْرَم .

غيره : ليس لثلاث حيلة: فقرٌ يخالِطُه كسَل، وخصومة يخامرها حَسَد، ومرض يمازِجه هرم .

ثلاث يجب مدارَاتُهم : السلطان، والمريض، والمرأة .

ثلاث يُعْذَرون على سوء الخلق : المريض، والمسافر، والصائم .

فقر فى ذكر المرض والصحة والموت والحياة لغير واحد

شيئان لا يُعرفان إلّا بعد ذهابهما : الصحة والشباب . بمرارة السقم توجَد حلاوةُ الصحة . هذا كقول أبي تمام[3]:

إساءةُ دَهْرٍ أذكَرَتْ حسْنَ فِعْله   إليّ ولولا الشّرْى[4] لم يُعْرَف الشّهدُ

(١) الرسيل : الرسول، وفى ا : رسلا .   (٢) فى ط : حنة .   (٣) ديوانه : ١٢١
(٤) الشرى : الحنظل .

وقوله أيضا[١] :

والحادثاتُ وإنْ أصابكَ بُؤْسُها　　　فهو الذي أدْراكَ[٢] كيفَ نعيمُها

ما سلامةُ بدَنٍ معرّض للآفات ، وبقاء عُمْرٍ معرض للساعات ؟

قال أبو النجم :

إنَّ الفتى يصبح للسقام　　　كالغَرَض المنصوب للسّهام

أخطأ رامٍ وأصابَ رَام

وقيل لبعض الأطباء وقد نهكته العلّة : ألَا تتعالج؟ فقال: إذا كان السماء[٣] بطل الدواء، وإذا قدّر الرب بطل حَذَرُ المربوب، ونِعْمَ الدواء الأمل، وبئس الداء الأجل.

بزرجمهر : إنْ كان شيء فوق الحياة فالصحة، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض، وإن كان شيء مثل الحياة فالغِنَى ، وإن كان شيء مثل الموت فالفقر .

غيره: خيرٌ من الحياة مالا تَطيبُ الحياةُ إلا به، وشرٌّ من الموت مايُتَمنّى الموت له.

قال المتنبي في مرثية أم سيف الدولة[٤] :

أطَابَ النفسَ أنكِ مُتِّ مَوْتاً　　　تَمَنّتْهُ البَواقِي والخوالِي

وزُلْتِ ولم تَرَىْ يوماً كريهاً　　　تُسَرُّ النفسُ[٥] فيه بالزوالِ

رِوَاقُ العِزِّ فوقكِ[٦] مُسْبَطِرٌّ　　　ومُلْكُ عليِّ ابنِكِ في كَمَالِ

الموت باب الآخرة .

الحسن : ما رأيتُ يقيناً لاشكّ فيه أشبه بشكٍّ لايقين فيه من الموت .

ابن المعتز : الموت سَهْمٌ مرسَل إليك ، وعمرك بقدر سفره نحوك ، أخذه بعض أهل العصر ، فقال :

لا تأمَنَ الدهرَ الخؤو　　　ن وخَفْ بوادرَ آفتِهْ

فالموت سَهْمٌ مرسلٌ　　　والعمرُ قَدْرُ مسافتِهْ

(١) ديوانه : ٣١٠ .　　(٢) في ديوانه : أنباك .

(٣) في هامش ا : أي القضاء . وفي ط : إذا كان الداء من السماء .

(٤) ديوانه : ٣ ـ ١٣ .　(٥) في الديوان : يسر الروح .　(٦) في الديوان : حولك .

البستى [1] :

لا يغرنّك أننى لينُ المسّ فمزى [2] إذا انتضيتُ حُسامُ
أنا كالوَرْدِ فيــه راحةُ قومٍ ثم فيه لآخرين زُكَام

وقال آخر [3] :

إن الجهولَ تضرُّ فى أخلاقه ضررَ الشمالِ لمن به استسقاه

ولآخر ، وهو البستى [1] :

فلا تــكن عَجِلًا فى الأمر تطلبهُ فليس يحمد قبل النضج بُحْرانُ

وقال آخر [1] :

لا تعتمِدْ إلا رئيساً فاضلًا إن الــكبار [4] أطبُّ للأوجاع

وقال آخر :

وإنى لأختص بعضَ الرجال وإن كان قَدْماً ثقيلا عَيَاما [5]
فإنّ الجُبُنّ [6] على أنهُ ثقيل وخيمٌ يُشَهِّى الطَّعاما

وقال المتنبى [7] :

لعلّ عَتْبَكَ محمودٌ عواقبهُ وربما صحّتِ الأجسامُ بالعلل

وقال أيضاً [8] :

أُعيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صادقةً أنْ تحْسِبَ الشحمَ فيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ

[إفحام فى الجواب]

قال أبو المنذر هشام بن محمد السائب الــكلبى : كان بلالُ بن أبى بُرْدةَ جَلْداً حين ابتُلى ، أحضره يوسف بن عمر فى قيودِه لبعض الأمر ، وهُم بالحِيرة ؛ فقام خالدُ بن

---

(١) اليتيمة : ٤ — ٣٩٤ . (٢) فى اليتيمة : فغربى . (٣) فى ا : وقال .
(٤) فى ط : إن الــكبار . (٥) القدم : العى عن الــكلام فى ثقل ، والعيام : العى الثقيل ، وفى ط : عيام — بالياء . (٦) الجبن — بتشديد النون ، هو الجبن . (٧) ديوانه ٣ — ٨٦ .
(٨) ديوانه : ٣ — ٣٦٦ .

صفوان فقال ليوسف : أيها الأميرُ ! إنّ عدوّ الله بلالا ضربني وحَبَسني ولم أفارقْ جماعة ، ولا خلَعْتُ يداً من طاعة ؛ ثم التفت إلى بلال فقال : الحمــدُ لله الذي أزال سلطانَك ، وهدّ أركانك ، وأزال جمالَك ، وغيّر حالك ؛ فوالله لقد كنتَ شديدَ الحجاب ، مستخفّاً بالشريف ، مظهراً للعصبية ! فقال بلال : يا خالد ؛ إنما استطلْتَ عليّ بثلاث معك هنّ عليّ : الأمير مُقْبِل عليك ، وهو عني مُعْرِض . وأنت مُطْلَق ، وأنا مأسور . وأنت في طينتك ، وأنا غريب ! فأفحمه .

[ويقال : إن آل الأهتم زِعْنفة دخلت في بني مِنْقَر ، فانتسبت إليهم](١) .

وكان سبب ضرب بلال خالداً في ولايته أنّ بلالا مرّ بخالد في موكب عظيم ، فقال خالد : * سحابةُ صيفٍ عن قليل تَقَشَّعُ * فسمعه بلال فقال : والله لا تقشع أو يصيبك منها شُؤبوب بَرَد(٢) ، وأمر بضَرْبِه وحَبْسِه .

[رثاء قدح]

وقال أبو الفتح كشاجم يرثي قدحا له انكسر(٣) :

عَرَاني الزمانُ بأحْدَاثِه ... فبعضاً أطَقْتُ وبعضاً فدَحْ
وعندي فَجائعُ للحادثاتِ ... وليس كفَجْعَتِنا بالقَدَحْ
وِعاء المُدَام وتاجُ البنان(٤) ... ومُدْنِي السرور ومُقْصِي التَّرَحْ
وممرض رَاحٍ متى تكسه ... ومستودع السرّ منها يبحْ
وجسم هواء وإن لم يكن ... يُرَى للهواء بكفّ شَبَحْ(٥)
يردُّ على الشخص تمثالهُ ... وإنْ تتَّخِذْه مرآةً صَلَحْ
ويَعْبَقُ من نكهاتِ المُدَام ... فتحسب منه عَبِيراً نفَحْ

(١) من م ، ا . (٢) الشؤبوب ــ بضم الشين : الدفعة من المطر .
(٣) ديوانه : ٣٧ . (٤) في الديوان : وتاج الندام ، وفي ط : وتاج الكرام .
(٥) في الديوان : يرى كالهواء بكف سنح .

ورَقّ ؛ فلو حلّ في كِفَّةٍ ... ولا شيء في أختها مارَجَحْ

يكادُ مع الماء إن مسّهُ ... لما فيه من شكله ينفسح

هوَى من أنامل مجدولةٍ ... فيا عجبا مِنْ لطيفٍ رَزَحْ

فأفقدنيه على ضِنَّةٍ ... به للزمان غَريمٌ مَلِح

كأنّ له ناظرا يبتغى ... فتى يَتَعَمَّدُ غَيْرَ المُلَح

أقلب ما أبقت الحادثا ... ت منه وفى العين دَمْعٌ يسُح

وقد قدح الوجد منى به ... على القَلْبِ من ناره ما قدح

وأعجب من زمن مانح ... وآخرُ يسلب تلك المِنَحْ

فلا تبعدنّ فكم من حَشًى ... عليك كليم وقَلْب قَرِحْ(١)

سيُقْفِرُ بعدك رَسْمُ الغَبُوقِ ... وتُوحِش منك مغاني الصَّبَحْ

[من طرائف الوصف]

ومن أحسن ما قيل في وصف قَدَح ، قول ابن الرومى يصف قدحا أهداه إلى على ابن يحيى المنجم(٢) : *وصف قدح لابن الرومى*

وبديع من البدائع يَسْبِي ... كلّ عقل ويَطَّبي(٣) كلّ طَرْفِ

رَقّ(٤) في الحسن واللاحة حتى ... ما يوفّيه واصفٌ حقّ وَصْفِ

كمم الحِبّ في اللاحة بل أشـ ... هى وإن كان لا يناجى(٥) بحَرْفِ

تنفذ(٦) العينُ فيه حتى تَراها ... أخطأتْه من رِقَّةِ المستشَفّ

كهَوَاء بلا هَبَاء مَشُوب ... بضياء ، أرِقْ بذاك وأصْفِ

صِيغ من جوهر مصفًّى طباعا ... لا علاجاً بكيمياء ، مُصفّ

وسط القَدْرِ لم يكبَّرْ لجَرْعٍ ... مُتَوالٍ ولم يصغَّرْ لرَشْفِ

(١) قرح : جرح. (٢) ديوانه : ٣٣ . (٣) يطبى : يستميل .
(٤) في الديوان : وفى . (٥) في الديوان ، ا : بل أحلى ، وإن كان لا يناغى .
(٦) في ا : تبعد .

لا عجول على العقول جَهولٌ … بل حليم عنهنَّ في غير ضعفِ

فيه نون معقرب عطفَتَه … حكاه القيون أحكم عطفِ

مثل عطف الأصداغ في وجَنَاتٍ … من حبيب يُزْهى بحُسْنٍ وظَرْفِ

ما رأى الناظرون قدًّا وشكلاً … مثله فارِساً على بطن كَفِّ

(والتنوخي) وقال أبو القاسم التنوخي :

وراحٍ من الشمس مخلوقةٍ … بَدَتْ لك في قَدَحٍ مِنْ نَهَارْ

هواءٌ ولكنه جامدٌ … وماءٌ ولكنه غيرُ جَار

إذا ما تأملتها وهي فيه … تأمَّلت نوراً محيطاً بِنَارْ

فهذا النهاية في الابيضاضِ … وهذا النهايةُ في الاحمرار*(١)

وما كان في الحق أن يُقرَنا … لفَرْطِ التَّنافي وبعد النِّفَارْ

ولكن تجاور شكلاهما الـ … بسيطَانِ فاتَّفقا في الجوارْ

كأنَّ المُدِيرَ لهـا باليمين … إذا قام للسَّقْي أو باليَسار

تدرجَ ثوبا من الياسمين … له فردُ كُمٍّ من الجُلَّنار

(رثاء منديل لكشاجم) وقال أبو الفتح كشاجم يرثي منديل كُمٍّ (٢) :

مَنْ يَبْكِ مِنْ وجْدٍ على هالك … فإنما أَبْكِي عَلَى دَسْتَجَه*(٣)

جاذبنيها رَشَأٌ أغْيَدٌ … فجادت النفسُ بها مُخْرَجَه

بديعةٌ في نَسْجِها مثلها … يفقد من يُحْسِنُ أنْ يَنْسِجَه

كأنما رِقَّةُ أشكالِها … من رقَّةِ العشاق مُسْتَخْرَجه

كأنمـا مفتولُ أهدابِها … أيدي دَبًا(٤) في نَسَقٍ مُزْوَجَه

كأنما تفريقُ أعلامها … طَاوُسة تختال أو دُرَّجه(٥)

---

(١) ليس في م ، ا . (٢) ديوانه : ٣٠ . (٣) الدستجة : الحزمة ، وفي ط: مسبجة ، وفي م : سبجة . (٤) الدبا : أصغر الجراد والنمل ، وفي ط : ربا . (٥) في م ، ا . تدرجه .

لَبِيسَةٌ [1] جدَّدَها حسنها ... لَارَثَّةُ السِّلْكِ ولا مُنْهَجَه
كم رقعةٍ من عند مَعْشُوقَةٍ ... تُرْسَلُ فى أثنائها مُدْرَجَه
أو مسحةٍ من شفةٍ عَذْبَةٍ ... تُبْرِدُ حرَّ الكَبِدِ المُنْضَجَه
إلى تحياتٍ لِطافٍ بها ... تسكُنُ منى مُهْجَةٌ مُزْعَجه
كانت لمسْحِ الكاس حتى ترى ... منها لآثارِ القَذَى مُخْرِجَه
وخاتم يُعْقَدُ فيهـا إذا ... آثرتُ مِنْ كفى أن أُخْرِجَه
وأُنْقِى [2] الجامَ بها كلَّما ... كَلَّله المازِجُ أو توَّجَه
فاستأْثَرَ الدَّهْرُ بهـا إنهُ ... ذو همَّةٍ مُجْتابَةٍ مُزْعِجَه
فأَصْبَحَتْ فى كَمِّ مُخْتَالَةٍ ... مُابِحَمَةً فى هَجْرِنا مُسْرِجَة

وقال أيضا يصف سقوط الثلج [3] :

وصف سقوط الثلج

الثلجُ يَسْقُطُ أم لُجينٌ يُسْبَك ... أمْ ذا حَصَى الكافورِ ظَلَّ يفرَّكُ
راحتْ به الأرضُ الفضاء كأنها ... فى كل ناحية بثَغْرٍ تَضْحَكُ
شابت مَفارِقُها فبيّن ضِحْكها ... طوراً وعهدى بالمشيب يُنَسَّكُ
أَربى [4] على خُضرِ الغصونِ فأصبحتْ ... كالدرِّ فى قُضُبِ الزبرجدِ يُسلك
وتردّتِ الأشجارُ منه ملاءةً ... عمّا قليل بالرياح تُهتَّكُ
كانت كعودِ الهند طُرّىَ فانكفى ... فى لوْنِ أبيضَ وهو أسود أحلكُ
والجوُّ من دَاجِى الهواء [5] كأنهُ ... خِلَعٌ تُعَنْبَرُ تارةً وتُمَسَّك
تغذِى من الأوتار حظَّك إنمـا ... يتحرّكُ الإطرابُ حين تحرّكُ
فاليوم يوزَنُ بالملاحةِ إنهُ ... سيُطَلُّ فيه دَمُ الدِّنان ويُسْفَك

وقال أيضاً [6] :

---

(١) اللبيس : الثوب قد أكثر لبسه فأخلق ، وفى ط : لينة . (٢) فى ا : وألقى .
(٣) ديوانه : ١٤٠ . (٤) فى ا : أوفى . (٥) فى الديوان : من أرج الهواء .
(٦) ديوانه : ٧٩ .

باكِرْ فهذى صَبيحة قَرَّه(1)   واليوم يومٌ سماؤه ثَرَّه

ثَلْج وشمسٌ وصَوْبُ غَادِيَة   والأرضُ من كل جانب غرَّه

باتَتْ وقيعانُها زَبَرْجَدَةٌ   فأصبحَت قد تحولَت دُرَّه

كأنها والثلوجُ تضحكها   تُمارُ(2) ممن أحِبّه ثَغْرَه

كأنَّ فى الجو أيدياً نثرتْ   دُرًّا علينـا فأسرعت نَثْره

شابَتْ فسُرَّتْ بذاك وابتهجَتْ   وكان عهدى بالشيب يَسْتَنْكِرَه

قد جلّيت بالبياض(3) بلدتنا   فاجْلُ علينا الكؤوسَ بالحُمْرَه

والصنوبرى فيه — وقال الصنوبرى :

ذَهِّب كؤوسك ياغلا   م فإنَّ ذَا يومٌ مفضَّضْ

الجوُّ يُجلى فى البيا   ض وفى حُلَى الكافور يُعرَضْ

أزعمت ! ذا ثَلْجٌ وذا   وردٌ على الأغصان يُنْفَضْ

وردُ الربيع مورَّدٌ   والوَردُ فى تشرين أبْيَضْ

والبستى — وقال البستى :

كم نَظَمْنَا عقودَ لَهْوٍ وأُنْس   وجَمَلْنَا الزمانَ لِلَّهْوِ سِلْكَا

وَعقَدْنا الدِّنانَ فى يوم ثَلْجٍ   عُزِل الكأسُ فيه رُشْداً ونُسْكَا

فكأنَّ السماء تنحلّ كافو   رًا علينا ونَحنُ نَفْتَقُ مِسْكَا

وصف الجمد — وقال الأمير أبو الفضل الميكالى يصف الجَمْد :

وربَّ جنين من حَيَا النمير   مهتّك الأستارِ والضميرِ

سلّمته من رحم الغدير   كأنهـا صحائف البلُّور

أو أُكَرٌ تجسّمتْ من نُور   أو قِطعٌ من خَالِص الكافور

لو بقيت سِلْكا على الدهور   لعطّلتْ قلائد النُّحُور

---

(1) قرة : باردة ، والصبيحة : الصبح .

(2) فى الديوان : تغار .

(3) فى م : قد جليت فى البياض بلدتها .

وأخجلت جواهرَ البحور [وسميت ضرائر التنور](1)
يا حُسْنَهُ فى زَمنِ الحرور إذ قَيْظُه مثل حَشَى المَهْجُور
يُهْدِى إلى الأكبادِ والصدُورِ رَوحاً يُجلِّى نَفْثَةَ المصدور
ويَجْلِبُ السرورَ للمَقْرُورِ

ألفاظ لأهل العصر فى وصف الثلج والبرد والأيام الشتوية

ألقى الشتاء كَلْكَلَه ، وأحلَّ بنا أثقاله . مدّ الشتاء رِواقه ، وألقى أوراقه ، وحلّ نِطاقه . ضرب الشتاء بجِرَانه ، واستقلّ بأركانه، وأناخ بتوازله ، وأرْمَى بـكلاكله، وكلَح بوجهه ، وكشَّر عن أنيابه .

قد عادت [هامات](2) الجبال شيبا ، ولبست من الثلج بُردا قشيباً. شابت مفارق البروج ، لتراكُم الثلوج ، ألمّ الشيب بها وابيضّت لممها. قد صار البردُ حجابا ، والثلج حجازا، بَرْدٌ يغيِّر الألوان، وينشف الأبدان. برد يقَضْقِض الأعضاء ، وينقض الأحشاء. برد يُجمِّد الريقَ فى الأشداق، والدمع فى الآماق. بَرْدٌ حال بين الـكلب وهَرِيره ، والأسد وزَئيره ، والطيرِ وصفيره ، والماء وخريره . نحن بين لثق ، ورثق ، وزلق(3) . يوم كأنَّ الأرضَ شابَتْ لهَوْلِهِ . يوم فضِّى الجِلْبَاب، مِسْكىّ النقاب ، عبوس قَمْطَرير، كشَّر عن نَاب الزمهرير ، وفرش الأرض بالقوارير. يوم أخذت الشَّمال زِمامه، وكسا الصِّرُّ(4) ثيابَه .

يوم كأن الدنيا فيه كافُورة ، والأرض قارورة ، والسماء بلّورة. يوم أرضه كالقوارير اللامعة ، وهواؤه كالزنابير اللاسعة . يوم أرضُه كالزجاج، وسماؤه كأطراف الزِّجَاج(5) .

يوم يثقل فيه الخفيف إذا هجم، ويخف الثقيل إذا هجَر ، نحن فيه بين أطباق البرد، فما نستغيث إلا بحرِّ الراح وسَوْرَة الأقداح . ليس للبرد كالبُرْد ، والخمْر ، والجَمْر . إذا كَلِب الشتاء فترياق سمومه الصلاء ، ودَرَقُ سيوفه الطِّلَاء(6) .

(1) من م ، ا .   (2) من ا .   (3) لثق يومنا : ركدت ريحه وكثر نداه .
(4) الصر : البرد ، أو شدته .   (5) جمع زج .
(6) الصلاء : النار ، والدرق جمع درقة ، وهى ترس من جلود . الطلاء : الخمر .

نقيض ذلك من كلامهم فى وصف القيظ وشدة الحر

قوى سلطان الحَرّ، وبُسِطَ بساطُ الجَمْر. حَرُّ الصيف كحدّ السيف. أوقدت الشمسُ نارَها، وأذكت أُوارها. حرٌّ يلفح حُرّ الوجه. حَرٌّ يشبه قَلْبَ الصبّ، ويُذيب دماغ الضَّبّ. هاجرة كأنها من قلوب العشاق، إذا اشتعلت فيها نارُ الفراق.

هاجرة تحكى نارَ الهَجْر، وتُذيب قَلْبَ الصخر. كأن البسيطة من وَقْدة الحر، بساطٌ من الجمر. حَرٌّ تهرب له الحِرْباء من الشمس، قد صَهَرَت[1] الهاجرةُ الأبدان، وركبت الجنادبُ العِيدان. حر يُنْضِج الجلود، ويُذيب الجلمود.

أيام كأيام الفُرْقة امتدادا، وحرٌّ كحَرِّ الوجد اشتدادا. حرٌّ لا يطيبُ معه عيش، ولا ينفع معه ثَلْج ولا خيش. حارّة القيظِ تَغْلى كدم ذى الغيظ. آبَ آب بجيش مِرْجَله، وتنّور قَسْطَله[2].

هاجرة كقلب المهجور، أو التنّور المَسْجُور[3]. هاجرة كالجحيم الجاحم، تجر أذيالَ السمائم.

[فى العجلة الندامة]

قال بعض الحكماء: إياك والعجلة، فإنّ العرب كانت تكنيها أمّ الندامة؛ لأنّ صاحبها يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أنْ يفكّر، ويقطع قبل أن يقدّر، ويَحْمَدُ قبل أن يجرّب، ويذمّ قبل أن يَخْبُرَ، ولن يصحب هذه الصفة أحد إلّا صحب الندامة، واعتزل السلامة.

[استمناح]

رجل يستمنح سليمان بن وهب

ولما وَلّى المهتدى[4] سليمانَ بن وهب وزارته قام إليه رجلٌ من ذوى حُرْمَته، فقال: أعزّ اللهُ الوزير! أنا خادمك المؤمّل لدولتك السعيدُ بأيامك المنطوى القلب على وُدّك، المنشورُ اللسان بمدحك، المرتهن بشكر نعمتك، وقد قال الشاعر:

---

(١) فى ا: ضمرت. (٢) القسطل: الغبار. (٣) المسجور: المحمى.

(٤) هكذا فى ا، م، والصناعتين: ٤٨، وفى ط: المهدى محمد بن الواثق بن المعتصم.

وفيتَ كل صديق ودَّنى ثمناً　　　إلا المؤمل دولاتى وأيامى

فإننى ضامنٌ ألّا أكافِئَهُ　　　إلا بتسويته فضلى وإنعامى

وإنى لكما قال القيسى : مازلتُ أمتطى النهارَ إليك ، وأستدلُّ بفضلك عليك ، حتى إذا جنَّنى الليلُ فغضَّ البصرَ ، ومحا الأثر ، أقام بدنى ، وسافر أملى ، والاجتهاد عُذْر ، فإذا بلغتك فَقَدْ[1] . قال سليمان : لا عليك ؛ فإنى عارفٌ بوسيلتك ، محتاج إلى كفايتك واصطناعك ، ولست أؤخر عن يومى هذا توليتك ما يَحْسُنُ عليك أثره ، ويطيب لك خَبَرُهُ إن شاء الله .

محمد بن عباد يستمنح وزير المعتز

وكتب محمد بن عباد إلى أبى الفضل جعفر بن محمود الإسكاف وزير المعتز بالله وكان المعتز يختصّ به ، ويتقرّب إليه قبل الوزارة : ما زلت – أيدك الله تعالى – أذم الدهر بذمِّك إياه ، وأنتظر لنفسى ولك عُقْباه ، وأتمنى بزوال حال من لاذَنْبَ له إلا عاقبة محمودة تكون لك بزوال حاله ، وأترك الاعتذار فى الطلب على الاختلال الشديد ؛ ضناً بالمعروف عندى إلّا عن أهله ، وحَبْساً لشِعْرى إلا عن مستحقه .

فوقّع فى كتابه : لم أؤخر ذِكْرَكَ ناسياً لحقّك ، ولا مُهْمِلاً لواجبك ، ولا مرجياً[2] لمهمِّ أمرِك ، ولكنى ترقَّبت اتساعَ الحال ، وانفساحَ الآمال ؛ لأخصَّك بأسناها خَطَرًا ، وبأجلّها قَدْرا ، وأعْوَدها بنَفْعٍ عليك ، وأوفرها رِزْقاً لك ، وأقربها مسافةً منك ؛ إذا كنتَ ممن يَحْفِزه[3] الإعجال ، ولا يتَّسع له الإمهال ، فسأختار لك خيرَ ما يشير إليك الوقت . وأنعم النظر فيه ، وأجعله أول ما أمضيه إن شاء الله .

ولما ولى سليمان بن وهب الوزارة كتب إليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

أبى دهرُنا إسعافَنا فى نفوسنا　　　وأسْعَفَنا فيمن نُحِبُّ ونكرمُ

فقلت له نُعْماك فيهم أتِمَّها　　　ودَعْ أمرَنا ، إنّ المهمَّ المقدم

فعجب من لطيف شكواه فى تهنئته ، وقضى حَوائِجَه .

---

(١) فى الصناعتين : فقط . (٢) فى ط : موهنا . (٣) يدفعه .

[ووقّع عبيد الله فى كتاب رجل اعتدّ عنده بأثر جميل : وقفت على ما ذكرته من شكايتك، فوقع ذلك عندنا الموقع الذى أردْته ، وصدر جوابنا إليك بما شكرتهُ، ولم تَعْدُ ظننا ، وما قدرنا فيك ، ثم اعتددت الاعتداد حتى كأنك لم تكاتبنا ؛ فلا تفسدنّ تالد إحسانك بطارف امتنانك، واقتصر من وصف سالفك على ذكر مستأنفك](١).

[حسن تقسيم]

ووقّع عُبيد الله فى أمر رجل خرج عن الطاعة : أنا قادرٌ على إخراج هذه النعَرة(٢) من رَأسه ، والوحرة من نفسه .

ونحو هذا التقسيم قول قُتَيْبَة بن مُسْلم بخراسان : من كان فى يده شىء من مال عبد الله فلينبذه، أو فى فمه فَلْيَلفِظْه ، أو فى صدره فلينفثه .

وقال عبد الله بن على، بعد قَتْلِه مَنْ قتل من بنى أمية، لإسماعيل بن عمرو : أساءكَ ما فعلتُ بأصحابك ؟ قال : كانوا يداً فقطعتَها ، [وعضدا ففتتّها، ومرة فنقضتَها](٣) ، ورُكْناً فهدَمته ، [وجبلا فهضته](٣) ، وجناحاً فقصَصته . قال : إنى لخليق بأن أُلحقك بهم . قال : إنى إذاً لسعيد .

وقال المنصورُ لجرير بن عبد الله : إنى لأُعِدُّك لأمْرٍ كبير ! قال : يا أمير المؤمنين؛ قد أعدَّ الله لك منى قلباً معقوداً بنصيحتك ، ويدا مبسوطةً بطاعتك ، وسيفاً مسلولًا على أعدائك .

وكتب الحسن بن وهب إلى القاسم بن الحسن بن سهل يعزّيه : مدّ الله فى عمرك موفوراً غير منتقَص ، وممنوحاً غير ممتحَن ، ومعطى غير مُسْتَلَب .

من جيد التقسيم

ومن جيد التقسيم مع المطابقة قولُ بعض الكتاب : إنّ أهل النصح والرّأيِ لا يساويهم أهْلُ الأفْنِ(٤) والغِشّ ، وليس مَنْ جمع إلى الكفاية الأمانة كمن أضافَ إلى العَجْزِ الخيانة.

---

(١) من م ، ١ . (٢) النعرة : الخيلاء والكبر . (٣) من ١ .

(٤) الأفن : ضعف الرأى والعقل .

وقالت هند بنت النعمان بن المنذر لرجل دَعَتْ له وقد أولاها يداً : شكَرتْكَ يدٌ نالتها خَصَاصة(١) بعد ثَرْوَة ، وأغناك الله عن يَدٍ نالتها ثروة بعد فاقةٍ .

من بديع التقسيم

ومن بديع التقسيم فى هذا النوع قول البحترى(٢) :

كأنك السيفُ حَدّاهُ وَرَوْنَقُهُ … والغيث وَابِلُه الدَّانِي ورَيِّقهُ

هل المكارم إلا ما تُجَمِّمهُ … أو المواهب إلا ما تفرِّقهُ

وقال الحسنُ بن سهل يوما للمأمون : الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ماآتاك ، وسنِىّ ماأعطاك ؛ إذ قسَم لك الخلافة ، ووهب لك معها الحجّة ، ومكّنك بالسلطان ، وحلّاه لك بالعَدْل ، وأيّدك بالظفَر ، وشفّعه لك بالعفو ، وأوجب لك السعادة ، وقرنها بالسياسة ، فمن فُسِحَ(٣) له فى مثل عطيّةِ الله لك ؟ أم مَنْ ألبسه الله تعالى من زينة المواهب ما ألبسك ؟ أم من ترادفَتْ نِعَمُ الله تعالى عليه ترادُفَها عليك ؟ أم من حاولها وارتبطها بمثل محاولتك ؟ أم أى حاجة بقيَتْ لرعيّتك لم يجدوها عندك ؟ أم أى قيِّم للإسلام انتهى إلى غايتك ودَرَجتك؟ تعالَى الله! ما أعظم ماخَصّ القرنَ الذى أنت ناصره ! وسبحان الله ! أية نعمة طبّقت(٤) الأرض بك إن أدّى شكرها إلى بارئها ، والمنعمِ على العباد بها ؟ إن الله تعالى خلق الشمس فى فَلَكها ضياء يستنيرُ بها جميعُ الخلائق ؛ فكلُّ جوهرٍ زَها حسنُه ونوره فهى ألبسته زينَته لما اتصل به من نورِها . وكذلك كل وَلِيٍّ من أوليائك سَعِد بأعماله فى دولتك ، وحَسُنَتْ صنائعهعند رعيّتك ، فإنما نالها بما أيّدتَه من رأيك وتدبيرك ، وأسْمَدْتَه من حسنك وتقويمك .

[قَيْنة وأربعة من عشاقها]

قال بعضُ الظرفاء : اجتمع لقَيْنةٍ أربعةٌ من عشّاقها ، وكلُّهم يُوَرِّى(٥) عن

(١) الخصاصة : الفقر (٢) ديوانه : ٢ — ١٣٥ . (٣) فى ط : فتح ، وفى ا : فسح الله له . مت . (٥) يخفى ، وفى ط : يدارى .

ساحبه أمرَه ، ويُخْفِي عنه خبرَه ، ويُومِئُ إليها بحاجبه ، ويناجيها بلَحْظه ؛ وكان أحدُهم غائبا فقدم ، والآخر مقيما قد عَزَم على الشخوص ، والثالث قد سلَفَتْ أيامُه ، والرابع مستأنفة مودّته ؛ فضحكَتْ إلى واحد ، وبَكَتْ إلى آخر ، وأقْصَتْ آخر ، وأطمعَتْ آخر ؛ واقترح كلُّ واحد منهم ما يشاكِلُ بثّه وشأنه ؛ فأجابته ، فقال القادم : جُعلت فِدَاكِ ، أتحسنين :

ومن يَنْأ عن دار الهوى يُكْثِرِ البُكَا ... وقولَ لَعلّى أو عَسى سَيكونُ[1]
وما اخترتُ نَأْيَ الدار عنك لَسلْوةٍ ... ولكن مَقاديرٌ لهنَّ شُؤونُ

فقالت : أُحْسِنُه ، ولا أُقيمُ لَحْنه ، ولكن مطارحه لتستغنى به عنه ، اقرُبْ بمنه ، وأنا به أحْذق ، ثم غنّت :

وما زلت مُذ شَطّتْ بك الدارُ باكيا ... أُؤَمِّلُ منك العَطْفَ حين تؤوب
فأضعفْتَ ما بي حين أُبْتَ وزدْتَني ... عذابا وإعراضا وأنتَ قَريبُ

وقال الظاعن : جُعلت فِدَاك ، أتحسنين :

أزِفَ الفِراقُ فأعْلِنى جَزَعاً ... ودَعِى العتابَ فإننا سَفْرُ
إنّ المحبَّ يصدُّ مقتربا ... فإذا تباعد شَفّه الذِّكْر

قالت : نعم ، وأحسن منه ومن إيقاعه ، ثم غنّتْ :

لأقيمنَّ مأتمـا عن قريب ... ليس بعد الفراق غَيْرُ النَّحيبِ
ربما أوْجَع النوى للقلوب[2] ... ثم لا سيّما فراقُ الحبيبِ

ثم قال السالف : جعلت فداك ، أتحسنين :

كنّا نُعاتبكم ليالىَ عُودُكم ... حُلْوُ المَذاقِ وفيكمُ مستَعْتَبُ
فالآن حين بَدَا التنكُّر منكُم ... ذهب العِتَابُ فليس عنكم مذهب[3]

قالت : لا ، ولكن أحسنُ منه في معناه ، ثم غنّت :

---

(١) في ا : ويكون . (٢) في ط : أوجع النوى القلب حزنا ، وفي م : أوجع الهوى للقلوب . (٣) في ط : فليس فيكم معتب .

وصلتكَ لمـــا كان ودُّك خالصاً   وأعرضتُ لما صار نَهْباً مقسّما
ولن يلبث الحوض الجديدُ بناؤه   إذا كثر الورّادُ أن يتهدّما

فقال المستأنف : أتحسنين ، جعلت فداك :

إنى لأعظم أنْ أبُوحَ بحاجتى   وإذا قرأْت صحيفتى فتفهّمى
وعليك عَهْدُ الله إنْ أبنْته   أحداً ولا آذنته بتـكلُّم

فقالت : نعم ، ومن غناء صاحبه ؟ ثم غنّت :

لعمركَ ما استودعت سِرّى وسرها   سوانا حِذاراً أن تَذِيعَ السرائر
ولا خالطتها[1] مُقْلَتاىَ بنَظْرَةٍ   فتعلم نَجْوَانَا العيونُ النواظرُ
ولـكن جعلت الوَهْمَ بيني وبينها   رسولا فأدّى ما تُجِنّ الضمائر
أكاتمها فى النفس خوفاً من[2] الهوى   مخافةَ أن يُغرى بذكرك ذاكرُ

فتفرقوا وكلّهم قد أومأ بحاجته ، وأجابته بجوابه .

[من أدب ابن المعتز]

بينه وبين جارية

قال أبو العباس بن المعتز : كان لنا مجلس حظّ أرسلت بسببه خادمة إلى قَيْنة فأجابت ، فلما مرّت فى الطريق وجدَت فيه حارسا فرجعت ، فأرسلتُ أعاتبها فكتبت إلىّ : لم أتخلّف عن السير إلى سيّدى فى عشيتى أمس لأرى[3] وَجْهَهُ المبارك وأجيب دعاءه، إلا لعلّة قد عرّفَتْها فلانة ، ثم خِفْتُ أن يسبقَ إلى قلبه الطاهر أنّى قد تخلّفتُ بغير عذر ؛ فأحببْتُ أن تقرأ عذرى بخطّى ، ووالله ما أقدر على الحركة ، ولا شىء أسرّ إلىّ من رؤيتك ، والجلوس بين يدَيْك ، وأنت يا مولاى جاهى وسَنَدى ، لا فَقَدْت قربك ، ولك رأيك فى بسط العُذْر موفقاً .

وكتبت فى أسفل الكتاب :

أليس من الحرمان حظٌّ سُلِبتهُ   وأحوجنى فيه البلاء إلى العُذْرِ

---

(١) فى ط : خالطتها .   (٢) فى ا : على .   (٣) فى ا ، م : كان لنا مجلس وعدت فيه خزامى جاريتنا . وكتبت إلى : لم أتخلف عن السير إلى سيدى فى عشية أمس . . .

فصبراً فما هـــذا بأوّل حادثٍ   رَمَتْني به الأقدار مِنْ حيثُ لا أدْرِي

فأجبتها : كيف أردّ عُذْر من لا تتسلّط التهمة عليه ، ولا تهتدي المَوْجِدة إليه ! وكيف أعلمه قبولَ المعاذر ، ولستُ آمَن بعضَ خواطره أن تشير إلى انتهاز فرصة فيما دعا إلى الفرقة ؛ وإن سَلِمْتُ من ذلك فمن يُجيرني من توكّله على تقديم العُذْر ووقوعه مواقع التصديق في كل وقت، فتتّصل أيامُ الشغل والعِلّة، وتنقضي أيامُ الفراغ والصحة ؛ فتطولُ مدةُ الغيبة ، وتَدْرُس آثار المودّة . وكتبتُ في آخر الرقعة :

إذا غِبْتَ لم تعرف مكانيَ لذةٌ   ولم يلقَ نفسي لَهْوُها وسُرورها
وحدّثتُ سمعاً واهناً غير مُمْسِك   لقولي ، وعيناً لا يراني سَميرُها

كتاب له إلى بعض الوزراء

وكتب إلى بعض الوزراء: ما زال الحاسدُ لنا عليك أيها الوزير يَنْصِبُ الحبائلَ، ويطلب الغوائل، حتى انتهز فرصته ، وأبلغك تشنيعاً زَخْرَفه ، وكذباً زَوَّره ، وكيف الاحتراس ممن يحضر وأغيب، ويقول وأمسك ، مرتصداً لا يَغْفل، وماكراً لا يَفْتر؛ وربمــا استنصح الغاش ، وصدق الـكاذب ؛ والحظوة لا تُدْرَكُ بالحيلة ، ولا يجرى أكثرها على حسب السَّبَب والوسيلة .

فأجابه : حصول الثقة بك ــ أعزّك الله ــ تُغْنِي عن حضورك ، وصدق حالتك يحتجُّ عنك ، وما تقرّر عندنا من نيّتك وطويتك يُغْنِي عن اعتذارك .

من شعره

وقد قال ابن المعتز :

أخْنَى عليك الدهر مقتدراً   والدهرُ ألأم غالب ظَفَرا
ما زلت تَلْقَى كلَّ حادثةٍ   حتى حَنَاك وبيَّض الشعَرا
فالآن هل لك في مُقَارِبةٍ   فلقد بلغت الشَّيْب والكِبَرا
لله إخوان فقدتُهم[1]   سكنوا بطونَ الأرض والحُفَرا
أين السبيلُ إلى لقائهمُ   أم من يحدّث عنهم خَبَرا

---

(١) في ١ : بلغتهم .

كم مورِق بالبِشْر مُبْتَسِم لاأجْتَنِي من غُصْنِه ثَمرًا
ما زال يُوليني[1] خلائقَهُ وصبرتُ أرقُبه وما صَبرا
وعدو غيْب طَالب لدى لو يستطيعُ لجاوز القدَرا
يُورِي زنادى كى يُخادِعنى ويُطير فى أثوابىَ الشَّرَرا

وقال أيضا :

وإنى على إشفاق عينى من القذى لتجمح منى نَظْرَةٌ ثم أطْرِقُ
كما حُلِّئَتْ[2] من بَرْدِ ماء طَرِيدةٌ تمدّ إليه جِيدها وَهْىَ تفرق[3]

وقال :

ومازلتُ مذشدّت يدى عقْد مِئْزَرى غناىَ لغيرى وافتقارى على نفسى
ودلّ علىّ الحمدَ مَجْدِى وعِفّتى كما دلّ إشراقُ الصباح على الشمس

وقال[4] :

سَعَى إلى الدَّن بالمِبْزَالِ يَبْقُرُهُ ساقٍ توشَّحَ بالمنديل حين وَثَبْ
لـمّا وَجاها بَدَتْ صفراء صافيةٌ كأنما قدّ سيرًا من أديمِ ذَهَبْ

وقال :

لبستْ صفرةً فكم فتنت من أعينٍ قد رأينها وعُقُول
مثل شمس الغروب تَسْحَبُ ذيلا صَبَغَتْهُ بزعفرانِ الأصيل

والشمس عند طلوعها ، وعند غروبها ، تمكّنُ الناظر إليها فيمكن التشبيه بها ؛ قال قيس بن الخطيم[5] :

فرأيتُ مثلَ الشمس عِنْدَ طُلُوعها فى الحُسْنِ أو كدنوِّها لغروبِ

---

(١) فى ا : مازلت محتملا . (٢) حلئت : منعت . (٣) رواية البيتين فى ط :

وإنى على إشفاق نفسى من العدا لتسنح منى نظرة ثم أطرف
كما حلئت . . . . وهى تعزف

وهذه رواية ا ، م . (٤) المختار من شعر بشار ٢٠٩ . (٥) ديوانه : ١٧ .

[جرير في المدينة]

ولما قدم جرير بن الخطفى المدينة اجتمع إليه أهلها ، وقالوا : ياأبا حَزْرَة! أنشدنا من شعرك ، قال : ماتصنعون به ؟ وفيكم من يقول[1] :

إني سربت وكنتُ غير سروب   وتقرّبُ الأحلامَ غيرَ قريبِ
ما تمنعي يقظا فقد نوّلتِه   في النوم غير مُصرّدٍ[2] محسوب
كان المنى بُلْقِي بهـا فلقيتُها   فَلَهوْت من لهو امرئ مكذوب
فرأيتُ مثل الشمس عند طلوعها   في الحُسْنِ أو كدُنوِّها لغروب
تخطو على برد تبين عدتهما   غدق مخافة حائر يعبوب[3]

[يعقوب بن داود]

يعقوب ويزيد بن خالد

ودفع يزيد بن خالد الكوفي رقعة إلى يعقوب بن داود ضمّنها :

قل لابن داود والأنباء سائرةٌ   لا يُحرِزُ الأجْرَ إلا مَنْ له عَملُ
ياذا الذي لَمْ تَزلْ يُمْناه مُذْ خُلِقَتْ   فيها لباغي نَدَاه العَلُّ والنَهَلُ
إن كنت مسديَ معروفٍ إلى رجلٍ   لفضل شكر فإني ذلك الرجلُ
فامْنُنْ عليّ ببِرٍّ منك يَنْعَشُني   فإنني شاكرُ المعروف محتمل

قال يعقوب : قد جرّبنا شكرك فوجدناه قد سبق برّنا ، وقد أمرت لك بعشرة آلاف درهم [تصلح حالك][4] ، وليست آخر ما عندنا لك ، فاستوفاها حتى مات .

ولما سخط المهديّ على يعقوب أحضره ، فقال : يايعقوب ! قال : لبّيك يا أمير المؤمنين تلبية مكروب لمَوْجِدتك ، شَرِق بغُصّتك . قال : ألم أرفع قَدْرَك وأنتَ خامل ، وأسيِّر ذكرك وأنت هامل[5] ، وألبسك من نعم الله تعالى ونعمى مالم

---

(١) اللآلى : ٤٢٤ ، ٩١٣ ، الأمالي : ٢ — ٢٧٣ . (٢) المسرد : المقطع .
(٣) هكذا بالأصول وفي ط : يخطو على برد يبين خطاها عذق مخافة طائر الغيوب وهذه رواية ا .
(٤) من ا . (٥) هامل : متروك . وفي ا ، م : غافل .

أجِدُ عندكَ طاقةً لحمله ، ولاقياماً بشكْرِه ؛ فكيف رأيت الله تعالى أظهر[١] عليك ، وردّ كَيْدَكَ إليك .

قال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إن كنت قلت هذا بتيقّن وعلم فإنى معترف ، وإن كان بسعاية الباغين ، ونَمائم المعاندين ، فأنت أعلمُ بأكثرها ؛ وأنا عائذ بكرمك ، وعميم شرفك .

فقال : لولا الحنث[٢] فى دَمك لألبستك قيصاً لاتَشدعليه زرًّا ؛ ثم أمر به إلى الحبس، فتولّى وهو يقول : الوفاء ياأمير المؤمنين كَرَم ، والمودة رَحِم ، وما على العفو نَدَم ، وأنت بالعفو جَدير ، وبالمحاسن خَليق .

فأقام فى السجن إلى أن أخرجه الرشيد .

* * *

من النقد

أخذ معنى قول المهدى : « لألبسنك قيصاً لا تشدّ عليه زرا » أبو تمام فقال :

طوّقته بالحسام طَوْق ردًى   أغناه عن مَسّ طَوْقِهِ بيدِهْ

وقال ابن عمر فى معنى قول الطائى :

طوّقته بحسام طوق داهيةٍ   لايستطيعُ عليه شَدّ أزرارِ

* * *

رجع إلى يعقوب والمهدى

ولما قبض المهدى على يعقوب ورأى أبو الحسن[٣] الحميرى مَيْلَ الناس عليه وكان مختلطاً به قال :

يعقوب لا تبعد وجُنّبْتَ الردى   فلأبكينّ كما[٤] بكى الغُصْن الندى

لو أنّ خيرك كان شرًّا كله   عند الذين عَدَوْا عليك لما عَدَا

أخذ هذا المعنى بعض المحدثين [فى الغزل][٥] فقال :

لو أن هجرك كان وَصْلا كلهُ   مما أقاسى منك كان قليلا

---

(١) أظهر : أعان . (٢) فى ط : الحسب ! (٣) فى ا : أبو الحسين .
(٤) فى ط : فلا بكينك مابكى . (٥) من ا .

[أحمد بن أبى دُوَاد والواثق]

قال أبو العيناء : قال لى أحمد بن أبى دُوَاد : دخلت على الواثق فقال لى : مازال اليوم قومٌ فى ثَلْبك وتَقَصّك ! فقال : يا أميرَ المؤمنين، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولَّى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم، واللهُ ولىُّ جزائه ؛ وعقابُ أمير المؤمنين من ورائه ، وما ذَلَّ — يا أمير المؤمنين — مَنْ كُنْتَ نَاصِره ، وما ضاق مَنْ كُنتَ جاراً له ، فما قلت لهم يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت يا أبا عبد الله :

وسعى إلىّ بصرم[1] عَزّة معشرٌ   جعل الإلهُ خدودَهنّ نِعالها[2]

ظرف بن أبى دواد

قال الفتح بن خاقان : ما رأيت أظرف من ابن أبى دواد ؛ كنت يوماً أُلاعب المتوكل بالنّرد ، فاستؤْذن له عليه ، فلما قَرُب منا هممت برفعها، فنمنى المتوكل وقال: أجاهرُ اللهَ بشىء وأستُره من عباده ؟ فقال له المتوكل : لما دخَلْتَ أراد الفتح أن يرفع النّرد ! قال : خاف يا أمير المؤمنين أن أعلم عليه ! فاستحليناه ، وقد كنا تجهّمناه .

[من خطباء العرب]

شبيب ابن شيبة

قيل لبعض الأمراء : إن شبيب بن شيبة يتعمّل الكلام ويستدعيه ، فلو أمرته أن يصعدَ المنبر فجأة لافتضح؛ فأمر رسولا فأخذ بيده فصعد به المنبر، فحمدالله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : إنّ لأمير المؤمنين أشباها أربعة : الأسد الخادر ، والبحر الزاخر ، والقمر الباهر ، والربيع الناضر ، فأما الأسد الخادر فأشبه صولته ومَضَاءه، وأما البحرُ الزاخر فأشبهَ جودَه وعطاءه ، وأما القمرُ الباهر فأشبه نورَه وضياءه ، وأما الربيعُ الناضر فأشبه حُسْنَه وبهاءه ، ثم نزل .

وهذا الكلام يُنْسَبُ إلى ابن عباس يقوله فى على بن أبى طالب رضى الله عنهما، وكان شبيب بن شيبة من أفصح الناس وأخطبهم ، ويشبَّه بخالد بن صفوان ؛ غير أنّ

---

(١) فى ط : بعيب .   (٢) فى ا : نعالا .

خالدا كان أعلى منه قدراً فى الخاصة والعامة . وذكر خالد شبيباً فقال : ليس له صديقٌ فى السرّ ولا عدوّ فى العلانية . وكانت بينهما معارضة للنسب والجوار والصناعة . ولما قال الشاعر (١) :

فَنحِّ شَبيباً عن قِرَاعِ كتيبة ... وأدْنِ شبيباً من كلام مُلَفَّقِ (٢)

خالد بن صفوان

وكان لا ينظر إليه أحد وهو يخطب إلا تبين فيه الخجل .

وقال أبو تمام لعلى بن الجهم (٣) :

لو كنتَ يوماً بالنجوم مُصَدِّقاً ... لزعمتُ أنك نلتَ شكلَ عُطَارِدِ (٤)

أو قد مَلَكْتَ السِّنَّ خلتُ (٥) بأنه ... من لَفْظِكَ اشتقّت (٦) بلاغةُ خالد

وقالت له امرأة : إنكَ لَجميل يا أبا صفوان . قال : كيف تقولين هذا وما فىّ عمودُ الجمال ولا رِدَاؤه ، ولا بُرْنُسه . عمودُه الطول ، ولست بطويل ، ورِداؤه البياض ، ولست بأبيض ، وبُرْنسه (٧) سواد الشعر ، وأنا أشمط ! ولكن قولى : إنك لمليح .

وكان خالد حافظا لأخبار الإسلام ، وأيام الفتن ، وأحاديث الخلفاء ، ونوادر الرواة ، وكل ما تصرف فيه أهل الأدب ، وله يقول مكى بن سوادة :

عليم بتنزيل الكتاب (٨) ملقَّنٌ ... ذَكُورٌ لما سدّاه أوّلَ أولا

يَبُذُّ قَرِيعَ (٩) القوم (١٠) فى كل مَحْفل ... ولو كان سحبانَ الخطيبُ ودَغْفَلا

ترى خطباء الناس يومَ ارتجاله ... كأنهم الكَرَوَان صادفَ أجْدَلَا (١١)

---

(١) فى ط : وكان شبيب كما قال الشاعر . (٢) فى ا : يلزق . (٣) ديوانه : ٨٦

(٤) فى الديوان : لزعمت أنك أنت بكر عطارد . (٥) فى الديوان : قلت بأنه .

(٦) فى الديوان : اشتقت . (٧) البرنس : كل ثوب رأسه منه .

(٨) فى ا : الكلام . (٩) يبذ : يغلب . قريع : غالب . (١٠) فى ا : القول .

(١١) فى ا : أبصرن ، وفى م : صادفن ، والأجدل : الصقر .

سحبان أما سَحْبَان الذى ذكره فهو خطيبُ العرب بأسْرِها غير منازع ولا مدافع ، وكان إذا خطب لم يُعِدْ حرفاً ، ولم يتوقّف ، ولم يتحبّس ، ولم يفكر فى استنباط ، وكان يسيل غَرْباً[1] ، كأنه آذِىُّ بَحْر .

ويقال : إنّ معاوية قدم عليه وَفْد من خراسان وفيهم سعيد بن عثمان ، وطلب سَحْبان فلم يوجد عامّةَ النهـــار ، ثم اقتُضِب[2] من ناحية كان فيها اقتضاباً ، فدخل عليه فقال : تـكلّم ، فقال : انظروا لى عصاً تُقيم من أَوَدِى . فقال له معاوية : ما تصنعُ بها ؟ فقال : ما كان يَصْنَعُ موسى عليه الصلاة والسلام وهو يخاطبُ ربَّه وعصاه بيده ، فجاءوه بعصا فلم يَرْضَها . فقال : جيئونى بعصاى ، فأخذها ، ثم قام فتكلم منذ صلاة الظهر إلى [أن فاتت][3] صلاةُ العصر ، ما تَنَحْنَحَ ، ولا سعل ، ولا توقّف ، ولا تحبّس ، ولا ابتدأ فى معنى فخرج منه إلى غيره حتى أتمّه ولم يبق منه شىء ، ولا سأل عن أى جنس من الـكلام يخطب فيه ، فما زالت تلك حالُه وكلّ عين فى السِّماطين[4] شاخصة إلى أن أشار له معاويةُ بيده أن اسكت ، فأشار سحبان بيده أن دَعْنى لا تَقْطَعْ علىّ كلامى ، فقال له معاوية : [الصلاة . فقال : هى أمامك ونحن فى صلاة يتبعها تحميد وتمجيد، وعظة وتنبيه وتذكير ووعد ووعيد . فقال معاوية :][5] أنت أخطبُ العرب ، فقال سحبان : والعجم ، والجنّ والإنس .

عجلان وكان ابنه عجلان حُلْوَ اللسان ، جيّدَ الـكلام ، مليح الإشارة، يجمعُ مع خطابته شعراً جيداً، ويضرب الأمثال إذا خطب ، وينتزع[6] النادرَ من الشعر، والسائرَ من المثل ، فتَحْلُو خُطْبته ، وكان يَزِنُ كلامَه وَزْناً .

---

(١) فى ط : عرقا . (٢) انتزع . (٣) من ا ، م .
(٤) سماط القوم : صفهم . (٥) زيادة من م ، ا .
(٦) فى ط : ويجمع ، وفى م : ويبتدع .

[دغفل النسابة]

وأما دَغفَل الذى ذكره مكى بن سَوادة فهو دَغْفَل بن حَنْظَلة بن يزيد أحد بنى ذهل ابن ثعلبة النسّابة ، وكان أعلمَ الناس بأنساب العرب ، والآباء ، والأمهات ، وأحفظهم لمثالبها ، وأشدّهم تنقيراً وبحثاً عن معايب العرب ، ومثالب النسب .

قال لمعاوية يوماً : والله لئن قلت فى هذا البيت[1] من قريش ما تجد فى آل حَرْب مقالا ؛ فتبسّم دَغفل ؛ فقال له معاوية : والله لتخبرنّى بتبسمك ، وما انضمّتْ عليه جوانحُك ، أو لأضربنّ عنقك ، وما آمَنُ[2] أن تكذبَ أو تزيد .

فقال : يا أمير المؤمنين ، أنتم من بنى عبد مناف كسَنام كَوْماء فتيّة[3] ، ذاتِ مرعًى خصيب ، وماء عَذْب ، وأكَمَةٍ بارزة ، فهل يوجد فى سَنام هذه مَدَبّ قُرَاد[4] من عاهة ؟

فقال له معاوية : أوْلى لك ! لو قلتَ غير هذا ؛ أما على ذلك لو رأيت هنداً وأباها ، وزوجها ، وأخاها وعمّها ، وخالها ، لرأيت رجالا تَحَارُ أبصارُ مَنْ رآهم فيهم[5] ، فلا تجاوزهم إلى غيرهم ، جلالةً وبهاء .

[وصف العصا لأعرابى]

وعلى ذكر العصا لقى الحجّاج أعرابيا فقال : من أين أقبلت ؟ قال : من البادية : قال : ما بيدك ؟ قال : عصا أركزُها لصَلاتى ، وأعدُّها لِعُداتى ، وأسوقُ بها دابّتى ، وأقْوَى بها على سَفرى ، وأعْتَمِدُ بها فى مشيتى ؛ ليتّسع بها خَطْوِى ، وأعْبُرُ بها[6] النهر فتؤمننى ؛ وألقى عليها كسائى فتسترُنى من الحرّ ، وتقينى من القُرّ ، وتُدْنى ما بعد منى ، وهى مِحْمَل سُفْرتى ، وعَلّاقة إدَاوتى[7] ، ومِشجَب ثيابى[8] ، أعتمدُ[9]

(١) فى ط : النسب . . . لنا . (٢) فى ا : وما آمن أن تكذب ولا تبرئة .
(٣) الكوماء : الناقة العظيمة السنام . (٤) مدب قراد : موضع الدبيب .
(٥) فى م : من تأملهم . (٦) فى ط : أثب ، وفى م : وأثب .
(٧) الإداوة : إناء صغير من جلد يتخذ للماء . (٨) المشجب : ما توضع عليه الثياب .
(٩) فى ا : وأعتصى ، وفسرها : بأتوكأ .

بها عند الضِّراب ، وأقرع بها الأبواب ، وأتّقي بها عَقُور الكِلاب ، تنوبُ عن الرُّمح في الطِّعان ، وعن الحِرْز[١] عند منازلة الأقران ، ورِثْتُها عن أبي ، وأورثها بعدي ابني ، وأهُش[٢] بها على غَنَمي ، ولي فيها مآرِبُ أخرى ، كثيرة لا تُحْصَى .

[عِـزَّة]

قال النضر بن شميل : كتب سليمان بن[٣] علي إلى الخليل بن أحمد يستدعيه الخروج إليه ، وبعث إليه بمال كثير ، فردّه وكتب إليه[٤] :

أبلغْ سليمانَ أني عنه في سَعَةٍ	وفي غنًى غير أني لستُ ذا مالِ
يسخُو بنفسيَ أني لا[٥] أرى أحداً	يموت هُزلا ولا يَبْقَى على حالِ
والفَقْرُ في النفس لا في المال نَعْرِفُهُ	ومِثْلُ ذاك الغنى في النفس لا المالِ
والمالُ يَغْشَى أناساً لا خَلاقَ[٦] لهم	كالسَّيْلِ يَغْشَى أصولَ الدِّنْدِنِ[٧] البالي
كلُّ امرئٍ بسبيل الموت مُرتَهِنٌ	فاعمَلْ لنفسك ، إني شاغلٌ بالي

أخذ هذا الطائي فقال[٨] :

لا تُنْكِري عطلَ الكريم من الغِنَى	فالسيلُ حربٌ للمكانِ العالي

وقال أيضاً يصف قوماً خُصوا بابن أبي دواد[٩] :

نَزَلوا[١٠] مركزَ النَّدَى وذُرَاهُ	وعَدَتْنَا من دون[١١] ذاك العَوَادِي
غير أنّ الرُّبا إلى سُبُل الأنـــــــواء أدْنَى والحظُّ حظ[١٢] الوِهَادِ	

---

(١) الحرز : الموضع الحصين ، وفي ط : الحرب . (٢) هش الشجر : خبطه ليتساقط ورقه فترعاه الدواب . (٣) في ا : بن حبيب . (٤) معجم الأدباء : ١١ — ٧٦ . (٥) في ط : شحا .
(٦) في ا : لا طباخ . والطباخ كسحاب القوة . (٧) الدندن : ما اسود من نبات أو شجر .
(٨) ديوانه : ٢٤٦ . (٩) ديوانه : ٧٦ . (١٠) في الديوان : لزموا .
(١١) في الديوان : عن مثل ذاك . (١٢) في ط : عند .

وهذا الشعر من أصلح شعر الخليل ، وكان شعره قليلا ضعيفاً ، بالإضافة إليه ، وهو أستاذ النحو والغريب . الخليل

وقد اخترع علم العروض من غير مثال تقدمه ، وعنه أخذ سيبويه ، وسعيد بن مسعدة ، وأئمة البصريين ، وكان أوسع النـــاس فِطْنَةً ، وألطفهم ذهنا . قال الطائى[1] :

فلو نُشِر الخليل إذاً لعفَّت رَزاياه[2] على فِطَنِ الخليلِ

[من رسائل الصابى]

وكتب أبو إسحاق الصابى إلى محمد بن عباس يعزيه عن طفل[3] : تعزية له

الدنيا ، أطال الله بقاء الرئيس، أقدارٌ تَرِدُ فى أوقاتها، وقضايا تَجْرِى إلى غاياتها، ولا يُرَدُّ منهـا شىء عن مَدَاه ، ولا يصدُّ عن مطلبه ومَنْحَاه ؛ فهى كالسهام التى تثبت فى الأغراض ، ولا ترجعُ بالاعتراض ؛ ومن عرف ذلك معرفةَ الرئيس لم يفضْ عن الزيادة ، ولم يَقْنَط من النقيصة، وأمِنَ أن يستخفَّ أحدُ الطرفين حلمه، ويستزل أحدُ الأمرين حَزْمَه، ولم يَدَعْ أن يوطِّن نفسه على النازلة قبلَ نزولها، ويأخذ الأُهْبَة للحادثة أقبل حلولها ، وأن يجاور الخيرَ بالشكر ، ويساور المِحْنَة بالصبر ؛ فيتخيَّر فائدةَ الأولى عاجلا ، ويستمرئ عائدةَ الأخرى آجلا .

وقد نَفَذَ من قضاء الله تعالى فى الولى الجليل قَدْرًا ، الحديث سنًّا ، ماأَرْمَض[4] وأَوْمَض ، وأَقْلَق وأقضّ ؛ ومسنى من التألم له ما يحقُّ على مثلى ممن توافت أيادى الرئيس إليه ، ووجبت مشاركتُه فى الملمّ عليه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وعند الله نحتسبه غُصْناً ذَوى ، وشهاباً خَبَا ، وفرعا دَلّ على أصله ، وخَطِّيا أنبته وَشِيجُه[5] ؛

---

(١) ديوانه : ٥٠٣ . (٢) فى م : إذا لعفت بلادته . (٣) اليتيمة : ٢ـ ٢٢٨ .
(٤) أرمض : أوجع . (٥) الوشيج: اشتباك القرابة .

وإياه أسألُ أن يجعلَه للرئيس فَرَطا صالحا ، وذُخْراً عتيدا، وأن ينفعه يوم الدين حيث لاينفعُ إلا مثلُه بين البنين ، بجوده ومَجْدِه .

ولئن كان المصابُ عظيما، والحادثُ فيه جسيما، لقد أحسن اللهُ إليه، وإلى الرئيس فيه ؛ أمّا إليه فإن الله نزّهه بالاخترام ، عن اقترافِ الآثام ، وصانه بالاحتضار عن ملابسة الأوزار ، فورد دنياه رشيدا ، وصدَر عنها سعيداً ، نقّ الصحيفة من سوادِ الذنوب ، بريّ الساحة من دَرَن العيوب ، لم تدنّسه الجرائرُ، ولم تعلّقْ به الصغائر والكبائر ، قد رفع اللهُ عنه دقيقَ الحساب ، وأسْهَم له الثواب مع أهلِ الصواب ، وألحقه بالصدّيقين الفاضلين في المَعاد ، وبوّأه حيث أفضلهم من غير سَعْيٍ ولا اجتهاد .

وأما الرئيس فإن الله عزّ وجل لما اختار ذلك له قبضَه قبل رؤيته إياه على الحالة التى تكون معها الرقة ، ومعاينته التى تتضاعفُ معها الحُرْقة ، وحَمَاه من فِتْنَة المرافقة ، ليرفقه عن جزع المفارقة ، [وكان هو المبقّى][1] فى دنياه ، وهو الواحدُ الناضى الذخيرة لأخراه ؛ وقد قيل : إن تسلم الجِلّةُ فالسَّخْل[2] هدر ؛ وعزيز علىّ أن أقول قولَ المهوّن للأمر من بعده ، وألّا أوفى التوجّع عليه واجبَ فَقْدِه ، فهو له سلالة ومنه بَضْعة[3] ، ولكن ذلك طريقُ التسلية ، وسبيلُ التعزية ، والمَنْهَجُ المسلوكُ فى مخاطبة مثله ، ممن يقبل منفعة الذكرى وإن أغناه الاستبصار ، وألّا يأبى ورودَ الموعظة وإنْ كَفَاه الاعتبار ، والله تعالى يقى الرئيسَ المصائب ، ويعيذُه من النوائب ، ويرعاه بعينه التى لاتنامُ ، ويجعله فى حِمَاهُ الذى لايُرام ، ويُبْقيه موفورا غير منتقَص، ويقدّمنا إلى السوء أمامه ، وإلى المحذور قدّامه ، ويبدأ بى من بينهم فى هذه الدعوة ، إذ كنت أراها من أسعد أحوالى ، وأعُدُّها من أبلغ أمانِيّى وآمالى .

---

(١) ليس فى ا .

(٢) الجلة ـ بالكسر : المسان من الإبل ، والسخلة بفتح السين : ولد الشاة . وجمعه سخل .

(٣) البضعة : القطعة من اللحم .

وله إلى بعض الرؤساء

وكتب إلى بعض الرؤساء :

قد جرت العادةُ — أطال الله بقاء الأمير — بالتمهيد للحاجة قبل موردها، وإسلاف الظنون الداعية إلى نجاحها، وسالكُ هذه السبيل يسيء الظن بالمسئول؛ فهو لا يلتمسُ فضلَه إلّا جزاء، ولا يستدعي طَوْلَه[1] إلّا قضاء؛ والأميرُ بكرمه الغريب، ومذهبه البديع، يؤثر أن يكون السلفُ له، والابتداء منه، ويوجب للمهاجم برغبته عليه حقَّ الثقة به منه، والحمدُ لله الذي أفرده بالطرائق الشريفة، وتوحّده بالخلائق المُنيفة وجعله عينَ زمانه البصيرة، ولمّته الثاقبة المنيرة .

[من رسائل البديع]

البديع إلى بعض أصحابه

وكتب البديع في بابه إلى بعض أصحابه[2] : لك أعزّك الله عادةُ فضل، في كل فصل، ولنا شِيْمةُ مَقْت في كل وقت؛ ولعمري إن ذا الحاجة مقيت الطَّلْعة، ثقيل الوطأة، ولكن ليسوا سواء[3]؛ [أولو حاجة تحتاج إليهم الأموال، وأولو حاجة تحوجهم الآمال.

والأمير أبو تمام عبد السلام بن الفضل[4] المطيع لله أمير المؤمنين — أيده الله — إن أحوجه الزمانُ فطالما خدمه، وإن أهانه فكثيراً ما أكرمه ونعّمه. وقديماً أقلّه السرير، وعرّفه الخَوَرْنَقُ والسدير. وإن نقصه المال فالعرض وافر، وإن جفاه الملك فالفَضلُ ظاهر، وإن ابتلاه الله فليَبْتَليكم به فينظر كيف تعملون. وأنت تقابلُ مورده عليك من الإعظام بما يستحقّ من الإكرام، فلا تنظرن إلى ثوبٍ بال فتَحْتَه شرفٌ عال، ولا تقس على البُرْدِ ما وراءه من المجد، ولكن إن نظرت ففي شامخ أصله، وراسخ عقله، وشهادة الفراسة له. ثم ليأت بعد هذه الآيات ما هو قضيةُ المروءة معه، والأخوة مني بالغاً في ذلك غاية جهده، والسّيفُ لا يرى في غمده، والحمد لله حق حمده .

---

(١) الطول : النعمة والفضل ، وفي ا : فضله .
(٢) الرسائل : ١٦٠ .
(٣) من هنا إلى صفحة ٨٩٢ من م ، ا .
(٤) في الرسائل : بن جعفر .

وله إلى أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد بن حمزة : لو كانت الدنيا — أطال الله بقاء الشيخ — على مرادى تجرى ، لاخترت أن أضرب بهذه الحضرة أطناب عمرى ، وأنفق على هذه الخدمة أيام دهرى ، ولكن فى أولاد الزنا كثرة ، ولعين الزمان نظرة ، وقد كنتُ حظيت من خدمة الشيخ المحسن بشرعة أُنْس نغّصها بعضُ الوشاة علىّ ، وذكر أنى أقت بطوس بعد استئذانى إلى مَرْو ، وفى هذا ما يعلمه الشيخ ، فإن رأى أن يحسن جبرى بكتاب يطرز به مقدمى فعل إن شاء الله تعالى .

وله فى هذا الباب إلى أبي نصر الميكالى :

الشيخ — أعزه الله — ملك من قلبي مكانا فارغا ، فنزله غير منزل قُلْعَة ، ومن مودتى ثوبا سابغا ، فلبسه غير لبسة خلعة ، ومن نصب تلك الشمائل شبكا ، وأرسل تلك الأخلاق شركا ، قنص الأحرار فاستحثّهم ، وصاد الإخوان واسترقّهم .

وتالله ما يغبن إلا من اشترى عَبْداً وهو يجدُ حرًّا بأرخص من العبد ثمنا وأقلّ فى البيع غبنا ، ثم لايهتبل غرّةَ وجوده ، وينتهز فرصة امتلاكه بجوده ، وأنا أنم للشيخ على بكرمة يتيمة ونعمة وسيمة ، فليمتزل من الرأى ما كان بهيا ، وليطلق من النشاط ما كان عقيا ، وليحلل حبوة التقصير ، وليتجنبْ جانب التأخير ، وليفتض عُذْرَتها وينقض حجّتها وعُمْرتها ، برأى يجذبُ الجد باعه ، ويمر النشاط رباعَه ؛ وتلك حاجةُ سيدى أبي فلان . وقد ورد من الشيخ بجزاء وعقد به جسْراً ، وما عَسُر وَعْدٌ هو مستنجزُه ، ولا بَعُدَ أمرٌ هو منتهزه ، ولا ضاعت نعمةٌ أنا بريد شكرها ، وعزيم نشرها ، وولىّ أمرها ؛ وهذا الفاضل قرارة مائها ؛ وعماد بنائها ؛ وقد شاهدت من ظرفه ما أعجز عن وصفه ، وعرفت من باطنه ما لم يُدْرَ بظاهره ، ورأيتُ من أوله ما نَمَّ على آخره ، ثم له البيت المرموق ، والنسب الموموق ، والأولية القديمة ، والشيمة الكريمة ؛ وقد جَمَعَتْنا فى الود حلقة ، ونظَمَتْنا فى السفر رفقة ، وعرفنى بما أنهض له وفيه ، فضمنت له عن الشيخ كرماً لايغلَق بابه ، وغَدَقاً لايخلف سحابُه ؛ فليخرجنى الشيخ من عهدة هذه الثقة ، زادها إليه تأكدا . وإن رأى أن

أسأل الشيخ فى معناه عرفنى كيف المأتى له ، وإنما أطلْتُ ليعلم صِدْقَ اهتمامى ، وفَرْطَ تقليدى للمنّة والتزامى .

وله جواب عن صنيعة بصاحب هذه المناية : ورد فلان سيدى وهو عينُ بلدتنا وإنسانُها ، ومقلتها ولسانها ؛ فأظهر آيات فضله ، لاجرم أنه وصل إلى الصميم من الإيجاب الكريم ؛ وهو الآن مقيمٌ بين رَوْح ورَيْحان وجنة نعيم، تحيّتُه فيها سلام، وآخر دعواه ذكرك وحسنُ الثناء عليك بما أنت أهله، وأنا أصدقُ دعواه، وأفتخر به افتخار الخصىّ بمتاع مولاه ، وقد عرفته وسنّه ، وكيف يجرى فى البلاغة رَسَنه ، فما ظنك به ؟ وقد ملكتها المجالس ولحظتها العيـــون ، وسلّ صارماً من فيه يميد شكرك ويبديه ، وينشر ذكرك ويطويه ؛ والجماعة تمدحُ لمدحه ، وتجرح بجرحه . فرأيك فى تحفظ أخلاقك التى أثمرت هذا الشكر ، وأنتجت هذه المآثر الغر موفقا إن شاء الله تعالى .

ومن إنشائه(١) فى مقامات الإسكندرى ، قال : حدثنا عيسى بن هشام ، قال : لما تَطَقّنى الغِنى بفاضل ذَيْلِهِ ، اتُّهمت بمال سلَبْتُه ، أو كنز أصبتُه ، فحفزنى الليلُ ، وسرَتْ بى الخيلُ . وسلكْتُ فى هربى مسالِكَ لم يرُضْها السيرُ ، ولا اهتدَتْ إليها الطيرُ ، حتى طويتُ أرضَ الرُّعْبِ ، وتجاوزْتُ حدّه ، وصِرتُ إلى حِمَى الأمنِ ووجدتُ بَرْدَه ، وبلغتُ أذربيجان وقد حفِيَت الرواحلُ ، وأكلَتْهــا المراحل ، ولما بلغتها .

نزلنا على أن المقام ثلاثةٌ فطابَتْ لنا حتى أقمنا بها شهرا

فبينا أنا يوماً فى بعض أسواقِها إذ طلع رجل برُكْوَةٍ(٢) قد اعتضدها ، وعصا قد اعتمدها ، ودنّيـة(٣) قد تَقَلّسَها ، وفوطةٍ قد تطَيْلَسَها ؛ فرفع عقيرته وقال : اللهم يامبدئَ الأشياء ومعيدَها ، ومحيي العظام ومبيدَها ، وخالقَ الصباح ومديره ،

(١) المقامات : ٤٩ ، وهى المقامة الأذربيجانية .

(٢) الركوة : وعاء يجمع فيه ما يحصله . (٣) الدنية : القلنسوة .

وفالقَ الإصباح ومنيره ، وموصِلَ الآلاء سابغة إلينا ، ومُمْسِك السماء أن تقعَ علينا ، وبارئ النَّسَم أزواجا ، وجاعلَ الشمس سراجا ، والسماء سَقْفا ، والأرض فراشا ، وجاعلَ الليــل سكَنا والنهار معاشا ، ومنشئ السحاب ثِقالا ، ومرسل الصواعق نَكالا ، وعالِمَ مافوق النجوم ، وما تحت التخوم . أسألك الصلاة على سيد المرسلين محمد وآله الطاهرين ، وأن تعيذنى على القُربة أثنى حَبْلَها ، وعلى العُسْرَة أعدو ظلَّها ، وأن تُسهِّل لى على يدَىْ مَنْ فَطَرْتَهُ الفِطْرَة ، وأطلَعْته الطُّهْرَة ، وسعد بالدِّين المتين ، ولم يَعْمَ عن الحق المُبين ، راحلةً تَطْوِى هــذا الطريق ، وزاداً يسعى والرفيق .

قال عيسى بن هشام : فناجيتُ نفسى بأن هذا الرجل أفصحُ من إسكندريتنا أبى الفتح . والتفتُّ لفتةً ، فإذا هو أبو الفتح . فقلتُ : يا أبا الفَتْح ؟ بَلَغ هذه الأرض كيدُك ، وانتهى إلى هذا الشِّعْبِ صيدك ، فأنشأ يقول :

أنا جَوَّالةُ البلا ... دِ وجَوَّابةُ الأُفُقْ
أنا خُذْروفةُ الزما ... نِ وعَمَّارةُ الطُّرُقْ
لا تَلُمْنِى لك الرشا ... دُ على كُدْيَتى وذُقْ

وقال الطرماح بن حكيم :

وما أنس مِ الآشياء لاأنس بيعةً ... من الدهر إذ أهل الصفاء جَميعُ
وإذ دهرنا فيــه اعتزاز وطَيْرُنَا ... سَواكِنُ فى أوكارهنّ وقُوعُ
فهل لليالينــا بنعف مليحة ... وأيامهن الصالحات رُجوعُ
كأن لم يرعك الظاعنون إلى بِلًى ... ومثل فراق الظاعنين يَرُوعُ][1]

[الشباب والمشيب]

لعلى بن محمد العلوى

وقال على بن محمد [بن الحسن][2] العلوى :

واهاً لأيام الشبا ... بِ وما لَبِسْنَ من الزخارفْ

(١) من صفحة ٨٨٩ إلى هنا من ١ ، م . (٢) ليس فى ١ .

وذهابهن بما[1] عرفـــــنَ من المذاكر والمَعارِف
أيام ذكرك في دوا وين الصِّبا مسطورُ الصحائف
واهاً لأيامي وأيـ ـام الشبيبات المراشِفْ
الغارسات البان قُضْـ ـباناً على كُثُبِ الرَّوادِفْ
والجاعلاتِ البَدْرَ ما بين الحواجبِ والسوالِف
أيام يُظهِرْنَ الخلا ف بغير نيَّات المخالِفْ
وقف النعيم على الصِّبا وزللت من تلك المواقِف

وقال ابن المعتز :

لابن المعتز

دَعَتْنِي إلى عهد الصِّبا رَبَّةُ الخدرِ وألقت قناعَ الخزِّ عن وَاضح الثَّغْرْ
وقالت وماء العين يخلطُ كُحْلَها بصُفْرَة ماء الزعفران على النَّحْرِ
لمن تطلبُ الدنيا إذا كنت قابضاً عنانك عن ذات الوشاحين والشَّذْرِ
أراك جعلتَ الشيبَ للهَجْرِ عِلَّةً كأنَّ هلال الشهرِ ليس من الشهرِ .

وقال [أحمد بن أبي طاهر][2] :

لأحمد بن أبي طاهر

يا من كَلِفت بحبِّهِ كلِّفني بكاسات العُقار
وحياة ما في وجنتيـ ـك من الشقائق والبَهار
وولوع رِدْفك بالترجـ ـرج تحتَ خَصْرك في الإزار
ما أن رأيت لحسن وجـ ـهك في البريَّة من نِجار
لما رأيت الشيب من وجهي بما يحكي الخمار[3]
[قالت غبار قد علا ك فقلت ذا غير الغبار
هذا الذي نقل الملو ك إلى القبور من الديار][4]

(١) في ا : وركابهن لما . (٢) زيادة من م ١٠ . (٣) رواية البيت في م :
ولقد رأيت خفية مسحت مشيبي بالخمار
(٤) من م .

قالت ذهبتَ بحجّتي … عني بحسن الإعتذار
يا هذه أرأيت لـيـ … لًا مذ خلقتِ بلا نهار

لخالد الكاتب

وقال خالد الكاتب(١) :

نظرتْ إليَّ بعين من لم يَعْدلِ … لما تمكّن طرْفُها من مقتلي
لما رأتْ شيباً ألمّ بمفرقي … صدّتْ صدودَ مفارقٍ متحمّلِ(٢)
وظللتُ أطلب وصْلَها بتملّقٍ … والشيبُ يغمزها بألاّ تفعلي

لابن الرومي

وقال ابن الرومي(٣) :

كفى حزَناً أن الشباب معجّلٌ … قصيرُ الليالي والمشيبُ مخلّدُ
وعيّرك الدهر ليل الشبابِ معاشرٌ … فقالوا نهارُ الشيبِ أهدى وأرشدُ
فقلت: نهارُ المرء أهدى لسعيهِ … ولكنّ ظلّ الليلِ أندى وأبردُ
محارُ الفتى شيخوخة أو منيّة … ومرجوعُ وهّاجِ المصابيح رِمْدِدُ(٤)

وقال :

كان الشبابُ وقلبي فيه منغمسٌ … في لذة لستُ أدري ما دواعيها
روْحٌ على النفس منه كاد يبْرُدُها … برْدَ النسيم ولا ينفكُّ يحييها
كأن نفسيَ كانت منه سارحةً … في جنّةٍ باتَ ساقي المُزْنِ يسقيها
يمضي الشبابُ ويبقى من لُبانته … شجْوٌ على النفس لا ينفكُّ يُشجيها
ما كان أعظم عندي قدْرَ نعمته … لنفسه لا لحلم كان يُصبيها(٥)
ما كان يُوزَنُ(٦) إعجابُ النساء به … والنفسُ أوجب إعجاباً بما فيها

---

(١) النويري : ٢ — ٢٧ ، اللآلئ : ٣٣١ . (٢) رواية البيت في النويري :

لما رأت وضح المشيب بعارضي … صدت صدود مجانب متحمل

وفي ا : متجمل. (٣) ديوانه : ٣٩٢ . (٤) في هامش م : المحار : المرجع. وفي ا : مرمد . (٥) رواية البيت في م :

ما أعظم عندي قدر نعمته … لنفسه ولا لحلم كان يصبيها

(٦) في ا : يؤذن .

وقال[١] :

إذا مارأتك البِيض صدّت وربما ... غدوتَ وطَرْفُ البِيضِ نحوك أَصْوَر[٢]

وما ظَلَمتْك الغانياتُ بصدّها ... وإن كان فى أحكامها مايجوّر

أعِرْ طَرْفك المرآة وانظر فإن نَبا ... بعينيك عنك الشيبُ فالبِيضُ أعذر

إذا شَنِئت عينُ الفتى شَيْب[٣] نفسه ... فعَيْنُ سِوَاه بالشناءة أَجْدَر

الكشاجم

وقال كشاجم :

وَقَفَتْنِى ما بين حَزْنٍ وبُؤس ... وثَنَتْ بَمَدّ ضحْكَةٍ بعُبوسِ

إذْ رأتنى مشَطّتُ عاجًا بعاج ... وهى الآبنوس بالآبنوس

لأبى نواس

وقال[٤] أبو نواس :

بكرت تبصّرنى الرّشادَ كأننى ... لا أهتدى لمذاهب الأبرارِ

وتقول: وَيْحكَ قد كبرت عن الصِّبا ... ورَمَى الزمانُ إليك بالأعْذَار

فإلى متى تَصْبُو وأنت متيَّمٌ ... متقلِّبٌ فى راحةِ الإقتار

فأجَبْتُها إنى قد عرَفْتُ مذاهبى ... فصرَفْتُ معرفتى إلى الإنكارِ

لأحمد الكاتب

وقال أحمد بن زياد الكاتب[٥] :

ولما رأيتُ الشيبَ حلّ بياضُهُ ... بمَفْرَقِ رأسى قلت: أهلا ومرْحَبَا

ولو خِلت أنى إن تركت تحيتى ... تنكَّبَ عنى رُمْتُ أنْ يتنكبا

ولكن إذا ماحلّ كرْهٌ فسامحت ... به النفسُ يوما كان للكُرْه أذْهَبَا

كأن هذا البيت ينظر إلى قول الأول :

وجاشت إلىّ النفسُ أول مرةٍ ... فردّتْ إلى معروفها فاستقرّتِ

---

(١) البيتان : الثالث والرابع فى ديوانه : ٤٤٠ . (٢) أصور : مائل .

(٣) فى الديوان : وجه نفسه . (٤) فى ط : وقال أيضا . (٥) المختار من شعر بشار : ٣٣٩ ، الحماسة : ٤٩٨ ، ديوان المعانى : ٢ـ١٥٧ .

المتنبي

أبو الطيب(١) :

أنْكَرْتُ طارِقَةَ الحوادثِ مرةً ثم اعترفْتُ بها فصارتْ دَيْدَنَا

لابن الرومي

ابن الرومي(٢) :

لاح شَيْبِي فَصِرْتُ أمْرَحُ فيهِ مَرَحَ الطِّرْفِ في العِذَارِ المحلَّى
وتولَّى الشباب فازددتُ غَيًّا في ميادين بَاطِلِي إذ تولَّى
إنَّ مَنْ ساءه الزمانُ بشيء لأحقَّ الوَرَى بأن يتسلَّى

المتنبي

[المتنبي :

أتَرانِي أسوءُ نفسي لمّا ساءَني الدهرُ؟ لا، لعمريَ، كلاَّ](٣)

المتنبي(٤) :

تَصْفُو الحياةُ لجاهِلٍ أو غافلٍ عمّا مضَى فيهـا وما يُتوقَّعُ
ولِمَنْ يُغالطُ في الحقائق نفسَه ويَسومها طلبَ المُحال فَيطمعُ

البحتري

[البحتري(٥)] :

ويكفيك من حَقٍّ تخيّل باطل تردّى به نفسُ اللَّهيف فترجعُ

وقلما تصحُّ مغالطات أهـــل العقول عند أهل التحصيل ، وما أحسن ما قال

لأبي تمام

الطائي(٦) :

لعِبَ الشيبُ بالمَفارِقِ بل جدّ فأبكى تُماضرًا ولعوبا(٧)
يا نسيبَ الثَّغام(٨) ذنبُك أبقى حسناتي عند الحسان(٩) ذُنُوبا

---

(١) ديوانه : ٤–١٩٧ . (٢) ديوانه : ٢٦ . (٣) ليس في ديوانه المطبوع بأيدينا وهو ليس في م ، ولا ا . (٤) هكذا في ا ، م ، وفي ط : البحتري ، وهما في ديوان المتنبي : ٢–٢٦٩ . (٥) زيادة من ا ، ليست في ط ، والبيت في ديوان البحتري : ٨٧ .

(٦) ديوانه : ٢٥ . (٧) تماضر ولعوب : من أسماء النساء كما في الديوان .

(٨) الثغام : نبت أبيض الثمر والزهر ، يشبه به الشيب .

(٩) في الديوان : عند الغواني .

لو رأى الله أنّ فى الشيب فضلا   جاوَرَتْه الأبرار فى الخلد شيبا

وقد جاء فى التشاغل عن الدهر وأحداثه، ونكباته، ومصائبه، وفجعاته، والتسلى عن الهموم، بماء الكروم شعر كثير؛ فما يتعلق منه بذكر الشيب قول ابن الرومى: لابن الرومى

سأُعرِضُ عمّن أعرض الدهرُ دونهُ   وأشربها صِرْفًا وإن لامَ لُوَّمُ
فإنى رأيت الكأس أكرمَ خُلّةً   وفَتْ لى ورأسى بالمشيب معمَّمُ
وصلّت فلم تبخلْ علىّ بوصلها   وقد بخِلَتْ بالوصل عنى تَكَتّمُ(١)
ومن صارمَ اللذات إن خان بعضها   ليُرْغِمَ دهرا ساءهُ فهو أرغم
أمِنْ بعد مثوى المرء فى بطن أمه   إلى ضيق مَثْواه من القبر يسلَم
ولم يَبْقَ بين الضيق والضيق فُرجة   أبى الله! إنّ اللهَ بالعبد أرحم!

وقال النطوى: للنطوى

أعجبتْنى إن أناخ بىَ الدهـــــر فكاكُه إلى الأقداحِ
لا تَرُدّ الهموم يَغْشَيْنَ أطفا   رأ حِدادا بشُرْبِ ماء قراح
أحمد الله، صارت الكأسُ تأسو   دون إخوانى الثقاتِ جراحى

وقال ابن الرومى [ونحلَهُ بشارا](٢):

وقد كنت ذا حالٍ أطيلُ ادّكارها   وإرعاءها قلبى لأهتزّ معجبا
فبدّلْتُ حالا غير هاتيك، غايتى   تناسىَ ذكرها لتغرُبَ مَغْرِبا
وكنت أُدير الكأس ملأى رَوِيّةً   لِأجذلَ مسرورا بها ولأطربا
وكانت مزيدًا فى سرورى ومُتْعتى   فأضحَتْ مَفَرًّا من هموى ومَهْرَبا

وهذا كما قال فى قينة وإن لم يكن من هذا الباب(٣):

شاهدت فى بعض ما شاهدت مُسْمِعَةً   كأنما يومُها يومان فى يوم

(١) فى ا: وقد جعلت بالوصل تكنى وتكتم (٢) من م ١٠١. (٣) ديوانه: ٤٢٧

ظللتُ أشربُ بالأرطال لا طَرَباً ... بذاك بل طلبا للسُّكْرِ والنوم

ومن مليح شعره فى الشيب[1] :

ومِنْ تَـكَدرِ الدنيا إذا ماتنكرتْ[2] ... أمورٌ ـ وإنْ عُدّت صِغَاراً ـ عظائم

إذا رمت بالمنقاش نَتْفَ أشاهبى ... أُتيحَ لَهُ مِنْ بينهن[3] الأداهمُ

يروّعُ منقاشى[4] نجوم مسائحى ... ومنّ لتَيْبى طالعاتٌ نَواجمُ

كشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم :

أخى قُمْ فعاوِنّى على نَتْفِ شَيْبَةٍ ... فإنّىَ منها فى عذاب وفى حَرْبِ

إذا ما مضى المنقاش يأتى بها أتتْ ... وقدأخذت من دونها جارة الجَنْب

كجانٍ على السلطان يُجْزَى بذَنْبِهِ ... تَعَلّق بالجيرانِ من شدّةِ الرعبِ

وقدوشّحتهذا الكتاب بقطع مختارة فى الشيب والشباب وجئتُ هاهنا بجُمْلة، وهذا النوع أعظم من أن نحيط به اختيارا ، أو نبلغه اختبارا .

شذور لأهل العصر فى وصف الشيب ومدحه وذمه .

ذَوَى غُصْنُ شبابه ، وبدت فى رأسه طلائع الشيب . [أخذ الشيب بِعِنَان شبابه][5] . غزاه الشّيْب بجيوشه . طرّز الشيبُ شبابَه ، أقمر ليلُ شبابه .

ألجمه بلجامه ، وقاده بزمامه ، علاه غبارُ وقائع الدهرِ . وزنُ هذا لابن المعتز * هذا غبارُ وقائع الدهر * بينا هو راقد فى ليــل الشباب أيقظه صبحُ الشيب . طوى مراحلَ الشباب ، وأنفق عمره بغير حساب . جاوز من الشباب مراحل ، ووردَ من الشّيْبِ مناهل . فَلّ الدهرُ شبا شبابه ، ومَحا محاسنَ رُوَائه . قضى باكورة الشباب، وأنفق نَضَارَةَ الزمان .

أخْلَق بُرْدةَ الصِّبا ، ونهاه النهى عن الهوى . طار غرابُ شبابه. انتهى شبابه ،

---

(١) ديوانه : ٢٠٩ .   (٢) فى ا : تـكدرت .   (٣) فى الديوان : من دونهن .

(٤) فى الديوان ، م : يرواغ منقاشى .   (٥) من م ، ا .

انتهى شبابه ، وشاب أترابه . استبدل بالأدهم الأبلق ، وبالغراب العَقْعق[1] . انتهى إلى أَشُدّ الكهل[2] ، واستعاض من حَلَك الغراب بقادمة النَّسر . افترّ عن ناب القارح ، وقرع نَاجِذَ الحلم ، وارتاضَ بلجام الدَّهر ، وأدرك عصر الحُنْكة وأوان المسكة[3] . جمع قوّةَ الشباب إلى وَقَارِ الشيب . أسفر صبح الشيب ، وعَلَتْه أُبهة الكِبَر . خرج عن حدّ الحداثة ، وارتفع عن غِرّةِ الغَرارة . نَفَض حبرة الصبا ، وولّى داعية الحجا . لما قام له الشيب مقامَ النصيح ، عدل عن علائق الحداثة بتَوْبة نَصُوح .

الشيب حِلْية العقل وشيمة الوقار . الشيب زبدةٌ مَخَضَتْها الأيام ، وفِضّة سبكتها التجارب . سرى فى طريق الرُّشد بمصباح الشَّيب . عصى شياطين الشباب ، وأطاع ملائكة الشَّيْب .

الشيخ يقول عن عِيان ، والشاب عن سَماع . فى الشيب استحكام الوَقار وتناهى الجلال ، ومِيْسَم التجربة ، وشاهد الحُنْكة . الشيب مُقَدّمة الموت والهَرَم ، والمؤذِن بالخَرَف ، والقائد للموت . الشيبُ رسول المنية . الشيب عُنْوَان الفساد . والموت ساحل ، والشيبُ سفينة تقرب من الساحل . صفا فلان على طول العمر ، صفاء التِّبْر على شغب[4] الجمر .

لقد تناهت به الأيامُ تهذيبا وتحنيبا ، وتناهت به السّنُّ تجريباً وتحنيكا . قد وعظه الشَّيْبُ بوَخْطِه ، وخَبَطه[5] السن بأنيابه وسَبْطه ، قد تضاعفت عقودُ عمره ، وأخذت الأيام من جسمه . وجد مسّ الكِبر ، ولحقه ضَعْفُ الشيخوخة ، وأسا إليه أثر السنّ ، واعتراض الوَهن . هو من ذوى الأسنان العالية ، والصحبة للأيام الخالية . هو هِمٌّ هَرِم ، قد أخذ الزمانُ من عَقْله ، كما أخذ من عمره .

ثَلَمَه الدهر ثَلْمَ الإناء ، وتركه كذى الغارب المنكوب . والسَّنام المجبوب . وماه من قوسه الكِبَرُ . أُريق ماء شبابه ، واستشنّ أديمه . كسر الزمان جناحَه ،

(١) العقعق : طائر أبلق بسواد وبياض ، يشبه صوته العين والقاف . (٢) فى م : الكمال .
(٣) المسكة : ما يمسك الأبدان ، والعقل الوافر . (٤) فى ط : مقت ، وفى م : مقب .
(٥) فى م ، ا : وخطبه .

ونقض مِرّته . طوى الدهرُ منه ما نشر ، وقيّده الكبر ، يرسف رسفان المقيّد، هو شيخ مجتثّ الجثّة ، واهي المُنّة ، مفلول القوة، ومفلول[1] الفتوة ، ثقُلت عليه الحركة، واختلفت إليه رُسل المنيّة . ما هو إلا شمسُ العصر على القصر ، أركانه قد وهَت ، ومُدّته قد تناهت . هل بعد الغاية منزلة ، أو بعدَ الشيب سوى الموت مرحلة ؟ ماالذي يُرْجَى ممن كان مثله في تماجز الخُطا ، وتخاذُل القُوَى ، وتداني المدى ، والتوجّه إلى الدار الأُخرى ، أبعد دِقّة العظم ، ورِقّة الجلد ، وضَعْف الحسّ ، وتخاذل الأعضاء ، وتفاوت الاعتدال ، والقُرْب من الزوال .

والذي بقي منه ذَمَاء يَرقُبه المَنُون بمَرْصَد ، وحُشاشة هي هَامَة اليوم أو غد . قد خَلق عمره ، وانطوَى عيشُه، وبلغ ساحلَ الحياة، ووقف على ثَنِيّة الوداع، وأشرف على دار المقام ، فلم يبق إلا أنفاسٌ معدودة، وحركات محصورة . نَضب غديرُ شَبابه.

فقر لغير واحد في ذكر المشيب

قيس بن عاصم : الشيبُ خطام المنية . أكثم بن صيفي : الشيب عنوان الموت . الحجاج بن يوسف : الشيبُ نذير الآخرة . غيره : الشيبُ توءمُ الموت . العتبي: الشيبُ مجمع الأمراض . العتابي : الشيبُ نذير المنيّة . محمود الوراق : الشيبُ أحد الميتتين .

ابن المعتز : الشيبُ أوّل مواعد الفَناء . وقال : عظِّم الكبير فإنه عرَف الله قبلك، وارْحَم الصغير فإنه أغرُّ بالدنيا منك. غيره: الشيب قِناعُ الموت. الشيب غمامٌ قَطْرُه الغموم.

الشيبُ قذَى عين الشباب . نظر سليمان بن وهب في المرآة فرأى الشيب ، فقال : عَيْبٌ لا عدمناه ! وقيل لأبي العيناء : كيف أصبحت ؟ فقال : في داء يتمناه الناس!

ابن المعتز :

أنكرَتْ شرّ مشيبي وولّتْ ... بدموع في الرداء سجُوم

اعذري يا شرّ شيبي بهمّ ... إنّ شيبَ الرأسِ نورُ الهموم

مسلم بن الوليد[2] :

---

(١) في ا وهامش م : معلول . (٢) المختار من شعر بشار : ٣٣٧ ، اللآلي : ٣٣٤ ، النويرى : ٢ — ٢٢ .

الشَّيبُ كُرهٌ وكُرهٌ أن أفارقَهُ   أَعْجِبْ لشيء على البغضاء مودودِ
يَمْضِي الشبابُ فيأتي بعده[1] بدلٌ   والشيبُ يذهبُ مفقوداً بمفقود

وقال آخر :

لو أنَّ عُمْرَ الفتى حِسابٌ   كانَ له شَيْبُه فَذَلِكْ[2]

وقال بعضهم[3] :

ولي صاحبٌ ما كنتُ أهوى اقترابَهُ   فلمَّا التقينا كان أكرَمَ صاحبِ
عزيزٌ علينــا أنْ يفارقَ بعد ما   تمنَّيتُ دهراً أن يكونَ مُجانبي

يعني الشيب ، يقول : لم أكن أشتهي اقترابه ، فلمّا حلّ كان أكرم صاحب ، عزيزٌ عليّ مجانبته ؛ لأنه لا يجانَبُ إلا بالموت .

أبو إسحاق الصابي :

والعمرُ مثــلُ الكأس يَرْ   سب في أواخرها القَذَى

أبو الفضل الميكالي[4] :

أَمْتِعْ شبابَك من لَهْوٍ ومن طرَبٍ   ولا تُصِخْ للامٍ سَمْعَ مُكْتَرِثِ
فخيرُ عُمْرِ[5] الفتى ريعــانُ جِدَّتِهِ   والعمرُ من فضة والشيبُ من[6] خَبَثِ

وفي ذكر الخضاب ـ الخضاب أحدُ الشبابين ـ عبدان الأصبهاني[7] : في ذكر الخضاب

في مشيبي شَماتةٌ لِعُــداتي   وهو ناعٍ منغِّصٌ لي[8] حياتي
ويعيب الخِضابَ قَوْمٌ وفيهِ   ليَ أُنسٌ إلى حضور وَفاتي
لا ومن يعلم السرائرَ أني   ما تطلَّبت خُلَّةَ الغانيات[9]
إنما رُمْتُ أن يغيب عني   ما تُرِينيه كلَّ يوم مِرآتي

---

(١) في المختار : وقد يأتي له خلف .   (٢) في ط : عذايا .
(٣) المختار من شعر بشار : ٣٣٧ .   (٤) اليتيمة : ٤ ـ ٣٥٠ .
(٥) في اليتيمة : فخير عيش .   (٦) في اليتيمة : كالخبث .
(٧) النويري : ٢ ـ ٢٩ ، وفي ط : الأصفهاني .   (٨) في النويري : لحياتي .
(٩) في النويري : ما به رمت خلة الغانيات ، وفي ط : حلية .

وهو ناعٍ إليَّ نفسي ومَنْ ذا　　　سرَّهُ أن يرى وجوهَ النُّعاة

ابن المعتز[١] :

رأت شيبةً قد كنتُ أغفلتُ قصَّها　　　ولم تتعهَّدْها[٢] أكُفُّ الخَواضبِ

فقالت أشَيْبٌ ما أرى ؟ قلتُ : شامةٌ　　　فقالت : لقد شانَتْكَ عند الحبائب

الأمير أبو الفضل الميكالى[٣] :

قد أبَى لى خِضَابَ شَيْبى فؤاد　　　فيه وجد[٤] بكَتْمِ سِرِّى وَلوع

خافَ أنْ يُحدثَ[٥] الخضابُ نُصُولا　　　ونصولُ الخِضاب شىءٌ[٦] بَديع

وقالوا : الخضاب من شهود الزور ، والخضاب حدادُ الشيب . [إن خضب الشعرُ][٧] فكيف يخضب الكِبَرَ . الخضاب كفنُ الشيب .

ابن الرومى :

ليس تُغْنِى شهادةُ الشَّعَر الأسـ　　　ـود شيئاً إذا استشنَّ الأديمُ

أفيرجـو مسوِّدٌ أنْ يزكى　　　شاهد الخضب ؟ أين[٨] ضلَّ الحليمُ !

لا لعمرى ما للخضاب لدَى الأبْـ　　　ـصار إلا التكذيبُ والتأثيم

يدَّعى للكبير شَرْخَ شبابٍ　　　قد تولَّى به الشبابُ القديمُ

والسوادُ الدَّعِىُّ أوْجَب تكذيباً　　　إذا كذَّب السوادَ الصميمُ

وله أيضا فى هذا المعنى :

كما لو أردنا أنْ نُحِيلَ شبابنا　　　مَشِيبا ولم يَأْتِ الشيبُ تعذَّرا

كذلك يُمْنِعنا إحالةُ شيبنا　　　شباباً إذا ثوبُ الشبابِ تحسَّرا

أبى الله تدبيرَ ابْنِ آدم نفسه　　　وأنَّى يكونُ العبدُ إلّا مُدَبَّرا

---

(١) ديوانه : ١٣٦ .　　(٢) رواية الديوان :

رأت طالعا للشيب أغفلت أمره　　　ولم تتعهده . . . . . .

(٣) اليتيمة : ٤ ـ ٣٥٠ .　　(٤) فى ط : مراد حدائقى .　　(٥) فى اليتيمة : يعقب .

(٦) فى اليتيمة : سير بديع .　　(٧) زيادة من م و ا .　　(٨) فى ا : إن ضل .

وقال[١] :

قل للمسوِّد حين شيّب : هكذا ... غِشُّ الغَوَاني في الهوَى إيّاكا
كذب الغواني في سوادِ عِذَارِهِ ... فكذَبْتَه في وُدِّهنّ كذاكا
هيهات غرّك أن يُقال غرائرٌ ... أيّ الدواهي غيرهنّ دهاكا
لا تحسبن خدعتهنّ بحيلةٍ ... بل أنتَ ويحك خادَعَتْكَ مُنَاكا

وقال أبو الطيب المتنبي[٢] :

ومِنْ هَوَى كلّ مَنْ ليستْ مُمَوّهة ... تَرَكْتُ لونَ مَشِيبي غيرَ مخضوبِ
ومِنْ هوى الصدقِ في قولي وعادتهِ ... رغبتُ عن شَعَرٍ في الوجهِ مكذوبِ
ليتَ الحوادثَ باعَتْنِي الذي أخذَتْ ... مِنّي بحِلْمِي الذي أعطتْ وتجريبي
فما الحداثةُ مِنْ حِلْمٍ بمانعةٍ ... قد يوجد الحلْم في الشبانِ والشيبِ

غيره :

يا خاضبَ الشيبِ بالحنّاء يَسْتُرُهُ ... سَلِ الإلهَ[٣] له سِتْراً من النارِ

وقد سلك أبو القاسم مسلكاً طريفاً في قوله :

أَفْدِي القاضِبَةَ التي أَتْبَعْتُها ... نَفَساً يشيّعُ عِيسَها إذْ آبا[٤]
والله لولا أنْ يسفهني الصِّبَا[٥] ... ويقولَ بعضُ القائلين تَصَابَى
لكسرتُ دُمْلُجَها لضيق عِناقهِ ... ولثَمْتُ من فِيهَا البرود رُضابا
بِنْتُم فلولا أن أُغيّرَ لِمّتي ... عبثاً[٦] وألقاكم عليّ غضابا
لخضبتُ شَيْباً في عِذَارِي كامناً ... ومحوتُ محْوَ النقْسِ منه شَبابا[٧]
وخلعته خَلْعَ النجاد مذمماً ... واعتضت من جلبابه جلبابا

---

(١) ديوانه: ١٣٢ ، النويرى : ٢ــ٣١ . (٢) ديوانه : ١ ــ ١٦٩ ، النويرى: ٢ــ٣١
(٣) ف ١ : لليك . (٤) ف ١ : ما آبا . (٥) ف ١ : الهوى .
(٦) ف ١ : عبثا . (٧) رواية هذا البيت في م ، ١ :

لخطت شيبا في عذارى كاذبا ... ومحوت محو النقس عنه شبابا

وَلَبِستُ بِبِيضِ الحِدَادِ عليكُمُ ... لو أنني أَجِدُ البياضَ خِضَابا
وإذا أردتَ إلى المشيب وفادة ... فاجعل إليه مطيَّكَ الأحقابا
فلتأخذَنَّ من الزمان حمامة ... ولتدفعَنَّ إلى الزمانِ غُرَابا
ماذا أقول لِرَيبِ دَهْرٍ خائن ... جَمَعَ العِدَاةَ وفرَّق الأحبابا

[الوليد غلبت عليه لذاته]

وقيل للوليد بن يزيد بن عبد الملك لَمَّا غلبت عليه لذَّاته ، وملكته شهواته : يا أميرَ المؤمنين ؛ إن الرعية ضاعت بتضييعك أمرَها ، وتركك ما يجب عليك من مصلحتها . فقال : ما الذى أغفلناه من واجب حقِّها ! وأسقطناه من مفروض ذِمَامِها ؟ أمَا كَرمُنا دائم ، ومعروفُنا شامل ، وسلطانُنا قائم ؛ وإنما لنا ما نحن فيه ، بُسِط لنا فى النعمة ، ومُكِّن لَنا فى الكرمة ، وأذلت لنا الأمة ، ومُدَّ لنا فى الحُرمة ، فإن تركتُ ما به وسع ، وامتنعت عما به أنعم ، كنت أنا المزيل لنعمتى بما لا ينال الرعيةَ ضرّه ، ولا يؤودهم ثقله . ياحاجب ، لا تأذَنْ لأحد فى الكلام .

قتل الوليد

وقال عمرو بن عتبة للوليد بن يزيد وكان خاصا به : يا أمير المؤمنين ؛ أنطقتنى بالأُنس وأنا أسكت بالهَيْبة ، وأراك تأمرنا بأشياء أنا أخافُها عليك ، أفأسكت مطيعاً أم أقول مشفقاً ؟ قال : كلٌّ مقبولٌ منك ، معلوم فيه ثقتك ؛ ولله فينا عِلْمُ غيب نحن صائرون إليه ! وتعود فتقول . فقتل الوليد بعد ذلك بشهر .

[مع الحجاج]

عبد الملك والحجاج

وقال عبد الملك بن مَرْوان للحجاج : إنى استعملتُكَ على العراق(١) ، فاخْرُج إليها كَمِيشَ الإزار(٢) ، شديد الغِرَار ، قليل العِثَار ، مُنْطَوِى الخَصِيلة ، قَليلَ الثَّمِيلة(٣) ، غرار النوم ، طويل اليوم ، واضغط الكوفة ضَغْطة تَحْبِق منها البصرة .

---

(١) فى ا : على الخراج . (٢) رجل كميش الإزار : مشمره .

(٣) الخصيلة : لحم الفخذين والعضدين والذراعين ، الثميلة : البقية من الطعام والشراب فى البطن .

الحجاج وجامع المحاربي

وشكا الحجاجُ يوما سوء طاعةِ أهـــل العراق[١] ، وسقم مذهبهم ، وسخط طريقتهم ، فقال له جامع المُحَارِبي: أما إنهم لو أحبّوك لأطاعوك، على أنهم ماشنِئوك[٢] لبلدك ، ولا لذاتِ يَدِك ، إلا لِمَا نَقَمُوه من أفعالك ؛ فدَعْ ما يُبْعِدهم عنك إلى ما يدنيهم منك ، والتمس العافيةَ ممن دونك تُعْطَها ممن فوقك ، وليكن إيقاعُك بعد وعيدك ، ووعيدُك بعد وَعْدك ثلاثاً .

فقال له الحجاجُ : والله ماأرى أن أردَّ بنى اللَّخْنَاء[٣] إلى طاعتى إلا بالسيف . فقال جامع : أيها الأمير ؛ إنَّ السيفَ إذا لاقى السيف ذهب الخيار . قال الحجاج : الخيارُ يومئذ لله . قال جامع : أجل ، ولكن لاندرى لمن يجعله الله .

فغضب الحجاج وقال : ياهناه ؛ إنك من محارب ، فقال جامع :

وللحرب سُمّينا وكنا مُحَارِباً إذا ما القَنَا أمْسَى من الطعن أحمرا

فقال له الحجاج : والله لقـــد هممتُ أن أخْلع لسانك ، فأضربَ به وجهك . فقال جامع : إن صَدَقْنَاك أغضبناك ، وإن كذَبْنَاك أغضبْنا الله . فقال الحجاج : أجل ، وسكن سلطانُه[٤] ، وشُغِل ببعض الأمر ، وخرج جامع وانسلَّ من صفوف الناس[٥]، وانحاز إلى جبل العراق .

وكان جامع لَسِنا مُفَوّها ، وهو الذى يقولُ للحجاج حين بنى واسطا : بَنَيْتَها فى غير بَلدك ، وأورثتها غَيْرَ ولدك .

وكان الحجاجُ من الفصحاء البلغاء ، ويقال : ما رُئى حضَرى أفصح من الحجاج ومن الحسن البصرى . وكان يحبُّ أهل الجهارة والبلاغة ، ويؤْثرهم ويقربهم .

الحجاج وابن القرية

ولما دخل أيوب[٦] بن القِرِّية على الحجاج ، وكان فيمن أسر من أصحاب عبـــد الرحمن بن الأشعث بن قيس الكندى قال له : ما أعددتَ لهذا الموقف ؟ قال : ثلاثة

---

(١) عيون الأخبار : ٢ــ٢١٢ . (٢) ف ١ : ماشنئوك . (٣) ف ١ : الكماء .
(٤) ف ١ : ما به . (٥) ف ١ : الشام .
(٦) وفيات الأعيان ١ ــ ٨٣ ، البيان والتبيين ١ ــ ١٨٩ ، الطبرى : ٨ ــ ٣٧ .

حروف[1] ، كأنّها رَكْب وُقوف : دُنْيا ، وآخرة ، ومعروف .

فقال له الحجاج : بئسما مَنَّيْتَ به نفسك يابْنَ القِرِّيّة ، أتراني ممن تخدعُه بكلامك وخُطبك ؟ والله لأنت أقربُ إلى الآخرة من موضع نَعْلي هذه .

قال : أقِلْني عَثْرتي ، وأسِغْني رِيقي ، فإنه لابدّ للجواد من كَبْوة ، والسيف من نَبْوَة ، والحليم من صَبْوَة .

قال : أنت إلى القبر أقربُ منك إلى العفو ، ألستَ القائل وأنت تحرّض حِزْبَ الشيطان ، وعدوّ الرحمن : تغدّوا بالحجاج قبل أن يتعشّى بكم ! وقد رُويت هذه اللفظة للغَضْبان بن القَبَعْثَرى . ثم قدمه فضرب عنقه .

قال الطُّرَيْحي لأبي دُلَف ــ وأخذه من قول ابن القِرِّيّة :

له كَلِمٌ فيك معقولةٌ ... إزاءَ القلوب كرَكْبٍ وقوفْ

الحجاج وكثير

وبعث الحجاجُ إلى عامله بالبصرة : اخْتَرْ لي عشرة من عندك . فاختار رجالا فيهم كثير بن أبي كثير ، وكان عربيًّا فصيحا ، فقال كثير : ما أراني أفْلِت من يد الحجاج إلا باللَّحْن ، فلما دخلنا عليه دعاني فقال: ما اسمُك ؟ فقلت: كثير . قال: ابن مَنْ ! فقلت في نفسي : إن قلتُ ابن أبي كثير لم آمن أن يتجاوزَها ، قلت : ابن أبا كثير : فقال : اعزب لعنك الله ولعن مَنْ بعث معك !!

[من المديح]

النابغة الذبياني

وقال النابغة الذبياني يمدح آل جَفْنَة[2] :

وللهِ عَيْنَا من رأى أهْلَ قُبَّةٍ ... أضرَّ بمن عادى وأكثر نافعا

وأعْظَمَ أحلاماً وأكثر سيّداً ... وأفضل مشفوعاً إليه وشافعا

متى تَلْقَهُم لا تَلْقَ للبيت عورةً ... فلا الضيف ممنوعا ولا الجارُ ضائعا

---

(١) في ط ، م : صفوف .   (٢) ديوانه : ٧٤ ، ماعدا الثالث .

النابغة الجعدى

وأنشد محمد بن سلام الجمحى للنابغة الجعدى[١] :

فتى كَمُلَتْ أخلاقُه[٢] غيرَ أنهُ　　جوادٌ فما يُبْقِى من المـال باقيا

فتى تم فيه ما يَسُرُّ صديقَهُ　　على أنَّ فيه ما يسوء الأعاديا

[أشم طويل الساعدين شَمَرْدَلٌ　　إذا لم يَرُح للمجد أصبح غاديا][٣]

الحطيئة

ومن حُرِّ المدح وجيِّد الشعر قول الحطيئة[٤] :

تَزُورُ امْرَأً يُعْطِى على الحمدِ مالَهُ　　ومَن يُعْطَ أثمانَ المحامدِ يُحمدِ

يَرى البخلَ لا يُبْقِى على المرء مالَه　　ويعلم أنَّ المرء غيرُ مخلَّدِ

كسوبٌ ومتلافٌ إذا ما سألتَهُ　　تهلَّلَ واهتزَّ اهتزازَ المهنَّدِ

متى تأتِه تَعْشُو إلى ضوء نارِهِ　　تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خَيْرُ مُوقِدِ

وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه هذا البيت فقال : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله[٥] :

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتُهـا　　وإن غضبوا جاء الحفيظةُ والجِدُّ

أقِلُّوا عليهم لا أبا لأبيكُم　　من اللوم أو سُدُّوا المكانَ الذى سَدُّوا

أولئك قومٌ إن بَنَوْا أحسنوا البنا　　وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شَدُّوا

وإن كانت النعماء فيهم جزوا بهـا　　وإن أنعموا لا كدَّرُوها ولا كَدُّوا

مَطَاعِين فى الهيجا مَكَاشِيفُ للدجَى　　بَنَى لهمُ آباؤهم وبَنَى الجَدُّ

وتعذلنى أبناءُ[٦] سَعْدٍ عليهمُ　　وما قلت إلا بالذى عَلِمَتْ سَعْدُ

وقال منصور النمرى :

ترى الخيلَ يوم الحرب يَظْمَأْنَ تحتهُ　　ويَرْوَى القَنَا فى كفِّهِ والمَنَاصِلُ

حلالٌ لأطرافِ الأسنة نَحْرُهُ　　حرامٌ عليها منه مَتْنٌ وكَاهِلُ

---

(١) الشعراء : ٢٠٢ ، ديوان المعانى : ٣٦ .　　(٢) ف الشعراء : خيراته .

(٣) من م ، ا .　　(٤) ديوان المعانى : ٤٣ ، مهذب الأغانى : ٢ — ٣٧ .

(٥) ديوان المعانى : ٣٨ ، مهذب الأغانى : ٢ — ٣٣ .　　(٦) ف ا : أنناء .

وقال آخر :

فتى دهره شطران فيما ينوبه ... ففى بأسه شطر وفى جوده شطر
فلا من بغاة الخير فى عينه قذى ... ولا من زئير الحرب فى أذنه وقر

[الشراب أول الخراب]

وقال بعض الظرفاء : الشراب أول الخراب ، ومفتاح كل باب ، يمحق الأموال ، ويذهب الجمال ، ويهدم المروءة ، ويوهن القوة ، ويضع الشريف ، ويهين الظريف ، ويذل العزيز ، ويفلس التجار ، ويهتك الأستار ، ويورث الشنار .

وقال يزيد بن محمد المهلبي :

لعمرك ما يحصى على الكأس شرها ... وإن كان فيها لذة ورخاء
مرارا تريك الغى رشدا وتارة ... تخيل أن المحسنين أساءوا
وأن الصديق الماحض الود مبغض ... وأن مديح المادحين هجاء
وجربت إخوان النبيذ فقلما ... يدوم لإخوان النبيذ إخاء

[فى التطفيل]

عوتب طفيلى على التطفيل فقال : والله ما بنيت المنازل إلا لتدخل ، ولا نصبت الموائد إلا لتؤكل ، وإنى لأجمع فيها خلالا ؛ أدخل مجالسا ؛ وأقعد مؤانسا ، وأنبسط وإن كان رب الدار عابسا ؛ ولا أتكلف مغرما ؛ ولا أنفق درهما ؛ ولا أتعب خادما .

وقال ابن الدراج الطفيلى لأصحابه : لا يهولنكم إغلاق الباب ، ولا شدة الحجاب ، وسوء الجواب ، وعبوس البواب ، ولا تحذير الغراب[1] ، ولا منابذة الألقاب ؛ فإن ذلك صائر بكم إلى محمود النوال ، ومغن لكم عن ذل السؤال ،

(١) فى ا ، م : ولاغب الثواب ولا تحذير العقاب .

واحتملوا اللَّكْزَة الوَهِنة . واللَّطْمَة الزمنة ، فى جنب الظفر بالبُغْيَة ، والدَّرَك للأُمنية ، والزَموا الطُّوزَجَة(١) للعاشرين ، والخِفَّة للواردين والصادرين ، والتملق للمُلْهِين والمطربين ، والبشاشة للخادمين والموكلين ؛ فإذا وصلتم إلى مُرَادكم فكُلُوا متسكرين ، وادّخروا لغدكم مجتهدين ؛ فإنكم أحقّ بالطعام ممن دُعِى إليه ، وأَوْلَى به ممن وُضع له ، فكونوا لوقته حافظين ، وفى طَلَبه مشمِّرين ، واذكروا قول أبى نواس :

لِتَخْمُسْ(٢) مالَ الله من كلِّ فاجر   وذِى بِطْنَةٍ للطيِّبَاتِ أَكُولِ

* * *

هذا يقوله أبو نواس فى أبيات تستندر كلُّها ، ويستطرف جلُّها ، وهى(٣) : استطراد — لأبى نواس

وخَيْمة نَاطُور بِرَأْسِ مُنِيفةٍ   تَهُمُّ يدَا مَنْ رَامَها بِزَلِيل(٤)

إذا عارضَتْها الشمسُ فاءت ظِلالُها   وإن وَاجهَتْها آذَنَتْ بدُخولِ

حطَطْنَا بها الأثقالَ فلّ هجيرة   عَبُورِيَّةٍ(٥) تُذْكَى بغيرِ فَتيل

تأَنَّت(٦) قليلًا ثم فاءت بِمَذْقةٍ   من الظلِّ فى رثِّ الإناء(٧) ضَئيل

كأنَّا(٨) لديها بين عِطْفَىْ نَعامةٍ   جفَا زَوْرُها عن مبرك ومَقيل

حلَبْتُ لأصحابى بها دِرَّةَ الصِّبا   بصفراء من ماء الكروم شَمُولِ

إذا ما أتت دون اللَّهَاةِ من الفتى   دعا همُّهُ من صَدْرِه برَحِيل

فلما توافَى الليلُ جنحًا من الدجى(٩)   تصابَيْتُ واستجملت غيرَ جميل

وأعطيتُ من أهوى الحديث كأيدًا   وذلّلت صَعْبًا كان غير ذلول

(١) فى ط : الطارحة .   (٢) خمسهم : أخذت خمس أموالهم .

(٣) ديوانه : ٣١٠ ، الشعراء : ٧٧٤ .   (٤) الزليل مصدر كالزلل : الانزلاق .

(٥) العبورية : نسبة إلى الشعرى العبور لأنها إذا طلعت بالغداة فهو أشد الحر .

(٦) فى الديوان ، ١ : تأيت : تلبثت.   (٧) فى الديوان : الأباء : وهو جمع أباءة وهى القصبة ، والمراد برث الأباء الخيمة .   (٨) فى ط : كأن .

(٩) فى الديوان : فلما توفى الشمس جنح من الدجى .

فتىً وقد وسّدتُ يُسراي خدّه[1] ... ألا ربّما طالبتُ غيرَ مُنيلِ
فأنزلتُ حاجاتي بحقوَيْ مُساعدي ... وإنْ كان أدنى صاحبٍ وخليل[2]
فأصبحتُ ألحَى السكرَ والسكرُ مُحسنٌ ... ألا ربَّ إحسانٍ عليك[3] ثقيلِ
كفى حَزَناً أنّ الجوادَ مقتَّرٌ ... عليه ولا معروفَ عند بخيل
سأبغي الغِنى إما وزيرَ[4] خليفة ... يقومُ سواءً أو مخيفَ سبيلِ
بكلِّ فتى لا يُستطارُ فؤادُه[5] ... إذا نوَّه الزَّحْفان باسمِ قتيل
لتَخمس مالَ اللهِ من كلِّ فاجرٍ ... وذي[6] بِطنَةٍ للطيبات أكُولِ
ألم تر أنَّ المالَ عونٌ على التقى ... وليس جَوادٌ مُعْدِمٌ كبَخيلِ

ألفاظ لأهل العصر فى صفة الطفيليين والأكَلة وغيرهم

شيطانُ مَعدته رَجيم ، وسلطانها ظلوم . هو آكَلُ من النار ، وأشْرَبُ من الرمل .

لو أكل الفيلَ ما كَفَاه ، ولو شرب النيلَ ما أرْوَاه ، يجوبُ البلاد ، حتى يقع على جَفْنَة جواد . يرى رُكوبَ البريد ، فى حضور الثَّريد .

أصابعه أزم للشِّواء ، من سَفُّود الشَّوَّاء ، وأنامله كالشبكة فى صيد السمكة .

هو أجوعُ من ذئبٍ مُغَلَّسٍ بين أعاريب . العيون قد تقلّبت ، والأكباد قد تلهبت ، والأفواه قد تحلبت .

امتدت إلى الخوان الأعناق ، [واحتدت نحوه الأحداق][7] ، وتحلّبت له الأشداق .

[رجع إلى طرائف الوصف]

وصف طائر — سأل المهدى صباح بن خاقان عن طائرٍ له جاء من آفاق الغابة ، فقال : ياأمير المؤمنين ، لو لم يَبِنْ بحسن الصفة لَبَانَ بحسن الصورة . قال : صِفْه لى . قال : نعم يا أمير

---

(١) فى ط : يغطى إذا وسدت .
(٢) فى الديوان ، ا : ودخيل .
(٣) فى الديوان : علىّ .
(٤) فى الديوان ، ا : إما جليس خليفة .
(٥) فى الديوان : جنانه .
(٦) فى الديوان : أخى بطنة .
(٧) من ا .

المؤمنين ، قُدَّ قَدَّ الجَلَمِ[1] ، وقُوِّم تقويم القلَم ، ينظر من جَمْرتين ، ويلفظ بدرّتين ، ويمشى على عتيقتين ، تكفيه الحبّة ، وتُرويه النبّسة[2] ، إن كان فى قفص فلقه ، أو تحت ثوب خرقه ، إذا أقبل فدّيناه ؛ وإذا أدبر حييناه .

[أحظى النساء عند المهدى]

ودخل عبدُ الله بن مصعب الزبيرى على المهدى ، فقال : ويحك يازُبيرى ؛ دخلت على الخيزران ، فلما قامت لِتُصْلِح من شأنها نظرتُ[3] إلى حُسنة ! فقلت: ياأمير المؤمنين؛ أدركك فى ذلك ما أدرك المخزومى حيث قال[4]:

بينما نحن بالبَلَاكِثِ[5] بالقا ع سِرَاعا والعِيسُ تَهْوِى هُوِيَّا
خطرت خَطْرَةٌ على القلب من ذِكْـــــــراك وَهْنًا فما استطعت مُضِيًّا
قلت : لبيك إذ دعانى لك الشوْ ق وللحادِيَيْن كُرَّا المَطِيَّا

فأمر فرفعت الستور عن حُسْنة .

ثم قال لى : يازُبيرى ، واسوأتاه من الخيزران ! ثم انثنى راجعاً إليها . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أدركك فى هذا ما أدرك جميلا حيث يقول[6] :

وأنتِ التى حبّبت شَغْبًا إلى بَدًا إلىَّ وأوطانى بلادٌ سواهما
حللتِ بهـــذا حَلّة ثم حَلّة بهذا فطاب الواديان كِلَاهُمَا

فدخل على الخيزران ، فالبث أنْ خرج ؛ قال الزبيرى : فدخلت فقال : أنشدنى فأنشدته لصَخْر بن الجعد :

هنيئاً لكأس جذها[7] الحبل بعدما عقدنا لكأس موثِقاً لا نخونها
وإشماتَها الأعداء لما تألّبُوا حوالىَّ واشتدّتْ علىَّ ضغونها

---

(١) القص . (٢) فى م ، ا : الحبة . (٣) فى م ، ا : فطربت .
(٤) لسان العرب ــ مادة بلكث . (٥) فى ا ، م : من ، بلاكث ، والبلاكث : موضع .
(٦) معجم مااستعجم: ١ــ٢٣٠ ، واللسان ــ مادة بدا . وقد نسب البيت الأول إلى كثير ، شغب وبدا : موضعان ، وبدا ينون ولا ينون . (٧) فى م ، ا : جذبها .

فإن تصبحي وكَّلت عينيّ بالبكا ... وأشمتّ أعدائي فقرّت عيونها
فإنّ حراما أن أخونك ما دعا ... ببلبل[1] قُمْرى الحمامِ وجُونها
وما طرد الليلُ النهار وما دعَت ... على فَنَنٍ وَرْقاء شاكٍ رَنينها[2]

فأمر لي على كل بيت بألف دينـــار . وكانت الخيزران وحسنة أحظى النساء عند المهدى .

[رجع إلى طرائف الوصف]

وصف غلام — ووصف اليوسفي غلاما فقال : كان يعرفُ المراد باللَّحْظ ، كما يعرفه باللّفظ ، ويُعَايِنُ في الناظر ، ما يجرى في الخاطر[3] ، أقرب إلى داعيـــه ، من يد مُعَاطِيه ؛ حديدُ الذهن ، ثاقبُ الفهم ، خفيفُ الجسم ، يُغنيك عن الملامة ، ولا يحوجك إلى الاستزادة . وقال أبو نواس :

ومنتظرٍ رَجْعَ الحديثِ بطَرْفِه ... إذا ما اتّقى مِنْ لِينه فَضَح الغُصُنَا
إذا جعل اللّحظَ الخفيّ كلامَهُ ... جعلت له عيني لتفهمه أُذْنَا

وقال[4] :

وإنى لطَرْفِ العين بالعين زَاجرٌ ... فقد كِدْتُ لا يَخْفَى علىّ ضميرُ

وقد طرق هذا المعنى وإن لم يكن منه [من قال][5] :

بَلَوْتُ أخِلّاء هـــذا الزمان ... فأقْلَلْتُ بالهَجْرِ منهم نَصِيبى
وكلُّهمُ إنْ تصفحته[6] ... صديقُ العِيان عدوُّ المَغيبِ
تفقّدْ مساقطَ لَحْظِ المُريب ... فإنّ العيونَ وجوهُ القلوبِ

وهو كقول المهدى :

ومطّلع من نفسه ما يَسُرُّهُ ... عليه من اللحظ الخفيّ دليلُ

---

(١) في ا : ببليل ، وهو واد ، كما في معجم ما استعجم . (٢) في ا : زنينها .
(٣) في ط : ما يحوى الخاطر . (٤) في ط : غيره . (٥) ليس في ا .
(٦) في ط : تصفحتهم .

إذا القلبُ لم يُبْدِ الذى فى ضميرِهِ   ففى اللَّحظ والألفاظِ منه رَسولُ

ودخل خالد بن صَفْوان على علىّ بن الجهم[١] بن أبى حذيفة فألفاه يريدُ الركوب ، وركوبَ الحمار فقُرِّب إليه حمار ليركبه ، فقال خالد : أما علمت أن العَيْر[٢] عار ، والحمار شَنار ، مُنْكَر الصوت ، قبيح الفَوْت ، مُتَزَلِّج[٣] فى الضَّحل ، مرتطم فى الوحل ، ليس بركوبة فحل ، ولا بمطية رَحْل ، راكبهُ مقرف[٤] ، ومسايره مشرف .

فاستوحش ابن أبى حذيفة[٥] من ركوب الحمار ونزل عنه ، وركب فرساً ودفع الحمار إلى خالد فركبه ، فقال له : ويحك يا خالد ! أتَنْهى عن شىء وتأتى مثله ؟ فقال : أصلحك الله ! عَيْر من بنات الكُرْبال[٦] ، واضح السربال ، مختلج[٧] القوائم ، يحمل الرِّجْلَة ، ويبلغ العقبة ، ويمنعنى أن أكونَ جَباراً عنيداً ، إن لم أعترف بمكانى فقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين .

[تغير الحال]

قال ابن دأب : خرجت مع بعض الأمراء فى سفر، إلى الشام، فمرّ بى رجل كنت أعرفه حَسَنَ الحالِ من أصحاب الأموال الظاهرة فى حال رثَّة، فسلَّم علىّ ، فقلت: ما الذى غيَّر حالَك ؟ فقال : تنقُّلُ الزمان ، وكَرُّ الحدثان ؛ فآثرت الضَّرْبَ فى البُلْدَان ، والبُعْدَ عن المعارف ، والخُلَّانِ ، وقد كان الأمير الذى أنت معه صديقاً لى ، فاخترت البُعْد من الاشكال ، حين حَصَّنى الإقلال ، واستعملت قول الشاعر[٨] :

سأُعْمِلُ نَصّ[٩] العِيس حتى يكفَّنِى   غِنى المـال يوماً أو غِنَى الحدثان
فَلَلْمَوْتُ خيرٌ من حياة يُرَى لها   على المرء ذى العلياء مَسُّ هَوَان

(١) فى م ، ا : بن أبى الجهم بن حذيفة .   (٢) العير : الحمار .
(٣) فى ط : مرتج .   (٤) أقرف فلانا : وقع فيه وذكره بسوء ، وبه : عرضه للتهمة .
(٥) فى م ، ا : العدوى .   (٦) الكربال : كورة بفارس ، وفى ا : عير الكرا ، واضح السربال ، وفى م : من بنات الكداد .   (٧) فى ط : محكم ، وفى ا : محلج .
(٨) اللآلئ : ٣٠٣ .   (٩) نص ناقته : استخرج أقصى ما عندها من السير .

متى يتكلم يُبلغ حُكْمُ كلامه ... وإن لم يَقُلْ قالوا عديمُ بيانِ

كأن الفتى فى أهله بورك الفتى ... بغير لسانٍ ناطق بلسان

قال ابن دَأْب : فلما اجتمعتُ مع الأمير فى النزل وصفت له الرجل ، فقال لى : ويحك ! اطلبه حتى أُصلح من حاله ، فطلبته فأعوزنى .

[من الرثاء]

أبو الشيص يرثى قتيلا

وقال[1] أبو الشِّيص يرثى [قتيلا[2]] :

خَتَلَتْه المنونُ بَعْدَ اختيالٍ ... بلا صَفَّيْن مِنْ قناً ونِصَالِ

فى رداء من الصفيح صقيل ... وقميص من الحديد مُذَالِ[3] .

حارثة بن بدر يرثى زيادا

وقال حارثة بن بَدْر الغُدانى[4] يرثى زيادا :

صلى الإلهُ على قبْرٍ وطهّره[5] ... عند الثويَّة يسفى فوْقَه المُورُ[6]

تُهدى إليه قريشٌ نَعْشَ سيِّدها ... فثَمَّ حَلَّ الندى والعزُّ والخِيرُ[7]

أبا المغيرة والدنيا مفجّعة ... وإنَّ مَنْ غرَّت الدنيا لمَغْرُور

قد كان عندك للمعروف عَارِفَةٌ ... وكان عندك للنَّكْراء تَنْكِيرُ

وكنت تُغْشَى فتُعطِى المالَ من سَعَةٍ ... فالآنَ بابُك أمسى وهو مهجور

ولا تلين إذا عوسِرت معتسراً ... وكان أمْرُك ما يوسرت ميسورُ

لم يَعْرِف الناسُ مذ غيّبتَ فتنَتَهم ... ولم يُجَلِّ ظلاما عنهمُ نور

فالناس بعدك قد خفّت حلومهمُ ... كأنما نفخَتْ فيها الأعاصير

أخذ هذا البيت من قول مهلهل بن ربيعة فى أخيه كليب ، وكان إذا انتدى لم يحلّ حَبْوَته ، ولم ينطق أحد إلّا مجيبا له ، إجلالا ومهابة :

---

(١) الشعراء : ٨٢٥ . (٢) ليس فى ا . (٣) المذال : الطويل الذيل .
(٤) فى ط : الفزارى . (٥) فى ط : وشهره . (٦) المور : الغبار المتردد ، والتراب تثيره الريح . (٧) الخير : الكرم والشرف .

أنبئت أن النار بعدك أوقدت ... واستبَّ بعدك يا كُليبُ المجلس
وتحدثوا في أمرِ كلِّ عظيمة ... لو كنتَ حاضرَ أمرِهم لم يَنبِسوا

حارثة بن بدر

وكان حارثة ذا بَيان وجَهارة [وأدب][1] ، وكان شاعرا عالما بالأخبار [والأنساب][1] ، وكان قد غلب على زياد ، وكان حارثة متهوما في الشراب ، فعُوتب زيادٌ في الاستئثار به ، فقال : كيف أطَّرِح رجلا يُسايرني مذ دخلت العراق ، ولم يصكُكْ ركابُه ركابي ، ولا تقدَّمني فنظرت إلى قَفَاه ، ولا تأخَّر عني فلويت عنقي إليه ، ولا أخذ عليَّ الشمس في شتاء قط ، ولا الرَّوْح في صيف ، ولا سألته عن باب في العلم إلّا قدرت أنه لا يُحسن غيره .

وقال له زياد : من أخطب ؟ أنا أم أنت ؟ فقال : الأمير أخطب إذا توعّد أووعد ، وبرَق ورَعد ، وأنا أخطبُ في الوفادة ، والثناء[2] ، والتحبير[3] ، وأنا أكْذِب إذا خطبت ، وأحشو كلامي بزيادات [مليحة][1] شهيّة ، والأمير يَقْصد إلى الحق ، وميزانِ العدل ، ولا يَزيدُ في كلامه ، ولا ينقص منه .

فقال له زياد : [قاتلك الله !][1] لقد أجدتَ تخليص صفتي وصفتك .

ولما مات زياد جفاه عبيدُ الله [ابنه][1] ، فقال [له حارثة : أيها الأمير ، ما هذا الجفاء مع معرفتك بالحال عند أبي المغيرة ؟ فقال له عبيد الله :][1] إن أبا المغيرة بلغ مبلغا لا يلحقه فيه عيب ، وإنمــا أُنْسَب إلى من يغلبُ عليّ ، وأنت نديم الشراب ، وأنا حديثُ السن ؛ فمتى قرَّبتك فظهرت منك رائحةُ الشراب لم آمَنْ أن يُظَنّ بي [ذلك][1] ، فدَع الشراب وكن أول داخل وآخر خارج .

فقال له حارثة : أنا لا أدعه لمن يملك ضري ونَفْعي ، أأدَعهُ للحال عندك ، ولكن صَرِّفني في بعض أعمالك . فولّاه سُرَّق[4] من بلاد الأهواز .

قال أبو الأسود[5] الدؤلي وكان صديقا لحارثة :

---

(١) من ا ، م . (٢) في م ، ا : والبناء . (٣) التحبير : التحسين ، وفي ا : التخيير .
(٤) في ط : شرق بلاد . (٥) في الشعراء ٧١٥ : هذا الشعر منسوب إلى أنس بن أبي أناس وهو من كنانة من الدؤل رهط أبي الأسود الدؤلي .

أحارِ بن بدر قد وُليت ولايةً ... فكن جُرَذاً فيها تخونُ وتَسْرِقُ
ولا تدعنْ للناس شيئاً تصيبه ... فحظُّك من ملك العراقين سُرِّقُ[1]
فما الناسُ إلا قائل فمكذبٌ ... يقول بما يَهْوَى وإمَّا مُصدّق
يقولون أقوالا بظنٍّ وتهمة ... فإن قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

فقال له حارثة :

جزاك إله العرش خَيْرَ جزائه ... فقد قلت معروفا وأوصيت كافيا
أمرتَ بشىءٍ لو أمَرْتَ بغيره ... لألفيتنى فيه لِأمرك عَاصِيا

[وصف امرأة]

قال الأصمعى : سمعت امرأة من العرب تصفُ امرأةً وهى تقول : سَطعاء بضَّة ، بيضاء غضَّة ، دَرْماء[2] رَخْصَة ، قَبَّاء طَفْلة ، تنظر بعينى شادنٍ ظمآن ، وتبسم عن منوّر الأقحوان ، فى غبّ التّهتان ، وتشير بأساريع الكثبان ، خلقها عميم ، وكلامها رخيم ، فهى كما قال الشاعر :

كأنها فى القُمُص الرقاق ... مُخَّة[3] ساق بين كفىْ ساقِ
أعْجَلَها الشاوى عن الإحراقِ

ووصف أعرابى امرأة يحبّها فقال: هى زينة [فى][4] الحضُور ، وباب من أبواب السُّرور ؛ ولَذِكرها فى المغيب، والبعد من الرقيب، أشهى إليْنا من كل ولد ونَسيب؛ وبها عرفت فضل الحور العين ، واشتقت بها إليهنّ يوم الدين .

[من كلام الأعراب]

وسئل أعرابى عن سفرَ أكْدى فيه ، فقال : ما غنمنا إلا ما قصَّرْنا من صلاتنا ،

---

(١) فى ط : مشرق . (٢) امرأة درماء : لاتستبين كعوبها ومرافقها .
(٣) فى ا : فخذ . (٤) من م ، ا .

فأمّا ما أكلته منا الهواجر ، ولقيته منا الأباعر ، فأمرٌ استخففناه ، لِمـا أمّلناه .

وقال عبد قيس[1] بن خُفَاف البُرْجمى لحاتم الطائى ، وقد وفد عليه فى دماء حملها قام ببعضها ، وعجز عن بعض : إنى حملت دماء عوّلتُ فيها على مالى وآمالى ، فأمّا مالى فقدّمته ، وكنتَ أكبرَ آمالى ، فإن تَحْمِلْها فكم من حقٍّ قضيت ، وهمّ كفيت ، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمم يومك ، ولم آيس من غدك .

وقيل لأعرابى : لم لا تَضْرِبُ فى البلاد ؟ فقال : يمنعنى من ذلك طِفْل بارك ، ولِصٌّ سارِق ، ثم إنى لستُ مع ذلك واثقا بنُجْحِ طَلِبتى ، ولا معتقدا بقضاء حاجتى ، ولا راجيا عطفَ قرابتى ؛ لأنى أقدم على قوم أطْغَاهم الشيطان ، واستمالهم السلطان ، وساعدهم الزّمان ، وأسكرتْهُم حداثةُ الأسنان .

أعرابية تتكلم

وخرج المهدى بعد هَدْأةٍ من الليل يطوفُ بالبيت ، فسمع أعرابية من جانب المسجد تقول : قوم متظلّمون ، نَبَتْ عنهم العيون ، وفَدَحَتْهم الدُّيون ؛ وعضّتْهم السنون ، بادَ رجالهم ، وذهبت أموالهم ، وكثر عِيَالهم ؛ أبناء سبيل ، وأنْضَاء طريق ، وصية الله ، ووصية رسول الله ، فهل آمِرٌ بخير ، كلأه الله فى سَفَرِه ، وخلفه فى أهله .

فأمر نصراً الخادم ، فدفع إليها خمسمائة درهم .

[من أدب البديع]

المقامة الأزاذية

ومن إنشاء البديع فى مقامات أبى الفتح الإسكندرى[2] : حدثنى عيسى بن هشام قال : كنت ببغداد ، فى وقت الأزاذ[3] ؛ فخرجتُ إلى السوق أعتامُ من أنواعه[4] لابتياعه ، فسرتُ غير بعيد إلى رجل قد أخذ أنواعَ الفواكه وصفّفها ، وجمع أنواع الرُّطَب وصنّفها ؛ فقبضتُ من كل شىء أحسنه ، وقرضتُ من كل نوع أجوده ؛ وحين جمعتُ حواشىَ الإزار ، على تلك الأوزار[5] ، أخذتْ عيناى رجلا قد لفّ رأسه

---

(١) فى م : قيس بن خفاف ، وانظر الأمالى : ٣ — ٢١ . (٢) المقامات : ١٠ .

(٣) الأزاذ : نوع من التمر . (٤) أعتام : أختار . (٥) فى م ، ا : الأوزار .

[يرفع][1] حياه ، ونصب جسده ، وبسط يدَه ، واحتضن عِيالَه ، وتأبّط أطفاله ، وهو يقول بصوت يَدْفع الضعف فى صدره ، والحرَضَ فى ظهره :

ويلى على كَفَّين من سَوِيقِ ... أو شَحْمَة تُضْرَبُ بالدقيقِ
أو قصعة تُملأ من جَرْدِيقِ[2] ... تَفْثَأ عنّا سَطَوات الرِّيقِ[3]
تُقيمنا عَنْ نَهج الطريق ... يارازقَ الثروةِ بعد الضيق
سَهِّلْ على كفّ فتى لبيقِ ... ذى حَسَبٍ فى مجده عريق
يُهدى إلينا قدم التوفيق ... يُنقذ عيشى من يد الترنيق[4]

قال عيسى بن هشام : فأخذتُ من فاضل الكيس أخذةً وأنلتُه إياها فقال :

يامَنْ حَبَانى بجميل برّه ... أفضَى إلى الله بحسن سِرّه
واستحفظ اللهَ جميلَ ستره ... إن كان لا طاقةَ لى بشكره

فاللهُ ربى من وراء أمره

قال عيسى بن هشام : فقلت : إن فى الكيس فضلا ، فابْرُزْ لى عن باطنك أخرُجْ لك عن آخره . فأماط لِثامه ، فإذا شيخنا أبو الفتح السكندرى . فقلت : ويحك ! أى داهية أنت ؟ فقال :

تقضَّ العمر تشبيها ... على الناس وتَمْوِيهَا
أرى الأيامَ لا تَبقَى ... على حال فأحكيها
فيوما شرُّها فىَّ ... ويوما شرِّىَ فيها

رسالة إلى أبى نصر

وسأل البديع أبا نصر بن المرزبان — عارِيّة — بعضَ ما يتجمّل به ، فأمسك عن إجابته ؛ فأعاد الكتاب إليه بما نسخته[5] :

لا أزالُ — أطال الله تعالى بقاء مولانا الشيخ — بسوء الانتقاد، وحسن الاعتقاد،

(١) من ا ، والمقامات . (٢) الجرديق : الرغيف ، وفى ا : الجرديق . (٣ يفثأ : يسكن .
(٤) الترنيق : التكدير . (٥) الرسائل : ٨٧ .

أمْسَحُ جبينَ الخجل ، وأمدُّ يمين العَجَل ، ولضعف الحاسّة ، في الفراسة ، أحسب الوَرَمَ شَحْماً ، والسرابَ شرابا ، حتى إذا تجشمت موارده ، لأشرب بارِدَه ، لم أجِدْ شيئا .

وما حسبت الشيخَ سيدى ممن تعنيه هـــذه الجملة حتى عرضت على النار عودَه ، ونشرت بالسؤال جُودَه ، وكاتَبْتُهُ أستميره حلية جمال ، سحابةَ يوم أو شَطْرَه ، بل مسافةَ ميل أو قَدْرَه ، فَغاص في الفِطْنَةَ غوصاً عميقاً ، ونظر في الكَيْس[1] نَظراً دقيقاً ، وقال : هذا رجل مشحوذ المُدْية ، في أبواب الكُدْية[2] ، قد جعل استعارةَ الأعلاق طريقَ افتراسها ، وسبب احتباسها ، وقد منّى ضِرسه ، وحدَّثَ بالمحال نفسه ، ولا لطيفة في هذا الباب ، أحسن من التغافل عن الجواب ، فضْلا عن الإيجاب ، وكلا فما في أبواب الردّ أقبح مما قرع ، ولا في شرائع البخل أوحش مما شَرع ؛ ثم العُذر له من جهتى مبسوط إن بسطه الفَضْل ، ومقبول إن قَبِله المجد ، وإنما كاتبته لأُعيد الحال القديمة ، وأشرط له على نفسي أن أُريحه من سَوْم الحاجات من بعد ، فمن لم يستحى منْ أعطنى ، لم يَسْتَحْىِ من « أعننى » ؛ وعلى حسب جوابه أجرى المودة فيما بعـد ، فإن رأى أن يجيبَ فعل إن شاء الله .

رسالته إلى سهل بن محمد

وله إلى سهل بن محمد بن سليمان[3] : أنا إذا طويت عن خِدْمَة مولاى — أطال الله بقاءه — يوماً لم أرفع له بَصرى ، ولم أعدّه من عمرى ، وكأنى بالشيخ — أعزه الله — إذا أغفلت مفروض خِدْمته ، من قَصْدِ حضرته ، والمثولِ في حاشيته ، وجملة غاشيته ، يقول : إن هذا الجائع لَمّا شَبِع تضلّع ، والمكتسى وتلفّع[4] ، وتجمّل وتبرقع ، وتربّع وترفّع ، فما يطوفُ بهذا الجَناب ، ولا يَظْهرُ بهذا الباب ؛ وأنا الرجل الذى آواه من قَفْر ، وأغناه من فَقْر ، وآمنه من خَوْف ، إذ لا حُرَّ بوادى عَوْف ؛ حتى

(١) الكَيْس : خلاف الحمق. (٢) الكدية بضم الكاف : السؤال .
(٣) الرسائل : ٨٨ . (٤) في م ، ا : فتسقم .

إذا وردت عليه رُقعتى هذه ، وأعارها طَرْفَ كرمه وطَرْفَ شِيمه ، وتَظَرَّ فى عنوانها اسْمِى قال : بُعداً وسحقاً، [وَسبّا وتبّا][1] ، وحتّا ونحتاً، وطَعْنا ولَعْنا، فما أكذبَ سَرَابَ أخلاقه، وأكثرَ أسْرَابَ نفاقه ، فالآن أحلُّ من عقدته ، وانتبه من رَقدَته . وكاتبى يستعيدنى، كلا لاأزوجه[2] الرِّضَا ولا قُلَامة، ولا أمنحه المُنَى ولا كرامة، بل أدعُه يركب رَاسه ، ويُقاسى أنفاسه ، فستأتيني به الليالى ، والكيس الخالى ، ثم أُرِيه ميزانَ قَدْرِه ، وأُذيقُه وبالَ أمره ، حتى إذا بلغ موضع الحاجة من الرقعة قال : مَأْرُبة لا حَفَاوة ، ووَطر سَاقَهُ ، لا نِزَاعٌ شَاقَه ، فهذا بِذَا . ولا أبعد من تلك الهمم العالية ، والأخلاق السامية أن يقول: مرحبا بالرُّقعة وكاتبها، وأهلا بالمخاطبة وصاحبها. [وقضاء الحاجة بإنجاحها، وإبرازها، وهى الرقعة التى سالت إلى من التمسته، كما اقترحته عا طالبته ، فرأيتُه فيه موفق إن شاء الله تعالى[3]] .

رسالة إلى بعض الرؤساء

وله أيضا[4] إلى بعض الرؤساء يسأله إطلاق محبوس [بسببه[5]] : الشيخ — أطال الله بقاءه — إذا وصل يدى بيده لم ألمس الجوْزَاء إلا قاعداً ، وقد نَاطَها مِنّةً فى عُنُق الدهر ، وصاغها إكليلا لجبين الشُّكر . وما أقصَر يَدِى عن الجزاء ، ولسانى عن الثناء ؛ وهذا الجاهلُ قد عرف نفسَه، وقلع ضرسه ، ورأى ميزان قَدْرِه، وذاق وبالَ أمره ، وجهز إلىّ كتيبة عجائز عاجزات ؛ فأطلقن العويل والأليل[6]، وبعثنى شفيعاً إلى ، واستمنّ بى علىّ ، وتوسّلن بكلمة الاستسلام ؛ ولحمة الإسلام ، فى معنى[7] هذا الغلام ؛ فإن أحبّ الشيخُ أن يجمعَ فى الطَّوْلِ إزاء الحوض إلى العفو ، وينظم فى الفضل ما بين الروض والمطر ، شفّع فى إطلاقه مَكَارِمَه ، وشرّف بذلك خادمه ، وأنجزنا بالإفراج عنه ، مُوَفَّقاً إن شاء الله تعالى .

---

(١) من م ، ا .
(٢) فى ا ، م : يستفيد منى كلا لا أرجعه الرضا .
(٣) ليس فى ا .
(٤) الرسائل : ٨٩ .
(٥) من ا .
(٦) الأنين ، ورفع الصوت بالدعاء ، والصراخ عند المصيبة .
(٧) فى ط : فى ذلك .

[عفـــو]

وقال رجل لإبراهيم بن المهدى : اشفعْ لى إلى أميرِ المؤمنين فى فَكّ أخى من حَبْسه ، وكان محبوسا فى عِدَاد العُصاة ، فقال للمأمون : ليس للعاصى بعد القُدْرة عليه ذَنب ، وليس للمصاب بعد الملك عذر . فقال : صدقت ؛ فما طَلِبَتك ؟ قال : فلان هَبْه لى . قال : هو لك . المأمون يعفو

وسأل أبو عبادة أحمد بن أبى خالد(١) أن يطلق له أسارى ، ففعل ، فقال له : قد فككنا أسراك . فقال : لا فَكّ الله رقابَ الأحرارِ من أياديك ! وأحمد بن أبى خالد

ألفاظ لأهل العصر فى التهنئة بالإطلاقِ من الأسر

الحمدُ لله حَمْدَ الإخلاص ، على حسن الخَلَاصِ ، الذى أفْضَى بك من ذِلَّةِ رِقّ ، إلى عزّة عِتْق ، ومن تَصْلِيَةِ جحيم ، إلى جنّةِ نعيم .

خرج من العِقَال ، خروج السيفِ من الصِّقال . خرج من إساره ، خروج البَدْرِ من سِرارِه . الحمدُ لله الذى فكّ أسراً ، وجعل من بعد العُسْرِ يُسرا . خرج من البلاء ، خروج السيف من الجلاء .

قد جعل الله لك من مضايق الأمور مخرجا نَجيحاً ، ومن مثالق الأهوال مسرحاً فسيحاً .

[أبو نواس يمدح الأمين]

مدح أبو نواس الأمين محمداً فى [أول] خلافته بقصيدته التى يقول فيها(٢) :

أقول والعِيسُ تعروْرِى الفَلاةَ بنا ... صُعْرٌ(٣) الأزمة من مثنى ووُحْدانِ
يا ناق لا تسأمى أو تَبْلُغى ملكا ... تقبيلُ راحته والرُّكْن سِيّان
متابلا بين أملاك تفضله ... ولادتان من المنصور ثِنْتان

---

(١) فى م ، ا : أحمد بن خالد . (٢) ديوانه : ٦٥ . (٣) اعرورى : سار فى الأرض وحده . والصعر : جمع أصعر أو صعراء ، من الصعر وهو الميل .

متى تحطّ إليه الرّحْل سالمةً ... تستجمعى الخَلْقَ فى تمثال إنسان

قال [الحسن][(١)] : هذا لأن محمدا ولده المنصور مرتين من قِبَل أن أباه هارون الرشيد بن المهدى بن أبى جعفر المنصور ، ومن قِبل أن أمه أمَة العزيز بنت جعفر بن [أبى جعفر][(١)] المنصور ، وكان المنصور دخل عليها وهى طفلة تلعب ، فقال : ما أنت إلا زُبيدة ، فغلب عليها هذا اللقب ، ولم يَلِ الخلافة مَنْ أبواه هاشميان غير على بن أبى طالب وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم وابنه الحسن ، وأمه فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم والأمين محمد بن الرشيد .

رجع القول — فلما أنشده القصيدة قال : ما ينبغى أن يُسْمَع مدحُك بعد ذلك فى الخصيب بن عبد الحميد[(٢)] :

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيب ركابُنا ... فأىّ فتى بعد الخصيب تزورُ
فتى يشترى حسنَ الثناء بماله ... ويعلم أنّ الدائراتِ تدورُ
فما فاته[(٣)] جودٌ ولا حلّ دونه ... ولكن يسيرُ الجودُ حيث يَسِير[(٤)]

فقال : يا أمير المؤمنين ، كلُّ مدح فى الخصيب وغيره فَمدْحٌ فيك ؛ لأنى أقول — ثم ارتجل :

ملكتَ على طير السعادة واليُمْن ... وجاءت لك العلياء[(٥)] مقتبلَ السنّ
بمحيا وجود الدّين تحيا معاً ... بحسن وإحسان مع اليُمْن والأَمْن
لقد طابت الدنيا بطيب ثنائه[(٦)] ... وزادت به الأيامُ حسنا إلى حُسْن
لقد فكّ أرقاب العُفاة[(٧)] محمدٌ ... وأسكن أهل الخوف فى كَنَفِ الأمن
إذا نحن أثنينا عليك بصالحٍ ... فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى

---

(١) من ا . (٢) ديوانه : ٩٩ . (٣) فى الديوان : فما جازه .
(٤) فى الديوان : ولكن يصير . . . يصير . (٥) فى ا ، م : وحزت عليك الملك .
(٦) فى ا ، م : بطيب محمد . (٧) فى ا : أغلال العفاة .

وإن جرتِ الألفاظُ يوما بمدحة ... لغيرك إنسانا فأنتَ الذى نَعْنِى

قال : صدقت ، مَدْحُ عبدى مَدْحٌ لى ؛ ووَصَلَه وقرّبه .

* * *

وأما قول أبى نواس(١) : من النقد

* إذا نحن أثنينا عليك بصالح *

فن قول الخنساء(٢) :

فما بلغ المُهْدُون للناسِ مِدْحَةً ... وإن أطنبوا إلّا الذى فيك أفْضَلُ

وما بلغت كَفُّ امرئٍ متناوِلًا ... من المجد إلّا والذى نِلْتَ أطْوَل

وفد الأخطل على معاوية فقال : إنى قد امتدحتك بأبياتٍ فاسمعها ، فقال : إنْ كنت شَبَّهْتَنِى بالحية ، والأسد، أو الصقر، فلا حاجةَ لى بها، وإن كنت [قلت](٣) كما قالت الخنساء ــ وأنشد البيتين ، فقل .

فقال الأخطل : والله لقد أحسنَتْ ، وقد قلت فيك بيتين ماهما بدونهما ، ثم أنشد(٤) :

إذا متّ مات العُرْفُ وانقطع النَّدَى ... فلم يبق إلا من قليلٍ مصرَّدِ

ورُدّت أكفّ السائلين وأمسكوا ... عن الدين والدنيا بخزن(٥) مجدَّدِ

وقول أبى نواس : * وإنْ جَرَتِ الألفاظُ يوما(٦) بمِدْحَةٍ *

من قول كثيّر فى عبد العزيز بن مروان :

متى ما أقل فى سالف الدهر مِدْحَةً ... فما هى إلّا لابن ليلى المعظَّمِ

وقال الفرزدق(٧) :

وما أمرتنى النفس فى رِحْلَةٍ لها ... إلى أحدٍ إلا إليك ضَمِيرُها

ولما أنشد أبو تمام أحمد بن أبى دُوَاد قصيدته(٨) :

* سقى عهدَ الحمى صوبُ(٩) العِهاد *

---

(١) ديوانه : ٦٦ . (٢) ديوان المعانى : ٢٧ ، أخبار أبى تمام : ١٤٣ .
(٣) من م . (٤) ديوان المعانى : ٢٧ . (٥) ق م : بخلق ، وق ا : بخلف .
(٦) ق ا : منا . (٧) أخبار أبى تمام : ١٤٣ ، وفيه وق ا : وما وامرتنى .
(٨) ديوانه : ٧٨ ، وتمامه : وروض حاضر منه وباد . (٩) ق ا ، م : سيل .

وانتهى إلى قوله[١] :

وما سافرتُ فى الآفاق إلّا ... ومِنْ جَدْواك راحلَتى وزادى

مُقيمُ الظنِّ عندكَ والأمانى ... وإنْ قَلِقَتْ رِكَابى فى البلادِ

قال له ابن أبى دُؤَاد : هـــذا المعنى لك أو أخذته ؟ قال : هو لى ، وقد ألممت فيه بقول أبى نواس[٢] :

وإنْ جَرتِ الألفاظُ يوما بِمِدْحَةٍ ... لغيْرِكَ إنسانا فأنتَ الذى نَعْنِي

وأخذه المتنبي فقال[٣] :

أَتُرْكَ أبا الحُسينِ بمدح قومٍ ... نَزلتُ بهم فرحت[٤] بغيرِ زادِ

وظنّونى مدحتُهمُ قديمــا ... وأنتَ بما مدحتُهمُ مُرادِى

وأما قول أبى تمام : « وما سافرت فى الآفاق ــ البيت » .

فمن قول المثقب العبدى [وذكر ناقته][٥] :

إلى عَمْرِو بن حمدانٍ أُبِيتُ[٦] ... أخى النجدات والمجْد الرصين

وأما قول أبى نواس[٧] « فما فاته جود ولا حلّ دونَهُ » . . . البيت .

فمن قول الشمردل بن شريك [اليربوعى][٥] :

ما قصّرَ المجد عنكم يا بنى حكم[٨] ... ولا تجاوزكم يا آل مسعودِ

يحل حيث حللتم لا يريمكُم ... ما عاقبَ الدهرُ بيْنَ البيض والسُّودِ

إن يشهدوا يوجد المعروف عندهم ... خِدْناً وليس إذا غابوا بموْجُودِ

وقد قال الكميت بن زيد الأسدى :

يسير أبانُ قرينَ السما ... ح والمكرمات معاً حيث سَارَا[٩]

---

(١) ديوانه : ٧٩ ، التبيان : ١ ـ ٣٦٥ . (٢) التبيان : ١ ـ ٣٦٥ ، أخبار أبى تمام : ١٤٢

(٣) ديوانه : ١ ـ ٣٦٤ . (٤) فى الديوان ، م : فسرت . (٥) من ١ . (٦) فى ١ : إلى عمرو ومن عمر أتتنى . (٧) ديوانه : ٩٩ . (٨) فى ط : يابنى حسن . (٩) فى ١ : يصير . . . قرين . . . حيث صارا .

وقول أبي نواس أيضاً :

* فتًى يشتري حُسْنَ الثناء بماله *

مأخوذ من قول الراعي :

فتى يشتري حُسْنَ الثناء بماله ... إذا ما اشترى المَخْزاةَ بالمَجْدِ بَيْهَسُ

* * *

دخل أبو نُخَيْلة على أبي العباس السفاح، فاستأذنه في الإنشاد ، فقال : لعنك الله؛ ألَسْتَ القائل لمسلمة بن عبد الملك : رجع إلى المدح

أمسلمُ يا نَجْلَ خَيْرِ(1) خليفةٍ ... ويا فارس الهَيْجا ويا جبَلَ الأرضِ

شكرتك إنّ الشكرَ حَبْلٌ من التقى ... وما كلُّ من أوليته نعمةً يقضي

وألقيتَ لما أن أتيتك زائراً ... عليّ لحافاً سابغَ الطولِ والعرضِ

ونبهتَ من ذكري وما كان خاملاً ... ولكنّ بعض الذكر أنْبَهُ من بعضِ

ثم أمره بأن ينشد ، فأنشده أرجوزة يقول فيها :

كنّا أناساً نرهب الملاكا ... ونركب الأعجازَ والأوراكا

وكلّ ما قد مرّ في سواكا ... زُورٌ وقد كفّر هذا ذاكا

واسم أبي نخيلة(2) الجنيد بن الجون ، [وهو مولى لبني حماد(3)] ، كان مقصّداً راجزاً. قيل للخنساء: لقد مدحت أخاك حتى هجوت أباك ! فقالت :

جارَى أباهُ فأقبلا وهُمَا ... يتعاوَران ملاءة الحُضْرِ(4)

حتى إذا جدّ الجِراء(5) وقدْ ... ساوَى هناك القدر بالقدر(6)

وعلا صياحُ الناس أيهما؟ ... قال المجيبُ هناك لا أدْري

برقت صحيفةُ وَجْهِ والدهِ ... ومضى على غُلَوائه يجْري

(1) في ا : يا نجل كل . (2) في الخزانة : ١–٥٠٦ ، أبو نخيلة : اسم الشاعر لا كنيته . وقال ابن قتيبة : اسمه يعمر ، وكنى أبا نخيلة ، لأن أمه ولدته إلى جنب نخلة ، ويكنى أبا الجنيد .

(3) في ا : حان . (4) الحضر : ارتفاع الفرس في عدوه .

(5) الجراء : جري الفرس . (6) في ا ، م : الصدر بالصدر .

أولى فأولى أن يُساويهُ ... لولا جلالُ السنّ والكِبَرْ
وهما كأنهما وقد برزا ... صَقْرَان قد حَطَّا إلى وَكْرِ

وقيل لأبي عبيدة : ليس هذا في مجموع شعر الخنساء . فقال : العامّةُ أسقط من أن يجاد عليها بمثل هذا .

وقد أحسن البحتري في هـــذا ؛ إذ يقول في يوسف بن أبي سعيد ، [ومحمد[1]] ابن يوسف الطائي[2] :

جدٌّ كجد أبي سعيد إنّهُ ... تَرَكَ السماكَ كأنّه لم يَشْرُفِ
قاسمته أخلاقَه وهي الردى ... للمعتدى وهي الندى للمُعْتَفِي
وإذا جرى في غايةٍ وجريتَ في ... أخرى التقى شأوا كما في المَنْصَفِ[3]

* * *

من النقد — قول الخنساء : * يتعاوران ملاءة الحُضْر *

أبرع استعارة ، وأنصع عبارة ، وقد قال عدي بن الرقاع[4] :

يتعاوران من الغُبَار مُلاءةً ... غَبْراء محكمةً[5] هما نسجاها
تُطوَى إذا ورَدا مكاناً جاسياً ... وإذا السنابكُ أسهلت نَشرَاها

وإلى هذا أشار الطائي في قوله[6] :

تُثير عَجَاجةً في كل ثَغْرٍ ... يهيمُ بها عديُّ بنُ الرِّقَاعِ

وأول من نظر إلى هذا المعنى شاعر جاهلي من بني عقيل[7] فقال :

ألا يا ديارَ الحيِّ بالسَّبُعَانِ ... عفَتْ حِججاً بعدي وهنّ ثمانِ
فلم يبق منها غيرُ نُؤيٍ مُهَدَّمٍ ... وغيرُ أثافٍ كالرَّكِيِّ رِعَانِ

---

(١) من م ، ا . (٢) ديوانه : ١٢٢ . (٣) المنصف : النصف . (٤) المختار من شعر بشار ، ٢٦٣ ، معاهد التنصيص : ١ — ١٩٢ ، الطرائف الأدبية : ٩٦ .
(٥) في المختار : بيضاء محدثة . (٦) ديوانه : ١٩٣ . (٧) في معجم ما استعجم واللسان ، واللآلىء : ٣٣٥ : الشعر لابن مقبل ، وفي ياقوت : قيل إنه لابن أحمر ، أو لابن مقبل .

وآياتِ عابٍ أورقِ اللونِ سافرت … به الرِّيحُ والأمطارُ كلَّ مكانِ
قِفارٌ مَرَوْرَاةٌ تحارُ بها القَطَا … وتمسى بها الجابان تفتريان[1]
يثيران من نَسْجِ الغبارِ عليهما … قميصين أسمالًا ويرتديان

ومن مستحسن رثاء الخنساء وليلى وغيرهما من النساء

قال أبو العباس أحمد بن يحيى النحوى : أنشد أبو السائب المخزومى قول الخنساء[2] :

وإنَّ صخرًا لَمَوْلانا وسيِّدُنا … وإنَّ صخرًا إذا نَشْتُو لنحَّارُ
وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهداةُ به … كأنّه علمٌ فى رأسِه نارُ

فقال : الطلاقُ لى لازم إن لم تكن قالت هذا وهى تتبختَر فى مشيها ، وتنظر فى عِطفها .

ومن مستحسن رثاء الخنساء قولها ترثى أخاها صخرًا[3] :

فاذهب فلا يبعدنْك اللهُ مِنْ رجل … منّاعِ ضيمٍ وطلّاب لأوتارِ
كنت فينا صريحًا غير مؤتشب … مركّبًا فى نصابٍ غيرِ خوّارِ
فسوف أبكيك ما ناحَتْ مطوّقةٌ … وما أضاءت نجومُ الليلِ للسارى
أبكى فتى الحىِّ نالته منيّتهُ … وكلُّ نفسٍ إلى وقتٍ بمقدارِ

وقولها [تمنّيه][4] :

شهّاد أنجيةٍ شدّاد أوهيةٍ … قطّاع أودية للوِترِ طلّابا
سمُّ العُداة وفكّاك العُناةِ إذا … لاقَى الوغَى لم يكن للموت هيّابا
يهدى الرعيلَ إذا جار السبيلُ بهم … نَهْدُ التليل[5] لِزُرْقِ السُّمْرِ ركّابا

والخنساء اسمها تماضر بنت عمرو [بن الحارث][6] بن الشريد بن رباح بن [يقظة

(١) هكذا فى ا ، م . وفى ط : الجابان تفتركان . (٢) الديوان : ٢٦ ، خزانة الأدب : ١ – ٣٩١ . (٣) الديوان : ٣٣ (٤) من ا . والأبيات فى الديوان : ٢
(٥) التليل : العنق ، وبعد البيت فى م : فى ديوانها : لزور الموت ركابا . (٦) من : .

ابن عُصَيّة بن خُفاف[1]] بن امرئ القيس وتكنى أم عمرو ، ومصداق ذلك قول أخيها [صخر][2] :

أرى أمّ عمرو لا تملّ عِيادتى ... وملّت سليمى مَضْجَعِى ومكانى[3]

سليمى امرأته، وإنما لقبت الخنساء كناية عن الظبية، وكذلك [تسميتهم][4] الذّلفاء. والذّلَف : قصر فى الأنف؛ وإنما يريدون به أيضاً أنّ ذلك من صفات الظباء، وهى أشعر نساء العرب عند كثير من الرُّوَاة ؛ وكان الأصمعى يقدّم ليلى الأخيلية ، وهى ليلى بنت عبـــد الله بن كَعْب بن ذى الرّحالة بن معاوية بن عُبَادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وقيل لها الأخيلية لقول جدها كعب :

نحن الأخايل ما يَزَالُ غلامُنا ... حتى يَدِبّ على العَصَا مذكورا

قال أبو زيد[5] : [هذا البيت لها فسُمّيت به ، وليلى أغزر بَحْرا][4] ، وأكثر تصرفا ، وأقوى لفظاً ؛ والخنساء أذهب فى عمود الرثاء .

الخنساء وليلى الأخيلية — قال المبرد : كانت الخنساء وليلى الأخيلية فى أشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول، وقلما رأيت امرأة تتقدّم فى صناعة ، وإن قل ذلك ، فالجلة ما قال الله تعـــالى[6] : « أو مَنْ يُنشَّأُ فى الحِلْيَــةِ وهو فى الخِصَام غَيْرُ مُبِين » .

أحسن المراثى — ومن أحسن المراثى ما خلط فيه مدحٌ بتفجع على المرثى ، فإذا وقع ذلك بكلام صحيح ، ولَهْجَة معربة، ونظام غير متفاوت ، فهو الغاية من كلام المخلوقين .

واعلم أن من أجل الكلام قول الخنساء[7] :

يا صَخْرُ ورّاد ماء قد تناذَرَه ... أهْلُ المياهِ فما فى وِرْدِه عَارُ
مَشْىَ السَّبَنْتَى[8] إلى هَيْجَاء معضلة ... لهـا سِلاحَان أنيابٌ وأظفارُ
وما عجول على بَوّ تُطيفُ بِهِ ... لهـا حنينان إعلانٌ وإسرارُ

---

(١) من م . (٢) من ا . (٣) لهذا البيت قصة فى الخزانة : ١ — ٣٩٤ .
(٤) من م ، ا . (٥) فى ا : ابن دريد . (٦) سورة الزخرف ، آية ١٨ .
(٧) الديوان : ٢٥ . (٨) السبنتى : الجرئ .

تَرْتع[1] في غفلة حتى إذا ادَّكَرَتْ ... فإنما هي إقبالٌ وإدبارُ
يوماً بأوجع مني حين فارقني ... صَخْرٌ وللعيش إحلاءٌ وإمرارُ
لم تَرَهُ جارةٌ يمشي بساحتها ... لريبةٍ حين يُخلي بيتَه الجارُ

قال : ومن كامل قولها[2] :

فلولا كثرةُ الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يبكون مثلَ أخي ولكنْ ... أُسَلِّي النفسَ عنه بالتأسِّي
يذكِّرني طلوعُ الشمسِ صخراً ... وأذكُره لكلِّ غروبِ شمس

يعني أنها تذكره أول النهار للغارة ، ووقت المغيب للأضياف .

* * *

وقد قال ابن الرومي فيما يتعلق بطرف من هذا المعنى[3] :

رأيتُ الدهرَ يَجْرَحُ ثم يأسُو ... يُوَسِّي أو يعوض أو يُنَسِّي
أبَتْ نفسي الهَلاعَ لرُزْءِ شيءٍ ... كفى شجوا لنفسي رُزْءُ نفسي
أتجزعُ وحشةً لفراق إلفٍ ... وقد وطَّنتُها لحلول رَمْسِ

وقد أنكر على من تعلَّل بالتأسي بما قال غيرُه[4] ، فقال في ذلك :

خليليَّ قد علَّلتماني بالأُسى ... فأنعمتما لو أنني أتعلَّلُ
ألِلناس آثاري وإلَّا فما الأُسى ... وعيشكما إلَّا ضلالٌ مضلَّلُ
وما راحةُ المرزوءِ في رُزْءِ غيرِهِ ... أيَحْمِلُ عنه بعضَ ما يتحمَّلُ
كلا حامِلَيْ عِبْءِ الرزية مثقلٌ ... وليس معيناً مثقلَ الظهرِ مُثْقَلُ
وضربٌ من الظلمِ الخفيِّ مكانُهُ ... تَعَزِّيكَ بالمرزوءِ حين تأمَّلُ
لأنك يأسوك الذي هو كَلْمُهُ ... بلا بَصَرٍ لو أن جورَك يَعْقِلُ

---

(١) في ا : ترتاع ما غفلت ، وفي ط : ترتاح . (٢) الديوان : ٥٠ ، خزانة الأدب : ١ ـ ٣٩١ ، اللآلي : ٧٨٣ (٣) ديوانه : ١٠٣ . (٤) في ط : عنترة .

عاد إلى الخنساء

وقالت الخنساء(١) :

وقائلةٍ والنعشُ(٢) قد فات خَطوها ... لتدركه يا لَهْفَ نفسى على صَخْرِ
ألا ثكلت أمُّ الذين غَدَوْا به ... إلى القبر ! ماذا يَحْمِلُونَ إلى القبر !
وماذا يُوَارِى القبرُ تحت ترابِهِ ... من الجود يا بُؤْس الحوادثِ والدهرِ
فشأنُ المنايا إذ أصابك رَيْبُها ... لتغدو عَلَى الفتيان بعدك أو تَسْرِ

وهذا المعنى كثير قد مرّت منه قطعة جيدة .

ولم تزل الخنساء تبكى على أخويها صخرٍ ومعاوية ، حتى أدركت الإسلام ؛ فأقبل بها بنو عمّها وهى عجوز كبيرة إلى عُمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ! هذه الخنساء ، وقد قرّحت آماقها من البكاء فى الجاهلية والإسلام ، فلو نهيتها لرجونا أن تنتهى .

فقال لها عمر رضى الله عنه : اتقى اللهَ وأيقنى بالموت . قالت : أبكى أبى وخَيْرَىْ بنى مضر صخرا ومعاوية ، وإنّى لموقِنَة بالموت ، قال : أتبكين عليهم وقد صاروا جَمْرَةً فى النار ؟ قالت : ذلك أشدّ لبكائى عليهم !

فرقّ لها عمر وقال : خلّوا عن عجوزكم لا أبا لكم ! فكل امرئٍ يبكى شجوهُ ، ونام الخلى عن بكاء الشجى .

خواها

وكان عَمْرو بن الشَّريد يأْخُذ بيد ابنيه معاوية وصخر فى الموسم ، ويقول : أنا أبو خَيْرَى مضر ، فمن أنكر فليغيّر ، فلا يغيّر ذلك عليه أحد .

وكان يقول : من أتى بمثلهما أخوين من قبل فله حكمه ، فتُقِرّ له العرب بذلك .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : أنا ابنُ الفواطم من قريش ، والعواتك(٣) من سُلَيم ، وفى سُلَيم شرفٌ كثير .

وكان يقال لمعاوية فارس الجَوْن ، والجَوْن من الأضداد ، يقال للأسود والأبيض .

وقتلته بنو مرّة ، قتله هاشم بن حَرْمَلة فطلبه دُرَيد بن الصِّمَّة حتى قتله .

وأما صخر فغزا أسد بن خُزيمة فأصاب فيهم ، وطعنه ثَوْر بن ربيعة الأسدى ، فأدخل

---

(١) الديوان : ٣٩ . (٢) فى ط : والنفس . (٣) والعواتك فى جدات النبى تسع ، ثلاث من سُليم (القاموس).

في جوفه حلقا من الدرع فاندَمَل عليه ، فنتأت قطعة من جَنْبه مثل اليد ، فرض لها حولا ، ثم أُشير عليه بقطعها ، فأحموا له شفرة ثم قطعوها ، فما عاش إلّا قليلا .

من شعر ليلى الأخيلية

ومن جيد شعر الأخيلية تَرْثى توبة ابن الحُيَرّ الخفاجي ، وكان لها محبًّا ، وله فيها شعرٌ كثير ، وقتله بنو عوف بن عُقيل ، قتله عبد الله بن سالم(١) :

نظرتُ وركْنٌ من عمايَةَ دوننا   وأركانُ جسمى أىَّ نظرة ناظرِ(٢)

فآنست خيلا بالرقىّ(٣) مغيرةً   سَوابقُها مثل القَطا المتواتر

فإنْ تَكُن القتلَى بَواءً فإنكم   فتًى ما قتلتم آل عوْفِ بن عامرِ

فلا يُبْعِدَنْك الله ياتوْبَ إنما   لقاء المنايا دارِعا مثل حاسِر

أتته المنايا بين دِرْع(٤) حصينةٍ   وأسمرَ خطىٍّ وجرداءَ(٥) ضامر

كأنّ فَتَى الفتيان توْبَةَ لم يُنِخْ   قلائص يَفْحَصْنَ الحصَى بالكَراكرِ(٦)

ولم يَدْعُ يوماً للحِفَاظ وللنُّهى(٧)   وللحرب تَرْمِى نارَها بالشَّرائرِ(٨)

وللبازل الكَوْماء يَرْغو حُوارُها   وللخيل تَعْدُو بالكُماةِ المَساعِر(٩)

فتى لا تَخَطّاه الرِّفاق ولا يرى   لِقِدْرٍ عِيالا دون جارٍ مُجَاوِر

فتى كان أحيا(١٠) من فتاة حييّةٍ   وأشجع من لَيْثٍ بخفّان(١١) خادِرِ

فتى لا تراهُ النّاب إلْفاً لسَقْبِها   إذا اختلجَتْ بالناس إحْدَى الكبائر

وكنتَ إذا مولاه خاف ظُلامة   أتاك فلم يقنع(١٢) سِواكَ بناصِر

(١) الأغاني : ١١ – ٢٢٤ ، ٢٤٣ ، شاعرات العرب : ١٣٩ .
(٢) في هذا البيت خلاف كثير في روايته ، وارجع إلى الأغاني : ٢٢٤ .
(٣) الرقى : موضع . (٤) في الأغاني : دون زغف . والزغف : الدروع المحكمة .
(٥) في الأغاني : وخوصاء ضامر . والخوصاء الضامر : الفرس .
(٦) الكراكر : جمع كركرة : رحى زور البعير أو صدره .
(٧) في الأغاني : وللندا . (٨) في م : بالشراشر . (٩) جمع مسعر ، وهو الذي يوقد نار الحرب . (١٠) في الأغاني : وتوبة أحيا . (١١) خفان : موضع قريب بالكوفة وهو مأسدة ، وخادر : مقيم . (١٢) في الأغاني : ولم يهتف .

وقد كنتَ مَرْهُوبَ السِّنان وبَيِّنَ الـ ـلِسان ومدلاجَ[1] السُّرى غيرَ فاتِرِ
ولا تأخذ الكومُ الجِلادُ سلاحَها لتوبةَ في حدِّ الشتاء الصِّنَّابرِ[2]

وفودها على معاوية

وقال بعضُ الرواة[3] : بينا معاوية يسير إذ رأى راكبا . فقال لبعض شُرَطه : ائتني به، و... أن تَرُوعه . فأتاه فقال : أجِبْ أمير المؤمنين . فقال : إياه أردت . فلما دنا الراكب حدَرَ لثامه فإذا ليلى الأخيلية فأنشأت تقول :

معاويَ لم أَكَدْ آتيك تَهْوِى برَحْلى نحو ساحتك الرِّكابُ
تجوبُ الأرضَ نحوك ما تأَنَّى إذا ما الأُكْمُ قنَّعها السرابُ
وكنتَ المرتجى وَبكَ استغاثت لِتَنْعشها إذا بخل السحابُ

قال : فقال : ما حاجتُك ؟ قالت : ليس مثلى يَطلُب إلى مثلك حاجة ؛ فتخيَّرْ أنت ! فأعطاها خمسين من الإبل ؛ ثم قال : أخبريني عن مُضَر . قالت : فاخِرْ بمضر[4] ، وحارِب بقيس ، وكاثِرْ بتميم ، وناظر بأسد .

فقال : ويحك يا ليلى ! أ كما يقول الناس كان توبة ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، ليس كل الناس يقول حقا ، الناسُ شجرةُ بَغْىٍ ، يحسدون النِّعم حيث كانَتْ ، وعلى مَنْ كانت ؛ كان يا أميرَ المؤمنين سَبطَ البنان ، حديدَ اللسان ، شَجَى الأقران ، كريم المَخْبَر ، عفيف المِئْزر ، جميل المنظر ، وكان كما قلت ، ولم أتعدَّ الحق فيه :

بعيدُ الثَّرى لا يبلغ القَوْمُ[5] قَعْرَهُ أَلَدُّ مُلِدٌّ[6] يَغْلِبُ الحقُّ باطِلَهْ

فقال معاوية : ويحك يا ليلى ! يزعم الناس أنه كان عاهِرًا[7] خاربا ، فقالت من ساعتها مرتجلة[8] :

مَعاذَ إلهى قد كان والله توبةٌ جواداً على العِلّات جَمّاً[9] نوافله

(١) فى ا ، م : وبعذام ، وفى الأغانى : وقد كان طلاع النجاد وبين . . .
(٢) فى الأغانى : نحس الشتاء . وصنابر الشتاء : شدة برده . (٣) شاعرات العرب : ١٤٤
(٤) فى ا : فاخر بقريش . (٥) فى ا : القوم . (٦) الألد : شديد الخصومة .
(٧) فاسد الدين . وسيأتى (صفحة ٩٣٤) أنه سارق الإبل خاصة .
(٨) الأغانى : ١١ — ٢٣٧ ، شاعرات العرب : ١٤٥ . (٩) فى ا : عما .

وأغرّ خفاجيًا(١) يرى البخل سبة ... تُحالف(٢) كفّاه الندى وأناملُه
عفيفًا بعيدَ الهمّ صُلْبًا قناتُه ... جميلا محيّاه قليلا غوائلُه
وكان إذا ما الضيفُ أرغَى بعيرهُ ... لديه أتاه نَيْلُه وفواضلُه
وقد علم الجوع الذى كان ساريا ... على الضيف والجيران أنك قاتله
وأنك رَحْبُ الباع يا توبةُ بالقِرَى ... إذا ما لئيمُ القوم ضاقت منازلُه
يَبيت قريرَ العين مَنْ كان جارُه ... ويُضحى بخير ضيفُه ومنازِلُه

فقال لها معاوية : ويحك يا ليلى ! لقد جُزْتِ بتوبة قدْرَه .

فقالت : يا أمير المؤمنين ، والله لو رأيته وخبَرْته لعلمت أنى مقصرة فى نعْتِه ، لا أبلغ كُنْهَ ما هو له أهل .

فقال لها معاوية : فى أى سِنٍّ كان ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين :

أتتهُ المنايا حين تمّ تَمامُه ... وأقْصرَ عنه كلُّ قِرْنٍ يُناضله
وصار كليث الغاب يَحْمِى عَرِينَه ... فترضى به أشبالُه وحلائلُه
عطوفٌ حليمٌ حين يُطْلَب حلمُه ... وسُمٌّ ذُعَاف لا تُصابُ مَقاتلُه(٣)

فأمر لها بجائزة . وقال : أى ما قلت فيه أشعر ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، ما قلت شيئا إلّا والذى فيه من خِصَال الخير أكثر ، ولقد أجدتُ حيث أقول(٤) :

جزى اللهُ خيرا والجزاء بكفّه ... فتى من عُقيل ساد غيرَ مكلَّفِ
فتى كانت الدنيا تَهُون بأسْرِها ... عليه فلم ينفكّ جَمَّ التصرُّفِ
ينالُ علياتِ الأمور بهَوْنَةٍ(٥) ... إذا هى أعْيَتْ كلَّ خِرْقٍ مُسَوَّفِ(٦)
هو المِسْك بالأرْى الضحا كَشَيبتهُ ... بدِرْياقةٍ من خمْر بَيْسانَ قَرْقَفِ(٧)

---

(١) منسوب إلى خفاجة من آباء توبة . (٢) فى ا : تحلب .
(٣) فى الأغانى : غضوب حليم . وسم زعاف وذعاف : قاتل لساعته .
(٤) الأغانى : ١١ — ٢٣٨ . (٥) الهونة : الرفق والسهولة .
(٦) فى الأغانى : خرق مشرف . (٧) فى ا : هو الأرى بالمسك الضحاحى ، وفى الأغانى :
هو الذوب بل أرى الخلايا شبيهه ... بدرياقة من خمر بيسان قرقف
وبيسان : بلد مشهور بالخمر فى الشام . القرقف : الخمر يرعد عنها صاحبها . وارجع إلى الأغانى فى رواية الشطر الأول .

ويقال : إنها دخلت على مروان بن الحكم فقال : ويحك ياليلى !أكما نعتِّ توبة كان ؟ قالت : أصلح اللهُ الأمير ! والله ما قلتُ إلا حقا ، ولقد قصّرت ، وما رأيت رجلا قطّ كان أربط على الموت جأشا ، ولا أقلّ انحياشاً حين تحتدم بُرَاكاء الحرب، ويحمى الوطيس بالطّعن والضرب ، كان والله كما قلت[1] :

فتى لم يَزَلْ يزداد خيْراً لَدُنْ نشا ... إلى أن علاه الشّيْبُ فوق المسايح
تراه إذا ما الموتُ حلّ بوِرْدِهِ ... ضَرُوباً على أقرانه بالصفائح
شجاعٌ لدى الهيجاء ثَبْتٌ مُشايحٌ ... إذا انحازَ عن أقرانه كلُّ سابح
فعاش حميداً لا ذميماً فعالُهُ ... وَصُولاً لقُرْباه يُرى غيرَ كالح

فقال لها مروان : كيف يكون توبة على ما تقولين وكان خارباً ؟ « والخارب سارق الإبل خاصة » . فقالت : والله ما كان خارباً، ولا للموت هائباً، ولكنه كان فتًى له جاهلية ، ولو طال عمره ، وأنسأه الموتُ لارْعَوى قلبه ، ولقضى في حب الله نَحْبه ، وأقصر عن لهوه ، ولكنه كما قال ابن عمه مسلمة بن زيد :

فلله قومٌ غادَرُوا ابن حمير ... قتيلا صريعاً للسيوف البَوَاتر
لقد غادَرُوا حَزْماً وعزماً ونائلا ... وصَبْراً على اليوم العَبُوس القاطر
إذا هاب وِرْدَ الموت كلُّ غَضَنْفَر ... عظيم الحوايا لَيْثُه غَيْرُ خادر
مضى قُدُماً حتى يلاقي وِرْدَهُ ... وجاد بسَيْب في السنين الكواشر[2]

فقال لها مروان : ياليلى ، أعوذُ بالله مِنْ درك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، فو الله لقد مات تَوْبة ، وإن كان من فتيان العرب وأشدائهم ، ولكنه أدركه الشقاء ، فهلك على أحوالِ الجاهلية ، وترك لقومه عَداوة .

ثم بعث إلى ناس من عقيل فقال : والله لئن بلغني عنكم أمرٌ أكرهُه من جهة توبة لأصلِّبنكم على جُذوع النخل، إياكم ودَعْوَى الجاهلية، فإن الله قد جاء بالإسلام، وهدم ذلك كله .

---

(١) شاعرات العرب : ١٣٨ . (٢) في م : الكواشر ، وفي ا : البواسر .

قدومها على الحجاج

وروى[١] أبو عبيـــدة عن محمد بن عمران المرزبانى قال : قال أبو عمرو بن العلاء الشيبانى : قدمت ليلى الأخيلية على الحجاج بن يوسف وعنـــده وجوهُ أصحابه وأشرافهم ، فبينا هو جالسٌ معهم إذ أقبلت جارية فأشار إليها وأشارت إليـــه ، فلم تلبث أن جاءت جاريةٌ من أجمل النساء وأكملهن ، وأتمهن خَلْقاً، وأحسنهن محاورة؛ فلما دنت منه سلّمت ثم قالت : أتأذنُ أيها الأمير قال : نعم ، فأنشدت[٢] :

أحجّاجُ إنَّ اللهَ أعطاكَ غايةً ... يُقَصِّرُ عنها مَنْ أراد مَداها
أحَجّاجُ لا يُفْلَلْ سِلاحُك إنما الـــمنايا بكفِّ الله حيثُ تَراها
إذا ورد الحجاجُ أرضا مريضةً ... تَتَبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العُضال[٣] الذى بها ... غُلامٌ إذا هزّ[٤] القناةَ ثَناها
إذا سَمِع الحجاجُ صَوْتَ كتيبةٍ ... أعدّ لها قَبْلَ النزولِ قِراها
أعدّ لهـــا مصقولة فارِسيةً ... بأيدى رجال يَحْلُبون صَراها[٥]

حتى أتت على آخرها . فقال الحجاج لمَنْ عنده : أتعرفون مَنْ هـــذه ؟ قالوا : ما نعرفها ؛ ولـكن ما رأينا امرأة أطلق لسانا منهـــا ، ولا أجمل وَجْها ، ولا أحسن لَفْظا ، فمَنْ هِيَ أصلح اللهُ الأمير ؟ قال : هى ليلى الأخيلية صاحبة توبة بن الحمير التى يقول فيها[٦] :

ولو أنّ ليلى الأَخْيَلِيَّة سلّمتْ ... علىّ ودونى جَنْدَلٌ[٧] وَصفائحُ
لسلّمتُ تسليمَ البَشاشة أوْ زَقَا[٨] ... إليها صدًى من جانب القبر صائحُ

ثم قال لها : ياليلى ، أنشدينا بعض ما قاله فيك توبة، فأنشدته[٩]:

---

(١) ق ا: أبو عبد الله محمد بن عمران المرزبانى . (٢) الأغانى : ١١ـ٢٤٧، اللآلى: ٢٨٠ ، شاعرات العرب : ١٤٨ . (٣) ق الأغانى: العضال . (٤) ق الأغانى : رز . والرز : الصوت . (٥) الصرى : بقية اللبن . (٦) الأغانى : ١١ـ٢٤٤ . (٧) ق م، ا : وفوق تربة. (٨) زقا : صاح . (٩) الأغانى : ١١ـ٢٠٨ .

نَأَتْكَ بليلى دارها لا تَزُورها   وشطَّتْ نواها واستمرَّ مَرِيرُها
وكنتُ إذا ما زُرْتُ ليلى تبرقعَتْ   وقد رَابنى منها الغَداةَ سفورُها
علىَّ دماء البُدْن إن كان زَوْجُها   يَرَى لِىَ ذنباً غيرَ أنى أزُورُها
وأنى إذا ما زرتُها قلت : يا اسْلَمى   فهل كان فى قولى اسْلَمِى ما يَضِيرُها
حمامةَ بَطْنِ الوادِيَيْنِ تَرَنَّمى   سقَاكِ من الغُرِّ الغوادى مَطيرُها
أبينى لنا لا زَالَ رِيشُكِ نَاعماً   ولا زِلْتِ فى خضراء دانٍ بَرِيرُها[1]
وقد تذهبُ الحاجات يطلبها الفتى   شَعاعاً وتَخْشَى النفسُ ما لا يَضِيرُها
أيذهب رَيْعَان الشباب ولم أزُرْ   غرائر من هَمدان بِيضاً نُحُورُها
ولو أن ليلى فى ذُرَى مُتَمنِّع   بنَجْرَان لالتفَّت علىَّ قصورها
يقرُّ بعينى أنْ أرى العِيسَ تَرْتَمى   بنا نحو ليلى وهى تجرى صقورها
وأشرف بالقور[2] اليَفَاع لعلَّنى   أرى نَار ليلى أو يَرَانى بَصيرُها
أرتنا حِمَام المَوْتِ ليلى ورَاقَنا   عيونٌ نَقِيَّاتُ الحواشى تُدِيرها

حتى أتت على آخرها .

فقال : ياليلى ، ما رَابه من سفورك؟ فقالت : أيها الأمير؛ ما رآنى قط إلا متبرقعة، فأرسل إلىّ رسولا إنه ملمٌّ بنا، فنظر أهلُ الحىّ رسوله فأعدُّوا له وكمنوا ؛ ففطنت لذلك من أمرهم ، فلما جاء ألقيت برقعى وسفرْت ، فأنكر ذلك ، فما زاد على التسليم وانصرف راجعاً .

فقال لها الحجاج : لله درك ! فهل كانت بينكما رِيبة قط ؟ قالت : لا والذى أسأله صلاحك ، إلا أنى رأيتُ أنه قال قولا فظننت أنه خضَع لبعض الأمر فقلت[3] :

وذِى حاجةٍ قلنا له لا تَبُحْ بها   فليس إليهـا ما حَيِيتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغى أن نَخُونَهُ   وأنت لأُخْرَى صاحبٌ وخليل[4]

---

(١) البرير : ثمر الأراك .   (٢) فى م : بالقور .   (٣) الأغانى : ١١–٢٠٧ ، الأمالى : ١–٩٨ .   (٤) فى الأغانى : فارغ وخليل .

فما كلمني بشيء بعد ذلك حتى فرّق الموت بيني وبينه .

فقال لها : حاجتك ! قالت: أن تحملني إلى قتيبة بن مسلم على البريد إلى خراسان، فحملها فاستظرفها قتيبة ووصلها ، ثم رجعت فماتت بساوة[١] ، وقبرُها هناك .

وروى المبرد أنها لما أنشدته الأبيات : أحجّاج إن الله أعطاك ... إلى قولها : غلام إذا هزّ القنــاة ثنّاها . قال لها : لا تقولي غلام ، ولـكن قولي : همام ، ثم قال لها : أي نسائي أحبّ إليك أن أنزلك عنــدها ؟ قالت : ومَنْ نساؤك أيها الأمير ؟ قال : أم الجُلَاس بنت سعيد بن العاص الأموية، وهند بنت أسماء بن خارجة الفزارية، وهند بنت المهلب بن أبي صُفْرة العَتَـكيّة[٢] . قالت : هذه أحب إلي .

فلما كان الغد دخلت إليه فقال : ياغلام أعطها خمسمائة . قالت : أيهـــا الأمير ، اجعلها أُدْما . قيل لها : إنما أمر لك بشاء ، فقالت : الأميرُ أكرم من ذلك ؛ فجعلها إبلا أُدْما استحياء ؛ وإنما كان أمر لها بشاء [أولا ، والأدمُ أكرمها][٣] .

وأول هــذا[٤] الحديث عن رجل من بني عامر بن صعصعة يقال له وَرْقاء قال : كنت عند الحجاج فدخل الآذِن فقال : أصلح اللهُ الأمير ! بالباب امرأة تَهْدِرُ كما يَهْدِرُ البعير النادّ[٥] . قال : أَدْخِلْها ، فلما دخلت نَسبها فانتسبَتْ له . فقال : ما أتى بك بالبلى ؟ قالت : إخلافُ النجوم ، وقلّةُ الغيوم ، وكَلَب البَرْد[٦] ؛ وشدة الجَهْد ، وكنت لنا بعد الله الرّفد[٧] .

قال لها : أخبريني عن الأرض . قالت : الأرض مغبرّة ، والفِجَاج مُقْشعِرّة ، وأصابتنا سنون مُجْحِفة مُظْلِمة ، لم تَدَعْ لنا هُبَعاً ولا رُبَعاً، ولا عافِطة ولا نافطة[٨]، أهلكت الرجال ، ومزّقت العِيَال ، وأفسدت الأموال. وأنشدت الأبيات التي مضت

---

(١) في الأغاني : فماتت بالري . (٢) في ط : القيسية . (٣) من م ، ١ .
(٤) الأغاني : ١٦ — ٢٤٠ . (٥) الناد : الشارد . (٦) كلب البرد : شدته .
(٧) في الأغاني: الرد ، والرد : الـكهل والمعقل . (٨) العافطة: الضائنة والنافطة : الماعزة.

آنفاً ؛ فالتفت الحجاجُ [إلى أصحابه][(١)] . وقال : هل تعرفون هذه ؟ قالوا : لا . قال : هذه ليلى الأخيلية التى تقول :

نحن الأخايلُ لا يزال غلامُنا ... حتى يَدِبَّ على العَصَا مذكورا[(٢)]
تبكى الرماحُ إذا فقَدْنَ أكفَّنا ... حزناً وتلقانا[(٣)] الرِّفاق بُحورا

وفى آخر حديثها قال لها : أنشدينا بعض شعرك فأنشدته[(٤)] :

لَعَمْرك مابالموتِ عارٌ على الفتى ... إذا لم تُصِبْه فى الحياة المَعايِرُ
ومن كان مما يحدث الدهر جازعا ... فلابدّ يوماً أن يُرَى وهو صابِر
فلا يبعدنْك الله ياتَوْبَ هالكا ... لدى الحرب إن دارَتْ عليك الدوائرُ
فكل جديد أو شباب إلى بِلًى ... وكلُّ امرئٍ يوما إلى الله صائِرُ
وكلُّ قرينَىْ أُلفَةٍ لتفرُّق ... شَتَاتٍ وإن ضنَّا وطال التَّعاشُرُ
فأقسمت أبكى بعد توبةَ هالكا ... وأحفل من دارت عليه الدوائر

فقال الحجاج لصاحب له : اذهب بهـا فاقْطَع عنى لسانَها ، فدعا لها بالحجّام ليقطَع لسانها .

فقالت له : ويحك ! إنما قال لك الأمير : اقطع لسانى بالعطاء ، فارجع إليه فاسأله ، فسأله فاستشاط غيظاً ، وهمّ بقطع لسانه ، [ثم أمر بها فأدخلت][(١)] فقالت : أيها الأمير ، كاد يقطع مِقْولى ، وأنشدته[(٥)] :

حجّاجُ أنتَ الذى ما فوقَه أَحَدٌ ... إلا الخليفة والمستغفَر الصَّمَد
حجاج أنتَ شهابُ الحَرْب إن لقحت ... وأنتَ للناس نورٌ فى الدُّجا[(٦)] يَقِدُ

* * *

من النقد

احتذى الحجاجُ فى قوله : اقطع «لسانها» قول النبى صلى الله عليه وسلم لما أعطى المؤلفة قلوبهم يوم حُنَين مائة من الإبل ، وأعطى العبـاس بن مرداس أربعين فسخطها وقال :

(١) من م ، ا . (٢) فى الأغانى : مهجورا . (٣) فى الأغانى: جزعا وتحرقا.
(٤) الأغانى : ١١ـ٢٣٤ ، ٢٤١ . (٥) الأغانى : ١١ـ٢٤٢
(٦) فى ا : نور ضوؤه .

أتجعل نَهْبي ونَهبَ العُبَيْــــد بين عُيَيْنَةَ والأقرعِ
وما كان حِصْنٌ ولا حابسٌ يفوقان مِرْداسَ في مَجْمَعِ
وما كنت إلا امرأً منهمُ ومن تضع اليوم لا يرفع

العُبَيد اسم فرسه ، وحصن [الذي ذكره](1) هو أبو عُيَيْنة بن حِصْن بن حذيفة ابن بَدْر سيد فَزارة ، وحابس أبو الأقرع بن حابس ، وقد تقدم نسبه . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بإحضاره فقال : أنت القائل :

أتجعل نهبي ونَهْبَ العبيد بن الأقرع وعيينة

وكان النبي عليه الصلاة والسلام كما قال الله عز وجل :(2) «وما علَّمْناه الشِّعْرَ وما ينبغي له » . فقال : قم يا علي فاقطع لسانه .

قال العباس . فقلت : يا عليّ ؟ وإنك لقاطع لساني ؟ قال : إني مُمْضٍ فيك ما أمِرْت ، فمضى بي حتى أدخلني الحظائر ، فقال : اعتدّ ما بين الأربعين إلى مائة ، قلت : بأبي أنت وأمي ! ما أحلمكم وأعلمكم وأعدلكم وأكرمكم ! فقال : إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أعطاك أربعين ، وجعلك من المهاجرين [فإن شئت] فخُذْها ، وإن شئت فخُذْ مائة ، وكن من المؤلَّفة قلوبهم . فقال : أشِر عليّ . فقال : إني آمرك أن تأخذ ما أعطاك . فأخذتها .

* * *

قدومها على عبد الملك

وكانت ليلى الأخيلية قد هاجَتْ النابغة الجَعْدي فأفحمته ، ودخلت على عَبد الملك ابن مروان وقد أسنّت فقال : ما رأى تَوْبَةُ فيك حتى أحبك ؟ قالت : رأى فيّ ما رأى الناسُ فيك حين ولّوك ! فضحك عبدُ الملك حتى بدَتْ له سنّ سوداء كان يُخْفيها .

* * *

هند الضبابية

وقالت هند بنت أسد الضبابية(3) :

لقد مات بالبيضاء من جانب الحِمَى فتى كان زَيْناً للمواكب والشَّرْبِ

(1) من م ، ا . (2) سورة يس ، آية ٦٩ . (3) شاعرات العرب : ٦٦ ترثي أخاها .

يلوذُ به الجاني مخافةَ ما جَنَى　　كما لاذَتِ العَصْماء بالشاهقِ الصعبِ
تظلُّ بناتُ العمِّ والخالِ حَولهُ　　صوادِيَ لا يَرْوَيْن بالباردِ العَذْبِ

أم خالد النميرية

وقالت أم خالد النميرية [تشبّب بأثال الكلابي](١) :

إذا ما أتتنا الريحُ من نحو أرضهِ　　أتتنا بريّاه فطاب هبوبُها
أتتنا بمسك خالط المسكَ عنبرٌ　　وريح خزامى باكرتها جنوبها
أحنُّ لذكراه إذا ما ذكرتُهُ　　وتنهلّ عبراتٌ تفيضُ غروبها
حنينَ أسيرٍ نازحٍ شُدّ قيدهُ　　وإعوالَ نفسٍ غاب عنها حبيبُها

أم الضحاك المحاربية

وأنشد أبو العباس أحمد بن يحيى [ثعلب](٢) لأم الضحاك المحاربية وكانت تحب رجلا من الضباب حباً شديداً(٣) :

يأيها الراكب الغادِي لطيّتهِ　　عرّج أبثّك عن بعض الذى أجدُ
ما عالجَ الناسُ من وَجْدٍ تضمّنهم　　إلا وجدت به فوق الذى وجدوا
حسبي رضاه وأنى فى مسرّته　　ووده آخرَ الأيام أجتهدُ

وقالت(٤) :

هل القلبُ إن لاقى الضّبابيَّ خالياً　　لدى الرُّكْنِ أو عند الصَّفا يتحرّجُ
وأزعجنا قُربُ الفراقِ وبيننا　　حديثٌ كتنفيس(٥) المريضين مُزعج
حديثٌ لو أنّ اللحمَ يُشوَى بحره　　غريضا أتى أصحابَه وهو مُنضَجُ

حليمة الخضرية

وأنشد الزبير بن بكار لحليمة الخضرية(٦) ، وقد أنشدها المبرد لنبهان العبشمي وهو أشبه :

---

(١) من ا ، م ، وفى شاعرات العرب : ١٨٢ ترثى ولدها ، اللآلى : ٦٤٩ .

(٢) ليس فى ا ، م .　(٣) شاعرات العرب : ٦٤ : طلقها الرجل فقالت ، وفى الأمالى : وقرأت لزينب بنت فروة المرية فى ابن عم لها يقال له المغيرة : ٢—٨٧ .

(٤) شاعرات العرب : ٦٥ ، الأمالى : ٢ — ٨٧ .　(٥) فى شاعرات العرب والأمالى : كتنشيج .　(٥) شاعرات العرب : ٥٠ ، اللآلى ٢٢٦ ، الأمالى : ١ — ٦٣ .

يقرُّ بعيني أن أرى مَنْ مكانُه ... ذُرَى عَقِداتِ الأجرعِ المُتقاوِدِ
وأنْ أرِدَ الماء الذى شربتْ بهِ ... سُلَيْمَى وإن ملَّ السُّرى كلُّ واخد
وأُلْصِقُ أحشائى بِبَرْدِ تُرَابهِ ... وإنْ كان مخلوطاً بسمِّ الأساودِ

الفارعة بنت شداد

وقالت الفارعة بنت شداد ترثى أخاها مسعودا[1] :

يا عين بَكِّى لمسعود بن شدَّادِ ... بكاء ذى عبرات شَجْوُه بَادِى
من لايذابُ لهشَحْمُ السَّدِيفِ ولا ... يَجْفُو العيالَ إذ ما ضُنَّ بالزادِ
ولا يحـلُّ إذا ما حلَّ مُنْتَبِذاً ... يخشى الرزية بين المالِ[2] والنادِى
قوّالُ مُحْكَمَةٍ نَقّاضُ مُبْرَمَةٍ ... فتاحُ مُبْهَمَةٍ حبّاس أوْرَادِ
قتّالُ مَسْغَبَةٍ وثّاب مَرْقَبَةٍ ... منّاعُ مَغْلَبَةٍ فكّاكُ أقيادِ
حلّالُ مُمْرِعَةٍ فرّاج مُفْظِعة ... حمّالُ مُضْلِعَةٍ طلّاعُ أنجاد
حمّالُ ألوِيةٍ شهّادُ أنْدِيةٍ ... شدّاد أوْهِيَةٍ فرّاج أسْدَادِ[3]
جمّاع كلِّ خصالِ الخير قد علموا ... زينُ القرين ونكْل الظالمِ العادِى
أبا زُرَارة لا تبعد فكلُّ فتى ... يوْماً رهينُ صفيحاتٍ وأعْوَادِ
هلا سقيتم بنى جُرْمٍ أسيرَكم ... نَفْسِى فداؤك من ذى كُرْبةٍ صادِى
نعم الفتى ، ويمينِ اللهِ ، قد علموا ... يَخْلُو به الحيُّ أو يَغْدو به النادِى
هو الفتى يحمدُ[4] الجيرانُ مشهدَهُ ... عند الشتاء وقد همُّوا بإخماد
الطاعن الطعنةَ النجلاء يَتْبَعُها ... مُثْعَنْجِرٌ بعد ما تَغْلى بإزْباد
والسابقُ الرِّقَّ للأضياف إن نزلوا ... إلى ذَرَاهُ وغيثُ المُحْوِج النادِى

والمسنات من النساء كثير ، وقد تفرق لهن فى أضعاف هذا الكتاب ما اختير .

---

(١) شاعرات العرب : ٦٩ ، الأمالى : ٢ — ٣٢٤ . (٢) فى ا ، والأمالى : الماء والبادى .
(٣) فى ا ، م : أشداد . (٤) فى ا : تحمد النيران ، وفى م : تمدح الجيران .

[في البكاء ووصف الدموع]

وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب(١) :

ومستنجد(٢) بالحُزْنِ دمعا كأنهُ ... على الخد مما ليس يَرْقَأ حائرُ
إذا دفعةٌ منه استقلّت تَهلّلتْ ... أوائلُ أخرى ما لهنّ أواخرُ
مَلَا مُقلتيه الدمعُ حتى كأنهُ ... لِمَا انهلّ من عينيه في الماء ناظر
وينظر من بين الدموع بمُقْلةٍ ... رمَى الشوقُ في إنسانِها فهو ساهِرُ

وقال آخر — ورُوِيت لقَيْس بن المُلَوَّح(٣) :

نظرتُ كأني من وراء زجاجةٍ ... إلى الدار من ماء الصبابة أنظرُ
فعيناي طوْرا يَغْرقان من البُكا ... فأعشى وَطورا تحسِران فأُبصر

وقال غيلان(٤) :

وما شَنّتا خَرْقاء وَاهية الكُلَى ... سقَى بهما ساقٍ ولمّا تَبَلّلا
بأضيع من عينيك للدّمع كلّما ... توهمْت ربعا أو توسمْتَ منزلا

وقال آخر(٥) :

ومما شجاني أنها يوم ودّعتْ ... تولّتْ وماء الجفْن في العين حائرُ
فلما أعادت من بَعيد بنَظْرَة ... إلىّ التفاتا أسْلَمَتْه المحاجِرُ

أبو عبادة البحتري(٦) :

وقَفْنَا والعيونُ مشغّلاتٌ ... يُغالب طرفَها نظرٌ كليلُ
نَهَتْهُ رِقبة الواشين حتى ... تعلّق لا يَفيض ولا يَسِيلُ

---

(١) اللآلئ : ٤٩٦ ، الأمالي : ١ — ٢٠٨ .   (٢) في ا ، م : ومستنجز .
(٣) المختار من شعر بشار : ٣٢٤ ، المعاهد : ٢ — ٨٩ ، الأمالي : ١ — ٢٠٨ .
(٤) اللآلئ : ٢٦٥ ، الأمالي : ١ — ٢٠٨ . (٥) المختار من شعر بشار : ٢٤٧ ، العقد : ٢ — ٢٣١ .   (٦) المختار من شعر بشار : ٢٤٧ ، ديوانه : ١ — ١٩٤ ، اللآلئ : ٤٩٦ .

وأنشد أبو الحسن [جحظة(١)] :

ومن طاعتي إياه أمطر ناظري   إذا هو أبدى(٢) من ثناياه لي برقا
كأنّ دموعي تُبصِرُ الوَصْلَ هاربا   فمن أجله تجْري لتدركه سَبْقا

أخذ البيت الأول المتنبي فقال(٣) :

يبتلّ خَدّى(٤) كلّما ابتسمتْ   منْ مَطَرٍ برقُهُ ثَنَاياهَا

وقال أبو الشيص ، واسمه محمد بن عبيد الله ، وهو ابن عمّ دعبل(٥) :

وقائلةٍ وقد بَصُرَتْ بِدَمْعٍ   على الخدين مُنْحَدِرٍ سَكوبِ
[فقلت لها فداك أبي وأمي   رجمت بسوء ظنك في الغيوبِ(٦)]
أتكذبُ في البكاء وأنتَ جَلْدٌ(٧)   قديمًا ما جَسَرْتَ على الذنوبِ
قميصُك والدموعُ تجول فيه   وقلبك ليس بالقلب الكئيبِ
كمثل قميص(٨) يوسف حين جاءوا   عليه(٩) عشيةً بِدَمٍ كَذُوبِ
أما والله لو فتّشت قلبي   لسرّك بالعويلِ وبالنحيب
دموعُ العاشقين إذا تلاقَوْا   بظَهْرِ الغيب ألسِنَةُ القلوبِ

[العباس بن الأحنف]

وقال بشار بن برد : ما زال فتى من بنى حنيفة يُدْخِلُ نفسَه فينا ويُخْرِجُها منا حتى قال(١٠) :

نَزَفَ البكاءُ دموعَ عينك فاسْتَعِرْ   عينا لغيرِك دَمْعُها مِدْرَارُ
مَنْ ذَا يعيرك عينَه تَبْكى بها   أرأيت عَيْنًا للبكاء تُعَارُ !

---

(١) من ا ، اللآلئ : ٤٩٧ ، الأمالي : ١ــ٢٠٩ (٢) في الأمالي : له حين يبدى .
(٣) ديوانه : ٤ــ٢٧١ . (٤) في الديوان ، وفي م : تبل خدي .
(٥) المعاهد : ٤ــ٩٣ ، وفي ا : وهو ابن دعبل ، وفي ا من هذه الأبيات ١ ، ٤ ، ٦ فقط
(٦) من ا . (٧) في م : خلق . (٨) في المعاهد ، م : نظير قميص يوسف .
(٩) في م : على لبانه . (١٠) ديوانه : ٦٨ ، الأمالي : ١ــ٢٠٩ ، اللآلئ : ٣١٤ .

قال : وهـــذا الذى عناه بشار هو أبو الفضل العباس بن الأحنف بن طلحة بن هارون[١] بن كلدة بن خزيم بن شهاب [بن سالم[٢]] بن حبة بن كليب بن عدى بن عبد الله بن حنيفة ــ وكان كما قال بعض مَنْ وصفه : كانَ أحسنَ خَلْقِ الله ــ إذا حَدّث ــ حديثاً ، وأحسنَهم ــ إذا حُدث ــ استماعا ، وأمسكهم عن مُلَاحاة إذا خُولِف ، وكان ملوكى المذهب ، ظاهر النّعمة ، حسنَ الهيئة ، وكانت فيه آلاتُ الظَّرْفِ ، كان جميلَ الوجه ، فَارِه المركب ، نظيفَ الثّوب ، حسن الألفاظ ، كثير النوادر ، رطيب الحديث ، باقيا على الشراب ، كثيرَ المساعدة ، شديد الاحتمال ، ولم يكن هجّاء ، ولا مدّاحاً ، كان يتنزّهُ عن ذلك ، ويُشَبَّه من المتقدمين بعمر بن أبى ربيعة .

وسُئل أبو نواس عن العباس وقد ضمّهما مجلسٌ فقال : هو أرَقّ من الوَهْم ، وأحسن من الفهم ، وكان أبو الهُذيل العلاف المعتزلى إذا ذكره لعنَه وزنّاه لأجل قوله[٣] :

وضعت خدّى لأدنى من يُطيف بكم ... حتى احتُقِرْت وما مِثْلى بمحتقَرِ
إذا أردت انتصارا كان ناصرَكم ... قلبى وما أنا من قلبى بمُنْتَصِر
فأكثروا أو أقلوا من ملامكم ... فكلٌّ ذلك محمول على القدَرِ

وقوله فى البيت الأوسط كقوله[٤] :

قلبى إلى ما ضرّنى داعِى ... يُكثِرُ أسقامى وأوْجاعِى
لقلما أبْقَى على ما أرى ... يوشك أن ينعانىَ الناعى[٥]
كيف احترامى من عدوى إذا ... كان عدوى بين أضلاعى

وقيل [لمنان[٦]] جارية الناطفى : من أشعرُ الناس ؟ قالت : الذى يقول[٧] :

---

(١) فى م : جون ، وفى ا : حوار . (٢) من م ، ا . (٣) ديوانه : ٦٩ .
(٤) ديوانه : ١٠١ . (٥) فى الديوان : أن ينعى بى الناعى .
(٦) من ا . (٧) ديوانه : ٨٧ .

وأهجركم(1) حتى يقولوا لقـد سَلَا ... ولستُ بسالٍ عن هواكِ إلى الحَشْرِ
ولكن إذا كان المحب على الذى ... يحب شفيقاً نازع(2) الناس بالهَجْرِ

وقال [العباس](3) :

جرى السيلُ فاستبكانىَ السيلُ إذْجرى ... وفاضَتْ له من مقلتىَّ غروب
وما ذاك إلا أنْ تيقّنتُ أنهُ ... يمرّ بوادٍ أنتَ منه قريب
يكون أجاجاً دونكم فإذا انتهى ... إليكم تلقَّى طِيبَكم فيَطيب
فياساكِنى شَرْقِىّ دجلةَ كلكُم ... إلى القلب من أجل الحبيبِ حبيبُ

ابن الأحنف والعتابى

وقال الصولى : ناظَرَ أبو أحمد على بن يحيى المنجم رجلا يُعْرَف بالمتفقه الموصلى فى العباس بن الأحنف والعتّابى ، فعمل علىٌّ فى ذلك رسالة أنفذها لعلى بن عيسى ؛ لأنّ الكلامَ فى مجلسه جَرَى . وكان ممــا خاطبه به أن قال : ما أهَّل نفسَه قطّ العتّابى لتقديمها على العباس فى الشعر ، ولو خاطبه مخاطبٌ لدَفَعه وأنْكَره ؛ لأنه كان عالما لا يُؤْتَى من قلة معرفة بالشعر ، ولم أرَ أحداً من العلماء بالشعر مثل العتّابى والعباس ، فضلا عن تقديم العتّابى عليه لتباينهما [فى ذلك](4) ، وإن العتابى متكلف ، والعباس يتدفّق طبعا ؛ وكلامُ هذا سهلٌ عَذْب ، وكلام ذاك متعقّد كَزّ ، وفى شعر هذا رِقّةٌ وحلاوة ، وفى شعر ذاك غِلَظ وجَسَاوة ، وشِعْرُ هذا فى فنّ واحد وهو الغزل ؛ وأكثر فيه وأحسن ، وقد افتنّ العتّابى فلم يخرج فى شىء منه عمّا وصفناه .

من أحسن شعر العتابى

وإن من أحسن شعر العتّابى قصيدته التى مدح بها الرشيد وأولها :

ياليلةً لىَ فى حُوران(5) ساهرةً ... حتى تَـكلّمَ فى الصبح العصافيرُ

وقال فيها(6) :

فى مآقىّ انقباضٌ عن جُفونِهما ... وفى الجفونِ عَنِ الآماقِ تقصيرُ

---

(1) فى الديوان : وأهجر عهداكى . . . (2) فى الديوان : عامل ، وفى ا : نازع .
(3) ديوانه : ١٨ . (4) من م ، وفى ا : فى المذهب ، وذلك أن العتابى .
(5) فى ا ، م : جوان . (6) المختار من شعر بشار : ٦٣ .

وهذا البيت أخذه من قول بشار الذى أحسن فيه كل الإحسان وهو قوله[١] :

جَفَّتْ عَيْنِى عن التغميض حتى ... كأنَّ جفونَها عنها قِصارُ

فسخه العتابى ، على أن بشاراً أخذه من قول جميل[٢] :

كأنَّ المحبَّ لِطول السهاد ... قصيرُ الجفون ولم تَقْصُرِ[٣]

إلا أنَّ بشارا أحسن فيه فنازعهما إياه فأساء ، وإن حقَّ من أخذ معنى قد سُبق إليه أن يصنعه أجود من صَنْعَة السابق إليه ، أو يزيد عليه ، حتى يستحقَّه ، وأما إذا قصَّر عنه فهو مسىء مَعِيب بالسرقة ، مذموم على التقصير .

ولقد هاجى أبا قابوس النصرانىَّ فغُلب عليه فى كثير مما جرى بينهما على ضعف مُنَّة أبى قابوس فى الشعر ، ثم قال فى هذه القصيدة[٤] :

ماذا عسى مادحٌ يُثْنِى عليك وقد ... نَادَاكَ بالوَحْىِ تقديسٌ وتطهيرُ

فُتَّ المدائحَ إلَّا أنَّ ألسننا ... مستعلنات بما تُخْفِى الضمائيرُ[٥]

ختم البيت ... ا بأثقل لفظةٍ لو وقعت فى البَحر لكدَّرته، وهى صحيحة، وما شىء أملك بالشعر بعد صحة المعنى من حُسْنِ صِحَّة اللفظ ، وهذا عمل التكلف ، وسوء الطبع .

العباس بن الأحنف إحسان كثير

وللعباس بن الأحنف إحسان كثير ، ولو لم يكن إلا قوله[٦] :

أنكرَ الناسُ[٧] ساطعَ المِسْكِ من دجـ ... ـلة قد أوسعَ الشارعَ طِيبا

فهمُ يعجَبُون منه وما يَدْ ... رُون أنْ قد حَلَلْتُ منه قريبا

فاعجبى هذا البلاء وإلَّا ... فاجعلى لى من التعزِّى نصيبا

إنَّ بعضَ العتابِ يدعو إلى العَتْـ ... ـب ويؤذِى به المحبُّ الحبيبا

---

(١) المختار من شعر بشار : ٢٣ . (٢) المختار : ٢٣ ، ديوانه : ٣٦ . (٣) فى المختار:
كأن المحب قصير الجفون ... لطول السهاد ولم تقصر

(٤) الشعراء : ٨٣٩ . (٥) فى ط : الضماير . (٦) ديوانه : ٢٩ .

(٧) فى الديوان : وجد الناس .

وإذا ما القلوبُ لم تُضْمِرِ العَطْـــــفَ فلن يَعْطِفَ العِتابُ القلوبا

وقوله(١) :

قالت مرضتُ فعُدْتُها فتبرَّمَتْ ... وهى الصحيحةُ والمريضُ العائدُ

تاللهِ لو أنَّ القلوبَ كقلبها ... ما رَقَّ للولد الصغيرِ الوالدُ

إنْ كان ذنبى فى الزيارة فاعْلَمِى ... أنى على كَسْبِ الذنوبِ لجاهدُ

ألقيت بين جفون عينى فُرْقَةً ... فإلى متى أنا ساهرٌ يارَاقِدُ

يقعُ البلاءُ ويَنْقَضِى عن أهله ... وبلاءُ حُبِّك كلَّ يوم زائد

سمّاك لى ناسٌ وقالوا إنها ... لهى التى تَشْقَى بهـــا وتُـكابِدُ

فجحدتُهم ليـكونَ غيرك ظَنُّهم ... إنى ليعجبنى المحبُّ الجاحِدُ

وقوله(٢) :

إنى وإن كنتِ قد أسأتِ بِيَ الـ ... يَوْمَ لراجٍ للعَطف منك غدا

أستمتع الله بالرجاء وإن ... لم أر منكم ما أرتجى أبدا

وله(٣) :

أَهْدَى له أحبابه أُتْرُجَّةً ... فبـكى وأشفق من عِيافة زاجرِ

متطيرا منها أتَتْه وحسنُها(٤) ... لونان باطنها خِلافُ الظّاهِرِ

والله وفَّى أبو أحمد العبـــاسَ حقَّه ، لقد ظلم العتّابى ما كان يستحقه من أَسْر الـكلام ، وجَوْدَةِ رصف النظام .

قال الصولى فى نسب العباس : وكان من خؤولته : هو العباس بن الأحنف ابن الأسود بن قُدامة بن [هيان من بنى هفّان بن الحارث بن](٥) دهـــل بن [الديل بن](٥) حنيفة . وله يقول الصريع يهجوه(٦) :

(١) ديوانه : ٤٨ . (٢) ديوانه : ٥٧ . (٣) ديوانه : ٧٤ .

(٤) فى الديوان : لأنها ، وفى م ، ١ : وطعمها . (٥) من م ، ١ .

(٦) الشعراء : ٨٠٣ .

بنو حنيفةَ لا يَرْضَى الدعيُّ بهم(١) ... فاتْرُكْ حنيفةَ واطْلُبْ غيرها نَسَبا
اذهبْ إلى عربٍ تَرْضَى بنسبتِهم ... إنى أرى لك لونا يُشبه العربا

وقال [أبو أحمد](٢) العباس :

حُرٌّ دعاهُ الهوَى سِرًّا فَلَبَّاهُ ... طَوْعا فأضْحَكَ مَوْلاهُ وأبكاهُ
فشاهدت بالذى يُخْفِى لَوَاحِظه ... وعدّلَتْها بفيض الدمع عَيْناه
جازَ يُعَنِّينى إذ رعيت الودَّ بعدك أن ... وكَّلْتِ طَرْفى بنجم الليل يرعاه
اللهُ يشهدُ أنى لم أخُنْكِ هوًى ... كفاكِ بيِّنةً أنْ يَشْهَدَ اللهُ

وقال(٣) :

يا من يُكاتِمنى تغيُّرَ قَلْبِهِ ... سأكُفُّ نفسى قبل أنْ تَتَبَرَّما(٤)
وأصُدُّ عنك وفى يدىَّ بقيَّةٌ ... من حَبْل ودِّك قبل أن يتصرَّما
بالرجالِ العاشقَين تَوَاقفَا ... وتخاطَبا من غيرِ أنْ يتكلَّما
حتى إذا خافَا العيونَ وأشفقا ... جعلا الإشارةَ بالأنامل سُلَّمَا

وقال(٥) :

اللهُ يعلمُ ما أردتُ بهجركم ... إلَّا مساترةَ العدوِّ الكاشحِ
وعلمت أن تسترى وتباعدى ... أبقَى لوَصْلِكِ من دُنوٍّ فاضحِ

وقال(٦) :

يَهيمُ بحرّان(٧) الجزيرة قلبُهُ ... وفيها غَزَالٌ فاترُ الطَّرْفِ ساحِرُهْ
يؤازرُهُ(٨) قلبى علىَّ وليس لى ... يَدانِ بمَنْ قلبى علىَّ يؤازِرُه

---

(١) فى م : بكم . (٢) ليست فى م ، ا . (٣) ديوانه : ١٣٦ .
(٤) فى الديوان : تتحرما . (٥) ديوانه : ٤٤ . (٦) ديوانه : ٨٨ .
(٧) فى ط : بحيران . (٨) فى ا : يؤازرها .

[الطرف والقلب]

وقد قال سهل بن هارون :

أعانَ طَرْفِي على قلبي وأعضائي ... بنَظْرَةٍ وقفتْ جسْمِي على دَائي
وكنتُ غِرًّا بمـا يجنى على بَدَنِي ... لا عِلْمَ لى أنّ بعضِي بعضُ أعدائي

وقال النظام[1] :

إنّ العيونَ على القلوبِ إذا جَنَتْ ... كانت بَلِيَّتُها على الأجسادِ

البحترى[2] :

ولستُ أعْجَبُ من عِصْيَانِ قلبكَ لِي ... حقًّا[3] إذا كان قلبي فيك يَعْصِينِي

وقال الأصمعى : سمعتُ الرشيد يقول : قَلْبُ العاشق عليه مع مَعْشُوقه . فقلت : هذا والله يا أميرَ المؤمنين أحْسن من قول عُروة بن حزام العُذْرِى فى أبياته التى أنشدها[4] :

وإنّى لتَعْرُونى لذِكْراكِ رَوْعةٌ ... لها بين جِلْدِى والعظامِ دَبِيبُ
وما هو إلّا أن أراها فُجاءةً ... فأُبْهَتَ حتى لا أكاد أُجِيبُ
وأُصْرَفَ عن دائى الذى كُنْتُ أرْتَئِى ... ويعزب مِنّى ذِكْرُهُ ويَغِيبُ
ويضمر قلبي غدرها ويُعِينُها ... علىَّ ، وما لى فى الفؤاد نَصِيبُ

فقال الرشيد : مَنْ قال ذلك وهمًا فقد قاله علمًا .

[شذور من الحكم]

قال على بن عبيدة الريحانى : اكْتُم وِدَّكَ فإنه عِرْضُك ، وصُنِ الأنس بك فإنه بد حظك ، ولا تستكثر من الطمأنينة إلا بعد استحكام الثّقة ؛ فإن الأنس سريرةُ

---

(١) هكذا فى ا ، م . وفى ط : الناظم . (٢) ديوانه : ٢ — ٢٩٥ .
(٣) فى الديوان : عمدا . (٤) الشعراء : ٦٠٥ ، اللآلى : ٤٠٠ .

العقل ، والطمأنينة بذلة التحابين ، وليس لك بعدها تُحْفَة تَمْنحها صاحبَك ، ولا حبا تُوجب به الشكر على من اصطفيت .

وقال : ما أنصف من عاتب أخاه بالإعراض على ذَنْب كان منه ، أو هجره لخلافٍ بما يكْرَه عنده ، إذا كان لا يعتدُّ في سالف أيام العشرة[١] إلا بالرضا عنه ، ومشاكلته فيما يُؤْنسه منه . فإن كان العاتِب شكى جميع ما ستَره من أخيه أولا ، فلقد تَمَّم الموافقة حظَّ الاغتفار ، وإن لم يكن وَفَّله بكَيْلِ ما استحقَّ منه فليقتصَّ مِمَّا وجَب منه عليه لأخيه بقدر ذنبه ، ثم العودة إلى الألفة أولى من تشتُّتِ الشَّمْلِ ، وأشبَهُ بأهل التصافي ، وأكرَمُ في الأحدوثة عند الناس .

وقال : الحياء لِبَاسٌ سابغ ، وحِجَاب وَاق ، وسِتْر من المساوى ، وأخُو العفاف ، وحَلِيف الدِّين ، ومُصَاحِبٌ بالصُّنع ، ورَقيب من العِصْمَة ، وعين كَالِئَةٌ تذودُ عن الفساد ، وتنْهى عن الفحشاء والإدناس .

وقال : لايخلو أحدمن صَبْوَةٍ إلّا أن يكونَ جَاسِيَ الخِلْقَةِ منقوص البِنْية ، أو على خلاف تَركيب الاعتدال .

[الهوى]

ورأى سعيد بن سَلْم[٢] بن قُتَيبة ابناً له قد شرع في رقيق الشعر وروايته ، فأنكر عليه ، فقيل له : إنه قد عشق ، فقال : دَعُوه فإنه يلطُفُ ، وينظُفُ ، ويَظْرُفُ .

وقال الفضل[٣] بن أحمد بن أبي طاهر ، واسم أبي طاهر طيفور : وصف الهوى قومٌ وقالوا : إنه فضيلة ، وإنه ينتج الحيلة ، ويشجّع قَلْبَ الجبان ، ويسخِّي قَلْبَ البخيل ، ويصفِّي ذِهن الغبي ، ويطلق بالشِّعْر لسانَ الْمُفْحَم ، ويبعث حَزْم العاجز

(١) في ا : الهجرة . (٢) في ط : بن مسلم . (٣) في ط : أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور .

الضعيف ؛ وإنه عزيز تذل له عزّةُ الملوك ،وتضرع فيه صَوْلةُ الشجاع ، وتنقاد لطاعة كل مُمتنع ، ويذلّل كلّ مستصعَب ، ويبرز كل محتجب ؛ وهو داعية الأدب ، وأولُ باب تُفتَّقُ به الأذهان والفِطَن ، وتستخرج به دقائقُ المكايد والحِيَل ، وإليه تستريح الهِمَم ؛ وتسكن نوافرُ الأخلاق والشِّيَم ، يُمتع جليسه ، ويؤنس أليفه ، وله سرورٌ يجول فى النفس ، وفرحٌ مستكِن فى القلب ، وبه يتعاطف أهلُ المودّة ، ويتصل أهل الألفة ، وعليه تتألّف الأشكال . وله صَوْلات على القدر ، ومكايد تُبطِلُ لطائف الحيل ، وظرَفٌ يَظْهرُ فى الأخلاق والخلق ، وأرواح تَسْطَع من أهلها ، وتَعْبق من ذويها .

وقال اليمانى بن عمرو مَوْلى ذى الرِّيَاسَتَيْن : كان ذو الرياستين يَبْعَثُ بى وبأحداث من أهله إلى شيخ بخراسان ويقول : تعلّمُوا منه الحكمة ؛ فكنّا نأتيه ، وإذا انصرفنا من عنده اعترضَنَا ذو الرياستين يسألنا عما أفادنا فنخبره ؛ فسِرْنا إلى الشيخ يوماً فقال لنا : أنتم أدباء ، وقد سمِعْتم الحكمة ، وفيكم أحداث ، ولكم نِعَم ، فهل فيكم عاشق ؟ قلنا : لا ، قال : اعشقوا ، فإنّ العشق يُطْلِق الغبيّ ، ويَفْتَحُ حِيلةَ البليد ، ويسخّى كفّ البخيل ، ويَبْعَثُ على النظافة وحسن الهيئة ، ويَدْعُو إلى الحركة والذكاء ، وشرف الهمة ، وإياكم والحرام .

قال: فانصرفنا ، فسألنا عما أفادنا فى يومنا ؛ فهِبْناه أن نخبره ، فعزَمَ علينا . فقلنا له : أمرنا بكذا وكذا ، قال : صدق ، أتعلمون من أين أخذَ هذا الأدب ؟ قلنا : لا . قال : إن بهرام جور كان له ابنٌ رشَّحَه للملك من بعده ، فنشأ ساقطَ الهمّة ، خامل المروءة ، دَنِيء النفس ، سَيّئ الأدب ، كليل القريحة ، كَهَام الفِكْر ؛ فغمَّه ذلك ، ووكّل به من المؤدبين والمنجّمين والحكماء من يلازمُه ويعلّمه ، وكان يسألهم فيحكُون له ما يسوءه إلى أن قال له بعض مؤدبيه : قد كنا نخافُ سوء أدبه فحدث من أمره ما صيرَنَا إلى اليأس منه ، قال : وما ذلك ؟ قال : رأى ابنةَ فلان المرزُبان

فشَيقها فغلَبَتْ عليه ، فهو لا يهذى إلّا بأمرها ، ولا يتشاغَلُ إلّا بذِكْرها . فقال بهرام جُور : الآن رَجَوْتُ صلاحَه .

ثم دعا بأبى الجارية فقال: إنى مُسِرٌّ لك سرًّا فلا يعدوَنّك . فضَمِن له سَتْره، فأعلمه أن ابنَه قد عشق ابنتــه ، وأنه يريد أن يُنْكِحها إياه ، وأمره أن يأخذها بإطماعه بنفسها ، ومراسلته من غير أنْ يراها ، أو تَقَع عَيْنه عليها ؛ فإذا استحكم طَمَعُه فيها تجنَّتْ عليه ، وهجَرَتْه ، فإذا استعتبها أعلمته أنها لا تَصْلُح إلّا للملك ، أو مَنْ هِمَّته همّةُ ملك ؛ وأن ذلك يمنعها من مُوَاصلته ، ثم ليعلمه خبَرَها وخَبَره ، ولا يُطْلِعها على ما أسَرَّ إليه ؛ فقبل ذلك أبوها منه .

ثم قال للمؤدّب : خوِّفه بى ، وشجّعْه على مراسلة الجارية . ففعل ذلك ، وفعلت الجاريةُ ما أمرها به أبوها ؛ فلما انتهت إلى التجنّى عليه ، وعلم الفتى السببَ الذى كرِهَتْه من أجله أخذَ فى الأدب ، وطلب الحكمة ، والعلم ، والفروسية ، ولعب الصَّوَالجة ، والرّماية حتى مهر فى ذلك ، ورفَع إلى أبيه أنه يحتاج من المطاعم والآلات والدوابّ واللابس والوزراء فوق الذى كان له ؛ فسُرَّ الملكُ بذلك ، وأمر له بما أراد ، ودعا بمؤدّبه ، فقال : إنّ الموضع الذى وضع ابنى نفسَه فيه بحبّ هذه المرأة لا يُزرى به ؛ فتقدّم إليه أن يرفع أمرها إلىّ ويسألنى أن أزوجه إياها ، ففعل، فزوجها منه ، وأمر بتعجيل نقلها إليه، وقال له : إذا اجتمعت أنت وهى فلا تحدِثْ شيئا حتى أصير إليك .

فلما اجتمعا صار إليه فقال : يابنى ، لا يضعنَّ منها عندك مراسلَتُها إياك، وليست فى حبالك ، فأنا أمرتُها بذلك ، وهى من أعظم الناس مِنّةً عليك، بما دَعَتك إليه من طلب الحكمة ، والتخلّق بأخلاق الملوك ، حتى بلغْتَ الحدّ الذى تصلح معــه للملك بعدى ؛ فزِدْها فى التشريف والإكرام بقَدْرِ ما تستحقّ منك . ففعل الفتى ذلك ، وعاش مسروراً بالجارية ، وأبوه مسروراً به ، وزاد فى إكرام المرزبان ، ورفع مرتبته وشرفه بصيانته لسره وطاعته ، وأحسن جائزته وجائزة المؤدب بامتثاله

أمره ، وعقد لابنه الملك من بعده . قال اليمانى وكان الشيخ الحسن بن مصعب . ثم قال ذو الرياستين قال على بن بلال[١] :

سيهلك فى الدنيا شَفِيقٌ عليكُمُ ... إذا غالهُ مِنْ حادِثِ الدَّهْرِ غائلُهْ
ويُخْفِى لكم حبًّا شديداً ورَهْبَةً ... وللناس أشغالٌ وحبُّك شاغِلُهْ
كريمٌ يُميت السرَّ حتى كأنه ، ... إذا استخبروه عن حديثك ، جاهِلُهْ
يودُّ بأنْ يُمْسِى عليلا لعلَّها ... إذا سمعت عنه بشكوى تُرَاسِلُهْ
ويَرْتاحُ للمعروف فى طَلَب العُلا ... لتُحْمَدَ يوماً عند لَيْلَى شمائِلُهْ

وذكر أعرابى الهوى فقال : هو أعظمُ مَسْلَكاً فى القَلْبِ من الرُّوح فى الجسم ، وأملك بالنفس من النَّفَس ، يَظْهَرُ ويبطن ، ويَكْثُف ويلْطُف ، فامتنعَ عن وَصْفِه اللسانُ ، وعَيِي عنه البيانُ ! فهو بين السحر والجنون ، لطيفُ المسلك والكُمُون . وأنشد :

يقولون لو دبَّرْتَ بالعَقْلِ حبَّها ... ولا خَيْرَ فى حُبٍّ يدبَّرُ بالعقل

[من أدب الميكالى]

فصل للأمير أبى الفضل الميكالى : فصل له

لا زالت الأيام تَزِيدُ رُتْبَتَه ارتفاعا ، وباعَه اتّساعا ، وعزَّتَه غلبة وامتناعا ، فلا يبق مجدٌ إلا شيَّدَتْه معاليه ومكارِمُه ، ولا ملك إلَّا افْتَرَعَتْه صَرَائِمُه وصوارِمُه .

وله فصل : لازالت حياة الأحرار بفضله متَّسِمة ، ووجوهُ المكارم بغُرَرِ أيامه مبتسمة ، وأهواء الصدور بخِدْمة وُدِّه مرتسمة ، [وغنائم الشكر بين محاسن قوله وفعله مقتسمة[٢]] . وله

(١) العبارة فى ط : قال اليمانى : وقال الشيخ أبو الحسن بن مصعب : قال كثير عزة .
(٢) من ا .

وله — وله : الله يُديم رايةَ الأمير الجليل محفوفةً بالفَلْج والنصر ، مكنوفة بالتَّلَبة والقَهْر ، حتى لا يزاول خَطْباً إلا تذلّلت به صِعَابُه ، ولا يُعَارِس أمراً إلا تيسّرتْ أسبابُه ، ولا يَرُوم حالا إلا أذْعَن لهيبته وسُلْطانه ، وخَضَع لسيفه وسِنَانِه ، وذلّ لمَعْقِد لوائه ، ومنثنى عنانه ، إلى أن ينالَ من آماله أقاصيَها ، ويَمْلِك من مَبَاغِيه أزِمَّتَها ونواصيَها ، [ويُسَامِي الثريا بعلوّ همته ويناصيها] (١) .

وله — وله فصل : إنما أشكو إليك زماناً سَلَب ضِعْفَ ما وَهب ، وفَجَع بأكْثَر مما أمْتَع ، وأوحش فوقَ ما آنَس ، وعنف فى نَزْعِ ما ألبس ؛ فإنه لم يُذِقْنا حلاوةَ الاجتماع ، حتى جَرَّعَنا مرارةَ الفراق ، ولم يمتعنا بأُنْسِ الالتقاء ، حتى غادَرَنا رَهْنَ التلهُّف والاشتياق ، والحمدُ لله تعالى على كل حال يُسىء ويسر ، ويَحْلُو ويُمِر ، ولا أيأس من رَوْح الله فى إباحة صُنْع يجمل رَبْعَه مَتَاحى ، ويُقَصِّر مدةَ البعاد والتراخى ، فألاحظ الزمانَ بعين راض ، ويقبلُ إلىّ حظّى بعد إعراض ، وأستأنف بعزّته عيشاً سابغَ الذيول والأعطاف ، رقيقَ الحواشى والأوصاف ، عَذْب الموارِدِ والمناهل ، مأمونَ الآفاتِ والغوائل .

وله — وله فصل : أنا أسأل الله تعالى أن يردّ على برد العيش الذى فَقَدْتُه ، وفسحة السرور الذى عَهِدته ؛ فيَقْصر من الفراق أمدُه ، ويعلو للالتقاء حكمه ويَدُه ، ويرجع ذلك العهدُ الذى رَقَّتْ غلائله ، وصفَتْ من الأقذاء مناهله ، فلم أتهنّأ بعــده بأنس مقيم ، ولا تمتّعت يوما إلا بعيش بَهيم .

فلو ترجع الأيامُ بينى وبينه ... بِذِى الأَثْلِ صَيْفاً مثلَ صَيْفى ومَرْبعى
أَشُدُّ بأعناق النوى بعد هــذه ... مرائرَ إن جاذَبْتُها لم تقطَّعِ

وما على الله بعزيز أن يقرّبَ بعيداً، ويُهَبّ طالما سعيداً، ويسهّل عسيرا ، ويفكّ من رقّ الاشتياق أسيرا .

---

(١) ليس فى ا .

وله فصل من كتاب إلى أبي منصور عبد الملك الثعالبي[١] :

وله فصل من كتاب

قرأتُ خبرَ سلامته ، فسرى السرورُ في الجوانح ، واهتزّت النفسُ له اهتزازَ الغُصْن تحت البارح :

أليس لأخبار الأحبةِ فرحةٌ ولا فرحة العطشان فاجأه القَطْرُ
يقولون قد أوْفَى لوقت كتابهِ فتنتشر البشرى وينشرحُ الصدرُ

ثم سألت الله تعالى أن يحرسَ علينا سلامته سابغة الملابس والمطارف ، موصولة التالِدِ بالطّارِف .

وله فصل من كتاب تعزية عن أبي العباس ابن الإمام أبي الطيب :

وله فصل من كتاب تعزية

لئن كانت الرزيّة مُمِضّة مؤلمة ، وطرقُ العزاء والسلوة مُبْهمة ، لقد حلّت بساحةِ من لاتنتقِضُ بأمثالها مَرَائِرُه ، ولا تَضْعُفُ عن احتمالها بصائِرُه ، قد يتلقّاها بصدْرٍ فسيح يحمى أن يبيح الحُزْنَ جنابه ، وصَبْرٍ مشيح يحمى أن يُحْبِطَ الجزَعُ أجرَه وثوابَه ؛ كيف لا وآدابُ الدين من عنده تُلْتَمس ، وأحكامُ الشرع من لسانه ويده تُستفاد وتُقْتَبس ، والعيون تَرْمُقه في هذه الحال لتجْرِيَ على سنَنه وتأخذَ بآدابه وسُنَنه؛ فإن تعزّت القلوب فبحَسْب تماسكه عزاؤها ، وإنْ حسنت الأفعال فإلى حميد أفعاله ومذاهبه اعتزاؤها .

جملة من شعره في تحسين القوافي والغزل قال :

من شعره

عَذيرى من جفونٍ رامياتٍ[٢] بِسَهْمِ السّحْرِ من عينَيْ غزالِ
غزالى طَرْفُه حتى سَبَانِي لأنتصرنْ منه بِعَيْنَيْ غزالى

وله أيضاً[٣]:

أمَا حان أنْ يشفى المُسْتَهامْ بِزَوْرَةِ وَصْلٍ وتأوى له

(١) ق م ، ا : عبد الملك بن محمد ، وليس في ا : الثعالبي .
(٢) ق ا : داميات . (٣) الفوات : ٣٣ .

يجمجم عن سُؤْلِهِ هَيْبَةً ⠀⠀ ويعلم عِلْمُك تأويلَهُ

وقال أيضاً[1] :

شكوتُ إليه ما أُلاقى فقال لى ⠀⠀ رويداً ففى حكم الهوى أنْتَ مُؤْتلى
فلو كان حقاً ما ادَّعيتَ من الجوى ⠀⠀ لقلَّ بما ألقى إذاً أن تموتَ لى

وقال أيضاً[2] :

تفرّق قلبي فى هواه فعنده ⠀⠀ فريقٌ وعندى شُعبة وفريقُ
إذا طَمِعَتْ نفسى أقول لها اسْقِنى ⠀⠀ فإن لم يكن راحٌ لديك فَرِيقُ

وقال أيضاً :

شاقَهَ كَفِّى رَشاً ⠀⠀ بِقُبْلَةٍ ما شَفَتِ
فقلت إذْ قبَّلها ⠀⠀ ياليت كفِّى شَفَتِى

وقال :

يا شادناً غاب نَجْمُ الحسن لولاهُ ⠀⠀ قد كان يوسفُ لمَّا مات وَلَّاهُ
ولّاه رقّ طَرْف فى شمائله ⠀⠀ فاشتطَّ فى الحكم لولا أن تولّاهُ
ارحم فتًى مُدْنَفاً ما إنْ يُخَلِّصُهُ ⠀⠀ من غَمْرَةِ الوَجْدِ إلا أنتَ واللهُ

[سائل للكرم]

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : حدثنى أبو الهيثم[3] بن السندى بن شاهك قال : قلت فى أيام ولايتى الكوفة لرجل من أهلها لا يجفُّ قلمه ولا تستريح يَدُه ، ولا تسكُن حركتُهُ فى طلب حوائج الناس ، وإدخال المنافع على الضعفاء ، وكان رجلا مفوّهاً : أخبرنى عن الشىء الذى هوّن عليك النصَب ، وقوّاك على التعب ، ما هو ؟ قال : قد ، والله ، سمعتُ تغريدَ الأطيار بالأسحارِ على أفنان الأشجار ، وسمعتُ

---

(١) القوات : ٣٣ . (٢) القوات : ٣٤ . (٣) فى ا : إبراهيم بن السندى .

[خَفْق](١) أوتارَ العيدان ، وترجيعَ أصوات القِيَان، فما طربت من صوتٍ قطُّ طَرَبِي من ثناء حسن، على رجلٍ قد أحسن، ومن شاكر مُنْعِم ، ومن شفاعةِ شفيع محتسب لطالب ذاكر .

فقال أبو الهيثم(٢) : فقلت له : لله أبوك ! لقد حُشِيت كرما ! فبأيّ شيء سَهُلَتْ عليك المُعَاوَدةُ والطلب ؟ قال : لا أبلُغ المجهود ، ولا أسأل إلا ما يجوز، وليس صدقُ العذرِ بأكره إليّ من إنجاز الوعد . ولست لإكراه السائل بأكرهَ مني لإجحاف المسئول ، ولا أرى الراغبِ أوجبَ حقا عليّ للذي قدم(٣) من حُسْنِ ظنه من المرغوب إليه ، للذي احتمل من كله .

قال إبراهيم : ما سمعتُ كلاما قطّ أشدّ مؤالفة لموضعه ، ولا أليق بمكانه ، من هذا الكلام .

[عزيز قوم]

وروى أبو بكر بن شُقَير النحوي عن أحمد بن عبيد(٤) قال : كان أُسيد بن عنقاء الفزارى مِنْ أكبر أهل زمانه ، وأشدّهم عارضةً ولسانا ، وطال عمرُه ، ونكبَه دهرُه ؛ فاختلّت حاله ، فخرج يتبقل(٥) لأهله ؛ فمرّ عليه عُمَيلة الفزارى فسلّم عليه ، وقال : يا عم ؛ ما أصارَكَ إلى ما أرى ؟ قال : بُخْلُ مثلك بماله ، وصَوْنُ وجهى عن مسألة الناس . قال : أما والله لئن بقيتُ إلى غد لأغيرنّ من حالك ما أرى . فرجع ابن عنقاء إلى أهله فأخبرهم بما قال عُميلة ، فقالوا له : غرّكَ كلامُ غلام جُنْحَ ظلام ! فكأنما ألقموا فاهُ حجراً ؛ فبات متململًا بين رجاء ويأس ، فلما كان السَّحَر سَمِع رُغاء الإبل ، وثُغَاء الشاة ، وصهيل الخيل ، ولَجَبَ الأموال ، فقال: ما هذا ؟ قالوا : عُمَيلة قد ساق إليك مالَه ، فخرج ابنُ عنقاء له فقسم مالَه شَطْرَيْن ، وساهمَ

---

(١) من م ، ا . (٢) ف م ، ا : قال إبراهيم . (٣) ف م : أوجه حقا على للذى قدم .
(٤) الأمالى : ١ — ٢٣٧ ، اللآلى : ٥٤٣ . (٥) ف ط : يتنفل .

عليه ، فأنشأ ابن عنقاء يقول[١] :

رآني على ما بي عُمَيلةُ فاشتكى ... إلى ماله حالي أسرّ كما جَهَرْ
دعاني فواساني ولو ضَنّ لم يُلَم ... على حين لا بَدْوٌ يُرجّى ولا حَضَرْ
فقلت له خيراً وأثنيت فِعْلَهُ ... وأوفاك ما أوليت مَنْ ذَمّ أو شكر
ولما رأى المجدَ استُعيرت ثيابُهُ ... تردّى بثوبٍ سابغِ الذيل واتّزر
غلامٌ رماه اللهُ بالحسن يافعاً[٢] ... له سِيمَياءٌ لا تَشُقّ على البصر
كأنّ الثريا عُلّقَتْ في جبينه[٣] ... وفي أنفه الشّعرى وفي خدّه القمر
إذا قيلت العوراء أغضى كأنه ... ذليلٌ بلا ذُلٍّ ولو شاء لانتصر

[من غرر المدح]

وأنشد أبو حاتم[٤] عن أبي عبيدة لِلمُرَنَّدس أحد بني بكر[٥] بن كلاب يمدح بني عمرو[٦] الغنويين ، وكان الأصمعي يقول : هذا من المحال ؛ كلابيٌّ يمدح غنَويا !

هيْنُون لَيْنُون أيسارٌ ذوو كَرَم ... سُوّاسُ مكرمةٍ أبناء أيسارِ
إن يسألوا العُرْفَ يُعْطوه وإن خُبِروا ... في الجهد أُدرك منهم طِيبُ أخبار
لا ينطقون عن الأهواء إنْ نَطقوا ... ولا يُمارون إن مارَوْا بإكثار
من تلْقَ منهم تقلْ لاقيتُ سيدَهم ... مثلَ النجوم التي يسري بها الساري
منهم وفيهم يعدّ الخير متّلِدا ... ولا يعدُّ نثا خِزْيٍ ولا عارِ

[حكَم الدنيا]

فصل لبعض الكتاب ــ ما تعجُّبك مما لقيت من الحَيْفِ ! هل ضَمِن الدهرُ أن

---

(١) اللآلى : ٥٤٣ ، الأمالى : ١ ــ ٢٣٧ . (٢) في الأمالى : بالخير مقبلا .
(٣) في الأمالى : فوق نحره . (٤) الأمالى : ١ ــ ٢٣٩ ، المختار من شعر بشار : ١٨٨
(٥) في ا : بني أبي . (٦) في م ، ا : بني أبي عمرو ، وفي ط : أبا عمرو الغنوى .

يُنصِف ولا يحيف ، أو يُبْرِم فلا يَنْقُض ، أو يُصَافِي فلا يُعْرِض ، أو يصفو فلا يكدر ، أو يَفِى فلا يَغْدر ؟ قدَر أن تَعْذُب لى مَشَارِبُه ، وتَلين لى جوانبُه، فحُكْمُ الدنيا لاتترك حامداً لها إلّا أسكتته ، ولا ضاحكا إلّا أبكته ، أقوى ما كان بها ثقة ، وأشد ما كان لها مِقَة ، وأوكد ما كان رُكونا إليها ، وأعظم ما كان حرصا عليها .

[لايعرف قَدْر النعمة]

وقال بعض الكتّاب يصف رجلا بالنم :

ما ظنّك بمن يعنف بالنعم عنف من ساءته مجاوَرَتُها، ويستخفُّ بحقها استخفافَ من ثَقُلَ عليه حَمْلُها ، ويطرِّح الشكر عنها اطِّرَاح مَنْ لايعلمُ أنّ الشكرَ يَرْتَبِطها.

* * *

وقال أبو الشِّيص :

رجع الى غرر المدائح

يامَنْ تَعنّى على الدنيا مَبالغَها	هلا سألْتَ أبا بِشر فتُمطاها
ما هبّت الريحُ إلا هبّ نائلُه	ولا ارْتَقى غاية إلّا تخطّاها

غيره :

طِلَابُ العُلَا إلّا عليكَ يسير	وباعُ الأعادِى عن مَداكَ قصير
إذا عُدّ أهلُ الفضل كنت الذى له	وللفَضْلِ فيــه أولٌ وأخير

وقال أبو الحجناء الأصغر نُصيب يصف إسحاق بن صباح :

كأنّ ابن صبّاح وكندةُ حوْلَهُ	إذا ما بدا بَدْرٌ توسّطَ أنجما
على أنّ فى البدر المحاقَ وإن ذا	تمامٌ فــا يزدادُ إلا تتما
ترى المنبر الغربىّ يهتزُّ تحتــهُ	إذا ما علا أعوادَه وتــكلّما
فأنت ابنُ خــيرِ الناس إلا نبوّةً	ومن قبلها كنت السنام المقدّما

ونُصيب هو القائل فى البرامكة ، وكان منقطعاً إليهم :

عند الملوك مَضَرَّةٌ ومنافع ... وأرى البرامك لا تَضرُّ وتنفعُ
إن العروق إذا استسرَّ بها الثَّرَى ... أَشَّ النبات بها وطابَ المَزْرَعُ
فإذا جهلت من امرئٍ أعراقَهُ ... وقديمَهُ فانظر إلى ما يَصْنَعُ

أخذ هذا من قول سَلْم الخاسر :

لا تسأل[1] المرء عن خَلَائقِهِ ... في وَجْهِهِ شاهدٌ من الخبر[2]

وقال نُصَيب في بني سليمان بن علي :

بني سليمان حزتم كلَّ مَكْرُمَةٍ ... وليس فوقكمُ فَخْرٌ لمفتخرِ
لا تسأل المرء يوماً عن خلائقه ... في وجهه شاهدٌ يُنْبِيك عن خَبَرِ
حَسْبُ امرئٍ شرفاً أن ساد أسرته ... وأنت سُدْتَ جميعَ الجنِّ والبَشَرِ

سأل سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت رجلا حاجة فلم يقضها ، وسأل آخر فقضاها فقال للأول :

ذُممت ولم تُحمد وأبتُ بحاجةٍ ... تولَّى سواكم شكرها واصطناعها
أبى لك فعلَ الخير رأيٌ مقصِّرٌ ... ونفسٌ أضاق الله بالبخل باعَها
إذا ما أرادته على الخير مرةً ... عصاها وإن همَّتْ بشرٍّ أطاعها

[استمناح]

قال رجلٌ لهشام بن عبد الملك : قد افتقرتُ يا أميرَ المؤمنين إلى ظهور حُسْن رأيك ، فإن رأيتَ إظهارهُ بسرور الصديق ، ورَغْم العدو ، فعلت . قال هشام : أوجزتَ وملحتَ فيما سألت ؛ فلا تردّ لك طَلِبَة ، فما سأله شيئا إلا أعطاه أكثر منه .

قال حميد بن بلال : ولي عَمْرُو بن مَسْعَدة فارس وكرمان فقال بعض أصحابه : أيها الأمير ، لو كان الحياء يُظهر سؤالا لدعاك حيائي من كرمك في جميع أهليك إلى الإقبالِ عليَّ بما يكثُرُ به حَسَدُ عدوّي ، دون أن أسألك . فقال عمرو : لا تَبْغِ ذلك

---

(١) في ط : لاتسل .   (٢) في ط : العجب .

بابتذالك ماء وجهك ، ونحن نُغْنيك عن إراقته فى خوض السؤال ، فارفَعْ ما تريدُه فى رُقْعة يصل إليك سرًّا . ففعل .

وقال رجل من أهل فارس قدم على محمد بن طيفور وهو عامل على بلاد أصبهان لبعض أهلها : كم تقدّرون صلات محمد فى كلّ سنة للشعراء والمتوسلين ؟ قالوا : مائة ألف دينار ، سوى الخلع والحملان[1] .

وورد عليه يوماً كتابٌ من بعض إخوانه فى شأن رجل استماحه له فى درْجه :

- أنتَ أعزّك الله تعالى أجلّ من أن يُتوسَّلَ بغيرك إليك ، وأن يُستماح جودُك إلّا بك ، غير أنى أذكرك بكتابىّ فى أمر حامله ، ما شَرَعَ كرمُك [من الشكر][2] ، وزَرَع إحسانُك من الأجر قِبَل الصادرين والواردين ؛ فهنّاك الله تعالى ذلك ؛ ولا زالتْ يدُ الله بجميل إحسانه ونعمته متواترةً عليك .

فقال محمد للرجل : احتكِمْ لكَ وله ؛ فأخذ منه ألفَ دينار ، ولمن كتب له مثلها .

وقال رجل لإبراهيم بن المهدى : قد أوحشنى منك تردُّدُ غليلٍ فى صدرى أهابُك عن إظهاره ، وأُجِلّك عن كَتْمه . فقال له إبراهيم : لكنّى أكشف لك معروفى ، وأظهر إحسانى ؛ فإن يكن غير هذين فى خَلَدِك فاكتُبْ رقعة يخرج توقيعى سرًّا لتقِفَ على ما تحبّ . فبلغ كلامُه المهدى فقال : هذا والله غايةُ الكرم .

وكتب محمد بن طيفور لبعض خاصته بمالٍ كثير وسَلّه به ، فكتب الرجلُ إليه : قد استغرقَتْ نعمتُك وجوهَ الشكر لك ، وغَمَرَ الحمد فيما سلف منك ، ولولا فَرْط عجزى عن تلقّى ما يجبُ لك من الحمد لقبلتُ ما أنفذتَه .

فكتب إليه محمد : قد صغّر شكرُك لنا ما أسلفناه إليك ؛ فخُذْ ما أنفذناه ثوابا عن معرفتك بشُكْر التافه[3] عندى ، وإلّا سمح شكرُك بما رأيناك له أهلا إلى أنْ

---

(١) فى ط : والهدايا . (٢) من م ، ا .

(٣) فى ط : بشكر ما أسديناه ، وفى ا : بشكر التافه عندك .

يتسع قبول مثلك ما يستحقّ به جميلَ الدعاء ، وجزيلَ الثناء ، إن شاء الله تعالى .

[من نوادر الرثاء]

تعزية فى قرد — ولما مات قِرْدُ زُبيدة بنت جعفر ساءها ذلك ، ونالها من الغمّ ما عرّفه الصغير والكبير من خاصّتها ، فكتب إليها أبو هارون العبدى :

أيتها السيدة الخطيرة ؛ إنّ موقعَ الخَطْب بذهاب الصغير المعجب كموقع السرور بنَيْل الكثير المُفْرِح ، ومَنْ جهل قدْرَ التعزية عن التافه الحقير عَمِيَ عن التهنئة بالجليل السَّنِيّ ، فلا نَقَصكِ اللهُ الزائدَ فى سرورك ، ولا حَرَمَكِ أجرَ الذاهب من صغيرك .

فأمرَتْ له بجائزة .

تعزية فى ثور — وكتب أبو إسحاق الصابى عن ابن بقية(1) فى أيام وزارته إلى أبى بكر بن قريعة يعزّيه عن ثور أبيض بقوله ، وجلس للعزاء عنه تراقعاً وتحامُقا :

التعزيةُ على المفقود أطال الله بقاء القاضى إنما تكونُ بحسب محلّه من فاقديه ، من غير أن تُراعَى قيمتُه ولا قَدْرُه ، ولا ذاتُه ولا عينُه ؛ إذ كان الغرض فيها تبريدُ الغُلّة ، وإخمادُ اللَّوْعَة ، وتسكين الزَّفْرة ، وتنفيس الكُرْبة ، فربّ ولدٍ عاق ، وشقيق مشاق ، وذى رحم أصبح لها قاطعا ، [ولأهله فاجعا](2) ، وقريب قوم قد قلّدهم عارا ، وناطَ بهم شَنَارا ، فلا لَوْمَ على تَرْك التعزية عنه ، وأحْرِ بها أن تستحيل تهنئة بالراحة منه ؛ وربّ مالٍ صامت غير ناطق ، قد كان صاحبُه به مستظهرا ، وله مستثمِرا ، فالفجيعةُ به إذا فُقِد موضوعةٌ موضعها ، والتعزيةُ عنه واقعةٌ منه موقعها . وقد بلغنى أن القاضى أُصيب بثور كان له ، فجلس للعزاء عنه شاكيا ، وأجْهَش عليه باكيا ، والتدم عليه والهاً ، وحُكيت عنه حكاياتٌ فى التأبين له ، وإقامة الندبة عليه ، وتعديد ما كان فيه

---

(1) فى م : ابن نقية ، وفى ط : ابن لعبة !   (2) من م ، ا .

من فضائل البقر التى تعرفت فى غيره ، اجتمعت فيه وحده ؛ فصار كما قال أبو نواس فى مثله من الناس :

ليس على الله بمستنكَرٍ　　أن يجمع العالَم فى وَاحِد

لأنه يَكْرُبُ الأرض مثمورة[1]، ويُثيرها مزروعة، ويرقص فى الدواليب ساقيا، وفى الأرحاء طاحنا ، ويحملُ الثّقلات مستقلا ، والأثقالَ مستخفّا ؛ فلا يَؤُوده عظيم، ولا يُعجزه جسيم ، ولا يجرى فى الحائط[2] مع شقيقه ، ولا فى الطريق مع رفيقه ، إلا كان جَلْدا لايُسْبَق ، ومبرِّزا[3] لايُلحق ، وفائتا لا يُنال شأْوه وغايته ، ولا يبلغ مداه ونهايته . ويشهدُ اللهُ أنّ ما ساءه ساءنى ، وما آلمه آلمنى ، ولم يَجُزْ عندى فى حق ودّه استصغارُ خَطْبٍ جلّ عنده ، فأرقه وأمضه وأقلقه ، ولا تهوين صعب بلغ منه وأرمضه وشفه وأمرضه ؛ فكتبت هذه الرقعة ، قاضياً بها من الحق فى مصابه هذا بقَدْرِ ما أظهر من إكباره إياه ، وأبانَ من إعظامه له ؛ وأسألُ الله تعالى أن يخصّه من المعوضة بأفضل ما خص به البشر ، عن البقر ، وأن يُفْرِدَ هذه البهيمة العجماء بأثر من الثواب ، بضميها إلى المكلَّفين من أهل الألباب ؛ فإنها وإن لم تكن منهم ، فقد استحقّت ألاّ تُفرد عنهم ، بأن مسّ القاضى سببُها ، وصار إليه مُنْقَلَبُها ، حتى إذا أنجز اللهُ ما وعد به [عباده المؤمنين][4]، من تمحيص سيئاتهم، وتضعيف حسناتهم، والإفضاء بهم إلى الجنة التى رَضِيَها لهم دارا ، وجعلها لجاعتهم قرارا؛ وأورد القاضى — أيّده الله تعالى — مواردَ أهلِ النعيم ، مع أهْل الصراط المستقيم ، جاء وثَوْرُه هذا مجنوبٌ معه ، مسموح له به ؛ وكما أنّ الجنةَ لا يدخلها الخبث ، ولا يكون من أهلها الحدث، ولكنه عرق يجرى من أعراضهم، كذلك يجعلُ الله ثَوْرَ القاضى مركبا من العَنْبَرِ الشحْرى، وماء الوَرْدِ الجُورى[5]؛ [فيصير ثورا له طورا؛ وجُونَة[6] عطر له طورا][7]

(١) الكرب : إثارة الأرض للزرع ، وفى م : معمورة . (٢) الحائط : البستان .
(٣) فى م : ومبرا . (٤) من م ، ا . (٥) جور : مدينة ينسب إليها الورد .
(٦) الجونة : سليلة مغشاة أدما تكون مع العطارين .
(٧) هكذا فى م ، وفى ط : فيكون له جونة عطر ونورا .

وليس ذلك بمستبعد ولا مستنكر ، ولا مستصعب ولا متعذّر ؛ إذ كانت قدرةُ اللهِ بذلك محيطةً ، ومواعيدُه لأمثاله ضامنةً بما أعدّه اللهُ فى الجنة لعبادِه الصادقين، وأوليائه الصالحين ؛ من شهوات أنفسهم وملاذّ أعينهم ، وما هو سبحانه مع غامر فضله وفائض [...] بعائده ذلك مع صالح مساعيه ، ومحمود شِيَمه؛ وقلبي متعلّق بمعرفة خبره، أدام اللهُ عزّه فيما ادّرعه من شعار الصبر ، واحتفظ به من إيثار الأجرِ ، ورفع إليه من السكون لأمرِ الله تعـالى فى الذى طرقه ، والشكر له فيما أزعجه وأقلقه ، فليعرفنى القاضى من ذلك ما أكونُ ضاربا معه بِسَهْمِ المساعدة عليه ، وآخـذا بقِسْطِ المشاركة فيه.

ردّ على التعزية فى الثور

فصل من جواب أبى بكر :

وصل توقيعُ سيدنا الوزيرِ أطال اللهُ بقاءه، وأدام تأييده ونعماءه ، وأكمل رفعته وعُلاه ، وحَرس مُهْجته ووَقاه ، بالتعزية عن الثور الأبيض ، الذى كان للحَرْث مثيراً ، وللدواليب مُديرا ، وبالسَّبْقِ إلى سائر المنـافع شهيراً ، وعلى شدائد الزمان مُساعدا وظَهيرا . لعمرُك لقد كان بِعَمله ناهضا ، ولحاقات البقر رافضاً ، وأنَّى لنـا بمثله وشَرْواه[1] ، ولا شروى له ؛ فإنه كان من أعيان البقر ، وأنفع أجناسه للبشر ، مضاف ذلك إلى خَلّاتٍ لولا خَوْف من تجدُّد الحزن عليه ، وتهييج الجَزَع وانصرافه إليه لعدَدْتُها ؛ ليعلمَ — أدام الله عزه — أن الحزنَ عليه غيرُ ملوم . وكيف يُلام امرؤ فَقَد من ماله قطعةً يجب فى مثلها الزكاة ، ومن خَدم معيشته بهيمة تُعين على الصوم والصلاة ، وقد احتذيتُ مامثّله الوزير من جميل الاحتساب ، والصبر على المُصَاب ؛ فقلت : إنا لله وإنا إليـه راجعون ، قولَ من علم أنه أملك لنفسه وماله وأهله وأنه لا يملك شيئا دونه ؛ وإذ كان جلّ ثنـاؤه ، وتقدّست أسماؤه ، هو الملك الوهّاب ، المرتجع ما ارتجَع مما يعوض عليـه نفيس الثواب . وقد وجدت — أيد الله الوزير — للبقر خاصة فضيلة على سائر بهيمة الأنعام ، تشهد بها العقولُ والأفهام وذكر جملة من فضائلها[2] .

---

(١) الشروى : المثل . (٢) فى م : فضائل البقر .

من النقد

وكأنّ أبا نواس فى قوله :

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم فى واحد

نظر فى هذا المعنى إلى قول جرير :

إذا غضبَتْ عليك بنو تميم ... حسبتَ الناسَ كلَّهم غِضابا

***

امرأة ترثى بنيها

وقالت امرأةٌ من العرب ، يقال إنها امرأةُ العباسِ عمّ النبى صلى الله عليه وسلم ترثى بنيها(١) :

دَعوا من المجد أكنافاً إلى أجَلٍ ... حتى إذا كملت أظماؤهم وردُوا

مَيْتٌ بمصر ومَيْتٌ بالعراق ومَيْـــتٌ ... بالحجاز مَنايا بينهم بَدَدُ

كانت لهم هِمَمٌ فرّقن بينهمُ ... إذا القماديدُ(٢) عن أمثالهم قعدوا

بَثّ الجميل وتفريج الجليل وإعـــطاء الجزيل الذى لم يُعطِه أحدُ

رثاء قيس ابن عاصم

وقال عبدة بن الطبيب فى قَيْس بن عاصم(٣) :

عليك سلامُ الله قيس بن عاصم ... ورحمته ما شاءَ أنْ يترحّما

تحية من ألبسته منك نعمة(٤) ... إذا زار عن شَحْطٍ بلادك سلّما

فما كان قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ ... ولكنه بُنْيانُ قومٍ تهدّما

وقيس بن عاصم هو القائل(٥) :

إنى امرؤٌ لا يَعْتَرى حسَبى ... دنَسٌ يُغَيّره ولا أفَنُ

من مِنْقَرٍ فى بيتِ مكرُمةٍ ... والأصل(٦) يَنْبُتُ حوله الغصُنُ

خُطباء حين يقول قائلهم ... بِيضُ الوجوهِ أعفّةٌ لُسُنُ

---

(١) شاعرات العرب : ١٦٤ ، وقد نسب الشعر هناك إلى فاطمة بنت الأحجم الخزاعية ، ثم قال : وينسب إلى أم الفضل الهلالية امرأة العباس . (٢) فى م : الرعاديد .

(٣) الشعراء : ٧٠٢ . (٤) فى ط : تحية من غادرته غرض الردى. (٥) المختار من شعر بشار : ١٩٢ ، الأمالى : ١ — ٢٣٩ ، العقد : ١ — ٢١٨ . (٦) فى الأمالى : والفرع.

لا يَفْطنون لعيبِ جارِهِمُ   وهُمْ لحفْظِ جوارِه فُطُنْ

رثاء الوليد ابن طريف

وقالت أختُ الوليد بن طريف الشيبانى ترثيه[1] :

أيا شجرَ الخابورِ مالكَ مُورِقاً   كأنك لم تجزَعْ على ابن طَريفِ

فتًى لايُحِبُّ[2] الزادَ إلّا من التُّقى   ولا المالَ إلّا من قناً وسيوفِ

عليك سلامُ الله وقفاً[3] لأننى   أرى الموتَ وَقّاعاً بكل شريفِ

فقدناك[4] فِقْدانَ الربيع وليتنا   فَدَيْناكَ من فتياننا بألوفِ

وخرج الوليد فى أيام الرشيد ، فقتله يزيد بن مَزْيد ، وفى ذلك يقـول بكر ابن النطاح الحنفى :

يا بنى تَغْلب لقد فَجَعَتْكُمْ   من يزيدٍ سيوفُهُ بالوليدِ

لَوْ سيوفٌ سوى سيوفِ يزيدٍ   قارَعَتْهُ لاقَتْ خِلافَ السعودِ

وائلٌ بعضها يقتّل بعضاً   لا يفلُّ الحديدَ غـيرُ الحديدِ

* * *

تعصب بكر ابن النطاح

وكان بكر كثير التعصب لربيعة والمدح فيهم وهو القائل :

ومن يفتقر مِنّا يعِشْ بحسامِهِ   ومن يفتقر من سائر الناس يَسْألِ

ونحن وُصِفْنَا دون كلِّ قبيلةٍ   بشدة بأسٍ فى الـكتابِ المنزّلِ

وإنا لَنَلْهُو بالسيوف كما لَهَتْ   فتاةٌ بعِقْدٍ أو سِخَابِ[5] قَرَنْفُلِ

يريد قول الله عز وجل[6] : «ستُدْعَوْنَ إلى قوم أولى بأسٍ شديد». جاء فى بعض التفاسير إنهم بنو حنيفة قوم مُسيلمة الـكذاب .

مدحه لأبى دلف

وبكر القائل أيضا فى أبى دلف :

يا عصمةَ العربِ الذى لو لم تـكن   حيًّا لقد كانت بغـيرِ عِمَادِ

---

(١) المختار من شعر بشار : ٢٩، الأغانى : ١١ — ٩، المعاهد : ٣ — ٥٠ ، الصناعتين : ١٢٣ ، أمالى القالى : ٢ — ٢٧٤ . (٢) فى الأمالى : لايحب . (٣) فى الأمالى : حيّا فإنى .

(٤) فى م : فقدناه . (٥) السخاب ككتاب : قلادة بلا جوهر .

(٦) سورة الفتح ، آية ١٦ .

إنّ العيونَ إذا رأتْك حِدادُها ... رجعت من الإجلال غير حِدَادِ
وإذا رميت الثغر منك بعَزْمة ... فتّحتَ منه مواضعَ الأسداد
فكأن رمحك مُنْقعٌ في عُصْفُرٍ ... وكأنّ سيفك سُلّ من فِرْصَاد
لو صال من غَضَبٍ أبو دُلَفٍ على ... بِيض السيوف لَذُبْن في الأغماد
أذكى وأوقد للعداوة والقِرَى ... نارَيْن نار وغًى[1] ونار زناد

وأبو دُلَف[2] هو القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل بن عمير بن شيخ[3] ابن معاوية بن خُزَاعى بن عبد العزّى بن دلف بن جُشَم بن قيس بن سعد بن عِجْل ابن لُجَيْم .

* * *

وقد رُوِيت الأبيات التي مرت لأخت الوليد بن طريف لعبد الملك بن بجرة النميري .

وقال أبو هِفّان واسمه منصور بن بجرة[4] ، قال أنشدني دعبل لنفسه :

وَدَاعُك مثل وَدَاع الربيع[5] ... وفقدُك مثل افتقاد الدِّيَم[6]
عليك السلام فكم من وفاء ... أفارقُ منك وكمْ من كَرَمْ

فقلت : أحسنت ، ولكن سرقت البيتين من رجلين[7] : الأول من قول القطامي:

ما للكواكب ودّعن الحياة كما ... ودّعنني واتخذن الشيب ميعادي

والثاني من قول ابن بجرة :

* فقدناك فقدانَ الربيع وليتنا *

---

(١) في م : غي . (٢) اللآلي : ٣٣١ . (٣) في م : سمح .
(٤) انظر اللآلي : ٣٣٥ ، ففيه أن اسمه عبد الله ، وقال : وأغرب الحصري في تسميته منصور ابن بجرة . (٥) في م : الحياة . (٦) في م : وفقدك فينا كفقد النعم .
(٧) في ط : من معنيين .

وأنشد البيت .

فقال : بلى ، والله سرق الطائى من ابن بجرة بيتا كاملا فقال :

عليك سلامُ الله وَقْفا فإننى   رأيت الكريم الحر ليس له عُمْر

كذا وردت الحكاية من غير وجه ، وكان يجب إذا كان من ربيعيين أن يكون « فَقَدْناك فقدان الربيع » لأخت الوليد .

وقد قال السموءل فى قِصَر العمر :

يقرب حبّ الموتِ آجالنا لنـا   وتكرهه آجالهم فتطولُ

وقال ابن قتيبة : أخذ النميرى قوله : « أيا شجر الخابور » من قول الجن(١) فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

أبعد قتيلٍ بالمدينة أظلمتْ   له الأرض تهتزّ العِضاه(٢) بأَسْوُقِ

وقد أنشده أبو تمام الطائى للشماخ فى أبيات أولها :

جزى الله خيراً من أميرٍ وباركتْ   يدُ الله فى ذاك الأديمِ الممزّق

[من يسع أو يركب جناحى نعامة   ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق](٣)

قضيتَ أموراً ثم غادرتَ بعدها   توافج(٤) فى أكمامها لم تفتّق

وما كنتُ أخشى أن تكونَ وفاتهُ   بكفَّىْ سَبَنْتَى أزرق العين مُطرِق

تظل الحَصَان البِكر تلق جنينها   نثا خبر فوق المطىّ معلّق

* * *

وقد قال بشار قريباً من قوله : [ولا المال إلا من قنا وسيوف](٥) :

على جَنَبات الملك منه مَهَابةٌ   وفى الدرع عَبْلُ الساعدَين قَرُوعُ

إذا اختزل المالَ البخيلُ فإنمـا   خزائنهم خَطِّيـةٌ ودُروعُ

وهذا كقول أبى الطيب المتنبى فى فاتك الإخشيدى(٦) :

---

(١) فى الأغانى : ناحت الجن على عمر قبل أن يقتل بثلاث ، فقالت هذه الأبيات . وفيه وفى الشعراء : القائل جزء بن ضرار ، الأغانى : ٩ ــ ١٥٩ ، الشعراء : ٢٧٨ .

(٢) العضاه : كل شجر يعظم وله شوك . والأسوق : جمع ساق . (٣) من ١ .

(٤) فى الأغانى ، م : بوائق ، والبوائق : الشرور ، وفى ١ : بوائج .

(٥) من ١ . (٦) ديوانه : ٢ ــ ٢٧٠ ، المختار من شعر بشار : ٣٢ .

كنا نظنُّ دِيارَه مملوءةً ذهَبا فمات وكلُّ دارٍ بَلْقَعُ
وإذا المكارمُ والصَّوارمُ والقنا وبناتُ أعْوَجَ كلّ شيء يجمَعُ

ومن بارع هذا النحو قول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى[1] :

وإنى لأرباب القبور لَغَابِطٌ لسُكْنى سعيدٍ بين أهل المقابِرِ
وإنى لمفجوعٌ به إذْ تكاثَرَتْ عِدَاتى ولم أهتف سِواهُ بناصِرِ
وكنت كمغلوبٍ على نَصْلِ سيفه وقد حزَّ فيه نَصْلُ حَرّان[2] باتِرِ
أتيناه زُوّاراً فأمجدنا قِرًى من البَثّ والداء الدخيل المخامِرِ
وأبنا بزَرْعٍ قد نما فى صدورنا من الوجد يُسْقَى بالدموع البَوادِرِ
ولما حضَرْنَا لاقتسام تُراثِهِ أصبنا عظيمات اللُّهَى والمآثِرِ

أى لم نُصِبْ مالا ، ولكنا أصبنا فَعالا .

[من كلام الأعراب]

أعرابية تستمنح

دخلت أعرابية على عبد الله بن أبى بكرة بالبصرة ، فوقفت بين السِّماطين[3] ، فقالت : أصلح الله الأمير ، وأمتَعَ به ؛ حَدَرَتْنا إليك سَنَة اشتدّ بلاؤها ، وانكشف غِطاؤها ، أقودُ صبية صغاراً ، وآخرين كباراً ، فى بلد شاسعة ، تَخْفِضُنا خافضة ، وترفعُنا رافعة ، لِمُلِمّاتٍ من الدهر بَرَيْنَ عَظْمى ، وأذهبن لحمى ، وتركْنَنى والهة أدورُ بالحضيض ، وقد ضاق بى البلدُ العريض ، فسألتُ فى أحياء العرب : مَن الكاملةُ فضائله ، المُعْطَى سائله ، المكفِىُّ[4] نائله ؛ فدُلِلْتُ عليك ــ أصلحك الله تعالى ــ وأنا امرأة من هَوَازِن ؛ وقد مات الوالد ، وغاب الرّافد ، وأنتَ بعد الله غياثى ، ومنتهى أملى ، فافعلْ بى إحدى ثلاث : إما أن تردّنى إلى بلدى ، أو تحسن صفَدى[5] ، أو تقيم أوَدى !

فقال : بل أجمعها لك . فلم يزَلْ يُجْرِى عليها كما يُجْرِى على عياله ، حتى ماتت .

(١) المختار من شعر بشار : ٣١ ، الحماسة : ١ ــ ٣٤٥ . (٢) فى ط : خوان .
(٣) السماط : الصف . (٤) فى م : الكافى . (٥) الصفد : العطاء .

وأعرابى — قال العتبى : وقف أعرابى بباب عُبيد الله بن زياد فقال : يأهل النضارة[١] ، حَقِبَ[٢] السحابُ ، وانقشعَ الرَّبَاب[٣] ، واستأسدت الذِّئاب ، وردم الثَّمَد ، وقلَّ الحَفَد[٤] ، ومات الولد ، وكنت كثيرَ العُفاةِ ، صخِب السقاة ، عظيم الدُّلاة[٥] ، لا أتضاءل للزمان ، ولا أحفل بالحِدْثان ، حَيٌّ حِلَال ، وعَددٌ ومَالٌ ، فتفرقنا أيْدِى سَبَا ، بعد فقد الأبناء والآباء ؛ وكنت حسنَ الشارة ، خصيب الدَّارَة ، سليم الجارة ، وكان على رجى ، وقوى أسّى ، وعَزْمِى جَدَاءٍ بقضى الله ولا رُجْمانَ لما قضى ، بِسَوَافِ[٦] المال ، وشتات الرجال ، وتغيُّر الحال ، فأغيثوا مَنْ شَخْصُه شاهدُه ، ولسانُه وَافدُه ، وفقْرُه سائقُه وقائدُه .

[من مقامات البديع]

المقامة البصرية — ومن مقامات البديع[٧] من إنشاء بديع الزمان : قال حدثنا عيسى بن هشام ، قال : دخلت البَصرة وأنا مِنْ سِنِّى فى فَتَاء[٨] ، ومن الزِّىِّ فى حِبَرٍ ووِشَاء[٩] ، ومن الغنى فى بَقَرٍ وشَاء ؛ فأتيت المِرْبَدَ مع رُفقَةٍ تأخذهم العيون ، ودخلنا غيرَ بعيد فى بعض تلك المتنزهات ، ومشَينا فى تلك المتوَجَّهات ، وملكتنا أرضٌ فحللناها ، وعَمَدنا لقِدَاح اللَّهو فأجَلْنَاها ، مُطَّرِحين للحِشْمَة ، إذْ لم يكن فينا إلا منَّا ، فما كان إلَّا بأسرع من ارتداد الطَّرْف حتى عنَّ لنا سَوادٌ ، تخفِضُه وِهَاد ، وترفعه نِجَاد ، وعلمنا أنه يهمّ بنا ، فأتلعْنا[١٠] له ، حتى انتهى[١١] إلينا سيرُهُ ، ولقينا بتحية الإسلام ، ورددنا عليه مقتضى السلام ؛ ثم أجال فينا طَرْفَه وقال : يا قوم ؛ ما منكم إلا من يلحظنى شَزْرا ، ويوسعنى زَجْرا[١٢] ، ولا ينبئكم عنى بأصدق منى ؛ أنا رجل من

---

(١) النضارة : النعمة . وفى ط : النضاضة . (٢) حقب : احتبس .
(٣) الرباب : السحاب الأبيض . (٤) الحفد : الأعوان . (٥) جمع دال كقاضى وهو النازع فى الدلو المستقى به الماء من البئر ، وفى ط : الولاث . (٦) سواف المال : هلاكه .
(٧) المقامات : ٧٠ . (٨) فتاء السن : ميعته وشبابه . (٩) الوشاء : نوع من اللباس مطرز . (١٠) أتلعنا : مددنا له أعناقنا . (١١) فى م : فأداه إلينا .
(١٢) فى م : حزرا ، وفى ا : حردا .

أهل الإسكندرية ، من الثغور الأموية ، قد وطّأ لى الفضل كَنَفَه ، ورحبت بى عبس ، ونمانى بيت . ثم جمجم بى الدهر عن ثُمّه ورُمّه(١) ، وأتلانى زغاليلَ حُمْر(٢) الحواصل :

كأنهمْ حيّاتُ أرضٍ مَحْلَةٍ · فلو يَعَضُّون لذَكَى سمُّهمْ
إذا نَزَلْنَا أرسلونى كاسباً · وإن رحلنا رَكِبُونى كلهمْ

ونشرتْ علينا البِيضُ(٣) ، وشمسَتْ منا الصُّفْرُ ، وأكلتنا(٤) السُّودُ ، وحطمتنا الحمر ، وانتابنا أبو مَالك ، فما تلقّانا أبو جابر إلّا عن عُفْرٍ(٥) . وهــذه البصرة ماؤها هَضُوم ، وفقيرها مهضوم ، والمرء من ضِرْسِه فى شُغْل ، ومن نفسه فى كلّ ، فكيف بمن :

يطوّف ما يطوّف ثم يأوى · إلى زُغْبٍ(٦) محدَّدة العيونِ
كساهنَّ البِلَى شُعْثًا فتُمْسى · جياع الناب ضامرةَ البطونِ

ولقد أصبحْنَ اليومَ وقد سرّحْن الطرْفَ فى حىٍّ كَمَيْتٍ ، وفى بيت كلا بيت ، وقلبن الأكفّ على لَيْتَ ، فَفَضَضْنَ عقد الضلوع ، وأفضْنَ ماء الدموع ، وتداعَين باسم الجوع :

والفقرُ فى زمنِ اللئا · م لكل ذى كرمٍ علامَهْ

وقد اخترتُكم يا سادة ، ودلّتنى عليكم السعادة ، وقلتُ(٧) : قسما ، إن فيهم شِيَمًا(٨) ، فهل من فتى يعشّيهن ، أو يغشّيهن ؟ وهل من حرٍّ يغدّيهن ، أو يردّيهن(٩) ؟

قال عيسى بن هشام : فوالله ما استأذن على سَمْعى كلامٌ رائع أبرع مما سمعت ،

(١) قليله وكثيره . (٢) أتلانى : أتبعنى ، وعنى بالزغاليل : أطفاله .
(٣) فى ا : الفز . (٤) فى ا : وأنحتنا . (٥) البيض : الدراهم . والصفر : الدنانير . والسود : الليالى المهلكة . والحمر : السنون المجدبة . وأبو مالك : الفقر والكبر والهرم . وأبو جابر : الخبز . ولم يلقنا إلا عن عفر : لا يزورنا إلا كل حين مرة .
(٦) فى م : إلى بيت . (٧) فى ط : وقالت . (٨) فى المقامات وم ، ا : لدمما .
(٩) يلبسهن الرداء .

لاجرمَ أنا استَمْحَنا الأوساط، وتَصَفَّنا الأكمام، ونَحَتنا[1] الجيوب؛ وأنلُه مُطْرِف، وأخذت الجاعةُ إخْذى، وقانا له : الحقْ بأطفالك، فأعرض عنا بعد شكر وفّاه، ونشر مَلأ به فاهُ .

[من رسائل البديع]

من رسائله إلى بعض الرؤساء

ومن رسائله إلى بعض الرؤساء : خُلقت — أطال الله بقاء السيد وأدام تأييده — مشروحَ جَنَانِ الصدر، جموحَ عِنَانِ الحلم، فسيحَ رُقعة الصدر :

حَمولًا صبوراً لو تعمَّدَنى الردى   لسرت إليه مُشْرِقَ الوجه راضيا

ألوفًا وفيًّا لو رُددْتُ إلى الصِّبا   لفارقت شَيْبى مُوجَعَ القلب باكيا

والله لأحيانَّ السيد على الأيام، ولأكلنَّ استحالة رأيه فىّ على الليالى، ولا أزال أحفيه الولاء، وأسقيه الثناء، وأفرش له من صدرى الدَّهْناء، وأعيره أذنا صمّاء، حتى يعلم أىّ عِلْقٍ باع، وأى فتى أضاع، وليقفن موقف اعتذار، وليعلمنّ بنُصْح أتى الواشون أم بخَبْول[2]. ولا أقول : يا حالف اذكر حِلا، ولكن ياعاقد[3] اذكر حَلا، ولست كمن يشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أذى رَهْطه، ويشتاقُ إلى رى بزيد لسِبْطه[4]، ولكنى أقول :

هنيئًا مريئًا غيرَ داء مُخَامرٍ   لعزَّةَ من أعراضنا ما استحلَّتِ

وأنا أعلم أن السيدَ لا يخرج عن تلك الحلية، بهذه الرُّقْية، وأن جوابَه أخشنُ من لقائه، فإن نشط للإجابة فلتكن المخاطبةُ قرأت رقعتك، فهو أخفّ مؤنة وأقل تَبِعة .

من رسائله إلى العميد

وله[5] إلى العميد : أنا — أطال الله بقاء الشيخ العميد — [مع إخوان نيسابور[6]]

---

(١) ف م : ونحتنا .   (٢) الخبل : الداهية، وجمعها خبول، وهو شطر بيت لكثير كما فى اللسان — مادة خبل، وصدره : فلا تعجل ياعز أن تتفهمى .

(٣) ف ا : ياعها قد حلا، وف م : ياعاقر .   (٤) ف ا : ويشتاق إلى من رمى من يدى سبطه . وف م : ظعن من سبطه .   (٥) الرسائل : ١٠٢ .   (٦) من ا، م .

فى ضيعة لافيها أُعان، ولا عنها أُصان، وشيمة ليست بى تُنَاط، ولاعنى تُماط، وحرفة لاعَنّى تُنال، ولا فيها أُدَال، وهى الـكُدْية التى علَّ تَبِعتُها، وليس لى منفعَتُها، فهل للشيخ العميد أن يلطف بصنيعته لطفا يحطّ عنه دَرَنَ العار، وشيمةَ التـكسّب بالأشعار، ليخفّ على القلوب ظِلّه، ويرتفع عن الأحرار كَلّه، ولا يثقل على الأجفان شَخْصُه، بإتمام ما كان عرضه عليـــه من أشغاله[1]، ليملّقَ بأذياله، ويستفيدَ من خلاله؛ فيكون قد صان المسلم عن ابتذاله، والفضلَ عن إذلاله، واشترى حُسْنَ الثناء بجاهه، كما يشتريه بماله، والشيخ العميد فيما يوجبه من وَعْدٍ يعتمده، ووفاء يتْلو ما بعده عالِى رأيه إن شاء الله.

[من المديح]

وقال بعضُ أهل العصر وهو أبو العباس الناشىء يمدح[2] سعد الدولة أبا المعالى شريف بن سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان:

كأن مرآةَ فهم الدهر فى يده ... يرى بها غائبَ الأشياء لم يَغِب
ما يرفع الفلك العالى سماء[3] عُلاً ... إلا علاها شريف كوكب العرب[4]
يامن بمَيْنِ الرضا يلقَى مُؤمِّلهُ ... والبُخْلُ يُطبِقُ أجفانا على الغضب
لو يكتب الملك أسماء[5] الملوك إذاً ... أعطاك موضع بسم الله فى الـكُتُب
غرّبت فى كل يوم منك مكرمةً ... فليس ذِكرُك فى أرض بمغترِب

* * *

بيته الأول كقول القائل:

أطلّ على الأشياء حتى كأنما ... له من وراء الغَيْب مُقْلَةُ شاهدِ ... من النقد

أبو تمام الطائى[6]:

(١) فى م: على من استعماله. (٢) فى ا: فى أبى العلاء شريف سعد الدولة.
(٣) فى ا: الفلك السامى السماء علا، وفى م: الـكواكب. (٤) فى م: الذهب.
(٥) فى م، ا: المجد أحساب. (٦) ديوانه: ١٤١.

أطلّ على كِلَا الأفقين حتى كأنّ الأرضَ فى عينيه دارُ

وأفرط ابن الرومى فقال :

أحاط علما بكل خافية كأنما الأرضُ فى يديه كُرَه

وقال محمد بن وهيب : —

عليمٌ بأعقاب الأمور كأنما يخاطبه من كلّ أمرٍ عواقبُه

وقال بعض شعراء بنى عبد الله بن طاهر :

وقوفك تحت ظلال السيوف أقرّ الخلافةَ فى دارها

كأنك مطّلع فى القلوب إذا ما تناجَتْ بأسرارها

وقال البحترى للفتح بن خاقان :

كأنك عينٌ فى القلوب بصيرةٌ ترى ما عليه مستقيمٌ ومائلُ

وقال فى سليمان بن عبد الله بن طاهر :

ينال بالظنّ ما فات اليقين به إذا تلَبّس دون الظن إيقانُ

كأن آراءه والظن يجمعها[1] تُريه كلّ خفىّ وهو إعلان

ماغاب عن عينه فالقلبُ يذكرهُ وإن تنمْ عينُه فالقلب يَقْظانُ

وقال أبو الحسن أحمد بن محمد الكاتب يمدح عبيد الله بن سليمان [بن وهب الوزير][2] :

إذا أبو قاسم جادَتْ لنا يدُهُ لم يُحْمَدِ الأجودان البحر والمطرُ

وإن أضاءت لنا أنوارُ غُرّته تضاءل الأنوران الشمس والقمر

وإن مضى رأيه أوحدّ عزمته تأخّر الماضيان السيفُ والقدرُ

من لم يبت[3] حَذرا من خوف سَطْوته لم يدر ما الْمُزعِجان الخوفُ والحذَر

ينال بالظن ما يَعْيَا العيان به والشاهدان عليه العَيْنُ والأثر

---

(١) فى ا م : والحزم يتبعها . (٢) من ا . (٣) فى م : يمت حذرا .

كأنه الدهرَ في نُعمى وفي نِعَمٍ إذا تَعاقب منه النفع والضرر[1]
كأنه وزمامُ الدهر في يدِه يرى عواقبَ ما يأتي وما يذر

وأصل هذا قول أوس بن حجر[2] :

الألمعيّ الذي يظن بك الظنَّـــــــنَ كأنْ قد رأى وقد سَمِعا

وهذا المعنى قد مرّ في أثناء الكتاب .

قال أبو الحسن جحظة البرمكي : قلت لخالد الكاتب : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أرقّ الناس شعراً ، قلت : أتعرف قولَ الأعرابي :

فما وَجْد أعرابية قذفت بها صُروفُ الليالي حيث لم تك ظَنَّتِ
تمنّتْ أحاليبَ الرِّعاء وخَيْمةً بنَجْدٍ فلم يُقدَرْ لهــا ما تمنّتِ
إذا ذكَرتْ ماء العِضَاهِ وطِيبَهُ وريحَ الصبا من نحو نجدٍ أرنّتِ[3]
بأعظمَ مِن وجدٍ بليلى وَجَدْتُهُ غداة غدَوْنا غدوة واطمأنّتِ
وكانت رياح تحمِلُ الحاجَ بيننا فقد بَخِلَتْ تلك الرياحُ وضنّتِ

فصاح خالد وقال : ويحك ! ويلك ! يا جحظة ! هذا والله أرقّ من شعري .

فصل لأبي العباس بن المعتز

لن تكسب — أعزك الله — المحامد ، وتستوجب الشرفَ ، إلا بالحَمْلِ على النفس والحال[4] ، والنهوض بحمل الأثقال ، وبَذْل الجاهِ والمالِ ، ولو كانت المكارمُ تُنَال بغير مئونة لاشترك فيها السفل والأحرار ، وتساهَمَها الوُضَعاء مع ذوي الأخطار ؛ ولكنّ الله تعالى خصّ الكرماء الذينَ جعلهم أهْلَها ، فخفّف عليهم حملها ، وسوّغهم فَضْلَها ، وحظرها على السفلة لصِغَر أقدارهم عنها ، وبُعْد طباعهم منها ، ونفورها عنهم ، واقشعرارها منهم .

---

(١) ليس هذا البيت في م ، ولا في ا . (٢) الأمالي : ٤ — ٣٤ .
(٣) في ط : وماء الصبا من نحو نجران أنت . (٤) الحال : العقل والعزم ، وفي ط : الحال.

[وقال أبو الطيب المتنبي(١) :

لولا المشقّةُ ساد الناسُ كلُّهمُ ... الجودُ يُفقِرُ والإقدام قتّالُ]

وقال الطائي(٢) :

والحدشَهْدُ(٣) لايُرى مُشتارُهُ ... يَجْنيه إلّا من نقيع الحَنظَلِ

شرٌّ لحامله(٤) ويحسبُ الّذى ... لم يؤذِ(٥) عاتقَه خفيفَ المحملِ

أخذه الطائي من قول مسلم بن الوليد ، وقيل غيره(٦) :

الجودُ أخشنُ مَسًّا يا بنى مَطر ... من أنْ تبزّكموه كَفُّ مُستَلِبِ

ماأعلَمَ الناسَ أنّ الجودَ مدفَعةٌ(٧) ... للذمّ لكنه يأتى على النَّشَبِ

وقال بعض الأجواد : إنا لنَجِدُ كما يجد البخلاء ، ولكنّا نصبر ولا يصبرون .

[الغضب]

وقال الجاحظ : قيل لأبى عباد وزير المأمون ، وكان أسرعَ الناس غضباً : إنّ لقمان الحكيم قال لابنه : ما الحِمْلُ الثقيل ؟ قال : الغضب . قال أبو عباد : لكنه والله أخفُّ علىّ من الريش ! قيل له : إنما عنى لقمان أنّ احتمالَ الغضَب ثقيل. فقال : لا والله لا يَقْوَى على احتمال الغضب من الناس إلا الجمل !

وغضب يوماً على بعض كُتّابه، فرماه بدَوَاةٍ كانت بين يديه فشجَّه ، فقال أبو عبّاد: صدق اللهُ تعالى فى قوله(٨) : والذين إذا ما غضبوا هم يَغْفرون . فبلغ ذلك المأمون فأحضره ، وقال له : ويحك ! ما تُحْسِن تقرأ آيةً من كتاب الله تعالى ! قال : بلى يا أمير المؤمنين ، إنى لأحفظ من سورة واحدة ألفَ آية ؛ فضحك المأمون وأمر بإخراجه .

(١) ديوانه : ٣ — ٢٨٧ ، وليس فى م ، ا . (٢) ديوانه : ٢٣٥ .

(٣) الشهد — بالفتح والضم : العسل . (٤) فى الديوان : غل لحامله .

(٥) فى الديوان : لم يوه . (٦) التبيان : ٣ — ٢٨٧ ، ونسبهما فيه إلى النمرى .

(٧) فى التبيان : مكسبة للمجد . (٨) الآية : وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، وبذلك يفهم كلام المأمون بعده .

نبذة من لطائف ابن المعتز وفضل تحققه بالبديع والاستعارات مما تتميّن العناية بمطالعتها(١)

قال أبو بكر الصولى: اجتمعتُ مع جماعةٍ من الشعراء عند أبى العباس عبد الله بن المعتز ، وكان يتحقق(٢) بعلم البَديعِ تحققا يَنْصُرُ دعواه فيه لسان مذاكرته ، فلم يَبْقَ مَسْلَكٌ من مسالك الشعراء إلاسلكَ بنا شِعْبا من شِعَابه، وأوردنا أحسن ماقيلَ فى بابه ، إلى أن قال أبو العباس : ما أحسن استعارة اشتمل عليها بيتٌ واحـــد من الشعر؟ قال الأسدى : قولُ لبيد(٣) :

وغداةَ ريحٍ قد كشَفْتُ وقرّةٍ   إذْ أصبحَتْ بيدِ الشَّمالِ زِمامُها(٤)

قال أبو العباس : هذا حسن ، وغيره أحْمَدُ منه ، وقد أخذه من قول ثعلبة بن صعَير المازنى(٥) :

فتذاكرا ثَقَلًا رَثيداً بعدما   ألقَتْ ذُكَاء يمينَها فى كَافِرِ

وقول ذى الرمة أعجب إلىّ منه(٦) :

ألا طرقت مىٌّ هَيُوماً بِذِكْرِها   وأيدِى الثّريا جُنّحٌ فى المغاربِ

وقال بعضُنا : بل قول لبيد أيضا(٣) :

ولقد حمَيْتُ الخيلَ تحمل شِكّتِى   فُرُطٌ ، وِشاحى إن غدوتُ لِجامُها

قال أبو العباس : هذا حسن ، ولكن تَعدل عن لبيد .

وقال آخر : [قول الهذلى](٧) :

ولو أننى استودعْتُه الشمسَ لاهتدَتْ   إليـــه المنايا عَيْنُها ورَسُولُها

---

(١) ليس هذا العنوان فى ا ، م . (٢) هكذا فى م ، ا . (٣) ديوانه : ٣١٥ ، المعلقات : ١٦٣ . (٤) البيت الذى يقال إن لبيدا سرق معناه من ثعلبة هو:

حتى إذا ألقت يدا فى كافر   وأجن عورات الثغور ظلامها

اللسان ــ مادة كفر ، الشعراء : ٢٤٣ ، المعلقات : ١٦٥ . (٥) اللسان ــ مادة كفر .

(٦) ديوانه : ١٦ . (٧) من م ، ا .

قال أبو العباس : هذا حسن ، وأحسن[1] منه — فى استعارة لفظِ الاستيداع — قول الحصين بن الحمام ؛ لأنه جمع الاستعارة والمقابلة فى قوله[2] :

نُطَارِدُهم نستودِعُ البيضَ هامَهُمْ ... ويستودِعُونا السَّمْهَرِى المُقوَّما

وقال آخر : بل قولُ ذى الرُّمة :

أقامَتْ به حتى ذَوى العودُ فى الثَّرى ... وساق الثريا فى مُلَاءَتِهِ الفَجْرُ

قال أبو العباس : هذا لعمرى نهايةُ الخبرة ؛ وذو الرمة أبدعُ الناسِ استعارة ، وأبرعهم عبــارة ، إلا أنَّ الصوابَ حتى ذوى العود والثرى ؛ لأن العود لا يَذْوى مادام فى الثرى ، وقد أنكره على ذى الرمة غير ابنُ المعتز . قال أبو عمرو بن العلاء : كانت يدى فى يد الفرزدق فأنشدته هــذا البيت ، فقال : أرشِدك أم أدَعُك ؟ قال فقلت : بل أرشدنى ، فقال : إنَّ العود لا يَذْوى فى الثَّرى ، والصواب حتى ذوى العودَ والثرى .

قال الصولى : وكأنه نبه على ذى الرمة[3] . فقلت : بل قوله :

ولما رأيت الليلَ والشمس حيَّة ... حياةَ الذى يقضى حشاشة نَازِعِ

قال أبو العباس : افتدحت زَنْدك ياأبا بكر فأوْرَى ، هذا بارعٌ جدا .

وقد سبقه إلى هذه الاستعارة جرير حيث يقول[4] :

تحيي الرواسس رَبْعها وتُجِدُّهُ ... بعــد البِلَى فتميته الأمْطارُ

وهــذا بيتٌ جمع الاستعارةَ والمطابقة ؛ لأنه جاء بالإحياء والإماتة ، والبلى والجِدة ، ولكنْ ذو الرمة قد استوفى ذِكْرَ الإحياء والإماتة فى موضعٍ آخر فأحْسن ، وهو قوله[5] :

ونَشْوانَ من طولِ النعاس كأنهُ ... بحَبْلَيْنِ فى مَشْطونةٍ يتَرَجَّحُ

إذا مات فوق الرَّحْلِ أحييت روحَهُ ... بذِكْرِك والعِيسُ المراسِيلُ جُنَّحُ

---

(١) فى ا : بديع ، وأبدع منه . (٢) الشعراء : ٦٣٠ .
(٣) فى م : فكأنما نبه على ذى الرمة . (٤) ديوانه : ٢٠١ . (٥) ديوانه : ٢٢ .

فما أحد من الجماعة انصرف من ذلك المجلس إلا وقد غمره من بَحْرِ أبي العباس ما غاض معه تَمِيمُه ، ولم ينهض حتى زوّدنا من برّه ولطفه نهاية ما اتسعت له حالُه .

[كتمان الحب]

وقال ابن المعتز[1] :

لما رأيت الحبَّ[2] يفضَحُنِي ... ونمت[3] عليَّ شواهد الصبِّ
ألقيت غيرَك في ظنونهمُ ... وسترْتُ وَجْهَ الحبِّ بالحُبِّ

وقال العباس بن الأحنف في هذا المعنى[4] :

قد جرَّر[5] الناسُ أذيالَ الظنونِ بنا ... وفرّق الناسُ فينا قولَهم فِرَقا
فكاذبٌ قد رمى بالظنِّ غيرَكمُ ... وصادقٌ ليس يَدْرِي أنه صدَقا

[وقريب من هذا المعنى قول الفارضي رضي الله عنه ، وإن لم يكن منه :

تخالفت الأقوالُ فينا تبايُنا ... برَجْمِ أصولٍ بيننا ما لها أصْلُ
فشنّع قومٌ بالوصالِ ولم أصل ... وأرْجفَ بالسلوان قومٌ ولم أسْلُ
وما صدق التشنيعُ عنها لشقوَتِي ... وقد كَذَبَتْ عنى الأراجيف والنقل][6]

وقال ابن المعتز[7] :

لنا عَزْمَةٌ صمّاء لا تسمعُ الرّقى ... تُبيت أنوفَ الحاسدين[8] على رَغْمِ
وإنا لَنُعْطِي الحقَّ من غير حاكم ... علينا ولو شِئْنا لمِلنا مع الظلم[9]

وقد أخذه أبو العباس من قول أعرابي :

ألا يا شفاء النفسِ[10] ليس بسالمٍ ... بك الناسُ حتى يعلموا ليلةَ القدْرِ
سوى رَجْمِهم بالظنِّ والظنُّ كاذبٌ ... مِراراً وفيهم مَنْ يُصيب ولا يَدْرِي

---

(١) ديوانه : ٦٦ . (٢) في الديوان : الدمع . (٣) في الديوان : وقفت .
(٤) ديوانه : ١١٣ . (٥) في الديوان : قد سحب .
(٦) ليس ما بين القوسين في ا ، ولا في م . (٧) ديوانه : ١ — ٤٩ .
(٨) في الديوان : تبيت قلوب العاذلين . (٩) في الديوان : كتمنا على ظلم . (١٠) في ا : القلب .

وقال الحسين بن مطير[١] :

لقد كنت جَلداً قبل أن تُوقد النوى ... على كبدى ناراً بَطيئا خمودُها
ولو تُركتْ نارُ الهوى لتضرَّمتْ[٢] ... ولكنَّ شوقا كلَّ يوم يَزيدُها[٣]
وقد كنتُ أرجو أن تموتَ صبابتى ... إذا قَدِمت أيامُها وعهودُها
فقد جعلت فى حبَّةِ القلب والحشا ... عِهادُ الهوَى تولَى[٤] بشوقٍ يُعيدُها
بمرتجَّةِ الأرداف هِيف خُصُورها ... عِذابٌ ثناياها عِجَاف نُهودُها[٥]
وصُفْر تَراقِيها وحُمْرٌ أكفُّها ... وسودٌ نواصيها وبيضٌ خدودُها
مُخصَّرة الأوساط زانَتْ عقودَها ... بأحسن مما زَيّنتْها عقودُها
يُمَنّيننا حتى ترِفّ[٦] قلوبنا ... رفيفَ الخُزامَى بات طَلٌّ يَجُودُها
وفيهن مِقْلاق الوِشاح كأنها ... مَهاةٌ بتُرْبَانٍ[٧] طَويلٌ عمودُها

وقال :

قضى اللهُ يا أسماء أنْ لستُ بارحا ... أحبك حتى يُغمِض العيْن مُغْمِضُ
فحُبُّك بَلْوَى غير أنْ لا يسوءنى ... وإن كان بَلْوَى أننى لك مُبْغِضُ
فواكَبِدا من لَوْعَةِ البَيْن كلّما ... ذكرتُ ومن رفض الهوى حين يرفض
ومن عَبْرة تَذْرى الدموع وزفرة ... تقضقض أطرافَ الحشا ثم تنهض
فياليتنى أقْرَضْت جَلْدًا صبابتى ... وأقرضَنى صبْراً على الشوق مقرِضُ
إذا أنا رُضْتُ القلب فى حُبِّ غيرها ... بَدَا حبُّها من دونه يتعرَّض

وكان الحسين قوىّ أسْر الكلام، جَزْلَ الألفاظ ، شديدَ العارِضة ، وهو القائل فى المهدى :

له يوم بؤْسٌ فيه للناس أبْؤُسٌ ... ويوم نَعيم فيهِ للناس أنْعُم

---

(١) الأمالى : ١ — ١٦٥ ، اللآلى : ٤٢٥ ، الأدباء : ١٠ — ١٨٦ ، الفوات : ١ — ١٨٥ .
(٢) فى م : لتصرمت . (٣) فى الأدباء : وقودها . (٤) فى الأدباء : عهاد تولاها .
(٥) فى الأدباء والأمالى : عجاف قيودها . (٦) ترف : تختلج (٧) موضع وفى ط ءا : بترثار .

فيُمطر يومَ الجود مِنْ كَفّه النَّدَى ... ويُمْطِرُ يومَ البؤس من كفّه الدمْ

فلو أن يومَ البُؤْس خَلّى عقابَهُ ... على الناس لم يصبح على الأرض مُجْرِمُ

ولو أن يوم الجود خَلَّى نَوالَهُ ... على الأرض لم يصبح على الأرض مُعْدِم

وأنشد أبو هفّان له :

أين أهلُ العتاب بالدَّهْناء ... أين جيرانُنا على الأحساء

جاوَرُونا والأرضُ ملبَسة نَوْ ... رَ الأقاحى تُجادُ بالأنْواء

كل يوم بأقحوان جَديد ... تَضْحَكُ الأرضُ من بكاء السماء

أخذ هذا المعنى دعبل ونقله إلى معنى آخر فقال[1] :

أين الشبابُ وأيّةً سلكا ... أم أين يُطلَب ضَلّ بل هلكا

لا تَعْجَبِي يا سَلْمَ من رجلٍ ... ضَحِكَ المشيبُ برأسِهِ فَبَكَى

وقال مسلم بن الوليد فى هذا المعنى :

مستعبِر يَبْكِى على دِمْنَةٍ ... ورأسُه يَضْحَك فيه المشيب

[معالى الأخلاق]

وأنشد الزبير بن بكّار :

أُحبّ معالىَ الأخلاق جُهدى ... وأكره[2] أن أَعِيبَ وأن أُعابا

وأصفح عن سِبَاب الناسِ حِلْماً ... وشرُّ الناسِ من حَبَّ السبابا

وأترك قائلَ العوراء عَمْداً ... لِأُهلكه وما أَعْيَى الجوابا

ومَنْ هابَ الرجالَ تهيّبُوهُ ... ومن حقر الرجالَ فلن يُهابا

[رياضة النفس على الفراق]

وعلى ذكر قوله[3] : * إذا أنا رُضْتُ القلبَ فى حُبِّ غيرها * أنشد الأصمعى لغلام من بنى فزارة[4] :

---

(١) المختار من شعر بشار : ٣٣٣ ، الأدباء : ٤ — ١٩٧ .

(٢) فى م : وأخشى . (٣) الحسين بن مطير فيما تقدم. (٤) اللآلى : ٥٠٩ .

وأُعرِضُ حتى يحسَبَ الناسُ أنما ... بِيَ الهَجْرُ ، لا واللهِ[1] ما بي لها هَجْرُ
[ولكنْ أروضُ النفسَ أنظر هل لها ... إذا فارقت ، يوماً أحبَّتها صبر][2]

قال إسحاق الموصلي : قال لي الرشيد : ما أحسن ما قيل في رياضة النفس على الفراق؟
قلت: قول أعرابي :

وإني لأستَحْيِي عيوناً وأتَّقي ... كثيرا وأستبقي المودَّةَ بالهجْرِ
فأُنْذِرُ بالهجران نفسي أرُوضُها ... لأعلمَ عند الهَجْرِ هل لي من صَبْرِ

[فقال الرشيد : هذا مليح ، ولكني أستملح قول أعرابي آخر[3] :

خشيتُ عليها العَيْنَ من طول وَصْلِها ... فهاجَرتها يومين خوفاً من الهجرِ
وما كان هِجْراني لها عن مَلَالةٍ ... ولكنني جرَّبْتُ نفسيَ بالصبرِ][4]

قال الصولي : قال لي المبرد : عمك إبراهيم بن العباس أحزمُ رأياً من خاله العباس ابن الأحنف في قوله[5] :

كان خُروجي من عندكم قدَرًا ... وحادثاً من حوادثِ الزمنِ
من قبل أن أعرض الفراق على ... قلْبي وأن أستعدَّ للحزَنِ

وقال عمك إبراهيم[6]:

وناجيتُ نفسي بالفراق أرُوضُها ... فقالت رُوَيْدًا لا أغرَّك من صَبْرِي
فقلت لهـــا فالهَجْرُ والبَيْنُ واحِدٌ ... فقالت أأُمْنَى بالفراقِ وبالهَجْرِ

فقلت له : إنه نقل كلام خاله[7] :

عرضت على قلبي الفِراق فقال لي ... من الآن فايْئَسْ لا أغرَّك من صَبْرِي
إذا صدَّ من أهْوَى رجوتُ وِصالَهُ ... وفرقةُ مَنْ أهوى أحرُّ من الجَمْرِ

---

(١) ق م ، ا : لاها الله . (٢) من م ، ا . (٣) اللآلئ : ٥٠٧ .
(٤) ليس ما بين القوسين في ا . (٥) ديوانه : ١٥٢ .
(٦) ديوان إبراهيم بن العباس : ١٤٤ . (٧) ديوانه : ٧٩ ، اللآلئ : ٥٠٨ .

وقال العباس بن الأحنف[١] :

أرُوض على الهجران[٢] نفسي لعلّها ... تَماسَكُ[٣] لى أسبابُها حين أهجرُ
وأعلم أنّ النفسَ تـكذِبُ وَعْدَها ... إذا صدق الهجرانُ يوما وتغدرُ
وما عرضَتْ لى نظرةٌ مُذْ عرفتها ... فأنظر إلا مُثّلت حين أنظرُ

[وقال المتنبي من المعنى[٤] :

حببْتُكَ قلبي قبل حبِّكَ[٥] مَنْ نَأى ... وقد كان غدّاراً فـكنْ أنتَ[٦] وافيا
وأعْلم أنّ البَيْنَ يُشْكِيكَ بعدها[٧] ... فلستَ فؤادى إن وجدتكَ[٨] شاكيا]

قال الحاتمى : والذى أراه وأذهبُ إليه أنّ أحسن من هـذا المعنى قول أبى صَخْر الهُذَلى[٩] :

ويمنعنى من بعضِ إنكارِ ظُلْمِها ... إذا ظلمت يوما وإن كان لى عذرُ
مخافةُ أنّى قد علمتُ لئن بَدَا ... لىَ الهَجْرُ منها ما على هَجْرِها صَبْرُ
وأنى لا أدرى إذا النفسُ أشرفت ... على هَجْرِها ما يبلغنّ بىَ الهجر
فياحبَّها زِدْنِى جوًى كلَّ ليلةٍ ... ويا سَلْوَةَ الأحزان مَوْعِدُكِ الحَشْرُ

شذور من كلام أهل العصر فى مكارم الأخلاق

ابن المعتز — العقلُ غريزة تَزِينها التجارب . وله: العاقلُ من عَقَل لسانه، والجاهلُ من جَهِل قَدْرَه .

غيره : إذا تمّ العقلُ نقص الـكلام . حُسْنُ الصورة الجمـالُ الظاهر ، وحسن الخلق الجمالُ الباطن . ما أبينَ وجوه الخيرِ والشرِّ فى مِرْآةِ العقل إذا لم يصدئْها الهوى.

---

(١) ديوانه : ٧٢ . (٢) فى الديوان : أجرب بالهجران .
(٣) فى الديوان : تعيق فيزداد الهوى . (٤) ديوانه : ٤ — ٢٨٣، وليس هذا البيت والذى بعده فى ا ، م . (٥) فى الديوان : قبل حبك . (٦) فى الديوان : فـكن لى .
(٧) فى الديوان : بعده . (٨) فى الديوان : إن رأيتك . (٩) الأمالى: ١—٩٤٩ .

العاقلُ لا يدعه ما ستر اللهُ من عيوبه أن يَفْرَحَ بما أظهر من محاسنه . بأيدى العقولِ تُمسك أعنّةُ النفوس عن الهوى . أحْرِ بمن كان عاقلا أن يكون عما لا يَعْنِيه غافلا .

التواضعُ من مصايد الشرف . من لم يتّضعْ عند نفسه لم يرتفع عند غيره .

يحيى بن معاذ — التكبُّر على المتكبر تواضع . الحلم حجابُ الآفات . أحيوا الحياء بمجاورة من يستَحْيَا منه . مَنْ كساه الحياء ثوبَه ستر عن الناس عَيْبَه . الصبرُ تجرّع الغُصَصِ ، وانتظارُ الفُرَص . قلوبُ العقلاء حصون الأسرار . انفرِدْ بسرّك ولا تودعه حازما فيزلّ ، ولا جاهلا فيخون . الأناة حُسْنُ السلامة ، والعجلة مفتاح الندامة . من حَسُنَ خُلقه وجَب حقُّه . إنما يستحق اسم الإنسانية مَنْ حَسُنَ خُلقه . يكاد سيء الخلق يُعَدّ من البهائم والسباع .

أرسطاطاليس — المروءة استحياء المرء نفسه . المعروف حِصْنُ النعم من صروف الزمن . للحازم كنزٌ فى الآخرة من عمله ، وفى الدنيا من معروفه . لا تستحى من القليل فإنّ الحرمان أقلُّ منه .

أبو بكر الخوارزمى — الطَّرْف يجرى وبه هُزَال ، [والسيفُ يَمْضِى وبه انفلال][1] ، والحرُّ يُعْطِى وبه إقلال . بَذْلُ الجاه أحدُ المالين . شفاعةُ اللسانِ أفضلُ زكاة الإنسان . بَذْلُ الجاهِ رفد للمستعين . الشفيعُ جناحُ الطالب . التقوى هى العُدّة الباقية ، والجُنّة الواقية . ظاهرُ التقوى شرفُ الدنيا ، وباطنها شرف الآخرة . من عفّت أطرافه ، حسنت أوصافه . قال أبو الطيب المتنبى[2] :

ولا عِفّةٌ فى سيفِهِ وسِنانِهِ — ولكنها فى الكفّ والفرجِ والفمِ

لقمان — الصّمتُ حُكْمٌ وقليل فاعِلُه . أربعُ كلمات صدرت عن أربعة ملوك كأنما رُمِيَت عن قَوْسٍ واحدة : قال كسرى : لم أندم على ما لم أقل ، وندِمتُ على ما قلت مرارا .

---

(١) زيادة من م ، ا .　　(٢) ديوانه : ٤ — ١٣٧ .

قيصر ـ أنا على ردّ ما لم أقل أقدرُ مني على ردّ ما قلت .

ملك الصين ـ إذا تكلّمت بالكلمة ملكتني ، وإذا لم أتكلّم بها ملكتها .

ملكُ الهند ـ عَجِبْتُ ممن يتكلّمُ بالكلمة إن رُفِعَتْ ضَرّته ، وإن لم تُرْفَع لم تنفعه .

ما الدّخانُ على النار ، ولا العجاج على الريح ، بأدلّ من ظاهرِ الرجل على باطنه ، وأنشد :

قد يُستدلُّ بظاهرٍ عن باطنٍ ... حيث الدخان فثَمّ مَوْقِدُ نارِ

مَنْ أصلح مالَه فقد صان الأكرَمَيْن : المال والعرض . من لم يحمد فى التقدير ولم يَذُبْ فى التدبير فهو سديد التدبير . عليك بالقَصْدِ بين الطرفين ، لا مَنْعَ ولا إسراف ، ولا بخل ولا إتراف . لا تكن رطبا فتُعْصَر ، ولا يابساً فتكسر ، ولا حلوا فتُسْتَرَط ، ولا مرًّا فتُلْفَظ .

المأمون بن الرشيد ـ الثناء أكثر من الاستحقاق مَلَقٌ وهذَر ، والتقصير عِيّ وحَصَر[1] .

إكرامُ الأضياف ، من عادة الأشراف . وفى الخبر : لا تتكلّفوا للضيف فتبغضوه ؛ فمن أبغض الضيفَ أبغضه الله . ينبغى لصاحب الكريم أن يصبر عليه إذا جمعتهما نبوة الزمان ، فليس ينتفع بالجوهرة الكريمة من لم ينتظر نَفَاقها[2] .

مواعظ عقلها بعض أهل العصر تتعلق بهذا الفصل

أغْضِ على القَذَى وإلا لم تَرْضَ أبدا . أجْمِل الطلبَ فسيأتيك [ما قُدِر لك ، صُنْ عرضك][3] وإلّا أخْلَقْت وجهك . جاور الناسَ بالكفّ عن مساويهم . انْسَ رِفْدَك ، ولا تَنْسَ وعدَك .

كذب أسواء الظنون بأحسنها . أغْنِ من وليّته عن السرقة ، فليس يكفيك من لم تكفه . لا تتكلّفْ ما كفيت فيضيع ما أوليت .

(١) فى ا : وحصر .   (٢) النفاق ، بالفتح : الرواج .   (٣) من م ، ا .

ابن المعتز — لا تسرعْ إلى أرفع موضعٍ فى المجلس ، فالموضع الذى تُرفع إليه خيرٌ من الموضع الذى تحطّ منه . لا تذكر الميتَ بسوء فتكون الأرضُ أكتمَ عليك منك . ينبغى للعاقل أن يُدارى زمانه مداراةَ السابح للماء الجارى .

العتابى — المداراةُ سياسة رفيعة تَجلِبُ المنفعة ، وتدفع المضرّة ، ولا يستغنى عنها ملك ولا سُوقَة ، ولا يدع أحدٌ منها حظَّه إلا غمرته صروف المكاره .

[من رسائل العتابى وأدبه]

لبعض أخوانه — وكتب العتابى إلى بعض إخوانه :

لو اعتصم شوقى إليك بمثل سلوِّك عنى لم أبذل وَجْهَ الرغبة إليك ، ولم أتجشّم مرارةَ تماديك ، ولكن استخفّتنا صبابتنا ، فاحتملنا قسوتَك ، لعظيم قدرِ مودتك ، وأنت أحقُّ من اقتصّ لصلتنا من جفائه ، ولشوقنا من إبطائه .

وله — وله : كتبتُ إليك ونفسى رهينة بشكرك ، ولسانى علق بالثناء عليك ، والغالبُ على ضميرى لائمة لنفسى ، واستقلالٌ لجهدى فى مكافأتك ، وأنت — أصلحك اللهُ — فى عزِّ الغنى عنى ، وأنا تحت ذُلِّ الفاقةِ إلى عطفك ، وليس من أخلاقك أن تُولى جانب النَّبْوَة منك من هو عانٍ فى الضَّراعة إليك .

دخوله على الرشيد — ودخل العتابى على الرشيد[1] فقال : تكلَّم يا عتابى ! فقال : الإيناسُ قبل الإبساس[2] ، لا يُحْمَدُ المرء بأول صوابه ، ولا يذمُّ بأول خطئه ؛ لأنه بين كلامٍ زوَّره ، أو عِىٍّ حَصَره .

العتابى وأبو نواس — ومرّ العتابى بأبى نواس وهو ينشد الناس[3] :

ذكر الكرخَ نازحُ الأوطانِ فبكى صَبْوَةً ولاتَ أوانِ

---

(١) المختار من شعر بشار : ٤٦ . (٢) الإبساس : صوت يستعمله الحالب عند الحلب يسكن به الناقة . (٣) ديوانه : ٩٧ .

فلما رآه قام إليه ، وسأله الجلوس ، فأبى وقال : أين أنا منك وأنت القائل ، وقد أنصفك الزمان(١) :

قد علقنا من الخصيب حِبالًا   أمَّنتْنا طوارقَ الحدثانِ

وأنا القائل وقد جار علىّ ، وأساء إلىّ :

لفظتنى البلادُ وانطوت الأكـ   ـفاء دونى ومَلَّنى جيرانى
والتقتْ حَلْقةٌ علىّ من الدهـ   ـرِ فجاءتْ بكَلْكلٍ وجرانِ
نازعتنى أحداثها مُنْيَةَ(٢) النفـ   ـس وهدّت خطوبُها أركانى
خاشعٌ للهموم معترف(٣) القلـ   ـب كئيبٌ لنائباتِ الزمانِ

[شعر الأعراب]

قال عبد الرحمن ابن أخى الأصمعى : سمعت عمّى يحدث قال(٤) : أرقتُ ليلةً من الليالى بالبادية ، وكنت نازلا عند رجل من بنى الصَّيْداء ، وكان واسعَ الرَّحْل ، كريم المحل ، فأصبحتُ وقد عزمْتُ على الرجوع إلى العراق ، فأتيت أبا مَثْوَاىَ ، فقلت : إنى قد هَلِعت من الغُرْبة ، واشتقْتُ إلى أهلى ، ولم أُفِدْ فى قَدْمتى هذه كبيرَ علم . وإنما كنت أغتفِرُ وحشة الغربة وجفاء البادية للفائدة ؛ فأظهر الجفاوة حتى أبرز غداء له فتغدّيت ، وأمر بناقة مَهْرِيّة(٥) كأنها سبيكة لُجَيْن [فارتحلها](٦) واكتفلها ، ثم رَكِبَ وأَرْدَفنى ، وأقبلها مطلعَ الشمس ؛ فما سِرْنا كبير مَسِير حتى لَقِيَنا شيخٌ على حمار ، له جُمّة قد نمغها بالوَرْسِ ، كأنها قنبيطة ، وهو يترنّم ، فسلّم عليه صاحبى ، وسأله عن نسبه فاعْتَزَى أسديا من بنى ثعلبة . قال: أتروى أم تقول؟ قال : كُلاًّ . قال : أين تؤمّ ؟ فأشار إلى موضع ٍ قريب ٍ من الموضع الذى نحنُ فيه . فأناخ الشيخ ، وقال لى : خُذْ بيد عمك فأنزله عن حماره . ففعلت ، وألقى له كساء قد

---

(١) ديوانه : ٩٨ . (٢) ق ١ : مهجة . (٣) ق ١ . معترق . (٤) الأمالى : ١ـ ١٦٩
(٥) منسوبة إلى مهرة بن حيدان : حى . (٦) من م ، ا .

اكتفل به ، ثم قال : أنشدنا يرحمك الله وتصدّق على هذا الغريب بأبيات يتّمن عنك ، ويذكرك بهن ، فأنشدني له[١] :

لقد طال ياسَوْداء مِنْك المَواعدُ ... ودون الجَدَا المأمولِ منك الفَرَاقدُ
تمَنَّيْتِنَا بالوصل وَعْداً وغَيْمُكم ... ضَبابٌ فلا صَحْوٌ ولا الغَيْمُ جائد
إذا أنتَ أعطيتَ الغِنَى[٢] ثم لم تَجُدْ ... بفَضْلِ الغنى أُلفِيتَ مالَكَ حامدُ
وقلّ غنـاء عنك مالٌ جمعتَهُ ... إذا صار ميراثاً ووَاراك لاحِدُ
إذا أنت لم تَعْرُك بجنبيك بَعْضَ ما ... يَرِيبُ من الأدنى رماك الأباعدُ
إذا الحلمُ لم يَغْلِب لك الجهل لم تَزل ... عليك بُروقٌ جَمّةٌ ورواعِدُ
إذا العزمُ لم يفرُج لك الشكّ لم تَزلْ ... جنيبا كما استَتْلَى الجنيبةَ قائِدُ
إذا أنت لم تترك طعاما تحبّهُ ... ولا مقعداً تَدْعُو إليـه الولائد
تجلّلتَ عارا لا يزالُ يَشُبُّهُ ... عليك الرجال نَثْرُهم[٣] والقَصَائِدُ

وأنشدني لنفسه[٤] :

تعزّ فإنّ الصبرَ بالحُرّ أجمل ... وليس على رَيْبِ الزمان معوّل
فلو كان يُغْني أن يُرى المرء جازعاً ... لنازلةٍ أو كان يُغْـنِى التذلُّلُ
لـكان التعزّي عنـد كل مصيبةٍ ... ونازلةٍ بالحرّ أولى وأجْمَلُ
فـكيف وكلٌّ ليس يَعْدُو حمامهُ ... وما لامْرِيء مما قضى اللهُ مَزحَلُ
فإن تـكن الأيامُ فينا تبدّلَتْ ... بنعمى وبؤسَى والحوادثُ تَفْعلُ
فـما ليّنَتْ منا قناةً صَلِيبةً ... ولا ذَلّلتْنَا للذى ليس يَجْمُلُ
ولـكن رحَلْناها نفوسا كريمةً ... تُحمَّلُ مالا يستطاعُ فتَحْمِل

---

(١) اللآلى : ٤٢٩ ، الأمالى : ١ ـــ ١٧٠ ، المختار من شعر بشار : ١٣١ .
(٢) فى م : الملى . (٣) فى الأمالى : سبابُ الرجال نثرهم .
(٤) الأمالى : ١ ـــ ١٧٠ ، اللآلى : ٤٣٠ ، وفى م ، ا = له أيضا .

وقَيْنَا بحدِّ العَزْم[1] منا نفوسَنا فصحّت لنا الأعراضُ والناس هُزَّلُ

قال : فقمت إليه ، وقد نسيت أهلى ، وهانَ علىّ طولُ الغربة ، وضَنْكُ العيش ، سروراً بما سمعت ؛ ثم قال : يا بنى ؛ من لم يكن الأدبُ والعلمُ أحبَّ إليه من الأهل والولد لم يَنْجُب .

[خصومة]

خاصم بعضُ القرشيين عُمر بن عثمان بن موسى بن عبيد الله بن معمَر ، فأسرع إليه القرشى فقال : على رِسْلِك ، فإنك لسريعُ الإيقاد ، وَشِيكُ الصريعة ؛ وإنى والله ما أنا مكافئك دون أن تبلغَ غايةَ التعدّى ، فأبلغ غايةَ الإعذار .

[ادّعاء]

قال عبد الله بن عبد العزيز وكان من أفاضل أهل زمانه : قال لى موسى بن عيسى : أينتهى إلى أمير المؤمنين ، يعنى الرشيد ، أنكَ تَشْتمه ، وتَدْعُو عليه ، فبأىّ شىء استجزْتَ ذلك ؟

قال: أما شَتْمُه فهو والله إذاً أكرمُ علىّ من نفسى ، وأما الدعاء عليه فوالله ما قلتُ : اللهم إنه أصبح عبئا ثقيلا على أكتافنا لاتطيقه أبداننا ، وقذًى فى عيوننا ؛ لاتنطبق عليه أجفانُنا ، وشجًى فى حلوقنا ، لاتسيغه أفواهُنا ؛ فاكْفِنا مؤنته ، وفرّق بيننا وبينه !

ولكنى قلت : اللهم إن كان تَسمّى الرشيد ليَرشد فأرْشده ، أو لأنى غير ذلك فراجع به ، اللهم إنّ له فى الإسلام بالعباس حقًّا على كل مسلم ، وله بنبيّك قرابة ورَحِما ، فقرِّبْه من كل خير ، وباعِدْهُ من كلّ شر ، وأسْعِدنا به ، وأصْلِحْه لنفسه ولنا » .

فقال له : يغفر الله لك يا عبد العزيز[2] ، كذلك بلغنا .

---

(١) فى الأمالى ، ا : بعزم الصبر . (٢) فى ا : ياعبد الرحمن ، وفى م : ياعبد الكريم.

[عَزْل والٍ]

ولما حجّ الرشيد سنة ست وثمانين ومائة دخل مكة وعديله يحيي بن خالد ؛ فانبرى إليه العُمَرى فقال : يا أمير المؤمنين ، قف حتى أكلّمك ! فقال : أرسلوا زِمَام الناقة ، فأرسلوه ، فوقفت فكأنما أُوتِدَتْ(١) ، فقال : [أقول ؟ قال](٢) قل ، فقال : اعزل عنا إسماعيل بن القاسم(٣) . [قال : ولم ؟ قال:](٤)لأنه يقبل الرشوة ويُطِيل النَّشوة ، ويضرب بالعشوة . قال : قد عزلناه [عنك ،](٤) ثم التفت إلى يحيي فقال : أعندك مثل هذه البديهة ؟ فقال : إنه ليجب أن يحسن إليه . قال : إذا عزلنا عنه من يريد عَزْله فقد كافأناه .

[يوصى الحجاج بالكعبة]

ولما وجّه عبدُ الملك بن مروان الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن الزبير وأوْصاه بما أراد أن يُوصِيَه قال الأسود بن الهيثم النخعى : يا أمير المؤمنين ، أوْصِ هــذا الغلام [الثقفى](٥) بالكعبة ألَّا يَهْدِم أحجارَها ، ولا يَهْتِكَ أستارَها ، ولا يُنفِّر أطيارها ، وليأخذ على ابن الزبير شِعابها ، وعقابها ، وأنقابها ، حتى يموتَ فيها جوعاً ، ويخرج مخلوعا .

[كتاب بنصر محاربا]

وكتبَ عبدُ الله بن طاهر إلى نَصْر بن شبيب وقد نزل به ليحارِبَه فى جُدّة متحصناً منه(٦) ، فكتب إليه :

اعتصامُك بالقِلَال قيّد عزمَك عن القِتَال ، والتجاؤك إلى الحصونِ ليس ينجيك من المَنُون ، ولستَ بمُفْلتٍ من أمير المؤمنين ، فإما فارس مُطَاعِن ، أو راجل مستأمِن .

فلما قرأه حصره الرعب عن الجواب ، فلم يلبث أن خرج مستأمنا .

---

(١) أوتد الوتد : ثبته . (٢) من ا . (٣) فى ا : إسماعيل بن العباس بن محمد .
(٤) من م ، ا . (٥) من ا ، م . (٦) فى ط : فى جنده فى جدة . . .

[من الحكم]

قال بزجمهر بن البختكان لبعض الملوك : أنعم تُشكر ، وأرهب تُحذَر ، ولا تهازل فتُحتَقَر . فجعلهن الملك نَقْشَ خاتمه بدلا من اسمه واسم أبيه .

ولما قتل أنوشروان بزرجمهر وجد في منطقته رقعةً فيها مكتوبٌ : إذا كانت الحظوظ بالجُدُود فما الحِرْص ؟ وإذا كانت الأمور ليست بدائمة فما السرور ؟ وإذا كانت الدنيا غرّارة فما الطمأنينة ؟

[قال سقراط][1] : من كثر احتماله وظهر حِلْمُه قلّ ظلمُه وكثر أعوانه . ومن قلّ همُّه على ما فاته استراحت نفسُه وصفا ذِهْنُه وطال عمره . وقال : من تعاهد نفسَه بالمحاسبة أمن عليها المُداهنة . وقال : الأماني حِبَالُ الجهل ، والعِشْرَةُ الحسنة وقايةٌ من الأسواء .

وشتمه بعضُ الملوك وكان على فرس وعليه حُلَل وبِزّة فقال له سقراط : إنما تفخر عليّ بغير جِنْسك ، ولكن رد كلّ جنس إلى جنسه وتعال الآن فلنتكلم .

وقال سقراط : من أُعطى الحِكْمة فلا يجزع لِفَقْدِ الذهب والفضّة ؛ لأن من أعطى السلامة والدّعة لا يجزع لفَقْدِ الألم والتعب ، لأنّ ثمارَ الحكمة السلامة والدّعة ، وثمار الذهب والفضة الألم والتعب .

وقال : القُنية ينبوع الأحزان ؛ فأقلوا القنية تقلّ همومكم .

وقال : القُنْية مخدومة ، ومن خدم غير نفسه فليس بحر . وقال أبو الطيب[2] :

أبداً تَسْتَرِدُّ ما تَهَبُ الدنـ ... يا فياليتَ جودها كان بخلا
وكفَتْ كَوْنَ فَرْحَةٍ تُورِثُ الهَمّ[3] ... وخِلٍّ يُغادِرُ الوَجْدَ خِلّا

وفي كتاب الهند : العاقلُ حقيقٌ أنْ تسخو نفسه عن الدنيا ، عِلْماً بأنّهُ لا ينالُ أحدٌ منها شيئاً إلا قلّ إمتاعه به وكثُرَ عناؤه فيه ، ووبالُه عليه ، واشتدّت مؤنته عندفراقِه ، وعلى العاقل أن يدوم ذِكْرُه لما بعدهذه الدار ، ويتنزّه عما تسيّره إليه نفسه[4] .

---

(١) من م ، ا . (٢) ديوانه : ٣ — ١٣٠ . (٣) في الديوان : تورث الغم .
(٤) في ا : تصير إليه .

من هذه العاجلة ، ويتنحّى عن مشاركة الكفرة والجهال في حبّ هذه الفانية التي لا يألفها ولا ينخدع بها إلا المغترون .

وفيه : لا يجدَنّ العاقلُ في صحبة الأحباب والأخلاء ، ولا يحرصنّ على ذلك كل الحرص . فإن صُحْبتهم على مافيها من السرور كثيرةُ الأذى، والمؤنات ، والأحزان، ثم لا يفي ذلك بعاقبة الفراق .

وفيه : ليس من شهوات الدنيا ولذّاتها شيء إلّا وهو مولّدٌ أذًى وحُزْناً ، كالماء المالح الذي كلما ازداد له صاحبُه شرباً ازداد عطشاً ، وكالقطعة من العسل في أسفلها سم للذائق ؛ فيه حلاوة عاجلة ، وله في أسفلها سمّ ذعاف ، وكأحلام النائم التي تسرُّه في منامه ، فإذا استيقظ انقطع السرور ؛ وكالبرق الذي يُضِيءُ قليلا ، ويذهب وشيكا ، ويبقى صاحبُه في الظلام مُقيما ، وكدودة الإبريسم ما ازدادَتْ عليه لفًّا إلا ازدادَتْ من الخروج بعداً .

وفيه : صاحبُ الدين قد فكر ؛ فَمَلَكَتْه السكينة ، وسكَن فتواضع ، وقَنع فاستغْنَى ، ورَضِي فلم يهتمّ ، وخلع الدنيا فنَجَا من الشرور ، ورفض الشهوات فصار حرًّا ، وطرح الحسد فظهرت له المحبّة ، وسخَتْ نفسه عن كل فانٍ ، فاستكْمَل العقل ، وأبْصَر العاقبة ، فأمِنَ الندامة ، ولم يُؤْذِ الناسَ فيخافهم ، ولم يُذْنِب إليهم فيسألهم العفو .

وقال سعد القصير مولى عُتبة بن أبي سفيان : وَلّاني عُتْبَة أموالَه بالحجاز ، فلما ودَّعته قال : يا سعد ، تعاهَدْ صغيرَ مالي فيكبر ، ولا تَجْفُ كبيره فيصغر ؛ فإنه ليس يَمْنَعني كثير ما عندي ، من إصلاح قليل ما في يدي ، ولا يمنعني قليلُ ما عندي من كثير ما ينوبني . قال : فقدمت الحجازَ ، فحدثت به رجالا من قريش ففرّقوا به الكتبَ إلى الوكلاء .

وقال يزيد بن معاوية لعبيد الله بن زياد[1] : إنّ أباك كفَى أخاه عظيما ، وقد

(١) البيان والتبيين : ٢ — ٧٦ .

استكفيتك صغيراً ، فلا تتكلنّ منى على عُذْر ، فقد اتكلت منك على كفاية ، ولأنْ أقولَ لك : إياك ، أحبُّ إلىّ من أقول : إياى ؛ فإنّ الظنّ إذا أخلف فيك أخلف منك ، فلا تُرِحْ نفسَك وأنت فى أدنى حظّك ، حتى تَبْلُغ أقصاه ؛ واذكر فى يومك أخبارَ غدِك ، واستَزِدْنى بإحسانك إلى أهل الطاعة ، وإساءتك إلى أهل المعصية ، أزِدْك إن شاء الله تعالى .

[العمامة]

ذكرت العمامة عند أبى الأسود الدؤلى فقال : جُنَّةٌ فى الحرب ، ودِثارٌ فى البرد ، وكِنَّة(١) فى الحرّ ، ووقَار فى الندىّ ، وشرفٌ فى الأحدوثة ، وزيادةٌ فى القامة ، وهى [بعد](٢) عادةٌ من عاداتِ العرب .

[من رسائل ابن العميد]

كتاب إلى أبى عبد الله الطبرى

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى أبى عبد الله الطبرى : وقفت على ما وصفت من برّ مولانا الأمير لك ، وتوفّره بالفضل عليك ، وإظهار جميل رأيه فيك ، وما أزله من عارفةٍ لديك ؛ وليس العجب أن يتناهى مِثْلُه فى الكرم إلى أبْعدِ غاية ، وإنما العجَبُ أن يَقْصُرَ شىء من مساعيه عن نَيْلِ المجد كلّه ، وحِيازة الفضل بأجمه ؛ وقد رجوتُ أن يكونَ ما يغرسه من صنيعةٍ عندك أجدر غرس بازْكاء ، وأضْمَنه للرَّيْع والنَّماء ؛ فارْعَ ذلك ، واركب فى الخِدْمة طريقة تُبْعدك من الملال ، وتوسطك فى الحضور بين الإكثار والإقلال ، ولا تَسْتَرْسِلْ إلى حسن القبول كلَّ الاسترسال ؛ فلأن تُدعَى من بعيد خيرٌ من أنْ تُقْصَى من قريب ، وليكن كلامُك جوابا تتحرّز فيه من الخطَلِ ومن الإسهاب ، ولا يعجبنّك تأتِّى كلمة محمودة فيلجّ بك الإطنابُ توقّعاً لمثلها ؛ فربما هدمت ما بنته الأولى ، وبضاعتك فى الشرف مُزْجاة ، وبالعقل يَزِمّ

(١) الكنة : الوقار والستر . وفى ا ، م : مكنة .   (٢) من م ، ا .

اللسان ، ويرام السداد[١] ، فلا يستفزّنك طَرَبُ الكلام[٢] على ما يفسد تمييزك ؛ والشفاعة لا تعرضْ لها فإنها مُخْلِقَةٌ للجاه ؛ فإن اضطررت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرفَ موقعها ، وتحصّلَ وزنها ، وتطالعَ موضعها ؛ فإن وجَدْتَ النفس بالإجابة سَمْحَة ، وإلى الإسعاف هَشّة ، فأظهر ما فى نفسك غير محقّق ، ولا توهم أنّ عليك فى الرد ما يُوحشك ، ولا فى المَنْع ما يغيظك ، وليكن انطلاقُ وجهك إذا دُفِعْتَ عن حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يَدك، ليخفَّ كلامك، ولايثقل على سامعه[٣] منك . أقول ما أقولُ غيْرَ واعظ ولا مُرْشِدٍ ، فقد جَمّل اللهُ خصالَك ، وحسّن خلالك ، وفضّلك فى ذلك كله ؛ لكنى أنبه تنبيه الشارك لك ، وأعلم أنّ للذكرى موضعا منك لطيفاً .

وله أيضاً : سأَلتَنِى عن شغَفى وَجْدِى به ، وشغفى حُبّي له ، وزَعمت أنى لوشئت لذهلت عنه ،ولو أردت لاعتَضْتُ منه، زعمًا، لَعَمْرُ أبيك، ليس بزعَم . كيف أسْلو عنه ، وأ . أراه ، وأنساه وهو لى تُجاه ؛ هو أغلب علىّ ، وأقربُ إلىّ ، من أنْ يُرْخى لى عنانى ، أو يُخَلِّينى واختيارى ، بعد اختلاطى بملكه ، وانْخِرَاطى فى سِلْكِه ، وبعد أن ناط حبه بقلبى نَائِط ، وسَاطَه[٤] بدمى سَائط . وهو جارٍ مَجْرَى الرُّوح فى الأعضاء ، متنسم تنَسُّم رَوْح الهواء ؛ إن ذهبت عنه رجعت إليه ؛ وإن هربْتُ منه وقفْتُ عليه ، وما أحِبّ السلوّ عنه مع هناتِه ، وما أوثِر الخلوّ منه مع مَلَاته ؛ هذا على أنه إنْ أقبل علىّ بهتنى إقبالُه، وإن أعْرض عنى لم يطرُقنى خياله، يبعد عنى مثاله ، ويقرب من غيرى نَوَالُه ، ويردُّ عينى خاسئة[٥]، ويَثْنى يدىَ خالية، وقد بسط آفات العيون القاربة ، وصدّق مراى الظنون الكاذبة ، ومثله يُنْذِر[٦] بصدّه ، وقُرْبه يؤْذِن ببعده ، يُدْنِى عندما ينزح ، ويأسُو مثل ما يجرح ،

---

(١) فى ط : يرأم ، وفى م ، ا : يجرم . (٢) فى م ، ا : الكرم .
(٣) فى م : مستمعه، وفى ا : مستمعيه . (٤) خلطه . (٥) كالة . (٦) فى م، ا : يدنو .

مخالته أحوال ، وخلّته خِلال ، وحكمه سِجَال ، الحُسْنُ في عوارفه ، والجمالُ من منائحه ، والبهاء من أسوله[1] وصفاته ، والسَّناء من نعوته وسماته ، اسمُه مطابقٌ لمعناه ، وفَحْواه موافقٌ لنَجْواه ، يتشابه حالاه ، ويتضارع قُطْراه ، من حيث تلقاه يستنير ، ومن حيث تنْشاه يستدير .

[هرب من الوباء]

وقع بالكوفة وباء ، فخرج الناسُ وتفرّقوا بالنّجف ، فكتب شريح إلى صديق له خرج بخروج الناس :

أما بعد ، فإنك بالمكان الذي أنت فيه بعَيْنِ من لا يُعجزه هرَب ، ولا يَفوته طَلَب ؛ وإنّ المكانَ الذي خلّفْتَ لا يعجّل لأحد حِمامَه، ولا يظلمه أيّامه ، وإنا وإياك لعلى بِسَاطٍ واحد ، وإن النَّجَف من ذي قُدْرَةٍ لقريب .

وهرب أعرابي ليلاً على حمار حِذَاراً من الطاعون ، فبينما هو سائر إذ سمع قائلا يقول :

لن يُسبق اللهُ على حمارِ ولا على ذي مَيْعَةٍ طيّار
أو يأتيَ الحتفُ على مقدار قد يصبح اللهُ أمام السارى

فكرّ راجعا وقال : إذا كان الله أمام السارى فلاتَ حينَ مَهْرب .

[قتيل الحب]

قال الأصمعي : أخبرني يونس بن حبيب قال : أُتي قومٌ إلى ابن عباس بفتى نحولٍ ضَمِناً ، فقالوا : استشفِ لهذا الغلام ، فنظر إلى فتًى حُلْو الوجه؛ عاري العظام؛ فقال له : ما بك ؟ فقال :

بنا من جوى الشوق المبرّح لَوْعةٌ تكادُ لها نفسُ الشفيق تَذُوبُ
ولكنما أبقى حُشاشةَ[2] ما ترَى على ما به عُودٌ هناك صَليب

(١) في ا ، م : من فصوله .   (٢) الحشاشة : بقية الروح في المريض .

فقال ابنُ عبّاس : أرأيتم وجها أعتق ، ولسانا أذْلَق ، وعُودا أصلب ، وهوًى أغلب ، مما رأيتم اليوم ؟ هذا قتيل الحبّ ، لا قوَد ولا دِيَة !

وكان ابنُ عبـاس رضى الله عنهما حَبْرَ قريش وبَحْرَها ، وله يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم فقّهه فى الدين ، وعَلِّمْه التأويل . وفيه يقول حسان بن ثابت[1] :

إذا قال لم يترك مقالًا لقائلٍ ... بملتقطات لا تَرَى بينها فَصْلا
شفَى وكفَى ما فى النفوس فلم يَدَعْ ... لذى لَسَنٍ[2] فى القول جِدًّا ولا هَزْلا
سموتَ إلى العَلْيا بغير مَشقّةٍ ... فنِلْتَ ذُرَاها لا دنِيًّا ولا وَغْلا

[صريع الغوانى]

وقال مسلم بن الوليد[3] :

أعاوِدُ ما قدمته مِنْ رَجائها ... إذا عاودَتْ باليأسِ فيها المطامعُ
رأتنى غَضِيضَ[4] الطَّرْفِ عنها فأعرضتْ ... وهل خفت إلا أن تشير الأصابع
وما زيّنتْها النفسُ لى عن لجاجةٍ ... ولكن جَرَى فيها الهوى وهو طائِع
فأقسمتُ أنْسَى الداعيات إلى الصبا ... وقد فاجأتْها العينُ والستر واقِع
فغطّتْ بأيديها ثِمارَ نحورِها ... كأيدى الأسارى أثقلتْها الجوامِعُ

وكان مسلم أنصاريا صريحا ، وشاعرا فصيحا ، ولُقِّبَ صريعًا أيضا لقوله[5] :

سأنقاد للّذاتِ متبعَ الهوى ... لأمضى همًّا أو أصيب فتًى مثل
هل العيش إلا أن تروح مع الصبا ... صريعَ حُمَيّا الكأس والأعين النُّجْلِ

واجتلب[6] له هذا الاسم لأجل هذا البيت ؛ وقد قال القطامى :

صريع غوانٍ راقهنّ ورُقْنَه ... لَدُنْ شبّ حتى شابَ سودُ الذّوائبِ[7]

(١) ديوان حسان : ٣٠٩ . (٢) فى الديوان : لذى إربة .
(٣) الشعراء ٨١٦ . (٤) فى الشعراء : غبى . (٥) فى الشعراء ٨٠٨ : وكان يلقب صريع الغوانى لقوله فى قصيدة له :

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا ... وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

وكذلك فى طبقات الشعراء : ٢٣٥ . (٦) فى الشعراء ٨٠٨ : وقد سبقه القطامى يلقب « صريع الغوانى » كما فى الأغانى (٢٠ — ١١٩) لقوله . . . وذكر البيت الآتى .
(٧) فى ط هنا خلط أصلحناه من ا ، م .

ومسلم أول من لطف البديع ، وكسا المعانى حُلل اللفظ الرفيع ، وعليه يعوّل الطائى ، وعلى أبى نواس ، ومن بديع شعره الذى امتثله الطائى قوله(١) :

تساقط يُمناه الندى وشماله الرْ ... رَدى وعيون القول منطقُه الفصلُ
كأنّ نَعَمْ فى فيه تجرى مكانَها ... سلافة ما مجّتْ لأفراخها النّحْلُ
له هضبة تأوى إلى ظلّ برْمَك ... منوطٌ بها الآمال ، أطنابُها السُّبْل
تجول إلى أن يُودعَ الحمدُ مالهُ ... يَمُدُّ الندى عنها إذا اقتُسِم البخل(٢)
وقد أحرم للأعراض بالبيض والندى ... فأموالُهم نهب وأعراضهم بَسْل
جبالا يطير الجهلُ فى عرَصاتها ... إذا هى حُلّتْ لم يفت حَلّها ذَحْلُ
بكفّ أبى العباس يُستمطر الغنى ... وتستنزلُ النُّعمى ويُسترْعَفُ النّصْلُ
متى شئت رفّعت الستورَ عن الغنى ... إذا أنت زُرْتَ الفضلَ أو أذِنَ الفضْلُ

وقوله أيضاً :

إذا كنت ذا نَفْس جواد ضميرُها ... فليس يضر الجودَ أن كُنْت مُعْدِما
رأى بمَيْنِ الجود فانتهز الذى ... أردت فلم أفقر إليه به فما
ظلمتك إنْ لم أجزل الشكرَ بعدما ... جعلتَ إلى شكرى نوالَك سُلّمــا
فإنك لم يترك نداك ذخيرةً ... لغيرك من شكرى ولا متلوّما

وقال ليزيد بن مَزْيد(٣) :

مُوفٍ على مُهَجٍ فى يوم ذى رَهَجٍ ... كأنه أجلٌ يسعى إلى أملِ
ينال بالرِّفْق ما يَعْيَا الرجالُ به ... كالموت مستعجِلاً يأتى على مَهَلِ
لا يرْحَل الناسُ إلا نحو حجرته ... كالبيت يُضْحى إليه مُلتقَى السُّبُلِ
يَقْرِى المنيّة أرواحَ الكُماةِ كما ... يَقْرِى الضيوفَ شحومَ الكُومِ والبُزُلِ(٤)

---

(١) الشعراء : ٨١٢ ، يمدح الفضل بن يحيى .
(٢) هذا البيت ساقط من م ، ا .
(٣) الشعراء : ٨١٠ .
(٤) الكوم : جمع كوماء : العظيمة السنام . والبزل : جمع بازل ، وهو ما له تسعة أعوام .

يكسو السيوفَ رءوسَ الناكثين به ... ويجعل الهامَ تيجان القَنَا الذُّبلِ

قد عوَّد الطير عاداتٍ وثقن بها ... فهنَّ يَتْبَعْنَه في كل مُرْتَحَلِ

وهذا المعنى كثير .

* * *

من النقد

قال عمر الورّاق: سمعت أبا نواس ينشد قصيدته[1] :

أيُّها المنتابُ عن عُفُرِهْ ... لستَ مِنْ لَيْلِي ولا سَمَرِهْ

لا أذودُ الطيرَ عن شجَرٍ ... قد بلوتُ المرَّ من ثَمَرِهْ

فحسدته عليها ، فلما بلغ إلى قوله[2] :

وإذا مجّ القَنَا عَلَقاً ... وتراءى الموتُ في صُوَرِهْ

راحَ في ثِنْيي مُفاضته ... أسدٌ يَدْمَى شبَا ظُفُرِهْ

تتأيّى الطير غَزوته[3] ... ثقةً بالشبع من جَزَرِه

تحت ظل الرمحِ تتبعهُ ... فهي تتلوه على أثرِه[4]

فقلت : ما تركت للنابغة شيئا حيث يقول[5] :

إذا ما غزَوْا بالجيش حلّق فوقهم ... عصائبُ طَيْرٍ تهتدي بعَصَائبِ

جَوَانحَ قد أيقنَّ أنَّ قبيلَهُ ... إذا ما التقى الجمعان أوَّلُ غالبِ

فقال : اسكت ، فلئن أحسن الاختراع ، لما أسأتُ الاتباع .

أخذه الطائي فقال[6] :

وقد ظُلِّلتْ عِقْبانُ راياته[7] ضحًى ... بعقبانِ طيرٍ في الدماء نواهلِ

أقامتْ على[8] الراياتِ حتى كأنّها ... من الجيش إلا أنها لم تقاتلِ

وقال المتنبي يصف جيشاً[9] :

---

(١) ديوانه : ٦٦ ، الوفيات : ٣ — ٣٠٢ . (٢) ديوانه : ٦٩ .

(٣) في الديوان : غدوته ، وليس هذا البيت في ا . (٤) هذا البيت ليس في م .

(٥) ديوانه : ١٠ . (٦) ديوانه : ٢٤٨ . (٧) في الديوان : أعلامه .

(٨) في الديوان : مع . (٩) ديوانه : ٤ — ١١٣ .

وذِى لجَبٍ لا ذُو الجناحِ أمامهُ ... بناجٍ ولا الوحشُ المُثارُ بسالمِ
تمرُّ عليه الشمس وهْىَ ضعيفةٌ ... تُطالعه من بين ريش القشاعمِ
إذا ضَوْءها لاقَى من الطيرِ فرجةً ... تدَوّرَ فوق البيضِ مثل الدراهمِ

* * *

ونظير قول أبي الطيب في هـذا البيت وإن لم يكن في معناه قوله يصف شِعب بوّان ، وسيأتى . استطراد في شعب بوان

وفي هذا الشِّعب يقول أبو العباس المبرد(١) :

كنت مع الحسن بن رَجَاء بفارس ؛ فخرجتُ إلى شِعب بوّان ، فنظرت إلى تُرْبة كأنها الكافور ، ورياض كأنها الثوب الوشيّ ، وماء ينحدر كأنه سلاسل الفضة ، على حَصْباء كأنها حَصَى الدر ؛ فجعلت أطوفُ في جَنباتها ، وأدُور في عَرَصاتها ، فإذا في بَعْض جدرانها مكتوب :

إذا أشرف المكروبُ من رَأْسِ تَلْعةٍ(٢) ... على شِعب بوّانٍ أفاق من الكَرْبِ
وألهاه بَطْنٌ كالحرير لَطَافةً(٣) ... ومطَّرِد يَجْرِى من البارد العَذْبِ
وطيبُ رياض في بلادٍ مَرِيعَةٍ(٤) ... وأغصان أشجارٍ جَناها على قُرْبِ
يُدِيرُ علينا الكأسَ من لو لحَظْتَهُ ... بعينيك مالُمْتَ المحبين في الحبّ
فبالله ياريحَ الشمال(٥) تحمَّلي ... إلى شِعب بوّان سلامَ فتًى صَبّ

قال أبو العباس : فأخبرت سليمان بن وهب بما رأيت ، فقال : وقد رأيت تحت هذه الأبيات :

ليت شعرى عن الذين تركْنا ... خَلْفَنا بالعراق هل ذكَرُونا
أم يكون(٦) المدَى تطاوَلَ حتى ... قَدُمَ العَهْدُ بيننا فنَسُونا
إن جفَوْا حرمة الصفاء فإنا ... لهمُ في الهوى كما عهدونا

---

(١) الأمالي : ٣ — ١٢٨ ، ذيل اللآلي : ٥٩ . (٢) التلعة : ما ارتفع من الأرض .
(٣) في الأمالي : كالحريرة مسه . (٤) في الأمالي : وطيب ثمار في رياض أريضة .
(٥) في الأمالي : ياريح الجنوب . (٦) في الأمالي : أم لعل .

وشعر المتنبي(١) :

مَغانى الشِّعب طِيباً فى المَغانى بمنزلة(٢) الربيع من الزمانِ
ولكنّ الفتى العربىّ فيها غريبُ الوجه واليدِ واللسانِ
مَلاعِبُ جِنَّةٍ لو سار فيها سليمانٌ لسار بترجمانِ
طَبَتْ فُرْسانَنا والخيلَ حتى خشيتُ وإن كَرُمْنَ من الحِرانِ
غدونا تَنْفُضُ الأغصانُ فيه على أعرافها مِثْلَ الجُمانِ
فجئتُ(٣) وقد حَجَبْنَ الشمسَ عنّى وجئْن من الضياء بما كفانى
وألقَى الشرقُ منها فى بَنانى دَنانيراً تَفِرُّ من البَنانِ

[ومنها(٤) :

يقول بِشِعْبِ بَوّانٍ حِصانى أعَنْ هذا يُسَارُ إلى الطِّعانِ
أبوكُمْ آدمُ سَنَّ المعاصى وعلَّمَكُمْ مُفارقةَ الجِنانِ]

إنما أردت هذا البيت . ومنها :

لها ثَمرٌ تشيرُ إليك منه(٥) بأشربة وقفْنَ بلا أوانِ
وأمْواهٌ يَصِلُّ بها حصاها صَلِيلَ الحَلْىِ فى أيدِى الغوانِى

* * *

وجه النقد وأول من ابتكر هذا المعنى الأول الأفوه الأوْدِى فى قوله(٦) :

وأرى(٧) الطير على آثارنا رأْىَ عَيْنٍ ثقةً أنْ سَتُمارُ

وقال حُميد بن ثور وذكر ذئباً(٨) :

إذا ما غدا يَوْماً رأيتَ غَيَابةً(٩) من الطير يَنْظُرْنَ الذى هو صانعُ

---

(١) ديوانه : ٤ — ٢٥١ ، ذيل اللآلى : ٥٩ . (٢) فى الديوان : كأيام .
(٣) فى الديوان : فسِرت . (٤) ليس هذان البيتان فى ا ، م . (٥) فى الديوان : منها .
(٦) ديوانه : ١٣ . (٧) فى الديوان ، م : وترى .
(٨) ديوانه : ١٠٦ ، الشعراء : ٣٥٢ . (٩) فى م : غزواء وفى الشعراء : إذا ما غدا ...
ظلاله . والغيابة : كل شىء أظل الإنسان فوق رأسه .

فهمّ بأمرٍ ثم أزمع غيْرَه ... وإن ضاق أمرٌ مرةً فهو وَاسِعُ

وقال مسلم بن الوليد :

وإنى لأستحيي القُنوعَ ومَذْهبي ... فَسيح وأقلى الشحّ إلا على عِرْضِي

وما كان مثلى يمتريك رَخَاؤهُ ... ولكن أساءت نعمة مِن فتى مَحْضِ

وإنى وإشراق عليك بِهِمّتى ... لكالمبتغى زُبْدا من الماء بالمَخْضِ

أخذه أبو عثمان الناجم فقال :

لم تُحَصّلْ بمخضك الماء إلا ... زَبَدًا حين رمت بالجهل زُبْدًا

وقال مسلم أيضاً يصف السفينة(١) :

كشفت أهاويلَ الدّجَى عن مَهُولِهِ ... بجاريةٍ محمولةٍ حامل بِكْرِ

إذا أقبلَتْ راعتْ بِقُنّةِ قَرْهَبٍ(٢) ... وإن أدبرت راقت بقادمَتَيْ نَسْرِ

أطلّتْ بمِجْدَافين يَعْتَوِرانِها ... وقوّمها كَبْحُ اللّجام من الدّبْرِ

كأنّ الصبا تحكى بها حين واجَهَتْ ... نسيمَ الصّبَا مَشْيَ العروسِ إلى الخِدْرِ

[وصف الأساطيل]

وقال أبو القاسم بن هانئ يصف أسطول المعز بالله : وصف أسطول المعز

أمَا والجوارِى المنشآت التى سَرَتْ ... لقد ظاهرتْها عُدّةٌ وَعَدِيدُ

قِبابٌ كما تُرْخَى القِبابُ على المَهَا ... ولكنّ من ضُمّتْ عليه أُسُودُ

[وما راع ملك الروم إلّا اطلاعُها ... تنشر أعلام لها وبنود](٣)

ولله مما لا يرون كتائبٌ ... مسوّمةٌ يجرى بها وجنودُ(٤)

أطال لها أنّ الملائكَ خَلْفَها ... فن وقفت خلف الصفوفِ رُدُودُ(٥)

وأن الرياح الذارياتِ كتائبٌ ... وأن النجوم الطالعاتِ سعودُ(٦)

---

(١) الشعراء : ٨١٤ . (٢) القرهب : الثور ، وفى ط : قرهد . والقرهد : ولد الأسد وولد الوعل . (٣) من ا . (٤) ليس هذا البيت فى ا . (٥) الردود : جمع رد بالكسر ، وهو ما يعتمد عليه ويرجع إليه . (٦) هذا البيت والذى قبله ليسا فى م .

عليها غمام مكفهرٌ صَبيرُ[1] ... له بارقاتٌ جمّةٌ ورُعُودُ
مواخرُ في طامي العُبَاب كأنها ... لِعزمك بأسٌ أو لكفّك جودُ
أنافتْ بها آطامُها وسَمَا بها ... بِناءٌ على غير العَرَاء مَشيد
[من الطير إلا أنهن جوارحٌ ... وليس لها إلا النفوس مصيدُ][2]
وليس بأعلى كبكب وهو شاهقٌ ... وليس من الصُّفّاح وهو صَلُود
من الراسيات الشُّم لولا انتقالُها ... فمنها قِنَانٌ شُمَّخٌ وريُودُ[3]
من القادحاتِ النارَ تُضْرَم للصَّلَى ... فليس لها يومَ اللقاء خمودُ[4]
إذا زفَرَتْ غيظًا ترامتْ بمارجٍ ... كما شُبَّ من نارِ الجحيم وقُودُ
تُعَانِقُ مَوْج البحرِ حتى كأنه ... سليطٌ له فيه الذُّبَالُ عتيدُ
ترى الماء فيها وهو قانٍ خِضَابُه ... كما باشرت رَدْعَ[5] الخَلُوقِ جلودُ
فأنفاسُهن الحاميات صواعقٌ ... وأفواههنّ الزافرات حديدُ
يُشَبُّ لآلِ الجاثليق سَعِيرُها ... وما هي من آل الطريدِ بَعيد[6]
لها شُعَلٌ فوق الغِمَار كأنها ... دِماءٌ تلقيها مَلَاحِفُ سُودُ
وغير المذاكي نجرها غير أنها ... مسوَّمةٌ تحت الفوارس قُودُ
فليس لها إلا الرياحَ أعنّةٌ ... وليس لها إلا العُبَابَ كَدِيد[7]
ترى كلَّ قوداءِ التليل[8] كما انثنت ... سوالفُ غِيدٍ أعرضت وخُدود
رحيبة مدّ الباعِ وهي نضيجة ... بغيرِ شوًى عذراء وهي وَلُود
تكبَّرْنَ عن نقْعٍ يثار كأنها ... مَوَالٍ وجُرْدُ الصافنات عَبِيدُ

---

(١) الصبير: السحابة فوق أخرى، أو السحاب المتراكم.
(٢) من م، ا. (٣) الريود: جمع ريد، وهو القطعة من الجبل.
(٤) هذا البيت والبيتان قبله ساقطة من ا، م. (٥) الردع: الزعفران وأثر الخلوق.
والخلوق: ضرب من الطيب. (٦) الجاثليق: رئيس للنصارى، وليس البيت في م، ا.
(٧) الكديد: الأرض الصلبة، وفي م، ا: إلا الحبابه. (٨) قوداء التليل: طويلة العنق.

لها من شُفوف العَبْقَرِىّ مَلابسٌ ... مفوّفَةٌ فيها النُّضَار جَسِيدُ
كما اشتملت فوق الأرائك خُرَّدٌ ... أو التفّعت فوق المنابر صِيدُ
لبوسٌ تكفُّ المَوْجَ وهو غُطامِطٌ ... وتدرأ بأسَ اليمّ وهو شديد
فمنه دروعٌ فوقها وجَواشنٌ ... ومنها خَفَاتِينٌ لها وبرود

وقال على بن محمد الإيادى يصف أسطولَ القائم فأجاد ما أراد :

وصف أسطول القائم

أَعْجِبْ لأسطولِ الإمامِ محمدٍ ... بحُسْنِهِ وزَمانِهِ المُستغرِب(١)
لبِسَت به الأمواجُ أحسنَ منظرٍ ... يَبْدُو لعين الناظرِ المتعجِّب
من كل مُشرِفَةٍ على ما قابلت ... إشراف صَدْرِ الأجدلِ المتنصِّب
دَهْمَاء قد لبِسَت ثيابَ تَصنُّعٍ ... تَسْبِى العقولَ على ثياب تَرَهُّب
من كل أبيض فى الهواء منشَّر ... منها وأسحمَ فى الخليج مُغَيَّب
كلاءة(٢) فى البر يقطع شدّها ... فى البحر أنفاس الرياح الشذَّب(٣)
محفوفة بمجاذف مصفوفة ... فى جانبين دُوَيْنَ صُلْبٍ صُلَّبِ
كقَوَادِمِ النَّسْرِ المرفرِفِ عُرِّيت ... من كاسيات رِياشه المتهدِّبِ
تَحْتَثُّها أيدى الرجال إذا وَنَتْ ... بمصعَّد منه بُعَيْد مُصَوَّبِ
حرقاء تَذْهَبُ إن يدٌ لم تَهدِها ... فى كل أَوْبٍ للرياح ومَذْهَبِ
جَوفاء تحمل موكبا فى جَوْفِها ... يومَ الرهان وتستقلّ بمَوْكِبِ
ولها جناحٌ يستعار يُطيرُها ... طوعَ الرياح وراحةِ المتطرِّبِ
يعلو بها حدَبُ العُبَاب مُطارةً ... فى كل لج زاخر مُغْلَوْلِبِ
تسمو بأجردَ فى الهواء متوَّجٍ ... عريان منسوج الذؤابة شَوْذَبِ(٤)
يتنزَّل المَلّاحُ منه ذؤابة ... لو رام يركبها القطا لم يَرْكَبِ
فكأنّما رام استراقة مَقْعَدٍ ... للسمع إلا أنه لم يُشْهَبِ

(١) ق م : المستعذب . (٢) ق م ء ا : كياءة . (٣) الشذب : التى تطرد وتبعد .
(٤) ق م ء ا : منشرح الذؤابة . والشوذب من الرجال : الطويل الحسن الخلق .

وكأنما جِنُّ ابنِ داودٍ هُمُ ... ركبوا جوانبها بأعنفِ مَرْكَبِ
سجَروا جواحِمَ[1] نارِها فتقاذفوا ... منها بألسُنِ مارِجٍ متلهِّبِ
من كل مسجورٍ[2] الحريق إذا انبرى ... من سجنِهِ انْصَلَتَ انصلاتَ[3] الكوكبِ
عُرْيان يقدمه الدخانُ كأنّهُ ... صبحٌ يكر على الظلامِ الغَيْهَبِ
ولواحق مثل الأهلّة جُنَّحٌ ... لحق الْمَطَالب فائتات الْمَهْرَبِ
يَذْهَبْن فيما بينهن لَطَافةً ... ويجئن فعل الطائرِ المتقلّبِ
كنضائض الحياتِ رُحْنَ لواعباً ... حتى يَقَمْنَ ببِرك ماء اليَزْنَبِ[4]
شرعوا جوانبها مجادفَ أتعبتْ ... شأْوَ الرياحِ لها ولمـا تَتْعَبِ
تنصاع من كَثَبٍ كما نفر القَطَا ... طوراً وتجتمع اجتماعَ الرَّبْربِ
والبحرُ يجمع بينها فكأنّه ... ليلٌ يقرِّب عقرباً من عقربِ
وعلى كواكبها أسود خلافة ... تختالُ في عُدَدِ السلاح الْمُذْهَبِ[5]
فكأنما البحرُ استعار بزِيِّهم ... ثوبَ الجمـال من الربيع المعجبِ

[كتب في الإهداء]

كتب العباس[6] بن جرير إلى الفضل بن يحيى :
لا أعلم منزلةً تُوحشني من الأمير ولا تُوحشه مني ؛ لأنني في المودة له كنفسه ، وفي الطاعة كيَدِهِ ، وإنما أُلطِفُه من فَضْلِه، وقد بعثت بَعْضَ ما ظننتُ أنه يحتاج إليه في سفَرِه — وذَكَرَ ما بَعَث .
وكتب غيره في هـذا المعنى : إذا كان الأَلْطَفُ دليلَ محبّةٍ ، وميسَم قُربةٍ ، كفى قليلُه عن كثيره ، وناب يسيرُه عن خَطِيره ، لا سيما إذا كان المقصودُ به ذا همّةٍ

---

(١) سجر : ملأ ، والجاحم : الجمر الشديد الاشتعال . (٢) في م و ا : مسجون .
(٣) انصلت : مضى . (٤) في م ، ا : ببرك ماء العقرب . (٥) في ط : المرهب .
(٦) في ط : أبو العباس .

لا يستعظم نفيسا ، ولا يستصغر خسيسا ؛ وقد حُزْتَ من هذه الصفة أجلَّ فضائلها ، وأرفعَ منازلها .

وفى هذا المعنى : إن يَدَ الأنس طويلة بكل ما بلغت ، منبسطة بكل ما أدركت ، من حيث يدُ الحشمة قصيرة عن كل ما حوت ، مقبوضة دون ما أمَّلَتْ ؛ لأن بابَ القول مطلقٌ لذوى الخصوص(١)، محظور عند ذوى العموم، ولتمكّن ما بيننا عاطيتك من لَطَفٍ مالا دونه قِلّة ، ثقةً منك بأنه يَرِد على مالا فوقه كثرة .

ومن ألفاظ أهلِ العصر فى إقامة رسم الهدية فى المهرجان والنيروز

لمثل هذا اليوم الجديدوالأوانِ السعيدسُنّةٌ ، على مثلِ فيها أن يُتْحِف ويُلْطِف(٢)، وعلى مثل سيدنا — ولا مِثْلَ له — أن يَقْبَل ويشرف .

لليوم رسمٌ إن أخلّ به الأولياء عُدّ هفوة ؛ وإن منع منه الرؤساء حُسب جَفْوة ، ومولاى يسوّغنى الدّالة فيما اقترن بالرقعة ، ويكسبنى بذلك الشرف والرفعة .

الهدايا تكونُ من الرؤساء مكاثرةً بالفضل ، ومن النُّظَراء مقارضةً بالمثل ، ومن الأولياء ملاطفة بالقُلّ ، وقد سلكت فى هذا اليوم مع مولاى سبيلَ أهل طبقته من الأرباب ، وقد حملتُ إلى مولاى هدية [الملاطِف ، لاهديّةَ](٣) المُحْتَفِل ، والنفسُ له، والمالُ منه .

ولهم فى التهنئة بالنيروز والمهرجان وفصل الربيع

هذا اليومغُرّةٌ فى أيام الدهر، وتاجٌ على مفرق العَصْر . أسعدالله مولانا بنَوْرُوزِه الوارد عليه، وأعاده ماشاءوكيف شاء إليه، أسعد الله تعالى سيدنابالنوروز الطالععليه ببركاته ، وأيْمنَ طائرَه فى جميع أيامه ومتصرفاته ؛ ولا يزالُ يلبس الأيامَ ويُبليها وهو جديد، ويقطعُ مسافة نحسهاوسعدها وهو سعيد. أقبل النيروزُ إلى سيدنا ناشرً

---

(١) فى ط : لذوى المظوظ . (٢) فى ا : ويهدى . (٣) من ا ، م .

حُلَله التى استمارها من شيمَتِه ، ومُبْديا حالته[1] التى اتخذها من سَجِيته ، ومستصحبا من أنواره ما اكتساه من محاسن فضله وإكرامه ، ومن أنظاره ما اقتبسه من جوده وإنعامه . ويؤكد الوعد بطول بقائه حتى يَملّ العمر ، ويستغرق الدهر . سيدُنا هو الربيع الذى لا يَذْبل شجرُه ، [ولا يزول سَحَرُه][2] ، ولا ينقطع ثمرُه ، ولا يُقْلِع غَمامه ، ولا تتبدّلُ أيامُه ؛ فأسعده الله تعالى بهذا الربيع المتشبّه بأخلاقه ، وإن لم يَنَلْ قدرها ، ولم يحمل فَضْلَها ، ولم يجد بدا من الإقرارِ بها . سيدُنا هو الربيع الذى يتّصل مطرُه ، من حيث يُؤْمَن ضررُه ، ويدوم زهرُه ، من حيث يتعجل ثمرُه ؛ فلا زال آمراً ناهياً ، قاهراً عالياً ، تتهيّأ الأعيادُ بمصادفة سلطانه ، وتستفيدُ المحاسنُ من رياض إحسانِه . أسعد الله سيدنا بهذا النَّوْرُوز الحاضر ، الجديد الناضر ، سعادةً تستمرُّ له فى جميع أيامه على العموم دون الخصوص ، لتكونَ متشابهات [فى اكتناف][3] المواهب لها ، واتصالِ المسارّ فيها ، لا يفرق إلا بمقدار يزيد التالى على الخالى ، ويدرج الآتى على الماضى . عرّف الله سيدَنا بركةَ هذا المهرجان ، وأسعدَه فيه ، وفى كل زمان وأوان ، وأبقاه ماشاء فى ظلالِ الأمانى والأمان .

هــذا اليومُ من محاسن الدهر المشهورة ، وفضائلِ الأزمنة المذكورة ، فلقّى الله تعالى سيدنا بركةَ وُرودِه ، وأجزل حظّه من أقسام سعوده . هذا اليومُ من غُرَرِ الدهور ، ومواسم السرور ، معظّم فى الملك الفارسى ، مستظرَف فى الملك العربى ؛ فوفر الله تعالى فيه على مولاى السعادات ، وعرّفه فى أيامه البركات ، على الساعات واللحظات .

[رجل الشرطة]

الحجاج يصف رجل الشرطة

وقال الحجاج بن يوسف : دلُّونى على رجل للشرطة ، فقيل : أى رجل تريد ؟ فقال : أريد رجلًا دائمَ العبوس ، طويلَ الجلوس ، سمينَ الأمانة ، أعجفَ الخيانة ، يهونُ عليه سِبَالُ الشريف[3] فى الشفاعة !

(١) فى ط : حليته . (٢) ليس فى ا ، م .

(٣) فى ط : سباب الشريف ، وفى ا : سبال الأشراف . والسبلة : ما على الشارب من الشعر ، وجمعه سبال .

فقالوا : عليك بعبد الرحمن [بن عبد الله](١) التميمي . فأرسل إليه يستعمله ، فقال: [لست] آمل لك عَمَلا إلا أن تَكفيني ولدَك ، وأهل بيتك ، وعيالك ، وحاشيتك .

فقال : يا غلام ، ناد : مَنْ طلب إليه حاجةً منهم فقد برئتْ منه الذمة .

وقال أشجع بن عَمْرو السُّلمي يمدحُ في هـــذا المعنى إبراهيم بن عثمان بن نَهيك صاحب شرطة الرشيد وكان جبارا عنيدا(٢) : وأشجع السلمي

في سيفِ إبراهيمَ خوفٌ واقعٌ   بذوي النفاق وفيه أَمْنُ المسلمِ

ويبيتُ يكلأُ والعيونُ هواجعٌ   مالَ الضيع ومُهْجَةَ المستسلمِ

شَدَّ الخطامَ بأنف كلِّ مخالفٍ   حتى استقام له الذي لم يُخْطَمِ

لا يُصْلِحُ السلطانَ إلا شِدةٌ   تغشى البريَّ بفضلِ ذَنْبِ المجرمِ

ومنَ الولاةِ مفحَّمٌ(٣) لا يتّقي   والسيفُ تَقْطُرُ شَفْرَتَاهُ من الدمِ

منعتْ مهابتُك النفوسَ حديثَها   بالأمر تكرهه وإن لم تَعْلَمِ

[من كلام الأعراب]

عذلَتْ(٤) أعرابية أباها في الجود وإتلاف ماله ، فقالت : حَبْسُ المالِ أنفعُ للعِيَال، من بَذْلِ الوَجْه في السؤال ؛ فقد قلَّ النوالُ ، وكثر البُخّال ، وقد أتلفت الطارِفَ والتِّلاد(٥) ؛ وبقيت تطلبُ ما في أيدي العباد . ومن لم يحفظ ما ينفعه ، أوشك أن يسعى فيما يضرّه .

قال الأصمعي : سمعت أعرابية تقول(٦) : اللهم ارزقني عملَ الخائفين ، وخوفَ العاملين ، حتى أتنعّم بترك التنعم ، رجاء لما وعدْتَ ، وخوفا مما أوعدت .

وقال آخر : اللهم من أراد بنا سوءاً فأحِطْه به كإحاطةِ القلائد بأعناق الولائد، وأرسِخْه على هَامَتِه ، كرسوخ السِّجيل(٧) ، على هامِ أصحاب الفيل .

---

(١) من ا ، م. (٢) الشعراء ٨٦٠ . (٣) في الشعراء : مقحم، والمقحم : الذي يقحم نفسه في الأمر من غير روية . (٤) عذلت : لامت . (٥) المال الموروث ، والمال الذي جددناه . (٦) في ا : أعرابيا يقول . (٧) سجيل : حجارة .

وقال بعضُ الأعراب : نالنا وَسْمِيٌّ ، وخَلَفَه وَلِيٌّ ؛ فالأرضُ كأنها وَشْىٌ [عبقرى[1]] ؛ ثم أتتنا غُيُوم جَرَاد ، بمناجل حِدَاد ؛ نخرَّبت البلادَ ، وأهلكت العبادَ ؛ فسبحان من يُهلك القوىَّ الأكول ، بالضعيف المأكول .

[مع بعض الولاة والخلفاء]

عمارة بن حمزة يشكر السفاح — وقال عمارة بن حمزة لأبى العباس السفاح وقد أمر له بجوائز نفيسة ، وكُسْوَة وصِلة ، وأدْنى مجلسه :

وصلك اللهُ يا أمير المؤمنين وبَرَّك ، فو الله لئن أردنا شُكْرَك على كُنْهِ صِلتك ، فإنَّ الشكرَ ليَقْصُرُ عن نعمتك ، كما قَصُرْنا عن منزلتك ، غير أنَّ الله تعالى جعل لك فَضْلا علينا بالتقصير منا ، ولم تَحْرِمْنا الزيادةَ منك لِنَقْصِ شكرنا .

السفاح وخالد بن صفوان — وقال أبو العباس السفاح لخالد بن صفوان : كيف عِلْمُك بأخْوَالِى بنى الحارث ابن كعب ؟ قال : يا أميرَ المؤمنين ، هم هامَةُ الشرف ، وعِرْنِينُ الكَرَم ، وفيهم خصالٌ ليست فى غيرهم من قومهم ، هم أحسنهم أمَمًا[2] ، وأكرمهم شِيَمًا ، وأهنؤهم طعما ، وأوْفاهم ذِمما ، وأبعدهم هِمما ، هم الجَمْرَة فى الحَرْب ، والرأسُ فى كلِّ خطب ، وغيرهم بمنزلة العَجْب[3] .

خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز — وعزَّى خالدُ بن صَفْوان عمر بن عبد العزيز وهنَّأه بالخلافة فقال : الحمد لله الذى مَنَّ على الخَلْق بك ، والحمدُ لله الذى جعل نُبُوَّتكم رَحمة ، وخلافتكم عِصْمَة ، ومصائبكم أُسوة ، وجعلكم قُدْوَة .

خالد بن صفوان وبعض الولاة — وقال خالدُ بن صَفْوان لبعض الولاة : قدمتَ وأعطيتَ كلاًّ بِقِسْطِه من نظرك ومَجْلسك ، فى صوتك وعَدْلك ، حتى كأنك من كلِّ أحد ، وحتى كأنك لست من أحد .

وقال رجل لخالد : إن أباك كان دَميا ، ولكنه كان حليما ، وإنَّ أمك كانت

---

(١) ليست فى م ولا ا . (٢) أمما : قصدا . (٣) العجب : أصل الذنب ومؤخر كل شىء .

حسناء ، ولكنها كانت رَعْناء ، فيا جامع شَرّ أبويه !

شذور في المقابح ومساوئ الأخلاق

علي بن عبيدة الريحاني — أدْنس شعار المرء جهله .

ابن المعتز — نَعَم الجاهلُ كالرياض في المزابل . كلما حسُنَت نعمةُ الجاهل ازداد فيها قُبْحاً . لسانُ الجاهل مفتاحُ حَتْفه . لا ترى الجاهلَ إلا مُفرِطاً أو مفرِّطاً .

الجاحظ — البخلُ والجُبْنُ غريزةٌ واحدة ، يجمعهما سوء الظن بالله . البخلُ يَهْدِمُ مبانيَ الشرف .

وقال ابن المعتز : لما عرف أهلُ النَّقْصِ حالَهم عند ذوي الكمال ، استعانوا بالكِبْرِ ليعظِّمَ صغيراً ، ويرفَعَ حقيراً ، وليس بفاعل .

الغضب يصدئ العقلَ حتى لا يرى صاحبُه صورةَ حَسَنٍ فيرتكبه ، ولا صورة قبيح فيجتنبه . الغضبُ ينبيء عن كامن الحقد . من أطاع غضبَه أضاع أدبه .

حدّةُ الغضب تمثر[1] المنطق ، وتقطع مادّة الحجّة ، وتفرّق الفَهْم .

غضب الجاهل في قوله ، وغضبُ العاقل في فِعْله . عقوبةُ الغضبِ تبدأ بالغضبان؛ تقبّح صورتَه ، وتثلّم دِينَه ، وتعجّل ندَمه .

ما أقبح الاستطالة عند الغِنى ، والخضوع عند الفَقْر . من يهتك سِتْر غيره تكشّفت عورات بيته . تفاق المرء من ذلة . الشرير لايظنُّ بالناس خيراً لأنه يراهم بعين طبعه . من عدّد نعمه محق كرمه . خُلْفُ الوعد خُلُق الوَغْد . من أسرع كثُر عثاره .

[من المفاخرات]

فاخَر كاتبٌ نديما ، فقال الكاتب : أنا مَعُونة ، وأنت مئونة ، وأنا للجِدّ ، وأنت للهَزْل ؛ وأنا للشدّة وأنت للّذّة ؛ وأنا للحرب ، وأنت للسلم . فقال النديم : أنا

(١) في م : تنير .

للنعمة ، وأنت للخِدْمة ؛ وأنا للحضرة ، وأنت للمهنة ؛ تقوم وأنا جالس ، وتحتشم وأنا مُؤانس ؛ تَدْأب لِراحتى ، وتَشْقَى لسعادتى ؛ فأنا شريك ، وأنتَ معين ، كما أنك تابع ، وأنا قَرِين .

صاحب سيف وصاحب قلم

وفاخر[١] صاحبُ سيفٍ صاحبَ قلم ، فقــال صاحبُ القلم : أنا أقتل بلا غَرَر ، وأنت تقتل على خَطر . فقال صاحب السيف : القلمُ خادمُ السيف ، إن تمّ مراده ، وإلّا فإلى السيفِ مَعَاده . قال أبو تمام[٢] :

السيفُ أصْدَقُ أنباءً من الكُتُبِ   فى حَدِّهِ الحدُّ بين الجِد واللعبِ

إبراهيم بن المهدى :

فقد تلينُ ببعضِ القولِ تَبْذُلهُ   والوصل فى جبَل صَعْبٌ مَراقِيهِ
كالخيزران مَنِيعٌ حين تَكسِرهُ   وقد يُرى لَيِّنـــاً فى كفِّ لاوِيهِ

أبو الهَيْذام[٣] عامر بن عمارة المرّى يرثى :

سأبْكيك بالبيض الرِّقاق وبالقَنَا   فإنّ بِهــا ما أدرك الواتِرُ الوِتْرا
ولسنا كمن يَبْكى أخاه بعَبْرَةٍ   يعصِّرها من ماءِ مُقْلَتِه عَصْرا
ولكننى أشْفِى فؤادى بغَمْرةٍ   وأُلْهِب فى قُطْرَىْ جوانبه[٤] جَمْراً
وإنا أُناسٌ ما تَفِيضُ دموعنا   على هالكٍ منّــا وإن قصم الظَّهْرا

[من كلام الحكماء]

لقى رجل حكيما فقال: كيف تَرَى الدهر ؟ قال: يُخْلِقُ الأبدان ، ويجدِّدُ الآمالَ، ويقرِّبُ المنية ، ويباعِدُ الأُمْنِية . قال : فما حالُ أهله ؟ قال : من ظفر به منهم تعب ، ومن فاته نَصِب . قال : فما الغنى عنه ؟ قال : قَطْعُ الرجاء منه . قال : فأىّ الأصحاب

---

(١) ارجع إلى صفحة ٣١٤ من هذا الكتاب .   (٢) ديوانه : ٧ .
(٣) فى م : أبو الهيدام . وفى ط : أبو الهندام . والمثبت فى ا .   (٤) فى ا : كنائبها .

أبرّ وأوْفى ؟ قال : العمل الصالح والتقوى . قال : أيهم أضر وأرْدَى ؟ قال : النفس والهوى . قال : فأين المخرج ؟ قال : سلوكُ المَنْهَج . قال : وما هو ؟ قال : بَذْل المجهود ، وترك الراحة ، ومداومة الفكرة . قال : أوْصني . قال : قد فعلت .

وقال بعضُ الملوك لحكيم من حكمائه : عِظْني بعظةٍ تنفي عني الخيلاء ، وتزهّدني في الدنيا . قال : فكِّر في خَلْقك ، واذْكُر مبدأك ومصيرك ، فإذا فعلت ذلك صَغُرَتْ عندك نفسُك ، وعَظُم بصغرها عندك عَقْلُك ؛ فإنّ العقلَ أتمهُما لك عِظَمًا ، والنفس أزْيَنهُما لك صِغَراً ؛ قال الملك : فإن كان شيء يُعينُ على الأخلاق المحمودة فصفتك هذه . قال : صدق دليل ، وفهمك عجّة ، والعلم عنّية[1] ، والعمل مَطيّة ، والإخلاص زمامها ، فخُذْ لعقلك بما يَزينه من العلم ، وللعلم بما يَصُونُه من العمل ، وللعمل بما يحقّقه من الإخلاص ، وأنت أنت ! قال : صدقت .

[من المدح]

وقال ابن الرومى[2] : لابن الرومى

تغْنَوْن عن كل تقريظ بمجدكمُ[3] ... غِنَى الظباء عن التكحيل بالكَحَلِ

تلوح في دُول الأيام دولتكم ... كأنها مِلّةُ الإسلام في المِلَلِ

وقال أيضاً :

كلُّ الخصالِ التي فيكم محاسنُكم ... تشابهَتْ منكم الأخلاقُ والخلقُ

كأنكم شجرُ الأتْرُجّ طابَ معا ... حَملاً ونَوْراً وطاب العودُ والورقُ

وقال البستى [في نحو هذا][4] : البستى

فتًى جمع العلياء عِلْماً وعِفّةً ... وبأساً وجوداً لا يطيق فُواقا

كما جمع التفاحُ حسناً ونضرةً ... ورائحةً محبوبةً ومَذَاقا

---

(١) في ا : حيلة ، وفي م : حلية . (٢) ديوانه : ٤٧٢ . (٣) في الديوان : بفضلكم ، وفي ا : بمدحكم . (٤) اليتيمة : ٤ — ٢٩٨ ، وما بين القوسين من ا .

مادح أبي دلف

قال أبو العباس المبرد : حدثني مجل بن أبي دلف قال : امتدح رجلٌ أبي بكلمة ، فوصله بخمسمائة دينار ولم يره ، وهي :

مَالِي ومالك قد كلفتني شَططا ... حَمْلَ السلاحِ وقول الدَّارِعين قفِ
أَمِن رجالِ المنايا خِلْتني رجُلا ... أُمْسِي وأُصْبِحُ مشتاقاً إلى التَّلَفِ
أَرَى المنايا على غيرى فأ كرهها ... فكيف أَمْشِي إليها بارزَ الكَتِفِ
أخِلْتَ أنّ سواد الليـــل غيَّرنى ... وأن قلبيَ فى جنبَيْ أبى دُلَفِ

مادح أبي البختري

قلت : هـذا كحديث الذى دخل فى قومٍ على شراب فسقوه غير الشراب الذى يشربون فقال :

نَبِيذان فى مجلسٍ واحدٍ ... لإيثارِ مُثْرٍ على مُقْتِرِ
فلو كنتَ تفعل فِعْلَ الكرام ... فعلت كفعل أبي البَخْترى[1]
تتبع إخوانه فى البلاد ... فأغنى المقلّ عن المكثر

فاتصل شعره بأبي البخترى[1] فأعطاه ألف دينار ولم يَرَه .

[أحمد بن أبي فَنَن]

من شعر أحمد ابن أبي فنن

والأبيات التى مُدِح بها أبو دلف هى لأحمد بن فَنَن[2] ، وكان شاعرا مجيداً ؛ وهو القائل[3] :

ولما أبَتْ عيناىَ أن تملكَ البُكَا ... وأن تحبسا سَحَّ الدموعِ السواكبِ
تثاءبت كى لا يُنكِرَ الدمعَ منكرٌ ... ولكن قليلًا ما بقاء[4] التثاؤب
أعرَّضتمانى للهوى وعمتُما ... علىّ لبئس الصاحبانِ لصاحبِ

وقال[5] :

وحياة هَجْرك غير معتَمِدٍ ... إلا لقصْدِ الحِنث فى الحلفِ

---

(١) فى ط ، ا : أبي البحترى .   (٢) فى ط : بن أبي العيناء ، وهذا من م ، ا .
(٣) اللآلى : ١٩٨ .   (٤) فى ط : مايفيد .   (٥) اللآلى : ٢٤٠ .

ما أنت أَمْلَحُ مَنْ رأيت ولا كَلَفِى بحبِّك مُنْتَهَى كَلَفِى

قال الصولى : كنا بحضرة أبى العباس المبرد، فأنشد هــذين البيتين فاستظرفهما وأنشدنا فى ذلك :

وحياة غيرك[1] لســت مُعْتَمِداً بِهِ حِنْثاً ولكن مُعْظِماً لحياتكا
ما ينقضى طَمَعِى وإن أطمعتنى فى الوعد منك إلى انقضاء عِدَاتِكا

وقال الخثعمى :

ولم أر مثلَ الصدِّ أدعى إلى الهوى إذا كان ممن لا يخافُ على وَصْلِ
وآلَتْ يميناً كالزجاج رقيقةً وما حَلَفَتْ إلّا لتحْنَثَ من أجْلِى

وكان أحمد بن أبى فَنَن[2] أسود ، ولذلك قال :

* أخِلْتَ أن سَوَادَ الليل غيَّرنى *

ولما أُدخل على المعتزّ وامتدحه قال : هذا الشاعرُ الآدَم ، قال بعض من حضر : لا يَضِيرُه سوادُه مع بياض أياديك عنده ، قال : أجَلْ ، ووصله .

* * *

من النقد ·

أخذ قوله[3] :

* أرى المنايا على غيرى فأكرهها *

من قول أعرابى قيــل له : ألا تَغْزُو ؟ قال : أنا والله أكره الموت على فراشى ، فكيف أمشى إليه رَكْضاً ؟

[الاستطراد]

وهذا المذهب الذى سلكه أحمــد ضربٌ من البديع يسمّى الاستطراد ، وذلك

(١) فى ط : عزك . (٢) فى ط : بن أبى العيناء . وهذا من م ، ا .
(٣) فى الأبيات السابقة صفحة ١٠١٢ .

أن الفارس يظهر أنه يستطرد لشيء ويُبْطِنُ غيره ، فيكرُّ عليه[١] ، وكذلك هذا الشاعر يظهرُ أنه يذهبُ لمعنى فيمن له آخرَ فيأتي به ، كأنه على غير قصد ، وعليه بناه ، وإليه كان مَغْزاه ، وقد أكثر المحدَثون منه فأحسنوا في ذلك .

قال الأصمعي : كنت عند الرشيد فدخل عليه إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، فقال : أنشدني من شعرك فأنشده[٢] :

وآمِرَةٍ بالبُخْلِ قلت لها اقْصِري	فليس إلى ما تأمرينَ سبيلُ[٣]
أرى الناسَ خُلّانَ الجوادِ ولا أرى	بخيلًا له في العالمين خَليـــلُ
ومِنْ خيرِ حالاتِ[٤] الفتى لو علمته	إذا نال شيئًا أن يكونَ منيل
فَمالي فعالُ المُكْثِرِين تجمُّـــلا	ومالي كما قد تعلمين قَليـــلُ
وكيف أخافُ الفقرَ أو أُحرم الغنى	ورَأْيُ أمـــير المؤمنين جميـــلُ

فقال الرشيد : يا فَضْل ، أعطه عشرين ألف درهم . ثم قال : لله أبيات تأتينا بها يا إسحاق! ما أتْقَن أصولها ، وأبين فصولها ، وأقل فضولها! فقال: والله يا أمير المؤمنين؛ لا قبلتُ منها درهما واحدا . قال : ولِمَ ؟ قال . لأن كلامك ، والله ، خـــيرٌ من شعري . فقال : يا فَضْل ، ادفع إليه أربعين ألفاً . قال الأصمعي : فعلمت أنه أصيد لدراهم الملوك مني .

ومن ذلك قول أبي تمام يصف فرسا[٥] :

وسابحٍ هَطِلٍ التَّعْدَاء هَتَّانِ	على الجِرَاء أمينٍ غير خوَّانِ
أظمى الفُصوص ولم تَظمأ قوائمُه	فَخَلِّ عَيْنَيك في رَيَّانَ ظمآن
فلو تراه مُشيحاً والحصى زِيَمٌ	بين السنابك من مَثْنى ووُحْدَانِ

---

(١) في ا : يطرك ليثني فيكر ، وفي م : يتطرد ليثني فيكر . (٢) الأدباء : ٦ — ١٨ .

(٣) في م : فذلك شيء ما إليه سبيل . (٤) في الأدباء : ومن خير أخلاق .

(٥) أخبار أبي تمام : ٦٨ ، الصناعتين : ٣٩٩ ، معجم الأدباء : ٧ — ٢٢٧ ، ويريد أن ذلك من الاستطراد .

أيقنت — إن لم تثبّت — أنّ حافِرَهُ   من صخر تدمرَ أو من وجهِ عثمانِ

وقد احتذى البحترى هذا الحَذْوَ فى حدَويه الأحول ، وكان حدويه هذا عدوّا للممدوح ، فقال[1]:

وأغرَّ فى الزمن البَهِيم محجَّل   قد رُحْتُ منه على أغرَّ مُحجَّلِ

كالهيكلِ المبنىّ إلّا أنّهُ   فى الحُسْنِ جاء كصُورةٍ فى هَيْكَلِ

مَلَكَ العيونَ فإن بَدَا أعطينهُ   نظر المحبّ إلى الحبيب المقبلِ

ما إنْ يعافُ قذًى ولو أوردْتَهُ   يوماً خلائقَ حَدْوَيْه الأحْولِ

وفى قصيدته هذه يحكى أن البحترى قال له أصحابه : إنك ستُعاب بهذا البيت ؛ لأنك سرقته من أبى تمـام ، قال : أعاب من أخذى من أبى تمام[2] ! والله ما قلتُ شعراً قط إلا بعد أن أحضرت شعره فى فكرى . قال: وأسقط البيت بعد ، فلا يوجد فى أكثر النسخ :

وهذا معنى قد أعجب المُحْدَثين، وتخيَّلوا أنهم لم يُسْبَقُوا إليه ، وقد تقدّم لمن قبلهم، من النقد قال الفرزدق :

كأن فِقاح الأزْدِ حولَ ابنِ مِسْمَعٍ   إذا جلسوا أفواهُ بكْرِ بن وائلِ

قال الحاتمى : وأتى جرير بهذا النوع فحقّ فى وَجْهِ السابق إلى هـذا المعنى فضلا عمّن تلاه ؛ فإنه استطرد فى بيتٍ واحد ، فهجا فيه ثلاثة فقال[3] :

لما وضعت على الفرزدق مِيسَمِى   وعلى البَعيث جدَعْتُ أنفَ الأخطَلِ

وقيل هذا البيت مما يُرد على الحاتمى ، وهو قوله :

أعددت للشعراء كأساً مرّة   فسقيت آخرهم بكأس الأولِ

قال أبو إسحاق : وأوّل من ابتكره السموءل بن عادياء اليهودى ، وكل أحد تابع له فقال[4] :

---

(١) أخبار أبى تمام : ٦٩ ، ديوان البحترى : ٢ — ٢٦٧ . (٢) فى ط : أعاب أحد على أحد . (٣) ديوانه: ٤٤٣ . (٤) الحماسة : ١ — ١١١ .

وإنّا أناسٌ[1] لا نَرى القَتْلَ سُبّةً ... إذا ما رأتْهُ عامرٌ وسلولُ
يقرّبُ حبُّ الموتِ آجالَنا لنـا ... وتكرهُه آجالُهم فتطولُ

وقد قال طرفة في هذا المعنى :

فلو شاء ربّي كنتُ قيسَ بنَ خالدٍ ... ولو شاء ربّي كنتُ عمرَو بنَ مَرْثَدِ
فأصبحتُ ذا مالٍ كثيرٍ وعادني ... بنونَ كِرامٌ سادةٌ لمُسَوَّدِ

قيس بن خالد ذو الجَدَّين الشيباني . وعمرو بن مَرْثد سيد بني قيس بن ثعلبة ، فدعا [عمرو[2]] طرفة لما بلغه ذلك ، فقال : أما البنون فإنّ الله يعطيك ، ولكن لا نَرِيم حتى تكون من أوسطنا حالا ؛ وأمر بنيه وكانوا عشرة ، فدفع إليه كلُّ واحد منهم عشراً من الإبل ؛ فانصرف بمائة ناقة .

وكان ابن عَبْدَل منقطعاً إلى عبـد الملك بن بِشْر بن مروان ، فتأخر عنه بِرُّه ، وغاب أياما ، ثم أتاه فسأله عن غَيْبَته ، فقال[3] : خطبتُ ابنةَ عمٍّ لي بالسَّوَاد ، فزعمتْ أنّ لها ديونًا وأسلافًا[4] هناك ، وأني إذا جمعتها لها صارت إلى عبقي ، ففعلت ذلك ، فلما استنجزتُها كتبت إليّ :

سيُخطئك الذي أمّلتَ منّي ... إذا انتقضت عليك قُوَى حِبَالي
كما أخطاكَ معروفُ ابنِ بشرٍ ... وكنت تعدُّه[5] ذلك رأسَ مالِ

فقال : ما أحسن ما ألطفت بالسؤال ! وأجْزل صِلَتَه .

ومن بديع هذا الباب قول بشار بن برد[6] :

خليليَّ من كَعْبٍ أعِينا أخاكما ... على دَهْرِهِ إنّ الكريمَ مُعِين
ولا تَبْخَلا بُخْلَ ابنِ قَزْعَةَ إنّهُ ... مخافةَ أنْ يُرجى نَدَاه حزينُ
إذا جئتَه في حاجةٍ سدّ[7] بابَهُ ... فلم تَلْقَه إلّا وأنتَ كمِين

(١) في الحماسة : وإنّا لقوم . (٢) من م . (٣) ذيل اللآلئ : ٢٤ ، الأمالي : ٣ـ ٤٦ ، وفيه : إن هذه القصة مع معروف بن بشر . (٤) في الأمالي : أشاوى ؛ وهي جمع شيء . (٥) في الأمالي : وكنت بعده لك . (٦) الصناعتين : ٤٠٠ ، إعجاز القرآن ٩٢ ، اللآلئ : ٢٢٥ ، ويريد أن ذلك من الاستطراد . (٧) في الصناعتين : إذا جئته في الخلق أغلق بابه .

فقل لأبي يحيى متى تبلغ العُلَا ... وفي كل معروفٍ عليك يمين

وقال بكر بن النطاح يمدح مالك بن طَوْق[١] :

عَرَضْتُ عليها ما أرادَتْ من المُنَى ... لترضَى فقالت قم فَجِئْنِي بكوكبِ
فقلت لها : هذا التعنّتُ كلُّهُ ... كمن يشتهي لحمَ عنقاءَ مُغْرِبِ
سَلِى كلَّ أمرٍ يستقيمُ طلابُهُ ... ولا تذهبي يا درّ[٢] في كلّ مَذْهَبِ
فأقسمُ لو أصبحت في عزّ مالك ... وقُدْرَتِه ما رام ذلك مطلبي
فتًى شقِيَتْ أموالُه بسماحِهِ ... كما شقِيَتْ قيسٌ بأرماح تغلبِ

واعتذر رجلٌ إلى رجل بحضرة عبد الأعلى بن عبد الله فلم يَقْبَلْ عذره ، فقال عبد الأعلى : أمَا والله لئن كان احتمل إثمَ الكذب ودناءته ، وخضوعَ الاعتذارِ وذِلّته ، فعاقبْتَه على الذّنب الذاهب ، ولم تشكر له إنابةَ التائب ، إنك لمن يُسِيء ولا يُحسن .

وقال الحطيئة[٣] :

يَسُوسُونَ أحلاماً بعيداً أناتُها ... وإن غضِبوا جاء الحفيظةُ والجِدُّ
أقِلُّوا عليهم لا أبا لأبيكمُ ... من اللوم أو سُدُّوا المكان الذي سَدُّوا
أولئك قوم إنْ بنوا أحسنوا البِنَا ... وإن وعدوا أوفوا وإن عقدوا شدُّوا
وإنْ كانت النّعماء[٤] فيهم جَزَوْا بها ... وإن أنعموا لا كدّروها ولا كدُّوا
وإن قال مولاهم على جُلِّ[٥] حادث ... من الدهر رُدّوا فضل أحلامكم رَدّوا
ويعذلني أبناءُ سَعْدٍ عليهمُ[٦] ... وما قُلْتُ إلا بالذي علمتْ سَعْدُ

---

(١) اللآلئ : ٥٩٦ . (٢) في ط : يابدر .
(٣) ديوان مختارات شعراء العرب : ١٢٤ . (٤) في ديوان المختارات : النعما عليهم .
(٥) في الأصل : كل . (٦) في ديوان المختارات ، م : رقدْ لامني إلقاه سعد عليهم.

[شاعر باهلي في حضرة الرشيد]

وَوَصَّل سعيدُ بن سَلْم إلى الرشيد شاعراً باهلياً، فأنشده قصيدةً حسنة، فاسترابَهُ الرشيد وقال: أسمعك مستحسناً، وأنكرك(١) متَّهماً؛ فإن كنتَ صاحب هذا الشعر فقُلْ في هذين، وأشار إلى الأمين والمأمون وكانا جالسين.

فقال: يا أمير المؤمنين، حملتني على غير الجَدَد: هَيْبَة الخلافة، ووَحْشَة الغُرْبة، ورَوْعَة المفاجأة، وجلالة المقام، وصعوبة البديهة، وشرود القوافي، على غير الرويَّة، فلْيُمهِلْني أميرُ المؤمنين حتى يتألَّفَ نافرُ القول.

فقال الرشيد: لا عليك ألاّ تقول؛ قد جعلت اعتذارك عِوَض امتحانك.

فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ نفَّسْتَ الخناق، وسهَّلْتَ ميدان السباق، ثم قال:

بنيتَ بعبد الله بعد محمد ذُرَى قُبَّةِ الإسلام فاخضرَّ عودُها
هما طُنُباها(٢) بارَكَ الله فيهما وأنت — أميرَ المؤمنين — عمودُها

فقال الرشيد: وأنت بارك الله فيك، سَلْ ولا تكن مسألتك دون إحسانك.

فقال: الهُنَيْدة(٣) يا أمير المؤمنين! فأمر له بها، وبخِلَعٍ نفيسة، وصِلَةٍ جزيلة.

[كاتب الحجاج عند سليمان بن عبد الملك]

دخل يزيدُ بن أبي مُسْلم(٤) كاتب الحجاج على سليمانَ بن عبد الملك، فازْدَرَاه وَنَبَتْ عينُه عنه، فقال: ما رأَتْ عيني كاليوم قطّ، لعن الله أمراً أجرَّكَ رَسَنَه، وحكَّمك في أمره. فقال: يا أميرَ المؤمنين، لا تقُلْ ذلك؛ فإنك رأيتَني والأمرُ عني مُدْبِر، وعليك مُقْبِل؛ فلو رأيتني والأمرُ عليّ مقبل، وعنك مُدْبِر، لاستعظمتَ مني ما استصغرتَ، واستكبرتَ ما استقللْتَ.

قال: عزمت عليك يابْنَ أبي مُسْلم لتخبرَنّي عن الحجاج، أتراه يَهْوِي في جهنم أم قد قرَّ بها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تقُلْ هذا في الحجاج، وقد بذل لكم

---

(١) في ط: وأكرمك. (٢) الطنب: حبل طويل يشد به سرادق البيت.
(٣) اسم للمائة من الإبل. (٤) البيان والتبيين: ١ — ٢٦٠.

النصيحةَ ، وأمَّن دولتكم ، وأخاف عدوَّكم ، وكأنى به يوم القيامة وهو عن يمين أبيك ، ويَسار أخيك ، فاجعله حيثُ شئت .

فقال له سليمان : اعزُبْ إلى لعنة الله ! فخرج ، فالتفت سليمانُ إلى جلسائه فقال : قاتله الله ! ما أحسن بديهته ، وترفيهه لنفسه ولصاحبه ! وقد أحسن المكافأةَ فى الصنيعة ، خلُّوا عنه .

[إبراهيم بن العباس وأدبه]

قال إبراهيم بن العبـــاس الموصلى[1] : والله ما اتَّكلتُ فى مكاتبةٍ قط إلا على ما يجلبه خاطرى ، ويَجيشُ به صَدْرِى ، إلا قولى فى فصل : «وصار ما كان يُحْرِزهم يُبْرِزهم ، وما كان يعقلهم يعتقلهم » . وقولى فى رسالة أخرى : « فأنزلوه من معقل إلى عقال ، وبدَّلوه آجالاً بآمال » ، فإنى ألمت فى هذا بقول الصريع[2] : من نثره

مُوفٍ على مُهَجٍ فى يوم ذى رَهَجٍ ... كأنه أجَلٌ يَسْعَى إلى أمَلِ

وفى المعنى الأول يقول أبو تمام[3] :

فإن يَبْنِ حيطاناً عليه فإنما ... أولئك عُقَّالاته لا مَعَاقلُه

وكان يقول: ما تمنيت كلامَ أحد أن يكون لى إلا قولَ عبد الحميد بن يحيى : الناس أصنافٌ متباينون ، وأطوار متفاوتون ، منهم عِلْق مضنَّةٌ لا يُبَاع ، وغل مظنَّة لا يُبْتاع .

ورد كتاب بعض الكتاب إلى إبراهيم بن العباس بذمّ رجل ومَدْح آخر؛ فوقَّع فى كتابه : إذا كان للمحسن من الجزاء ما يُقْنِعه ، وللمسىء من النَّكال ما يَقْمَعه ، بَذَل المحسن الواجبَ عليه رغبة ، وانقاد المسىء للحق رهبةً . فوثب الناس يقبِّلون يده .

ووقع لرجل متَّ إليه بحُرْمة : تقدمت بحرمة مألوفة ، ووسيلة معروفة ،

(١) مقدمة ديوانه : ١٢٤ . (٢) مسلم بن الوليد ، ويلقب بصريع الغوانى .
(٣) ديوانه : ٢٣١ .

أقوم بواجبها ، وأرعاها من جميع جوانبها .

من شعره — وإبراهيم بن العباس هو القائل[١] :

لنا إبلٌ كومٌ يَضيق بها الفَضا ... وتفترُ[٢] منها أرضُها وسماؤها
فمن دونها أن تستباح دماؤنا ... ومن دوننا أن يُستذمّ[٣] دماؤها
حمًى وقِرًى فالموتُ دون مرامها[٤] ... وأيسَرُ خَطْب يوم حُقّ فَناؤها

وقال الصولى : وجدت بخط عبد الله بن أبى سعيد إبراهيم بن العبـــاس أنشده لنفسه[٥] :

وعلمتَنى كيف الهوى وجهلتهُ ... وعلمكمْ صَبْرِى على ظلمكم ظلمى
وأعلم مالى عنـــدكم فيردّنى[٦] ... هَوَاىَ إلى جَهْلِى فأرجع[٧] عن عِلْمى

فقلت : أسبَقك إلى هذا أحد ؟ فقال : العباس بن الأحنف بقوله[٨] :

تَجنّبَ يَرْتَادُ السلوّ فلم يَجِدْ ... له عنك فى الأرض العريضة مَذْهَبا
فعاد إلى أنْ راجع الوَصْلَ صاغراً ... وعاد إلى ما تشتهين وأعْتَبا

قال الصولى : وأظن أنّ ابن أبى سعيد غلط فى هــذه الرواية ؛ لأن الأشبه بقول ابن العباس : « فعاد إلى أن راجع الوَصْل صاغراً » قوله[٩] :

كم قد تجرعت من غَيْظ ومنْ حَزَنٍ ... إذا تجدّد حُزْنٌ هوّنَ الماضى
وكم سخِطت وما باليْتمُ سَخَطى ... حتى رجعت بقلبٍ ساخطٍ راضى

وأنشد له[١٠] :

لمن لا أرى أعرضتُ عن كلّ من أرى ... وصيرْتُ على قلبى رقيباً لقاتله
أداِفعهُ عن سَلْوَةٍ وأردّهُ ... حياء[١١] إلى أوصابه وبَلابِله

---

(١) ديوانه : ١٥٣ . (٢) فى الديوان : وتفتر عنها . (٣) فى ط : تستدام .
(٤) فى الديوان : مراحها . (٥) ديوانه : ١٥٠ . (٦) فى الديوان : فيميل بى .
(٧) فى الديوان : فأقصر . (٨) ديوانه : ١٩ (٩) ديوانه : ١٤٦
(١٠) ديوانه : ١٤٩ . (١١) فى ط : حثيثا .

وقال فى هذا النحو[١] :

وأنتِ هوى النفسِ من بينهم ... وأنتِ الحبيبُ وأنت المطاعْ

وما بك إنْ بَعِدوا وَحْدَةٌ ... ولا معهم إنْ بعــدتِ اجتماعْ

وقال الطائى :

إذا جئتَ لم أحْزَنْ لبُعْدِ مفارقٍ ... وإن غِبْتَ لم أفرح بقُرْبِ مقيم

فياليتنى أفديك من غُرْبَةِ النوى ... بكلٍّ أخٍ لى واصلٍ وحميم

وأصل هذا من قول مالك بن مِسْمَع للأحنف بن قيس : « ما أشتاق للغائب إذا حضرت ، ولا أنتفع بالحاضرِ إذا غبت » .

وقال إبراهيم بن العباس[٢] :

تدانَتْ بقومٍ[٣] عن تَنَاءٍ زيارةٌ ... وشطَّ بليلى عن دُنوٍّ مَزَارُها

وإن مقيماتٍ بمنعرج[٤] اللّوى ... لأقربُ من ليلى وهاتيك دَارُها

وليلَى كمثل النارِ ينفعُ ضوءها ... بعيداً نأى عنها ويحرق جارُها

كأنه نظر إلى قول النَّظار الفقعسى :

يقولون هذى أمُّ عمرٍو قريبةٌ ... دنَتْ بك أرْضٌ نحوها وسماءُ

ألا إنما بُعْدُ الخليل وقُرْبُهُ ... إذا هو لم يُوصَلْ إليه سواءُ

وقوله : « وليلى كمثل النار » كقول العباس بن الأحنف[٥] :

أحْرَمُ منكم بما أقول وقد ... نال بهِ العاشقون مَنْ عَشِقُوا

صِرْتُ كأنّى ذُبَالَةٌ نُصِبت ... تُضِئ للناسِ وهى تحترق

وقال إبراهيم بن العباس[٦] :

أميلُ مع الصديق[٧] على ابنِ عمّى ... وآخذُ للصديق من[٨] الشقيق

---

(١) ديوانه : ١٤٦ . (٢) ديوانه : ١٤٥ . (٣) فى الديوان : دنت بأناس . (٤) قم : بمنعنى .
(٥) ديوانه : ١١١ . (٦) ديوانه : ١٥٤ . (٧) فى الديوان : مع التمام ، وفى ط :
على ابن أمى . (٨) فى الديوان : وأقضى للصديق على . . . .

وإن ألفيتنى حُرًّا مُطَاعاً ... فإنك وَاجدى عَبْدَ الصَّدِيق
أفرِّق بين معروفى ومَنِّى ... وأجْمَعُ بين مالى والحقوق

[رثاء مصلوب]

قال العقيلى يرثى صديقا له أُخذ فى خربة[1] فقتل وصُلِب :

لعمرى لئن أصبحتَ فوق مشذَّب ... طويل، تُصفِّقكَ الرياحُ مع القَطْرِ
لقد عشتَ مبسوطَ اليدين مرزَّأً[2] ... وعُوفيت عند الموت من ضَغْطَةِ القبرِ
وأُفْلِتَّ من ضيق التراب وغَمِّهِ ... ولم تفقد الدنيا ؛ فهل لكَ من شُكْرِ
فما تشتفِى عيناى من دائم البُكَا ... عليكَ ، ولو أنى بكيتُ إلى الحشر
فطُوبَى لمن يبكى أخاه مُجَاهِراً ... ولكننى أبْكى لفقدك فى سِتْرِ

[كلام لا يحتمل الجواب]

وكتب محمد بن كثير إلى هارون الرشيد : يا أمير المؤمنين ؛ لولا حظّ كرم[3] الفعل فى مطالع السؤال ، لألهى المطل قلوبَ الشاكرين ، ولصرف عيون الناظرين إلى حسن الحِبة ، فأىّ الحالين يُبْعِدُ قولَك عن مجازِ فعلك[4]؟ فقال هارون الرشيد : هذا الكلامُ لا يحتمل الجواب ؛ إذ كان الإقرار به يمنعُ من الاحتجاج عليه .

[تعجيل الإحسان]

وقال يحيى بن أكثم للمأمون يذكر حاجةً له قد وعده بقضائها ، وأغفل ذلك : أنتَ يا أمير المؤمنين أكرمُ من أن نعرِّضَ لك بالاستنجاز ، ونقابلك بالاذّكار ، وأنت شاهدى على وَعدِك ، وأن تأمر[5] بشىء لم تتقدَّمْ أيامه ، ولا يقدر زمانه ، ونحن أضعفُ من أن يستولىَ علينا صبرُ انتظارِ نعمتك ، وأنت الذى لا يؤوده

---

(١) الزلة ، وفى ط : خربة . (٢) فى ط : مبرزا . (٣) فى م : كريم .
(٤) فى م : فعلك عن مجاز قولك . (٥) فى ط : لا تأمر .

إحسان ، ولا يُعْجِزُه كَرَم ؛ فعجِّل لنا يا أميرَ المؤمنين ما يَزيدك كرماً ، وتَزدادُ به نعما ، وتتلقَّاه بالشكر الدائم . فاستحسن المأمون هذا الكلام ، وأمر بقضاء حاجته .

قدم على المأمون رجلٌ من أبناء الدَّهاقين وعظمائهم ، من أهل الشام(١) ، على عِدَةٍ سلفَتْ له من المأمون ، من تَوْليته بلدَه ، وأن يضمّ إليه مملكته ، فطال على الرجل انتظارُ خروجِ أمرِ أمير المؤمنين بذلك ، فقصد عَمْرو بن مسعدة وسأله إيصالَ رقعةٍ إلى المأمون من ناحيته ، فقال : اكتُبْ بما شئت فإنى موصله ، قال : فتولَّ ذلك عنى ، حتى تكون لك نعمتان .

فكتب عمرو : إن رأى أميرُ المؤمنين أنْ يفكّ أسْر عِدَتِه من رِبْقَة المطْل ، بقضاء حاجة عَبْدِه ، والإذْنِ له بالانصراف إلى بلده ، فعل موفقاً .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عَمْراً وجعل يعجب من حُسن لفظها ، وإيجازِ المرادِ فيها . فقال له عمرو : فما نتيجتُها يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : الكتابةُ له فى هذا الوقت بما سأل ، لئلا يتأخَّر فَضْلُ استحساننا كلامه ، وبجائزة تنفى دناءة المطل .

ومن كلام عمرو بن مسعدة : أعظمُ الناسِ أجراً ، وأنبهُهم ذِكراً ، من لم يرضَ بحياة(٢) العَدْلِ فى دولته ، وظهور الحجَّةِ فى سلطانه ، وإيصال المنافع إلى رعيَّته فى حياته ، حتى احتالَ فى تخليدِ ذلك فى الغابرين بعده ، عنايةً بالدين ، ورحمةً بالرَّعية ، وكفايةً لهم من ذلك مالو عنوا باستنباطه لكان يعرض أحد الأمرين ، إما الإكداء(٣) عن إصابة الحق فيه لكثرة مايعرض من الالتباس ، وإما إصابةُ الرأى بعد طول الفكر ، ومقاساةِ التجارب ، واستقلال كثير من الطرق إلى دَرَكه ؛ وأسعد الرُّعاةُ من دامت سعادةُ الحق فى أيامه ، وبَعْدَ وفاته وانقراضه .

[فضل الإيجاز]

وقال رجل لسُوَيد بن مَنْجُوف ، وقد أطال الخطبة بكلام افتتحه للصلح بين قوم

---

(١) فى م : الشباش . (٢) فى ط : بموت . (٣) فى ط : الكد .

من العرب: « ياهذا، أتيتَ مرعًى غيرَ مرتعاك[1]، أفلا أدلّك عليه؟ قال: نعم. قال قل: « أما بعد، فإنّ في الصلح بقاء الآجال، وحفظ الأموال، والسلام » . فلما سمع القوم هذا الكلام تعانقوا وتواهبوا الترات .

[أبو مسلم]

قال عبد الله بن مسعود[2]: لما أُمِرَ أبو مسلم بمحاربة عبد الله بن علي دَخَلْتُ عليه فقلت: أيها الأمير، تريد عظيماً من الأمر؟ قال: وما هو؟ قلت: عَمّ أمير المؤمنين وهو شيخُ قومه، مع نَجْدَةٍ، وبأس، وحَزْم، وحسن سياسة. فقال لي: يابن شبرمة، أنت بحديثٍ تعلم معانيه، وشِعْرٍ توضّح قوافيه، أعلمُ منك بالحرب؛ إن هذه دولة قد اطردَتْ أعلامها، وامتدت أيامها، فليس لناوئها والطامع فيها يدٌ تُنيله شيئاً من الوثوب عليها، فإذا ولّت أيامها فدع الوزَغ يذنّبه فيها .

قال بعض حكماء خراسان: لما بلغني خروجُ أبي مسلم أتيتُ عَسْكَره لأنظر إلى تدبيره وهَيْبَته، فأقمت فيه أياماً، فبلغني عنه شدةُ عُجْب، وكِبْرٌ ظاهر، فظننت أنه تحلّى بذلك لِمعنًى فيه أراد أن يَسْتُره بالصَّمْتِ، فتوسّلْت إليه بحيث أسمع كلامه، وأغيب عن بَصره، فسلمت فردَّ رداً جميلا، وأمر بإدخال قوم يريد تنفيذهم في وجه من الوجوه، وقد عقدوا لرجلٍ منهم لواء، فنظر إليهم ساعة متأمّلا لهم، وقال: افهموا عني وصيّتي إياكم؛ فإنها أجْدَى عليكم من أكثر تدبيركم، وبالله توفيقكم .

قالوا: نعم أيها السالار، ومعناه السيد بالفارسية، فسمعتُه يقول، ومترجم يحكي كلامه بالفارسية لمن عبّر له منهم بالعربية: أشعروا قلوبكم الجُرْأة فإنها سببُ الظَّفَر، وأكثروا ذِكْرَ الضغائن فإنها تبعثُ على الإقدام، والزموا الطاعة فإنها حِصْنُ المحارب، وعليكم بعصبيّة الأشراف، ودعُوا عصبية الدناءة، فإن الأشرافَ تظهر بأفعالها والدناءة بأقوالها .

---

(١) في م: أنت ترعى غير مرعاك . (٢) في ط: بن شبرمة .

وذكر إدريس بن معقل أبا مسلم فقال : بقتل أبي مسلم يُدْرَك ثار ، ويُنفَى عار ، ويُؤكد عَهْد ، ويُبرم عقد ، ويسهّل وَعْر ، ويُخاض غمْر ، ويُقلع ناب ، ويُفتح باب .

[حساب]

وقال رجلٌ لأبي جعفر المنصور : أيْنَ ماتُحُدِّثَ به في أيام بني أمية ؟ إنَّ الخلافة إذا لم تقابل بإنصاف المظلومين ، ولم تعامل بالعدل في الرعية ، وقسمة الفيء بالسويّة ، صار عاقبةُ أمرها بَواراً ، وحاقَ بِوُلاتها سوء العذاب.

قال: فتنفّس ثم قال: قدْ كان ماتقولُ، ولكنا بالأحرى استعجَلْنا الفانية على الباقية، وكأن قد انقضَتْ هذه الدار .

فقال له الرجل : فانظر على أي حالة تنقضي .

وقال أبو الدوانيق ـ وكان فصيحاً بليغاً : عجباً لمن أمسى وعلمه غَرَضاً لِسِهَامِ الخطايا ، وهو عارفٌ بِسُرْعَةِ المنايا ، اللهم إنْ تقض للمسيئين صَفْحاً فاجعلني منهم ، وإن تَهَبْ للظالمين فسحاً فلا تحرِمني ما يتطوّل به المولى على أخَسّ عبيده .

[من كلام الأحنف]

وسُئِل الأحنف بن قيس عن العقل ؟ فقال : رَأْسُ الأشياء ؛ فيه قوامُها ، وبه تمامُها ؛ لأنه سراجُ ما بطن ، وملاكُ ما علن ، وسائس الجسد ، وزينة كل أحد ، لا تستقيم الحياة إلا به ، ولا تدور الأمور إلا عليه .

ولما خطب زياد خطبته المشهورة قام الأحنف بن قيس ، فقال : الفرس بِشَدِّه ، والسيف بحدِّه ، والمرء بجدِّه ، وقد بلغ بك جدك ما أرى ، وإنما الثناء بعد البلاء ، فإنا لا نُثْني حتى نَبْلُو .

[من عهد الواثق على مكة]

وكتب ابنُ الزيات عَهْدَ الواثق على مكة بحضرة المعتصم : أما بعد ، فإنّ أمير المؤمنين قد قلّدك مكة وزمزم ، تراث أبيك الأقدم ، وجدِّك الأكرم ، وركضة جبريل ، وسُقْيا إسماعيل ، وحَفْر عبد المطلب ، وسِقاية العباس ؛ فعليك بتقوى الله تعالى، والتوسعة على أهل بيته .

وكتب : لو لم يَكُنْ من فضل الشكر إلا أنك لا تراه إلا بين نعمة مقصودة عليه، وزيادة منتظرة له، ثم قال لمحمد بن رَباح: كيف ترى؟ قال: كأنهما قُرْطان بينهما وَجْه حسن ، ومع ذلك ذكر ابن الزيات أمرَ الحرَم بتعظيم وتفخيم .

ألفاظ لأهل العصر فى التهنئة بالحج وتفخيم [أمر][1] الحرم

و [تعظيم][1] أمر المناسك والمشاعر وما يتصل بها من الأدعية

قصدَ البيتَ العتيق ، والمَطَاف الكريم ، والملتزَم النبيه ، والمستلَم النزيه . [وقف بالمَوْقف العظيم ، وورد زمزم والحَطِيم][1].

حَرَمُ الله الذى أوسعه للناس كرامة ، وجعله لهم مَثَابة ، وللخليل خُطّة، وللذبيح خُلّة ، ولمحمد صلّى الله عليه وسلم قِبْلَة ، ولأمته كَعْبَة ، ودعى إليه حتى لبّى من كل مكان سحيق ، وأسرع نحوه من كل فج عميق، يعودُ عنه مَنْ وفّق وقد قُبلت توبتُه، وغُفِرت حَوْبَته ، وسَعِدت سفرته ، وأنجحت أوْبتُه ، وحُمِد سَعْيه ، وزكا حجُّه ، وتقبل عَجّه وثَجّه .

انصرف مولاى عن الحجّ الذى انتضى له عزائمه، وأنضى فيه رواحله، وأتعب نفسه بطلب راحتها ، وأنفق ذخائره بشراء سَعَة الجنة وساحتها؛ فقد زكَتْ إن شاء الله تعالى أفعاله وتقبّلت أعماله، وشُكر سعيه، وبلغ هديه. قد أسقطتَ عن ظهرك الثقل العظيم، وشهدت المَوْقف الكريم، ومحصت عن نفسك بالسّعْى من الفجّ العميق، إلى البيت العتيق. حمداً لمن

---

(١) مابين القوسين ساقط من م .

سهل عليك قضاء فريضة الحج ، ورُؤْية المَشْعَر والمَقام ، وبركةَ الأدعية والموسم ، وسعادةَ أفنية الحطيم وزمزم . قصد أكْرَمَ المقاصد ، وشهِدَ أشرفَ المشاهد ؛ فورد مشارع الجنة ، وخيَّم بمنازل الرحمة . وقد جمعت مواهب الله لديك : فالحجَّ أديت فرضه ، وحَرَمُ اللهِ وَطِئْتَ أرضه ، والمقام الكريم قمْتَه ، والحجر الأسود استلَمْتَه ، وزُرْتَ قبرَ النبي صلى الله عليه وسلم مشافهاً لمشهده ، ومشاهد المسجده . ومباشرا باديه ومَحْضره ، وماشياً بين قبره ومنبره ، ومصليا عليه حيث صلّى ، ومتقرباً إليه بالقرابة العظمى ، وعدت وسعيُك مشكور ، وذَنْبُك مغفور ، وتجارتك رابحة ، والبركات عليك غادية ورائحة . تلقَّى اللهُ دعاك بالإجابة ، واستغفارك بالرضا ، وأملك بالتَّجْح ، وجعل سَعْيَك مشكوراً ، وحجّك مبروراً . عرّف الله تعالى مولاى مناهج ما نواه ، وقصده وتوخّاه ، ما يسعده في دنياه ، ويحمد عُقْباه .

[شعر قَطرى بن الفجاءة]

قال أبو حاتم(١) : أتيت أباعبيدة ومعى شعر عُرْوة بن الورد ، فقال لى : ما معك؟ قلت : شعر عروة . قال : شعر فقير ، يحمله فقير ، ليقرأه على فقير ! قلت : ما معى [شعرٌ](٢) غيره ؛ فأنشدنى أنت ما شئت ؛ فأنشدنى :

يارُبَّ ظِلِّ عُقابٍ(٣) قد وقَيْتُ بِهِ ... مُهْرِى من الشمس والأبطالُ تَجْتَلِد
وربَّ يوم حمًى أرْعَيْتُ عقوته ... خَيْلى اقتسارا وأطرافُ القنا قِصَدُ
ويوم لَهْوٍ لأهل الخَفْضِ ظلّ بِهِ ... لَهْوِى اصطلاء الوغى ونارُه تقِدُ
مشهّراً مَوْقِفِى والحربُ كاشِفَةٌ ... عنها القناعَ وبَحْرُ الموت يطّرِدُ
وربّ هَاجِرة تَغْلِى مراجلُها ... مخرتها بمطايا غارة تَخِدُ
تَجْتَابُ أوديةَ الأفزاع آمِنةً ... كأنها أسُد يصطادُها(٤) أسد

---

(١) الأمالى : ١ — ٢٦٥ ، اللآلى : ٥٩٠ . (٢) من م . (٣) العقاب : الراية .
(٤) فى الأمالى : تقتادها ، وليس البيت فى م .

فإن أمُتْ حَتْفَ أنفى لا أمُتْ كمداً   على الطعان وقَصْرُ العاجزِ الكَمَد
ولم أقل لم أساقِ الموتَ شاربَهُ   فى كأسه والمنـــايا شُرَّعٌ وُرُد

ثم قال : هذا والله هو الشعر لا ما يتعلّلون به من أشعار الخنانيث .

والشعر لقَطَرِى بن الفُجَاءة المازنى ، وكان يُكْنَى فى السلم أبا محمد ، وفى الحرب أبا نَعامة ، وكان أطولَ الخوارج أياماً ، وأحدَّهم شوكة ، وكان شاعراً جواداً ، وهو القائل أيضاً(١) :

لا يَركَنَنْ أحدٌ إلى الإحجامِ   يوم الوَغَى متهيّباً(٢) لِحِمامِ
فلقد أرانى للرماح دريئــةً   من عن يمينى تارةً وأمامى
حتى خضَبْتُ بما تحدّر من دمى   أكنافَ سَرْجى أو عِنانَ لجامى
ثم انصرفتُ وقد أصبت ولم أُصَب   جَذَعَ البصيرة قارحَ الإقدام(٣)

[من المديح]

مدح شيبان   وقال المُسَيَّب بن عَلَس(٤) :

تبيتُ الملوكُ على عَتْبِها   وشيبان إن غضبت تعتب
وكالشَّهدِ بالراح ألفاظُهم   وأخلاقهم(٥) منهما أعذب
وكالمسكِ تُرْبُ مقاماتهم   وتُربُ أصولهم(٦) أطيبُ

بنو أسد   وقال آخر :

اذكر مجالسَ مِنْ بنى أسد   يَمْدُوا تحِنُّ إليهم القلبُ
الشرق منزلهم ومنزلنا   غَرْبٌ ، وأين الشرقُ والغرب ؟
من كل أبيضَ جُلُّ زينته   مسكٌ أحمُّ وصارم عَضْبُ(٧)

---

(١) الحماسة : ١ — ١٣١ ، اللآلى : ٨٠٦ . (٢) فى الحماسة : متحوفا .
(٣) جذع البصيرة : أى استبصارى ويقينى لايحتاجان إلى تهذيب ولاتأديب ، كما لا يحتاج الجذع (الذى بلغ حولين من الخيل) إلى الرياضة ، والقدامى قارح : قد بلغ النهاية فى الإقدام كأن القروح نهاية سن الفرس . (٤) الشعراء : ١٢٦ .
(٥) فى الشعراء : وأحلامهم . (٦) فى م : قبورهم . (٧) فى ط : وعارض هضب .

ومدجّج يَسْعَى لغــارتهِ   وعقــيرة بفنائه تَخِبُ

آخر :

آل حرب

رأيتُكُم بقيــة آل حَرْب   وهَضْبَتَها التى فَوْقَ الهِضَابِ

تُبَارون الرياحَ ندًى وجوداً   وتمتثلون أفعالَ السحاب

يذكرنى مقامى اليومَ فيكم   مقامى أمْسِ فى ظلِّ الشباب

[سعيد بن حميد]

بينه وبين سعيد بن عبد الملك

كتب سعيد بن عبد الملك إلى سعيد بن حميد :

أكره ـ أطال اللهُ بقاءك ـ أن أضمّك ونفسى موضع العُذْر والقبول ، فيكون أحدُنا معتذِراً مقصّراً ، والآخر قابِلا متفضّلا[1] ، ولكن أذكر ما فى التلاق من جديد البرّ ، وفى التخلّف من قلة الصبر ؛ وأسألُ الله تعالى أن يوفّقك وإيانا لما يكونُ منه عقبي الشكر .

فأجابه : وصل كتابُكَ ـ أكرمك الله تعالى ـ الحاضرُ سرورُه ، اللطيف موقِعُه ، الجميل صدوره ومَوْرِدُه ، الشاهدُ ظاهره على صِدْقِ باطنه ، ونحن ـ أعزّكَ الله ـ نجعل جزاءك حسن الاعتراف بفضلك ، ومجازاتك التقصير دونك ؛ ونرى أن لا عُذْرَ فى التخلف عنك ، وإنْ حالت الأشغال بيننا وبينك . وإن كنتَ سامحت فى العذر قبل الاعتذار ، وسبقْتَ إلى فضيلة الاغتفار ، فلا زلتَ على كلّ خير دليلا ، وإليه داعياً ، وبه آمراً ؛ ولقد التقينا قبل وصولِ كتابك لقاء أحدث وطراً[2] ، وهاج شَوْقاً ، وأرجو أن تتّسع لنا الجمة بما ضاقت به الأيام ؛ فننال حظاً من محادثتك والأنس بك .

منظومه ومنثوره

ولسعيد بن حميد حلاوةٌ فى مَنْظومه ومَنْثوره ، لكنه قليلُ الاختراع ، كثير الإغارة على مَنْ سبقه ؛ وكان يقال : لو رجع كلامُ كل أحد إلى صاحبه لبقى سعيد ابن حميد ساكتاً . وفيه يقول أبو على البصير :

(١) فى م : معتذرا .   (٢) فى ط : قطرا .

رَأْسٌ من يدعى البلاغة منى   ومن الناس ، كلهم فى حَزْمَةْ
وأخونا ولست أكنى سعيد ؛   ن حيد تُؤرخ الكُتْب باسمهْ

هذا المعنى ينظرُ إلى قول منصور الفقيه وإن لم يكن منه :

تَضِيق به الدنيــا فيَنهضُ هاربا   إذا نحن قلنا : خيرُنا الباذلُ السَّمْحُ
فإن قيل : مَنْ هذا الشقى ؟ أقُلْ لهم   على شَرْطِ كتمان الحديث : هو القَمْحُ

عشقه — وكان سعيدٌ يَهْوَى فضل الشاعرة ؛ فعزم مرةً على سفر فقالت له[1] :

كذَبتَنِى الوُدَّ أنْ صافحتَ مرتحلا   كفَّ الفراقِ بكفِّ الصبرِ والجلَدِ
لا تذكرنَّ الهوى والشوقَ لو فجعتْ   بالشوق نفسُك لم تصبر على البُعُدِ

من شعره — وكان سعيد عند بعض إخوانه ، فنهض منصرفا وأخذ بعضادتى الباب ، وأنشأ يقول :

سلامٌ عليكم حالَتِ الكأس بيننا   وولَّتْ بنا عن كل مرأى ومَسْمَعِ
فلم يبقَ إلَّا أنْ يصافِحَنى الكَرَى   فيجمع سكراً بين جسمى ومَضْجعى

وقال [سعيد][2] :

أرَى ألْسُنَ الشكوى إليك كليلةً   وفيهنَّ عن غير[3] الثناء فُتُورُ
تقيمُ على العَتْبِ الذى ليس نافعاً   وليس لها إلا إليك مَصِيرُ
وما أنتَ إلاَّ كالزمان تلوَّنَتْ   نوائبُ من أحداثه وأمور
فإنْ قلَّ إنصافُ الزمانِ وجُودُه   فمَنْ ذا على جَوْرِ الزمان يُجيرُ

***

من النقد — أما قوله :

* تقيمُ على العَتْبِ الذى ليس نافعاً *

---

(١) شاعرات العرب : ٢٤٤ .   (٢) من م .   (٣) فى م : عن عين .

فمن قول المؤمّل :

لا تغضبنَّ على قَوْمٍ تحبّهمُ ... فليس منكَ عليهم ينفعُ الغَضَبُ
يا جائرين علينا في حُكُومَتِهم ... والجَوْرُ أقبحُ ما يُؤْتَى ويُرْتَكَبُ
لسنا إلى غيركم منكم نفِرّ إذا ... جُرْتم ولكن إليكم منكمُ الهرَبُ

وأول من نبّه على هذا المعنى النابغة الذبيانى فى قوله للنعمان بن المنذر[١] :

فإنكَ كالليلِ الذى هو مُدْرِكى ... وإن خِلْتُ أنَّ المنتأَى عنك واسِعُ
خطاطيفُ حُجْنٌ فى حبالٍ متينةٍ ... تمدُّ بها أيدٍ إليك نَوازِعُ

سرقة أشجع السلمى فقال لإدريس بن عبد الله بن الحسين بن على ، وقد بعث إليه الرشيد مَنْ اغتاله فى المغرب :

أتظنُّ يا إدريس أنك مُفْلِتٌ ... كَيْدَ الخلافة أو يقيك حِذَار[٢]
إنَّ السيوفَ إذا انتضاها عَزْمُه ... طالتْ وتقصر دونَها الأعمارُ
هيهات إلّا أنْ تَحُلَّ ببلدةٍ ... لا يهتدى فيها إليك نَهَارُ

وقال سَلْم الخاسر يعتذر إلى المهدى[٣] :

إنى أعوذ بخير الناسِ كلّهمُ ... وأنت ذاك لما يأتى ويجتنبُ
وأنْتَ كالدهرِ مبثوثًا حبائلُهُ ... والدهرُ لا ملجأٌ منه ولا هرَبُ
ولو ملكتُ عِنانَ الريحِ أصرفُهُ ... فى كل ناحيةٍ ما فاتكَ الطَّلَبُ
فليس إلا انتظارى منك عارفةً ... فيها من الخوفِ مَنْجَاةٌ ومنقلَبُ

وقول سلم :

* ولو ملكت عِنَان الريح أصرفه *

(١) ديوانه : ٧١ . (٢) فى م : جدار . (٣) فى م : مسلم الجاهد .

كأنه من قول الفرزدق للحجاج[١] :

ولو حلّقتني الريح[٢] ثم طلبتَني ... لكنتُ كشيءٍ[٣] أدركته مقادِرُهْ

وقول علي بن جَبَلة لحُميد الطوسي :

وما لامرئٍ حاولته منك مهرَبٌ ... ولو رفعته في السماء المَطالِعُ

أخذه البحتري فقال[٤] :

سُلِبُوا وأشرقت الدماء عليهمُ ... محمرةً فكأنهم لم يُسْلَبوا

فلوَ انّهم ركبوا الكواكب لم يكن ... ليجيرهم من حدّ[٥] بأسِك مهرَبُ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في نحو قول النابغة :

وإني وإنْ حدّثتُ نفسي بأنني ... أفوتك إنّ الرأيَ مني لعازبُ

لأنك لي مثلُ المكان المحيط بي ... من الأرض لولا استنهضتْني المذاهب

وأما قول سعيد : * وما أنت إلّا كالزمان * والبيت الذي يليه ، فكأنه ألمّ فيه بقول شَمْعَل التغلبي وإن لم يكن المعنى بنفسه :

أمِنْ جَذْبَةٍ بالرحل مني تباشرت ... عُدَاتي، ولا عَتْبٌ عليّ ولا هجرُ[٦]

فإنّ أميرَ المؤمنين وفعلَهُ ... لكالدهر لا عارٌ بما صنعَ الدهرُ

وقال رجل من طيّءٍ وكان رجل منهم يقال له زيد من ولد عُرْوَة بن زَيْد الخَيْل قتَل رجلا اسمه زيد فأقاد منه السلطان ، فقال الطائي يفتخر على الأسديين[٧] :

علا زَيْدُنا يوم الحمى رَأْسَ زيدكم ... بأبيضَ مشحوذ الغِرَار يَمَانِي

فإن تقتلوا زيداً بزيد فإنّما ... أقادكم السلطان بَعْدَ زَمَانِ

وقول التغلبي مأخوذ من قول النابغة، وهو أوّل من ابتكره[٨] :

---

(١) في الديوان (٦٧) : يمدح الوليد بن عبد الملك. (٢) في الديوان : وأن لو ركبت الريح.
(٣) في الديوان : كشيء . (٤) ديوانه : ٦٣ . (٥) في الديوان : لجدهم من أخذ ...
(٦) في م : ولا عيب علي ولا سخر . (٧) تحرير العبارة من م .
(٨) ديوانه : ٥٨ .

وعيَّرَتني بنو ذبيان خشيتَهُ ... وما[١] عليَّ بأن أخشاك مِنْ عارِ

ومن جيد شعر سعيد بن حميد :

أهابُ وأستَحْيِي وأرقُبُ وعدَهُ ... فلا هو يَبْدَانى ولا أنا أسألُ

هو الشمسُ مَجْرَاها بعيدٌ وضوءها ... قريبٌ ، وقلبي بالبعيد موكَّلُ

وهذا المعنى وإن كان كثيرا مشهوراً فما يكادُ يدانَى فى الإحسان فيه .

وقد قال أبو عيينة[٢] :

غزَتْنِى جيوشُ الحبِّ من كل جانب ... إذا حان من جُنْدٍ قفولٌ غزَا جُنْدُ

أقول لأصحابى هِىَ الشمسُ ضوءها ... قريبٌ ولكنْ فى تناولِها بُعْدُ

وقال العباس بن الأحنف[٣] :

هى الشمسُ مسكنُها فى السماء ... فعَزِّ الفؤادَ عَزَاءً جميلًا

فلَنْ تستطيع إليها الصعودَ ... ولنْ تستطيعَ إليكَ النزُولَا

وقال البحترى[٤] :

دنوتَ تواضعاً وعلوتَ[٥] قَدْراً ... فشأناكَ انحدارٌ وارتفاعُ

كذاك الشمس تبعد أن تدانَى[٦] ... ويَدْنُو الضوء منهــا والشعاع

وقال ابن الرومى[٧] :

وذَخَرْتُه للدهر أعلمُ أنهُ ... كالدهر فيه لمن يؤول مآلُ

ورأيتُه كالشمس إن هى لم تُنَلْ ... فالنُّور منها والضياء يُنال

وقال المتنبى[٨] :

بيضاء تُطْمِعُ فيما تحت حُلَّتِها ... وعَزَّ ذلك مطلوباً لمن طلبا

كأنها الشمسُ يُعْيِي كَفَّ قابِضِها[٩] ... شُعاعها وتَرَاه العينُ مقتربا

---

(١) فى م : وعل على . (٢) التبيان : ١ — ١١٢ .

(٣) التبيان : ١ — ١١٢ ، ديوانه : ١٢٦ . (٤) ديوانه : ١ — ٨٢ .

(٥) فى الديوان : وبعدت . (٦) فى الديوان : أن تسامى . (٧) اللآلى : ١٦٠ .

(٨) ديوانه : ١ — ١١١ . (٩) فى الديوان : كأنها الشمس يعى كف قابضه .

وقال سعيد بن حميد ، ويروى لفَضْل الشاعرة :

ما كنتُ أيامَ كنتِ راضيةً ... عنّى بذاكِ الرضا بمغتبطِ
علمـاً بأنّ الرضا سيتبعه ... منكِ التجنّى وكثرةُ السَّخَطِ
فكلُّ ما ساءنى فمَنْ خُلُقٍ ... منك وما سرّنى فمَنْ غَلَطِ

وفى هذا المعنى يقول أبو العباس الهاشمى من ولد عبـد الصمد بن على ، ويُعْرَف بأبى العبر[1] :

أبكِى إذا غَضِبَتْ حتى إذا رضِيَتْ ... بكيتُ عنـد الرضا خوفاً من الغضبِ
فالموت إن غَضِبَتْ والموت إن رضِيَتْ ... إن لم يُرِحْنِى سلوٌّ عِشْتُ فى تَعَبِ

وقال العباس بن الأحنف[2] :

إذا رضيت لم يهننى ذلكَ الرّضا ... لصحة عِلْمى أنْ سيتبعه عَتْبُ
وأبكى إذا ما أذنبت خوف عَتْبِها ... فأسألها مرضاتها ولها الذّنْبُ
وصالكُم هجرٌ وقربكُم[3] قِلًى ... وعطفكُم صدٌّ وسِلْمكُم حَرْبُ
وأنتم بحمد الله فيكم فظاظةٌ ... وكلّ ذلول من أموركم صَعْبُ[4]

وقال[5] :

قد كنتُ أبكى وأنتِ راضيةٌ ... حذَارَ هـذا الصدود والغَضَبِ
إنْ تمّ[6] ذا الهجرُ يا ظَلوم ولا ... تمّ فمالى فى العيش من أَرَبِ

وما أحسن قول القائل :

وما فى الأرض أشقى من مُحِبٍّ ... وإن وجـد الهوى حُلْوَ المذاقِ
تراهُ باكياً فى كل حـينٍ ... مخافةَ فُرْقَةٍ أو لِاشتياقِ
فيبكى إن نَأَوْا حذَراً عليهم ... ويبكى إن دَنَوْا خوفَ الفِراقِ
وتسخن عينُه عنـد التنائى ... وتسخن عينه عنـد التّلاقِ[7]

***

(١) ذيل اللآلى : ٤٣ . (٢) ديوانه : ١٢ . (٣) فى م : وحبكم .
(٤) ليس هذا البيت فى م . (٥) ديوانه : ٣٦ . (٦) فى الديوان : إن دام .
(٧) ليس هذا البيت فى م .

وقال سعيد بن حميد : إذا نَزَعْتُ في كتابي[١] بآية من كتاب الله تعالى أنرت إظلامه ، وزيَّنْتُ أحكامه ، وأعذبتُ كلامَه . من نثر سعيد ابن حميد

أمثال للعرب والعجم والعامة وما يماثلها من كتاب الله تعالى

[مما هو أجل منها وأعلى][٢] أخرجها أبو منصور عبد الملك الثعالبي

قال عليّ رضي الله تعالى عنه : « القتل أنفى للقتل » .

وفي القرآن[٣] : « ولكم في القِصاصِ حياةٌ يا أولي الألباب » .

والعربُ تقول لمن يعيّر غيره بما هو فيه : « عَيَّر بُجَيْرٌ بُجَرَه ، ونَسِيَ بُجَيْرٌ خَبَرَه »[٤] .

وفي القرآن[٥] : « وضربَ لنا مثلًا ونَسِيَ خَلْقَه » .

وفي معاودة العقوبة عند معاوَدَة الذنب : « إنْ عادت العَقْرَبُ عُدْنا لها » .

وفي القرآن[٦] : « وإن عُدْتُم عُدْنا » . [٧]« وإنْ تَعُودوا نَعُدْ » .

وفي ذَوْق الجاني وبالَ أمره : « يَدَاكَ أوْكَتا ، وفُوكَ نَفَخ » .

وفي القرآن[٨] : « ذلك بما قَدَّمَتْ يَدَاك » .

وفي قُرْب الغد من اليوم قول الشاعر * وإن غداً لِناظِرِه قَرِيب *

وفي القرآن[٩] : « أليس الصُّبْحُ بقريب » .

وفي ظهور الأمر : « قد وضح الأمر[١٠] لذي عَيْنَيْن » .

وفي القرآن[١١] : « الآن حَصْحَصَ الحقّ » .

وفي الإساءة إلى من لا يقبل الإحسان : « أعط أخاك تمرة فإن أبَى فجَمْرَة » .

وفي القرآن[١٢] : « ومن يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ له قَرِين » .

وفي فَوْت الأمر : « سبقَ السيفُ العَذَل » .

وفي القرآن العظيم[١٣] : « قُضِيَ الأمْرُ الذي فيه تستفتيان » .

---

(١) في ط : برعت في كتابك. (٢) زيادة من م. (٣) سورة البقرة ، آية ١٧٩ .
(٤) اللسان — مادة بجر. والمعنى أنذا بجرة في سرته — والأبجر: الناتئ السرة — عير غيره بما فيه.
(٥) سورة يس ، آية ٧٨ . (٦) سورة الإسراء ، آية ٨ . (٧) سورة الأنفال ، آية ١٩ .
(٨) سورة الحج ، آية ١٠ . (٩) سورة هود ، آية ٨١ . (١٠) في م : بين الصبح .
(١١) سورة يوسف ، آية ٥١ . (١٢) سورة الزخرف ، آية ٣٦ . (١٣) سورة يوسف ، آية ٤١ .

وفى الوصول إلى المراد ببَذْلِ الرغائب : « من ينكح الحسناء يُعْطِ مَهْرها[١] » .
وفى القرآن[٢] : « لن تنالوا البِرّ حتى تُنْفِقُوا مما تحِبُّون » .
وفى منع الرجل مُرَاده : « وقدْ حِيل بين العَيْرِ والنَّزَوَانِ[٣] »
وفى القرآن[٤] : « وحِيلَ بينهم وبين ما يَشْتَهُون » .
وفى تَلَافِى الإساءة : « عاد غَيْثٌ على ما أفسد »[٥] .
وفى القرآن[٦] : « ثم بدَّلْنا مكانَ السيئةِ الحسنة حتى عَفوا » .
وفى الاختصاص : « كل مقام بمقال »[٧] .
وفى القرآن[٨] : « لكل نبأ مُسْتَقَرٌّ » .
العجم : « من احترق كُدَسه[٩] تمنَّى إحراقَ أكداسِ الناس » .
وفى القرآن[١٠] : « وَدُّوا لو تَكْفُرُون كما كَفَرُوا فتكونون سَوَاء » .
العامة : « مَنْ حَفَرَ لأخيه بِئرا وَقَع فيها » .
وفى القرآن[١١] : [« ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » .

شعر :

كل امرئ يشبهه فعله ما يفعل المرء فهو أهله

وفى القرآن :][١٢] [١٣]« قل كلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلته » .
العامة : « كل البقل ولا تسأل عن المَبْقَلَة » .
وفى القرآن[١٤] : « لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكُمْ » .

شعر :

كم مرةٍ حفَّت بك المَكَارِهُ خَارَ لكَ الله وأنتَ كارِهُ

وفى القرآن[١٥] : « فعَسَى أنْ تَكْرَهُوا شيئاً ويَجْعَلَ اللهُ فيه خَيْرًا كثيراً » .

---

(١) ق م : مهرا . (٢) سورة آل عمران ، آية ٩٢ (٣) أول من قاله : صخر ابن عمرو السلمى . وصدر البيت : أهم بأمر الحزم لو أستطيعه . (٤) سورة سبأ ، آية ٥٤ .
(٥) ق م : ما أفسد برده . (٦) سورة الأعراف ، آية ٩٥ (٧) ق م : وفى اختصاص كل مقام بمقال : لكل مقام مقال . (٨) سورة الأنعام ، آية ٦٧ (٩) الكدس — بضم الكاف وفتحها : العرمة من الطعام والتمر والدراهم . (١٠) سورة النساء ، آية ٨٩ .
(١١) سورة فاطر ، آية ٤٣ . (١٢) من م . (١٣) سورة الإسراء ، آية ٨٤ .
(١٤) سورة المائدة ، آية ١٠١ . (١٥) سورة النساء ، آية ١٩ .

العامة : « المأمول خيرٌ من المأكول » .

وفى القرآن(١) : « وللآخِرَةُ خيرٌ لك من الأولى » .

العامه : « لو كان فى اليوم خيرٌ ما سلّم علىّ الصياد » .

وفى القرآن(٢) : « ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيراً لأسمعهم » .

المتنبى : * مصائبُ قوم عند قوم فوائد *

وفى القرآن(٣) : « وإنْ تُصِبكم سيئةٌ يَفرَحُوا بها » .

* عنـد الخنازير تنفُق العذرة *

وفى القرآن(٤) : « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات » .

العجم : « لم يرِدِ الله بالنملة صلاحا إذ أنْبَتَ لها جناحا » .

وفى القرآن(٥) : « حتى إذا فَرِحوا بما أوتُوا أخذناهم بَغتَةً » .

العامة : الـكلب لا يَصيد كارها .

وفى القرآن(٦) : « لا إكراه فى الدين » .

العجم : « كل شاة تُناط برجلها » .

وفى القرآن(٧) : « كل نفس بما كَسَبَتْ رَهينَةٌ » .

جملة من مكاتبات [بعض(٨)] أهل العصر

[وهو](٨) أبو القاسم محمد بن على الإسكافى عن الأمير نوح بن نصر وعن ابنه(٩) شكرعلى سيرة محمودة
عبد الملك لأبى طاهر وشمكير بن زياد يَشكرُه على حَميد سيرته ؛ مَنْ حمدناه أعزّكَ
اللهُ تعالى — من أعيان المِلّةِ الذين بهم افتِخارُها، وأعوانِ الدولة الذين بهم استظهارُها،
بخلّة يبرّع فيها من خلالِ الفضْل ، وخصْلَة يكمل بها من خصال العَدْل . وإنك —
أعزّك الله — من نحمده بالارتقاء فى درج الفضائل ، والاستواء فى كلّ الشواكل ؛
فإنه ليس من مَحْمَدَة إلا وسهمُك فيها فائز، [ولا من شدة إلا ومَنهلُك فيها بارز](٨)،

(١) سورة الضحى، آية ٤ . (٢) سورة الأنفال آية ٢٣ . (٣) سورة آل عمران، آية ١٢٠ .
(٤) سورة النور ، آية ٢٦ . (٥) سورة الأنعام ، آية ٤٤ . (٦) سورة البقرة، آية ٢٥٦ . (٧) سورة المدثر ، آية ٣٨ . (٨) من م . (٩) فى ط : وعن أبيه .

وذلك ــ أعزك الله تعالى ــ أمرٌ قد أغنى صِدْقُ خبره عن العيان ، وكفى بيان أثره تكلّف الامتحان ، ولو أعطينا النفوسَ مُناها ، وسوّغناها هَواها، لأوردنا عليك في كل ذرور كلّ شارقٍ جديدَ شُكْر ، وجدّدنا لك مع اعتراض كل خاطر جميلَ ذِكر ، لكنا للعادة في ترْكِ الهوى ، والثقة بأنك مع صالح آدابك تحلّ الأدنى من الإحماد محلّ الأوفى ، فيُقتضى لك بأنه ، وإن عظم قدرُه ، يَسير العدد ، وعلى ما هو ، وإن تناهى لفظُه ، باق الفَخْر مدى الأبد ، وكان مما اقتضانا الآن تناولك به أخبارٌ تواترت، وأقوال تظاهرت، بإطباق سكان الحضْرة ونيسابور من أهل عملك على شُكْرٍ ما يتزيّد لهم وفيهم من موادّ عدلك وحسن فَضْلك، حتى لقد ظلّوا ولهم في شكر ذلك محافل تُنْعَقد، ومشاهد تُشْهَد يعجب بها السامعُ والرائى . ويقترنُ بها المؤمنُ والداعى ؛ فإن هذا ــ أعزّك الله ــ حال يطيب مَسْمَعه ، ويلذّ موقعه ، حتى لقد ملأ القلوبَ بَهجاً ، والصدور ثلجاً، حتى استفزّها فرطُ الارتياح، وصِدْقُ الانشراح ، إلى هذا الكتاب إن أعجلناه ، وهذا الشكر إن أجزلناه ، بعد ذكر لك اتصل كل الاتصال ، وأجمل كل الإجمال ، وتضاعف به حظّك من الرأى أضعافا ، وأشرف عملك على كل الحال إشرافا ، ونحن نهنيك ــ أعزك الله ــ على التوفيق الذى قسمهُ الله لك ، والتيسير الذى وكّله بك ، ونبعثُك على استدامتها بصالح النية ، وبصادق البغية[1] ، لتدنوَ من العدل على ما ترعى ، وتحسن الهَدْى فيما تتولّى . فرأيك أبقاك الله تعالى في إحلال ذلك محله من استبشار به تستكمله ، واستثمار له تعجّله [إنْ شاء الله تعالى][2] ».

تعزية وكتب إليه يعزيه: « إن أحقّ من سلّم لأمر الله تعالى ورضى بقدَره، حتى يُمَحّصَ[3] مصطلما ، ويَخلصَ مُصْطَبرا ، وحتى يكون بحيث أمر الله من الشكر إذا وَهب ، والرضا إذا سَلب ، أنت أعزك الله تعالى لمحلّك من الشكر والحِجَا ، وحظك من الصبر والنُّهى ، ثم لِمَا ترجعُ إليه من ثبات الجنان عند النّازلة ، وقوة الأركان لعزّ الدولة الفاضلة ، فإنّ لك فيها وفى سَهْمك الفائز ، ومَنْهلك البارز ، عوضا عن كل مرزوء ،

---

(١) في م ، ا : البقية . (٢) من ا . (٣) في ط : يمضى .

ودَرَكًا لكل مَرْجُوّ ، ونسأل الله تعالى أنْ يجعلك من الشاكرين لفَضْله إذا أبلى ، والصابرين لحكمه إذا ابتَلى ، وأن يجعل لك لا بك التعزية ، ويبقيك في نفسك وفي ذَوِيك الرزيّة ، بمنّه وقدرته .

كتاب آخر في التعزية

وله إليه : ترامى إلينا خَبَرُ مُصابك بفلان ، فخلص إلينا من الاغتمام به ما يحصل في مثله ممّن أطاع ووَفى ، وخدم ووالى ، وعلمنا أن لفقدك مثله لَوْعَةً ، وللمصاب به لَذْعة ؛ فآثَرْنا كتابنا هذا إليك في تعزيتك على يقيننا بأنّ عقلك يُغْنِي عن عظتك، ويَهْدِي إلى الأوْلَى بشيمته ، والأزيد في رُتْبتك ، فليحسن — أعزك الله — صبرك على ما أخذه منك ، وشكرك على ما أبقى لك ، وليتمكّن في نفسك ما وفّر لك من ثواب الصابرين ، وأجزل من ذُخْر المحسنين ، وليَرِدْ كتابك بما ألهمك الله تعالى من عزاء ، وأبلاك من جميل بَلاء إن شاء الله تعالى .

جواب إليه

وله إليه جواب : وصل كتابُك — أعزك الله تعالى — مفتتحا بالتعزية عن فلان وبوَصْفِ توجّعك للمصيبة ، ونحن نحمدُ الله تعالى الذى يُنْعِم فضلا ، ويَحْكُم عَدْلا ، ويَهَبُ إحسانا ، ويسلب امتحانا ، على مجارى قضيّته كيف جَرَتْ آخذة ومعطية ، ومَوَاقع مشيئته كيف مضت سارّة ومسيئة ، حَمْدَ عالمين أن لا حكم إلا له ، ولا حولَ إلّا به ، ومستمسكين بما أمر به عند المساءة من الصبر ، والمسرّة من الشكر ، راجين ما أعدّه الله من الثواب للصابرين ، والمزيد للشاكرين . وما توفيقنا إلا بالله عليه نتوكّل وإليه ننيب ، وأما وَحْشَتُك — أعزك الله — للحادث على الماضى : عفا الله عنه ، فتلك مِنْ ذَوِي الصفاء والوفاء اختصّ بذلك واهتمّ له ، وعرف مثله فاغتمّ به ؛ فإنّ الطاعةَ نسبٌ بين أوليائها ، والنعمة سببٌ بين أبنائها ، فلا عجَب أنْ يمسك في هذا العارض ما يمسُّ أولى المشاركة ، ويخصّك من الاهتمام ما خص ذوى المشابكة .

كتابه في أمر غزاة

وله إليه أيضاً في أمر غزاة: ورد خَبَرُك أكرمك الله تعالى بنفوذك لوجهك فيمن جمعهم الله تعالى للسَّعْى في سبيله إلى جهتك ؛ فأمَلْنا أن يكون ذلك موصولا بأعظم الخيرة

مؤدّيا إلى أحسن العُقبة . إلا أنّا أحسسنا من الغزاة الذين بهم تعتضد ، وإيّاهم تستنجد ، فُتورَ نيّات ، وفساد طويّات ؛ وهذا كما علمت بابٌ عظيم يجبُ الاطلاع بالفكر والرأى عليه ، والاحتراس بالجدّ والجهد من الخطَل فيه . [فسبيلُك أن تتأمّل أمرك بعين استقصاء العَوْرَة ، واستدراك الآخرة[1]] ، فإن أنتَ وجدت فى عدتك تمامَ القدرة ، وفى عدّتك مقدار الكفاية ، ولم تجدْ نيّات أولئك الغُزّاة مدخولة ، ولا عُزّامهم معلولة ، استخرت الله تعالى فى المسير بكلّ ماتقدرُ عليه من الحَزْم فى أمرك ، ثم إن تكن الأُخرى ، وكان القوم على ما ذكرتَ من كَلال البصائر ، وضَعف المرائر ، عملت على التلوّم لحديثٍ يحدّثك به كتابُنا هذا إن اجتليت ما ذكرته ، وإن لم تبلغ بلاغة ما اخترته ، فاعتلق بذَيْله[2] .

[من المقامات]

المقامة القزوينية

وهذه المقامة من إنشاء البديع[3] . قال عيسى بن هشام : غزَوْت الثغر بقَزْوين سنة خمس وسبعين ، فما اجتزنا حزْنًا ، إلّا هبطنا بَطْنًا ، حتى وقف بنا السيرُ على بعض قُرَاها ، فمالت الهاجرة بنا إلى ظِل أثَلَاتٍ فى حِجْرها[4] عين كلسان الشَّمْعَة أصفى من الدمعة ، تسيح فى الرَّضْراض، سيح النَّضْنَاض[5] ؛ فنِلنا من الماء كل مانلناه ، ثم ملنا إلى الظل فقِلْنا[6] ؛ فما ملَكَنا النومُ حتى سمِعْنا صوتًا أنكرَ من صوت الحمار ، ورَجْعًا أضعفَ من رَجْع الحُوَار[7] ، يَشْفَعُهما صَوْتُ طَبْل كأنه خارج من ماضِغَى أسد ؛ فذَادَ عن القوم رائد النوم ، وفتحت العيون[8] إليه وقد حالت الأشجار دونه ، وأصغيتُ فإذا هو يقول على إيقاع صوت الطّبل :

أدعو إلى الله فهل من مُجيبْ إلى ذَرًى رَحْبٍ ومَعيش[9] خصيبْ

(١) ليس ما بين القوسين فى م .

(٢) فى م : لأعلق بذيله هذه إن شاء الله . (٣) المقامات : ٩٣ .

(٤) الأثل : نوع من الشجر يشبه الطرفاء . وفى المقامات : فى حجرتها .

(٥) الرضراض : الحصى ، والنضناض : الحية التى تلوى دائما . (٦) قلنا : من القيلولة ، وهى النوم فى الظهيرة. (٧) الحوار : ولد الناقة إلى أن يفصل عن أمه .

(٨) فى المقامات : التومعين ، أى العينين . (٩) فى المقامات : ومرعى .

وجنةٍ عاليةٍ ما تَنِى … قطوفُها دانيةً ما تَغيبْ
يا قومُ إنى رجلٌ تائبٌ … من بَلَدِ الكُفْرِ وأمرى عَجيبْ
إنْ أكُ آمَنْتُ فكم ليلةٍ … جَحَدْتُ فيها وعَبَدْتُ الصَّلِيبْ
يا رُبَّ خِنْزيرٍ تمشَّشْتُهُ … ومُنْكرٍ أحرَزْتُ منه النَّصيبْ[1]
ثُمَّ هداني اللهُ وانْتاشَنِي … من زَلَّةِ الكُفْرِ اجتهادُ المُصيبْ
فظَلْتُ أُخْفِى الدِّينَ في أُسْرتى … وأعبدُ اللهَ بقَلْبٍ مُنيبْ
أَسْجُدُ لِلّاتِ حِذارَ العِدَى … ولا أجى[2] الكعبةَ خَوْفَ الرقيبْ
وأسألُ اللهَ إذا جَنَّنى … لَيْلى وأضناني يومٌ عَصيبْ
ربِّ كما أنك أنقذتنى … فنجِّنى إنىَ فيهم غريبْ
ثم اتَّخَذْتُ الليلَ لى مَرْكَباً … وما سِوَى العزمِ أمامى نَجيبْ[3]
وَقَدْكَ مِنْ سيرىَ في ليلةٍ … يكادُ رأسُ الطفلِ فيها يَشيبْ
حتى إذا ما جُزْتُ بحرَ العمى[4] … إلى حمى الدين نفضتُ الوَجيبْ
وقلتُ إذ لاحَ شِعارُ الهدى … نَصرٌ من اللهِ وفتحٌ قريبْ

ولما بلغ هذا البيت قال : يا قوم ؛ وطِئت والله بلادكم بقَلْبٍ لا العِشْقُ شاقَه ، ولا الفَقْرُ ساقَه ، وقد تركت وراء ظَهْرى حدائقَ وأعنابا ، وكواعبَ أترابا ، وخيلا مُسَوَّمَة ، وقناطير مُقَنْطَرَة ، وعُدَّةً وعديدا ، ومراكبَ وعَبيدا ، وخرجتُ خروجَ الحيَّةِ من جُحْره ، وبرزتُ بروزَ الطائر من وَكْره ، مُؤْثِراً دينى على دُنْياى ، وجامعاً يُمْنَاى إلى يُسْراى ، وواصلا سَيْرى بسُراى ، فلو رفعتم النارَ بشررها ، ورميتُم الرومَ بحَجَرها ، وأعنتمونى على غَزْوِها مساعدة وإسماداً ، ومرافَدة وإرفاداً ، ولا شطَطَ ، فكلٌّ قادر على قُدْرَته ، وحَسَبَ ثَرْوَته . ولا أستكثرُ البَدْرَة ، ولا أردّ التمرة ، وأقبل الذَّرَة ، ولكل منى سهمان ، سَهمٌ أُذلِّقه لِلِّقاء ، وسهمٌ أفوّقه بالدّعاء ، وأرشُق به أبوابَ السماء ، عن قوْس الظلماء .

---

(١) تمششه : أكلت مشاشه ، وهى رءوس عظامه اللينة . (٢) فى المقامات : ولا أرى .
(٣) فى المقامات : جنيب . (٤) فى المقامات : حتى إذا جزت بلاد العدا .

قال عيسى بن هشام: فاستفزّنى رائعُ ألفاظه، وسرّوْتُ جِلْباب النوم، وعدوت إلى القوم، وإذا والله شيخنا أبو الفتح الإسكندرى، بسيفٍ قد شَهره، وزِيّ قد نكره؛ فلما رآنى غمزنى بعينه، وقال: رحم الله امرأً أحسن حَدْسه؛ وملك نَفْسه، وأغنانا بفاضل قوْله، وقسم لنا من نَيله! ثم أخَذ ما أخذ، فقمتُ إليه فقلت: أنتَ من أولاد بنات الروم[1]؟ فقال:

أنا حالِي مع الزما ... نِ كحالى مع النسَبْ

نَسَبى فى يد الزما ... ن إذا سامه[2] انقلَبْ

أنا أمسى من النبيـ ... ـطِ وأُضْحِى من العَرَبْ

[السؤال بلفظ حسن]

قال سليمانُ بن عبد الملك: ما سألنى أحدٌ قط مسألة يثقلُ علىّ قضاؤها، ولا يخفّ علىّ أداؤها، بلفظٍ حسن يجمعُ له القلب فهمَه إلا قضيتُها، وإن كانت العزيمة نفذت فى منعه، وكان الصواب مستقرًا فى دفعه، ضنًّا بالصواب أن يردّ سائله، أو يحرم نائله.

[ابن رفاعة يتحدث عن النعمان والحارث الغسانى]

وقال أبو عبيدة[3]: كان أبو قيس بن رفاعة[4] يَفِد سنةً إلى النعمان بن المنذر اللخمى وسنةً إلى الحارث بن أبى شَمِر الغَسّانى، فقال له الحارث يوما وهو عنده: يابن رفاعة، بلغنى أنك تفضّل النعمان علىّ! قال: كيف أفضّله عليك أبيتَ اللعنَ! فو الله لقَفَاكَ أحسنُ من وَجْهه، ولأمّك أشرفُ من أبيه، [ولآباؤك أشرف من جميع قومه][5]، ولأمسُك أفضل من يومه، ولشمالك أجود من يمينه، ولحِرمانك أنفع من بذله، ولقليلك أكثر من كثيره، [ولِثمادُك أغزرُ من غديره، ولكرسيّك أرفع من سريره، ولجدولك أغمر من بحوره، وليومُك أفضل من شهوره، ولشهرُك أشرف

(١) فى المقامات: أأنت من أولاد النبيط. (٢) فى م: ساسه.

(٣) الأمالى: ١-٢٠٧. (٤) فى الأمالى: ٣-٢٢: هو قيس بن أبى رفاعة. (٥) منم.

من حوله، ولحولك خير من حقبه، ولزندك أورى من زَنْدِه، ولجندك أعزّ من جنده، ولهزلك أصوب من جدّه، وإنك لمن غسّان أرباب الملوك، وإنه لمن لخم كثيري النوك. فملام أفضّله عليك؟ وقد روى مثل هــذا الكلام للنابغة الذبياني مع النعمان بن المنذر[1]].

[أربعة أبيات]

[وقال المفضل الضبي[2]: دخلت على المهدى فقال قبل أن أجلس: أنشدني أربعة أبيات لا تزد عليهن، وعنده عُبد الله بن مالك الخزاعي؛ فأنشدته:

وأشعث قد قدّ السِّفارُ قميصَه ... يجرّ شواء بالعصا غــير مُنْضَجِ
دعوتُ إلى ما نابنى وأجابنى ... كريمٌ من الفتيان غير مزلَّجِ
فتى يملأ الشِّيزَى ويُروى سنانَه ... ويضرب في رأس الكمى المدجّج
فتى ليس بالراضى بأدنى معيشة ... ولا في بيوتِ الحىّ بالمتولّج

فقال المهدى: هذا هو، وأشار إلى عبد الله بن مالك. فلما انصرفتُ بعثَ إلىّ بألف دينار، وبعثَ إلىّ عبد الله بأربعة آلاف.

[أبو الأسود الدؤلى وامرأته]

تنازع[3] أبو الأسود الدؤلى وامرأته إلى زياد في ابنهما، وأراد أبو الأسود أخذه منها فأبَتْ. وقالت المرأة: أصلح الله الأمير، هذا ابنى، كان بطنى وعاؤه، وحجرى فناؤه، وثديى سقاؤه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام؛ فلم أزل بذلك سبعة أعوام. فلما استوفى فصالُه، وكملت خصالُه، واستوكَت[4] أوصالُه، وأمّلتُ نفعَه، ورجوت عَطفَه، أراد أن يأخذه منى كَرْهاً، فآدِنى أيها الأمير؛ فقد أراد قهرى، وحاول قَسْرى.

فقال أبو الأسود: هذا ابنى حملتُه قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا

---

(١) من م. (٢) الأمالى: ١ — ٢٦٦.
(٣) الأمالى: ٢ — ١٢. (٤) استوكت: اشتدت.

أقوم عليه في أدبه ، وأنظر في تقويم أوَدِه ، وأمنحه علمي ، وألهمه حلمي ، حتى يكمل عقلُه ، ويستكمل فتلُه .

فقالت المرأة : صدق أصلحك الله ؛ حمله خِفًّا ، وحملته ثِقْلا ، ووضعه شهوة ، ووضعتُه كرها .

فقــال زياد : اردُدْ على المرأة ولدَها ؛ فهي أحقّ به منك ، ودعني من سجعك .

[عظات ووصايا]

قال الأصمعي : بلغني أن بعض الحكماء كان يقولُ : إني لأعظكم ، وإني لكثيرُ الذنوب مسرفٌ على نفسي غير حامد لها ولا حاملها على المكروه في طاعة الله تعالى . وقد بلوتُها فلم أجد لها شكرا في الرضاء ولا صبرا على البلوى . ولو أن أحداً لا يعظ أخاه حتى يُحكم أمرُه لَتُرِك الأمر . . . .[1] ولكن محادثة الإخوان حياة القلوب ، وجلاء النفوس ، وتذكيرٌ من النسيان . واعلموا أن الدنيا سرورُها أحزان ، وإقبالها إدبار ، وآخر حياتها الموت . فكم من مستقبِل يوما لا يستكمله ، ومنتظر غدا لا يبلغه ، ولو تنظرون الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغرورَه .

جمع عبدالملك أهله وولده فقال : يابني أميّة ، ابذُلوا ندا كم ، وكفُّوا أذا كم ، وأجملوا إذا طلبتم ، واغفروا إذا قدرتم ، ولا تلحفوا إذا سألتم ، ولا تبخلوا إذا سُئلتم ؛ فإن العفو بعد القدرة ، والثناء بعد الخبرة ، وخير المال ما أفاد حمدا ونفى ذما .

[وصف هشام بن عبد الملك بصفته]

ودخل سعيد الجعفري على هشام بن عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ، إني أريد أن أصفك بصفتك ، فإن انحرف كلامي فلهيبة الإمام ، واجتماع الأقوام ، وتصرف الأعوام ، ولربّ جوادٍ عثر في أرسانه وكبا في ميدانه ، ورحم الله امرأً قصّر من لفظه وألصق الأرض بلحظه ، ووعى قولي بحفظه .

فخاف هشام أن يتكلّم فيقصّر عن جائزة مثله فعزم عليه فسكت .

---

(١) بياض بالأصل .

[حاتم يتحمل الديات]

قال[١] عبد قيس بن خُفاف البرجمى لحاتم الطائى وقد وفد عليه فى دماء تحملها وعجز عن البعض : (إنه وقعت بينى وبين قومى دماء فتوا كَلُوها، وإنى حملتها فى مالى وأملى فقدّمت مالى وكنت أملى، فإن تحملها فرُبّ حق قضيته وهمّ قد كفيته)[٢]، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمم يومك ولم أيأس من غدك][٣] .

[تقيل]

قال أبو على العتابى : حدثنى الحدونى، قال : بعث إلىّ أحمد بن حَرْب المهلبى فى غداةٍ ، السماء فيها مُغيمَة ، فأتيته والمائدةُ موضوعةٌ مغطّاة ؛ وقد وافتْ عجاب المغنّية ، فأكلنا جميعاً ، وجلسنا على شرابنا ، فما راعنا إلا داقٌ يدقّ الباب ، فأتاه الغلام فقال : بالبابْ فلان ؛ فقال لى : هو فتًى من آل المهلب ، ظريف ، نظيف ، فقلت : ما نريد غير ما نحن فيه، فأذِن له، فجاء يتبختر وقدّامى قدح شراب فكسره ، فإذا رجلٌ آدَمُ[٤] ضَخْم ، قال : وتكلم فإذا هو أعيا[٥] الناس . فجلس بينى وبين عُجاب ، قال : فدعوت بدَواة وكتبت إلى أحمد بن حرب :

كدّر الله عيشَ مَنْ كدّرَ العَيْـشَ فقد كان صافياً مُستطابا
جاءنا والسماء تهطل بالغَيْـث وقد طابقَ السماعُ الشرابا
كسر الكاسَ وهْى كالكوكب الدرّ يِّ ضمّت من المُدام رُضابا[٦]
قلت لما رُميتُ منه بما أكـره والدهرُ ما أفاد أصابا
عجّل الله نقمةً لابن حربٍ تدعُ الدارَ بعد شهرٍ خرابا

ودفعتُ الرقعة إلى أحمد، فقال : [ويحك][٧] ! ألا نفَسْتَ فقلتَ بمدخول ؛ فقلت :

(١) الأمالى : ٣ — ٢١ . (٢) مكان ما بين القوسين الصغيرين بياض بالأصل ، فنقلنا هذه العبارة من الأمالى . (٣) من صفحة ١٠٤٣ إلى هنا زيادة من م .

(٤) آدم : أسمر . (٥) فى م : أغثر . (٦) فى م : لعابا . (٧) من م .

أردت أقول بعد يوم ، نخفت أن تصيبني مضرّة ذلك . وفطن الثقيل فنهض ، فقال : آذيته ! فقلت : هو آذاني .

[طيلسان ابن حرب]

وقال الحمدونى فى طيلسان ابن حرب :

ولى طيلسانٌ إن تأمّلت شخصَهُ ... تيقنت أنّ الدهر يَفْنَى وينقرضْ
تصدَّعَ حتى قد أمِنْتُ انصداعَهُ ... وأظهرتِ الأيامُ من عمره الغَرَضْ
كأنى لإشفاق عليه ممرِّضٌ ... أخا سَقَمٍ مما تَمادَى به المرَضْ[1]
فلو أنّ أصحابَ الكلام يرونهُ ... لمَا رَوْكَ فيه وادّعَوْا أنه عرَضْ

[وقال فيه :

لطيلسان ابن حرب نعمةٌ سبقَتْ بها ... تبيّنَ فضلى فهو متّصِلُ
قد كنتُ دهرا جهولًا ثم حنّكَنِى ... عليه خوف من الأقوام إن جهلُوا
أظل اجتنب الإخوانَ من حذر ... كأنما بِىَ جرحٌ ليس يندملُ
يا طيلسانًا إذا الألحاظ جُلْنَ به ... فعلْنَ فعلَ سهام فيه تنتضِلُ
لئن بليتَ فكم أبليت من أمم ... تترَى أبادتهم أيامُك الأولُ
وكم رآك أخ لى ثم أنشدنى ... ودّع هريرة إن الركب مرتحل][2]

وقال فيه[3] :

يا بنَ حرب كسوتَنِى طيلسانًا ... أمرضَتْه الأوجاعُ[4] فهو سقيم
فإذا ما لبسته[5] قلتُ سُبْحَا ... نَك مُحْيِي العظام وهى رميم
طيلسانٌ له إذا هبت الريـــــحُ عليه بعنكبىٌّ هميم .

---

(١) ق م : إذا سقم تمادى . (٢) من م . (٣) وفيات الأعيان : ٣ ــ ٤٣٧ .
(٤) ق الوفيات : أتحلته الأزمان وهو . . (٥) ق الوفيات : فإذا مارفوته .

أذكرتَنى بيتاً لحسّان فيه حُرَقٌ للفؤاد حين أقوم
لو يَدِبُّ الحولىُّ من ولد الذَّ رِّ عليها لأنْدَبَتْها الكُلومُ[١]

وقال أيضاً :

يا قاتلَ اللهُ ابنَ حربٍ لقد أطال إتعابى على عَمْدِ
بطيلسانٍ خِلْتُ أنّ البلى تطلّبه بالوِتْرِ والحقدِ
أجدُّ فى رَفْوِى له والبلَى يلهو به فى الهَزْلِ والجد
ذكّرنى الجنّة[٢] لما غدَا أصحابُها منها على حَرْدِ
إن أنْهَمَ الرَّفّاءُ فى رفوه مضَى به التمزيقُ فى نَجْدِ
غنّيته لما مضى راحلاً ياواحدِى تتركنى وحدى !

وقال أيضاً فيه :

إنّ ابنَ حَرْبٍ كسانِى ثوبا يُطيل اعْتِرافَهْ
أظلّ أدفع عنه وأتّقى كلَّ آفَهْ
فقد تملت من خَشْـ ـيَتى عليه الثقافه[٣]

وقال أيضاً :

طيلسانٌ ما زال أقدم فى الدهـ ـر من الدهر ما لِرَفْوِيهِ حيله
وترى ضعفه كضعف عجوز رَثّةِ الحال ذاتِ فقرٍ مُعيله
غمرته الرقاع فهو كمصر سكنته نُزّاعُ[٤] كلّ قبيله
إن أزيّنه يا بن حرب بذى فجرير قد زانَ قبلى بجيله

جرير بن عبد الله البجلى ، وله صحبة [رضى الله عنه ، وقد][٥] قال غسان فى هجائه جريرا :

---

(١) البيت لحسان فى ديوانه : ٣٧٧ . (٢) فى م : الجنة .
(٣) فى ط : الثقافه . (٤) النزيع : الغريب كالنازع ، وجمعه نزاع . (٥) من م .

لعمري لئن كانت بجيلة زَانَها ... جريرٌ لقد أخزى كليبا جريرها[١]

وقال الحمدوني في معناه الأول[٢] :

يا بْنَ حرب إني أرى في زوايا ... بيتنا مثــل ما كسوتَ جماعَهْ

طيلسانٌ رَفَوْتُه ورفوت الـ ... ـرَّفو منـــه حتى رَفَوْتُ رِقاعه

فأطاع البلى وسار خليعا[٣] ... ليس يعطى الرقاء في الرفو طاعه

فإذا سائلٌ . رآني فيــه ... ظنّ أني فتى من أهل الصِّناعَه[٤]

وقال فيه :

طَيْلَسانٌ لابنِ حربٍ ... يتـــداعى لا مِسَاسا

قد طَوَى قَرْناً فقرناً ... وأُناسا فأُناسا

لَبِس الأيام حتى ... لم تدع فيـــه لِبَاسا

غاب تحت الحسّ حتى ... لا يُرى إلا قياسا

[من الرسائل]

لابن العميد إلى أبي عبد الله الطبري

كتب أبو الفضـــل بن العميد إلى أبي عبد الله الطبري : كتابي وأنا بحالٍ لو لم ينقص[٥] منها الشوقُ إليك ، ولم يُرَنِّق صفوها النِّزَاعُ نحوك ، لعدَدْتُها من الأحوال الجميلة ، واعتددت حظِّي منها في النعم الجليلة ؛ فقد جمعتُ فيها بين سلامةٍ عامّة، ونعمةٍ تامة ، وحظيت منها في جسمي بِصَلاح، وفي سَعْيِي بنجاح ، لكن مابقي أن يَصْفُوَ لي عيش مع بُعْدِي عنك ، ويخلو ذَرْعِي مع خلوّي منك ، ويَسُوغ لي مطعم ومشرب ، مع انفرادي دونك ، وكيف أطمعُ في ذلك وأنتَ جزءٌ من نفسي ، وناظمٌ لشَمْلِ أُنْسِي ، وقد حُرِمْتُ رؤيتَك ، وعَدِمْتُ مشاهدتَك ، وهل تسكنُ نفس متشعّبة ذاتُ انقسام ، وينفع أُنس مُتَشَتِّت بلا نظام ، وقد قرأتُ كتابك جعلني الله تعالى فداءك ؛ [فامتلأتُ سرورا بملاحظة خطّك ، وتأمّل تصرفك في لفظك ، وما أُقَرِّظُهما فكلُّ خصالك مقرّظٌ عنـــدي ، وما أمدحُهما فكلُّ أمرك ممدوح في ضميري وعَقْدِي ،

(١) في ط : أخزى جريراً كليبها. (٢) وفيات الأعيان : ٣ ــ ٤٣٥. (٣) في ط : خليقا.
(٤) في م : الصناعة . (٥) في م : والحال لو لم ينقص منها الشوق إليك .

وأرجو أن تكونَ حقيقةُ أمرِك موافقةً لتقديري فيك ، فإن كان كذلك وإلا فقد عطّى هواك وما ألقى على بَصَري .

رسالة لعضد الدولة يهنئه بولدين

وله إلى عضد الدولة يهنئه بولدين : أطال اللهُ بقاء الأمير الأجلّ عضد الدولة ، دام عزّه وتأييده ، وعلوُّه وتمهيده ، وبَسْطَتُه وتوْطيده ، وظاهرَ له من كل خير مزيده ، وهنّأه ما اختصّه به على قُرْبِ الميلاد ، من توافر الأعداد ، وتكثّر الأمداد ، وتثمّر الأولاد ، وأراه من النجابة في البنين والأسباط ، ما أراه من الكرم في الآباء والأجداد ، ولا أخْلَى عينَه من قرّة ، ونفسه من مَسرّة ، ومتجدّد نعمة ، ومستأنف مكرمة ، وزيادةٍ في عدده ، وفَسْحٍ في أمده ، حتى يبلغَ غايةَ مَهلِه(١) ، ويستغرق نهاية أمَله ، ويستوفي ما بعد حُسْنِ ظنّه ؛ وعرفه اللهُ السعادةَ فيما بشّرَ عَبْده من طلوع بدرين هما انْبَعَثا من نورِه ، واستنارا من دُوره ، وحفّا بسريره ، وجمل وفودَهما متلائمَين ، وورودهما توأمين ، بشيرين بتظاهُر النعم ، وتواتر القِسم ، ومؤذِنَيْن بترادفِ بنين [يفصْ](٢) بجمعهم مُنْخَرق الفضاء ، ويشرق بنورهم أفق العلاء ، وينتهي بهم أَمَدُ النماء ، إلى غاية تفوتُ غايةَ الإحصاء ، ولا زالت السبلُ عامرة ، والمناهلُ غامرة ، يصافحُ صادرهم بالبِشر [الوارد](٢) ، وآملهم بالنيل القاصد .

* * *

المتنبي يذكر ابني عضد الدولة

وقال أبو الطيب وذكر أبا دُلَف وأبا الفوارس ابني عضد الدولة(٣) :

فلم أرَ قبله شِبْلَيْ هِزَبْرٍ كشِبْلَيْهِ ولا فرسَيْ رِهانِ
فعاشا عيشةَ القمرين يُحْيَا بضَوْئِهما ولا يتحاسدانِ
ولا ملَكا سِوَى مُلْكِ الأعادِي ولا وَرِثا سِوَى مَنْ يَقْتُلانِ
[وكانا ابنا عدوّ كاثرَاه له ياءَيْ حروفِ أُنَيْسِيانِ](٣)
دُعاءٌ كالثّناء بلا رِياءٍ يُؤدِّيه الجَنانُ إلى الجَنانِ

* * *

(١) المهل : السكينة والرفق ، والمهل ـ محركة : التقدم في الخير . (٢) من م .
(٣) ديوانه : ٤ ـ ٢٦٠ .

رسالة الإسكافى فى استبطاء وتهنئة

وكتب أبو القاسم الإسكافى عن نوح بن نصر إلى وَشْمَكِير بن زياد فى استبطاء وتهنئة :

وصل كتابُك ناطقاً مفتتحه بجميل العُذْر ، فيما قلّ من المكاتبة ، وبث من المطالعة ، ومُعْرِباً مختتَمُه عن جُملة خبرِ السلامة ، التى طابقت أعمالك ، والاستقامة التى عمّت أحوالَك ، وفهمناه ، ولولا أنّ موالاتك — أيدك الله تعالى — فيما تأتى وتَذَر ، وترتئى وتدبّر — عادةٌ لنا أورثتناها قرابة مابين وفاقنا ووِفاقك ، ومُلاءمة حال ألجأتنا لحال استحقاقك ؛ لكنا ربما ضايَقْنَاك فى العُذْر الذى اعتذرتَ به ، وإن كان واضحاً طريقُه ، وناقَشْنَاك فيه ، وإنْ كان واجباً تَصْدِيقه، لفَرْطِ الأُنْس [يَخْلُص إلينا][1] بكتابك ، والارتياح بخطابك ، اللّذين لايؤدّيان إلا خبرَ سلامةٍ توجِبُ الإحماد ، فنحن نأبى إلاّ إجراء تلك العادة ، كما عودْتَنا ، وإلاّ التجافى عما تريد فيه من الزيادة التى أرَدْتَها[2] ، ولا ندع مع ذلك أن يصل تَسويغُك إلى الإقلال الذى اخترته بإحمادك على الكتاب إذا كتبته توخّيا لأن تكون مؤهلا فى الحالين لخالصة التنويل ، مقدماً فى درج التفضيل ، موفّى حقائق الإيثار ، موفّى لواحقَ الاستقصار ، ونستعين بالله على قضاء حقوقك ، وعلى جميل النية فى أمورك ؛ فإن ذلك لا يُبلَغ إلا بقوّته ، ولا يُدرَك إلا بحَوْله .

وأما بعد فقد عنّى — أعزّك الله تعالى — ماأفاد كتابك بخبَر السلامة من أنسه ، على آثارِ مَنْ سبقه بخبر العلة من وحْشة ، فأوجبتنا مقابلة موهبة الله تعالى فى المحبوب صنع ، والمكروه دفع، بالشكر نستقبلُ به إخلاصَ المواهبِ لنا، ونستديمُ به أخصَّ المراتبِ بنا، فرأيك — أعزّك الله تعالى — فى المطالعة بذكر تستمدّه فى القوة والصحة من مزيد ، والطاعة والكفاية من توفيق وتسديد، موفقاً إن شاء الله تعالى .

(١) من م .   (٢) فى م : عما تريد فيه التى .

ألفاظ لأهل العصر فى ضروب التهانى وما ينخرط فى سلكها

من ذلك فى التهنئة بالمولود وما يجرى مجراها من الأدعية ،

وما يختصّ منها بالملوك أو الرؤساء

مرحبا بالفارس المصدِّق للظنون ؛ المقرّ للعيون ، المقبل بالطالع السعيد ، والخبر العتيد ، أنجب الأبناء لأكرم الآباء .

أنا مستبشر بطلوع النجم الذى كنا منه على أمَل ، ومن تطاول استِسرارِه [الذى كنا منه][1] على وَجَل ، إن يشأ الله يجعله مقدمة إخوة فى نسق كالفريد المتّسق . قد طلع فى أفق الحرية[2] أسعدُ نجم ، [ونجم][1] فى حدائق المروءة أذكى نبت .

يا بُشرَاى بطلوع الفارس الميمون جدّه ، المضمون سَعْده ، عليه خاتمُ الفضل وطابَعُه ، وله مَيْسَمُ الخير وطالِعُه .

الحمد لله على طلوع هــــذا الهلال الذى نَراه إنْ شاء الله بدرا لا يضمرُ السِّرَارُ بهاه ، ولا يبلغ المَحَاقُ سَناه وسناه ، قد بَشّرت قوابله بالإقبال وعُلُو الجدّ ، واقترن قدومُه بالطالع السّعْد . هنّاك الله تعالى بقوّة الظّهْر واشتدَاد الأزْر .

الفارس المكثِر لسواد الفضل ، الموفر لحالِ الأهل ، المستوفى شرفَ الأرومة ، بكرم الأُبوة والأُمومة ، وأبقاه حتى نراه ، كما رأينا جدّه وأباه . عرفت آنفاً ما كثّر الله به عددَه ، وشدّ عَضُدَه ، من طلوع الفارس الذى أضاء له الأُفق ، وطال به باعُ السعادة ، فعظمت النُّعْمَى لدىّ وأوردتِ البُشرى غاية المُنَى علىّ .

مرحبا بالفارس القادم ، بأعظم المغانم ، سَوِىّ الخلق ، [سارِى العِرق][1] ، يلوح عليه سيماء المجـــدِ ، وتتجاذبه أطراف الملك والحمد . وردت البُشْرى بالفارس الذى أُوسِّع رباع المجدِ تأهيلا ، ومنَاكِب الشرفِ ارتفاعاً ، وأعضَاد العزّ اشتداداً . وأتتنى بُشْرى البشائر ، والنعم المحروسة على النظائر فى سُلَالَة العز وسليله ، وابن منبر الملك وسريره ، والأمير القادم بغُرّة المكارم ، والناهض إلى ذرْوَة العلياء ، بآباء أُمراء ،

---

(١) من م ، ا .   (٢) فى ط : الهجرة .

وملوك عظماء . مرحبا بالفارس المأمول لشدّ الظهور ، المرجوّ لسدّ الثغور . الحمد لله الذى شدّ أزرَ الدولة ، ونظم قلادة الإمرة ، ودعم سَرير العزّة ، ووطّد منارَ المملكة ، بالقمر السعد ، وشبل الأسد الوَرْد .

قد تبسّمت المكارمُ والمعالى ، وتباشرت الخطوب والقوافى ، بالفارس المأمول لشدّ أزْرِ الملك ، وسدّ ثغرِ المجد ، وتطاولَ السريرُ شوْقاً إليه ، واهتزّت المنابرُ حرصاً عليه . قد افترّ جفنُ العالَم عن العينِ البصيرة ، واستغْرب مضحكُه عن اللمعة المُنيرة ؛ أما الأمير فالتاج لجبينه يبهى ، والركاب بقدمه تزهى ، اللهم أرِنى هذا الهلالَ بدْراً قد علا الأقدار قدراً ، وبلّغه الله فيه من مُناه ، حتى تراه وأخاه ، مُنيفين على ذرْوَة المجد ، آخذين من أوفر الحظْوَةِ من أعلى الجدّ .

ولهم : والله يمتّع به ، ويرزُقُ الخيرَ منه ، ويحقّقُ الأملَ فيه ، عرف الله تعالى آثار برَكة المولود المسعود ، وعضد الفضل بالزيادة فى عدده ، وأقرّ عيْنَ المجد بالسّادة من ولده . عرفه الله تعالى من سيادة مقدمه ما يجمعُ الأعداء تحت قدمه .

عمرك اللهُ تعالى حتى ترَى هذا الهلال قمراً باهراً ، وبدراً زاهراً ، يَكثُر به عدد حفَدتك ، ويعظم معه غُصّة حَسَدَتك ، من حيث لا تهتدِى النوائبُ إلى أغراضكم ، ولا تطمع الحوادثُ إلى انتقاصكم ، متّعك الله بالولد ، وجعله من أقوى العدد ، ووصله بإخوة متوافرى العدَد ، شادّى الأزْر والعَضُد . هنّاك الله تعالى مَولده ، وقرن باليُمْن موْرِدَه ، وأراك من بنيه أولادا بررَة [وأسباطا وحفدة ، وعرفك بركة قدُومه ، ونُجح مقدمه وسعد طالعه ، ويمْن طائره ، وعمّرك الله][1] حتى ترى زيادة الله منه كما رأيتها منه به ، والله يبلّغك أفضل ما تقسمه السعود ، ويَعْلو به الجدُود ، حتى يستغرق مع إخوته مساعى الفضل ، ويَشيدُوا قواعدَ الفخر ، ويزحموا صُدور الدّهْر ، ويضبطوا أطراف الأرض ؛ والله يحرُسه من نواظر الأيام أنْ ترْنُو إليه ، وأطماع الليالى أن تتوجه عليه ، حتى يستقلّ بأعباء الخدمة وينهض بأثقالِ الدعوة ، ويخفّ

(١) من م .

فى الدفع عن البَيْضَة[1]، ويُشْرِعَ فى حماية الحَوْزَة والله يديمُ لمولانا من العُمْر أكلاه، ومن العزّ أهناه، ليُطَبِّقَ العالَم بفضله وعَدْله، ويدبِّرَ الأرض بالنجباء من نَسْلِه .

وله فى ذكر المولود العلوى

غُصْن رسول الله صلى الله عليه وسلم، شجرُه أهل أنْ يَحْلُوَ ثمرُه، وفَرْعٌ بين الرسالةِ والإمامةِ مُنْتَمَاه، خليق أن يُحْمَدَ بَدْؤُه وعُقْبَاه . مرحباً بالطالع بأيمن طالع، ومَنْ هو من أشْرَفِ المناصب والمنابع، حيث الرسالة والخلافة، والإمامة والزّعامة، أبقاه اللهُ تعالى حتى يتهنّأ فيه سوانح المنى، ويعدّ حُسْنُهُ من بنى الحسن .

وله فى التهنئة بالإملاك والنفاس وما يقترن به من الأدعية

من اتَّصَلَ بمولاى سبَبُه، وشرف به مَنْصبه، كان حقيقا بالرغبة إلى الله تعالى فى توفيره وتكثيره، وزيادته وتَنْميره، لتزكُوَ منابتُ الفضل، وتَنْمى مغارِسُ النبل والفخر، وتطيب معادنُ المجد . بارك الله لمولاى فى الأمْر الذى عقده، وأحمده أباه وأسعده، وجعله موصولا بنَماء العَدد، وزكاء الولدِ، واتصال الحَبْل، وتكثير النسل . واللهُ تعالى يخير له فى الوصْلة الكريمة، ويقرنها بالمنْحَةِ الجسيمة .

قد عظَّم الله بَهْجَتِى وضاعف غِبْطَتِى، بما أتاحه من سرور ممهّد، بجمع شمل مجدّد، فلازالت النعم به محفوفة، والمَسَارُّ إليه مصروفة، جعل الله هذه الوصلة أكيدة العُقْدَة، طويلة المدّة، سابغة البركة والفضْل، طيبة الذّرية والنّسْل . وصلَ الله هذا الاتصال السعيد، والعقد الحميد، بأكمل المواهب، وأحمد العواقب، وجعل شَمْل مَسرّتك ملتئما، وسببَ أنسك منتظما . عرّفك الله تعجيلَ البركات، وتوالِى الخيرات، ولا أخلاك اللهُ من هذه الوُصْلة [من التهانى بنجباء الأولاد، وكَبْتَ بكثرة عددك الحساد . هنأك الله مولاى الوُصْلةَ][2] . بكثرة العدد، ووفور الوَلَد، وانبساط الباع واليد، عَالِىَ القدر والجد .

---

(١) البيضة : حوزة كل شىء، وساحة القوم .   (٢) من م .

ولهم فى التهنئة بالولاية والأعمال وما يتّصلُ بها من الأدعية

للوزراء والقضاة والعمال

عرفت أخبارَ البلدِ الذى أحسنَ اللهُ إلى أهله ، وعطف عليهم بفضله ، إذ أُضيف إلى ما يُلاحِظه مولاى بيمن إيالته ، ويشق خَلّه بفضل أصالته . أنا من سَرّ بالولاية يلبسُ مولاى ظلالها ، ويسحَبُ أذيالها ، بنعم مستفادَة ، ورُتب مستزادة ، سرورى بما أعلمه يكسبه الثناء فى كل عمل يديره ، من أحدوثة جميلة ، ومثوبة جزيلة ، ويُؤْثِرُه من إحياء عدل، وإماتة جَوْر ، وعمارةِ لسُبُلِ الخيرات ، وإيضاحِ لطرق المكرمات.

سيدى يُوفِى على الرتب التى يُدّعَى لها بحلوله؛ فهنيئاً لها بتجمّلها بولايته،وتحلّيها بكفايته.

الأعمال إن بلغت أقصى الآمال ، فكفايةُ مولاى تتجاوزُها وتتخطاها ، والرتبُ وإن جلّت قدراً ، وكبرت ذِكْراً ، فصناعته تَسْبِقها وتَتَسَوَّرها ، غير أنّ للتهانى رسما لابدّ من إقامته ، وشرطًا لا سبيل إلى نَقْض عادته .

الأعمال وإن بلغت أقصى الآمال فكفايةُ سيدى توفى عليها إيفاء الشمس على النجوم ، وترتفع عنها ارتفاع السماء على التخوم .

سيدى أرفع قَدْرًا وأنْبَه ذِكرًا ، من أنْ نهنّئه بولاية وإن جلّ أمرُها وعظم قَدْرُها . قد أُعْطِيتْ قوس الوزارة باريها ، وأضيفت إلى كُفِئِها وكافيها ، وفُسِخَ فيها شَرْط الدنيا الفاسد فى إهداء حظوظها إلى أوْغادها ، ونُقِض بها حكمها الجائر فى العدول بها عن نُجَباء أولادها . الدنيا أعزّ اللهُ الوزيرَ مهنّأة بانحيازها إلى رأيه وتنفيذه ، والممالكُ مغبوطةٌ باتصالها إلى أمره وتدبيره .

قد كانت الدّنيا مستشرفةً لوزارته ، إلى أنْ سعِدَت بما كانت الأيامُ عنه مُخبِرة، وحَظِيَتْ لما كانت الظنون به مبشِّرة . أنا أهنّىء الوزارة بإلقائها إلى فَضْلِه مقادَتَها ، وبلوغها فى ظلّه إرادتها، وانحيازها من إيالته إلى واضحة الفخر، وتوشّحها من كفايته بعزّة سائلةَ على وَجْه الدهر .

الحمدُ لله الذى أقرّ عينَ الفضل ،ووطّأ مِهادَ المجد،وترك الحسّاد يتعثرون فى ذيول الخيبة،

ويتساقطون فى فضول الحضرة ، وأرانى الوزارة وقد استكمل الشيخ إجلالها ، ووفى لها جمالها :

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

والقاضى علم العلم شرقاً وغرباً ، ونجم الفضل غوراً ونجداً ، وشمس الأدب براً وبحراً ، فسبيل الأعمال أن تهنأ إذا ردت إلى نظره الميمون ، وعصبت برأيه المأمون . [أسعد الله القاضى بما جدّ][1] له من رأى مولانا وارتضاه، واعتمده لأجل أمر بالشريعة وأمضاه ، وأسعد المسلمين والدين بما أصاره إليه ، وجمع زمامه فى يديه.

عرّف الله سيدى من سعادة عمله أفضل ما ترقاه بأمله ، ولقاه من مناجح أمره أفضل ما انتحاه بفكره . خار الله له فيما تولاه وتطوقه ، وبلغه فى كل حال أمله وحققه ، وعرفه من يمن ما باشره تدبيره الخير [والخيرة][1]، والبركات الحاضرة والمنتظرة ، وجعل الناجح إليه أرسالا ، لا علىّ توالياً واتصالا .

أسعده الله أفضل سعادة قسمت لوالى عمل ، وأسهم له أخص بركة أسهمت لساعى أمل ، أحضر الله السداد عزمه ، والرشاد همه ، وكنفه العصمة وأيده ، وقرنه بالتوفيق ولا أفرده . هنأه الله تعالى الموهبة التى ساقها إليه، ومد رواقها عليه؛ إذ كانت من عقائل المواهب مستفزة عن خصائص المراتب، وحلت فيه محل الاستحباب لا الإيجاب ، والاستحقاق دون الاتفاق .

هنأ الله نعمته الفضل الذى الولاية أصغر آلاتها ، والرياسة بعض صفاتها .

ولهم فى التهنئة بذكر الخلع والأجبية

أهنى سيدى مزيد الرفعة ، وجديد الخلعة ، التى تخلع قلوب النازعين ، واللواء الذى يلوى أيدى النابذين ، والحظ الذى لو استطاه إلى الأفلاك لحازها ، أو سامى به الجوزاء لجازها . بلغنى خبر ما تطوعت به سماء المجد، وجادت به أنواء الملك ،

(١) من م ، ا .

فمن من الخلع أسناها ، ومن المراكب أبهاها ، [ومن السيوف أمضاها ، ومن الأفراس أجراها ، ومن الإقطاعات أنماها][1] . لبس خلعته متجللا منها ملابس العز ، وامتطى فرسه فارعا به ذروة المجد ، وتقلد سيفه حاصدا بحده طلى[2] أعدائه وغامطي نعمائه ، واعتنق طوقه متطوقا عز الأبد ، واعتضد بالسوارين المؤذنين بقوة الساعد والعضد ، وساس أولياءه ولواء العز عليه خافق ، وهو بلسان الظفر والنصر ناطق .

قد لبس خلعته التى تعمد بها [رفعته][3] ، وامتطى حملانه التى[4] واصل بها إحسانه ، وتعلق بحسامه الذى ظاهر أبواب إنعامه ، وتختم بخاتميه اللذين بسطا من يديه ؛ ووقع من دواته التى أعلت من درجاته .

قد زررت عليه سماء الشرف عرى الخلعة ، التى تتراءى صفحات العز على أعطافها ، وتمترى مزايا المجد من أطرافها ، وركب الحملان الذى تتناول قاصيتق التى من ناصيته ، والمركب الذى تستخذى حلى الثريا لحليته ، والسيف والمنطقة الناطقتان عن نهاية الإكرام ، الناظمان قلائد الإعظام . خلع تخلع قلوب الأعداء عن مقارها ، وتعمر نفوس الأولياء بمسارها ، وسيف كالقضاء مضاء وحدا ، ولواء يخفق قلوب المنازعين إذا خفق ، وحلات تصدق منكب الدهر إذا انطلق .

ولهم فى التهنئة بالقدوم من سفر

أهنئ سيدى ونفسى بما يسره الله من قدومه سالما ، وأشكره على ذلك شكرا قائما ؛ غيبة المكارم مقرونة بغيبتك ، وأوبة النعم موصولة بأوبتك ؛ فوصل الله تعالى قدومك[5] من الكرامة ، بأضعاف ما قرن به مسيرك من السلامة . وهناك أيامك ، وبلغك مرامك ؛ ما زلت بالنية مسافرا ، وباتصال الذكر والفكر لك ملاقيا ، إلى أن جمع الله شمل سرورى بأوبتك ، وسكن نافر قلبى بعودتك ، فأسأل

(١) ليست فى م . (٢) الطلى : الأعناق أو أصولها . (٣) من م ، ا .

(٤) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة ، وفى م : التى .

(٥) فى م ، ا : وصولك .

الله أن يسعدك بقدمك سعادةً تكون فيها [بالإقبال][1] مُقابلا ، وبالأمانى ظافرا ، ولا أوحش منك أوطانَ الفضل ورباع المجد ، بمنّه وكرمه .

[من أحسن الشعر]

قال الهَيْثَم بن عدى[2] : أنشدنى مجالد بن سعيد شعراً أعجبنى ، فقلت : من أنشدكه؟ قال : كنا يوما عند الشعبى فتناشدنا الشعرَ فلما فرغنا قال : أيكم يحسن أن يقولَ مثلَ هذا ؟ وأنشدنا :

خليلىَّ[3] : مهلًا طالما لم أقلْ مَهْلَا ... وما سرفا مِن الآن قلتُ ولا جهلا
وإنَّ صِباً ابن الأربعين سَفاهةٌ ... فكيف مع اللاتِ مُثِلْتُ بها مَثْلا
يقول لىَ المُفْتى وهنَّ عشيةً ... بمكّة يَسْحَبْنَ المُهَدَّبةَ السُّحْلَا
تق الله لا تنظرْ إليهنَّ يافتى ... وما خلتُنى بالحج ملتمساً وَصْلا
فوالله لا أنسى وإن شَطَّتِ النوى ... عرانينَهن الشمَّ والأعينَ النُّجْلَا
ولا المسكَ فى أعرافهن ولا البُرى ... جَواعلَ فى أوساطها قَصَباً خدْلا
خليلىَّ لا والله ما قلت مَرْحباً ... لأوَّل شَيْبَاتٍ طَلَعْنَ ولا أهلا .
خليلىَّ إن الشيب داء كرهتُه ... فما أحسن المَرْعَى وما أقبح المحلا

قال مجالد: فكتبت الشعر ، ثم قلنا للشعبى: من يقوله؟ فسكت فحسبنا أنه قائله[4].

[المراثى التى قيلت على قبر عمرو بن حُمَمَة الدوسى]

قال الشرق[5] بن القَطَامى: لما مات عَمْرو بن حُمَمة الدَّوْسى ، وكان أحد من تتحاكم العربُ إليه ، مرَّ بقبره ثلاثة نفر من أهل المدينة قادمين من الشام : الهِدْم بن امرىء القيس بن الحارث بن زيد ، وهو أبو كُلْثوم بن الهِدْم الذى نزل عليه النبى صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) من م ، ا . (٢) الأمالى : ٢ ــ ١٢٤ ، التنبيه : ١٠٥ . (٣) فى الأمالى : أُعيبُ .
(٤) فى التنبيه : صفحة ١٠٥ هذا الشعر أشهر بالنسبة إلى القحيف العقيلى من أن يرتاب بمرتاب .
(٥) الأمالى : ٢ ــ ١٤٣ ، اللآلى : ٧٦٧ .

وعتيك بن قيس بن هَيْشَة بن أمية بن معاوية ، وخاطب بن قيس بن هيشة ابن معاوية . وحاطب بن هيشة الذى كانت بسببه حرب حاطب ، فعَقَروا رواحلهم على قبره ، وقام الهِدْم فقال :

لقد ضمّتِ الأثراء منك مُرَزّأً ... عظيم رَمادِ النارِ مشترك القدْرِ
إذا قلت لم تترك مقالا لقائل ... وإن صُلْتَ كنتَ الليث تحمى حِمَى الأجر
حليما إذا ما الحلمُ كان . حزامةً ... وقوفاً إذا كانَ الوقوف على الجمر
ليبكِكَ مَنْ كانت حياتك عِزّهُ ... وأصبح لما مُتّ يغضى على الصُّغر
سقى الأرضُ ذاتَ الطُّول والعرض مُثْجِمٌ ... أحمّ الذُّرى واهى العُرَى دائمُ القَطْر
وما بى سقيا الأرضِ لكنّ تربةً ... أضلّك فى أحشائها ملْحَدُ القَبْر

وقام عَتِيك بن قيس فقال(١) :

برَغْم العلا والجودِ والمجد والنّدى ... طواكَ الرّدَى يا خيرَ حافٍ وناعلِ
لقد غال صَرْفُ الدهر منك مرزّأً ... نهوضاً بأعباء الأمور الأثاقل
يضُمُّ العُفَاةَ الطارقين فِناؤُهُ ... كما ضمّ أمّ الرأس شعبَ القبائل
ويَسْرُو دجا الهيجا مضاءُ عزيمة ... كما كشف الصبح اطّراقَ الغياطل
ويُستهزَمُ الجيشُ العرمرم باسمه ... وإن كان جَرّاراً كثيرَ الصواهل
فإما تُصِبْنا الحادثاتُ بنَكْبَةٍ ... رمَتْك بها إحدى الدواهى الضآبل(٢)
فلا تَبْعَدَنْ إن الحتوفَ مواردٌ ... وكلُّ فتى من صرفها غيرُ وائل

وقام حاطب بن قيس فقال(١) :

سلامٌ على القبر الذى ضمّ أعظماً ... تحومُ المعالى حوله فتُسَلِّمُ
سلام عليه كلما ذرّ شارقٌ ... وما امتدّ قِطعٌ من دُجَى الليل مُظلِمُ
[فيا قبرَ عمرو جاد أرضاً تعطّفت ... عليك مُلِثٌّ دائمُ القَطْرِ مُرْزِمُ

---

(١) الأمالى : ٢ ــ ١٤٤ . (٢) الضآبل : الدواهى .

تضمّنتَ جسما طاب حيًّا وميتا   فأنت بما ضمّنْتَ فى الأرض مُنْعِم
فلو نطقَتْ أرضٌ لقــال ترابُها   إلى قبر عَمْرِو الأزدِ حلَّ التـكرم
إلى مَرْمَسٍ قد حَلّ بين تُرَابه   وأحجارِه بدْرٌ وأضبط ضَيْغَم
فلا يبعدنْك اللهُ حيًّا وميّتاً   فقد كنتَ نورالخطبِ والخطبُ مُظْلِمُ
لعمرُ الذى حُطّتْ إليه على الوَنَا   حدابيرُ عوجٌ نَيُّهَا مُتَهَمّمُ](١)
لقد هدم العلياءَ موتُك جانبا   وكان قديما رُكْنُها لا يُهدَّمُ

[بلاغة الأعراب]

قال الأصمعى : سمعت أعرابيا يذكر قومه، فقال : كانوا إذا اصطفُّوا تحت القَتام ، مطرت(٢) بينهم السّهام بشؤبوب الحِمَام ، وإذا تصافحوا بالسيوف ، فغرت أفواهها الحتوف ، فرب قِرْن عارِم قد أحسنوا أدبه ، وحَرْبٍ عبوس قد أضحكتها أسنتهم ، وخَطْب مُشْمَئِز ذَلّلوا مناكبه ، ويوم عَمَاس قد كشفوا ظُلْمَته بالصبر حتى تتجلّى . كانوا البحر لا يُنكَش غمَاره ، ولا يُنَهْنَه تيّاره .

قال العتبى : سئل أعرابى عن حاله [عند موته](١)، فقال : أجدنى مأخوذا بالنّقلة، محجوجا بالمهلة، أفارق ماجمعت، وأقدم على ماضيّعت، فيا حياتى من كريم قدّم المعذرة، وأطال النظِرَة إن لم يتداركنى بالمغفرة ، ثم قضى .

وقال بعضُ الرواة : كان يقال الإخوان ثلاثة : أخ يخلصُ لك وُدّه ، ويبلغ لك فى مهمّك جُهْده ، وأخ ذُو نيّة يقتصرُ بك على حسن نيته ، دون رِفْدِه ومعونته ، وأخ يجاملك بلسانه ، ويشتغل عنك بشأنه ، ويوسِعك من كذِبه بأيمانه .

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : وقفت علينا أعرابية فقالت: ياقوم ، تعثّر بنا الدهر ، إذ قلّ منا الشكر ، وفارقنا الغِنى ، وحالفنا الفقر ، فرحم الله امرأ فهم بعقل ، وأعطى من فَضْل ، وواسَى مِنْ كَفَاف ، وأعان على عَفَاف .

---

(١) من م ، ا .   (٢) فى م : خطرت .

[ذل السؤال]

قال أبو بكر الحنفى : حضرتُ مسجدَ الجامعة بالكوفة ، وقد قام سائلٌ يتكلّم عند صلاةِ الظهر ثم عند العصر والمغرب ، فلم يُعْطَ شيئاً فقال : اللهم إنك بحاجتى عالم غير معلَّم ، واسعٌ غير مكلَّف ، وأنت الذى لا يرزؤك نائل ، ولا يحفيك سائل ، ولا يبلغ مِدْحَتَك قائل ، أنت كما قال المُثْنُون ، وفوق ما يقولون ، أسألك صبراً جميلاً ، وفرجاً قريباً ، ونَصْراً بالهدى ، وقرّة عين فيما تحب وترضى ، ثم ولّى لينصرف ، فابتدره الناسُ يعطونه ، فلم يأخذ شيئاً ، ثم مضى وهو يقول :

ما اعتاض باذلُ وجهه بسؤالِه عِوَضًا ولو نال الغِنَى بسُؤالِ
وإذا السؤالُ مع النوال وَزَنْتَهُ رجَح السؤال وخَفَّ كلُّ نَوالِ

[من المقامات]

المقامة المكفوفية

ومن مقامات الإسكندرى إنشاء البديع : حدّثنا عيسى بن هشام قال[1] : وكنت فى بلاد الأهواز ، وقُصاراىَ لفظة شرود أصيدها ، أو كلمة بليغة أستفيدها[2] ؛ فأدّانى السير إلى رُقْعَة [من البلاد][3] فسيحة ، وإذا هنالك قومٌ مجتمعون على رَجل يستمعون إليه وهو يخبط الأرض بعصاً على إيقاع لا يختلفُ ، وعلمت أنّ مع الإيقاع لَحْناً ، ولم أبْعد لأنال من السماع حظّاً ، أو أسمع من البليغ لَفْظاً ، فما زلت بالنظّارة أزحَم هذا وأدفعُ ذلك ، حتى وصَلْتُ إلى الرجل ، وسَرّحت الطرف منه إلى حزقّة كالقَرَنْبى ، مكفوف فى شَمْلة من صوف ، يَدُور كالخُذْروف[4] ، مُتَبَرْنِساً بأطْوَلَ منه ، معتمِداً على عصاً فيها جلاجل ، يَضْربُ الأرض بها على إيقاعٍ غَنِج ، ولفظ هَزِج ، من صدرٍ حَرِج ، وهو يقول :

يا قومُ قد أثقل دَيْنى ظَهْرِى وطالبتنى طَلّتى[5] بالمَهْرِ

---

(١) المقامات : ٨٥ . (٢) فى المقامات ، م : أستزيدها . (٣) من م .
(٤) الخذروف : لعبة للصبيان . (٥) الطلة : الزوجة .

أصبحتُ من بعد غنًى ووفرِ ساكنَ قفرٍ وحليفَ فقرِ
يا قومُ هل بينكمُ من حُرِّ يُعيننى على صُروفِ الدهرِ
يا قومُ قد عِيل بفقرى صبْرى وانكشفتْ عنى ذيولُ السِّترِ
وفضَّ ذا الدهرُ بأيدى البَتْرِ ما كان لى من فضةٍ وتِبْرِ
آوِى إلى بيت كقيدِ الشِّبْرِ خاملَ قدْرٍ وصغيرَ قِدْرِ
لو ختم اللهُ بخيرٍ أمرى أعقبنى من عُسْرةٍ بيُسْرِ
هل من فتى فيكم كريم النَّجْرِ محتسبٍ فِىَّ عظيم الأجرِ
إن لم يكن مغتنمًا للشكرِ

قال عيسى بن هشام : فرقَّ له والله قلبى ، واغرورقت عينى ، وما لبثت أن أعطيته دينارا كان معى ، فأنشأ يقول :

يا حُسْنَها فاقِعةً صفراء مشوقةً منقوشةً قوْراء
يكاد أنْ يَقطُرَ منها الماء قد أغرَتْها هِمَّةٌ علْياء
نَفْسُ فتًى يملكُه السَّخاء يصرفه فيه كما يَشاء
ياذا الذى يعنيه ذا الثناء ما يقتضى قدْرَك الإطْراء
فامْضِ على الله لكَ الجزاء

ورحم الله من شدَّها فى قرَن بمثلها ، وآنسها بأختها ؛ فناله الناس ما نالوه ؛ ثم فارقهم وتبعتهُ ، وعلمتُ أنه متعامٍ لسرعة ما عرَف الدينار ، فلما تطامَنَّا خلْوَةَ مددتُ يُمناى إلى يسرى عضديه ، وقلت : والله لتريَنِّى سِرَّك ، أو لأكشفنَّ سِتْرك ؛ فكشف عن توأمَتى لوْزٍ(١) ، وحدَرت لثامه ، فإذا هو والله شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ؟ فقلت : أنت أبو الفتح ؟ فقال : لا :

أنا أبو قلَمُونِ فى كلِّ لوْنٍ أكُونُ

---

(١) كناية عن صحة عينيه وتناسبهما .

اخْتَرْ من الكسب دُونًا ... فإنّ دَهْـرَكَ دُونُ
زَجِّ الزمانَ بِحُمْقٍ ... إنّ الزمان زَبونُ
لا تُخْدَعَنّ بعقـل ... ما العقلُ إلا الجنـونُ

[من شعر كشاجم]

وقال أبو الفتح كشاجم :

ما زال حرُّ الشوقِ يَغْلِبُ صَبْرَها ... حتّى تحـدّرَ دَمْعُها المتملّقُ
وجرى من الكُحْلِ السحيق بخدّها ... خطٌّ تُؤَثِّرُهُ الدموعُ السُّبَّقُ
فكأنّ مَجْرَى الدمع حِلْيَةُ فِضّةٍ ... في بعضه ذَهَبٌ وبعضٌ مُحْرَقُ

وقال :

ما لذّةٌ أكلُ في طيبها ... من قُبلةٍ في إثرها عَضّهْ
كأنما تأثيرها لَمْعَةٌ ... من ذَهبٍ أجرِيَ في فضّـهْ
خَلَسْتُها بالكُرْهِ من شادنٍ ... يَعْشَق بَعضِي بالمُنَى بَعْضَهْ[1]

وقال :

ومستهجنٍ مَدْحِي له إن تأكّدَتْ ... له عقدُ الإخلاصِ ، والحرُّ يُمْدَحُ
ويأبَى الذي في القلب إلّا تبيّناً ... وكلّ إناء بالذى فيـه يَرْشَحُ

وقال :

وإذا افتخرتَ بأعظُمٍ مقبورة ... فالنـاس بين مكذّب ومُصَدِّقِ
فأقِمْ لنفسك في انتسابك شاهداً ... بحديثِ مَجْدٍ للقـديم محقّقِ

وقال :

يا مُسْدِيَ العُرْفِ إسراراً وإعلانا ... ومُتْبِعَ البرِّ والإحسانِ إحسانا
أقْلِـعْ سحابَك قد غَرّقْتَنِي نِعَمًا ... ما أدْمَنَ الغيثُ إلّا كانَ طُوفانا

---

(١) في ا ، م : يعشق منه بعضه بعضه .

هذا مولد من قول أبي نواس :

لا تُسدِيَنّ إليّ عارفةً ... حتى أقوم بشُكرِ ما سَلفا

البحتري[١] :

ألحّ جُوداً ولم تَضْرُرْ سحائبهُ ... وربما ضَرّ في إلحاحه المطرُ

مواهبُ ما تجشّمنا السؤالَ لها ... إن الغمام قَليبٌ ليس يحتفَر

وقد أخذ على ذي الرمة قوله[٢] :

ألا يا اسلمى يا دارَميّ على البِلَى ... ولا زال مُنْهَلاً بجرْعائك القَطْرُ

قالوا : وأحسن منه قول طرفة[٣] :

فسقى ديارك غَيْرَ مفسدِها ... صوبُ الربيع وديمةٌ تَهْمِي

وقد تحرز ذو الرمة مما تؤول عليه[٤] بالسلامة في أول البيت .

* * *

وقال كشاجم :

أيا نَشْوان من خمرٍ بفيهِ ... متى تَصْحُو وريقُك خَنْدَرِيسُ[٥]

أرى بك ما أراه بِذي انتشاء ... ألحّ عليــه بالكاس الجليسُ

تورُّد وَجْنَةٍ وفتورُ لَحْظٍ ... تُمرّضه وأعطافٌ تميسُ

وقال :

وما زالَ يَبْرِي جلةَ الجسم حُبُّها ... وينقصه حتى نَقَصْتِ عن النقص[٦]

وقد ذُبْتُ حتى صرت إنْ أنا زرتُها ... أمِنتُ عليها أن يَرَى أهلُها شَخْصِي

---

(١) ديوانه : ٢ — ٤٣ . (٢) ديوانه : ٣٤ . (٣) الصناعتين : ٤٠٨ ، ديوانه : ٦٢ .
(٤) في ط : مما يؤول بدعائه لها . (٥) الخندريس : الخمر .
(٦) في ا : وينقصها حتى لطفت عن النقص .

[الرجوع إلى الرئيس بعد تجربة غيره]

كتب ابن مكرم إلى بعض الرؤساء : نَبَتْ بى غِرَّةُ الحداثة ، فردَّتنى إليك التجربة ، وقادَتْنِى الضرورة ، ثِقَةً بإسراعك إلىّ وإن أبطأْتُ عنك ، وقبولك العذرَ وإن قصرتُ عن واجبك، وإن كانت ذنوبى سدَّتْ علىّ مسالكَ الصفح عنى ، فراجِعْ فىّ مجدك وسؤددك ، وإنى لا أعرف موقفاً أذل من موقفى ، لولا أنّ المخاطبة فيه لك ، ولا خُطَّةً أدْنى من خُطَّتى ، لولا أنها فى طلب رِضاك .

وهذا المعنى الذى ذهب إليه من الرجوع إلى الرئيس بعد تجربة غيره قد أكثر الناسُ منه قديماً وحديثاً ؛ وسأفيض فى طرفٍ ذلك :

وأنشد أبو عبيدة لزياد بن مُنْقِذ[1] الحنظلى، وهو [أخو المرار العَدَوى، نسب إلى أمه العدوية ، وهى فُكَيْهة بنت تميم بن الدَّوْل بن جَبَلَة بن عدى بن][2] عبد مناة ابن أد[3] بن طابخة . فولدت لمالك بن حَنْظلة عدياً ويربوعاً، فهؤلاء من ولده يقال لهم [بنو][2] العَدَوِيَّة، وكان زيادٌ نزل بصَنْعَاء فاجتواها ومنزله بنجد، فقال فى ذلك قصيدة يقول فيها — وذكر قومه :

مخدَّمون ثِقَالٌ فى مجالسهم وفى الرحال إذا صاحبتهم خَدَمُ
لم ألْقَ بعدهمُ حيًّا فأخبرَهم إلّا يزيدهمُ حبًّا إلىّ هُمُ

من النقد [وأراه أول مَنْ استثار هذا المعنى . وكان ابن أبى عَرَادة[4] السعدى مع سَلْم بن زياد بخراسان ، وكان له مكرِما فتركه وصحب غيره فلم يحمَد أمره ، فرجع إليه فقال :

عتبتُ على سلم فلما فقدتُه وجرَّبْتُ أقواما بكيتُ على سَلْمِ
رجعتُ إليه بعد تجريبِ غيره فكان كَبُرْءٍ بعد طولٍ من السقْمِ][2]

وقال مسلم بن الوليد :

حياتك يابْنَ سعدان بن يَحْيَى حيــاةٌ للمكارم والمعالى

(١) الشعراء : ٦٧٨ ، الحماسة : ٣ — ٣٢٤، اللآلى : ٧٠ ، وانظر هناك الخلاف فى نسبتهما . (٢) من م ، ا . (٣) فى م : ود . (٤) فى ا : عرارة .

جلبت لك الثناءَ فجاء عَفْواً   ونَفْسُ الشكرِ مطلقةُ العِقَالِ
وترجمنى إليكَ وإن نَأتْ بى   ديارى عنكَ ـ تجربةُ الرجالِ

وأنشد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد للبحترى :

أخٌ لك عاداه الزمانُ فأصبحت   مذممة فيما لديه المطالبُ
متى ما تذوّقه التجاربُ صاحباً   من الناسِ تَرْدُدْهُ إليكَ التجاربُ

وأنشد :

حياةُ أبى العباس زَيْنٌ لقومِهِ   لِكلّ امرئ قاسَى الأمور وجَرّبا
ونعتِبُ أحيانا عليه ولو مَضَى   لَكُنَّا على الباقِى من الناس أعْتَبا

قال الصولى : جرى ذِكْرُ المكتفى بحضرة الراضى فأطريته وأكثرتُ الثناءَ عليه ، فقال لى : يا صولى ؛ كنتَ أنشدتنى لجرير :

أسلّيك عن زيد لتسلى وقد أرى(١)   بعينيك من زَيْد قذًى ليس يَبْرَحُ

فقلت : ياأميرالمؤمنين؛ من شكر القليل كان للكثير أشد شكرا ، وأعظم ذكرا.
قال : فأين أنا لك من المكتفى ؟ فأنشدته للطائى(٢) :

كم من وِسَاعِ(٣) الجودِ عندى والنَّدَى   لَمّا جرى وجريت كان قَطوفا(٤)
أحسنتُما صَفَدِى(٥) ولكن كنتَ لى   مثلَ الربيع حَيًا وكان خريفا
وكِلَاكُما اقْتَعَدَ العُلَا فركبتَها   فى الذروة العليا وجاءَ رَدِيفا
إن غاض ماء المزنِ فِضْتَ وإن قَسَتْ   كَبِدُ الزمانِ علىّ كُنْتَ رَءوفا

وكان المكتفى أول من نادمه الصولى ، واختلط به .

ولم يلِ الخلافة أحد اسمه علىّ إلا علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، وعلىّ بن المعتضد المكتفى بالله ، وكان(٦) سبب اتصاله به وانقطاعه إليه أنّ رجلا

---

(١) فى ط : لتسلو وقد جرى .   (٢) ديوانه : ٢٠٧ .   (٣) الوساع : المتسع .
(٤) فى ط : لاجرت جدوى وكان عطوفا . والقطوف : الدابة ضاق مشيها .
(٥) الصفد : العطاء .   (٦) الوفيات : ٣ ـ ٣٣١ .

يعرف بمحمد بن أحمد الماوردى نزع إلى المكتفى بالرّقة، وكان ألعبَ الناس بالشطرنج، فلما قدم عليه ببغداد وهو خليفة قال : يا أمير المؤمنين ، أنا أعلم الناس بهذه الصناعة، فأقطعنى ما كان للرازى الشطرنجى ؟ فغاظ ذلك المكتفى ، وندب له الصولى فلم يُرَ معه الماوردى شيئاً[1] . فقال له المكتفى : صار ماء وردك بَوْلا ، قال الصولى : فأقبل المكتفى علىّ ورتّبنى فى الجلساء ، فحجبت يوما عنه ، واتصل بى أن خصمى شمّت بى، فكتبت قصيدة للمكتفى أقول فيها :

قد ساءظنُّ الناس بى وتنكّروا   لمّا رأوْنى دون غيرىَ أُحْجَبُ
إنْ كان غالِبِيه يُقرّبُ أمرهُ   دونى فإنى عن قريب أُغْلَبُ

فضحك وأمر لى بمائتى دينار ، واندرجتُ فى خدمته .

[فى بيعة يزيد]

اجتمعت وفودُ العرب عند معاوية رحمه الله تعالى ، وكان إذا أراد أن يفعل شيئا ألقى منه ذرءا[2] إلى الناس ، فإذا امتنعوا كفّ ، وإن رضوا أمضى ، فعرض ببيعة يزيد ، فقامت خطباء معدّ فشقّقوا الكلام ، وأطنبوا فى الخطاب ، فوثب شاب من غسّان قابضاً على قائم سيفه ، فقال : يا أمير المؤمنين؛ إنّ الحَيْفَ فى حكم السيف[3]، وبعد النسيم الهَيْف[4] ؛ فإنّ هؤلاء عجزوا عن الصيّال[5] ، فعوّلوا على المقال ، ونحن القائلون إذا صُلْنا ، والمجيبون إذا قلنا ، فمن مال عن القَصْدِ أقمناه ، ومن قال بغير الحق وَقَمْناه[6] ، فلينظر ناظرٌ إلى موطىء قدَمه ، قبل أن تَدْحَض[7] فيَهوِى هوِىّ الحجر من رأس النِّيق[8] ؛ فتفرّق الناس عن قوله ، ونسوا ما كانوا فيه من الخطب .

(١) فى م : فدل على الصولى فأحضره ولاعب الماوردى فغلبه الصولى .

(٢) ذرء من خبر : شىء منه ، وفى ط : طرفا . (٣) فى ط : إن الحكم للسيف .

(٤) فى ط : الحيف . والهيف : ريح حارة تجفف كل شىء .

(٥) صال على قرنه صيالا : سطا واستطال . (٦) وقمه : قهره وأذله ، أو رده أقبح الرد ، وفى ط : قومناه . (٧) دحضت رجله : زلقت .

(٨) النيق : أرفع موضع فى الجبل .

[الإقدام فى الحروب]

وقال المهلب يوما لجلسائه : أراكم تعنفوننى فى الإقدام ، قالوا له : إى والله ، إنك لتغرّر بنفسك فى المهالك ، قال : إليكم عنى ! فوالله لولا أن آتى الموت مسترسلا لأتانى مستعجلا ؟ إنى لستُ آتى الموتَ من حُبّه ، إنما آتيه من بُغْضه ، ثم تمثّل بقول الحصَين بن الحمام المرى :

[تأخرت أستبق الحياةَ فلم أجدْ لنفسى حياة مثـلَ أن أتقدما

ومن هذا أخذ أبو الطيب المتنبى قوله](١) :

أرى كلّنا يَهْوَى الحياةَ لنفسه حريصاً عليها مستهاماً بها صبَّا
فحبُّ الجبان النفس أورده التُّقَى وحبُّ الشجاع النفس أورده الحَرْبَا

وقال أبو دُلَف :

الحربُ تَضْحَكُ عن كرّى وإقدامى والخيلُ تعرفُ آثارى وأيّامى
سَيْفِى مُدَامِى ورَيْحانِى مثقفى وهمّتى مِقَةُ التفصيل للهام
وقد تجرّد لى بالحسن منفردا(٢) أمضَى وأشجَع منى يوم إقدامى
سلّت لواحظُه(٣) سيفَ السقام على جسمى فأصبح جسمى رَبْعَ أسقام

[أبو دلف]

وكان أبو دُلف شاعراً مجيدا، وجوادا كريما ، جامعا لآلات الأدبِ والظرف، وله شعره وأدبه شعرٌ جيد فى كل فن ، وهو القائل :

أحبك يا جَنَان فأنتِ منى محلّ الروحِ من جَسدِ الجَبَانِ
ولو أنى أقول: مكان(٤) روحى لخِفْتُ عليكِ بادرَةَ الزمانِ

(١) من م ، ا . (٢) فى م : ذو بدع . (٣) فى ا : صوارمه .
(٤) فى م ، ا : مكان .

لإقدامى إذ ما الخيلُ جالَتْ   وهاب كُماتُها حَرَّ الطِّعَان

عشقه لجارية ببغداد وكان يتعشّق جارية ببغداد فإذا شخَصَ إلى الحضرة زارها ، فركب فى بعض قَدَماته إليها ، فلما صار بالجسر مشَى على طرف طيلسان بعض المارِّين ، فخرقه ، فأخذ بعِنانه ، وقال : يا أبا دلف ؛ ليست هذه كرخك[1] ، هذه مدينة السلام ؛ الذئب والشاة بها فى مَرْتَع واحد ! فثنى عنانه متوجّهاً إلى الكرخ[2] ، وكتب إلى الجارية :

قطَعَتْ عن لقائك الأشغال   وهمومٌ أَتَتْ[3] علىَّ ثِقَالُ

فى بلادٍ يُهَانُ فيها عزيزُ الـ   ـقوم حتى تنالَه الأنذالُ

حيث لا مدفعٌ بسيفٍ عن الضيـ   ـم ولا للكُماةِ[4] فيها مجالُ

ومقام العزيز فى بَلَد الهو   ن إذا أمكن الرحيلُ مُحالُ

فعليك السلام يا ظَبْيَةَ الكَرْ   خ أقمتم وحان مِنَّا ارتحالُ

أبو دلف يصف ابن طاهر ودخل أبو دلف على المأمون بعد الرضا عنه فسأله عن عبد الله بن طاهر فقال : عبد الله خلَّفتُه يا أميرَ المؤمنين أمين غَيْب ، نصيح جَيْب ، أسداً عاتياً ، قاطعاً على بَرَاثِنه ، يسعد به وليُّك ، ويَشْقَى به عدوُّك ، رَحْبَ الفِناء[5] لأهل طاعتك ، ذا بأس شديد لمن زاغ عن قَصْدِ محجَّتِك ، قد فقّهه الحَزْم ، وأيقظه العَزْم ، فقام فى نحر الأمور على ساق التشمير ، يُبْرِمها بأيْدِه وكَيْدِه ، ويفلّها بحدّه وجدّه ؛ وما أشبِّهُه فى الحرب إلا بقول العباس بن مِرْدَاس :

أَكُرُّ على الكتيبة لا أُبالى   أَحَتْفِى كان فيها أمْ سِوَاها

[فقال قائل : ما أفصحه على جبليّته ! فقال المأمون : وإن بالجبل قوما أمجادا ، كراماً أنجاداً ، وإنهم ليوفون السيف حقّه يوم النزال ، والكلام حقّه يوم المقال ، وإن أبا دلف منهم][6] .

---

(١) فى م ، ا : ليس هذا كرخك . (٢) فى م ، ا : الكرج . (٣) فى م : تترى .
(٤) فى م : للجياد . (٥) فى م : رحيب . (٦) ما بين القوسين ساقط من ا .

[من رسائل الميكالى]

من كتاب تعزية

فصل لأبى الفضل الميكالى من كتاب تعزية عن[1] أبى العباس بن الإمام أبى الطيب :

لئن كانت الرزيّة بمصيبةٍ مؤلمة ، وطرقُ العزاء والسّلوة مبهمة ، لقد حلّت بساحةِ من لا تُنْتقَصُ بأمثالها مرَائِرُه ، ولا تَضْعفُ عن احتمالها بصائرُه ، بل يتلقّاها بِصَدْرٍ فسيح يحْمِى أن يفتح الحزنُ بابه ، وصبرٍ مشيح يحمى أن يَحْبِطَ الجزعُ أجره وثوابَه ، ولِمَ لا وآدابُ الدينِ من عنده تلتمس ، وأحكامُ الشرع من بَنَانِه ولسانه تُستفاد وتُقتَبَس ، والعيونُ تَرْمُقُه فى هذه الحال لتجرىَ على سَنَنه ، وتأخذَ بآدابه وسُننه ؛ فإن تعزّت القلوب فبحُسْنِ تماسكه عزاؤها ، وإن حسُنَت الأفعال فإلى حميدِ أفعاله ومذاهبه اعتزاؤها .

ولمن تعزية أخرى

وله من تعزية إلى أبى عمرو البحترى : قدّس الله رُوحَه ، وسقى ضريحه ؛ فلقد عاش نبيه الذّكْر ، جليلَ القدْرِ ، عَبِقَ الثناء والنّشْر ، يتجمّل به أهلُ بلده ، ويتباهى بمكانه ذوو مودّته ، ويفتخر الأثَرُ وحاملوه بتراخى بقائه ومُدّتِه ؛ حتى إذا تسنّم ذِرْوةَ الفضائل والمناقب ، وظهرت محاسنُه كالنجوم الثواقب ، اختطفته يدُ المِقْدَار ، ومُحِىَ أثره بين الآثار ، فالفضلُ خاشعُ الطّرْفِ لفقْدِه ، والكَرَمُ خالى الرّبْع من بعده ، والحديثُ يندبُ حافِظَه ودَارِسَه ، وحُسْنُ العهد يبكى كافلَه وحارسه .

وله أيضا

وله : فأما الشكرُ الذى أعارنى رداءَه ، وقلّدنى طوْقَه وسناءَه ؛ فهيهات أن ينتسب[2] إلى عادات فَضْله وإفضاله ، ولا يسيرُ إلّا تحت رايات عُرْفه ونَوَاله ، وهو ثوب لا يحلّ إلا بذكره طِرَازه ، واسمٌ له حقيقته ولسواه مجازُه ، ولو أنه حين ملك رِقّ بأياديه ، وأعجز وُسْعِى عن حقوق مكارِمه ومساعيه ، خلّى لى مذهب الشكر ومَيْدَانه ، ولم يجاذبنى زِمامَه وعِنَانه ، لتعلّقْت عن بلوغ بعض الواجب بعُرْوَة

(١) ق ا : إلى .   (٢) ق م ، ا : أن ليس ينسب .

طَمَع، ونهضت فيه ولو على وَهن وظَلَع، ولكنه يَأبى إلا أن يستولى على أمدِ الفضائل، ويتسنم ذُرَا النوارب منها والكواهل ؛ فلا يَدَعُ فى المجد غايةً إلّا يسبق إليها فارطا ، ويُخلِفُ من سوَاهُ عنها حسيرا ساقطا؛ لتكون المعالى بأسْرِها مجموعة فى مِلْكِه منظومةً فى سِلْكِه ، خالصةً له من دعوى القسيم وشِرْكِه .

وله فصل من كتاب إلى أبى سعيد بن خلف الهمدانى : فأما التُّحْفَةُ التى شفعها بكتابه فقد وصلَتْ ، فكانت ضَرة لزَهْرِ الربيع ، موفية بحُسْنِ الخطّ على الوَشْىِ الصنيع ، وليس يَهتَدِى لمثل هذه اللطائف فى مَبَرَّة الإخوان ، إلّا من يُعَدُّ من أفراد الأقران ، ولا يَرْضَى من نفسه فى إقامة شعائر البِرّ[1] دون القران ، والله يتمّمه بمـا منحَهُ من خصائص هى فى آذان الزمان شُنُوف ، وفى جِيدِه عقد مرصوف .

[عتاب]

وقال أبو يعقوب الخُرَيمى يعاتب الوليد بن أبان[2] :

أتَعجَبُ منى إن صبرتُ على الأذى   وكنتُ امرَأً ذا إرْبةٍ متجمّلَا

فإنّى بحمد الله لا رَأْىَ عاجزٍ   رأيت ولا أخطأْتُ للحقّ منصلا

ولكن تدبَّرْتُ الأمورَ فلم أجِدْ   سوى الحلم والإغضاء خيراً وأفضلَا

وأقسم لولا سالِفُ الودِّ بيننا   وعهدٌ أبَتْ أركانُه أن تَزَيَّلَا

وأيامُك الغرُّ اللواتى تقدّمَتْ   وأوليتنيها مُنْعِماً مُتَطَوِّلا

رحلتُ قَلوصَ الهَجْرِ ثم اقتعدتُها   إلى البعد ما ألفيت فى الأرض مَحْمَلا

وأكْرَمْتُ نفسى والكرامةُ حظُّها   ولم ترَنى لولا الهوَى متذلّلا

وعارضت أطراف الصِّبَا أبْتَغِى أخاً   يُعِينُ إذا ما الهمُّ بالمرء أعضَلَا

---

(١) و ط : بالإفراد دون القران .   (٢) المعاهد : ١ — ٢٥٢ .

أخاً كأبى عمرو وأنَّى بمثلهِ ... إذا الحرُّ بالمجدِ ارتدَى وتَسَرْبَلَا
جزى الله عثمان الخريمىَّ خيرَ ما ... جزى صاحباً جَزْلَ المواهبِ مُفْضِلا
أخاً كان إن أقبلتُ بالودِّ زادنى ... صفاءً وإن أدبرتُ حَنَّ وأقبلا
أخاً لم يخنى فى الحياة ولم أبِتْ ... يخوِّفنى الأعداءُ منه التنقُّلا
إذا حاولوهُ بالسعاية حاولوا ... به هَضْبةً تأبَى بأنْ تتخَلْخَلا
يحكِّمنى فى ماله ولسانِهِ ... ويركبُ دونى الزاعبىَّ[1] المؤلَّلا
كفى جفوةَ الإخوانِ طولَ حياتِهِ ... وأورث مما كان أعطى وأجزلا
وبات حميداً لم يكدِّر صنيعَهُ ... ولم أقْلِهِ طولَ الحياة وما قَلا
وكنتَ أخاً لو دام عهدُك واصلًا ... نَصوراً إذا ما الشرُّ خَبَّ وهَرْوَلَا
فغيَّرك الواشون حتى كأنَّما ... تَرانِى شُجَاعاً بين عينيك مُقْبِلا[2]

[أبو يعقوب الخريمى]

وأبو يعقوب هذا إسحاق بن حسان . قال المبرد : كان أبو يعقوب جيل الشعر ، مقبولا عند الكتّاب ، وله كلامٌ قوى ، ومَذْهَبٌ متوسط ، وكان يرجعُ إلى نسبٍ كريم فى الصغد ، وكان له وَلَاء فى غطفان ، وكان اتصالُه بمولاه أبى عثمان بن خريم المرى الذى يقال له خُرَيم الناعم ، وكان أبو عثمان هذا قائدا جليلا ، وسيدا كريما . وسُئل [خُرَيم][3] عن لذّة الدنيا فقال : الأَمْنُ ؛ فإنه لا عيشَ لخائف ، والعافيةُ ، فإنه لا عيشَ لسقيم ، والغِنَى ؛ فإنه لا عيشَ لفقير . وقيل له : ما بلغ من نعمتك ؟ قال : لم ألبس جديداً فى صيف ، ولا خَلَقا فى شتاء . وفى نسبه فى الصُّغْد يقول[4] :

أبا لصغد باس أن تعيرنى[5] جمل ... سفاها ومن أخلاق جارتنا البخلُ

(١) أصل الزاعبى من الرماح : الذى إذا هز تدافع كله كأن آخره يجرى فى مقدمه .
(٢) الشجاع هنا : الثعبان . (٣) من م ، ا . (٤) الشعراء : ٨٣٣ .
(٥) ى ا : تعيرنى .

وما ضرَّني أنْ لم تَلِدْني يُحابِر(١) ... ولم تَشْتَمِلْ جَرْمٌ عَلَيَّ ولا عُكْلُ

يقول فيها :

[ودون الندى في كل قلب ثنية ... لها مَصْعَدٌ حَزْنٌ ومنحدَرٌ سهلُ](٢)

ووَدَّ الفَتَى في كل نَيْلٍ يُنيلهُ ... إذا ما انقضى لو أن نائلَه جَزْلُ

وأعلم علمـا ليس بالظن أنه ... لكل أناس من ضرائبهم شَكْلُ

وأن أخِلَّاء الزمانِ غَناؤهم ... قليلٌ إذا ما المرء زَلَّتْ به النعْلُ

تَزَوَّدْ من الدنيا متاعاً لغيرها ... فقدشَمَّرَتْ حَذَّاء(٣) وانصرمِ الحَبْلُ

وهل أنت إلا هامةُ اليوم أو غدٍ ... لأمِّك من إحدى طوارقها الثُّكْلُ

وقال يتشوق الحسن بن التَّخْتاخ(٤) :

أَلَا مُبْلِغٌ عنى خليلى ودونَهُ ... مطا سَفَرٍ لا يَطْعَمُ النومَ طالِبُهْ

رسالةَ ثاوٍ بالعراق ورُوحهُ ... بفُسطاط مصرحيث جثّت(٥) نجائبُه

له كلَّ يوم حَنَّةٌ بعد رَنَّةٍ ... يجيش بها في الصدر شوق يُغالبه

إلى صاحب لا يُخْلِقُ النأيُ عَهْدَهُ ... لقاه ولا يَشْقَى به من يُصاقِبُه

تخبّره حرًّا تقيًّا ضميرُهُ ... جميلا محيّاه كريما ضرائبُه

هو الشهد سِلْماً والذُّعاف عَداوةً ... وبَحْرٌ على الورّاد تجرى غَوارِبُه

فيا حَسَنَ الحُسْنِ الذى عَمَّ فضلهُ ... وتمت أياديه وجمّتْ مناقبُه

إليك على بُعْدِ المزار تطلّعتْ(٦) ... نوازع(٧) شَوْقي ماتُرَدّ عوازِبُه

أرَى بعدك الإخوانَ أبناء عَلّةٍ ... لهم نَسَبٌ في ودّهم لا أناسبه

فهل يرجعنْ عيشى وعيشك مرّةً ... ببغداد دَهرٌ مُنْصِفٌ لا نُعاتِبُه

لَيالِيَ أرْعَى في جَنابك رَوْضَةً ... وآوِى إلى حِصْنٍ مَنِيع مراتبُه(٨)

---

(١) في ط : عابر . (٢) من م . (٣) حذاء : سريعة الإدبار ، وفي ط : حدباء .

(٤) هكذا في م : وفي ا : المختاج ، وفي ط : البحتاج . . (٥) في م : وحت .

(٦) في ط : على بعد المزار وصحبه . (٧) في م ، ا : نزائع . (٨) في ط : ترائبه .

وإذ أنت لى كالشهد بالرّاح صفّقا ... بماء رُصاف صفّقته جنائبُه

عسى ولعلّ اللهَ يجمعُ بيننا ... كما لاءمت صَدْعَ الإناء مشاعبُه

فقر وفصول فى معان شتى

قال العتابى[1] : حظّ الطالبين من الدَّرْك بحسب ما استصحبوا من الصّبْر .

بعض الحكماء : الحلم عُدّة للسفيه ، وجُنّة من كَيْدِ العدو ، وإنك لن تقابل سفيها بالإعراض عن قوله إلّا أذللتَ نفسه ، وفللْتَ حدَّه ، وسلّلْتَ عليه سيوفا من شواهد حِلْمِك عنه ، فتولّوا لك الانتقامَ منه .

وقال آخر : العجلة مكسبة للمذمّة ، مجلبة للندامة ، منفّرة لأهل الثقة ، مانعة من سدادِ الرغبة .

وأتى العتابىَّ وهو بالرّى رجلٌ يودّعه ، فقال : أين تريد ؟ قال : بغداد . قال : إنك تريد بلداً اصطلح أهلُه على صحّة العلانية ، وسقْم السريرة ، كلُّهم يعطيك كله، ويمنعك قُلّه .

وقال يحيى بن خالد لرجل دخل عليه : ما كان خَبَرُك مع فلان؟ قال : قد افتديت مكاشفته، واشتريت مكاشرته بألف درهم، فقال يحيى : لا تبرح حتى يكتبَ الفضلُ وجعفر عنك هذا القول .

قال الأصمعى : سمعتُ أعرابيا يدعو ، ويقول : اللهم ارزقنى عملَ الخائفين ، وخَوْفَ العاملين ، حتى أتنعم بترْكِ التنعم ، رجاء لما وعدت ، وخوفاً مما أوعدت .

وللعتابى : أما بعد فإنه ليس يستخلص غَضَارَةَ عيش إلا من خلال مكروهه ، ومن انتظر بعاجلة الدرك مؤاجلة الاستقصاء سلبته الأيام فرصته .

كتب بعض الكتاب إلى أخ له : إن رأيت أنْ تحدّدَ لى ميعاداً لزيارتك ،

(١) و ١ : العباس .

أتقوّته إلى وقت رؤيتك ، ويؤنسني إلى حين لقائك ، فعلت إن شاء الله .

فأجابه : أخاف أن أعِدَك وَعداً يعترضُ دون الوفاء به ما لا أقدر على دَفْعِه، فتكون الحسرةُ أعظمَ من الفُرْقَة .

فأجاب المبتـدئ : أنا أُسَرّ بوعدك ، وأكون جذلا بانتظارك ، فإن عاق عن الإنجاز عائق ، كنتُ قد ربحتُ السرور بالتوقُّع لما أحبّه ، وأصبتُ أجرى على الحسرة بما حرمته .

وكتب أخٌ إلى أخ له يستدعيه : أما بعد فإنه من عاق الظّمأ بفُرْقتك استوجب الريّ من رؤيتك ، والسلام .

وكتب آخر في بابه : يومُنا يومٌ طاب أوّله ، وحَسُنَ مستقبله ، وأتت السماء بقطارها ، فحلّت الأرضَ بأنوارِها ، وبك تطيب الشَّمول ، ويُشتَق الغليل ، فإن تأخّرت عنا فرّقت شَمْلَنا ، وإن تعجلت إلينا نظمت أمرنا .

قال إسحاق الموصلي : قال لي ثُمامَة بن أشْرَس ، وقد أُصِبت بمصيبة : لمصيبةٌ في غيرك لكَ ثوابُها ، خير من مصيبة فيكَ لغيرك أجرُها .

ومرّ عُمَر[1] بن ذَر بابن عَيّاش المَنْتُوف وكان سَفِه عليه فأعرض عنه ، وتعلّق بثوبه ، وقال : يا هناه ؛ إنا لم نجد لك جزاء إذ عصيت اللهَ فينا ، خيراً من أن نُطيعه فيك . أخذه من قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنـه : ما عاقبتَ من عصى اللهَ فيك بمثل أن تُطيع الله فيه .

وكتب بعضُ الكتاب إلى رئيسه : ما رجائي عدلك بزائد على تأميلي فَضْلَك ، كما أنه ليس خوف سيئاتك ، بأكثر من خَشْيَتي نكالَك ؛ لأنك لا تَرْضَى للمحسن بصغيرِ المَثُوبَة ، كما لا تقنعُ للمسيء إلّا بموجع العقوبة .

---

(١) في ط : عمرو ، وهذا من ا ، م .

وقال آخر : ما عسيت أن أشكرك عليه من مواعد لم تُشَبْ بمَطْلٍ ، ومرافِدَ لم تشن بمنّ ، وعهد لم يمازجه مَلَق ، وودّ لم يشُبه مذق .

وقال آخر : علقت به أسباب الجلالة غير مستشعر فيها بنَخْوة ، وترامت له أحوالُ الصرامة غير مستعمل معها السطوة ، هـذا مع دماثة فى غير حَصَر ، ولينِ جانب من غير خَوَر .

فصل لابن الرومى : إنى لَوَلِيُّك الذى لم تزل تنقادُ له مودتُه من غير طمع ولا جَزَع ، وإن كنتَ لذى رغبة مَطْمَعاً ، ولذى رَهْبة مهربا .

أبو فِرَاس الحَمْدَانى :

كذاك الوِدَادُ المَحْضُ لا يُرتجى لهُ ثوابٌ ولا يُخْشَى عليـه عقابُ

[بين حنيفة وتميم]

غزَتْ حنيفة[1] تميماً فانتصفوا منهم ، فقيل لرجل منهم : كيف صنعَ قومُك ؟ قال: اتبعوهم وقد أحقبوا[2] كل جُمَالية خيفانة[3] ، فما زالوا يَخْصِفُون[4] [أخفاف][5] المطىّ بحوافر الخيل ، حتى لحقوهم ؛ فجعلوا المُرَّان[6] أرْشِيَةَ الموتِ ، فاستقوا بها أرْوَاحَهم .

[دعـاء]

ودعا أعرابى فقال : اللهم إن كان رزق نائياً فقرّبه ، أو قريباً فيسّره ، أو ميسّراً فعجله ، أو قليلا فكثّره ، أو كثيراً فثمّره .

---

(١) فى ا : بنو حنيفة . (٢) أحقبت البعير : شددت الحقب عليه ، وهو حبل يشد به الرحل فى بطن البعير . (٣) ناقة جمالية : وثيقة تشبه الجمل فى خلقتها وشدتها وعظمها ، والخيفانة : السريعة . (٤) فى ا : يخصفون آثار المطى . (٥) من لسان العرب .
(٦) رمح مارن : صلب لدن .

[من الرسائل]

كتاب عنبسة إلى المأمون

وكتب عَنْبَسَة بن إسحاق إلى المأمون وهو عامله على الرَّقَّة ، يصف خروجَ الأعراب بناحية سِنْجار[١] وعَيْثَهم بها : يا أميرَ المؤمنين ، قد قطع سُبُلَ[٢] المجتازين من المسلمين والمعاهدين نَفَرٌ من شُذَّاذ الأعراب الذين لا يرقبون في مؤمنٍ إلّا ولا ذِمّة[٣] ، ولا يخافون من الله حدًّا[٤] ولا عقوبة ، ولَوْلا ثِقَتي بسيفِ أميرِ المؤمنين وحصده هذه الطائفة ، وبلوغه في أعداء الله ما يَرْدَع[٥] قاصيَهم ودانِيَهم ، لأذنت بالاستنجاد عليهم ، ولَأَبْتَعَثْت الخيلَ إليهم ، وأميرُ المؤمنين مُعَانٌ في أموره بالتأييد والنصر إن شاء الله .

فكتب إليه المأمون :

أَسْمَعْتَ غَيْرَ كَهَامٍ[٦] السمعِ والبصرِ لا يَقْطَعُ السيفُ إلا في يَدِ الحَذِرِ[٧]

سيصبح القومُ من سيفي وضاربِهِ مثلَ الهشيم ذَرَتْهُ الريحُ بالمَطَرِ

فوجّه عَنْبَسَة بالبيعين إلى الأعراب ، فما بَقِي منهم اثنان .

كتاب المطلب إلى الحسن ابن سهل

وكتب المطلب بنُ عبد الله بن مالك إلى الحسن بن سهل في رجل توسّل به : طَلَبُ العافين الوسائلَ إلى الأمير — أعزّه الله — يُنْبِىء عن شروع مواردِ إحسانه ، ويَدْعُو إلى معرفة فَضْله ، وما أنصفَه — أعزّه الله تعالى — مَن توسّل إلى معروفه بغيره ؟ فرَأْيُ الأمير — أعزّه الله — في التطوّل على من قَصُرَتْ معرفتُه عن ذلك بما يريد الله تعالى فيه موفّقًا إن شاء الله تعالى .

فكتب إليه الحسن : وصلك الله بما وصلتني في صاحبك من الأَجْرِ والشكر ، وأراك الإحسانَ في قَصْدِك إليّ بأمثاله فرضا يُفيدك شُكْرُه ، ويعقبك أجره ، فرأيك في إتمام ما ابتدأتَ به وإعلاء ذلك مشكوراً .

(١) في ا ، م : سيحان . (٢) في ا ، م : سبيل . (٣) الإل : العهد .
(٤) في م : أحدا . (٥) في م ، ا : ما يزع . (٦) كهام : كليل عيي بطيء .
(٧) في م ، ا : الغدر .

وكان المطلب ممدَّحاً كريماً وقد حسد دعبل شرَفه وإنعامه ، وغبط إحسانه وإكرامه ، إذ يقول : من النقد

اضرب ندَى طلحة الطلحات مُعْتَرِفاً   بلُؤْمِ مطَّلب فينا وكُنْ حكما
تَخَلُّصْ خزاعةُ من لُؤْمٍ ومن كرمٍ   فلا تعدّ لهـا لؤماً ولا كرما

وأمْرُ طلحة أعرَف من أن يُوصف .

وما أبعد قول دِعْبل من قول البحترى لصاعد بن مخلد وأهل بيته(١) :

بنى مُخْلدٍ كفوا تدفقُ جودكم(٢)   ولا تبخسونا حظَّنا فى المكارمِ
ولا تَنْصُرُوا مَجْدَى قنان ومخلد(٣)   بأنْ تذهبوا عنا بِسُمْعَة حاتم
وكان لنا اسمُ الجود حتى جعلتمُ   تفُضُّون منا بالخلالِ الكرائم

[رثاء يزيد بن مزيد]

قال الزبير بن بكار : لما مات يزيدُ بن مَزيد بأرمينية قام حبيب بن الرَّاء خطيباً : فقال : أيها النــاس ، لا تَقْنَطوا من مثله وإن كان قليلَ النظير ، وهَبُوه من صالح دعائكم مثل الذى أخلَص فيكم من نواله ، والله ما تفعل الدِّيمة المَطْلَة فى البُقْعة الجَدْبة ما علت فينا يَدَاه من عدله ونَداه .

* * *

من النقد

فسرق هذا أبو لُبانة [الشاعر](٤) فقال :

ما بقعةٌ جادَها غيْثٌ وقرَّ بها   فأزهرت بأقاحى النَّبْتِ ألوانا
أبهى وأحسنَ مما آثَرَتْ يدهُ   فى الشرق والغربِ معروفاً وإحسانا

---

(١) ديوانه : ٢ — ٩٩ .   (٢) فى ط : جودكم .
(٣) فى الديوان : قنان وخالد .   (٤) من م ، ا .

[وقال ابن المبارك[1] يمدح يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة :

وإذا تُباع كريمةٌ أو تُشترَى ... فسواك بائعُها وأنت المشترى
وإذا توعَّرت المسالكُ لم يكن ... فيها السبيلُ إلى نداك بأوْعرِ
وإذا صنعت صنيعةً أتممتَها ... بيدَيْن ليس نداهُما بمكدَّرِ
وإذا همَمت لمُعتَفيك بنائلٍ ... قال الندى ـ فأطعتَه ـ لك : أكْثِرِ
يا واحدَ العرب الذى ما إنْ لهم ... من معدَلٍ[2] عنه ولا من مقصَرِ]

[من رسائل البديع]

كتب البديع أبو عبد الله[3] أحمد بن الحسين بن يحيى؛ أما أبو فلان فلا شكَّ أنَّ كتابى يَرِدُ منه على صَدْرٍ مَحَا اسْمِى من صحيفته ، وقطع حَظِّى من وظيفته ، ونَسِى اجتماعنا على الحديث والغزل ، وتصرفنا فى الجدّ والهَزْل ، وتقلّبنا فى أعطاف العيش بين الوقار والطَّيْش ، وارتضاعنا ثَدْىَ المشرة ؛ إذ الزمان رقيقُ القشرة وتواعدنا أن يلحق أحدُنا بصاحبه، وتصافحنا من قبل ألّا نصرم الحبل، وتعاهدنا من بعد ألّا ننقض العهد ، وكأنّى به وقد اتخذ إخوانا فلا بأس ، فإن كان للجديد لذة فللقديم حُرْمة ، والأخوّة بُرْدَة لا تضيق بين اثنين ، ولو شاء لعاشرنا فى البَيْن ، وكان سألنى أن أرتاد له منزلا ماؤه رَوِىّ ، ومرعاه غَذِى ، وأكاتبه لينهض إليه راحلته ؛ فهاك نيسابور ضالّته التى نشدتها وقد وجَدْتُها ، وخراسان أمنيته التى طلبتُها وقد أصَبْتُها ، وهذه الدولة بغيته التى أرادها وقد وردتُها ، فإن صدّقنى رائداً فليأْتنى قاصداً .

وله إلى بعض إخوانه يعزيه عن أبيه : وصلَتْ رقعتُك يا سيدى والمصاب لعمر الله كبير ، وأنتَ بالجزَع جدير، ولكنك بالعزاء أجدر ، والصبرُ عن الأحبّة رشد كأنّه الغَىّ ، وقد مات الميت فليَحْىَ الحىّ ، والآن فاشدُدْ على مالك بالخمس ، فأنتَ اليوم

---

(١) فى ا : قال الوليد ، وليس هذا كله فى م . (٢) فى ا : من مذهب .
(٣) فى ا : إلى أبى عبد الله الحسين بن يحيى .

غيرُك بالأمس ، وكان الشيخُ رحمه الله وكيلك ، تَضْحَك[١] ويبكى لك ، وقد موّلك ما ألِفَ فى سرّاه وسِرّه[٢] ، وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره ، وسيعجُم الشيطان عودَك ، فإن استلانك رماك بقوم يقولون : خيرُ المال ما أُتلِف بين الشراب والشباب ، وأُنفق بين الحَبَاب والأحباب ، والعيشُ بين القِدَاح والأقداح ، ولولا الاستمال ، ما أُريد المال ! فإن أطعتَهم فاليومَ فى الشراب ، وغداً فى الخراب ، واليوم وَاطَرَبا للكأس ، وغداً واحَرَبا من الإفلاس ، يا مولاى ذلك الخارجُ من العود يسمّيه الجاهل نَقْراً ، ويُسمّيه العاقل فَقْرا . وكذلك المسموع فى الناى ، هو فى الآذان زَمْرٌ ، وفى الأبواب سَمْرٌ ، فإن لم يجد الشيطان مغمزاً فى عودِك من هذا الوجه ، رَماك بقوم يمثّلون الفقرَ حِذاء عينيك ، فتجاهد قَلْبَك ، وتُحاسب بَطْنَك ، وتناقش عِرْسك ، وتَمْنَع نفسَك ، وتتوقّ دنياك بوزرك[٣] ، وتراه فى الآخرة فى ميزان غَيْرك ، لا ، ولكن قَصْداً بين الطريقين ، وميلا عن الفريقين ، لا مَنْع ولا إسراف ، والبخل فَقْرٌ حاضر ، وضرٌّ عاجل ، وإنما يبخلُ المرء خيفة ما هو فيه .

ومن يُنْفِق الساعاتِ فى جَمْعِ ماله ... مخافةَ فَقْرٍ فالذى صنعَ الفَقْرُ

وليكن لله فى مالك قسم ، وللمروءة قسم ؛ فصِل الرَّحم ما استطعت ، وقدّر إذا قطعت ، فلأنْ تكون فى جانب التقدير ، خيرٌ من أن تكونَ فى جانب التبذير .

وله إلى رئيس عناية برجل[٤] : كتابى أطال الله بقاء الرئيس ، والكاتب مجهول ، والكتاب فضول ، وبحسب الرأى مَوْقعه ، فإنْ كان جيلا فهو تَطَوُّل ، وإن كان شَيْئاً فهو تقوُّل ، وأيّة سلك الظنّ فله — أيّده الله تعالى — المنّ ، من نيسابور عن سلامة شاملة نسألُ الله تعالى ألّا يُلهينا بسكرها عن شُكْرِها والحمد لله رب العالمين. وله للرئيس

(١) فى م : يضحكك . (٢) فى م : ما ألف من سراه .
(٣) فى م : وتتوخى دنياك وزرك . (٤) الرسائل : ١٤٠ .

يقول الشيخ ـ أيّده الله تعالى : مَنْ هـــذا الرجل ؟ وما هذا الـكتاب ؟ فأمّا الرجلُ فخاطِبُ وُدٍّ أولًا ، وموصل شكر ثانيا ؛ وأما الـكتابُ فلِحام أرحام الـكرام ؛ فإن يُعِن اللهُ الـكِرامَ تتّصِل الأرحام . هذا الشريفُ قد حارَبَه زمانُ السوء ؛ فأخرجه من البيت الذى بلغ السماءَ مفخَرا ، ثم طلب فوقه مَظْهَرا ؛ وله بعدُ جلالةُ النسب ، وطهارةُ الأخلاق، وكرمُ العَهْد ، وحضرنى فسألته عما وراءه، فأشار إلى ضالّةِ الأحرار ، وهو الـكرم مع اليسار ، ونبّه على قَيد الـكرام ، وهو البشْر مع الإنعام ، وحدّث عن بَرْدِ الأكباد ، وهو مساعدة الزمان للجَوَادِ ، ودلّ على نُزهة الأبصار ، وهو الثَّرَاء ، ومُتْعَة الأسماع ، وهو الثناء ، وقلّما اجتمعا ، وعَزّ ما وُجِدَا معا . وذكر أنّ الشيخَ الرئيس ـ أيده الله ـ جامعُ هذه الخيرات ، وسألنى الشهادةَ له ، وبَذْلَ الخط بها ، ففعلت ، وسألتُ الله إعانته على هِمّته ؛ فرأىُ الشيخ ـ أيده الله تعالى فى الوقوف على ما كتبت ، وفى الإجابة إن نشط ـ الموفقُ إن شاء الله .

وله إلى ابن أخيه

وله إلى ابن أخيه[1] : وصل كتابُك بما ضمّنته من تظاهُرِ نعم الله عليك ، وعلى أبويك ، فسكنت إلى ذلك من حالك ، وسألتُ اللهَ بقاءك ، وأن يرزقنى لقاءَك ، وذكرت مصابك بأخيك ، رحمه الله تعالى . فـكأنما فتتَّ عَضُدى، وطعَنْتَ فى كبدى، فقد كنت معتضداً بمكانه ، والقدرُ جارٍ لشأنه ، وكذلك المرء يدبّر ، والقضاء يدمّر ، والآمال تنقسم ، والآجال تبتسم ، فاللهُ يجعله لك فَرَطاً ، ولا يُرِينى فيك سُوءا أبداً ، وأنت إن شاء الله تعالى وارثُ عمره ، وسداد ثَغْره ، ونِعْمَ العِوَضُ بقاؤك .

إنّ الأشاءَ إذا أصاب مُشَذِّبا منه اتمهل ذُرًا وأثّ أسافِلا

وأبوك سيدى أيده الله تعالى وألهمه الجميل ، وهو الصبر ، وأناله الجزيل ، وهو الأجر ، وأمتعه بك طويلا ، فما سُؤْتَ بديلا ، وأنت ولدى ما دمت والعلمُ شانك ، والمدرسةُ مكانك ، والدفتر نَديمك ، وإن قصّرت ، ولا إخالك ، فغيرى خالُك .

---

(١) الرسائل : ١٥١ .

ومنه إلى أبى القاسم الداودى

وله من كتاب إلى أبى القاسم الداودى بسجستان :

كتابى — أطال اللهُ بقاء الفقيه — كتابُ مَنْ ينسى الأيام وتذكره ، ويطويها وتنشُره ، ويبيد أبناء دهره وراء ظهره ، ويخرج أهل زمانه ، من ضمانه ، فإذا تناولهم بيُمناه ، وتسلّمهم بيسراه أقسم أن صَفْقَتَه هى الرابحة ، وكفّته هى الراجحة ، وأنا — أيد الله الفقيه — على قُرْب العهد بالمهد ، قد قطعت عَرْضَ الأرض ، وعاشرت أجناس الناس ، فما أحدٌ إلا بالجهل اتّبعته ، وبالخبرة بِعْتُه ، وبالظن أخذته ، وباليقين نَبَذْتُه ، وما حَمِدْتُ وضعتُه فى أحد إلّا ضيّعته ، ولا مَدْحٌ صرَفْتُه إلى أحد إلّا غربته ، ومن احتاج إلى الناس ، وزنَهم بالقِسْطَاسِ ، ومن طاف نصف الشرق ، فقد لقى رُبعَ الخلق ، ومن لم يجد فى النِّصْفِ لَمْحَةً دالّة ، لم يجد فى الكل غرّةً لائحة ، وكان لنا صديقٌ يقول : إن عشت تسعين عاماً مت ولم أملك دينارا ، لأنى قد عشت ثلاثين ولم أملك ثلثها ، وهذا لعمرى يأس ، يُوجبه قياس ، وقنوط ، بالحجة مَنُوط ، ودُعَابة ستكون جَدًّا ، ووراء هـــذه الجملة مَوْجِدَةٌ على قوم ، وعَرْبَدَةٌ إلى يوم ، والأمير السيد واسعُ مجال الهمم ، ثابتُ مكان القدم ، وأنا فى كَنَفِه صائبُ سَهْمِ الأمل ، وَافِرُ جناح الجذل ، والحمد لله على ما يُوليه ، ويُولِينا مَعْشَر مواليه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وذرّيته .

ومنه إلى إبراهيم بن حمزة

وله إلى إبراهيم بن حمزة خادم الأستاذ الجليل : قد أتبع قدمَه إلى الخِدْمَة قلَمه ، وأتلى لسانَه فى الحاجة بَنَانَه ، وقد كان استأذنه فى توقير هـــذا اليوم فى مجلس السيد الجليل فأذِنَ له على عادته السليمة ، وشيمَته القويمة ، ومن وَجد كَلَأً رَتَع ، ومن صادف غيثاً انْتَجَع ، ومن احتاج للحاجات سَأَل ، وبَقِى أن يشفع الأستاذ الجليـــل بإزاء الحوض مُفْرَدُهُ ، وينظم إلى رَوْضِ الإحسان مطره ، ويطرّز أُنْسَنَا بأبى فلان ؛ فقد وُصِفَ لى حتى حنت شوقاً إليه ، ووَجْداً به ، وشَغَفاً له ، وغلُوًّا فيـــه ، ورأيُه فى الإصغاء إلى الكرم عال ، إن شاء الله تعالى .

[من المقامات]

المقامة السجستانية

ومن إنشائه فى مقامات أبى الفتح السكندرى(١) : حدثنا عيسى بن هشام قال : حدانى إلى سجستان أرَب ، فاقتعدت طِيَّته ، وامتطيتُ مَطِيَّته، واستخَرْتُ الله تعالى فى العَزْمِ حدوته(٢) أمامى ، والحزم جعلته قدامى(٣) ، حتى هدانى إليها ، ووافيت دُروبَها ، وقد وافت الشمس غُروبَها ، واتفق المبيتُ حيثُ انتهيت ؛ ولما انتُضِىَ نَصْلُ الصباح ، وبرز جَبِينُ المصباح(٤) ، مضيتُ إلى السوق أتخذ منزلا ، فحيث انتهيتُ من دائرة البلد إلى نُقْطتها ، ومن قلادةِ السوقِ إلى واسِطَتها ، خَرقَ سَمْعِى صوتٌ له من كلِّ عِرقٍ معنى ، فانتحيتُ وَفْدَه ، حتى وقفتُ عنده ؛ فإذا رجلٌ على فرسه مختنق بِنَفَسِه ، قد ولّى قَذاله وهو يقول : من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرِّفُه بنفسى ، أنا باكورةُ اليمن ، أنا أحدوثة الزمن ، أنا أُدْعِيَّـــة الرجال ، وأُحجِيَّة رباتِ الحِجَال ، سلُوا عنى الجبال وحُزونَها ، والبحار وعيونَها ، والخيلَ ومتونَها ، مَنِ الذى ملك أسوارها ، وعرف أسرارها، ونَهج سَمْتَها، وولج حَرْتَها؟ وسلوا الملوكَ وخزائنها ، والأعلاق ومعادِنَها ، والعلوم وبواطنَها(٥) ، والخطوبَ ومَغَالِقِها ، والحروبَ ومضايِقَها ، مَن الذى أخذ مخترَنَها ، ولم يؤدِّ ثمنَها؟ ومن الذى ملك مفاتِحها ، وعرف مصالحها ؟ أنا والله فعلتُ ذلك ، وسفَرتُ بين الملوك الصِّيد ، وكشفت أستارَ الخطوب السُّود . أنا والله شهدت حتى مصارِعَ العُشّاق ، ومرِضتُ حتى لِمَرضِ الأحداق ، وهصَرْتُ الغصونَ الناعمات ، وجنَيْت جنى(٦) الخدود المورَّدَات ، ونَفَرْتُ عن الدنيّات نفورَ طَبْع الكريم عن وجوه اللئام ، ونبَوْتُ عن المحرمات(٧) نبوّ سمع الشريفِ عن قبيح الكلام ، والآن لما أسفرَ صُبْحُ الشيبِ ،

---

(١) المقامات : ٢٢ (٢) فى المقامات : جعلته . (٣) فى المقامات : إمامى .
(٤) الشمس . (٥) المقامات : ومواطنها . (٦) فى المقامات : ورد .
(٧) فى المقامات : المخزيات .

وعَلّتى أُبّهة الكِبَرَ عَمدتُ لإصلاح أمْرِ المعادِ ، بإعداد الزّاد ، فلم أرَ طريقاً أهدى إلى الرشاد مما أنا سالِكُه ؛ يَرانى أحدُكم راكب فرس وهَوَس[1] ، فيقول : هـذا أبو العجَب ، لا ، ولكنى أبو العجائب ، عايَنتُها وعانَيتُها ، وأمُّ الكبائر قايَستُها وقاسَيتُها ، وأخو الأغلاق ، صَعْباً أخذتُها ، وهوناً أضعتُها ، وغالياً اشتريتُها ، ورخيصاً بِعتُها ؛ فقد والله صحِبْتُ لها المواكب ، وزاحَمْتُ المناكِبَ ، ورَعَيت الكواكبَ ، وأنضَيْتُ الركائب[2] ، ولا منّ عليكم ، فما حصلتها إلا لأمرى ، ولا أعددتها إلّا لنفسى ، لكنى دُفِعْتُ إلى مكاره نَذَرْتُ معها ألّا أدخِرَ عن المسلمين نَفْعَها ، ولا بدّ لى أن أخلع رِبقَة هذه الأمانة من عُنق إلى أعناقكم، وأعرِضَ دوائى هذا فى أسواقكم ، فليشتَرِه منى من لا يحترزُ من موقف العبيد ، ولا يأنفُ من كلمةِ التوحيد ، وليَصُنْه من أنجبتْ جدودُه، وسُقِى بالماء الطاهر عودُه .

قال عيسى بن هشام : فدُرت إلى وجهه لأعلم عِلمَه ، فإذا شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ، وانتظرت إجفالَ النعامة[3] بين يديه ، ثم تعرّضت فقلت : كم يُحِلّ دواءك هذا ؟ قال : يُحِلُّ الكيسُ ما مست الحاجةُ[4] ؛ فانصرفت وتركته .

المقامة القردية

ومن إنشائه فى هذا الباب[5] : حدثنا عيسى بن هشام قال: بينا أنا بمدينة السلام قافلا من البيت الحرام ، أميس مَيْس الرَّجْلة[6] ، على شاطئ الدّجلة ، أتأمّل تلك الطرائف، وأتقصّى تلك الزخارف، إذ انتهيت إلى حَلْقة رجال مزدحمين، يَلوى الطرَبُ أعناقهم ، ويشقّ الضحِك أشداقهم ، فساقنى الحِرْصُ إلى ما ساقهم ، حتى وقفتُ بمَسْمَع صوتِ رجل دون مَرْأى وجهه ، لشدّة الهَجْمَة ، وفَرْطِ الزّحمة ، وإذا هو قرّاد يُرْقِص قِردَه ، ويُضْحِك مَنْ عنده ، فرقصت رَقْص المحرج ، وسرت سيرَ

(١) فى المقامات : راكب فرس نافر هوس ، وفى ط : راكب شرس .
(٢) فى المقامات : المراكب . (٣) فى ط : العامة .
(٤) فى المقامات : ماشئت ، أى أن المال يجعل كل شىء حلالا . (٥) المقامات : ١٠٤ .
(٦) أميس : أتبختر ، والرجلة : نوع من البقل .

الأعْرج ، فوق أعناق الناس ، يلفِظُني عاتِقٌ هذا لِسُرَّة ذاك ، حتى افترشت لِحْيةَ رجلين ، وقعدت بين اثنين[١] ، وقد أشرقَني الخجل بريقه ، وأرهقني المكانُ لضيقه ، فلما فرغ القرّادُ من شُغْله ، وانتفض المجلس عن أهله ، قمت وقد كساني الرّيب[٢] حُلَّته ، ووقفت لأرى صورتَه ، فإذا أبو الفتح الإسكندري ، فقلت : ما هذه الدناءة ؟ ويحك ! فقال :

الذنبُ للأيام لا لِي ... فاعْتِبْ على صَرْفِ اللّيالي
بالحُمْقِ أدركْتُ المُنَى ... ورَفَلْتُ في ثَوْبِ الجَمالِ

المقامة الأصفهانية

ومن إنشائه في هذا الباب أيضاً[٣] : حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت بأصفهان أعتَزِم السيرَ إلى الرَّيّ ، فحللتها حلولَ الفَيّ ، أتوقّع القُفْلَة[٤] كل لَمْحة ، وأترقّب الرِّحْلة كلّ صَبْحَة ؛ فلما حُمّ ما توقّعته ، وأزِف ما ترقّبته ، نُودِي للصلاة نداء سمعتُه ، وتعيّن فَرْضُ الإجابة ؛ فانسلَلْتُ من بين الصحابة ، أغتنم الجماعة أُدْرِكها ، وأخشى فواتَ القافلة أتْرُكها ، لكني استعنتُ ببركة الصلاة على وَعْثاء الفَلاة ؛ فصِرْتُ إلى أولِ الصفوف ، ومَثَلْتُ للوقوف ، وتقدّم الإمام للمِحْراب ، وقرأ فاتحةَ الكتاب ، [وثَنّى بالأحزاب][٥] ، بقراءة حمزة ، مَدّةً وهمزة ، وأتبع الفاتحة بالواقعة ، وأنا أتصلّى بنار الصبر وأتصلّب ، وأتقلّى على جمر الغيظ وأتقلّب ؛ وليس إلا السكوت والصبر ، أو الكلامُ والقبر ، لِما عرفت من خشونة القوم في ذلك المقام ، أنْ لو قطعتُ الصلاة دون السلام ، فوقفتُ بقدَمِ الضرورة على تلك الصورة ، إلى انتهاء السورة ، وقد قَنِطْت من القافلة ، ويَئِسْتُ من الراحلة ، ثم حنى قَوْسَه للركوع ، بنوعٍ من الخشوع ، وضربٍ من الخضوع ، لم أعهَدْه

(١) في المقامات : بعد الأين . (٢) في المقامات : الدهش . (٣) المقامات : ٥٧ .
(٤) في المقامات : القافلة ، أي الراحلة . (٥) زيادة ليست في المقامات .

قبل ذلك ، ثم رفع رأسه ويدَه ، وقال : سَمِعَ اللهُ لمن حمده ، وقام ، حتى ما شككتُ أنه نام ، ثم أكبَّ لوجهه ، فرفعت رأسي أنتهز فُرْصة ، فلم أرَ بين الصفوف فُرْجَة ، فعُدْت للسجود ، حتى كبَّر للقعود ، وقام للركعة الثانية ، وقرأ الفاتحة والقارعةَ ، قراءةً استوْفَى فيها عُمرَ الساعة ، واسترقَ[1] أرواح الجماعة ، فلما فرَغ من ركعتيه ، مال للتحية بأخْدَعَيْه ، فقلت : قد قرُب الفرج ، وآن المخرج ، فقام رجل فقال : مَنْ كان منكم يحبُّ الصحابة والجماعة ، فليُعِرْني سَمْعَه ساعة . قال عيسى بن هشام : فلزِمْتُ أرضى ، صيانةً لعرضى ، فقال : حقيق علىَّ ألَّا أقولَ على اللهِ إلا الحق ، قد جئتُكم ببشارة من نبيِّكم ، لكنى لا أؤدِّيها حتى يطهِّرَ اللهُ هذا المسجد من نذْلٍ يجحد نبُوَّته ، وعَادَى أُمَّته .

قال عيسى بن هشام : فربَطنى بالقيود ، وشدَّنى بالحبال السُّود ، ثم قال : رأيتُه صلى الله عليه وسلم [فى المنام][2] كالشمس تحت الغمام ، والبدر ليلة التَّمام ، يسيرُ والنجمُ يتْبَعه ، ويسحبُ الذَّيْل والملائكة ترْفعُه ، ثم علَّمنى دعاء ، وأوصانى أن أعلِّمَ ذلك أمَّته ، وقد كتبتُه فى هذه الأوراق بخَلوق ومسك ، وزعفران وسُك[3] ؛ فمن استوهَبَه منى وهبتُه ، ومن أعطَى ثمنَ القِرْطَاس أخذته .

قال عيسى بن هشام : فانثَالَتْ عليه الدراهم ، حتى حيَّرْنه ؛ ونظرت فإذا شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ، فقلت : كيف اهتديت إلى هــذه الحيلة ؟ ومتى اندرجت فى هذه القبيلة ؟ فأنشأ يقول :

الناسُ حُمر فجَوِّزْ ... وابرزْ عليهم وبرِّزْ
حتى إذا نِلْتَ مِنهُمْ ... ما تشتهيه فَفَرْوِزْ[4]

---

(١) فى المقامات : واستنزف . (٢) من المقامات . (٣) السك : ضرب من الطيب .
(٤) فروز : مات ، أى فارق ولو بالموت .

[جارية ذات أدب وجمال]

وصفت لعبــــد الملك بن مروان جارية لرجل من الأنصار ذات أدب وجمال ، فساومه فى ابتياعها ، فامتنع وامتنعت ، وقالت : لا أحتاجُ للخلافة ولا أرغبُ فى الخليفة ، والذى أنا فى ملــكه أحبُّ إلىَّ من الأرض ومن فيها . فبلغ ذلك عبدالملك فأغراه بها ؛ فأضعف الثمن لصاحبها وأخذها قَسْرا ، فما أعجب بشىء إعجابه بها ؛ فلما وصلت إليه وصارت فى يديه أمرها بلزوم مَجْلِسه ، والقيام على رأسه ؛ فبينما هى عنــــده ، ومعه ابناهُ الوليد وسليمان ، قد أخلاها للمذاكرة ، فأقبل عليهما فقال : أىُّ بيت قالته العرب أمدح ؟ فقال الوليد : قول جرير فيك[1] :

أَلستُم خَــيْرَ من رَكِبَ المَطايا ... وأَندَى العــالمينَ بُطُونَ راحِ

وقال سليمان : بل قول الأخطل[2] :

شُمْسٌ العداوة حتى يُستقادَ لهم ... وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذَا قَدَرُوا

فقالت الجارية : بل أمدح بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت[3] :

يُغشَوْن حتى ما تَهِرّ كلابُهُمْ ... لا يَسْألون عن السَّــوادِ المُقْبِــلِ

فأطرق ، ثم قالَ : أى بيت قالته العرب أرَقّ ؟ فقال الوليد : قولُ جرير[4] :

إنّ العيونَ التى فى طَرْفِها حَوَرٌ ... قتَلْنَنَا ثم لم يُحْيِين قتــلانا

فقال سليمان : بل قولُ عمر بن أبى ربيعة :

حبّــذا رَجْعُها يديهــا إليها ... من يدىْ دِرْعها تَحُــلُّ الإزَارا

فقالت الجارية : بل بيت يقوله حسان[5] :

لو يَدِبّ الحولىّ من ولد الذ ... رّ عليهــا لأنْدَبَتْهَا الــكُلومُ

---

(١) الشعراء : ٤٣٩ . (٢) الشعراء : ٤٧٠ . (٣) الشعراء . ٢٦٥ .
(٤) الشعراء : ١٢ . (٥) ديوانه : ٣٧٧ .

فأطرق ثم قال : أى بيت قالته العرب أشجع ؟ فقال الوليد : قول عنترة[١] :

إذْ يتقّون بىَ الأسنّةَ لم أخِمْ　　　عنها ولو أنّى تضايقَ مُقْدَمى

فقال سليمان : بل قوله[٢] :

وأنا المنيةُ فى المواطن كلّها　　　فالموتُ منى سابقُ الآجالِ

فقالت الجارية : بل بيت يقوله كعب بن مالك[٣] :

نَصِلُ السيوف إذا قَصُرنَ بخطونا　　　قُدُماً ونلحقها إذا لم تلحقِ

فقال عبد الملك : أحسنتِ ، وما نرى شيئاً فى الإحسان إليك أبلغ من ردّك إلى أهلك . فأجمل كسوتها ، وأحسن صلتها ، وردّها إلى أهلها .

* * *

من النقد

ومثل قول كعب بن مالك قول نَهْشَل بن حَرِّىّ[٤] :

إنا بنى نَهْشَل لا نَدّعى لأبٍ　　　عنهُ ولا هو بالأبناء يَشْرينا

إن تُبْتَدر غايةٌ يوما لمكرمةٍ　　　تَلْقَ السوابقَ منّا والمُصَلّينا

إنّا لَمِنْ معشر أفنَى أوائلهم　　　قولُ الكماةِ ألا أينَ المحامونا

لوكان فى الألف مناواحدٌ فدَعَوا　　　مَنْ فارسٌ خالَهم إياه يَعْنُونا

إذا الكُماة تأبّوا[٥] أن ينالهمُ　　　حدُّ السيوفِ وصلناها بأيدينا

إنما أردت هذا البيت .

وقوله : * لو كان فى الألف منا واحد * أخذه من قول طرفة بن العبد[٦] :

إذا القوم قالوا مَن فتًى خِلْتُ أننى　　　عُنِيتُ فلم أكْسَلْ ولم أتبلّدِ

نهشل بن حرى

وكان نهشل شاعرا ظريفا ، وهو نَهْشَل بن حَرِّىّ بن ضَمْرَة بن جابر بن قَطَن ابن نَهْشَل بن دارم ، وكان اسم جده ضمرةَ هذا : شِقّة ، ورد على النعمان بن المنذر

---

(١) جمهرة أشعار العرب : ٤٦٠ . (٢) الشعراء : ٢٠٩ .
(٣) الشعراء : ٢٧٩ ، ونسبة إلى ربيعة بن مقروم وهو فى الخزانة : ٣ — ٢٢ ، والحماسة ١ — ١٠٦ منسوب إلى كعب بن مالك . (٤) الشعراء : ٦٢٠ ، والحماسة ١ — ٩٧ ، اللآلى : ٢٣٠ وفى ط : بن جرى . (٥) فى الحماسة : تنحوا أن يصيبهم حد الظباة .
(٦) الحماسة : ١ — ١٠٥ . اللسان — كى .

فقال : من أنت ؟ فقال : أنا شِقّة ، وكان قضيفا[1] نحيفا دميا ، فقال له النعمان : تَسْمَعُ بالمعيدىّ لا أن تراه. والمُعَيْدِى تصغير المعدى ، فذهبت مثلا ، فقال: أبيتَ اللعنَ! إن الرجال لا تُكال بالقُفزان ، وليست بمُسُوك يُسْتَقَى بها الغُدْرَان ، وإنمـــا المرء بأصغَرَيْه قلبه ولسانه ، إذا نطق نطق ببيان ، وإذا قاتل قاتل بجَنَانٍ ، فقال : أنت ضَمْرة ! ونَهشل هو القائل[2] :

ويومٍ كأنّ المُصْطَلين بِحَرِّهِ   وإن لم يكن نَجرٌ قيام على الجمر
أقمنا به حتى تجلّى وإنمـا   تُفَرَّج أيامُ الكريهة بالصّبْرِ

[أثر الشعر]

وكان عبدُ الملك يقول : يا بنى أمية ، أحسابُكم أعراضُكم ، لا تعرضوها على الجهال ، فإنّ الذمّ باقٍ ما بقىَ الدهر ؛ والله ما سرّنى أنى هُجيت ببيت الأعشى ، وإن لى طلاعَ الأرض ذَهَبا[3] ، وهو قوله فى عَلْقمة بن عُلاثة :

يبيتون فى المَشْتَى مِلاء بطونُهم   وجاراتُهم غَرْثَى يَبِتْنَ خمائصا

والله ما يبالى من مُدح بهذين البيتين ألا يمدح بغيرهما وهما قول زهير[4] :

هنالك إن يُسْتَخْبَلُوا[5] المـالَ يخبلوا   وإن يُسْألُوا يعطوا وإن يَيْسَروا يُغْلُوا
على مُكْثِريهم حَقٌّ من يَعْتَرِيهمُ   وعند المُقِلِّينَ السماحةُ والبَذْلُ

وقال ابنُ الأعرابى : أمدحُ بيتٍ قاله المحدثون قول أبى نواس[6] :

أخذتُ بحَبْلٍ من حبال محمدٍ   أمِنْتُ به من طارقِ الحَدَثانِ
[7][تغطيت من دهرى بظل جناحه   فعينى ترى دهرى وليس يرانى
فلو تسأل الأيام عنى ما دَرَتْ   وأين مكانى ما عرفْنَ مكانى

---

(١) قضيفا : نحيفا . (٢) الشعراء : ٦١٩ . (٣) طلاع الأرض : ملؤها .
(٤) ديوانه : ١١٢ . (٥) الاستخبال : أن يستعير الرجل من الرجل إبلا فيشرب ألبانها وينتفع بأوبارها . (٦) الشعراء : ٨٠١ .
(٧) من هذا البيت إلى آخر الكتاب من ا ، م .

وهذا كقول أعرابي ذكر بعضُ الرواة أن مالك بن طوق كان جالساً في بهو مطلّ على رحبته ومعه جلساؤه إذ أقبل أعرابي تخُبّ به ناقته فقال: إياي أراد ونحوي قصد، ولعل عنده أدباً يُنتفع به. فأمر حاجبه بإدخاله، فلما مثل بين يديه قال: ما أقدمك يا أعرابي؟ قال: الأمل في سَيْب الأمير والرجاء لنائله. قال: فهل قدّمت أمام رغبتك وسيلة! قال: نعم. أربعة أبيات قلتها بظهر البرية؛ فلما رأيت ما بباب الأمير من الأبّهة والجلالة استصغرتها. قال: فهل لك أن تنشدنا أبياتك! ولك أربعةُ آلاف درهم؛ فإن كانت أبياتُك أحسن فقد ربحنا عليك، وإلا قد نلتَ مرادك وربحتَ علينا. قال: قد رضيت. فأنشده:

وما زلتُ أخشى الدهر حتى تعلقت ... يداي بمن لا يتقي الدهرَ صاحبه

فلما رآني الدهر تحت جناحه ... رأى مرتقًى صعبا منيعا مطالبُهْ

وإني بحيث النجمُ في رأس باذخ ... تظل الورى أكنافُه وجوانبُهْ

فتى كسماء الغيث والناسُ حولَه ... إذا أجدبوا جادتْ عليهم سحائبُهْ

قال: قد ظفرنا بك يا أعرابي، والله ما قيمتُها إلا عشرة آلاف درهم. قال: فإن لي صاحبا شاركته فيها ما أراه يرضى ببيعي. قال: أتُراك حدّثت نفسك بالنكث؟ قال: نعم. وجدتُ النكث في البيع أيسرَ من خيانة الشريك. فأمر له بها.

[أنصف بيت وأصدق بيت]

وأنصفُ بيت قالته العربُ قول حسان بن ثابت لأبي سفيان بن الحارث في جوابه عما هجا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وروى محمد بن عمار عن أبيه قال: أنشد النبيّ حسانُ بن ثابت قوله(١):

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

فقال النبيّ عليه السلام: جزاؤك الجنة يا حسّان.

فلما انتهى إلى قوله(٢):

فإنّ أبي ووالدَه وعِرْضي ... لعِرْض محمد منكمْ وقاء

(١) ديوانه: ٨. (٢) ديوانه: ٩.

قال النبيّ عليه السلام : وقاك الله حرّ النار .

فلما قال[1] :

أتهجوه ولستَ له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

قال مَنْ حضر : هذا أنصفُ بيت قالته العرب .

وأصدق بيت قالته العرب وأمدحُه قول كعب بن زهير في رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] :

تحمله الناقة الأدماء معتجرا ... بالبُرْدِ كالبدر جلّى ليلة الظُلَم

وفي عطافيه أو أثناء بُرْدَته ... ما يعلم الله مِنْ دِينٍ ومِنْ كَرَم

قال الأصمعي : والجهال يروون هذا البيت لأبي دهبل، واسمه وهبُ بن رَبيعة في عبد الله بن عبد الرحمن الأزرق والي اليمامة[3] . والصواب ما ذكرناه وهو بصفات النبيّ صلى الله عليه وسلم أعلق وبمدحه أليق .

ألفاظ لأهلِ العصر في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم

سليل أكرم نَبْعة ، وقريع أشرف بقعة . جاب بأمّته الظلمات إلى النور ، وأفاء عليهم بالظلّ بعد الحَرور . وهو خِيرَة الله من خلقه ، وحجّته في أرضه . الهادي إلى حقّه، والمُنبّه على حكمه ، والداعي إلى رُشدِه ، والآخذُ بفرضه . مباركٌ مولده ، سعيد غرّته ، قاطعةٌ حجّتُه ، ساميةٌ درجتُه ، ساطع صباحُه ، متوقّد مصباحُه ، مظفّرةٌ حروبُه ، ميسّرةٌ خطوبُه ، قد أفردَ بالزعامة وحده ، وختِمَ بأن لا نبيّ بعده .

يُفصَح بتِذكاره على المنابر ، وبالصلاة عليــه في المحاضر ، وتعمر بذكره صدورُ المساجد ، وتستوي في الانقياد له حالة المقرّ والجاحد .

آخر الأنبياء في الدنيا عمرا ، وأولهم يوم القيامة ذكرا، وأرجحهم عند الله ميزانا، وأوضحهم حجّة وبرهانا . صدعَ بالرسالة ، وبلغ بالدلالة ، ونقل النــاس عن طاعة الشيطان الرجيم .

(١) ديوانه : ٨ . (٢) لم نقف عليهما في ديوانه . (٣) في ا : اليمن .

أرسله الله قرآً للإسلام منيرا ، وقدراً على أهل الضلال مبيرا . صلى الله عليه وسلم، خير من افتتحت بذكره الدعوات، واستنجحت بالصلاة عليه الطلبات . خير مبعوث وأفضل وارث وموروث. وخير مولود دعا إلى خير معبود . صلى الله على كاشف الغمّة عن الأمة.

الناطق فيهم بالحكمة ، الصادع بالحق ، الداعى إلى الصدق الذى ملك هوادى الهدى، ودلّ على ما هو خيرٌ وأبقى . صلى الله عليه بشير الرحمة والثواب، ونذير السطوة والعقاب.

صلى الله على أتمّ بريته خيراً وفضلا ، وأطيبهم فرعا وأصلا ، وأكرمهم عودا ونجارا، وأعلاهم منصبا وفخارا ، وعلى أهله الذين عظّمهم توقيرا وطهّرهم تطهيرا. هم مقاليد السعادة ومفاتيحها ، ومدارجُ البركة ومصابيحُها .

أعلام الإسلام وأيمان الإيمان . الطيبون الأخيار ، الطاهرون الأبرار . الذين أذهب عنهم الأرجاس ، وجعل مودتهم واجبةً على الناس .

هم حَبْل الهدى، وشجرة الإيمان ، أصلها نبوّة وفرعها مروّة ، وأغصانها تنزيل، وورقاتُها تأويل ، وخدمها ميكال وجبريل .

ولبديع الزمان إلى بعض الأشراف فى درْج كلام تقدّم : ولبديع الزمان

إن جعلنا تمدّ نغارَكم وتحُدّ آثاركم نفد الحصا قبل نفودها ، وفنيت الخواطرُ قبل أن تفنى المآثر ، ولم لا ؟ وإن ذُكِر الشرف فأنتم بنو نجدته ، أو العلم فأنتم عاقدو إزرته . أو الدين فأنتم ساكنو بلدته ، أو الجود فأنتم لابسو جلدته، أو التواضع صبرتم لشدّته ، أو الرأى صلتم بحدّته ، وإنّ بيتاً تولّى الله عز وجل بناءه ، ومهّدَ الرسولُ عليه السلام فناءه ، وأقام الوصىّ رضوان الله عليه عمادَه ، وخدم جبريلُ عليه السلام أهله ، لحقيق أن يُصانَ عن مدح لسانٍ قصير .

وذكر النبىّ صلى الله عليه وسلم أعرابىّ فقال : بأبى وأمى رسول العالمين ، خُتِمت به الدنيا ، وفتحت به الآخرة صلى الله عليه وسلم ، به يبدأُ الذكرُ الجميلُ ويختم . ولأعرابى

إلى هذا المكان أمسكت العنان . والإطناب فى هذا الكتاب يعظم ويتّسع ، بل يتصل ولا ينقطع ، إذ كان غرضى فيه أن ألمع المعنى من معانيه ، ثم أتجرّ معه خاتمة الكتاب

حيث انجرّ ، وأمرّ فيه كيف مرّ ، وآخذ في معنى آخر غير موصول بشكله ، ولا مقرون بمثله ، وقد أخل نظاما ، وأفرد توأما ، نشرّ البساط الانبساط ، ورغبة في استدعاء النشاط .

وهذا التصنيف لا تُدرك غايتُه ، ولا تُبلغ نهايتُه ؛ إذا المعانى غير محصورة بعدد ، ولا مقصورة إلى أمد . وقد أبرزْتُ في الصدر صفحةَ العُذْر ، يجولُ فِرنْدُها ، ويثقبُ زندها ، وذلك أنى ما ادّعيتُ فيما أثبتُ إلا ما يكون ما تركته أفضل مما أدركتُه ، وإنى لم أسلك مذهبا مخترعا لم أُسبَق إليه ، ولا قصدت غرضاً مبتدَعا لم أغلَبْ عليه ، ومن ركب مطيّة الاعتذار ، واجتنب خطيّة الإصرار فقد خرج من تَبِعة التقصير ، وبرئ من عهدة المعاذير .

وأما بعد فإن أحقّ من احتُكِم إليه واقتصِر عليه الاعترافُ بفضل الإنصاف ، وليعلم من يُنصِف أن الاختيارَ ليس يعلم ضرورة ، ولا يوقَف له على صورة ، فيكثر الإغماض ويقل الاعتراض ، ويعلم أنّ ما لا يقع بهواه قدْ يختاره سواه ، وكلٌّ يُعمل اقتدارَه ، ويحسن اختياره ، فلو وقع الاجتماع على ما يُرْضِى ويُسخِط ويثبّتُ ويسقطُ لارتفع حجاجُ المختلفين في أمر الدنيا والدين .

وقال المتنبي[1] :

تخالفَ الناسُ حتى لا اتّفاقَ لهم ... إلا على شَجَبٍ والخلف في الشَّجَبِ
فقيـــل تخلص نفسُ المرء سالمةً ... وقيل تشرك جسم المرء في العطب

الشجب : الموت ، وهى لفظة معروفة وإن كانت غير مألوفة عند أهل النقد . وقد أنكرها البحترى على عبيد الله بن عبدالله بن طاهر في مجاذبته إيّاه حيث يقول[2] :

لو أنّ ذا الحكيم وازن في الـ ... لفظِ واختار لم يقل شجبُه

وكأن أبو الطيب نظر إلى ما رواه أبو ظبيان[3] . قال : اجتمع نفرٌ من أهل الكلام على رجل من الملحدين ، فجعلوا لا يأتون بمسألة إلا سألهم الدليل عليها ، وناقضهم فيها ، فأعياهم كثرةُ ما يقول ويقولون . فقال بعضهم : أما بعد فإن الموت لا شك فيه . فقال الملحد : ما رأيتُ خاطبا وواعظا وشاهدا لا يُرَدّ أوجز منه . وقلما ترى معنى

---

(١) ديوانه : ١ — ٩٠ . (٢) ديوانه : ١ — ١٣٣ . (٣) في ا : طيبان .

إلا وهو يدافَع أو يناقَض ويُحَارُ به عن سواه الحجّة . وقيل : من طلب عيباً وجده قال أبو عمرو بن سعيد القطّربلي : ليس من بيتٍ إلا وفيه لطاعنٍ مطمن ، إلا قول الحطيئة :

مَنْ يفعل الخيْرَ لا يعدم جَوَازِيه لا يَذْهَبُ العُرْفُ بين الله والناس

وقول طرفة بن العبد :

ستُبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

وقول عليّ بن زيد :

عن المرء لا تسَلْ وسَلْ عن قرينه فكل قرينٍ بالمقارنِ مقتدِ

والعلم بذلك قال قتيبة بن مسلم لأبي عيّاشٍ المتوق ، وقد دخل عليه وبين يديه سلّة زعفران : أنشدني بيتاً لا يصارف ولا يكذّب وهي لك ، فأنشده ما ليس لطاعن فيه مطمن :

فما حملت من ناقةٍ فوق كورها أبرّ وأوفى ذمّةً من محمدِ

صلى الله عليه وسلم ورحم وكرّم وشرّف وعظّم ، وعلى آله الطيبين وسلم تسليما][1] .

(١) من صفحة ١٠٨٨ إلى هنا لم يكن في النسخة المطبوعة (ط) وهو من م ، ا .

في آخر : م

« تمّ السفر الرابع من كتاب « زهر الآداب » وبتمامه كمل الديوان . والحمد لله وحده وهو حسبي ونعم الوكيل . وكان تمامه في شهر صفر سنة أربع وعشرين وخمسمائة » .

وفي آخر : ا

« كمل كتاب « زهر الآداب ، وثمر الألباب » صنعة أبي إسحاق إبراهيم ابن علي الأنصاري ثم القيرواني ، وذلك في غرة شعبان المكرم عام ثمانية وعشرين وستمائة » .

فهارس الكتاب

فهرس الموضوعات *

* ما وضع قبله هذه العلامة * من العناوين فهو من وضع المؤلف، وما عدا ذلك فهو من وضعنا.

فهرس الأعلام والقبائل والأمكنة

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ن)

٣ – فهرس القوافى والشعراء